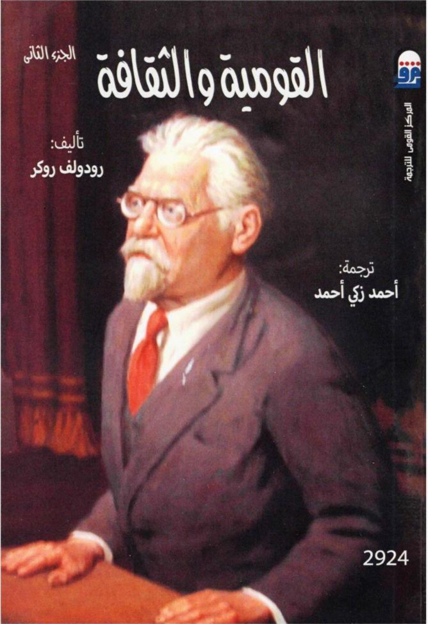


الجزء الثانى
القومية والثقافة
تأليف:
رودولف روكر
ترجمة:
أحمد زكي أحمد
المركز القومى للترجمة
2924

القومية والثقافة

الجزء الثاني

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2924
- القومية والثقافة (الجزء الثانى)
- رودولف روكر
- أحمد زكى أحمد
- الطبعة الأولى 2018

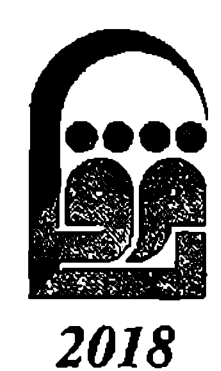
هذه ترجمة كتاب:
Nationalism And Culture
By: Rudolf Rocker

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

القومية والثقافة

الجزء الثاني

تأليف : رودولف روكر
ترجمة : أحمد زكى أحمد



2018

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

روكر رودولف
القومية والثقافة ج٢ / تأليف: رودولف روكر ؛ ترجمة: أحمد زكى أحمد،– القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٨
٥٠٨ ص، ٢٤ سم
١ – القومية.
٢ – الثقافة.
(أ) أحمد، أحمد زكى (مترجم)
(ب) العنوان ٣٢٠,٥٤

رقم الإيداع / ٢٠١٧/٢١٨٨٧

الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978-977- 92 - 1249- 4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الفصل الأول

الأمة كجماعة الأخلاق والعرف والمصالح

المفهوم القومي عبر الزمان. الأمة كجماعة منحدرة من سلالة. الأمة كجماعة المصلحة. تقسيم الأمة إلى طوائف، ورتب وطبقات. المصلحة القومية والمصلحة الطبقية. الصدام في الرور. "السياسة القومية" عند بوانكاريه (*POINCARE*). معاملات الصناعة الثقيلة الألمانية مع "العدو الوراثي" ضد عمال ألمانيا. "جماعة الناس" في العمل. المتقاعدون في الجمهورية الألمانية. الأمة كجماعة للمصلحة الروحانية. الصدامات الدينية والحزبية. تناقضات الفلسفة العالمية. الأمة كجماعة الأخلاق والأعراف. المدينة والريف. الغني والفقير. التقاليد القومية. عضوية في الأمة كنتيجة للجهود السياسية. شمال أمريكا وجنوبها. الأمة كجماعة.

مر مفهوم الأمة والجنسية في مجرى الزمن بعديد من التغيرات، ويمتلك المفهوم حتى اليوم المعنى المزدوج نفسه، الذي يمتلكه مفهوم جنس من الأجناس. أثناء العصور الوسطى كان يُطلق على اتحادات طلبة الجامعة من مواطني بلد من البلدان اسم الأمم. كانت جامعة براغ المشهورة مقسمة إلى "أربع أمم": البافاريون والبوهيميون [من بوهيميا] والبولنديون والساكسون. نستخدم في الحديث مرارا الإشارة إلى أمة الأطباء وأمة الحدادين وأمة المحامين وهلم جرا. بل إن "لوثر" قد وضع تمييزا قصديا بين جماعة الناس والأمة في منشوره "إلى النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية" (***To the Christian Nobility of the German Nation***) ليخص كأمة أولئك الذين يحوزون السلطة السياسية بشكل حصري- أي أمة الأمراء والفرسان

والأساقفة– في تباين مضاد مع عوام الناس(•). ساد هذا التمييز لوقت طويل حتى بدأ الخط الفاصل بين الأمة والناس يختفي لغويا. والتصقت مرارا نكهة كريهة بمفهوم الأمة. ولهذا دافع "لودفيج يان" (*Ludwig Jahn*) عن هذه الفكرة في عمله "الأساليب الشعبية الألمانية" (*German Folkways*):

> **ذلك الذي كان فعلا الأعلى ومحل الاعتبار في اليونان وروما بقي معنا مصطلح إهانة وتحقير: العامة والأمة! "ومضى بين العوام" العبارة التي تقال عن الهاربين البؤساء الذين فروا من وجه ضابط التجنيد من أجل النقود، والذين سوف يخدمون سبعة ملوك في زوج واحد من الأحذية. "تلك هي الأمة العادية"، تُقال في اللغة العامية تعبيرًا من الغجر والمتشردين اللصوص والصعاليك والباعة الجائلين من اليهود.**

قد كان عصر يصبح فيه المرء راضيا باستخدام مصطلح "أمة" لمجتمع بشري وُلِد أعضاؤه في المكان نفسه؛ وبالتالي يرتبطون معا بعلاقات اجتماعية أصلية. يتطابق هذا المفهوم بأحسن صورة مع معنى الكلمة اللاتينية "*natio*" التي يُشتَق منها مفردة "الأمة" بالإنجليزية (*nation*). ويصبح ذلك مفهوما تماما حيث إن الكلمة مؤسَّسة على الفكرة المحدودة أكثر للبيت. ولكن هذا المفهوم لا يتطابق مع الفكرة المعاصرة للأمة، ولا ينسجم مع المساعي القومية في الزمن الحاضر، التي تبحث عن إعطاء الأمم أوسع حدود ممكنة. هل تشمل الأمة في الواقع فقط ذلك الجوار الذي رأى فيه الإنسان الضوء لأول مرة، وهل يُعرَّف الوعي القومي فقط كشعور طبيعي من الارتباط بين بشر قد اندمجوا في مجتمع واحد، كونهم مولودين في مكان واحد، إذًا فنحن لا نستطيع الحديث عن ألمان وفرنسيين وأتراك ويابانيين ولكن على الأقصى نتحدث عن هامبورجيين وباريسيين وأمستردامين أو فينيسيين – وهي حالة وجدت فعلاً في الجمهوريات والمدن اليونانية والمجتمعات الفدرالية في العصور الوسطى.

(•) استخدم الجبرتي الطريقة نفسها في تواريخه، حيث يذكر الحكام المماليك باسم "الأمراء المصرية أو المصرلية" بينما يأتي على ذكر الشعب بالفلاحين في الريف، أو عوام الناس وأهل الطوائف في المدن. [المترجم]

لاحقا، أصبح مفهوم الأمة أعرض كثيرا، يشمل مجموعات بشرية تطورت عبر مجتمع من المصالح المادية والروحية ومن الأخلاقيات والأعراف والتقاليد؛ ومن هنا هو يمثل نوعا من "مجتمع الأقدار"، الذي يحمل داخل ذاته قوانين حياته الخاصة. هذا المفهوم تقريبا ليس واضحا وضوح سابقه الأول؛ وأكثر من ذلك يتصادم مع الخبرات اليومية للحياة. تحتوي كل أمة اليوم أقصى ما يمكن من طوائف وحالات وطبقات وأحزاب شتى. تلك المكونات لا تسعى فقط خلف مصالحها المنفصلة ولكنها مرارا تواجه بعضها البعض في تناقض واضح المعالم. والنتائج لا حصر لها، وصراعات لا تنتهي أبدا، وتناقضات داخلية يصبح التغلب عليها أصعب بشكل مطلق من التغلب على الحروب المؤقتة بين مختلف الدول والأمم.

الأمم نفسها التي واجهت فقط في الأمس بعضها البعض في "ساحة الشرف"، مسلحة حتى أسنانها لتسوية متاعبها الحقيقية أو المُتخيلة بحروب دموية، في الغد أو بعد الغد بعد عقد تحالفات دفاعية أو هجومية مع أعدائهم السابقين ضد أمم أخرى كانوا سابقا حلفاء لهم بواسطة اتفاقات تجارية أو معاهدات سياسية أو عسكرية الطابع. ولكن الحرب بين الطبقات المختلفة داخل الأمة نفسها لا يمكنها أبدا أن تنتهي ما دامت تلك الطبقات نفسها قائمة، وتشطر الأمة بالتناقضات السياسية والاقتصادية الأبدية. بل وحتى عندما يتم التغلب ظاهريا أو يتم مؤقتا تجنب التناقضات الطبقية في ظل ظروف غير عادية أو تحت وطأة أحداث كارثية مثلما حدث مع إعلان ما يُسمى "سلام المواطنين" (*citizens' peace*) خلال الحرب العالمية [الأولى]، فقد كان ذلك مجرد ظاهرة عابرة ، نشأت من ضغط الظروف، ومعناها الحقيقي لم يتضح قط لجموع الناس الغفيرة. لا تمتلك مثل هذه التحالفات ديمومة، وتتهشم شذرا مذرا عند أول فرصة تفتقد فيها الرابطة الداخلية الحقيقية لمصالح المجتمع. ربما يصبح نظام الحكومة المتجبر قادرا على منع النشوب الصريح للصراعات الداخلية كما حدث حاليا في إيطاليا وألمانيا؛ ولكن المرء لا يلغي الصراعات الداخلية بمنع الناس من الحديث عنها.

إلا أن حب رجل الأعمال لأمته الخاصة لم يمنعه قط من استخدام العمالة الأجنبية إذا ما كانت أرخص وتجلب له مزيدًا من الأرباح. وسواء تسبب ذلك في الضرر لشعبه الخاص أم لا، فذلك لا يعنيه بأقل القليل؛ الربح الشخصي هو العامل الحاسم في مثل هذا الأمر، وما تُسمى المصالح القومية هو محل نظر فقط عندما لا يصطدم بالمصالح الشخصية. عندما يوجد مثل هذا التضارب كل الحماسة الوطنية تتلاشى. تلقت ألمانيا درسا متعلقا بطبيعة ما تُسدى "المصالح القومية" خلال السنوات الرهيبة التي تلت الحرب لا يمكن بسهولة الخطأ في فهمه.

وجدت ألمانيا نفسها بعد خسارة الحرب في وضع ميئوس منه. كان عليها التخلي عن مجالات اقتصادية ذات أهمية عظيمة، وخسرت تقريبا بشكل كامل تجارة صادراتها. ويُضاف إلى ذلك وصاية قاسية من المنتصرين على الاقتصاد وتحطيم النظام القديم. ولو كان لشعار الوحدة الوطنية أي معنى على الإطلاق لكان عليه أن يبرهن في هذه المرحلة أن الأمة تتوجه عن عمد لمواجهة الظروف الناشئة الجديدة فعليا بشكل موحد لتوزيع حمولة سوء الحظ بالتساوي على كل أقسام السكان. ولكن ذلك لم يدخل عقول الطبقات المالكة أبدا. على العكس، لقد حاولوا جني أرباح من هذا الوضع. ينحني هؤلاء الوطنيون فقط أمام المغنم حتى رغم أن قطاعات واسعة من شعبهم سوف تسقط في هوة الإفقار بذلك.

كان ممثلو اليونكر البروسيون والصناعة الألمانية الثقيلة هم من دافعوا سرا عن سياسات الإلحاق الأكثر تهورا أثناء سنوات الحرب المرعبة، وبسبب جشعهم الذي لا يشبع جلبوا كارثة الهزيمة المروعة. وهم من اتبعوا الغايات نفسها بعد انتهاء الحرب دون رضا بالأرباح الهائلة التي حققوها أثناء سنوات الحرب تلك ، ولم يضعوا في حسبانهم للحظة قط أن يتنازلوا للأمة عن بنس واحد من مكاسبهم. تخفف ملاك الصناعات الثقيلة في ألمانيا من عبء ضرائبهم، بينما كانت تُخصم الضرائب من أجور حتى أفقر العمال. لقد رفعوا ثمن الفحم إلى مستويات غير مسبوقة بينما الأمة تتجمد أمام المواقد الباردة. لقد عرفوا كيف يجنون الأرباح الهائلة من أوراق

ائتمان بنك الرايخ (*Reichsbank*). (إنها بالضبط هذه المضاربة على الأزمة النقدية التي كانوا قد سببوها سلفا، والتي أعطت للصناعة الثقيلة القوة لتأكيد حكمها على الأمة الجائعة). ممثلو الصناعة الثقيلة تحت قيادة "هيجو ستينيس" (*Hugo Stinnes*) تسببوا فعلا في احتلال منطقة "الرور" (*Ruhr*) ليتسببوا في خسارة الأمة الألمانية لخمسة عشر بليونا من الماركات الذهبية التي لم يسهم رجال الصناعة أولئك فيها ببنس واحد.

صراع "الرور" في مراحل تطوره المتنوعة هو تصوير رائع لسياسة "المصلحة" الرأسمالية كخلفية للأيديولوجية القومية. لم يكن احتلال الرور سوى استمرار لسياسة الحكم المجرمة نفسها التي أدت إلى الحرب العالمية [الأولى] ولمدة أربع سنوات تسببت في جر الشعب إلى الخراب والدمار. يتعلق هذا الصراع بشكل حصري بتناقض المصالح بين الصناعة الثقيلة في كل من ألمانيا وفرنسا. بالضبط كما كان رجال الصناعة الألمانية الكبار خلال الحرب هم المدافعون الأعلى صوتا عن فكرة الإلحاق وضم منطقة "بريي–لونجي" (*Briey-Longwy*) كواحدة من المواضيع الرئيسية للدعاية الألمانية، وهكذا لاحقا اتبعت سياسة "بوانكاريه" (Poincare)(•) القومية الخط نفسه، ومثلت رغبة غير مخفية لإلحاق الصناعة الفرنسية الثقيلة وتنظيمها القوي، "لجنة الصناعة المعدنية" (*Forges Comité des*). نفس الحسنة التي سعى نحوها رجال الصناعة الكبار في ألمانيا، تلقفها ممثلو الصناعة الثقيلة في فرنسا وحرفيا أرادوا خلق احتكارات معينة في القارة تحت إدارة جماعات رأسمالية خاصة، من أجلها كان ما تُسمى "المصالح الوطنية" دائما في خدمتهم كحصان المراهنة لصالح أعمالهم التجارية التي لا ترحم. لقد كان اتحاد مناجم اللورين مع مناجم فحم حوض نهر الرور هو شكل الاندماج الذي خططت له

(•) ريمون بوانكاريه (١٨٦٠-١٩٣٤) رجل دولة فرنسي، خدم ثلاث مرات رئيسا لوزراء فرنسا، ورئيسا لفرنسا من ١٩١٣ إلى ١٩٢٠. كان محافظا، ومواقفه مناهضة بشدة لألمانيا، وفي مؤتمر باريس للسلام، أيد إعادة احتلال منطقة الراين، وقام به في عام ١٩٢٣ كرئيس للوزراء. [المترجم]

الصناعة الثقيلة الفرنسية، لقد كان هذا الاتحاد هو الذي أمَّن لرجال الصناعة احتكارا غير محدود في القارة. وحيث إن مصالح الصناعيين الكبار تناغمت مع مصالح الرابحين من التعويضات، وكانت هذه المصالح محل تفضيل طائفة العسكر، لذا عملوا من هذه الناحية بكل وسيلة لاحتلال الرور.

ولكن قبل أن تمضي الخطة بعيدا دارت مفاوضات بين الصناعات الثقيلة في كلٍ من ألمانيا وفرنسا من أجل إيجاد حلٍ للمسألة في صورة سلمية شبيهة بالحلول التجارية البحتة، به يغنم كلاهما ربحا منسوبا لقواهما. كان مثل هذا الفهم فعليا قابلاً للتحقق حيث إن رجال الصناعة الكبار في ألمانيا لا يلقون بالا لمصلحة الرايخ القومية ما دامت ظلت أرباحهم مؤمَّنة. إلا أن مالكي مناجم الفحم البريطانيين الذين سوف يمثل الاندماج في القارة ضربة شديدة لهم، قدموا بلا شك للألمان وعودا بمزايا أفضل؛ لهذا فجأة أعاد رجال الصناعة الألمان اكتشاف وطنية قلوبهم، وتركوا عملية احتلال رقعة الأرض تمضي قدما. وقد انضم لهم عمال وموظفو المكاتب الحكومية، الذين نتيجة جهلهم بالصلات الداخلية، سمحوا باستخدامهم مرة أخرى لمصلحة ساداتهم ونظموا مقاومة سلبية، ونفخت الصحافة المملوكة "لستينيس" في البوق الوطني بقوة من أجل استثارة كراهية البلاد ضد العدو الفرنسي الوراثي. عندما انهارت المقاومة، لم يمهل "ستينيس" وملاك الصناعة الألمان الآخرون حكومة "ستريسمان" (*Stresemann*)(•) ولكنهم تعاملوا مباشرة مع الفرنسيين. في الخامس من أكتوبر ١٩٢٣ تقابل "ستينيس" و"كليوكنر" (*knerö Kli*) و"فيلسن" (*Velsen*) و"فوجلر" (*glerö V*) مع الجنرال الفرنسي "ديجوت" (*Degoutte*) وحاولوا إقناعه بفرض عشر ساعات عمل في اليوم على العمال الألمان الذين كانوا بالأمس فقط حلفاءهم في المقاومة السلبية ضد الوزارة الفرنسية. هل في الإمكان وجود تصوير أفضل للأمة كجماعة مصالح؟(١)

(•) جوستاف ستريسمان (١٨٧٨-١٩٢٩) سياسي ألماني ورجل دولة شغل منصب المستشار في عام ١٩٢٣ (لفترة وجيزة لمدة ١٠٢ يوم) ووزير خارجية ١٩٢٣-١٩٢٩، خلال جمهورية فايمار. الإنجاز الأبرز له هو المصالحة بين ألمانيا وفرنسا. هو وأريستيد بريان حصلا على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٢٦. كان قائدا بارزا في حزب الشعب الألماني خلال جمهورية فايمار. [المترجم]

أمسك "بوانكاريه" بفشل ألمانيا المزعوم في توريدات الفحم كمبــرر للــسماح للقوات الفرنسية بالتوجه إلى الرور. ذلك كان بالطبع مجرد مسوغ لإعطاء إغــارات لصوصية صريحة مظهر المشروعية، كما برهنت على ذلــك بوضـــوح حقيقــة أن فرنسا كانت في ذلك الوقت أغنى بالفحم من أي أرض أخرى في أوروبــا، ماعــدا إنجلترا التي كانت الاستثناء الوحيد. بل حتى لقد رأت الحكومــة الفرنــسية نفــسها مضطرة لفرض جمارك أعلى ١٠٪ على فحم منطقة "السار" (*Saar*) من أجل حماية الفحم الفرنسي في السوق الداخلي. الحقيقة هي أن ٢٠٪ من هذا الفحم كــان يُرسَــل مرة أخرى إلى ألمانيا، وفقط ٣٥٪ منه كان يُستخدَم في الصناعة الفرنسية.

من الناحية الأخرى، كان رجال الــصناعة الكبــار فــي ألمانيــا وحلفــاؤهم المدافعون بقسوة لا ترحم عن مصالحهم الخاصة قد فعلوا كل شيء لتــصبح اللعبــة أيسر على الحكومة الفرنسية. لقد كانوا هم الذين عارضوا معارضـــة مريــرة كــل محاولات جلب الاستقرار للمارك الألماني، حيث إنهم بواسطة التــضخم اســتطاعوا بكل الراحة تخريب النظام الضريبي على مصانعهم وعلى أصولهم العقارية الكبيــرة، وإلقاء العبء على كاهل عمال بلادهم نفسها. نتيجة لتلك الآليات السوداء لم يــنهض فقط جيش كامل من مضاربي العملة والمتربحين الآخرين الذين جمعوا مغانم هائلــة من البؤس الوحشي للجموع، ولكن أُعطيت الفرصة لفرنسا حتى تغنم ميزات زائــدة من الضائقة النقدية الألمانية. وهكذا، طبقا لشهادة وزير الماليــة الفرنــسي الــسابق، "لاستيري" (*Lasteyrie*) سلمت ألمانيا لفرنسا بنهاية ســبتمبر ١٩٢١ وقــودا بقيمــة ٢٥٧١ مليون فرنك، ونتيجة لانخفاض المارك استحقت الكميــة فقــط ٩٨٠ مليــون فرنك. وهكذا قامت وكالات الأعمال التجارية للوطنيين الأخيــار الألمــان بتوريــد مصدر خاص من الدخل للعدو "الوراثي" على حساب الاستغلال الهائل للعمال الألمان وانهيار أوضاع الطبقة الوسطى.

لكن مع انتهاء صراع الرور، وتوصل رجال الصناعة في المنطقــة المحتلــة إلى عقد ما تسمى اتفاقيات "ميكوم" (*Micum*) لم يفكر منهم أحد للحظة فــي ملايــين

الأرباح التي صنعوها أثناء فترة التضخم. على العكس، لقد طالبوا الرايخ بتعويضات مناسبة لخسائرهم، وأسرعت حكومة "لوثر-ستريسمان"، دون أي اعتبار لحق الدولة في الاستيلاء العام (*eminent domain*) بتسليمهم مبلغًا تافهًا مقداره ٧٠٦٤٠٠٠٠٠ مارك ذهبي "كتعويض لأضرار اتفاقية ميكوم"، وفي المقابل استحق الرايخ فقط ٤٤٦٤٠٠٠٠٠ مارك ذهبي في حسابات التعويضات — مقاصة مثل هذه لم تكن غالبا لتحدث في دولة ذات حكومة برلمانية.

باختصار، ممثلو الصناعة الثقيلة وملاك الأرض العقارية الكبار ورجال البورصة لم يشغلوا بالهم قط بما يتعلق بجماعة المصالح القومية المزعومة. لم يخطر ببالهم أنه من أجل إنقاذ بقية الأمة من اليأس العاجز والبؤس بعد الحرب أن يرتضوا بأرباح أقل. لقد سرقوا ما تطوله أيديهم قدر المستطاع، بينما الأمة تتغذى كسرات الخبز الناشف والبطاطس، ويموت آلاف الأطفال الألمان من سوء التغذية. لم يلق بالا أي من هذه الطفيليات أبدا إلى أن جشعهم المنفلت قد سلَّم أمة كاملة إلى الخراب. بينما يفنى بؤسا العمال والطبقة الوسطى في المدن الكبرى، ليصبح ستينيس مالكا لثروات خيالية. "تايسين" (*Thyssen*) الذي كان يمتلك قبل الحرب نحو مائتي ميلون من الماركات الذهبية، هو اليوم مالك لثروة تُقدَّر ببليون مارك ذهبي، وكذلك حقق ممثلو الصناعة الثقيلة الألمانية الآخرون ثروات لأنفسهم بمثل هذا المقياس. وماذا عن أحوال من يُسمون "أنبل من في الأمة"(•) ؟ الشعب الألماني، الذي ظل لسنوات يعاني بؤسًا لا أمل في الخلاص منه يدفع نيابة عن أمرائه السابقين مبالغ خيالية "كتعويض"، وترى المحاكم الخانعة أنهم لم يخسروا بنسا واحدا في ذلك. وهناك نحن لا نتعامل فقط مع تعويضات تُدفَع "لآباء البلاد" الذين أُطاحت بهم ثورة نوفمبر ١٩١٨، ولكن ندفع أيضا لأولئك الذين تم اعتبارهم لسنوات منحدرين من سلالة ملوك صغار، اختفت أراضيهم فعليا من على الخريطة منذ مائة وثلاثين عاما. كان الرايخ يدفع سنويا لأفراد سلالات أولئك المستبدين الصغار مبلغًا يصل إلى

(•) يقصد المؤلف "الأمراء اليونكر الألمان". [المترجم]

١٨٣٤١٣٩ ماركا. من بين الأمراء الذين حكموا حتى نشوب الثورة جمعت أسرة الهوهنزولرن (*Hohenzollerns*) وحدها تعويضات تصل إلى ٢٠٠ مليون مارك ذهبي. المبالغ المدفوعة لكل الأمراء السابقين تجاوزت قرض "داوز" (*Dawes*)(•) بأربعة أضعاف. وبينما تتكمش باستمرار الإعانات المالية المقدمة لأفقر الفقراء، وأصبحت لا تكفي حتى أكثر الاحتياجات التي لا غنى عنها لم يحدث أبدا لأي من هؤلاء "النبلاء" أن أسهموا ببنس واحد للمشاركة في تخفيف هذا البؤس. ومثل "شايلوك" (*Shylock*) طالبوا برطل اللحم البشري الخاص بهم وقدموا للعالم نموذجا كلاسيكيا على طبيعة "جماعة مصلحة الأمة".

ولم يكن هذا هو الموقف في ألمانيا وحدها. مجتمع المصالح القومية المزعوم لم يوجد في أي بلد؛ فهو ليس أكثر من تصوير لحقائق زائفة لمصلحة الأقليات الصغيرة. وهكذا، لم تكل الصحافة الفرنسية خلال أزمة الرور من التأكيد للشعب أن ألمانيا يجب أن تُرغَم على الدفع حتى لا تتعرض فرنسا للخراب، وبالضبط كما في كل مكان آخر، تقبل الناس هذا التأكيد كحقيقة. ولكن ذلك لم يبدل حقيقة أن المقادير الهائلة التي أُجبِرت ألمانيا على دفعها لفرنسا بعد الحرب لم تنتفع الأمة الفرنسية ككل إلا بحصة ضئيلة منها أو لم يُستخدَم إلا القليل منها لإعادة إعمار المنطقة المُدمَرة. هنا كما في أي مكان آخر، تدفق نصيب الأسد إلى جيوب بلا قاع لأقليات متميزة. من ٤.١١ بليون مارك دفعتها ألمانيا كتعويضات لفرنسا حتى ٣١ ديسمبر ١٩٢١، فقط ٨.٢ بليون تم استخدامها من أجل إعادة الإعمار؛ و٣.٤ بلايين تم استخدامها في الدفع لقوات الاحتلال ومفوضيات الحلفاء في ألمانيا.

في فرنسا بالضبط كما في ألمانيا، إنها معاناة السكان القادرين على العمل الذين استقطعت الطبقات المالكة من جلودهم أحزمتها. بينما حقق ممثلو الرأسمالية

(•) في إطار خطة داوز الأمريكية لإعادة بناء الاقتصاد الألماني بعد الحرب العالمية الأولى، ازدهر الاقتصاد الألماني خلال عشرينيات القرن العشرين. استطاعت بها ألمانيا أن تدفع التعويضات وتحقق زيادة في الإنتاج المحلي. تراجع الاقتصاد الألماني في عام ١٩٢٩ عندما أوقف الكونجرس قروض خطة داوز. [المترجم]

العملاقة أرباحا هائلة من البلدان المشاركة في الحرب، وقد أطبقت بدائنتهم المفرطة على أنفاس، ملايين البشر ذوي الحظ السيئ ليخصّبوا ساحات المعارك العالمية بجثث موتاهم. ومازلنا اليوم، عندما نرى فقط تغير أشكال الحروب، تظل الطبقات العاملة في المجتمع هي التي تعاني حقا، بينما ملاك الأرض ورجال الصناعة ورجال البورصة المحترمون يعتصرون النقود من شقاء هذه الطبقات.

عندما يلقي المرء بنظرة على صناعات السلاح الحديثة في البلدان المختلفة، التي تستخدم ملايين البشر ورؤوس الأموال الضخمة، يخرج المرء برؤية مدهشة عن "مجتمع المصالح القومية". في تلك الصناعات الوطنية، "حماية المصالح القومية" هي بشكل صريح تماما جزء من البزنس. المبالغ التي تُنفَق بواسطة تلك الصناعات من أجل تأجيج الحماسة القومية تُسجّل في خانات دفاتر الحسابات مثل كل صور الأنفاق الأخرى لحراسة مصالح البزنس. ولكن الفكرة القومية لم تمنع حتى الآن أي عضو من أعضاء صناعة السلاح من بيع أدوات القتل والتدمير لأي دولة تدفع له الثمن المطلوب عندما يتصادف أن مصالح البزنس المهمة لا تكون معرضة للخطر. وقليلا ما تجعل الدوافع الوطنية رجال المال الكبار في أي بلد يعزفون عن تمويل قروض للدول الأجنبية لتوفير الأموال اللازمة لتسليحها، حتى ولو تعرض أمن أوطانهم هم للخطر بذلك. فالبزنس هو البزنس(٢).

وهي ظاهرة طبيعية تماما أن المشاريع الكبرى لصناعة السلاح الدولية يجب أن تتحد في أعمالها التجارية لتقضي على المنافسة وتزيد الأرباح. من نوع هذه الشركات الكبرى العديدة سوف نذكر هنا فقط "اتحاد نوبل للديناميت" (***Nobel Dynamite Trust***)، الذى تأسس عام ١٨٨٦، والذي يمتلك فروعا إنجليزية وفرنسية وإيطالية؛ وخصوصا — ""شركة هارفي القارية للصلب" (***Harvey Continental Steel Company***)، التي ظهرت للوجود في ١٨٩٤. بعد أن اخترعت شركة هارفي لأعمال الصلب (***Harvey steel works***) في "نيوجيرسي" (***Jersey New***) عملية جديدة لتصنيع ألواح أقوى وأقل سُمكا للتدريع، تبنتها فورا حكومات عدة لاستخدامها

مع بحريتها. كان المدراء الأوائل لاتحاد السلاح الدولي هذا هـم "تـشارلز كامبـل" (*Charles Campbell*) و"تشارلز إيليس" (*Charles E. Ellis*) مـن مـشروع "جـون براون وكامباني" (John *Brown and Company, England*) في إنجلترا)، و"إدوارد إم. فوكس" (*Fox .Edward M*) من شركة هارفي للـصلب بنيوجيرسـي (*Harvey Steel Company, New Jersey*)، ومـوريس جينـي" (*Gény Maurice*) "بـشركة شنايدر وكامبـاني فرنـسا" (*Schneider and Company, France*) و"جوزيـف ده مونتولفييه" (*Joseph de Montgolfier*) من شركة الشحن والسكك الحديديـة بفرنـسا (*Shipping and Railroad Company, France*) ، و"ليـون ليفـي" (*Léon Lévy*) رئيس شركة شـاتيون كومنتـاري بفرنـسا (*Chatillon-Commentry Company, France*) و"جوزيف أوت" (*Josef Ott*) بشركة دلينجـر لأعمـال الحديـد بألمانيـا (*Dillinger Iron Works, Germany*) ولودفيج كلبفل (*Ludwig Klupfel*) بشركة إيه جي فريدرايش كـروب بألمانيـا (*A. G. Friedrich Krupp Company, Germany*) و"ألبرت فيكرز" (*Albert Vickers*).

أولئك الرجال الذين كانت مدفوعاتهم للصحافة سنة بعد سنة مطلوبـة لتنفيـذ الدعاية الأكثر عارا ضد البلدان والأمم الأخرى من أجل الاحتفاظ "بالروح الوطنيـة" حية بين الناس، ولا يعتريهم أي تأنيب ضمير حول تحالفهم بأنفسهم مـع صـناعات التسليح في بلدان أخرى إذا ما كان الغرض فقط مزيدًا من الاستغلال الناجح لبلدانهم. قضية "بوتيلوف" (*Putiloff*).سيئة الصيت في يناير عام ١٩١٤، تبـرهن بوضـوح على أنه ليست فقط العاصمة الفرنسية والألمانية تعملان معا في اتحاد لطيف بمعامل بوتيلوف بسانت بطرسبرج، ولكن أيضا خبراء من الطبقة الأولى في صناعة التسليح في كلا البلدين ساعدوا الروس في تصنيع المدفعية الثقيلة. المؤلف صاحب الدرايـة المؤكدة بالمعلومات ومؤلف الكتاب الذي يعري فيه دون رحمـة الفـساد الوحـشي للصحافة القومية كتب ما يلي فيما يتعلق بتلك الأحداث:

مصانع "بوتيلوف، وقد عجزت عن تلبية أوامر توريد الحكومة الروسية، كان لديها منذ عام ١٩١٠ جماعة مصالح مع "بنك الاتحاد الباريسي" (*Banque de l'Union Parisienne*) الذي أقرضهم ٢٤ مليونًا، وبالمثل مع شركة "شنايدر لأعمال الكروسوت" (*Schneider of the Creusot works*) التي زودتهم بخطط المدفع عيار ٧٥ ملليمترًا والمهندسين والفنيين اللازمين وأيضا مع شركة "كروب في إيسن" (*Krupp in Essen*) التي وضعت الخبرة الألمانية في تصنيع المدفعية الثقيلة وخبراءها ورؤساء عمالها تحت تصرفهم. هنا نرى كيف أن المهندسين والحرفيين الألمان والفرنسيين اتحدوا تحت إدارة مسئولين وماليين بعضهم ينتمي لمجموعة من بنك الاتحاد الباريسي، والبعض الآخر على علاقة بالبنك الألماني (*Deutsche Bank*) يعملون على صناعة مدافع سوف يستخدمونها لاحقا لإطلاق قنابلها على بعضهم البعض فيسقطون قتلى. إنه لأمر أكثر غرابة، قانون الرأسمالية الدولية هذا.[٣]

في عام ١٩٠٦ تكونت شركة في إنجلترا بهدف الاستحواذ على فرع "فلوم" (*Flume*) من مشروعات "وايتهد وكومباني" (*Whitehead and Company*) والاستيلاء على إدارتها. أسهمت شركات تسليح إنجليزية أخرى في هذا المشروع، والذي تكون مجلس إدارته في المجر عام ١٩١٤ من الأشخاص التاليين: "الكونت إدجار هويوس" (*Count Edgar Hoyos*) مديرا عاما، "وألبرت إدوارد جونز" (*Albert Edward Jones*) و"هنري وايتهيد" (Henry Whitehead) من شركة "أرمسترونج -وايتورث" (*Armstrong-Whitworth*) و"ساكستون ويليام" (*Saxton William*) مدير أوروبا في الشركة، و"آرثر تريفورز داوسون" (*Arthur Trevors Dawson*) المدير الإداري لشركة "فيكرز" (*Vickers*) والبروفيسور "سيجموند دانكلي"

(*Sigmund Dankli*)، وكما نرى تقريبا كل الأسماء إنجليزية ولممثلي الشركات الأكثر شهرة والأكثر قوة في صناعة السلاح الإنجليزية.

تحت مجلس مدراء هذه الشركة تم تشييد "القارب يو" (*boat-U*) الألماني "رقم خمسة" الذي أغرق عام ١٩١٤ الطراد المدرع الفرنسي "ليون جمبيتا" (*Leon Gambetta*) في مضيق "أوترانتو" (*Otranto*) الذي كان يحمل على ظهره ستمائة جندي فرنسي. يستطيع المرء رواية عدد من الأمثلة المماثلة، ولكن هذا سوف يعني فقط تكرارا ثابتا للرواية الدموية نفسها. ذلك أن في هذا المقام لا يوجد تغيير حتى بعد الحرب العالمية [الأولى]، وقد برهن ذائع الصيت اللورد "روبرت سيسل" (*Lord Robert Cecil*)(*) على ذلك بشكل مشدد في المظاهرة الحاشدة لنساء سلام المجاهدين (*Women's Peace Crusaders*) التي أقيمت في لندن في يونيو عام ١٩٣٢، حيث أطلق سيسل هجوما شديد الحدة ضد صناعة السلاح الدولية التي لا تجلب منفعة، وأكد بشكل خاص على التأثير الشرير للصحافة الفرنسية. طبقا لكلامه، بعض من أعظم الجرائد الفرنسية اشترتها مصالح صناعة الحديد والصلب وعملت ليل نهار ضد المؤتمر الدولي لنزع السلاح. ذلك أن السلوك الحقير لما تُسمى "عصبة الأمم" (*League of Nations*) في المسألة اليابانية الصينية من الممكن في جزء واسع منه رده إلى الآليات التعيسة لصناعة السلاح الدولية، وهو سر مفضوح تغرد به العصافير الآن من على أسطح الدور. وبالطبع اتبعت المراكز الدولية للتمويل ضخم الحجم، نفس المسار(٤).

لذلك هو لغو فارغ أن نتحدث عن مجتمع المصالح القومية؛ لأن ذلك الذي تدافع عنه الطبقة الحاكمة في كل بلد حتى الآن بوصفه المصلحة القومية لا يمتلك صلة بشيء سوى المصالح الخاصة بأقليات ذات امتيازات في المجتمع تؤمّنها بالاستغلال والقمع السياسي للجموع الغفيرة. وعلى المنوال نفسه، تراب ما يُسمى

(*) روبرت آرثر جيمس جاسكوين-سيسيل، المركيز سالزبوري الخامس، (١٨٩٣-١٩٧٢)، سياسي بريطاني من المحافظين. [المترجم]

"بأرض الآباء" وثرواتها الطبيعية كانت دائما في حوزة هذه الطبقات، حتى إن المرء يستطيع، ومعه كامل الحق، التحدث عن "أرض آباء الأغنياء". إذا ما كانت الأمة واقعيا هي مجتمع المصالح كما يُطلَق عليها، ما كان للثورات والحروب الأهلية في التاريخ المعاصر أن تنشب، لأن الشعب لا يلجأ لسلاح التمرد من أجل المتعة بشكل خالص — وبالضبط إلا قليلا تقع حروب الأجر التي لا تنتهي، لأن الأقسام العاملة من السكان تحيا حياة جيدة جدا!

ولكن إذا كنا لا نستطيع الحديث عن فكرة مجتمع ذي مصالح اقتصادية ومادية بحتة داخل الأمة، كذلك نحن حتى بدرجة أقل لا نستطيع قول ذلك عندما نبحث فيما يُسمى المصالح الروحية. لم يكن نادرا أن تحرِّك المشاكل الدينية والفلسفية بعمق الأمم وتدفعها للانقسام إلى معسكرات متعادية. ومع ذلك يجب أن يكون مفهوما أنه في مثل هذه الصراعات، تصبح أيضا الدوافع الاقتصادية والسياسية نشطة، وتلعب في مرات كثيرة أدوارًا مهمةً. لا نحتاج سوى التفكير في الصراعات الدموية التي أغرقت فرنسا وإنجلترا وألمانيا والبلدان الأخرى بين أنصار الكنيسة القديمة وشيع البروتستانتية المتنوعة التي خلخلت أعماق التوازن الداخلي للأمم، أو في الصدامات الحادة والعنيفة غالبا بين المواطنة الديموقراطية وممثلي الحكم الملكي المَطلق؛ لا نحتاج سوى تذكر الحرب القاتلة بين الولايات الجنوبية والولايات الشمالية في أمريكا من أجل استمرار أو إلغاء عبودية الزنوج — وآلاف الأحداث الأخرى في التاريخ — ولسوف نصبح قادرين بسهولة على تقدير جدارة التأكيد على أن الأمة هي الوصي على المصالح الروحية.

بواسطة الاتجاهات الفكرية المتنوعة، تنقسم كل أمة اليوم إلى عشرات الأحزاب التي يدمر نشاطها الشعور بالوحدة الوطنية، ويضع الرواية الخرافية لمجتمع المصالح الفكرية للأمة في خانة الكذب. لكل من هذه الأحزاب برنامجها الحزبي الخاص، وفي مسعاها لتحقيقه تهاجم كل شيء يهددها، وتعبد دون روح نقدية ما يعزز أغراضها الخاصة. وحيث إن أي حركة تستطيع فقط تمثيل وجهة نظر

جزء معين من الأمة، ولا تستطيع أبدا أن تمثل الأمة في كليتها، يتبع ذلك أن ما يُسمى "المصالح الفكرية للأمة" أو ما يُسمى "الفكر الوطني" لا يستعرض سوى ألوان وظلال عديدة بعدد ما يُوجَد من أحزاب وحركات في البلاد. ومن هنا يؤكد كل حزب أن صيانة أمن المصالح الفكرية للأمة تتجسد في أفكاره كأحسن ما يكون، وفي الأزمنة الحرجة كل حزب يشيطن كل المفاهيم والميول الأخرى كمعارضة لأرض الآباء بل وحتى كخيانة – وهي وسيلة لا تستدعي بالتأكيد كثيرًا جدا من الفكر، سوى أنها لم تفشل قط إلى هذا الحد أو ذاك. ألمانيا وإيطاليا هما الشاهدان الكلاسيكيان على ذلك.

أكثر من ذلك، يجد المرء صدام الأفكار والميول هذا ليس فقط بين الأحزاب التي يعارض بعضها بعضًا كخصوم حول مبادئ اقتصادية وأهداف سياسية بل يجدها المرء أيضا بين حركات تقف فلسفيا على نفس الأرضية ويعارض بعضها البعض فقط لأسباب ذات طبيعة ثانوية. إنه فقط في مثل هذه الحالات تصبح المعركة بين شتى الفصائل غير قابلة للتصالح أكثر فأكثر، حتى إنها تصل إلى درجة من التطرف غير قابلة للفهم تماما أمام المشاهد المحايد. إلقاء نظرة إلى الاقتتال الحزبي الحالي في معسكر الاشتراكية هو برهان على ذلك. وكلما استوضح المرء الموضوع أكثر بدا الأمر أن وضع وحدة المصالح الفكرية للأمة في حالة سيئة. في الواقع، الإيمان بهذه الوحدة هو وهم سوف يبقى ما دامت نجحت الطبقات الحاكمة في الدول القومية بواسطة البريق الخارجي في استغفال جموع كبيرة من السكان فيما يتعلق بالأسباب الحقيقية للتفكك الاجتماعي.

أكثر من ذلك، الاختلافات في المصالح الاقتصادية والمجهود الفكري داخل الأمة، طورت بشكل طبيعي عادات خاصة وأنماط معيشة مختلفة بين أعضاء الطبقات الاجتماعية المتنوعة. لذلك يصبح من المغامرة الحديث عن مجتمع الأعراف والأخلاقيات القومية. ولكن للمفهوم فقط قيمة شديدة النوعية. فعليا، ماذا يستطيع المجتمع أن يكونه في هذا المقام بين واحد من أعضائه في "حي المليونيرات" ببرلين

وعامل مناجم في منطقة الرور؟ بين حطاب بافاري ومالك أراضٍ وضياع يونكري من شرق الإلب؟ بين عملاق صناعي حديث وعامل اعتيادي؟ بين جنرال بروسي وصياد من "هولشتاين" (*Holstein*)(•) ؟ بين سيدة مجتمع محاطة بكل أنواع الرفاهية وربة بيت في كوخ ريفي بجبال "سيلزيا" (*Silesian mountains*)؟ يحتوى كل بلد كبير على تمايزات عديدة ذات طبيعة مناخية وثقافية واقتصادية وطبيعية اجتماعية عامة. لديها مدنها الكبيرة ومناطقها عالية التطور الصناعي وقراها التي تعيش خارج الزمن وأودية جبال لم تخترقها إلا بالكاد أضواء الحياة المعاصرة. هذا التنوع الذي لا نهاية له من الشروط المادية والفكرية للحياة يمنع مسبقا أي مجتمع قريب في الأخلاقيات والأعراف.

كل رتبة اجتماعية، كل طبقة، كل شريحة من المجتمع تطور عادات حياتها الخاصة التي يخترقها الغريب بصعوبة. إنها دون شك مبالغة لتأكيد أنه بين السكان العمال في الأمم المختلفة يوجد مجتمع من العادات والأعراف العامة أكبر مما يوجد بين الأقسام المالكة وغير المالكة من الأمة نفسها. العامل الذي سوف يجد نفسه في بلد أجنبي سوف يجد سريعا مجاله بين أعضاء نفس مهنته أو طبقته، بينما سوف تُغلَق بشدة في وجهه أبواب طبقة اجتماعية أخرى في بلده نفسه. وبالطبع ينطبق هذا على كل الطبقات وشرائح السكان الأخرى.

التناقض الحاد بين المدينة والريف الملحوظ في زماننا هذا تقريبا في كل أرض يشكل واحدة من المشاكل الاجتماعية الأعظم لعصرنا. وقد تعلمت ألمانيا خلال الأوقات الصعبة للتضخم إلى أي درجة تستطيع مثل هذه التناقضات أن تتطور، ولن ننسى الدرس سريعا. لقد كان خلال عملية الإفقار المنظم والمخطط للمدن أن تم سك هذه العبارة الباترة، "الناس يتضورون جوعا وصوامع الحبوب ملآنة". كل نداء للروح القومية ومجتمع مصالح الأمة المزعوم يموت في اللحظة

(•) هولشتاين هي المنطقة بين نهري إلبه وإيدر. ولاية شمال ألمانيا. ويعني اسمها "سكان الخشب". [المترجم]

نفسها مثل صرخة في البرية، مظهرا بوضوح كامل أن القصة الخيالية لمجتمع مصالح الأمة تنفجر مثل فقاعة صابون فور ما تظهر للعيان المصالح الخاصة لجماعة محددة. لكن يوجد ما بين المدينة والريف ليس فقط تناقضات ذات طبيعة اقتصادية بحتة؛ يوجد بينهما أيضا نفور عاطفي قوي ينشأ تدريجيا من الاختلافات في شروط الحياة الاجتماعية والذي يحتل مكانه اليوم بشكل عميق جدا. يوجد القليل جدا من أهل المدينة الذين يستطيعون التغلغل في العمليات العقلية وآراء الحياة عند الفلاحين. وربما ما زال أكثر صعوبة بالنسبة للفلاح أن يخترق الحياة الفكرية والأخلاقية لأهل المدن، وقد تغذى ضدهم لقرون على كراهية بكماء تشرحها العلاقات الاجتماعية الموجودة حتى الآن بين المدينة والريف.

نفس الصدع قائم بين القادة الفكريين للأمة والجموع الواسعة من العاملين. حتى بين المثقفين الذين عملوا لسنوات في الحركة العمالية الاشتراكية توجد قلة قليلة ممن استطاعوا فعلا فهم مشاعر وأفكار العمال. حتى بعض المثقفين يجدون المحاولة مؤلمة جدا، وهو الوضع الذي يعطي غالبا فرصة لصدامات داخلية مأساوية. من الواضح أننا نتعامل في مثل هذه الحالات ليس مع اختلافات موروثة في التفكير والشعور، ولكن مع نتائج نمط خاص من الحياة ناشئ عن نوع مختلف من التعليم داخل بيئة اجتماعية مختلفة. وكلما تقدم الإنسان في العمر، وجد الأمر أكثر صعوبة في التملص من تلك التأثيرات التي أصبحت نتائجها طبيعة ثانية له. هذا الجدار غير المرئي القائم اليوم بين المثقفين وجموع العاملين في كل أمة هو واحد من الأسباب الكبرى لعدم المصداقية السرية التي تواجه بها الشرائح الواسعة من السكان العاملين بشكل غير واعٍ تماما المثقف والتي تكثفت تدريجيا في النظرية المعروفة جيدا "للقبضة المتصلبة" (*the calloused fist*).

وإنه لأكثر صعوبة بشكل واسع أن تتوفر نقطة التقاء فكري بين ممثلي الرأسمالية والسكان العاملين في أمة. بالنسبة لملايين العاملين، الرأسمالي هو فقط نوع من الأخطبوط الذي يتغذى على اللحم البشري والدماء. لا يستطيع العديد منهم فهم أنه خلف التصرفات الاقتصادية البحتة للرأسمالي ربما توجد صفة إنسانية

خالصة. ومن الناحية الأخرى، يلحظ الرأسمالي عادة مسلك العامل باستغراب كلـــي؛ نعم، وغالبا بازدراء صريح تماما، وغالبا يشعر به العامل قهرا وهوانا أكثر حتى من استغلاله الاقتصادي. بينما يحمل الرأسمالي شكا أكيدا نحو مصداقية عمال بلده نفسه، وغالبا ممزوجا بمعارضة صريحة، يُظهِر هذا الرأسمالي نحو الطبقات المالكـــة فـــي الأمم الأخرى وشائج مستمرة، حتى في الوقت الذي لا يتعامـــل فيـــه مـــع مـــسائل اقتصادية أو سياسية صرف. قد يصيب هذه العلاقة العطـــب مؤقتـــا عنـــدما تكـــون المصالح المتعارضة قوية جدا؛ ولكن الصراع الداخلي بين الطبقات التي تملك والتي لا ملكيات لها في نفس الأمة لا يختفي أبدا.

بالمثل، "مجتمع التقاليد القومية" لا يساوي إلا القليل. التقاليد التاريخية بعد كـــل شيء هي شيء ما مختلف تماما عما يُقدَّم لنا في المؤسسات التعليمية للدولة. مـــع أي حدث، التقاليد ليست بشكل أصيل، ولحد بعيد، أكثر أهمية من الطريقة التـــي تـــستقبل بها الطوائف الاجتماعية على تنوعها داخل كل أمة هذا الحدث، وكذلك الطريقة التي تُفسِّر وتشعر بها كل طائفة نحو هذه التقاليد. لذلك، مفهوم الأمـــة "كمجتمـــع وحـــدة المصير" هو مفهوم مُضلِّل بنفس قدر غموضه. هناك أحداث في تاريخ كل أمة يشعر بها كل أعضاء الأمة كأنها أقدار، ولكن طبيعة هذا الشعور تختلف جدا بين مختلـــف الجماعات، وغالبا ما يحدده الدور الذي قد لعبه أحد أو بعض الأطراف أو الطبقـــات في تلك الأحداث. في وقت أحداث كوميونة باريس، قضى خمسة وثلاثون ألف رجل وامرأة وطفل نحبهم قتلا، ودون شك يشعر كل الأطراف بأن هـــذه المذبحـــة كانـــت قدرية؛ ولكن بينما غطت إحدى هذه الطبقات شـــوارع العاصـــمة بـــصدور مثقوبـــة وأطراف مبتورة، أعطى موتها للآخرين إمكانية إعادة تأسيس حكمهم، الذي كان قـــد تصدع بصورة خطيرة بسبب الخسارة الحربية. بهذا المعنى تعيش كوميونة بـــاريس في تقاليد الأمة. بالنسبة للطبقات صاحبة الممتلكات، تمرد ١٨ مـــارس ١٨٧١ هـــو "تمرد فاحش من الدهماء ضد القانون والنظام"؛ وبالنسبة للطبقة العاملـــة هـــو "فتـــرة مجيدة في قتال البروليتاريا من أجل الحرية".

نستطيع أن نملأ مجلدات بنماذج مماثلة من تاريخ كل الأمم. أكثر من ذلـــك، الأحداث التاريخية المعاصرة في المجر وإيطاليا وألمانيا والنمسا وهلم جـــرا تعطـــي

أفضل درس يتعلق بطبيعة "مجتمع مصير الأمم". تستطيع القـوة الوحـشية فـرض مصير مشترك على أي أمة، بالضبط كما أنهـا تستطيـع بشكـل تعسفي أن تخلـق أو تدمر أمة؛ لأن الأمة ليست كيانا تطور وارتقـى عـضويا، ولكنهـا شـيء مـا اصطناعي تخلقه الدولة، التي تنمو معها يدا بيد بالصورة الأكثر حميمية، الأمر الذي تظهره كل صفحة من صفحات التاريخ. ومع ذلك، الدولة ذاتها ليست بنيانا عـضويا، وقد أظهرت بحوث علم الاجتماع أنه في كل الأنحاء والأزمان ظهرت الدولة كنتيجة للتدخلات العنيفة للعناصر شبه الحربية في حياة الجماعات البـشرية الـسلمية. لـذا فالأمة هي مفهوم سياسي بحت ناشئ فقط من انتصار البشر وتأييدهم لدولة محـددة. أيضا ما يُسمى "قانون الأمم"، كما هو واضح، للكلمة حصريا هذا المعنى من حقيقـة أن أي رجل يستطيع أن يصبح عضوًا في أي أمة بواسطة التطبيع.

يظهر تاريخ كل بلد أمثلة عديدة توضح أن قدر التعسف في تأييد مجموعـات كاملة من الناس لأمة من الأمم يتحدد بواسطة القهر الوحشي. وهكذا، خَلَـد سـكان الريفييرا الفرنسية (***Riviera***) للنوم في إحدى الليالي كإيطاليين، واستيقظوا في النهـار التالي كفرنسيين لأن حفنة من الدبلوماسيين قد قرروا ذلـك. كـان سـكان جزيـرة "الهليجولاند" (***Heligolander***) أعضاء في الأمة البريطانية ورعايا مخلصين للحكومة البريطانية حتى طرأت على بريطانيا فكرة بيع الجزيرة إلى ألمانيـا؛ وبعـدها مـر بالعضوية القومية للسكان تغيير جوهري. ولو كانت ميزتهم العظمى في اليوم السابق على هذا القرار هي أن يكونوا وطنيين إنجليز شرفاء، فمن ثم بعد انتقال الجزيرة إلى ألمانيا سوف تصبح هذه الفضيلة الأعلى أعظم خطيئة ضد "روح الأمة". مثل هـذه الأمثلة يوجد منها العديد، وهي مُميِزة لكامل تاريخ تكوين الدولة المعاصرة. لا يحتاج المرء سوى إلقاء نظرة إلى البنود الغبية والمتعثرة لمعاهدة فرسـاي (***Versailles***)[*] حتى يحصل على نموذج كلاسيكي للطريقة التي أنتجوا بها الأمم اصطناعيا.

(*) معاهدة فرساي واحدة من معاهدات السلام في نهاية الحرب العالمية الأولى التي أنهـت حالـة الحرب بين ألمانيا ودول الحلفاء. تم التوقيع عليها يوم ٢٨ يونيو عام ١٩١٩، بالضبط بعد خمس سنوات من اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند. تم التعامل مع قوى المحور الألماني الأخرى فـي معاهدات منفصلة. استغرق الأمر ستة أشهر من المفاوضات في مؤتمر باريس للـسلام لإبـرام المعاهدة. سجلت الأمانة العامة لعصبة الأمم المعاهدة في ٢١ أكتوبر ١٩١٩. [المترجم]

وبالضبط كما يستطيع الأقوى اليوم وفي كل الأوقات تقرير العضوية القومية للأضعف طبقا لما يرتضيه، هكذا يتمكن الأقوى من إنهاء وجود أمة تعسفيا إذا ما ظهر له أن ذلك مرغوبٌ فيه لأسباب تخصه. اقرأ الأسباب التي بنت على أساسها بروسيا والنمسا والروسيا تدخلها في بولندا وإعدادها لتقسيم أراضيها. فقد وردت هذه الأسباب في الحلف المشهور للخامس من أغسطس عام ١٧٧٢، وهو مثال لامع بحق على البهتان الواعي لكذبه، وعلى النفاق الذي يسبب الغثيان، وعلى القوة الغاشمة. كان ذلك فقط لأن تلك الظواهر لم تحظ من قبل إلا بقليل من الاعتبار لدرجة أن يكون لدينا مثل هذه الأوهام العجيبة المتعلقة بالطبيعة الحقيقية لمفهوم الأمة. لم تكن "الاختلافات القومية" هى التي أدت إلى تشكيل الدول المختلفة؛ بل هي الدول التي خلقت اصطناعيا الاختلافات القومية وعززتها مبدئيا، لأن تلك القوميات مفيدة لخدمة الدول كمبرر أخلاقي لوجودها ذاته. عبَّر طاغور (*Tagore*) عن هذا التناقض الموروث بين الأمة والمجتمع بتلك الكلمات الرائعة:

> **الأمة، بمعنى الاتحاد السياسي والاقتصادي لناس، هو ذلك الجانب الذي يتخذه كامل السكان عندما ينتظمون من أجل غرض ميكانيكي. المجتمع كما هو ليس له غرض آخر. إنه غاية في حد ذاته. إنه تعبير ذاتي تلقائي عن الإنسان ككائن اجتماعي. إنه تنظيم طبيعي للعلاقات الإنسانية حتى يستطيع البشر تطوير مثاليات الحياة في تعاون مع بعضهم البعض[٥].**

التباين بين التنظيم السياسي لشمال وجنوب أمريكا يعبر كمثال ممتاز عن حقيقة أن الأمة لا ترتقي عضويا من تلقاء نفسها، ولا تخلق نفسها كما يؤكدون في غالب الأحيان، ولكنها بالأحرى هي الخلق الاصطناعي الذي تنتجه الدولة، ويتم فرضها ميكانيكيا على الجماعات البشرية المتنوعة. نجح الاتحاد في شمال أمريكا في تجميع كل الأرض بين الحدود الكندية والمكسيكية وبين المحيطين الأطلنطي والهادي في دولة فدرالية قوية، وهي عملية تعززت لحد كبير بالظروف المواتية من مختلف

الأنواع. وقد حدث هذا رغم حقيقة أن الولايات المتحدة احتوت على الخليط الأكثر تنوعا من البشر الذين تجمعوا من كل الأمم والأعراق في أوروبا ومن القارات الأخرى؛ حتى أُطلِق عليها عن حق اسم بوتقة انصهار الأمم.

إلا أن جنوب ووسط أمريكا منفصل إلى ست عشرة دولة مختلفة بست عشرة أمة مختلفة رغم أن العلاقات العرقية بين هذه الشعوب هي أقرب بما لا يُقارَن مع ما هي عليه في شمال أمريكا، وتسود فيها كلها اللغة نفسها - باستثناء البرتغالية في البرازيل وعديد من لهجات الهنود الحمر المختلفة. ولكن التطور السياسي لأمريكا اللاتينية كان من ترتيب مختلف. ورغم أن "سيمون بوليفار" (***Simon Bolivar***)(•) "محرر" أمريكا الجنوبية من النير الإسباني، سعى إلى خلق دولة فدرالية لكل بلدان أمريكا الجنوبية، فإن خطته لم تنجح؛ بسبب طغاة وجنرالات، مثل "بريتو" (***Prieto***)(••) في شيلي، و"جامارا" (***Gamarra***)(•••) في بيرو، و"فلوريس"

(•) سيمون بوليفار، الاسم الكامل: سيمون خوسيه أنطونيو دي ترينيداد بوليفار ذبالاسيوس (١٧٨٣-١٨٣٠)، القائد العسكري والسياسي الفنزويلي الذي لعب دورا أساسيا في إنشاء فنزويلا والإكوادور وبوليفيا وبيرو وكولومبيا دولا ذات سيادة ومستقلة عن الحكم الإسباني. المؤرخون المعاصرون يرون في بوليفار فردًا قادرًا على استقطاب الآخرين بعمق، إلا أنهم ينتقدونه خصوصا لاعتقاده بأن الرئاسة القوية ضرورية لبقاء الدولة. ومع ذلك، فإن العديد من الأمريكيين اللاتينيين يثنون عليه كمحرر ذي جدارة، وأن أفكاره الثورية وإصلاحاته تضمن استمرار إرثه حتى اليوم. [المترجم]

(••) خوسيه خواكين بريتو فيال (١٧٨٦-١٨٥٤) شخصية عسكرية وسياسية من تشيلي. تولى منصب رئيس تشيلي مرتين بين ١٨٣١ و ١٨٤١. من أصل إسباني وباسكي. دعا إلى تشكيل حكومة مركزية قوية ومؤثرة وقاتل ضد طموحات الاستقلال الفدرالي للإقليمين. [المترجم]

(•••) أوغستين جامارا (١٧٨٥-١٨٤١) جندي وسياسي من بيرو، أصبح رئيسا لبيرو مرتين ١٨٢٩-١٨٣٣ ومن ١٨٣٨ إلى ١٨٤١. جامارا من المولدين، وهو مختلط الأصل إسباني ومن الكيشوا. قاتل ضد قوات الملكيين. التحق بقضية الاستقلال قائدا تاليا بعد أندريس دي سانتا كروز. شارك في معركة إياكوتشو. بعد غزو بوليفيا في عام ١٨٢٨، تم تعيينه ماريسكالا. [المترجم]

(Flores)[*] في الإيكوادور، و"روساس" (Rosas)[**] في الأرجنتين، الذين عارضوا هذا المشروع بكل الوسائل الممكنة. أصابت آليات الخصوم بوليفار بخيبة الأمل لدرجة أنه كتب قبل وقت قصير من وفاته: "في أمريكا الجنوبية لا توجد ثقة ولا إيمان؛ لا بين البشر ولا بين الدول على تنوعها. موجود كل نوع من المعاهدات ولكن كقطعة من ورق، وما يُسمى هنا الدساتير ليس سوى قصاصات".

شهوة السلطة عند الأقليات الصغيرة والأفراد الذين يميلون إلى الديكتاتورية أنتجت عددًا كاملاً من الدول القومية، التي شنت حروبا تحت اسم المصلحة الوطنية والشرف القومي ضد بعضها البعض بالضبط كما نفعل نحن الآن. لو كان تطور الأحداث السياسية في القارة الشمالية على شاكلة تطورها في القارة الجنوبية، لكان موجودا اليوم الكاليفورنيون والميتشجانيون والكنتوكيون والبنيسلفانيون بالضبط كما هو الحال في جنوب أمريكا حيث يوجد الأرجنتينيون والشيليون والبيروفيون والبرازيليون. هنا أفضل برهان على أن وجود الأمة يقوم على أساس مسعى سياسي بشكل بحت.

(*) خوان خوسيه فلوريس (١٨٠٠-١٨٦٤) جنرال عسكري فنزويلي أصبح أول رئيس لجمهورية الإكوادور الجديدة. خدم لمدتين ١٨٣٩-١٨٤٣ و١٨٤٣-١٨٤٥، وغالبا ما يشار إليه هناك باسم "مؤسس الجمهورية". [المترجم]

(**) خوان مانويل دي روساس (١٧٩٣-١٨٧٧)، ضابط وسياسي. في ديسمبر ١٨٢٩، أصبح روساس حاكم مقاطعة بوينس آيرس، وأنشأ دكتاتورية مدعومة بإرهاب الدولة. في عام ١٨٣١، وقع الميثاق الاتحادي، وخلق الاتحاد الأرجنتيني مع الاعتراف بالحكم الذاتي الإقليمي. عندما انتهت فترة ولايته في ١٨٣٢، غادر روساس إلى الحدود لشن حرب على الشعوب الأصلية هناك. بعد أن دبر أنصاره انقلابًا في بوينس آيرس، أعاد روساس ديكتاتوريته وشكل الشرطة المدنية المسلحة (Mazorca) التي قتلت الآلاف من المواطنين. خلق روساس عبادة الشخصية وأصبح نظام حكمه شمولي الطبيعة. عندما بدأت إمبراطورية البرازيل مساعدة أوروجواي في نضالها ضد الأرجنتين، أعلن روساس الحرب في أغسطس ١٨٥١. انتهى هذا النزاع القصير بهزيمة روساس ورحل منفيا إلى بريطانيا. يبقى روساس شخصية مثيرة للجدل في الأرجنتين في القرن الـ٢١. [المترجم]

من يستسلم كائنا من كان لوهم أن جماعة المصالح الفكرية والمادية وهوية الأخلاقيات والعادات والتقاليد تمثل الطبيعة الحقيقية للأمة، ومن هذه الفرضية المتعسفة يحاول استنباط ضرورة المساعي القومية فإنه يخدع نفسه ويخدع الآخرين. لا نجد أيًّا من أنواع الوحدة هذه في أي من الأمم القائمة. قوة الظروف الاقتصادية هي دائمًا أقوى من الفرضيات المجردة لكل الأيديولوجيات القومية.

هوامش الفصل الأول

---

(١) عندما تسربت أنباء هذا المؤتمر للجمهور العام وأصبح معروفا أن الجنرال "ديجوت" أوضح للسادة الحاضرين أنه لم ينوِ أبدا التدخل في أمور السياسة الداخلية في ألمانيا، اتهمت الصحافة العمالية الألمانية "ستينيس وشركاه" بخيانة البلاد. في البداية أنكر المحرضون تماما كل شيء وقد باتت ظهورهم في الجدار. ولكن في جلسة الرايخستاج (البرلمان الألماني) في العشرين من نوفمبر ١٩٢٣، قرأ "فيليس" العضو الاشتراكي بروتوكول المؤتمر الذي أعده رجال الصناعة أنفسهم، وبدد الشك المتعلق بحدوث الاجتماع في الأخير.

(٢) استُخدِمت صفقات من هذا النوع بواسطة هؤلاء الرجال لإقناع دولهم ذاتها بإعطائهم أوامر توريد جديدة. وهكذا كتب "والتون نيوبولد" (*Walton Newbold*) تقريرا في كتابة القيِّم عن حالات واقعية من ممارسات شركة "ميتشل وشركاه" الإنجليزية (*Mitehel and Company*) وهي شركة سلاح معروفة جيدا، وهي تحمل أهمية بالنسبة لأساليب عمالقة التسليح.

كان "أرمسترونج" (*Armstrong*) عبقريا. شيدت شركته لشيلي البارجة القوية "إزميرالدا واحد" (*Esmeralda 1*). عندما اكتملت البارجة تقدم أرمسترونج للجمهور البريطاني وأعلن مع إظهار كامل سخطه الأخلاقي أن بحريتنا [يعني البحرية الإنجليزية] لا تمتلك سفينة تستطيع منافسة الإزميرالدا واحد، أو تهرب منها أو تحاربها بنجاح. وأشار إلى الخطر الذي ربما تمثله مثل هذه السفينة على تجارتنا. ابتلعت الأدميرالية هذه التلميحات اللطيفة وابتاعت من شركة السير ويليام أرمسترونج معظم المدافع والتسليح المخصص "لإزميرالدا" الجديدة والمُحسَّنة. لاحقا نفس الشركة بنت لإيطاليا بارجة أفضل، اسمها "تيريونتي" (*Tierrionte*)، ومرة أخرى استطاع أرمسترونج أن يضع العالم كله في قوائم شركته، وتنافست دول أمريكا اللاتينية مع بعضها البعض ومع اليابان من أجل الحصول على أول سفينة مُحسَّنة من نوع "بيمونت" (*Piemonte*) من بناء شركة "إلزفيك للأعمال" (*Elswick works*). وبنت إنجلترا بالمثل قليلاً من سفن "بيمونتي" التي كانت وهي تحت التشييد في أماكن أخرى يتم تزويدها بمدافع أرمسترونج من أحدث طراز!

في مكان آخر من تقريره كتب "نيوبولد":

"لمدة ثلاثين عامًا تقريبا مشاريع السير وليام أرمسترونج والسير جوزيف وايتورث، اللذين كان كلاهما يصنع المدافع، تحاربا مثل قط وكلب لتقليل قيمة منتجات الآخر. اتفقا فقط على نقطة واحدة؛ كلاهما شدد على الرأي القائل إن كل الإنفاق على إنتاج ألواح التدريع يُعتبَر نقودا ضائعة ولا فائدة منها ومن الأفضل إنفاقها على المدافع. لأن كلتا الشركتين أنتجت المدافع

فقط، وليس ألواح التدريع. عشر سنوات بعد هذه الحرب الصارمة ضد ألواح التدريع، وعندما اتحدت الشركتان، كانت أول خطوة اتخذها خلفاؤهما هي بناء المعامل الهائلة لإنتاج ألواح التدريع".

J. T. Walton Newbold, How Europe Armed for the War. London, 1916

هذه الحالات على أي حال كانت هي الأسوأ ولم تقع فقط من "البيون [بريطانيا] الغادر". كل مشروع للتسليح دون تمييز أي أمة، اتبع نفس الوسائل القذرة وقد كان قادرا جدا على "تصحيح" كل الاحتمالات المُعطاة لعمل تجاري طيب حتى يرتقي بأرباحه. هنا مثال واحد فقط:

"في ١٩ أبريل ١٩١٣، "كارل لايبنخت" (***Karl Liebknecht***) النائب المدعوم من نائب حزب الوسط الألماني (***Centrum***) "فايفر" (***Pfeifer***) ألقى في الرايخستاج [البرلمان الألماني] بتصريح ألّب كل ألمانيا. فقد برهن مدعوما بوثائق لا تقبل الخلاف أن شركة "كروب" مستخدمة "علامة تجارية" معينة كوسيط قدمت رشوة لعدد من الموظفين التابعين للهيئة العامة لمكتب الحرب للحصول على ملكية وثائق مهمة تتعلق بأوامر على وشك الصدور لتوريد أسلحة. أكثر من ذلك، كان لدى "كروب" ضباط من كل الرتب حتى رتبة الجنرال والأدميرال في خدمته بأعلى المرتبات، وكان واجبهم هو توريد أوامر تسليح لهم. وعندما لم يصبح ذلك كافيا، فمن ثم، في شراكة مع منتجي سلاح آخرين مثل "ماوزر" (***Mauser***) و"تايسن" (***Thyssen***) و"دورن" (***Düren***) و"لووي" (***Löwe***)، اشترى "كروب" جزءًا من الصحافة ليلهب به المشاعر الوطنية المتأججة ومشاعر الحرب. بواسطة تحرٍ رسمي، اُكتشف جزءًا من تلك الوثائق السرية في منزل "الهر فون ديفيتز" (***Herr von Dewitz***) الرئيس العام المساعد لشركة "كروب للأعمال".

بواسطة هذه الدعاية الصحفية تم استثارة شعور بالخطر الدائم من أمم أخرى، وبات الشعب الألماني يفضل تعزيز الإنفاق لأغراض الحرب. طبقا للضرورة الموسمية تغيرت أسماء الأعداء الذين يمثلون تهديدا: عندما احتاجت "كروب" أو "تايسن" أوامر لتوريد بنادق آلية إذًا يصبح العدو فرنسا أو الروس؛ وإذا ما احتاجت أحواض السفن في "ستيتن" (***Stettin***) أوامر توريد بوارج حربية، إذًا تقع ألمانيا تحت تهديد الإنجليز. امتلك "لايبنخت" من بين أدلته خطابا من مدير مصنع "لووي" للسلاح لوكيله في باريس في شارع "ده شاتودون" (***Chateaudun***) كتب فيه:

"لو كان ممكنا التحرك للنشر في واحدة من الصحف الفرنسية تمتلك أوسع توزيع، والأفضل صحيفة الفيجارو (***Figaro***)، مقالا يتحدث عن شيء شبيه بذلك: "قررت وزارة الحرب الفرنسية لتسريع إنتاج البنادق الآلية للجيش إلى زيادة الأوامر الأصلية ١٠٠٪. من فضلك افعل ما بوسعك ليحدث انتشار لأنباء مماثلة. [توقيع] "فون جونتارد" (***von Gontard***)، المدير".

"رغم ذلك، فلم يُقبل التقرير بهذه الصورة. كانت الكذبة واضحة جدا، ولهذا أنكرتها وزارة الحرب على الفور. ولكن بعد أيام قلائل ظهر طبعا بصورة مصادفة تماما فــي صــحيفة الفيجــارو والماتان (*Matin*) و"الإيكو دو باريس" (*Echo de Paris*) عدد من المقالات تتعلق بميزة البنادق الآلية الفرنسية الجديدة والأهمية التي أعطتها تلك الصحف للسلاح الفرنسي.

"بهذه الصحف في يده استجوب النائب البروسي "شميت" (*Schmidt*) حليــف الــصناعة الثقيلــة الألمانية مستشار الرايخ، عما تنوي الحكومة صنعه لمواجهة تلك التهديدات الفرنسية واستعادة التوازن في التسليح. الرايخستاج من حمرة الخجل والرعب وبأغلبية عظيمــة ودون نقــاش صوت لصالح زيادة المبالغ من أجل زيادة رصيد البنادق الآلية. وبشكل طبيعي تمامــا ردت فرنسا بمزيد من تدعيم هذا النوع من السلاح.

وهكذا بينما حافظت الفيجارو والإيكو دو باريس على تحريض الفرنسيين بقصاصات من الصحف الألمانية، خصوصا صحيفة "البوست" التي يمتلكها "كونتارد" كان الشعب الألماني يُجهَّز بنفس الوسائل لمزيد من التسليح. ارتفعت أسهم "كريوسوت" و"ماوزر" و"كروب" وحصل المــدراء على مرتبات أعلى، وتسلمت الفيجارو والإيكو دو باريس عددا من الــشيكات — وكالعــادة، تحمل الناس كل ذلك".

Hinter elen Kulissen des Französchen 'Journalismuis von einem Pariser Chefredacteur. Berlin, 1925, p. 129.

3 Hinter den Kulisren des Franzdsijchen Journalismus, etc., P. 252

(٤) توجد اليوم أدبيات بأكملها تتعلق بأكثر فصول النظام الاجتماعي الرأسمالي ســوادا. بجانــب الكتابات المشار إليها فعلا ربما نذكر التالي:

Generäle, Hänller, und Soldaten, by Maxim Ziesc and Flerniann Ziese-Beringer; The Devil's Business, by N Fenner Brockway; Dollar Diplomacy by Scott Nearing and J. Freeman; Oil and the Germs of War, by Scott Nearing; and above all, the excellent essay by Otto Lehmann-Russbüldt, Die blutige Internationale der Rastungsindustrie.

والمغزى أنه في حين لم تُبذل حتى الآن محاولة للتساؤل حول الحقائق المرعبــة التــي أعطاهــا "ليهمان–روسبولت" (*Lehmann- Russbuldt*)، رفضت الحكومة الألمانية منح هــذا الرجــل المستقيم جواز سفر لمنعه من السفر إلى الخارج لأن مصالح الرايخ بذلك ســوف تتعــرض للخطر كما يزعمون. يجد المرء هذا الأمر في نصابه تماما، إبرام المتوحــشين المتحــضرين لصفقات القتل الجماعي المنظم، واستثمار الرأسمال في مشاريع لديهم كشرط مسبق من أجــل القتل الجماعي للبشر، في الوقت الذي يتم خلاله الإخصاء الاجتماعي للإنسان الــذي يمتلــك

الشجاعة لوصم المكائد الوقحة والمجرمة التي يرتكبها الأوغاد غير الشرفاء الــذين يطبعــون النقود من دماء وبؤس الجموع.

(5) Rabindranath Tagore, Nationalism, New York, 1917, p. 19.

الفصل الثاني

الأمة كجماعة لغوية

الأمة كجماعة لغوية. اللغة والثقافة. المكونات الأجنبية في اللغة. النقاء وتطور اللغة. اللغة الأدبية والخطاب الشعبي. الدين والعلم والفن والمهن إلخ كوسيط لقيم لغوية جديدة. اللغة والتشبيه أو المجاز. مغزى الكلمات المستعارة في تطور اللغة. الرمزية الشرقية في اللغة. المادة الأجنبية في مظهر وطني. الحديث والفكر. الطبيعة واللغة. العمل واللغة. رمزية اللغة. العودة اللغوية للجذور (*ATAVISMS*). اللامنطقي في التكوين اللغوي. التغير الدائم في التعبير اللغوي. عدم كفاية نظريات اللغة النفسية. تأثير الدائرة الثقافية مقابل رابطة الخطاب المجتمعي. تطور اللغة الإنجليزية. العبارة الاصطلاحية واللغة. الإيمان في "اللغة الأصلية" (*URSPRACHE*). بشأن علم الأنساب المشترك مع اللغات الآرية. الشعوب التي تغير لغتها. الأمم ذات مناطق اللغة المختلفة.

من بين الشواهد التي كانت ترد لتأكيد وجود أيديولوجية قومية، جماعة اللغة هي أكثرها أهمية لحد بعيد. يرى عديدون في جماعة اللغة الصفة الجوهرية في الأمة. في الواقع اللغة المشتركة هي رابطة قوية لأي جماعة بشرية؛ ويقول ويلهلم فون هامبولت (***Wilhelm von Humboldt***) لبعض الأسباب: "الموطن الحقيقي هو فعلا اللغة". رأى "كارل يوليوس ويبر" (***Karl Julius Weber***) في اللغة سمة قومية حقيقية: "الشخصية القومية وأثر القوة العقلية والروحية لشعب من الشعوب لا تعبر عن نفسها في شيء بمثل هذا الوضوح قدر لغتها".

وعلى نفس المنوال، أفضل مشاهير ممثلي الأفكار القومية في القرن الأخير، مثل شليرماخر، وفخته ويان ورجال "العصبة الألمانية للفضيلة" (*the German League of Virtue*)؛ وماتزيني (*Mazzini*) و"بيساكاني" (*Pisacane*)(•) و"تيمويفسكي" (*Niemojowsky*)(••) وليليفل (*Lelewel*)(•••)، و"أوروبا الفتاة" (*Young Europe*)(••••) والديموقراطيون الألمان(•••••) في عام ١٨٤٨"، حصر كل هؤلاء مفهومهم عن الأمة في عالم اللغة المشتركة. أغنية "أرنت"، "ماذا تكون ألمانيا، أرض الآباء؟" تُظهِر هذا. ومن الجدير بالذكر أن أرنت إلى جانب ماتزيني بنيا جهودهما من أجل التوحيد القومي ليس على الخطاب الشعبي ولكن على اللغة المكتوبة، لتشمل أوسع أرض آباء ممكنة.

(•) كارلو بيساكاني، دوق سان جيوفاني (١٨١٨–١٨٥٧) وطني إيطالي وواحد من أوائل المفكرين الاشتراكيين الإيطاليين. يعتبر مدافعا رائدا عن الدعاية بواسطة الفعل. هذه الأفكار كان لها أثر دامغ على المتمردين والإرهابيين على حد سواء منذ ذلك الحين؛ نتيجة لاتباعه أفكار جوزيف برودون الذى أدخل الأناركية إلى إيطاليا. في أغسطس من كل عام يقام مهرجان لمدة ثلاثة أيام في سابري يُحتفَل بهبوط كارلو بيساكاني ومجموعته على الساحل في تمرد مسلح ومقتله على يد السكان المحليين الذين اعتقدوا أنه وجماعته مجموعة لصوص من الغجر. [المترجم]

(••) أندرو نيمويفسكي (١٨٦٤–١٩٢١)، أسماؤه المستعارة: إمبرو، روكيتا. الشاعر والكاتب البولندي وباحث في الدراسات الدينية والاجتماعية. [المترجم]

(•••) يواكيم ليليفل (١٧٨٦–١٨٦١) مؤرخ بولندي، متعدد اللغات وسياسي، من فرع بولندي لعائلة بروسية. [المترجم]

(••••) أوروبا الفتاة هي جمعية دولية تشكلت في عام ١٨٣٤ بواسطة جوزيبي مازيني على نموذج من إيطاليا الفتاة. تتألف من الجمعيات الوطنية لإيطاليا، وبولندا، وألمانيا الفتاة، والتي، مع استقلال كل منها في المجال الخاص بها، تتصرف بناء على قواسم مشتركة، من خلال لجنة مركزية، للنهوض بمبادئ الحرية والمساواة والإنسانية في أوروبا . كان مقر الجمعية في سويسرا. [المترجم]

(•••••) الديمقراطيون الألمان حزب سياسي في النمسا. الانتخابات الوحيدة التي تنافس فيها الحزب هي انتخابات الجمعية الدستورية عام ١٩١٩، ونال فيها ٢,٢٪ من الأصوات على المستوى الوطني وفاز بثلاثة مقاعد. لم ينزل الحزب انتخابات في العام التالي. [المترجم]

تبدو اللغة المشتركة بشكل طبيعي على درجة عالية من الأهمية للمدافعين عن الفكرة القومية؛ لأنها أعلى وسيلة لدى أي شعب للتعبير، ويجب بمعنى معين اعتبارها عينة لحياتها الفكرية. اللغة ليست اختراع بشر أفراد. عمل المجتمع واستمر في العمل على اللغة من أجل خلقها وتطويرها ما دامت ظلت اللغة حية داخله. ولذا، تبدو اللغة لأنصار الفكرة القومية كأنقى مُنتَج للإبداع القومي، وتصبح بالنسبة لهم الرمز الأنقى للوحدة الوطنية. إلا أن هذا المفهوم مهما تكن روعته وعدم قابليته للدحض في نظر الغالبية، يرتكن إلى فرضية متعسفة تماما. من بين اللغات الموجودة حاليا لا توجد لغة واحدة تطورت من شعب محدد. من المحتمل جدا أنه كان هناك في زمن ما لغات متجانسة، ولكن ذلك الزمن كان في الماضي السحيق، وضاعت هذه اللغات في أكثر حقب التاريخ العتيق رمادية. تختفي شخصية اللغة الفردية في اللحظة التي تنشأ فيها علاقات ندية بين مختلف الزمر البشرية والقبائل والشعوب. وكلما تعددت وتنوعت تلك العلاقات في مجرى ألفيات السنين، توسعت الاستعارات التي تقوم بها كل لغة من اللغات الأخرى وكل ثقافة من الثقافات الأخرى.

وبالتالي لا تصبح لغة من اللغات مُنتَجا قوميا نقيا لشعب معين، ولا حتى لأمة معينة. شعوب من شتى الأصول قد أسهمت في تطوير كل لغة من لغات حياتنا الثقافية. كان ذلك حتميا، لأن اللغة ما دمنا تحدثنا بها على الإطلاق تمتص عناصر أجنبية رغم كل الضجة التي يثيرها المتعصبون للنقاء. ولأن اللغة هي كائن في حالة سيولة دائمة؛ فهي لا تطيع قواعد ثابتة وتصفع وجه كل إملاءات المنطق. فاللغة لا تقوم فقط بأكثر الاستعارات تنوعا من اللغات الأخرى وهي الظاهرة التي تحدث بسبب التأثيرات التي لا تُحصَى ونقاط التماس العديدة في الحياة الثقافية، ولكنها أيضا تمتلك مخزونا من الكلمات يتغير باستمرار. وبطريقة تدريجية وغير محسوسة تماما تتبدل ظلال ودرجات المفاهيم التي تجد تعبيرا عنها في الكلمات، حتى إن غالبا ما يحدث أن كلمة تعني اليوم بالضبط عكس ما كان البشر يعبرون عنه بها من الأصل.

واقعيا لا توجد لغة ثقافية لا تحتوي على كمية عظيمة من المادة الأجنبية، ومحاولة تخليصها من الكلمات الدخيلة حديثة العهد سوف تؤدي إلى الانحلال الكامل

لهذه اللغة — هذا إذا ما كان ممكنا على الإطلاق تحقيق مثل هذه التنقية. تحتوي كل لغة أوروبية على كمية من العناصر الأجنبية غالبا تستطيع أن تملأ بها قواميس كاملة. كيف ستبدو مثلا اللغة الألمانية أو الهولندية إذا ما أُزيلت منهما كل الكلمات المستعارة من الفرنسية أو اللاتينية، ولا نتحدث عن الكلمات من الأصول الأخرى؟ كيف ستكون اللغة الإسبانية دون عناصرها التي لا عدّ لها المستعارة من الألمان أو العرب؟ وأي كمية كبيرة من الكلمات الألمانية والإنجليزية بل وحتى التركية التي اخترقت اللسان الروسي أو البولندي! وبالمثل تحتوي اللغة المجرية على عدد كبير من كلمات إيطالية وتركية الأصل. نصف كلمات لغة رومانيا فقط منحدرة من أصل لاتيني؛ وثلاثة أثمان مخزون كلماتها من السلافية، والثمن من الترك والمجر واليونانيين. في اللغة الألبانية حتى الآن تم تمييز خمسمائة أو ستمائة كلمة أصلية فقط؛ البقية كلها هي خليط من العناصر الأكثر تنوعا. يعلق "فريتز ماوزنر" (*Fritz Mauthner*) بشكل صحيح جدا في عمله العظيم "مساهمات في نقد اللغة" (*Contributions to a Critique of Language*) أن ذلك يرجع ببساطة إلى "عرضية وجهة النظر أنه على سبيل المثال، نحن نتحدث عن اللغة الفرنسية بوصفها رومانية (*Romance*) وعن الإنجليزية بوصفها جرمانية (*Germanic*)". ومن المعروف جيدا أن اللغة اللاتينية نفسها، التي تعود إليها كل اللغات الرومانية بنسبها، تحتوي على كتلة كبيرة من الكلمات ذات الأصل الإغريقي، بعدد يصل لعدةِ آلاف.

من أجل تطور كل لغة يصبح قبول عناصر أجنبية أمرا جوهريا لا غنى عنه. لا يعيش شعب لنفسه. كل معاشرة دائمة مع شعوب أخرى ينتج عنها استعارة كلمات من لغتها؛ وهذا لا يمكن الاستغناء عنه تماما من أجل تلقيح ثقافي متبادل. النقاط التي لا تُعد ولا تُحصى للاتصال التي تخلقها الثقافة يوميا بين الشعوب تترك آثارها في اللغة. أشياء وأفكار ومفاهيم جديدة — دينية وسياسية وعموما اجتماعية — تؤدي إلي تعبيرات جديدة وتكوين لكلمات جديدة. في ذلك، من الطبيعي أن الثقافات الأقدم والأكثر تطورا بشكل عالٍ، تمتلك تأثيرا قويا على زمر الناس الأقل تطورا وتزودهم بأفكار جديدة تجد التعبير عنها في اللغة.

يتكيف العديد من عناصر الخطاب الجديدة ذاتها تدريجيا بشكل كامل مع قوانين صوتيات اللغة المُستقبِلة، حتى في الأخير يصبح من غير الممكن التعرف عليها. نحن نشعر بشكل لا إرادي تماما أن كلمات مثل:

"الوجود، وفكرة، واللحن والموسيقى، ووحي، ودين وطبيعة"

(***Existenz, Idee, Melodie, Musik, Muse, Natur, Religion***)،

ومئات الكلمات الأخرى هي كلمات أجنبية في اللغة الألمانية. الخطاب في لغة الحياة السياسية يتشبع كاملا بكلمات أجنبية. فكلمات مثل:

"البرجوازية، والبروليتاريا، والاشتراكية، والبلشفية، والأناركية والشيوعية والليبرالية والمحافظة والفاشية والإرهاب، والثورة، والرجعية، والحزب والبرلمان والديمقراطية والنظام الملكي، والجمهورية"

Bourgeoisie, Proletariat, Sozialismus, Bolschevismus, Anarchismus, Kommunismus, Liberalismus, Konservatismus, Fascismus, Terrorismus, Diklatur, Revolution, Reaktion, Partei, Parliament, Demokratie, Monarchie, Republik ،

وهلم جرا ليست عناصر خطاب ألماني كما ندرك ذلك من أول وهلة.

ولكن هناك أيضا جمهرة عظيمة من الكلمات المنحدرة من اللغات الأجنبية في اللغة الألمانية والتي أصبحت بمرور الزمن عامية على النحو الذي جعل أصولها الأجنبية يطويها النسيان بالكامل. من سوف يعتبر على سبيل المثال الكلمات التالية أجنبية مثل:

"مغامرة، مرساة، طبيب، حي، بلوزة، خرق، الرسالة، الخل، نافذة، فراك، مجموعة، كايزر، كانتور، تحقيق، قبو، النبيذ، برج محصن، سلسلة، الكرز، الطبخ، حقائب السفر، الملفوف، الصليب، المطبخ، مصباح، المزاج، السوق، الجدار، مادي، الماجستير، مطحنة، ميلر، أضرب، النفط، الجهاز، حديقة، كومة، الطاووس، الفلفل، أعمدة، الخوخ، النبات، البوابة، وظيفة، البركة، جنيه، الغوغاء، الأمير، مسحوق، الفجل، بقية، وعاء، المدرسة، النصابين، الكاتب، ختم التخزين، العرض، الشارع، لوحة، الطاولة، فوغت، الطوب، دائرة، الجمارك، البصل".

Abenteuer, Anker, Artzt, Bezirk, Bluse, Bresche, Brief, Essig, Fenster, Frack, Gruppe, Kaiser, Kantor, Kasse, Keller, Keltrr, Kerker, Kette, Kirsche, Koch, Koffer, Kohl, Kreuz, Küche, Lampe, Laune, Markt, Mauer, Mede, Meister, Mühle, Müller, Münze, Oel, Orgel, Park, Pfahl, Pfau, Pfeffer, Pfeiler, Pfirsich, Pflanze, Pforte, Pfosten, Pfühl, Pfütze, Pfund, Pöbel, Prinz, Pulver, Radieschen, Rest, Schiissel, Schule, Schwindler, Schreiber, Siegel, Speicher, Speise, Strasse, Teller, Tisch, Trichier, Vogt, Ziegel, Zirkel, Zoll, Zwiebel .

وأخرى لا حصر لها؟

في كثير جدا من المرات تتغير الكلمة في مجرى الزمن بالكامل لدرجة أن صيغتها المشوهة تبدو مثل الكلمات الأخرى، ونعطيها لا إراديا معنى مختلفاً تماما. وهكذا كلمة "***Armbrust***" (القوس والنشاب) لا تمتلك شيئا مشتركا مع أي من "***Arm***" (الذراع) ولا "***Brust***" (الصدر)، ولكن ترجع إلى الماضي إلى الكلمة اللاتينية "***arcubalista***" التي تعني رامي السهم أو المنجنيق. وبالمثل، كلمة "***Ebenholz***" (خشب الأبانوس) ليس لها علاقة بكلمة "***eben***" (أملس)، ولكن مرة أخرى نرجع للماضي إلى الكلمة العبرية "hobnin" من "obni" بمعنى صخري. كلمة "***Vielfrass***" (حيوان الفولفرين) التي تُفسَّر على أنها كلمة ألمانية تساوي كلمة "الشره" (***glutton***) المشتقة من الكلمة النرويجية "***fjeldfross***" (القط الجبلي). كلمة "***Murmeltier***" (المرموط وهو حيوان من القوارض) لم تأت من "***murmeln***" (فعل إصدار صوت الخرير)، ولكنها تكونت خلال العصور الوسطى من الكلمة اللاتينية "***murem***" وهي المفعول به من كلمة "mus" (الفأر)، وكلمة "***montis***" أو "***montanum***"- أي "الفأر الجبلي". ظهرت كلمة "***Tolpatsch***" لأول مرة في القرن السابع عشر في جنوب ألمانيا. إنها اسم شعبي خصصوه للجنود المجريين. تدين الكلمة بأصلها إلى الكلمة المجرية "talpas" التي تعني القدم المسطحة (***flat-foot***). (في الألمانية المعاصرة أصبحت كلمة "***Tolpatsch***" تعني الأبله والمفخخات وطائر الدودو (***dodo***). كلمة "***Ohrfeige***" (لكمة على الأذن) تأتي من الكلمة الهولندية "***veeg***"

(الضربة). تعود كلمة "*Trampeltier*" إلى الكلمة اللاتينيـة "*dromedarius*" وتعنـي كلتاهما الجمل العربي. كلمة "*Hängematte*" (كما لو أنها من جذور ألمانيـة وتعنـي الحصيرة المعلقة) تأتي مـن الكلمـة الجنـوب أمريكيـة "*hamaca*". مـن لغـة اللصـوص تأتي كلمة "*Kümmelblättchen*" (ثلاث بطاقات مونتي)، التي لا علاقـة لها بكلمة "*Kümmel*" (بذرة الكمون)، لكنها مرتبطة بالكلمة العبرية "*gimel*" (ثلاث). وبالمثل، كلمة "*Pleite*" المستخدمة كثيرا اليوم، هي من أصل عبـري، وتـأتي مـن "pletah" (طيران). تـرك الفرنـسيون آثـارا عديـدة فـي لغتنـا. هكـذا كلمـة "*mutterseelenallein*" ذات المقاطع الملتصقة بشكل عبثي تماما (والتي تعني الوحيد مع نفسه بشدة)، وهي الكلمة التي تلعب معنا اليوم على الروح العاطفيـة المريـضة عند الألمان "*Gemüt*"، تأتي من العبارة الفرنسية "*moi tout seul*" (أنا أشعر بوحـدة شديـدة). كلمـة "*Fisimatenten*" تأتي من الفرنسية "*fils de ma tante*" (ابن خالتي أو عمتي). الكلمة الألمانية "*forsch*" و"*Forsche*" تمتلـك قاعـدة فرنـسية "*force*" (القوة). عندما نقول إننا نلقـي بأرواحنـا فـي الـــ "*Schanze*" (*in die Schanze schlagen*) ذلك لا علاقة له بالـ "*Schanze*" (الحصن)؛ التعبير يأتي بدلا من الكلمة الفرنسية "*chance*" الفرصة — مساوية للكلمة الإنجليزيـة "*chance*". لـذا التعبيـر "*zuschanzen*" (*Jemanden etwas zuschanzen*) أي أعط شخصًا ما فرصة. الكلمة التي كانت تُستخدَم في السابق كثيرا "*Schwager*" وتعني الحوذي، نحن نعود بها مـع الشك إلى الكلمة الفرنسية "*chevalier*" (الفارس).

من الممكن إعطاء مثل هذه الأمثلة بالآلاف في كل لغة. وهي أمثلـة مميـزة لروح اللغة وتطور الفكر الإنساني في العموم. سوف يكون من الخطأ التام قصر هذا التدخل من عناصر الخطاب الأجنبية على اللغة المكتوبة. لأنه من خلال هذا الخطـأ ببساطة اتخذت أفكار الطبقات المتعلمة تعبيرا، وغالبا بشكل غير منطقي تماما، يرى أن الخطاب الشعبي يحظى بحماية أفضل ضد هذا التطفل من العناصر الأجنبية، وأن الخطاب الشعبي بشكل فطري طارد لمثل هذا التطفل. ومن الأمور المُعترَف بها أنـه في لغة المتعلمين، وخصوصا لغة الأكاديميين نقطع بونا شاسعا في استخدام كلمـات

أجنبية بشكل متعسف تماما لذا نستطيع التحدث ومعنا أسبابنا عن "لغة طائفة". عندما نضع في اعتبارنا أنه في قاموس "هيسي" (*Heyse*)(•) المشهور للكلمات الأجنبية يوجد ما لا يقل عن مائة ألف تعبير مُشتَق من دزينة لغات مختلفة يُفترَض استخدام هذه التعبيرات كلها في الألمانية، ربما ننظر حقا لهذه الوفرة بخوف سري. ورغم ذلك، فمن الخطأ التام تصور أن الخطاب الشعبي يُبدِي أي مقاومة عظيمة لتطفل الكلمات الأجنبية. الحقيقة هي أنه أيضا في تلك اللهجات الخاصة بكل اللغات الثقافية الأوروبية التي يجد فيها خطاب الناس أنقى تعبير له، نجد حصة كبيرة من الكلمات الأجنبية. يوجد عدد كامل من لهجات جنوب ألمانيا من الممكن دون صعوبة كبيرة ملاحظة وفرة من العناصر السلافية والرومانية وحتى العبرية فيها. وبالمثل يستخدم أهل برلين بشكل منتظم مثل هذه الكلمات العبرية مثل: "واسع، حلق، الرغبات، القذارة" (*Ganef, Rebach, Gallach, Mischpoche, Tinef,*) وهكذا. نحن نتذكر أيضا الكلمات المشهورة لويليام الثاني، "*Ich dulde keine miesmacher*" (وأنا لن أتسامح مع الانهزامية). كلمة "*Kaffer*"، التي تُستخدَم في كل أنحاء ألمانيا لوصف رجل غبي أو أبله، لا يمتلك علاقة بالقبيلة الجنوب أفريقية الكافير (*Kafirs*)، ولكنها تمتلك جذورا في الكلمة العبرية "*Kafar*"، التي تعني القرية(••).

يحدث مرارا أن المعنى الأصلي للكلمة المُستعارة يُفقَد بالكامل، ويُستبدَل بأفكار أخرى لا تمتلك بالكاد أي شبه بالمعنى الأصلي للكلمة. يستطيع المرء أن

(•) يوهان كريستيان أغسطس هيسي (١٧٦٤-١٨٢٩) نحوي ومعجمي ألماني. والد اللغوي كارل ويلهلم لودفيغ هيسي (١٧٩٧-١٨٥٥)، الذي قام بتحرير وتنقيح العديد من أعمال أبيه. من أعماله "قاموس تفسيري للكلمات الأجنبية: مع تعيين طريقة نطقها وتجويد الكلمات، جنبا إلى جنب مع مؤشر دقيق لأصلهم الأجنبي والتعليم الخاص بهم (***19th edition by Otto Lyon, 1910***). [المترجم]

(••) كلمة "كفر" باللهجة المصرية تعني أيضا تجمعًا سكانيًا صغيرًا بالقرب من القرية الأم أو البلدات، وتُستخدم أساسا في الوجه البحري، بينما الوجه القبلي يستخدم محلها كلمة "النجع"! هل يا ترى أخذ العبرانيون كلمة "كافار" من المصريين القدماء أم نقلوها للعربية وجاءت مع العرب إلى ريف مصر؟ [المترجم]

يحقق اكتشافات مثيرة في هذا المجال، ويفتح آفاقا مدهشة في الصلات الداخلية بين الأشياء. وهكذا، في موطني "راينيش-هيسيان"، يطلقون على الرجل أحول العينين باللسان الشعبي "*Masik*". تأتي الكلمة من العبرية وتعني الشيطان أو العفريت. في هذه الحالة، المعنى الأصلي للكلمة تغير بشكل ملموس ولكننا ندرك بوضوح تام الروابط المشتركة؛ لأن الشخص الأحول سابقا كان يُنظَر إليه باعتباره "ممسوسا بالشياطين" أو يمتلك "عين الشر".

في الجنوب الغربي لألمانيا يهتف المرء بالرجل المخمور بروح ودية قائلا "*Schesswai*"، من الفرنسية "*je suis*" بمعنى أنا أكون. والشخص المطرود من وظيفته يوضح أنه "*geschassi*" من الفعل الفرنسي "*chasser*"، بمعنى يطارد [الفريسة]. تأتي "*Mumm*" من الكلمة اللاتينية "*animus*" ("*animum*" هي المفعول به)؛ وكلمة "*Kujohn*" من الفرنسية "*coion*" (وغد)؛ وكلمة "*Sclimanfut*" هي من "*je m l'en fus*" (أنا لا أعطي اللعنة!). يوجد عدد من التعبيرات الأجنبية الصريحة في كتابات صانع اللغة الموهوب "يوهان فيشارت" (*Johann Fischart*)(•)، الذي استعار من "رابيليه". وقد استمرت هذه الاستعارات باقية حتى اليوم في الخطاب الشعبي. أكثر من ذلك، هناك عدد وافر من الكلمات الأجنبية الخارجة من هذه المنطقة اخترقت اللغة المكتوبة، ويتم تداولها بشكل عام في جنوب وجنوب غرب ألمانيا. لا نحتاج سوى التفكير بكلمات مثل: "مضايقة، إساءة معاملة، مركز قديم، الفتوة، إحراج، مما"

(•) يوهان فيشارت (١٥٤٥-١٥٩١) الساخر والدعائي الألماني. درس الأدب القديم ليس فقط في ألمانيا، ولكن أيضا في إيطاليا وفرنسا وهولندا وإنجلترا. وهو كاتب ساخر مناهض للبروتستانتية في فترة مكافحة الإصلاح. في السياسة كان جمهوريا. وقد وجه هجاء قاسيًا لكل الحياة العامة والخاصة في وقته، وللخرافات الفلكية، والتحذلق الدراسي، والفخر بالأجداد، ولكنه حط خصوصا من كرامة البابوية وحياة الكهنوت واليسوعيين. انغمس في أعنف النكات والكاريكاتير الأكثر تطرفا، والفحش. كشاعر، يتميز ببلاغة رائعة في أسلوبه وتوظيف اللغة رمزيا. تعامل مع اللغة الألمانية بأكبر قدر من الحرية، سك الكلمات والتعبيرات الجديدة دون أي اعتبار للقياس على ذلك، وعرض في عباراته التعسفية تشكيلات تنم عن سعة اطلاع وطرافة. [المترجم]

(*schikanieren, malträtieren, alterieren, kujonieren, genieren, pussieren*) ومئات التعبيرات الأخرى. يستخدم الرجل الشعبي تلك الكلمات بحرية، ونطقها الألماني قد يبدو غريبا عليه. لذلك، من الخطأ تماما التنطع حول النقاء الطبيعي الذي عليه اللسان الشعبي وهو النقاء الذي لا يعرفه أي مكان.

في التعبير عن أفكارنا علينا طبعا استخدام المفردات الألمانية إلى حد بعيد حيث إنها تحت تصرفنا. الإحساس العميق باللغة يتطلب ذلك. ولكننا أيضا نعرف أنه في أفضل كلامنا يوجد اليوم كمية كبيرة من العناصر الأجنبية التي لم نعد بعد نعي أصلها. أكثر من ذلك، نحن نعرف أنه رغم كل المساعي لما يُسمى "فلاتر تنقية الخطاب" (*speech purifiers*) فما لا يُمكِن تجنبه هو أنها باستمرار يجب أن تجد قبولا بدخولها في اللغات المتنوعة. فكل تطور فكري جديد، وكل حركة اجتماعية تتسامى فوق الحدود الضيقة لبلد ما، كل جهاز جديد يُستعار من شعب آخر، كل تقدم في العلم مع تأثيره المباشر في حقل التكنولوجيا، وكل تغير في الوسائل العامة للمعاشرة بين الناس، وكل تغير في الاقتصاديات العالمية بنتائجه السياسية، وكل تطور في الفن، يتسبب في دخول كلمات مُستعارة حديثا في اللغة.

تسببت المسيحية والكنيسة في غزو منتظم من تركيبات كلمات يونانية ولاتينية لم تكن معروفة من قبل. تغير عديد من هذه التعبيرات بعمق في مجرى الزمن حتى أن الغريب منها لم يعد يتميز بعد. نحن لا نحتاج إلا إلى التفكير في كلمات مثل:

"أبت، مذبح، الكتاب المقدس، أسقف، دوم، كانتور، كابلان، مصلى، عبر، نزيهة، الراهب، دير، راهبة، البابا، كاهن، عميد، الشيطان"

(Abt, Altar, Bibel, Bischof, Dom, Kantor, Kaplan, Kapelle, Kreuz, Messe, Mönch, Münster, Nonne, Papst, Priester, Probst, Teufel)

وقائمة طويلة من الكلمات الأخرى التي تستخدمها الكنيسة الكاثوليكية. والظاهرة نفسها تكررت مع انتشار القانون الروماني في الأرض الألمانية. تغير النظم القانونية لتتوافق مع النسق الروماني جلب لنا جسما كاملا من الأفكار الجديدة

التي بالضرورة أوجدت دخولا لها في اللغة. في العموم بالاتفاق مع العالم الروماني، تشبعت لغة الشعب الألماني بتعبيرات جديدة وصيغ كلمات جديدة، نقلها الألمان بدورهم إلى جيرانهم السلافيين والفنلنديين.

تطور العسكرية وتنظيم الجيوش جلبا فيضانا كاملا من الكلمات الجديدة من فرنسا، والتي كان الفرنسيون بدورهم قد استعاروها من الإيطاليين. احتفظت معظم هذه الكلمات ببصمتها الأجنبية بالكامل. فكِّر في:

"الجيش، البحرية، المدفعية، المشاة، الفرسان، فوج، شركة، سرب، كتيبة اللواء، ملازم أول، عريف، الذخيرة، خرطوشة، حربة، قنبلة، قنبلة يدوية، شظايا، الثكنات العسكرية، الثكنات، الحفر، الشحن، مجند، تملق".

(Armee, Marine, Artillerie, Infanterie, Kavallerie, Regiment, Kompanie, Schwadron, Bataillon, Major, General, Leutenant, Sergeant, Munition, Patrone, Bajonett, Bombe, Granate, Schrapnell, Kaserne, Baracke, exerzieren, chargieren, rekrutieren, kommandieren).

وكلمات أخرى لا حصر لها من الحياة العسكرية.

إدخال أطعمة ومشروبات جديدة قد أغنى لغتنا بطابور طويل من التعبيرات الأجنبية تماما. يوجد "***Kaffee***" (القهوة) و"***Zucker***" (السكر) من العربية و"***Tee***" (الشاي) من الصينية و"***Tabak***" (التبغ) من الهندية و"***Sago***" (دقيق الساغو) من الملايو، و"***Reis***" (الأرز) من اللاتينية واليونانية و"***Kacao***" (الكاكاو) من المكسيك. لن نتحدث عن الكلمات الجديدة التي يمنحها العلم يوميا للغة، ولا الكلمات المسكوكة التي لا حصر لها التي تحتويها لغة الفنون. فعددها فوق كل حساب. اليوم الرياضة التي تنتشر في ألمانيا بشكل خارق تماما، زينت اللغة بالعديد من التعبيرات الفنية الإنجليزية والأمريكية التي بالكاد لا تعزز جمالها. بل وعندما يحاول المرء جاهدا حذف هذه الكلمات الأجنبية واستبدالها بالتعبيرات الألمانية تأتي النتائج في بعض الأحيان بشعة.

ولكننا لا نتعامل فقط مع ما تُسمى الكلمات–القرض المأخوذة من لغة أجنبية وفي بعض الصيغ المنقولة إلى لغتنا الخاصة. هناك ظاهرة أخرى في تطور كل لغة تم اصطلاح مصطلح "الترجمة–القرض" لها. عندما تخترق إلى داخل حياتنا الفكرية أو الاجتماعية فكرة غير معروفة، حتى ذلك الوقت، من دائرة ثقافية أخرى فما لا يحدث دائما أننا نتقبل مع الفكرة الجديدة التعبير الأجنبي في لغتنا. في غالب الأحيان يحدث أننا نترجم المفهوم المكتسب حديثا بلغتنا بخلق بناء من الكلمات من المادة المتوفرة لدينا لم تكن تُستخدَم من قبل. هنا الغريب يواجهنا إذا جاز لنا التعبير بقناع من لغتنا نحن. بهذه الطريقة تأتي كلمات مثل "*Halbwelt*" من "*demi-monde*" (نصف الدنيا)؛ و"*Aussperrung*" من "*Lockout*" (إضراب) و"*Halbinsel*" من "*peninsula*" (شبه الجزيرة)؛ و"*Zwieback* " من "*biscuit*"؛ و"*Wolkenkratzer*" من "*skyscraper*" (ناطحة سحاب)، ومئات المخلوقات المماثلة. في كتابه "نقد اللغة" (*Critique of Language*) يذكر "ماوزنر" عددًا من "ترجمات بنت الخطيئة" تلك، كما كان يسميها؛ كلمات مثل "*Ausdruck*" (تعبير) و"*Bischen*" (جزيء) و"*Rücksicht* " (نظر) و"*Wohliat*" (إحسان). يوجد أمثال هذا القرض بأعداد عظيمة داخل كل لغة. كان لهذه القروض واقعيا أثر ثوري على مجرى تطور اللغة، وأظهرت لنا أغلب عدم الواقعية في وجهة النظر التي تؤكد أنه في كل لغة روح خاصة بحياة وأعمال شعبها. في الواقع كل ترجمة–قرض هي ليست سوى برهان على التغلغل المستمر لعناصر ثقافية أجنبية داخل دائرتنا الثقافية الخاصة، إلى الحد الذي لا نستطيع فيه الكلام عن "ثقافتهم الخاصة".

دعنا نضع في حسباننا قدر تأثير قوة التصوير المجازي الشرقي في "العهدين القديم والجديد" على تراث كل اللغات الأوروبية. نحن لا نفكر فقط في العبارات القصيرة مثل "علامة قابيل" و"حكم سليمان" و"صبر أيوب" و"يحمل المرء صليبه" وهكذا، التي هي عبارات تقال بالعامية تماما؛ فقد تغلغلت شخصيات من التوراة بشكل أكثر اشتباكا في كل اللغات بهذه الدرجة من العمق حتى أصبح ذكرهم طبيعيا تماما في أحاديث كل يوم.

هنا بعض الأمثلة التي من الممكن ذكر أضعافها عديدًا من المرات: أن تبيع حق المرء المُكتسَب مقابل صحن حساء؛ حتى يمر الجمل من ثقب إبرة؛ أن يشمر المرء عن ساعديه؛ ذئب في ثياب الغنم؛ يكوِّم جمر النار على رأس المرء؛ لنطرد الشياطين ببعل زبول (***Beelzebub***) أي بإحضار رئيسهم؛ نضع النبيذ الجديد في قوارير قديمة؛ إخفاء ضوء المرء تحت المكيال؛ ليس جديرا بربط حذاء الآخر؛ كن حكيما كثعبان ومسالما كحمامة؛ يتوتر من ناموسة ويبتلع جملاً؛ صوت صارخ في البرية؛ مسكين كأيوب؛ ضوء يشرق علينا؛ يتكلمون بألسنة نارية؛ كما لو كان عند ضريح أبيض؛ يغسل يديه من الذنوب؛ وخط كامل آخر من هذا النوع.

في الواقع، "الترجمة–القرض" هي واحدة من أغرب الأشياء في اللغة. من يفكر بشكل أعمق هنا سوف يصل إلى استنتاجات تطرد كاملا الرواية الخرافية عن المفهوم غير المدنس للخطاب القومي. تشهد "الترجمات–القرض" بفصاحة على قدر قوة توحيد الثقافة للنوع الإنساني. هنا الرابطة مستدامة بقوة؛ لأنها تربط نفسها بنفسها وليست، إذا جاز لنا الكلام، مفروضة على البشر بضغط خارجي. مقارنة بالثقافة، ما يُسمى "الوعي القومي" ليس إلا خلقا اصطناعيا يخدم مبررات الطموحات السياسية لأقليات صغيرة في المجتمع. لا تعرف الثقافة مثل هذه الحيل ولو فقط بسبب أنها لا تُصنَع بشكل ميكانيكي، ولكنها تنمو بشكل عضوي. إنها المجموع الكلي لكل النشاط الإنساني وتُحرِّك بواعث حياتنا بشكل غير مشروط ودون ادعاء. الترجمات–القرض هي لا شيء سوى استعارات فكرية بواسطة جماعات متنوعة من الناس داخل دائرة ثقافية معينة – وحتى فيما يتجاوزها. هذا التأثير، ما يُسمى "الوعي القومي" يعارضه دون جدوى، ويعلق "فرتز ماوزنر" بأسباب جيدة على ذلك:

> **قبل الدخول المتطفل للوعي القومي، وقبل بداية حركات النقاء، استعارت جماعات الناس من كنوز خطاب الأجانب. بعد ذلك، تم تجنب مثل هذه القروض، ولكن تم استجلاب مزيد من أعداد المفاهيم الأجنبية إلى اللغة بواسطة الترجمة. يوجد أناس معاصرون بمثل هذا الشعور القومي الحساس حتى إنهم يدفعون مدرسة النقاء إلى حدها**

الأقصى (اليونانيون الجدد والتشيك). ولكنهم يستطيعون فقط عزل لغتهم، وليس عالم مفاهيمهم، كامل حالتهم الفكرية[1].

ولأن الكلام ليس كائنًا حيًا معينًا يطيع قوانينه الخاصة به، كما كانوا يعتقدون سابقا؛ إنه شكل تعبير البشر الأفراد المُوحَدين اجتماعيا. إنه يتغير بتغير الظروف الاجتماعية والروحية للحياة ومعتمد في أعلى درجاته على هذه الظروف. يعبر الفكر الإنساني عن نفسه في الكلام، ولكن الكلام ليس شأنا شخصيا بحتا، كما يتخذ صورته غالبا، ولكنه عملية داخلية تُحرّكها وتؤثِر عليها البيئة الاجتماعية. لا تنعكس في الفكر الإنساني فقط بيئته الطبيعية ولكن تنعكس أيضا كل العلاقات التي لديه مع أترابه من البشر. وكلما كانت الوحدة التي ننتمي إليها أوثق، كانت العلاقات الاجتماعية التي نحافظ عليها مع أترابنا من البشر أغنى وأكثر تنوعا، وكانت التأثيرات المتبادلة بندية أقوى وهي التي توحدنا مع بيئتنا الاجتماعية وتؤثر بشكل مستمر على تفكيرنا.

التفكير هو لذلك على أية حال عملية تجد تفسيرها بشكل منفرد في الحياة العقلية للفرد؛ وهو بالمثل انعكاس للبيئة الطبيعية والاجتماعية التي تتبلور في عقل الإنسان على شكل مفاهيم. من وجهة النظر هذه، لا يمكن إنكار الطبيعة الاجتماعية للفكر البشري؛ حيث إن الكلام ليس سوى تعبير حي عن تفكيرنا، تضرب جذور وجوده في حياة المجتمع ويتكيف بشروطه.

وهذا يبدو فعليا من حقيقة أن الكلام البشري ليس موروثا؛ ولكنه مكتسب بواسطة الإنسان من خلال علاقاته الاجتماعية. ولا يتأكد من ذلك أننا بهذا المفهوم قد قمنا بحل كل الألغاز المحيطة بالتفكير والكلام. يوجد الكثير جدا في هذا الميدان ليس لدينا له تفسير كاف؛ والرأي المشهور جدا لجوته، بأنه فعلا "لا أحد يفهم الآخر، ولا أحد عند سماع نفس الكلمات يعتقد ما يعتقده الآخر"، هذا الرأي له معناه العميق بكل تأكيد. لا يزال العديد من الأشياء الغامضة والمجهولة فينا وفيما حولنا لم تُقَل بعد الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بها. ومع ذلك نحن لا نتعامل هنا مع مثل هذه المشاكل ولكن فقط نتناول الطبيعة الاجتماعية للتفكير والكلام، وهي التي في رأينا جانب لا يمكن إنكاره.

فيما يتعلق بأصل اللغة، نفس الشيء، لم نستطع حتى الآن سوى الظن، ولكن فرضية "هيكيل" (*Haeckel*)(•) بأن الإنسان قد بدأ مسار التطور والارتقاء ككائن صامت تبدو لنا احتمالا ضعيفا. فمن المعقول تصور أن الإنسان الذي ورث الغرائز الاجتماعية من أسلافه في المملكة الحيوانية وُهِب فعلا مع ظهوره على مستوى الحياة البشرية، ببعض تعبيرات الكلام - مهما يكن غشيما ومتخلفا. ربما هذا الذي كان. بالنسبة للغة بأوسع معانيها فهي ليست ملكية حصرية للإنسان، ولكن من الممكن تمييزها بوضوح في كل أنواع الكائنات الاجتماعية. حقيقة أنه داخل هذه الأنواع يحدث نوع من الفهم المتبادل فذلك ما لا يُمكِن إنكاره طبقا لكل الملاحظات. إنها ليست اللغة كما هي ولكن الأشكال الخاصة من الكلام البشري، اللغة المتطورة التي تسمح بالمفاهيم وهكذا تُمكِن أفكار الإنسان من تحقيق نتائج أعلى والتي تميِّز الإنسان في هذا المقام عن الأنواع الحية الأخرى.

من المحتمل أن الكلام البشري كان في بداياته مقصورا على إصدار أصوات معينة مشتقة من الطبيعة، وأضيف إليها على سبيل الاحتمال تعبيرات تعلن الألم أو السرور أو الدهشة. أصبحت تلك الأصوات اعتيادية بين زرافات البشر من أجل تعيين أشياء محددة أو أصبحت موروثة في الذرية. بمثل هذه البدايات الزهيدة توفرت الشروط المسبقة الضرورية لمزيد من تطور الكلام. ولكن الكلام في حد ذاته أصبح أداة ذات قيمة في صراع الإنسان من أجل الوجود، وقد ساهم دون شك بأعظم مساهمة في نهوضه المذهل.

بالعمل المجتمعي، الإجباري لكل القطيع، نشأت أيضا تدريجيا سلسلة من التسميات للأدوات والأشياء ذات الاستخدام اليومي. كل اختراع جديد، كل اكتشاف

(•) إرنست هاينريش فيليب أغسطس هيكيل (١٨٣٤-١٩١٩) عالم الأحياء والطبيعة الألماني، فيلسوف، طبيب، أستاذ، فنان. اكتشف، ووصف وعين آلاف الأنواع الجديدة، ورسم شجرة الأنساب المتعلقة بكل أشكال الحياة، وصاغ العديد من المصطلحات في علم الأحياء، بما في ذلك خلق البشر والبيئة والأسرة في اللغات، والخلايا الجذعية، والأولانيات. روج هيكيل عمل تشارلز داروين في ألمانيا وطور نظرية "الخلاصة المؤثرة" التي لم تعد مقبولة على نطاق واسع، مدعيا أن النمو البيولوجي يلخص التطور التدريجي للأنواع ". [المترجم]

جديد، أسهم في إغناء المخزون اللغوي المكتسب مسبقا، وهذا الارتقاء مع مرور الوقت أدى إلى تكوين صور كلامية محددة أو رموز، كان لابد وأن ينتج منها نمط جديد من التفكير. ورغم أن اللغة كانت بشكل أولي فقط تعبيرا عن الفكر، فهي الآن تستجيب للفكر وتسيطر على مساره. الصورة التي تجلبها الكلمات، والنابعة أصلا من انطباعات حسية خالصة، تتقدم تدريجيا إلى المستوى العقلي وتخلق بذلك أول شرط مسبق للتفكير المجرد. ومن هذا ينشأ ذلك الفعل المنعكس العجيب بين الكلام والتفكير الإنساني، الذي أصبح خلال التطور الثقافي أكثر تنوعا، وأكثر تعقيدا حتى أننا نستطيع لسبب ما التأكيد على أن "اللغة تفكر لنا". ولكن التعبيرات–الصورة تلك، المُسماة "رموز الكلمة" هي التي أثرت أكبر ما يكون على مسار الأحداث وغيرت معانيها الأصلية بشكل شديد العمق حتى أنها غالبا ما تحولت إلى نقيضها. يحدث هذا كقاعدة، ضد كل المنطق؛ ولكن من ثَمْ، لا تستقيم اللغة مع المنطق، الحقيقة التي نادرا ما تحدث لمعظم فلاتر تنقية اللغة.

يختفي عديد من الكلمات تدريجيا من اللغة دون أي سبب واضح – وهي عملية نستطيع ملاحظتها بشكل جيد جدا في الوقت الحاضر. وهكذا كلمة "***Gasse***" (بمعنى زقاق) القديمة كان عليها أن تتنازل عن الأسبقية لكلمة "***Strasse***" (طريق)؛ وكلمة "***Stube***" طردتها كلمة "***Zimmer***" (بمعنى غرفة)؛ واستسلمت كلمة "***Knabe***" أمام كلمة "***Junge***" بمعنى شاب؛ وكلمة "***Haupt***" لكلمة "***Kopf***" بمعنى رأس؛ وكلمة "***Antlitz***" لكلمة "***Gesicht***" بمعنى وجه. من الناحية الأخرى بعض الكلمات التي فُقِد معناها الأصلي مع ذلك تحافظ على استمرارها في اللغة. وهكذا ما زلنا نتحدث عن "***Flinte***" (المدفع ذى فتيل الإشعال) و"***Feder***" (ريشة الكتابة) و"***Silbergulden***" (الفضة الذهبية)؛ رغم أن هذا المدفع القديم انتهى منذ زمن طويل في التاريخ، وقد نسينا تقريبا أن آباءنا وأجدادنا صنعوا أدوات كتابتهم من ريش الأوز، ورغم أن "***gulden***" تعني فعلا ذهبيًا وبالتالي هذه الكلمة لا يمكن لها أن تعني شيئا مشتركا مع الفضة. نحن نستمتع "بنكت الإنسان الجافة" ولا نشك أبدا في أن الكلمة الأخيرة المشتقة من اللاتينية كانت تعني في الأصل البلل أو العصير أو الرطوبة. ولكن

لا تزال اللغة ترتكب أشياء غريبة. وهكذا الفارس العائد إلى قلعته من القتال يصبح "*entrüstet*"، بمعنى أنه قد خلع درعه، ولكننا الآن نرتدي الدرع حين نصبح "*stetentrü*" (ساخطين). تحتوي كل لغة على عدد من مثل هذه التناقضات، التفسير الوحيد لها أن البشر تدريجيا يعطون لأشياء معينة وأحداث معينة معاني جديدة دون وعي بها.

فقيه اللغة الألماني "إرنست فاسرزيكر" (*Ernst Wasserzicher*)(*) في بعض دراساته الممتازة التي أخذنا منها الأمثلة الواردة سلفاً، وصف بشكل رائع رمزية اللغة وأظهر كيف أن كلامنا تقريبا بشكل حصري هو صور دون أن نلاحظ ذلك.(٢) نستخدم الفعل "lesen"، عندما تلتقط امرأة فلاحة الغلة من الحقل، والفعل "*übertreten*"، عندما نتخطى بركة مياه في الطريق، وعندما (تنعكس) صورتنا في غدير الماء، فتلك هي عمليات حقيقية لا تحتاج إلى مزيد من التفسير. ولكننا نستخدم "lesen" عندما (نلتقط) الأخبار من الصحف، ونستخدم "*übertreten*" عندما (نتخطى) القانون، أو عندما (تنعكس) روح الإنسان في عينيه، فمن ثم تصبح رمزية اللغة فاعلة هنا مصورة لنا عمليات بعينها، يستطيع فيها الإدراك الحسي أن يفيد فقط كأب روحي.

لا تخضع هذه الصور المفاهيمية فقط لتغير دائم، ولكن كل ظاهرة جديدة في الحياة الاجتماعية تخلق صيغ-كلمات جديدة لا تكون مفهومة تماما للأجيال السابقة؛ لأنها تفتقد القواعد الفكرية والاجتماعية لتلك التراكيب الجديدة في اللغة. الحرب العالمية [الأولى] بتأثيراتها المصاحبة المباشرة في كل ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تعطينا مثالا ممتازا على ذلك. خلال الحرب دخل عدد من الكلمات الجديدة في اللغة لم يكن لأحد أن يفهمها قبل الحرب، مثلا: قصف مدفعي متواصل عنيف (*drumfire*)، هجوم بالغاز (*gas attack*)، قاذف اللهب (*flamethrower*)، مشاة الميدان (*fieldwalker*)، قوات الصدمة (*shock troop*) ستار

(*) إرنست فاسرزيكر (١٨٦٠-١٩٢٧) عالم لغوي وواضع معاجم ألماني. [المترجم]

الدخان (*smoke screen*) وابل النيـران (*barrage fire*) التمويــه (*camouflage*). تظهر مثل هذه التركيبات في مجرى الزمن في كل ميادين النشاط الإنـساني وتـدين بخلقها إلى التغير الدائم في ظروف الحياة. وبهذا الأسلوب تتغير اللغة خلال فتـرات معينة بالكامل حتى أن الأجيال اللاحقة عندما تنظر للوراء متأملة خلقها تجده أغـرب وأغرب حتى في الأخير نصل إلى نقطة حيث لا تعود فيها اللغة مفهومة، ولا تحمل معنى إلا فقط للدارسين المنخرطين في البحث.

لغة "شيللر" و"جوته" قد اختفت فعلا. نواجه في كلام "فيـسكارت" (*Fischart*) و"هانز ساكس" (*Hans Sachs*)(•) و"لوثر" (*Luther*) عديدًا من المشاكل، تتطلب فـي أحايين عديدة تفسيرا حتى نأتي برجال ذلك الزمن ومفهومهم للحيـاة داخـل دائـرة أفهامنا. وكلما قلبنا صفحات الماضي أكثر – قل مـثلا زمـن "وولتـر فـون ديـر فوجلفايـت" (*Walter von der Vogelweide*)(••) و"جوتفريـد فـون ستراسـبورج" (*Gottfried von Strassburg*)(•••) – أصبحت معاني اللغة أكثر غموضـا وعـصية على الفهم، حتى نصل إلـى نقطـة تبدو لنا عندها "لغتنا الخاصة" مثل لسان أجنبـي لا نستطيـع حل ألغـازه سـوى بالترجمـة. دعنـا نقـرأ بعض مقـاطع شـعرية

(•) هانز ساكس (١٤٩٤–١٥٧٦) الموسيقار الألماني الكبير، والـشاعر والكاتـب المـسرحي، والإسكافي. الحدث الكبير في حياته الفكرية هو الإصلاح. أصبح ساكس من المتحمسين للوثر، وفي ١٥٢٣ كتب القصيدة التي تبدأ "بالعندليب من فيتنبرغ" تكريما له والتي ذاعت فـي كـل مكان. دفاعه عن الإيمان الجديد أكسبه تأنيب مجلس مدينة نورمبرغ، الذي منعه من نشر أي "كتيبات أو قواف". كتب أكثر من ٦٠٠٠ قطعة من أنواع أدبية مختلفة. إنتاجيته لافتة للنظـر خاصة لأنه استمر يعمل صانع أحذية طوال حياته. (وبقدر ما هو معروف، لم يمارس ساكس الكتابة أو الغناء من أجل المال قط). [المترجم]

(••) فالتر فون در فوجلفايدي (١١٧٠–١٢٣٠) أهم شعراء الشعر الغنائي الألمان فـي القـرون الوسطى. [المترجم]

(•••) جوتفريد فون ستراسبورج (توفي ج. ١٢١٠) صاحب رواية البلاط الألماني الرومانـسية "تريستان". وتعتبر، جنبا إلى جنب مع رواية "بارتسيفال" لولفرام فون إسكنباخ مـن روائـع السرد الكبير في الألمانية في العصور الوسطى. أصبح عمله مصدر إلهام لأوبـرا ريتـشارد فاجنر "تريستان وإيزولده".

من "مخطوطة المُخلِّص" (*Heiland handschrift*) المشهورة المزعوم كتابتها بواسطة شاعر ساكسوني غير معروف بطلب من الملك "لويس التقي" بعد تحول الساكسون إلى المسيحية بزمن ليس بطويل. هذه الألمانية من النصف الأول للقرن التاسع تصل إلى أسماعنا اليوم مثل لغة أجنبية؛ غريبة علينا بقدر غرابة الرجال الذين تكلموها.

لغة "رابليه" (*Rabelais*)(•) من الصعب فهمها في فرنسا بعد مائة عام من وفاته. يستطيع الفرنسي الحديث فهم النصوص الأصلية لأستاذ الإنسانيات هذا بمساعدة قاموس خاص فقط. بتأسيس الأكاديمية الفرنسية عام ١٦٢٩، أُعطيَت اللغة الفرنسية وصيا متشددا كان يسعى بكل قواه ليحذف من اللغة كل التعبيرات الشعبية والصور البلاغية المستخدمة في الكلام الدارج. وكان ذلك يسمونه "تهذيب اللغة". في الواقع كانوا يحرمون اللغة من أصالتها ويركعونها تحت نير استبداد غير طبيعي، أرغموها لاحقا على أن تحرر نفسها منه. "فنيلون" (*Fénélon*)(••) و"راسين" (*Racine*)(•••) أيضا أعطيا هذا الإحساس تعبيرات متنوعة؛ وكتب "ديدرو" (*Diderot*) عن ذلك بشكل مباشر تماما:

لقد أفقرنا لغتنا بكل هذا التهذيب الكثير الزائد عن الحد. في مرات كثيرة نجد لدينا كلمة معينة في متناولنا للتعبير عن فكرة، ولكننا

(•) فرانسوا رابليه (١٤٩٤-١٥٥٣) شخصية رئيسية في عصر النهضة الفرنسية، الكاتب والطبيب، والراهب وعالم اليونانية. تاريخيا يعتبر من كتاب الخيال، والهجاء، والنكت الفاجرة والأغاني. أفضل عمل معروف له هو جارجانتوا وبانتاجرويل. بسبب سلطته الأدبية وأهميته التاريخية، يعتبره نقاد الأدب الغربي واحدا من كبار كتاب الأدب العالمي وبين المبدعين في الكتابة الأوروبية الحديثة. [المترجم]

(••) فرانسوا فنلون (٦ أغسطس ١٦٥١ - ٧ يناير ١٧١٥)، الأسقف الفرنسي من الكاثوليك الرومان، اللاهوتي، والشاعر والكاتب. مؤلف مغامرات تيليماكوس، المنشور لأول مرة عام ١٦٩٩. [المترجم]

(•••) جان راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩)، كاتب مسرحي فرنسي، واحد من الكتاب المسرحيين الثلاثة الكبار في القرن الـ١٧، في فرنسا (جنبا إلى جنب مع موليير وكورناي). كان راسين في المقام الأول تراجيديا، وأنتج "نماذج على الكمال الكلاسيكي الجديد"، كما فيدرا، وأندروماك. [المترجم]

نفضل أن ندع قوة الفكرة تتلاشى لأننا نخشى استخدام تعبير جديد غير أنيق. بهذه الطريقة ضاع منا عدد من الكلمات التي كانت تنال إعجابنا عند "أميو" (*Amyot*) و"مونتاني" (*Montaigne*). ما يُسمى "الأسلوب الجيد" طرد هذه الكلمات إلى منفى خارج اللغة فقط بسبب أن الناس تستخدمهم. إلا أن الناس الذين يسعون دائما إلى تقليد العظماء، بعد وهلة يرفضون أيضا استخدام هذه الكلمات، لذا يطويها الزمان.

تقدم لغة شكسبير العديد من الألغاز بالنسبة للرجل الإنجليزي المتعلم، ليس فقط لبقاء كثير من لوازم الكلام القديم فيها والتي توقف استخدامها في الإنجليزية المعاصرة، ولكن بشكل مبدئي لأن الشاعر يستخدم العديد من الكلمات بمعانٍ لا تتطابق مع معناها المعاصر. العودة إلى "روايات كانتربري" (***Canterbury Tales***) من تأليف الكاتب "جيوفري شوسر" (***Geoffrey Chaucer***)(•) تمثل رحلة شديدة الصعوبة، بينما النص الأصلي لأغاني "بيوولف" (***Beowulf***) هو منطقة مجهولة بالنسبة للرجل الإنجليزي المعاصر.

تعرض النسخة الأصلية من دون كيشوت العديد من الصعوبات لإسبان اليوم؛ وتلك المصاعب تتزايد عثراتها أمام مَنْ يحاول التعامل معها في تناول النص القديم "السيد" (***El Cid***). كلما تعمقنا أكثر في ماضي اللغة زادت غرابتها لنا؛ ومحاولة اكتشاف بداياتها سوف تكون محاولات سدى. على سبيل المثال من يستطيع أن يقرر بشكل محدد متى بدأ البشر في فرنسا وإيطاليا يهجرون الحديث باللاتينية، وبدءوا الكلام بالفرنسية والإيطالية؟ من يستطيع القول متى تغير اللسان الروماني الريفي

(•) جيفري تشوسر (١٣٤٣-١٤٠٠)، والمعروف باسم أبى الأدب الإنجليزي، ويعتبر على نطاق واسع أعظم شاعر إنجليزي في العصور الوسطى، وكان أول شاعر يدفن في ركن الشعراء بكنيسة وستمنستر. كان تشوسر شخصية مهمة في تطوير شرعية العامية، اللغة الإنجليزية الوسطى، في الوقت الذي كانت لغة الأدب السائدة في إنجلترا هي الفرنسية واللاتينية. [المترجم]

المُحرَّف إلى الإسبانية أو أفضل من ذلك إلى الكتالونية؟ (*lingua Romana rustica*) تتبدل اللغة تدريجيا بالدرجة التي لا تجعل الأجيال المتعاقبة على وعي إلا بالكاد بهذا التغيير. بذلك نصل إلى نقطة ذات أهمية عظيمة في استكشافنا.

المدافعون عن الأيديولوجية القومية يؤكدون أن القومية تمثل وحدة طبيعية داخلية، وأنه يوجد في أعمق كينونتها شيء ما دائم، شيء ما لا يتغير. ورغم أنهم لا ينكرون أن ظروف الحياة الفكرية والاجتماعية في كل قومية تخضع للتغيير، فإنهم يحاولون إنقاذ أنفسهم بالتأكيد على أن تلك التغيرات تمس فقط الظروف الخارجية ولا تمس الطبيعة الحقيقية للقومية. الآن إذا ما كانت اللغة في الواقع هي الرمز الخاص الدال على الروح القومية فمن ثم لابد وأنها تمثل وحدة خاصة تتحدد بواسطة طبيعة هذه الأمة أو تلك وتكشف عن طبيعة خاصة لكل شعب. في الواقع مثل هذه التأكيدات لم تكن هي المرغوبة.

بل لقد حاول فختِه اشتقاق شخصية لأمة ما من لغتها. وبكل عجرفة حماسته الوطنية المتطرفة أكد أن اللغة الألمانية تكشف عن حيوية قوة طبيعية تعطيها الحياة والقوة والقدرة على التعبير عن نفسها، بينما الشعوب التي تتحدث اللاتينية وبالأخص الفرنسيون ليس متاحا لهم سوى لغة اصطناعية واصطلاحية بشكل خالص وهي ما تُكسِب طبيعتهم عنفا (والتي تتضح فيها الطبيعة الحقيقية لهذه الشعوب). لاحقا، طور "ويلهلم فون هامبولت" نظرية كاملة للبرهان على أنه في بناء وتعبير لغة ما تكشف الطبيعة الخاصة للشعب عن نفسها. "اللغة هي إذا ما جاز لنا الكلام هي التعبير الخارجي لروح الشعب. كلامهم هو روحهم وروحهم هي كلامهم. لا يستطيع المرء التعبير بقوة عن طبيعة الاثنين".(٣)

ومنذ ذلك الحين ظهرت نظريات مماثلة مرارا. تَصوَّر ذلك محاولات "فييركانت" (*Vierkandt*)(*) و"هوسينج" (***Hüsing***) و"فينك"

(*) ألفريد فييركانت (١٨٦٧-١٩٥٣) عالم الاجتماع، والأنثوغرافيا، وعلم النفس الاجتماعي، والفيلسوف الاجتماعي وفيلسوف التاريخ الألماني. [المترجم]

(*Finck*)(•) وآخرين. في كل هذه المحاولات وبعضها تم عرضه بشكل لامع، كانت الأمنية هي أبا الفكرة. كلها حملت على وجوهها علامة الصنعة. يشعر المرء أنهم قد صاغوها بشكل مصطنع. لم تُقدَّم في أي موضع أدلة دامغة وحقيقية تبرهن على صحة تلك النظريات. ومن هنا، كان عالم اللغويات المشهور "ساندفيلد-ينسن" (*Sandfeld-Jensen*)(••) مُحِقا تماما عندما فند فكرة "فينك" القائلة إنه "يجب اعتبار بناء اللغة الألمانية تعبيرا عن مفهوم العالم الألماني"، وأعلن أن "فينك" لم يعط أبدا برهانا على تأكيده هذا وأن الباحثين الآخرين يستطيعون فور امتلاكهم لخلفيات جيدة الوصول إلى استنتاجات مخالفة تماما. يقول "ساندفيلد-ينسن"، "في هذا الحقل الصعب، الذي يُطلَق عليه عادة سيكولوجية الناس، يمارس المرء بشكل دائم خطر الانفصال عن الأرض الثابتة وخسارة نفسه في فراغ التفلسف" (٤).

لا، اللغة ليست نتيجة وحدة جماعة خاصة من الناس. إنها بنيان في تغير دائم تنعكس فيها الثقافة الاجتماعية والفكرية لمراحل متنوعة من ارتقائنا وتطورنا. وفي تطورها الدائم تتقلب اللغة في قدرتها التي لا تنضب لتتخذ أشكالاً جديدة. هذا التغير الأبدي للغة يضع في حسبانه وجود اللغات القديمة والجديدة، الحية والميتة.

ولكن إذا ما كانت اللغة تتغير باستمرار، وإذا ما كانت تتفاعل بسهولة مع التأثيرات الأجنبية وتملك دائما بابا مفتوحا للتلقيح بأنواع أخرى، فمن ثم هي انعكاس صادق للثقافة عموما. تعطينا أيضا هذه الحقيقة برهانا على أنه بمعونة اللغة لا نستطيع أبدا التغلغل في "طبيعة الأمة" الغامضة التي هي بشكل مزعوم الأمر نفسه عند القاع.

(•) فرانز نيكولاس فينك (١٨٦٧ - ١٩١٠) العالم اللغوي الألماني، وأستاذ اللسانيات العامة في جامعة برلين. عمل في مجموعة واسعة من اللغات، ولكن أشهرها لزملائه عمله في لغات القوقاز. اعتقد فينك (المعروف الآن أنه خطأ) أن لغات القوقاز تتصل ببعضها. [المترجم]

(••) كريستيان ساندفيلد (١٨٧٣-١٩٤٢)، لغوي دنماركي، متخصص في علم اللغة الألمانية والبلقان. [المترجم]

وفي تتبعنا لأصول لغة ما نجد علاقات أقل فأقل بالدائرة الثقافية التي تنتمي إليها، تتسع أبدا الهوة التي تفصلنا عن بشر الأزمنة الماضية، حتى يضيع في الأخير كل شيء في ضباب لا يمكن اختراقه. عندما يأتي إلينا اليوم رجل فرنسي أو إنجليزي، ليكن مفكرا أو رجل دولة أو فنانا، بأفكار معينة، فإننا نفهمه بسهولة، رغم أننا لا ننتمي إلى نفس أمته؛ بل ننتمي إلى نفس الدائرة الثقافية ونتحد معه بروابط غير مرئية، تلك هي التيارات الروحية للعصر. ولكن تبقى مشاعر وتفكير رجال القرون الماضية بالنسبة لنا غريبة أو عصية على الفهم إلى حد بعيد، حتى ولو أنهم ينتمون إلى نفس أمتنا؛ لأنهم كانوا يخضعون لتأثيرات ثقافية أخرى. حتى نُقرِّب هذه العصور إلينا أكثر نحتاج إلى بديل يحل محل الواقع – التقاليد. ولكن فور ظهور التقاليد، هنا يبدأ عالم الخيال. بالضبط كما أن التاريخ الأول لكل شعب قد ضاع في الأساطير، كذلك أيضا في التقاليد يلعب الأسطوري أهم الأدوار.

ليس فقط ما يُسمى بـ "المفهوم التاريخي" الذي يجعل أحداث العصور الماضية تبدو لنا في "ضوء خاص"؛ فالتاريخ "الموضوعي" المزعوم أيضا لم يكن أبدا خاليا من الضبابية الأسطورية والأخطاء التاريخية. عادة ما يحدث ذلك دون وعي تام، ويعتمد كل شيء على قدر قوة سيطرة السلوك الشخصي للمؤرخ على تفسيره للتقاليد التي يستقبلها؛ وبالتالي الصورة التي يكونها. في هذا السلوك الشخصي للمؤرخ، البيئة الاجتماعية التي يحيا فيها والطبقة التي ينتمي إليها والآراء السياسية والدينية التي يؤمن بها كلها تلعب دورا هاما. ما يسمى بـ "التاريخ القومي" لكل بلد هو رواية خيالية عظيمة لا تمتلك إلا بالكاد علاقة ما بالأحداث الواقعية. لا نتكلم حتى عن التاريخ الذي نتعلمه في كتب مدارس كل أمة على تنوعها. في المدرسة، يُحرَّف التاريخ من حيث المبدأ. الأهواء البشرية، والأحكام المسبقة الموروثة والمفاهيم التقليدية التي نخشى جدا أن نمسها أو نتراخى جدا عن مسها، في أغلب المرات تؤثر على أحكام حتى الباحثين الجادين وتغويهم بإصدار الأحكام المتعسفة التي لا تمت إلا بأقل القليل إلى الحقيقة التاريخية. ولا يوجد من هو أكثر ذاتية نحو هذه التأثيرات من مناصري الأفكار القومية؛ بالنسبة لهم كل الحقائق في الغالب الأعم هي "مفهوم تمنٍّ" (***wish-concept***) لابد وأن تحل محل الحقائق الواقعية.

وحيث إن أصل وتطور أي لغة لم ينطلق طبقا لمبادئ قومية ولم ينبع من المفهوم الخاص لشعب مُختار، فتلك هي حقيقة واضحة أمام كل فرد على استعداد لرؤيتها. دعنا نلق بنظرة إلى نشوء وارتقاء اللغة الإنجليزية، التي هي اليوم اللغة الأكثر انتشارا من أي لسان أوروبي آخر. من كلام القبائل السلتية التي سكنت الجزر البريطانية قبل الغزو الروماني، بقيت حتى اليوم لهجات معينة في "ويلز" وجزر "مان" (***Isle of Man***) و"أيرلندا" وأعالي "اسكتلندا" وإقليم "بريتاني" (***Brittany***) في فرنسا. ولكن اللغة "البريطانية" بهذا المعنى لم يكن لها علاقة من أي نوع بالإنجليزية الحديثة سواء في تركيب الجملة أو المفردات. في خلال القرن الأول أخضع الرومان الأرض لحكمهم ومن الطبيعي أنهم حاولوا إدخال لغتهم بين الناس. بشكل افتراضي اقتصر انتشار اللغة اللاتينية أوليا على البلدات والمستوطنات في الجزء الجنوبي من البلاد، حيث امتلك الحكم الروماني أقوى جذوره هناك. على أية حال، كان حتميا أنه خلال تقريبا أربعة قرون من الاحتلال الروماني أن يتم تبني عديد من الكلمات اللاتينية. بل ومن المحتمل جدا أنه بهذا الأسلوب وعلى مجرى الزمن نشأت وتطورت لاتينية محلية خاصة ومنها بالضبط كما في إيطاليا وفي فرنسا وفي إسبانيا تطورت لغة جديدة.

هذا التطور تم تحطيمه بالكامل عندما قامت القبائل الجرمانية الدنيا و"الأنجل" (***Angles***)(•) و"الساكسون" (***Saxons***)(••) و"الجوت" (***Jutes***)(•••) في القرن السادس

(•) الأنجل هم واحد من الشعوب الجرمانية الرئيسية الذين استقروا في بريطانيا في فترة ما بعد الاستعمار الروماني. أسسوا عدة ممالك أنجلوسكسونية في إنجلترا، واسمهم هو أصل اسم إنجلترا. كانت هذه القبائل تعيش في منطقة أنغلن، وهي منطقة تقع على شاطئ بحر البلطيق المعروفة الآن باسم شليسفيج هولشتاين، الولاية التي تقع في أقصى شمال ألمانيا. [المترجم]

(••) السكسون هم كونفدرالية للقبائل الجرمانية في السهل الشمالي الألماني. استقروا في أجزاء كبيرة من بريطانيا العظمى في العصور الوسطى المبكرة وشكلوا مجموعة سكانية مدمجة من الأنجلو ساكسون الذين أقاموا في نهاية المطاف المملكة المتحدة الأولى لإنجلترا. ومع ذلك ظل العديد من الساكسون في ألمانيا، حيث قاوموا توسع إمبراطورية الفرنجة. [المترجم]

(•••) الجوت واحد من أقوى ثلاثة شعوب جرمانية في الشمال الأوروبي إبان العصر الحديدي، والعنصران الآخران هما الساكسون والأنجل. [المترجم]

بغزو بريطانيا واجتاحوا الأرض بعد صراعات ممتدة مع قبائل الشمال المتوطنة شبه الحربية. ثم بدأ خطاب الغزاة يتحول تدريجيا إلى أن يصبح لغة الأرض، رغم تبني العديد من اللهجات المحلية. مع غزوات الهولنديين في القرنين الثامن والعاشر دخلت إلى لغة البلاد تعبيرات جرمانية جديدة — التأثير الذي يمكن إدراكه بوضوح حتى يومنا هذا. وفي الأخير بعد غزو النورمانديين بقيادة وليام الغازي، تشبعت اللغة تماما بالفرنسية النورماندية، حتى حدث ليس فقط زيادة متعمدة للميراث الكلامي القديم بواسطة ما تُسمى الكلمات-القرض، ولكن أيضا حدث تغير عميق في روح وتركيب اللغة. من هذه الانتقالات المتعددة والقوية وخليط اللغات بدأ ينشأ ويرتقي تدريجيا الخطاب الإنجليزي الحديث.

كان لكل لغة نفس النشوء والارتقاء، حتى مع عدم القدرة دائما على تتبع المراحل المنفصلة لهذه العملية بهذا الوضوح الشديد. وليس فقط أن كل لغة قد تلقت في مجرى تطورها عديدًا من عناصر اللغات الأجنبية في مخزون كلماتها، ولكن في أغلب المرات حتى التركيب النحوي للغة قد تغير بعمق بواسطة الاقتراب اللصيق بالشعوب الأخرى. النموذج الكلاسيكي هو الخطاب الحديث لدول البلقان على تنوعها. من الممكن تتبع اللغات المتنوعة لجذور لغوية مختلفة تماما؛ ورغم ذلك، هذه اللغات طبقا لشهادات منيرة لعلماء لغة رفيعي المستوى قد امتلكت طابعا موحدا بشكل ملحوظ ليس فقط فيما يتعلق بعباراتها ولكن أيضا في نشوء وارتقاء الجملة. وهكذا على سبيل المثال ضاعت منهم كلهم صيغة المصدر بشكل أو بآخر. واحدة من أعجب الظواهر في نشوء وارتقاء اللغات هي اللغة البلغارية. طبقا للرأي الموحد لعلماء اللغة المعروفين مثل "سكلايشر" (***Schleicher***)(•) و"ليسكيان" (***Leskien***)(••)

(•) أوجست شلايشر (١٨٢١-١٨٦٨) لغوي ألماني. عمله العظيم "خلاصة وافية للقواعد المقارنة من اللغات الهندو أوروبية"، حاول فيه إعادة بناء لغة هندية أوروبية بدائية. [المترجم]

(••) أوجست لسكيان (١٨٤٠ -١٩١٦) لغوي ألماني نشط في مجال علم اللغة المقارن، خاصة فيما يتعلق بلغات شعوب البلطيق والسلاف. [المترجم]

و"بروجمان" (*Brugman*)(•) و"كوبيتار" (*Kopitar*)(••) وآخرين، فالبلغارية أكثر قربا للغة الكنيسة السلافية القديمة أكثر من أي لسان سلافي حديث آخر؛ إلا أنــه بجــوار ألفين من الكلمات التركية وألف كلمة يونانية امتصت البلغارية عديدًا من التعبيــرات من الفارسية والعربية والألبانية ولغة رومانيا. واتخذ النحو في اللغة البلغارية صــيغًا جديدة تماما. وهكذا تم ربط أداة التعريف بالاسم، كما في الألبانية ولغة رومانيا. أكثر من ذلك، البلغارية هي اللغة الوحيدة بين اللسان السلافي التي فقــدت بالكامــل ســبع حالات واستبدلت مكانها حروف جر، كما في الإيطالية والفرنسية.

علم اللغات المقارن يعرف عددًا عظيمًا من هذه الأمثلة. وهذا أحد أســباب أن علم اللغة الحديث يقترب أكثر فأكثر بوضوح من إدراك أن كــل تــصنيفات اللغــة السابقة طبقا لمجموعات أصولها المتنوعة من الممكن في أحسن الأحوال اعتبارهــا أداة فنية لا تتطابق إلا في القليل مع الحقيقة. نحن نعرف اليوم أنــه حتــى اللغــات الصينية–التبتية ولغات الأورال–ألتاي (*Altai-Ural*)(•••) واللغات الــسامية تخللــت بكتلة كبيرة الكلام الهند–جرماني (*Germanic-Indo*) كما فعلت أيضا اللغة المصرية القديمة. ومن اللغة العبرية أصبح مؤكدا أنه بينما هي لغة عبرية في تركيبها إلا أنهــا

(•) ماتيلدا (تيل) بروجمان (١٨٨٨–١٩٥٨) الكاتبة والشاعرة واللغوية الهولندية. [المترجم]

(••) جرنج كوبيتار (١٧٨٠–١٨٤٤) لغوي سلوفيني وعالم لغوي عمل في فيينا. كما عمل فــي وظيفة الرقيب الامبراطوري للأدب السلوفيني في فيينا. ربما اشتهر لدوره في إصلاح اللغــة الصربية التي كتبها فوك ستيفانوفيتش كراديتش، حيث لعب دورا حيويا في دعــم الإصــلاح باستخدام سمعته ونفوذه باعتباره اللغوي السلافي. [المترجم]

(•••) أورال–ألتاى هو اقتراح عفا عليه الزمن لتوحيد أسرة اللغات الأورالية وألتاى. ظهر أصلا في القرن الـ١٩، وظل الاقتراح فرضية للمناقشة حتى منتصف القرن الـ٢٠، وفي كثير مــن الأحيان يحتدم النقاش مع تفاقم الخلافات بسبب أجندات مذاهب القوميات. منذ ستينات القــرن العشرين، تم رفض الفرضية على نطاق واسع. بومهارت في ٢٠٠٨ تعامــل مــع اللغــات الأورالية، وألتاى والهندو أوروبية كمجموعات لغات بنات على قدم المساواة. [المترجم]

في مفرداتها هي لغة هند-جرمانية. "جي ماينهوف" (*Meinhof*)(•) واحد من أحسن خبراء اللغات الأفريقية، يؤكد أن اللغات السامية والحامية والهند-جرمانية ينتمون لنفس دائرة الكلام.

ولكن لم تكن وحدها التأثيرات الأجنبية التي أثرت على نشوء وارتقاء اللغة. كل حدث عظيم في حياة شعب من الشعوب أو أمة من الأمم التي حرّكت تاريخها في اتجاه مسارات جديدة، ترك هذا الحدث علامات عميقة على لغتها. وهكذا، نتج عن الثورة الفرنسية الكبرى ليس فقط تغيرات عميقة في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في فرنسا؛ لقد تسببت الثورة أيضا في ظهور وجه شبه كامل في اللغة التي نسفت القيود التي فرضتها الأرستقراطية ورجال الأدب الواقعون تحت نفوذها على اللغة. خصوصا في فرنسا بلغت لغة البلاط والصالونات والأدب مستوى من "الأناقة" حتى بدت خالية من كل حيوية في التعبير واستنفدت طاقاتها فقط في الاصطناع. بين لغة المتعلمين ولغة الجموع الغفيرة من الناس فتحت هوة سحيقة فاهًا حتى إنها باتت كالشق السحيق بين الطبقات المتميزة والبروليتاريا لا يمكن عبوره. فقط الثورة استبقت الانهيار. لقد وهبت للحياة الاجتماعية والسياسية الناهضة من جديد عددًا عظيمًا من التعبيرات المشحونة بالقوة والجماهيرية، معظمها أكد نفسه رغم أنه في سنوات الرجعية بُذلت كل المحاولات لحذف كل التعبيرات التي تُذكِّر بالثورة من اللغة. في كتابه "الكلمات والتعبيرات الجديدة" (*Neology*) المنشور عام ١٨٠١ ذكر "ميرسييه" (*Mercier*)(••) ما يزيد على ألفين من الكلمات لم تكن معروفة في عصر لويس الرابع عشر؛ إلا أن عدد المستحدثات الجديدة من الكلمات

(•) كارل فريدريش مايكل ماينهوف (١٨٥٧-١٩٤٤) لغوي ألماني وواحد من اللغويين الأوائل في دراسة اللغات الأفريقية. [المترجم]

(••) لويس سيباستيان مرسييه (١٧٤٠-١٨١٤) كاتب ومسرحي فرنسي. من أشهر أعماله رواية "عام ٢٤٤٠" وفيها مرسييه لا يرى المستقبل طوباويا كليا. رأى نهاية للتطرف في الغنى والفقر؛ ومع ذلك، يظل الفقراء موجودين. رأى القليل من التنمية الاقتصادية وزيادة عدد سكان فرنسا بنسبة ٥٠٪. [المترجم]

والتعبيرات النابعة من الثورة لم يكن ليُستنفَد بأي حال من الأحوال. يقول "بول لافارج" (*Lafargue Paul*)(•) في مقالة بارزة جدا: "الكلمات والتعبيرات الجديدة اجتاحت اللغة في عدد من الصحف والدوريات في ذلك العصر، ولم يكن من الممكن لرجال بلاط لويس الرابع عشر فهمها إلا عن طريق الترجمة"(٥).

يمثل الخطاب الشعبي في الواقع فصلا في حد ذاته. ولو اخترنا اعتبار اللغة صفة جوهرية للأمة سوف نتغاضى على الأرجح عن حقيقة أن الفهم المتبادل بين شتى أعضاء نفس الأمة لا يمكن تحقيقه سوى باللغة المشتركة المكتوبة. ومع ذلك، هذه اللغة التي تقوم الأمة بتطويرها بشكل تدريجي فقط، هي بالمقارنة مع الخطاب الشعبي ليست سوى خلق اصطناعي. ومن هنا، التناقض الدائم بين اللغة المكتوبة والخطاب الشعبي، وهذا الأخير يستسلم للإكراه الخارجي كرها فقط. من المؤكد أن كل لغة مكتوبة قد تطورت أولا من لهجة بعينها. وتنتمي تلك اللهجة عادة إلى منطقة أكثر تقدما اقتصاديا وثقافيا، سكانها لحساب تطورهم الفكري الأعلى يمتلكون أيضا قاموس مفردات لغوية يعطيهم تدريجيا هيمنة معينة على سائر لهجابت الآخرين. هذا التطور تستطيع أن تلحظه بوضوح في كل البلدان. تمتص اللغة المكتوبة تدريجيا كلمات اللهجات الأخرى، وهكذا تتعزز إمكانية التفاهم اللغوي داخل منطقة أوسع. وهكذا نجد في ترجمة لوثر للتوراة، والتي استندت لقواعد لهجة الساكسون الأعلى، عددًا كبيرًا تماما من التعبيرات المستعارة من لهجات ألمانية أخرى. العديد من

(•) بول لافارج (١٨٤٢-١٩١١) صحفي فرنسي ثوري ماركسي اشتراكي، ناقد أدبي وكاتب سياسي وناشط. تزوج ابنة كارل ماركس الثانية، لورا. أفضل عمل معروف له هو "الحق في أن تكون كسلانا". ولد لافارج في كوبا لأبوين فرنسيين، قضى معظم حياته في فرنسا، مع فترات في إنجلترا وإسبانيا. في سن الـ ٦٩، توفي هو ولورا في سن ٦٦ معا في اتفاق انتحار. قبل فترة وجيزة من وفاة ماركس في عام ١٨٨٣، كتب ماركس رسالة للافارج وزعيم حزب العمال الفرنسي "جول جيسيد"، عندما ادعى كلاهما تمثيل المبادئ" الماركسية ". ماركس اتهمهما بأنهما "يلوكان العبارات الثورية" وإنكار قيمة النضالات الإصلاحية. هذه الرسالة هي مصدر تصريح ماركس المشهور، كما نقله فريدريك أنجلز: ("ما هو مؤكد بالنسبة لي هو أنهما، إذا كانا ماركسيين، فمن ثم أنا لست ماركسيا"). [المترجم]

الكلمات التي يستخدمها لوثر في ترجمته لم تكن معروفة تماما في جنوب ألمانيا لدرجة أنها لم تكن مفهومة دون وجود شرح خاص لها، مثلا كلمات:(٦)

" تشعر، الطاعة، خداع، شفاه، دموع، خان، شواطئ، تلال"

(fühlen, gehorchen, täuschen, Lippe, Träne, Kahn, Ufer, Hügel)

وهكذا. كلمات أُخِذت من لهجات أعالي ألمانيا؛ مثل:

"مباراة، دهشة، أيام، ظلم، سلف، مملة"

(staunen, entsprechen, tagen, Unbill, Ahne, dumpf)

بينما كلمات تنتمي إلى أصل ألماني جنوبي، مثل:

"السد، فريسة، تهدئة، واقفا على قدميه، قاتمة، بلطف"

(Damm, Beute, beschuichtigen, flott, düster, sacht)

ولهذا تخدم اللغة المكتوبة وليس الخطاب الشعبي كوسيلة للتفاهم في دائرة أوسع. الرجل من "ديتمار" (***Ditmar***) أو من شرق بروسيا هو عمليا في بلد أجنبي عندما يأتي إلى بافاريا أو سوابيا. بالنسبة للرجل من "فرايسلاند" (***Frieslander***) ما يُسمى "السويسري الألماني" (***Schwizerdeutsch***) يسمعها بوصفه أجنبيًا مثله مثل الفرنسي، رغم أن لديه نفس اللغة المكتوبة. ذلك أن المرء في جنوب ألمانيا لا حيلة له بين اللهجات المتنوعة لسكانها، وهو أمر معروف لمن كان لديه أدنى خبرة بهم. نقابل نفس الظاهرة في خطاب كل أمة. أهل لندن يستطيعون بصعوبة بالغة فهم اللهجة الإسكتلندية؛ وأهل باريس غرباء تماما أمام فرنسية "غاسكو" (***Gascon***) أو أهل "والو" (***Walloon***)؛ بينما بالنسبة لأهل "البروفنسال" (***Provençal***) أسرار عامية باريس هي للأبد مغلقة أمامهم دون دراسة خاصة. إيطالية أهل نابولي أقل صعوبة للإسبان منها لأهل فينيسيا أو أهل جنوة. حديث أهل الأندلس متميز جدا عن حديث أهل قشتالة (الإسبانية)، ولا نتحدث عن أهل كاتالونيا الذين يمتلكون لغتهم الخاصة.

لم يولد بعد علماء فقه اللغة الذين يستطيعون رسم خط محدد فاصل بين اللهجة واللغة. في معظم الحالات من المستحيل تماما تحديد أين تتوقف اللهجة وتبدأ لغة منفصلة. ومن هنا عدم اليقين حول عدد اللغات على الأرض، حيث يضع بعض علماء فقه اللغة هذا العدد نحو ثمانمائة ويضعه آخرون عند ألف وخمسمائة إلى ألفين.

ومع ذلك، فالحديث الخالي من اللهجات الذي تخلقه اللغة المكتوبة لا يستطيع أبدا نقل الروح والطبيعة الخاصة للعبارات الاصطلاحية إلينا بشكل صحيح. فكل ترجمة من لغة أجنبية لها نواحي قصورها التي لا يمكن أبدا التغلب عليها تماما. إلا أن الترجمة من لغة إلى أخرى أكثر سهولة من ترجمة لهجة لغة المرء الخاصة إلى لغة مكتوبة مشتركة. من الممكن نقل وقوع الأشياء العادية، ولكن لا يمكن أبدا نقل الروح الحية التي تقف وتقع مع العبارات الاصطلاحية. كل محاولات ترجمة "فريتز رويتر" (***Fritz Reuter***)(•) إلى الألمانية الفصحى قد فشلت إلى حد بعيد. ويجب أن تفشل دائما بالضبط كما حدث مع فشل محاولة ترجمة قصيدة "حب العمل" (***love's labour***) من "قصائد الألماني" (***Alemannische Gedichte***) من تأليف "هيبيل" (***Hebel***)(••) أو شعراء العامية مثل "فريدريش ستولتجه" (***Friedrich Stoltze***)(•••) أو "فرانز فون كوبيل" (***Franz von Kobell***)(••••) أو "دانييل هيرتز" (***Daniel Hirtz***)(•••••).

(•) فريتز رويتر (١٨١٠-١٨٧٤) روائي من شمال ألمانيا كان مساهما بارزا في الأدب الألماني الجنوبي. تعاني قصص رويتر من نقص في الحبكة، ولكنها تميزت بالبناء الذكي، ورسم الشخصيات بمهارة والنكتة، ورغم ذلك، فقد نالت تقديرا عاليا في ألمانيا. [المترجم]

(••) يوهان بيتر هيبل (١٧٦٠-١٨٢٦) كاتب ألماني للقصة القصيرة وشاعر هجاء، ولاهوتي إنجيلي ومرب، شهرته تعود لمجموعة من القصائد الغنائية والحكايات الألمانية. [المترجم]

(•••) فريدريش ستولتجه (١٨١٦-١٨٩١) وهو الشاعر والكاتب الألماني، الذي اشتهر بقصائده في لهجة فرانكفورت. وبالإضافة إلى ذلك، كان ناشرًا ورئيس تحرير صحيفة "فرانكفورتر *Latern*" وعمل كصحفي. [المترجم]

(••••) فولفغانغ فرانز زافير ريتر فون كوبيل (١٨٠٣-١٨٨٢) رجل تعدين ألماني وكاتب قصص قصيرة وقصائد باللهجة البافارية. [المترجم]

(•••••) جورج دانيال هرتز صانع أسطح ومؤلف من الألزاس. رأس تحرير مجلة الرسول الأعرج على الراين بين ١٨٤٩ و ١٨٩١. [المترجم]

في مرات، سؤال هل يعتبر حديث ما لهجة أم هو لغة متميزة يصبح مسألة سياسية بحتة. وهكذا، الهولندية اليوم هي لغة منفصلة لأن أهل هولندا يمتلكون تنظيمًا خاصًا لدولتهم. إن لم يحدث هذا، لربما ظلت الهولندية لهجة ألمانية دنيا في نظر العالم. نفس العلاقة تقوم بين الهولندية والسويدية. في ألمانيا كما في السويد، يبدو وجود فروق أكبر بين اللهجات المتنوعة للبلاد مما هي موجودة بين الألمانية والهولندية أو بين السويدية والهولندية. من الناحية الأخرى، نرى كيف في ظل نفوذ قومية مكثفة على نحو خاص أمكن إيقاظ لغة ميتة وبعثها إلى حياة جديدة مثل السلتية في أيرلندا والعبرية في "المستعمرات اليهودية في فلسطين".

ولكن الكلام في كل الأنحاء اتخذ مسارات مثيرة للفضول تمامًا ودائمًا ما يعرض صورا مربكة جديدة لم يستطع أي عالم لغوي حتى الآن حلها. لم يمض زمان طويل جدا منذ أن بدأنا نعتقد أن كل اللغات الحية والتي اختفت من الممكن ردها إلى أصل لغوي مشترك. دون شك أسطورة الجنة المفقودة قد لعبت دورا في هذا. الإيمان بالزوج الأول من النوع البشري أدى منطقيا إلى مفهوم لغة أصلية مشتركة (العبرية بشكل طبيعي كانت هي المقبولة) — "اللغة المقدسة". التقدم المعرفي المتعلق بأصل الإنسان وضع نهاية لهذا الاعتقاد أيضا. هذا التحطيم المؤكد للمفهوم القديم أفسح الطريق أولا لفحص تطوري وتاريخي للغة. كانت نتائج ذلك ظهور أن علينا هجرانًا كاملا لكتلة المفاهيم التعسفية المسبقة باعتبارها محل عدم اتفاق ميئوس منه مع نتائج الأبحاث اللغوية الحديثة. وهكذا من بين أشياء أخرى، سقطت فرضية النشوء والارتقاء المنتظم للغة طبقا لقوانين صوتيات محددة، التي كان ينادي بها "شلايشر" وخلفاؤه. وبالتدريج بلغنا الاستنتاج بأن التشكل البطيء للغة ما هو إلا عملية لا تحتمها قوانين على الإطلاق، ولكنها تحدث تمامًا دون قاعدة أو ترتيب. وعندما أيضا انحلت لاحقا وبسلاسة النظرية الأسطورية "للجنس الآري" مع التكهنات الخرافية التي ربطت نفسها بما يُسمى اللغات الهندية الجرمانية التي أسموها وفي عديد من المرات "الآرية". وقد اهتزت بشدة ومن الصعب تأكيدها اليوم.

الرواية الخرافية لشجرة الأنساب المشتركة لما يُسمى باللغات الآرية لم يعد من الممكن بعد مجهودات "يوهانس شميت" (*Johannes Schmidt*)(*) المتشككة، الاستمرار بها ويتم بعناية تجنبها من قبل كبار علماء اللغة. إنني أرى الزمن وهو ليس ببعيد الذي لن يُستخدَم فيه بعد مفهوم علاقات النسب اللغوية على الإطلاق، عندما يصبح في المستطاع الإقرار بتماثل عناصر الكلام في الجزء الأعظم منه ويبقى الجزء الأقل منه دون تفسير، عندما نهجر في الأخير محاولة تطبيق مناهج التاريخ خلال التعامل مع أزمنة ما قبل التاريخ وتطبيق علم التقاليد على الأزمنة التي كانت بلا تقاليد. بناء شجرة الأنساب لعلم فقه اللغات المقارن حقق نجاحاته للمدة التي أتت من خلالها المصادر الأدبية إلينا، ولكنه لم ينتج لنا الصلات التاريخية. عندما ندرك تلك الصلات في ضوء الزمن التاريخي لن تكون هناك أي لغة بنت، ولن يكون هناك سوى تبني الثقافة الأضعف للثقافات الأقوى (التي يقرر فيها غالبا طراز أو دين أو مجد حربي، ما هو الأضعف وما هو الأقوى). هناك تبنٍّ فردي وهناك تَبَنٍّ جماعي، تبنٍّ من فروع ثقافة خاصة وتبنٍّ من ثقافة ككل(٧).

أصل اللغات المختلفة وتشكيلها ملفوف في مثل هذا الظلام الدامس حتى إننا لا نستطيع سوى تلمس طريقنا قدما بمساعدة فرضيات غير يقينية. وما يزيد عن ذلك هو الحذر المفروض على السير في حقل مجهول، حيث من الممكن أن نضل الطريق تماما. ولكن هناك شيئًا واحدًا أكيدًا؛ فكرة أن كل لغة هي إبداع أصلي لشعب معين أو أمة معينة؛ وهي بالتالي تمتلك شخصية وطنية بحتة هي فكرة تفتقد أي أساس، وهي فقط فكرة من تلك الأوهام التي لا حصر لها التي أصبحت في عصر نظريات الأجناس والقومية بارزة بصورة غير مستحبة.

إلا أنه إذا ما تبنى المرء أن الخطاب اللغوي هو تعبير متميز لقومية ما، فمن ثم يجب أن يقيم المرء بشكل طبيعي الدليل على أن شعبًا ما أو أمة ما توقفت عن

(*) يوهانس فريدريش هاينريش شميت (١٨٤٣-١٩٠١) لغوي ألماني. طور نظرية "موجات تطور اللغة". وفقا لهذه النظرية، مميزات اللغة الجديدة تنتقل من نقطة مركزية في دوائر متحدة المركز ولكنها تضعف باستمرار، على غرار الموجات التي تنشأ عندما يلقى بحجر في الماء. هذا ينبغي أن يؤدي إلى التقارب بين اللغات المتباينة. [المترجم]

الوجود، في الوقت الذي، لسبب أو لآخر، هجر هذا الشعب أو هذه الأمة كلامها، وهي ظاهرة ليست نادرة في التاريخ بأي صورة من الصور. أو هل نعتقد أن الشعب بتغيير لغته قد غيَّر أيضا في "الروح القومية" أو في "روح الأمة"؟ وإذا كانت تلك هي الحقيقة، فسوف يبرهن ذلك على أن القومية هي مفهوم غير أكيد بصورة كبيرة ويفتقد أي أساس مادي.

في مجرى التاريخ غيرت الشعوب مرارا لغتها، وفي الجزء الأعظم من مسألة اللغة التي يستخدمها شعب ما اليوم تكون المصادفة فقط. لا يقدم الشعب الألماني أي استثناء في هذا المقام؛ لقد قبلوا بسهولة نسبية ليس فقط أخلاقيات وعادات الشعوب الأجنبية، ولكن أيضا قبلوا منهم لغتهم، ونسوا لغتهم الأصلية. عندما استقر النورمانديون في القرنين التاسع والعاشر في شمالي فرنسا مر ما يقرب من مئة عام قبل أن ينسوا بالكامل لغتهم الخاصة ويتكلموا الفرنسية فقط. وعند غزوهم إنجلترا وصقلية في القرن الحادي عشر تكررت نفس الظاهرة. نسى الغزاة النورمانديون لغتهم الفرنسية المكتسبة عند غزوهم إنجلترا واتخذوا لغة البلاد المكتسبة التي سيطروا مع ذلك على تطورها بشدة. إلا أنه في صقلية وجنوب إيطاليا اختفى التأثير النورماندي بالكلية أو لم يترك سوى آثار ضئيلة. ضاع الغزاة كلية في السكان الأصليين حيث قبلوا لغتهم (وعلى الأغلب عاداتهم الشرقية). ولم يكن النورمانديون وحدهم. خط كامل من الشعوب الجرمانية في تجوالهم وغزواتهم تخلوا عن لغتهم الخاصة وقبلوا بأخرى. ربما نذكر اللومبارديين (***Lombards***) في إيطاليا والفرنجة (***Franks***) في الغال (***Gaul***) والقوط (***Goths***) في إسبانيا دون ذكر الفاندال (***Vandals***) والسوفيان (***Suevians***) والألاني (***Alani***) وشعوب عديدة أخرى. كان عليهم كشعوب وقبائل من أصول شتى قبول نفس المصير.

عندما تفوه "لودفيج يان" الوطني الألماني الأكبر الذي لا يطيق من حيث المبدأ أي فرنسي، قائلا هذه الكلمات: "في لغته الأم يكرِّم كل شعب نفسه، وفي كنوز كلامه يوجد ميثاق تاريخه الثقافي. الشعب الذي ينسى لغته الخاصة يهجر ماهو موكول إليه في الإنسانية، ولا يلعب دور البطل الأقوى على مسرح التاريخ"، هو

لسوء البخت ينسى أن الشعب الذي ينتمي إليه وهم البروسيون كانوا أيضا من الشعوب التي نسيت لغتها وهجرت المهمة الموكولة إليها نحو الإنسانية. فالبروسيون القدامى كانوا شعبا مختلطا، كان العنصر السلافي فيه عنصرا مهيمنا لحد بعيد، وأنهم تكلموا لغة تنتمي إلى "اللاتفية" (**Lettish**) و"الليتوانية"(•) (**Lithuanian**)، والتي أكدت نفسها حتى القرن السادس عشر. لذلك يؤكد لنا عالم فقه اللغة "دورر" (**Dürr**) عن حق: "قلة من الشعوب وربما لا أحد من الشعوب هي التي لم تغير في مجرى التاريخ لغتها؛ بل إن بعضهم غيرها عدة مرات".

في هذا المقام يبرز اليهود بشكل ملحوظ. فتاريخهم الأصلي مثل معظم الشعوب تاريخ مجهول بالكلية؛ ولكن ربما نتصور أنهم دخلوا التاريخ كشعب مختلط. أثناء حكمهم لفلسطين ظهرت هناك لغتان قيد الاستعمال، العبرية والآرامية، وكلتاهما تم استخدامها في الخدمات الدينية. وقبل تدمير أورشاليم بوقت كبير عاشت في روما مُجمَّعات يهودية ذات نفوذ مؤثر تبنت اللغة اللاتينية. وفي الإسكندرية عاش أيضا العديد من اليهود والذين زادت أعدادهم بالهاربين الذين لا حصر لهم بعد فشل تمرد المكابيين (***Maccabees***)(••). في مصر تبنى اليهود اللغة اليونانية وترجموا نصوصهم المقدسة إليها. وفي الأخير كان النص يُدرَّس فقط بهذه الترجمات. ساهمت أفضل عقولهم في الحياة الفكرية الثرية عند اليونانيين وكتبوا بلغتهم تقريبا بشكل كامل.

عند غزو العرب لإسبانيا في بدايات القرن الثامن تدفق العديد من اليهود إلى هذه الأرض، حيث أقيم فعلا كما الحال في شمال أفريقيا عدد كبير من المستوطنات

(•) اللاتفية هي اللغة الرسمية لدولة لاتفيا، والليتوانية هي لغة دولة ليتوانيا، من دول الاتحاد السوفيتي السابق. [المترجم]

(••) المكابيون هم قادة من جيش المتمردين اليهود الذين سيطروا على منطقة يهودا، وقتما كانت مقاطعة من الإمبراطورية السلوقية. أسسوا سلالة الحشمونائيم، التي حكمت من ١٦٤ قبل الميلاد إلى ٦٣ قبل الميلاد. أكد المكابيون من جديد الديانة اليهودية، وذلك جزئيا عن طريق التحويل القسري للسكان إلى اليهودية، وتوسيع نطاق حدود يهودا عن طريق الغزو وتقليل تأثير الحضارة الإغريقية والهلنستية اليهودية. [المترجم]

اليهودية. تمتع اليهود تحت حكم المغاربة بحريات عظيمة جدا، والتي سمحت لهم باتخاذ أدوار بارزة في البناء والتراكم الثقافي في هذه الأرض — التي مثلت في ذلك الزمن واحة وسط الظلامية الروحية التي كانت أوروبا غارقة فيها. أصبحت العربية هي لغة كلام الشعب اليهودي هناك. حتى الأعمال الفلسفية الدينية مثل "دليل المخطئين" (**mMoreh Nebuchi**) الذي وضعه "موسى بن ميمون" (***Maimonides***)(•) و"الخزري" (***Cosari***) للشاعر الشهير "يهوذا اللاوي" (***Helevi Jehuda***)(••) كُتِبا بالعربية ولم يُترجَما للعبرية إلا لاحقا. بعد طرد اليهود من إسبانيا ذهب عديد من العائلات اليهودية إلى فرنسا وألمانيا وهولندا وإنجلترا حيث كانت توجد فعلا مجتمعات يهودية تتبنى لغة حديث البلد المضيف. لاحقا عندما وقع الاضطهاد القاسي لليهود في فرنسا وألمانيا، تدفقت حشود من اللاجئين اليهود إلى بولندا وروسيا. لقد أخذوا معهم ألمانية الجيتوهات القديمة (***Ghetto***) المشبعة لحد كبير بالتعبيرات العبرية إلى موطنهم الجديد، حيث شقت طريقها مع مجرى الزمن العديد من الكلمات السلافية إلى لغة كلامهم. وهكذا تطورت ما تُسمى "اليديشية" (***Yiddish***)، الخطاب الحالي لليهود الشرقيين، الذي أبدع خلال الأربعين سنة الأخيرة أدبيات ضخمة لحد معقول تستطيع بشكل جيد جدا الصمود أمام مقارنتها بأدبيات الشعوب الصغيرة الأخرى في

(•) موشيه (موسى) بن ميمون الفيلسوف والفلكي اليهودي البارز من السفارديم، وأحد علماء التوراة والأطباء الأغزر إنتاجا وتأثيرا في العصور الوسطى. ولد في قرطبة (إسبانيا الوقت الحاضر) إمبراطورية المرابطين ليلة الفصح، ١١٣٥ أو ١١٣٨، ومات في مصر ١٢٠٤، حيث نقل جثمانه إلى الجليل الأدنى ودفن في طبريا. شغل منصب حاخام، وطبيب، وفيلسوف في المغرب ومصر. تأثر بابن سينا (ج ٩٨٠ - ١٠٣٧)، وابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) والفارابي (حوالي ٨٧٢-٩٥٠ / ٩٥١)، ويقال إنه بدوره أثر في الفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين الآخرين. أصبح الفيلسوف البارز والموسوعي في العالمين اليهودي والإسلامي. [المترجم]

(••) يهوذا اللاوي (١٠٧٥-١١٤١) الطبيب والشاعر والفيلسوف اليهودي الإسباني. ولد في إسبانيا، ربما في توليدو وتوفي بعد وقت قصير من وصوله إلى فلسطين، إبان المملكة الصليبية في القدس. يعتبر هاليفي واحدًا من أعظم شعراء العبرية، الذي يحتفل به الجميع لقصائده الدينية والعلمانية، وكثير منها تتلى في القداس في الوقت الحاضر. كان أعظم عمل فلسفي له هو الخزري. [المترجم]

أوروبا. نحن نتناول هنا شعبًا في مجرى تاريخ طويل ومؤلم قد غيَّر مرارا لغته دون أن يفقد بذلك وحدته الداخلية.

من الناحية الأخرى هناك عدد من الحالات حيث جماعة اللغة لا تتطابق مع حدود الأمة على الإطلاق، ومرة ثانية حالات أخرى داخل نفس الدولة بلغات متنوعة. وهكذا بحكم اللغة، أهل "روسيون" (*Rousillon*) يرتبطون بشكل وثيق أكثر كثيرا بأهل كاتالونيا، وأهل كورسيكا بالإيطاليين، والألزاس بالألمان رغم أنهم بعد كل شيء ينتمون جميعا إلى الأمة الفرنسية. يتحدث البرازيليون نفس لغة البرتغاليين؛ وفي بلدان أمريكا الجنوبية الأخرى الإسبانية هي اللغة. يتحدث زنوج هاييتي الفرنسية، فرنسية ركيكة جدا، ورغم ذلك فهي لغتهم الأم - لأنهم لا يمتلكون غيرها. تتحدث الولايات المتحدة نفس لغة إنجلترا. في أراضي شمال أفريقيا وآسيا الصغرى العربية هي اللغة الشائعة. وهناك نماذج مماثلة بعدد كبير.

من الناحية الأخرى، حتى في بلد صغير بحجم سويسرا تُستخدَم أربع لغات مختلفة: الألمانية والفرنسية والإيطالية والرومانش (*Romansh*). لبلجيكا لغتان، الفلامنكية (*Flemish*) والفرنسية. في إسبانيا بجانب القشتالية الرسمية (*Castilian*)، هناك لغة الباسك (*Basque*) والكاتالونية والبرتغالية. من النادر أن تجد في أوروبا دولة لا تحتضن جماعات لغة أجنبية بشكل أكثر أو أقل.

لذلك اللغة لا تميز الأمة؛ بل هي حتى لم تكن دائما عاملا حاسما في تقرير هل أنت عضو في أمة بعينها أم لا. تتشبع كل لغة بكتلة كبيرة من عناصر خطاب لغة أجنبية يعيش فيه نمط تفكير وثقافة فكرية للشعوب الأخرى. لهذا السبب، كل محاولات ترسم ما يسمى "جوهر الأمة" في لغتها تقصر تماما عن أن تحمل الاقتناع بها.

هوامش الفصل الثاني

---

(1) Fritz Mauthner, Die Sprache, Frankfurt a/M 1906, p. 55.

(2) Bilderbuch der deutschen Sprache; Lebenund Weben der Sprache.

(3) Einleitung über die Verschiedenheit des menschlichten Sprachbaues und ihren Einfluss auf die geistige Entwicklung der Menschheit.

(4) Die Sprachwissenwhaft. Leipzig-Berlin, 1923.

(5) هذه المقالة التي استعرنا منها بعض الفقرات المتعلقة بتطور اللغة الفرنسية ظهرت لأول مرة في الدورية الفرنسية "العصر الحديث" (*Era Nouvelle*). وظهرت ترجمة ألمانية في ملحق عدد من صحيفة:

Die Neue Zeit, No. 15, under the title, "Die französischle Sprache vor und nach der Revolution

(6) See W. Fischer, Die deutsche Sprache von heute. Berlin-Leipig, 1918.

(7) Fritz Mauthner, Die Sprache, p. 49

الفصل الثالث

الأمة في ضوء نظريات الأجناس الحديثة

أبحاث ونظرية الأجناس. فيما يتعلق بوحدة النوع البشري. الأجناس الأصلية المزعومة لأوروبا. فيما يتعلق بمفهوم "الأجناس". اكتشاف فصائل الدم والأجناس. نظرية "جوبينو" (*GOBINEAU*) عن تفاوت أجناس البشر في الصفات المادية والقدرات العقلية. تاريخ الآريين كصدام الأجناس. نظرية الأجناس و"حقوق السيد الإقطاعي (*RIGHT SEIGNORIAL*)" في نظريات "تشامبرلين" (*CHAMBERLAIN*) للأجناس. و"جوبينو": الجنس الألماني الخالق لكل الثقافات. المسيح: بروتستانتية ألمانيا كدين لجنس. "الألمانية" (*ANDOMGERM*) و"اليهودية" (*JEWDOM*) قطبان متعارضان. المساعي السياسية لتشامبرلين. نظرية لودفيج ولتمان (*WOLTMANN LUDWIG*). نظرية الأجناس والوراثة. تأثير البيئة الطبيعية. نظريات الأجناس الحديثة. "روح الجنس". الصفات العرقية لحملة الثقافة الألمان. سلطان الصفات المكتسبة. الجوع والحب. الأجناس في الحرب العالمية. النظرية الإسكندنافية. نبذ الأجناس الأخرى. النتائج المترتبة على المفاهيم الوهمية. التناقض في أدبيات الأجناس الحديثة. البشر والأفكار في ضوء نظرية الأجناس. الأجناس والسلطة.

بجانب المفاهيم التي ناقشناها فعلا والمتعلقة بطبيعة الأمة يوجد مفهوم آخر صاخب جدا، واكتسب العديد من الأنصار، خصوصا في ألمانيا. نحن نتكلم هنا عن "جماعة الدم" وعن التأثير المزعوم للأجناس على بنية الأمة وعلى موهبتها الخلاّقة الثقافية والروحية. من البدايات الأولى يجب علينا هنا وضع تمييز واضح بين

الاستكشافات العملية الخالصة المتعلقة بأصل الأجناس وصفاتهم الخاصة، وبين ما يُسمى "نظريات الأجناس" التي يغامر أنصارها بالحكم على الصفات الثقافية والأخلاقية والعقلية لجماعات بشرية بعينها بناء على السمات المادية الحقيقية أو الخيالية لجنسها. التناول الأخير [النظريات] على درجة قصوى من المخاطرة، إلى الحد الذي لا نتيقن تماما ليس فقط من أصل الأجناس ولكن من أصل الإنسان عموما، وعلينا الاتكال بشكل منفرد على الفرضيات، دون أن نعرف إلى أي مدى تتوافق مع الحقيقة أو تفشل في ذلك.

لا تتفق السلطات العلمية في آرائها بالنسبة لعمر الجنس البشري. ذلك أنهم في وقت من أوقات الزمن السابق كانوا على استعداد لوضع أول ظهور للإنسان على سطح الأرض في فترة تعود إلى العصر الجليدي. ومع ذلك، الرأي القائل إن ماضي الإنسان من الممكن تتبعه إلى الحقبة الثلاثية (*Tertiary Period*)(•)، يكتسب مؤخرا أرضية. ونحن أيضا نمضي في ظلام دامس فيما يتعلق بموطن الإنسان الأصلي. ومرة أخرى، برزت إلى المقدمة بشكل حاد آراء مختلفة بوضوح بين أكثر ممثلي العلوم البيولوجية جدارة خلال السنوات الأخيرة ترجع لنتائج بعثات "كاميرون كيبل" (*Cameron Cable*) في جنوب أفريقيا وبعثة الأمريكي "روي تشابمان أندروز" (*Roy Chapman Andrews*)(••) في منغوليا الخارجية. السؤال الذي ظل بلا إجابة هو: هل اقتصر ظهور النوع البشري على منطقة محددة أو حدث في أجزاء متنوعة من الكوكب في نفس التوقيت تقريبا؟ بكلمات أخرى، هل انبثقت فصيلة الإنسان من

(•) "الحقبة الثلاثية" مصطلح سابق لفترة جيولوجية قبل ستة ملايين إلى ٢,٥ مليون سنة. لم يعد يعترف بهذه الحقبة كوحدة رسمية من قبل اللجنة الدولية لطبقات الأرض، ولكن المصطلح ما زال مستخدما على نطاق واسع. وقد تم تقسيم هذه الفترة بين العصر الباليوجيني والنيوجيني وتمتد إلى المرحلة الأولى من العصر الثلجي، والعصر الجليدي. بدأت الفترة مع انقراض الديناصورات غير الطائرة في العصر الطباشيري-الباليوجيني، في بداية حقب الحياة الحديثة، وتمتد إلى بداية العصر الجليدي الرباعية. [المترجم]

(••) روي تشابمان أندروز (١٨٨٤-١٩٦٠) المستكشف الأمريكي، المغامر وعالم الطبيعة الذي أصبح مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي. معروف في المقام الأول بحملاته خلال أوائل القرن العشرين في صحراء غوبي ومنغوليا واكتشافه لبيض الديناصور الأحفوري. [المترجم]

جذع واحد، وحدثت اختلافات الجنس لاحقا بواسطة الهجـرات أو التغيـرات فـي شروط الحياة الخارجية، أو هل كانت اختلافات الجنس بسبب الانحدار مـن جـذوع مختلفة منذ البداية الأولى؟. لا يزال معظم الباحثين اليوم يحافظون على وجهة النظر القائلة بوحدة التناسل، ويرون أن النوع البشري يعود إلى مصدر أصلي واحـد، وأن الفروق بين الأجناس قد ظهرت فقط لاحقا من خلال تغير البيئة. حـافظ "داروين" على وجهة النظر هذه عندما قال: "تقترب كل الأجناس البشرية من بعضها الـبعض أكثر من أي قرد، وأميل لرؤيتهم بوصفهم: ينحدرون من صيغة واحدة". الذي سـبب دعم رجال العلم البارزين لوحدة الأنواع البشرية هو بشكل مبـدئي بنيـان الهيكـل العظمي للإنسان الذي يحدد التشكيل البدني بأكمله، والذي يُظهِر بين كـل الأجنـاس تماثلاً مدهشاً في البنيان.

مع كل هذه المصاعب يجب إضافة حقيقة أن مفهوم "الأجناس" على الإطـلاق ليس واضحا لنا، كما نشاهده من الطريقة التعسفية التـي يمارسـها الرجـال حـول تصنيف الأجناس الموجودة. ارتضينا لوقت طويل أجناس "لينيـوس" (*Linnaeus*)(•) الأربعة ثم أنتج "بلومنباخ" (*Blumenbach*)(••) جنسا خامسا، و"بيفون" (*Buffon*)(•••) سـادسا؛ تـبعهم "بيـسكـل" (*Peschel*)(••••) بالـسابـع فـورا و"إجـاسي"

(•) كارل لينيوس (١٧٠٧–١٧٧٨)، عالم الحيوان والنبات والطبيب السويدي ، الذي وضع أسس نظام التسمية البيولوجية الحديثة ذات الحدين. معروف بأنه أبو التصنيف الحـديث، ويعتبـر واحدا من آباء البيئة الحديثة. [المترجم]

(••) يوهان بلومينباخ (١٧٥٢–١٨٤٠) وهو طبيب، عالم طبيعة وفيزيولـوجي وأنثروبولـوجي ألماني. واحد من أوائل المستكشفين لدراسة البشر بوصفها جانبًا من جوانب التاريخ الطبيعي. تم تطبيق تعاليمه في علم التشريح المقارن لتصنيف ما أسماه الأجناس البشرية، التـي كـان يحددها بخمسة. [المترجم]

(•••) جورج دي بوفو (١٧٠٧–١٧٨٨) عالم المذهب الطبيعـي، والرياضـيات، والكونيـات، ومؤلف موسوعي فرنسي. أثرت أعماله في جان باتيست لامارك وجورج كوفييه. نشر بوفو ستة وثلاثين مجلدا في التاريخ الطبيعي خلال حياته. نشرت إضافة لملاحظاته بحوثـه بعـد عقدين من وفاته. حقا، كان بوفون أبا لكل الفكر في التاريخ الطبيعي في النصف الثاني مـن القرن الـ ١٨ ". [المترجم]

(••••) أوسكار فرديناند بيسكل (١٨٢٦–١٨٧٥) عالم الجغرافيـا والأنثروبولوجيـا الألمـاني. [المترجم]

(*Agassiz*)[•] بالثامن. بل إن "هيكيل" (*Haeckel*) تحدث بعد وقت عن اثنـي عـشر و"مورتون" (*Morton*)[••] عن اثنين وعشرين، و"كراوفورد" (*Crawford*)[•••] عـن ستين وهو العدد الذي تضاعف قليلا في زمن لاحق. لدرجة أن باحثا محترمـا مثـل "لوسكان" (*Luschan*) استطاع عن حق أن يؤكد استحالة تحديـد عـدد الأجنـاس الموجودة من البشر بنفس استحالة تحديد عدد اللغات الموجودة، حيث إن المـرء لـم يعد في استطاعته التمييز بسهولة بين جنس وتنويعاته بنفس القدر من الصعوبة عنـد التمييز بين لغة ولهجاتها. إذا ما وضعنا أوروبيًا شماليًا أبيض بجوار زنجي ومنغولي نمطي، فالفرق واضح لأي عابر سبيل. ولكن إذا ما فحص المرء بعمق التـدريجات التي لا حصـر لها بين هذه الأجناس الثلاث يصل المرء إلى نقطة في الأخير حيث لا يستطيع المرء القول بيقين أين ينتهي أحد هذه الأجناس وأين يبدأ الآخر.

الكلمة القوطية "*reszza*" كانت فعلا تعني فقط الشق أو الخط الفاصل(١). بهـذا المعنى وجدت الكلمة (*race*) قبولا في معظم اللغات الأوروبية حيث إنهـا أصـبحت تُستدعَى لتخصيص الأشياء الأخرى وما زالت. وهكذا في الإنجليزية نحن نفهم بكلمة "*race*" ليس فقط حيوانا أو جماعة بشرية معينة بسمات مادية متوارثة ولكن الكلمـة تُستخدَم أيضا عند التباري في السرعة، مثلا كلمة "*horserace*" أي سـباق الخيـل. أيضا نحن نتكلم عن سباق الحياة (*race of life*) وعـن "*millrace*" أي القنـاة التـي تحمل تيار الماء السريع لتحريك الطاحونة. وفي فرنسا اكتسبت الكلمة من بين معانٍ أخرى معنى سياسيا أيضا، لتُدلِّل على تعاقب الأسر المالكة المتنوعة. وهكذا يتحدثون عن "الميروفينجيين" (*Merovingians*) و"الكارولينجيين" (*Carolingians*) و"الكابيت"

(•) جان لوي رودولف إجسي (١٨٠٧-١٨٧٣)، سويسري المولد أوروبي التعليم. كعالم أحيـاء وجيولوجيا يعتبر شخصية مبتكرة ومذهلة في تاريخ الأرض الطبيعي، في وقت لاحق لفتـت كتاباته الانتباه بسبب موضوعاتها العرقية. رغم غزارة إنتاجه، شوهت سمعته إلى حـد مـا بسبب مقاومته لنظريات التطور الداروينية، وكتاباته في وقت لاحق عن تعدد أجناس الإنسان. [المترجم]

(••) صموئيل جورج مورتون (١٧٩٩-١٨٥١) وهو طبيب أمريكي وعالم طبيعي. [المترجم]

(•••) جيمس كوتس كراوفورد (١٨١٧-١٨٨٩)، ضابط بحرية، ومـزارع، وعـالم مستكـشف وموظف عام في نيوزيلندا. [المترجم]

(*Capets*) بوصفهم السلالة (*race*) الأولى والثانية والثالثة. في الإسبانية والإيطالية أيضا، للكلمة تنويعات مماثلة من المعاني. لاحقا استخدمها بشكل رئيسي من يقومون بتربية الحيوان حتى أصبحت الكلمة تدريجيا شعارا عصريا للأحزاب السياسية. وهكذا أصبحنا نعتاد ربط كلمة "*race*" بمفهوم هو في حد ذاته غير واضح. ولهذا جرؤ أستاذ الأنثروبولوجي المرموق "إف فون لوسكان" (*F. von Luschan*)(*) على القول: "... نعم كلمة "*race*" في حد ذاتها تفقد معناها أكثر فأكثر، ومن الأفضل هجرها لو استطعنا استبدالها بكلمة أقل إلغازا".

ومنذ اكتشاف بقايا الهيكل العظمي البشري الشهيرة في "نياندرتال" (*Neanderthal*) عام ١٨٥٦، حقق البحث العلمي حولها مئة اكتشاف مماثل في أجزاء مختلفة من كوكب الأرض، كلها تعود بأصولها إلى "عصر الجليد". إلا أننا يجب ألا نبالغ في تقدير المعرفة المكتسبة منها، لأنها كلها تقريبا عينات فردية لا يمكن عقد مقارنات مؤكدة مع نظيرها. بجانب ذلك، لا تعطينا البقايا العظمية وحدها أي فكرة مهما تكن تتعلق بلون جلد وشعر هؤلاء البشر الموجودين ما قبل التاريخ والتركيب السطحي لوجوههم. من تركيب جمجمة هذه العينات البشرية من الممكن تقرير أمر وحيد فقط بدرجة مؤكدة من التحديد، اسميا، أن هذه الاكتشافات التي نتعامل معها يوجد على الأقل ثلاث نوعيات مختلفة أُطلِق عليها أسماء الأماكن التي تم اكتشافهم فيها. لذا نحن نتحدث الآن عن "جنس النياندرتال" (*Neanderthal*) و"جنس الأورينياك" (*Aurignac*) و"جنس الكرو مانيون" (*Cro Magnon*). من هذه الأجناس يبدو النياندرتال أكثرهم بدائية بينما رجل الكرو مانيون لكلٍ من تركيب جمجمته والأدوات المكتشفة حوله يبدو أنه كان السلالة الأكثر تطورا من سكان أوروبا في ذلك الوقت.

(*) فيليكس ريتر فون لوسكان (١٨٥٤-١٩٢٤) طبيب ، أنثروبولوجي، مستكشف، عالم آثار أثنوغرافي نمساوي. رغم انضمامه للجمعية الألمانية للصحة العنصرية في عام ١٩٠٨، رفض في أعماله أفكار "العنصرية العلمية"، وشدد على المساواة بين الأجناس البشرية. [المترجم]

في أي علاقة تقف أمام بعضها البعض هذه الأجناس الثلاث، بـافتراض أننـا نتعامل فعلا مع أجناس، ومن أين جاءوا، ذلك ما لا يعرفه أحد. هـل نـشأ جـنس النايندرتال فعلا في أفريقيا وهاجر إلى أوروبا أم هل سكن أقسامًا واسعة من قارتنـا لآلاف السنين حتى تم طرده منها منذ نحو ٤٠ ألف سنة مـضت بواسـطة جـنس الأوريناك، كما يتصور "كلاتش" (***Klaatsch***) و"هايلبورن" (***Heilborn***)، فتلـك هـي طبعا فرضية. وبنفس القدر يصبح موضعا لسؤال هل رجل الكرومانيون هـو فـي الحقيقة نتيجة اختلاط النايندرتال والأوريناك، كما يتصور بعض الباحثين. ويـصبح من الخطأ التام محاولة اشتقاق الأجناس الأوروبية الحالية من تلك الأجناس "الأصلية" الثلاث، حيث إننا لا نستطيع معرفة هل نحن فعلا نتعامل في هـذه التنويعـات مـع الأنماط الجنسية الأصلية أم لا؟ على أغلب الاحتمالات لا.

لا ينقصنا في أوروبا فقط الأجناس الأصيلة؛ بل نفشل في العثور عليها أيـضا بين من نسميهم الشعوب الهمجية، حتى عندما يـصنعون مـوطنهم فـي الأطـراف القاصية من كوكب الأرض مثل أهل الإسكيمو أو سكان "أرض النـار" (***Tierra del Fuego***). وسواء كانوا في السابق "أجناسا أصلية" أم لا فمن الصعوبة بمكـان تأكيـد ذلك اليوم؛ على الأقل وضع معارفنا الحالي لا يبرر لنا تكوين تأكيدات تفتقد كل دليل مقنع. ومن ذلك يبدو أن مفهوم الجنس لا يصف شيئا ما ثابتا وغيـر قابـل للتغيـر، ولكن شيء ما في حالة سيولة أبدية، شيء ما يتبدل باستمرار. رغم كل شيء يجـب أن نحذر من خلط الجنس بالفصيلة أو النوع، كما يحدث لسوء الحظ مـن أصـحاب نظريات الأجناس المعاصرين غالبا. فالجنس هو مفهوم لتصنيف اصطناعي يقوم بـه علم البيولوجي، ويستخدمه كأداة فنية للاحتفاظ بتسجيل مسار ملاحظات معينة. فقـط النوع البشري ككل يمثل وحدة بيولوجية، فصيلة. وهذا تبرهن عليه أوليا القدرة غير المحدودة للتهجين داخل فصيلة الإنسان. كل تزاوج جنسي بين أبناء الأجناس واسـعة الاختلاف يكون مثمرا؛ وأيضا التزاوج بين نسلهم. هذه الظاهرة هي واحدة من أقوى الحجج الداعمة للأصل المشترك للنوع البشري.

مع اكتشاف ما يُسمى بفصائل الدم كان الاعتقاد الأول أن مشكلة الأجناس قـد تم حلها؛ ولكن هنا أيضا تبعه سريعا التحرر مـن الـوهم. عنـدما نجـح "كـارل

لاندشتاينر" (*Karl Landsteiner*)(*) في البرهان على أن من الممكن تمييز البشر طبقا لثلاث فئات دم مختلفة، أضاف إليهم "يانسكي" (*Jansky*) و"موس" (*Moss*) فئة رابعة، كان الاعتقاد أن هذا الاختلاف في فصيلة الدم، وهي حقيقة ذات أهمية فائقة خصوصا بالنسبة للعلوم الطبية، سوف يؤسس لوجود أربعة أجناس أولية من البشر. ولكن سرعان ما اكتشفوا أن فئات الدم الأربع هذه من الممكن العثور عليها بين كل الأجناس، رغم ندرة فصيلة الدم الثالثة بين الهنود الأمريكيين والإسكيمو. فوق كل شيء، أظهروا أن البشر الشُقر ذوي الجمجمة الطويلة بكل علامات الجنس الشمالي قد ينتمون إلى نفس فصيلة الدم مثلهم مثل ذوي البشرة الملونة: الزنوج أو الصينيين بعيونهم اللوزية. وهي دون شك حقيقة حزينة جدا بالنسبة لأصحاب نظرية الأجناس أولئك الذين يمتلكون الكثير جدا ليقولوه حول "صوت الدم".

تحافظ أغلبية المنظرين في الأجناس على ما يُسمى "الصفات المميزة للجنس" والتي هي ميراث خلقته الطبيعة نفسها لهم، ولا تتأثر بشروط الحياة الخارجية وتنتقل دون تغير إلى نسلهم، شريطة أن يكون الأبوان من الأقارب عرقيا. وهكذا فقدر الجنس هو مصير الدم الذي لا يستطيع أحد الفكاك منه. بصفات الجنس نعني أوليا شكل الجمجمة ولون البشرة ونوعًا ولونًا خاصًا للشعر والعيون، وشكل الأنف وحجم الجسم. وسواء كانت هذه الصفات فعلا "لا يمكن استلابها وتبديلها" كما يؤكد منظرو الجنس، وسواء من الممكن فعلا تغييرها فقط عن طريق التهجين بين الأجناس، أو سواء كان من غير الممكن للبيئة الطبيعية أو الاجتماعية أيضا التسبب في تغيير الصفات الفسيولوجية النقية للجنس أم لا فذلك فصل من كتاب أمام العلم لم يُغلق بعد وأمامه الكثير.

(*) كارل لاندشتاينر (١٨٦٨-١٩٤٣)، عالم الأحياء والطبيب النمساوي. أول من ميز فصائل الدم الرئيسية في عام ١٩٠٠، واكتشف، مع ألكسندر وينر، عامل ريسوس في عام ١٩٣٧، وبالتالي تمكن الأطباء من نقل الدم دون تعريض حياة المريض للخطر. مع كونستانتين ليفادتي وأروين بوبر، اكتشف فيروس شلل الأطفال في عام ١٩٠٩. في عام ١٩٣٠ حصل على جائزة نوبل في الفسيولوجيا الطبية. [المترجم]

كيف ظهرت الصفات الخاصة المميزة لمختلف أنواع الأجناس من الأصل، ذلك ما نستطيع فقط تخمينه اليوم، ولكن في كل الاحتمالات لقد تم اكتساب هذه الصفات المميزة بطريقة أو بأخرى بواسطة تغير في البيئة الطبيعية – وهي وجهة نظر يتبناها اليوم معظم علماء الأجناس البارزين. يوجد فعلا عدد من الحقائق الثابتة يبدو منها أن الصفات المادية للجنس ربما تتغير بواسطة شروط الحياة الخارجية ويتوارثها النسل بعد ذلك. في كتابه الممتاز "الجنس والثقافة" (***Race and Culture***)، يسجل "فريدريش هيرتز" (***Friedrich Hertz***) تجارب مع رخويات المحار والحشرات أجراها اثنان من الباحثين، "شرودر" (***Schroder***) و"بيكتيه" (***Pictet***)، اللذين نجحا مع إحداث تغيير البيئة المحيطة في تعديل الغرائز التغذوية ونمط التبويض والتشرنق وغريزة الإنجاب بشكل شامل حتى أن التغييرات انتقلت عن طريق الوراثة، حتى رغم أن الظروف المُعدَّلة تمت إزالتها لاحقا. تجارب الباحث الأمريكي "تاور" (***Tower***) التي أجراها مع "خنفسة كولورادو" معروفة جيدا. عرَّض "تاور" الحشرات لدرجات حرارة أكثر برودة ونجح بهذه التأثيرات وغيرها في إحداث تغير في صفات معينة، أيضا يستمر توارثها عن طريق الإنجاب.

يسجل "إي فاتر" (***E. Vatter***) تجارب عالِم الأنثروبولوجي الروسي "إيفانوفسكي" (***Ivanowsky***)(*) خلال سنوات المجاعة الثلاث في روسيا بعد الحرب [العالمية الأولى]. أجرى "إيفانوفسكي" قياسات [حيوية] لعدد ٢١١٤ رجلاً وامرأة من شتى بقاع البلاد بشكل نصف سنوي منتظم، وهكذا تعرض كل فرد من العينة للفحص ست مرات. وبذلك تم اكتشاف انكماش المقطع العرضي للجسم من أربعة إلى خمسة سنتيمترات، وقل محيط الرأس إلى جانب طوله وعرضه، وتغير مؤشر الرأس (***cephalic index***). كان ذلك صحيحا بين أهل روسيا الكبرى وأيضا بين أهل

(*) ديمتري إيفانوفسكي (١٨٦٤–١٩٢٠) عالم النبات الروسي، أول رجل اكتشف الفيروسات (١٨٩٢)، وبالتالي واحد من مؤسسي علم الفيروسات. في عام ١٨٩٨، الميكروبيولوجي الهولندي مارتينوس بييرنيك كرر بشكل مستقل تجارب إيفانوفسكي وأطلق على هذا الكائن الحي اسم الفيروس. اعترف بييرنيك في وقت لاحق بأولوية إيفانوفسكي في الاكتشاف. [المترجم]

روسيا البيضاء وروسيا الصغرى والسيريان (**Syrians**) والباشكير (**Bashkirs**) والقلموق (**Kalmucks**) والقرغيز (**Kirgizes**). [ارتفعت النسب بين الأرمن و"الجروس" (**Grusians**) و"تتار القرم" (**Tartars-Crim**)]. وبالمثل، النسبة المئوية للرؤوس القصيرة (**shortheads**) زادت وأصبح المؤشر الأنفي (**nasal index**) أصغر. طبقا لإيفانوفسكي "عدم تغير الأنماط الأنثروبولوجية هو خرافة"(٢).

بتغير الطعام والمناخ وتأثير درجات حرارة أعلى أو رطوبة أكثر، ينتج عنها بلا جدال تبدلات في صفات جسمانية معينة. وهكذا تمكن عالِم الأنثروبولوجي الأمريكي الشهير "إف. بواس" (**F. Boas**)(•) من البرهنة على أن تشكيل جمجمة أحفاد المهاجرين أظهرت تغيرا ملحوظا في أمريكا، حتى أن مثلا أحفاد اليهود الشرقيين ذوي الرؤوس القصيرة أصبحت أكثر طولا، والصقليون أصحاب الرؤوس الطويلة أقصر؛ تميل الجمجمة هكذا لاتخاذ شكل معين في القطاع العرضي(٣). تلك النتائج أكثر من رائعة لأنها تتعامل مع تغير في الصفات الجسمانية لا يمكن تفسيره سوى بفعل التأثيرات الخارجية على ما يُسمى "النقاء الوراثي للجنس". ما يحمل مغزى خاصًا ونتائجه حتى الآن لا يمكن حسابها، هو تلك النتائج المُحقَّقة في السنوات الأخيرة بواسطة عمل أشعة "رونتجن" (**Roentgen**) وأشعة "الكاثود" (**cathode**). التجارب التي أجراها البروفيسور "جيه اتش ميلر" (**J. H. Miller**) في جامعة تكساس قدمت نتائج أدت بنا إلى توقع ثورة كاملة في نظريات الوراثة. لم تبرهن تلك التجارب فقط على إمكانية التدخل الاصطناعي في حياة كتلة المادة الحية لتؤدي إلى تغير محسوب في صفات الجنس ولكن أيضا أنه بمثل هذه التجارب من الممكن تحقيق خلق أجناس جديدة.

من كل هذا يبدو أن الصفات الجسمانية ليست غير قابلة للتغيير بأي حال من الأحوال، وأن من الممكن إحداث تغيير ما حتى دون تهجين بين الأجناس. إنها أكثر وحشية، أن تحفز صفات عقلية وروحية فقط على أساس صفات جسمانية واستنباط

(•) فرانز أوري بواس (١٨٥٨-١٩٤٢) واحد من رواد علم الإنسان الحديث والأنثروبولوجيا، الألماني الأمريكي الذي أطلق عليه اسم، "أبو الأنثروبولوجيا الأمريكية". [المترجم]

حكم منها حول الجدارة الأخلاقية. من الحقيقي أن "لينيوس" في محاولته تصنيف الأجناس البشرية أخذ العوامل الأخلاقية في حسبانه عندما قال:

الأمريكي أحمر وأصفراوي منتصب القامة؛ والأوروبي أبيض متفائل وسمين؛ والآسيوي أصفر وسوداوي صعب؛ والأفريقي أسود بارد المشاعر وراكد. الأمريكي عنيد وقانع وحر؛ والأوروبي متحرك حريص ومبتكر؛ والآسيوي قاسٍ يحب العظمة وبخيل؛ والأفريقي خبيث وكسول وغير مكترث. الأمريكي يغطيه الوشم وتحكمه العادة؛ والأوروبي تغطيه الملابس الضيقة ويحكمه القانون؛ والآسيوي تحيط به الملابس الفضفاضة ويحكمه الرأي؛ والأفريقي مدهون بالشحوم وتحكمه النزوة.

ولكن لم يكن لينيوس في مخططه متوافقا مع أي نظريات سياسية. السذاجة المفرطة في ذكر الوشم والملابس وتشحيم الجسم مع أشكال الحكومة برهان على البراءة والطيبة في مجهوده. ولكن مهما يكن الشذوذ الذي تبدو عليه أفكار هذا السويدي من المدرسة الطبيعية في أعيننا، ألا يبقى لدينا الحق في السخرية منها ومن الآراء الواردة في الفيضان المُخجِل لما يُسمى أدبيات دراسة الأجناس التي فاضت علينا في العقدين الأخيرين، دون أن تقدم أي شيء أفضل مما استطاع لينيوس قوله منذ مائتي عام مضت. لأنه عندما جلب الأكاديمي السويدي الوشم والملابس والأجساد السوداء المدهونة في مزيج مع أشكال الحكومة، فقد أحدث أذى أقل كثيرا جدا من محاولة ناس الزمن الحاضر استنباط القدرات الثقافية، والطبيعة والتصرفات الأخلاقية والروحية للأجناس على اختلافها، من لون جلودهم وانحناء أنوفهم أو شكل جماجمهم.

أول محاولة لتفسير صعود وسقوط الشعوب في التاريخ كلعبة تناقضات بين الأجناس، أقدم عليها الرجل الفرنسي "كونت أرثر جوبينو" (***Count Arthur Gobineau***) الذي كان قد شاهد أثناء مهنته الدبلوماسية العديد من الأراضي النائية. لقد كان كاتبا غزير الإنتاج لحد معقول؛ ولكننا نهتم هنا فقط بأعظم إبداعاته

(*magnum opus*)، كتابــه "أطروحــة حول عدم المساواة بــين أجنــاس البــشر" (*Essai sur l'inegalite des races humaines*)، الذي ظهر لأول مرة عــام ١٨٥٥. أعطت ثورة الباريسيين في فبراير ١٨٤٨ لجوبينو طبقا لنصّ عباراته نفسها، الــدافع الأول نحو صياغة أفكاره. فقد رأى في وقائع ثورة ذلــك الــزمن النتــائج الوحيــدة الحتمية لهياج عام ١٧٨٩ العظيم، الذي تسبب وسط انقباضاته العنيفــة فــي انهيــار العالم الإقطاعي إلى حطام. وقد كون جوبينو رأيه الخاص عن أسباب هذا الانهيــار. بالنسبة له لم تكن الثورة الفرنسية أي شيء سوى تمرد خليط جنس السلتيين الرومان الذي عاش سنوات وسنواتٍ في حالة اعتمادية فكرية واقتصادية على طائفة الأســياد الفرنجة النورمان. طبقا لجوبينو، تكونت هذه الطائفة من أحفاد أولئك الغزاة الشماليين الذين قاموا في الزمن الغابر بغزو البلاد، وأخــضعوا الــسكان الــسلتيين الرومــان لحكمهم. لقد كان هذا الجنس بعيونه الزرقاء وشعره الأشقر وطول قامته الذي يمثــل بالنسبة لجوبينو المجموع الكلي لكل الكمال العقلي والبدني والذي ضمن لــه تفــوق ذكائه وقوة إرادته في حد ذاتهما أداء الدور الذي كان مُقدَّرًا له لعبه في التاريخ.

كانت هذه الفكرة، على أية حال من الأحوال، جديدة بالكلية. قبل زمن الثــورة الفرنسية بكثير تفتقت الفكرة في عقول الأرستقراطية. "هنري دو بولانفييــه" (*Henri de Boulainvilliers*)(*) (١٦٥٨-١٧٢٢) مؤلف العمــل التاريخي الــذي لم يُنــشَر إلا بعد وفاته، أكد أن النبلاء الفرنسيين من الطائفة الحاكمة منحــدرون مــن الغــزاة الجرمانيين، بينما الجموع الغفيرة من البرجوازية والفلاحين يُعتبَرون من نسل السلت والرومان المقهورين. حاول بولانفييه بناء على هذه الفرضية تبرير كــل امتيــازات النبلاء، في معارضة لكلٍ من الملك والشعب، وطالب لطبقته بالحق فــي الاحتفــاظ بحكومة البلاد دائما بين أيديهم. تبنى جوبينو هذه النظرية ومدها بشكل كبير للتطبيــق

(*) هنري دو بولانفييه (١٦٥٨-١٧٢٢) أحد النبلاء الفرنسيين، كاتب ومؤرخ. يذكر في المقــام الأول باعتباره مؤرخا حديثا في وقت مبكر من الدولة الفرنسية، كما نشر ترجمــة فرنــسية لكتاب الأخلاق لسبينوزا، وكتب حول موضوعات متنوعة مثل التنجيم، والفيزيــاء والفلــسفة واللاهوت. [المترجم]

على كامل تاريخ البشرية. ولكن حيث إنه كما قال عن نفسه ذات مرة "يصدِّق فقط فيما يبدو له جديرا بالتصديق" فما حدث حتما هو أنه اندفع إلى الخروج بأكثر الاستنتاجات جرأة.

وبالضبط كما أعلن "جوزيف دو مايستر" (***Joseph de Maistre***) ذات مرة أنه لم يقابل أبدا كائنا بشريا، ولكن فقط فرنسيين وألمانًا وإيطاليين وهكذا، كذلك أيضا أكد جوبينو أن الكائن البشري المجرد لا وجود له سوى في عقول الفلاسفة. في الواقع، ليس الكائن البشري سوى تعبير عن الجنس الذي ينتمي إليه؛ "صوت الدم هو صوت القدر"، الذي لا يستطيع البشر الفكاك منه. لا تمتلك البيئة المناخية ولا الظروف الاجتماعية للحياة أي تأثير جذير بالذكر على القوة الخلاقة للشعوب. القوة الدافعة في كل الثقافات هي العرق، وفوق كل شيء الجنس الآري، القادر حتى في ظل أسوأ الظروف غير المواتية على تحقيق جلائل الأعمال طالما ظلَّ يتجنب الاختلاط بعناصر الأجناس الأقل جدارة. "جوبينو" متبعا تصنيف العالِم الطبيعي الفرنسي "كوفييه" (***Cuvier***)(*) ميَّز ثلاث مجموعات عرقية كبيرة، البيض والصفر والسود. كل مجموعة طبقا لجوبينو، تمثل تجربة منفصلة للإله في خلق الإنسان؛ بدأ الله بالسود ليخرج في النهاية بخلق الرجل الأبيض على صورته. لا توجد علاقات داخلية بين هذه المجموعات العرقية الكبيرة الثلاث، حيث إنها تنحدر من جذوع مختلفة. وكل ما هو خارج هذه الأجناس الأساسية الثلاث كان خليطا عرقيا — بالنسبة لجوبينو، هذ الخليط العرقى "***mongreldom***" أتى للوجود نتيجة للتهجين بين الأبيض والأصفر والأسود.

(*) جان ليوبولد نيكولا فريديريك كوفييه (١٧٦٩-١٨٣٢)، والمعروف باسم جورج كوفييه، عالم الحيوان والطبيعة الفرنسي، الذي يشار إليه أحيانا باسم "أبو علم المتحجرات". كوفييه شخصية رئيسية في بحوث العلوم الطبيعية في أوائل القرن الـ ١٩ وكان له دور أساسي في إنشاء ميدان علم التشريح المقارن وعلم المتحجرات من خلال عمله في المقارنة بين الحيوانات المعاصرة مع الحفريات.

ومن الواضح في رأي جوبينو أن الجنس الأبيض متفوق ببون شاسع على الجنسين الآخرين. إنه في أحسن معنى "جنس نبيل"، فإلى جانب جماله الفيزيائي يمتلك الجنس الأبيض أيضا الصفات العقلية والروحية الأكثر تميزا – وفوق كل شيء الاتساع العقلاني للرؤية والقدرة المتفوقة على التنظيم، وعلى الأخص الباعث الداخلي للقاهر، ذلك الباعث المُفتقَد بالكلية في الجنسين الأصفر والأسود والذي يعطي للآريين وحدهم في التاريخ تلك القدرة على تأسيس دول وحضارات عظمى.

يميِّز جوبينو عشر فترات ثقافية عظمى في التاريخ، تشمل كل العصور المهمة في حضارة البشر، وينسبها بشكل حصري إلى نشاط الجنس الآري. منشأ وتطور وأفول هذه العصور العظمى يؤسس طبقا لفهمه للأمور محتوى التاريخ الإنساني بأكمله؛ لأن الحضارة والانحطاط هما قطبان تدور حولهما كل الأحداث. جوبينو الذي كان يجهل كلية فكرة النشوء والارتقاء العضوي حاول تفسير نهوض وانحلال الحضارات العظمى بانحطاط الأجناس أو بالأحرى الأجناس الحاكمة حيث إن الجموع بالنسبة له كائنات أقل أهمية، وهي التي تمثل الأغلبية الكبيرة في كل دولة وتتواجد فقط بغرض أن تُحكَم بواسطة الغزاة أنقياء الجنس. تُنسَب أسباب التغيرات في العلاقات والمؤسسات الاجتماعية بشكل وحيد إلى تغير الأجناس. يحدث انحلال المملكة وثقافتها عندما يختلط قدر كبير من الدماء الأخرى بدماء طائفة الغزاة الفاتحين. من هذا لا ينتج فقط تبدلا في السمات الخارجية للجنس ولكن أيضا تغيرا في الدوافع الفكرية والروحية للجنس السيد مما يؤدي إلى انحلال تدريجي أو سريع. في هذا التحلل الداخلي للجنس النبيل يُوجَد التوضيح الأخير والصحيح لأفول كل الحضارات العظمى.

كلما كان المكون من الجنس الأبيض أقوى في دماء شعب ما كان هذا الشعب أكثر بروزا في نشاطه الثقافي، وكانت قدرته على بناء دولة أعظم؛ بينما التسرب القوي والزائد عن الحد للدماء الزنجية أو المنغولية ينسف السمات الثقافية الإبداعية للجنس القديم، ويتسبب تدريجيا في الانحلال الداخلي. وفي تباين مع "تشامبرلين" ومعظم أنصار نظريات الجنس الحديثة، كان جوبينو متشائما بعمق حول المستقبل. لم

يستطع الهرب من الاستنتاج بأن الجنس الجرماني هذا "البرعم الأخير على جذع الجنس الآري" كما سمَّاه، محكوم عليه بالدمار الحتمي. بدا له الانتشار الواسع للأفكار الديموقراطية والجمهورية علامة لا تُخطأ على الانحطاط الداخلي؛ وهي تُنبِئ بانتصار "الجنس الهجين" (***mongreldom***) على الجنس الآري النبيل. طبقا لجوبينو الحكم الملكي فقط يستطيع تحقيق أي شيء دائم، حيث إنه يحتوي في حد ذاته على قانونه الأساسي لكينونته، بينما الديموقراطية تعتمد دائما على قوى خارجية، وهكذا لا تستطيع أن تفعل شيئا مهمًا. فقط الدم المنحط للأجناس المختلطة هو الذي يطالب بالديموقراطية والثورة. يقترب جوبينو في هذه النقطة من آراء "جوزيف دو مايستر" (***Joseph de Maistre***)، حامل لواء الرجعية، الذي يمتلك معه الكثير من المشتركات، شاملة فعليا ما يشيب له الولدان من تشويه الحقائق التاريخية وما يكاد يكون سذاجات لا يتصورها عقل من التفسيرات المثالية. ورغم اكتشاف "دو مايستر" جذر كل الشرور في البروتستانتية فإنها وصلا إلى الأمر نفسه في النهاية، فقد كانت الديموقراطية بالنسبة لدو مايستر التنويعة السياسية للبروتستانتية.

اشترك جوبينو في الرأي مع كل أنصار نظرية الأجناس اللاحقين في إحدى النقاط بشكل حاد: لم يحمل أي تعاطف مع الطموحات القومية، ونظر إلى فكرة "أرض الآباء" بعداء صريح. ولكراهيته الشديدة لأي شيء يتمتع بالديموقراطية لم يكن ممكنا اتخاذ موقف آخر. ثم اتخذت فكرة أرض الآباء والأمة أيضا الطابع الخاص الذى تحملانه اليوم من الثورة الفرنسية. كان ذلك كافيا حتى يحتقر جوبينو الديموقراطية مثل "الرجس الكنعاني" الذي استمده الجنس الآري ضد رغبتهم من الساميين. وطالما بقيت الهيلينية آرية، أصبحت فكرة أرض الآباء بالكامل غريبة على اليونانيين. وبينما يتقدم الاختلاط المتبادل مع الساميين أكثر فأكثر، يجب أن يخلي الحكم المطلق المكان للجمهورية. العنصر السامي يدفع نحو استبداد الحكم المطلق جبرا، كما وضعها جوبينو؛ إلا أن الدم الآري الذي ما زال نشطا في الدم المختلط عند اليونانيين اللاحقين كان معارضا للاستبداد الشخصي كما كان شائعا في آسيا، ووصل منطقيا إلى استبداد الفكرة – فكرة أرض الآباء.

جوبينو متسق تماما في هذه النقطة: عداؤه لفكرة أرض الآباء هو المُنتَج المباشر والاشتقاق المُتعمَد لنظريته في الأجناس. إذا ما كانت الأمة في الواقع هي جماعة وحدة عرقية لطيفة، فمن ثم غريزة العرق يجب أن تكون أقوى موادها اللاحمة. ومع ذلك إذا ما كانت الأمة مصنوعة من أكثر المكونات العرقية تنوعا- وهي الحقيقة التي لا يجرؤ مُنظِّر واحد للأجناس منازعتها- فمن ثم، لابد وأن تأثير فكرة الأجناس على مفهوم الأمة أصبح مثل تأثير الديناميت، إذ قامت بتفجير قواعدها إلى شظايا. أدرك "جوبينو" وهو الأكثر موهبة وخيالا من أي من خلفائه بشكل واضح التعارض بين الجنس والأمة؛ وقد رسم خطا حادا يفصل بين الشريحة نقية الجنس الحاكمة للأمة و"هجين" الجموع العظيمة، وَهو الخط الذي حاول منظرو الأجناس لدينا ذوو الميول القومية عبوره دون جدوى. فكرة أن الجماهير العظيمة للأمة هم مجرد أقنان (*tsHelo*) يجب عليهم الخضوع دون اختيار لحكم الطائفة صاحبة الامتيازات التي يحددها نقاء الدم، هي واقعيا فكرة تمثل الخطر الأعظم على اللُحمة الوطنية.

حاول المعجبون بجوبينو تعليل موقف الأستاذ حول هذه النقطة بشرح أنه يعتز عقليا بنموذج مثالي لأرض الآباء يتوافق مع مشاعره الدفينة، وأنه لم ينس أن يأخذ في الحسبان ذلك الاحتياج الوطني الذي يقال إنه يسكن داخل كل إنسان. ولكن مثل هذا التوضيح لا يخلو من قيمة. لو استطاع الإنسان بشكل تعسفي وضع أرض آباء نموذجية من خياله لنفسه، فذلك يبرهن فقط على أن أفكار أرض الآباء والأمة هي مفاهيم خيالية من الممكن زرعها داخل الإنسان، ومن الممكن في أي وقت إخراجها منه بواسطة أوهام خيالية أخرى. كان جوبينو خصما متعصبا للمساواة في حقوق البشر؛ ولذلك بدت له الثورة تدنيسا لنظام رتبته يد العناية الإلهية. فكامل أيديولوجيته عن الأجناس كان مجرد ناتج أمنية عميقة: أن تزرع في الإنسان الإيمان بعدم إمكانية تبديل التفاوت الاجتماعي الظالم. وكما أوضح "مالتوس" (***Malthus***)(•) عن "الفوائض

(•) القس توماس مالتوس (١٧٦٦-١٨٣٤) رجل دين وباحث إنجليزي في مجالات الاقتصاد السياسي والديموغرافيا. في "مقال عن مبدأ السكان" كتب: "إن قوة نمو السكان إلى أجل غير=

التي لا لزوم لها" (*superfluous*) بقوله إن مائدة الحياة ليس لديها أماكن للجميع، ومن هنا كانت أمنية "جوبينو" أن يبرهن للعالم أن استعباد الجماهير هو أمر قد حتمه القدر وهو قانون في الطبيعة. فقط مفعول فطرة الجنس الأدنى المختلط عندما يبدأ تأثيره داخل دم الطائفة السائدة، يبدأ ظهور الإيمان بمساواة كل شيء في الشكل الإنساني. بالنسبة لجوبينو كان هذا الاعتقاد وهمًا يجب أن يؤدي بطريقة لا يمكن علاجها إلى تدمير كل النظام الاجتماعي.

ورغم أن جوبينو لم ينل سوى قدر قليل من الاعتراف في موطنه فرنسا، بل إن أعماله الأدبية البحتة نالت استحسانا أقل مما تستحق، فإنه مارس على تطور الآراء في موضوع الأجناس في أماكن أخرى وخصوصا ألمانيا نفوذا لا يمكن التقليل منه. ومن خلال تعارفه مع "ريتشارد فاجنر" (*Richard Wagner*)، وفي منزله عقد أول تعارف مع "شيمان" (*Schemann*) كاتب السيرة الذاتية والمترجم لحياة جوبينو، هناك تكونت فيما بعد ما تُسمى "جمعية جوبينو" التي اعتنت بنشر أعماله عن الأجناس وعززت تقدم أفكار الرجل الفرنسي خصيب الخيال؛ ورغم كل نقاط ضعفه من الناحية العلمية فلا يمكن إنكار عظمة معينة فيه كانت تنقص بالكامل كل أتباعه اللاحقين.

التأثير الأقوى كثيرا في ألمانيا على مذهب تطور الأجناس وأيضا خارج ألمانيا مارسه الإنجليزي "هيوستن ستيوارت تشامبرلين" (**Houston Stewart Chamberlain**) الذي نال عمله "قواعد القرن التاسع عشر" (**Die Grundlagen des 19 Jahrhunderts**) ذيوعا واسعا (١٨٩٩). تمتع تشامبرلين بحظوة خاصة عند الملك وليام الثاني، الذي عرف كيف يتقرب من أكثر جوانبه الملائمة. فقد شبَّه حكم وليام بـ "الصباح المشرق" وشهد بأنه كان "حقا الإمبراطور الأول". ألقى لورد قلعة "دورن" الحالي آذانا صاغية لمثل هذا النفاق الصريح، لذلك لا نستطيع إغفال أن تشامبرلين بقدرة عالية تقدم صفوف العقول العظيمة المعاصرة. وجد كتاب "القواعد"

=مسمى أكبر من قدرة الأرض على إنتاج حد الكفاف للإنسان". كرجل دين في الكنيسة الإنجليكانية، رأى مالتوس هذه الحالة مفروضة إلهيا؛ حتى نتعلم السلوك الفاضل. [المترجم]

(*Grundlagen*) أحسن مبيعًا وأسرع انتشارًا بين أعضاء الطائفة الحاكمة في ألمانيا. من أجل ضمان أوسع انتشار ممكن لكتابه، تم تأسيس صندوقٍ ماليٍ خاصٍ؛ وتبنى "القيصر" (*Kaiser*) هذا العمل شخصيا وهكذا تبرع للعديد من المكتبات الخاصة أو مكتبات الدولة في ألمانيا ولكل مدارس الرايخ. وطبقا لتصريح "فون بيلو" (*von Billow*) الخبيث، اعتاد وليام قراءة فصول كاملة من الكتاب لسيدات بلاطه حتى يسقطن في نوم عميق.

كقاعدة، يُعتبَر تشامبرلين مجرد متمم لنظرية جوبينو في الأجناس؛ إلا أنه دائما ما كان يُشدِّد على تفوقه العقلي. من المستحيل أن تعارض مثل هذه النظرة بقوة زائدة عن الحد. ببساطة تشامبرلين أحد المنتفعين بجوبينو، ودونه كتاب "القواعد" لن يفكر به أحد. لايستطيع أحد ممن قارن الكتابين التغافل عن هذا الاستنتاج. تعرَّف تشامبرلين أولا على فلسفة الأجناس للتاريخ عند جوبينو في منزل والده بالتبني "ريتشارد فاجنر"، واختص سماتها الأساسية لعمله الخاص به.

نكتشف عند تشامبرلين، ليس ما هو أكثر مما لدى جوبينو، ماذا يكون "الجنس/العرق" بالضبط. إنه القطب الصوفي لفكرة الجنس، الذي تكثفت فيه لتصبح أسطورة للأجناس يخلص لها المؤمنون. كانت الصفات الخارجية مثل شكل الجمجمة ولون الشعر والجلد والعينين بالنسبة له هي معانٍ كمية؛ حتى اللغة لم تكن العنصر المُحدِّد. فقط الشعور الفطري باللُحمة الذي يكشف عن نفسه من خلال "صوت الدم" هو العامل المُحدِّد. "هذا الشعور بالانتماء للجنس في أحضان المرء نفسه" الذي لا يخضع لأي ضوابط، ولا يمكن فهمه بشكل علمي هو كل ما كان لدى تشامبرلين ليخبرنا به عن الجنس.

ومثل جوبينو، يرى تشامبرلين في كل فترة لثقافة عظمى الناتج الذي لا يمكن إنكاره للذكاء الألماني، مع تأكيد لطيف يتناسب مع "الجنس النبيل" والثروة الثقافية لكل الشعوب ولكل العقول العظيمة التي قد أنتجها النوع البشري بالمرة. الألمان هم ملح الأرض؛ لقد وهبتهم الطبيعة نفسها كل الصفات العقلية والروحية التي تناسبهم بوصفهم "أسياد العالم". هذا القدر التاريخي المزعوم للألمان يتوالى بوضوح لمؤلف

كتاب "القواعد" من كل التاريخ السابق حتى إن أي شك في ذلك يصيبه بالخرس على الفور. إنهم الألمان الذين لعبوا كطائفة قائدة دورا هاما حتى بين زمر الناس غير الجرمانية، مثل الفرنسيين والإيطاليين والإسبان والروس؛ لأن تأثيرهم فقط هو على الإطلاق الذي يجعل الحضارة قادرة على التطور في تلك الأراضي. حتى حضارات الشرق العظيمة نهضت فقط بهذه الطريقة. تحت نفوذ الدم الألماني نهضت هذه الشعوب إلى مستوى مجد لم يحلموا به من قبل، ثم انحدروا حين ارتخت المرونة الفكرية، وخمدت إرادة الحكم في الطبقة السائدة التي تدهورت من خلال اختلاط الدم بالأجناس الدنيا. حتى لم ينكر تشامبرلين أن التهجين ما بين الأجناس يستطيع ألا يكون ميزة للتطور الثقافي ما دام يتضمن اختلاط دماء الأجناس المرتبطة بعلاقة بين بعضها البعض فقط؛ لأن الجنس النبيل يبني نفسه فقط تدريجيا بواسطة الاختلاط المتبادل مع أجناس أخرى ذات نفس الجدارة بشكل أكثر أو أقل. عند هذه النقطة يفارق مفهوم تشامبرلين صحبته لمفاهيم جوبينو. بالنسبة لجوبينو يقف الجنس في بداية كل التاريخ البشري. فالجنس يمتلك صفات عقلية وفيزيائية تنتقل بالوراثة، ومن الممكن تغييرها فقط بواسطة التزاوج مع أجناس أخرى. ولاقتناعه بأنه في مجرى آلاف السنين، ينحط دم الجنس النبيل بشكل دائم ويفقد صفاته النفيسة عن طريق الاختلاط بأجناس الصُفر والسود، تطلع نحو المستقبل بعيون كئيبة. تشامبرلين، الذي من المؤكد أن نظرية داروين لم تتركه دون تأثير ما، رأى في الجنس ليس فقط نقطة الانطلاق، ولكن ناتجًا للنشوء والارتقاء. طبقا لرؤيته ينشأ الجنس من خلال الانتخاب الطبيعي في الصراع من أجل الوجود، الذي يقضي على العاجز ويحتفظ فقط بالفرد القادر من أجل تناسل الأنواع. وبالنتيجة الجنس هو المُنتَج النهائي لعملية انشطار مستمرة في الأنواع ذات الصلة.

ولكن إذا كان الجنس هو مُنتَج النشوء والارتقاء وليس نقطة انطلاقه، فمن ثم إنتاج أجناس نبيلة للمستقبل هو أمر مضمون بشرط أن تحفظ الشريحة العليا الحاكمة للأمة في قلبها تعاليم التاريخ، وتتقي مخاطر "فوضى الأجناس" بتدابير سلامة وصحة الجنس المناسبة. ولتعزيز موقعه لجأ تشامبرلين إلى تجارب مُربِّي السلالات، أظهر

لنا كيف يخرج الجنس النبيل في الجياد والكلاب أو الخنازير إلى الحياة. ومن الصحيح أنه نسى النقطة الأساسية، اسميًا، تزاوج الأجناس البشرية في مجرى ألفيات السنين تم تحت ظروف مختلفة جدا عن تلك التي اتبعوها فيما يُسمى "تجارب إكساب النبالة" في حظائر مربي السلالات الحيوانية. بالنسبة لجوبينو يجب عن حق أن نقرأ: في البداية كان الجنس/العرق. لذلك لا تعني الأمة شيئا بالنسبة له، وفكرة أرض الآباء لم تكن سوى ابتكار ماكر لعقل الساميين. إلا أن تشامبرلين الذي اعتقد في إنتاج سلالات الجنس النبيل، تمنى تدريب الأمة على النقاء العرقي. وحيث بدت الأمة الألمانية بالنسبة له أفضل ما يناسب هذا الغرض، بسبب أن الدم الألماني، طبقا لرأيه، الذي يتدفق في أوردتها هو أنقى دم، وقد رأى في "التوتون" (*Teuton*)(•) حملة لواء المستقبل.

بعد أن ثبَّت تشامبرلين الألمان النبلاء بواسطة إلحاق كل السمات العقلية والروحية التي يمكن تصورها بهم بطريقة واسعة فعلا، لم يتبق شيء ذو بال للشعوب المنحدرة من الأجناس الأخرى سوى الاستسلام بلا قيد ولا شرط للجنس السيد الفخور بنفسه، وفي ظلال مجده الشاهق يجرجرون أقدامهم في وجود متواضع. وحيث إن البقية الأخرى هم مجرد ماكينات متهالكة لتاريخ الحضارة يصبح الأمر أكثر سوءا جدا بالنسبة لهم لكنهم لا يستطيعون رؤية ذلك.

طبقا لتشامبرلين التعارض بين الشعوب الرومانية والألمانية يؤسس كامل محتوى التاريخ الحديث. وحيث إن العالم الروماني الذي كان قد نشأ من وسط "الفوضى العظيمة للشعوب"، قد ربط نفسه، خيرا كان أم شرا، "بالأهداف المادية" للكنيسة الكاثوليكية؛ فقد كان هذا الربط بحكم الضرورة، حيث إن صوت الدم لم

(•) التيوتون، قبيلة جرمانية أو سلتيك ذكرهم الكتاب اليونانيون والرومان، ولا سيما سترابون وماركوس فيليوس باتركولوس. ووفقا لخريطة بطليموس، كانوا يعيشون أصلا في جوتلاند، وهو ما يتفق مع بومبونيوس ميلا، الذي وضعهم في الدول الإسكندنافية. ويستخدم الآن مصطلح شعوب التيوتون لتحديد البشر الذين يتحدثون لغات جرمانية من عائلة اللغات الهندو أوروبية بشكل عام، وبشكل خاص، الذين يتحدثون الألمانية. [المترجم]

يترك له خيارا آخر؛ لذلك أصبحت البروتستانتية بالنسبة لتشامبرلين إنجازا عظيما للثقافة الألمانية. الألماني هو الوزير المختار خصوصا للبعثة البروتستانتية، التي من خلالها أدركت المسيحية لأول مرة محتواها الحقيقي. وحيث إن المسيحي قد اختار دون تفكير "اليهودي"، عيسى، مُخلِّصا له، فذلك بالتأكيد كان حبَّة الدواء المرَّة؛ وقد فات أوان التراجع عن ذلك. ولكن أليس مكتوبا في الإنجيل أن المسيح رأى الضوء أول مرة في الجليل؟ وفورا "غريزة الجنس" جاءت لمعونة تشامبرلين وأخبرته أنه بالضبط في هذا الجزء من فلسطين قد حدث تهجين مكثف للأجناس وفوق كل شيء، أنه في الجليل قد استوطنت جماعات جرمانية. ألا يجب أن يعترف المرء إذاً أن المسيح قد كان ألمانيًا؟ إنه في الواقع أمرٌ لا يُصدَّق أن تخرج عقيدة من "اليهود المخمورين بالمادية"، محتواها الروحاني في معارضة كاملة مع العقل اليهودي.

كشف تشامبرلين عن كراهية مريضة تماما لكل شيء يهودي. بل إنه حتى غامر بالتأكيد لقرائه السذج أن الطفل الألماني الذي لم تخرب أو تضعف بعد حدة حواسه بالأحكام المسبقة للبالغين يستطيع أن يخبرنا بفطرة بريئة متى كان اليهودي قريبا منه. إلا أنه وجد أن من المستحيل له أن يتحدث بشكل جيد عن اليهود الإسبان الذين يُسمون "السفارديم" (***Sephardim***) بينما هو لا يستطيع أبدا الحط من شأن "الاشكيناز" (***Ashkenazim***) وهم يهود البلدان الشمالية بالحدة الكافية. وحتى يكون متأكدا من أمره، وضع تفضيله للسفارديم على أساس فرضية أنهم كانوا في الواقع من القوط الذين ارتدوا إلى اليهودية بأعداد كبيرة – وهو الاعتراف الذي جاء إلى المعلم الكبير مُؤكَّدا دون دليل وأيضا جاء بصورة بطيئة متأخرة لأنه ظهر لأول مرة في الطبعة الثالثة من الكتاب. أما عن كيف للقوط، ذلك الفرع العجيب من الشجرة الألمانية النبيلة رغم "ميولهم الصوفية" وإحساسهم "بالعمق الديني" المولودين به، الذي هو طبقا لتشامبرلين ميراث جنسهم، استطاعوا إلقاء أنفسهم بين أحضان "اليهودية ذات العقيدة المادية"، "بطقوسها الميتة" و"طاعتها العبودية" و"إلههم المستبد"، فذلك يظل لغزا يبحث عن حل. في هذه الحالة "الجنس القابع في أحضانهم هم" يجب أن يكون فاشلا تماما؛ دون ذلك يبطل العجب. يحتشد عمل تشامبرلين عن الأجناس

بتأكيدات مماثلة. يكاد لا يوجد عمل آخر يكشف عن مثل عدم المصداقية التي لا مثيل لها في المادة المستخدمة ومثل هذه الشعوذة الطائشة بافتراضات عارية من الصدق من النوع الأكثر جرأة. بالنسبة لهذا الرأي، ليس فقط الخصوم ولكن أيضا عديد من المؤمنين بشكل صريح في نظرية الأجناس مثل "ألبرشت ويرث" (*Albrecht Wirth*) و"يوجين كريتزر" (*Eugen Kretzer*) وآخرين يتفقون مع ذلك بالكامل. حتى هذا الراضي عن ذاته المدافع عن نظرية الأجناس مثل "أوتو هاوزر" (*Otto Hauser*)[*] يتحدث عن عمل تشامبرلين قائلا: "قواعد القرن التاسع عشر التي تفتقد في كثير من المرات الأساس الواقعي".[٤]

مثل جوبينو، تشامبرلين خصم متطرف لكل الأفكار الليبرالية والديموقراطية، ويرى فيهما خطرا على النزعة الألمانية. بالنسبة له، الحرية والمساواة هما مفهومان متناقضان؛ من يرغب في المساواة يجب أن يضحي لها بشخصيته، التي تستطيع وحدها أن تكون أساس الحرية. ولكن حرية تشامبرلين هي من نوع شاذ تماما. إنها "الحرية التي تستطيع الدولة حمايتها شريطة فقط أنها سوف تقوم بتقليصها". "لا يصبح الإنسان حرا بمنحه حقوقا سياسية؛ بل بالأحرى، تستطيع الدولة منحه الحقوق السياسية فقط عندما ينال حريته الداخلية؛ غير ذلك تلك، الحقوق المزعومة هي دائما ما يُساء استعمالها بواسطة الآخرين".[٥]

يدلل هذا الكلام على أن تشامبرلين لم يفهم قط لا طبيعة الحرية ولا الدولة. ولكن كيف استطاع ذلك؟ القدرية هي النقيض التام لمفهوم الحرية، ولا توجد "قدرية" تحمل بوضوح علامة قابيل التجارية للعداء مع الحرية مثلما تحمل "القسمة والنصيب" الخاصة بالأجناس. مفهوم تشامبرلين عن الحرية هو حرية المواطن جيد التغذية والراضي والذي يكون النظام هو الواجب الأول بالنسبة له والذي يقبل بما تسلمه الدولة له من حقوق. لم تأخذ مستبدًا أبدا قشعريرة إزاء مثل هذه الحرية؛ ولكن أي حق تافه ضئيل يربحه الإنسان من خلال صراعه ضد طغيان التقاليد يجعل جبهة المستبد تتصبب عرقا من القلق. "الحرية الداخلية" عند تشامبرلين هي مجرد كلمة

(*) أوتو هاوزر (١٨٧٤-١٩٣٢) مؤرخ سويسري لحقب ما قبل التاريخ. [المترجم]

فارغة؛ فقط حيث الإحساس الداخلي بالحرية يتحول إلى فعل تحرري، فذلك ما يمنح روح الحرية عذوبتها الفريدة. "ذلك المشغول "بالقوة والموضوع" وبطبيعتهما يجب إذا ما كان صادقا أن يترك الحرية تمضي في حالها"، هذا هو رأي تشامبرلين. ومع ذلك نحن نعتقد أن من لا يسعى بشكل دائم إلى تحويل الحرية إلى "قوة وموضوع" لابد وأن يظل دائما عبدًا. المفهوم المجرد للحرية الذي لا يستطيع إلهام مالكه نحو حدود بلوغ حقه هو مثل المرأة التي حرمتها الطبيعة هبة الخصوبة. مفهوم تشامبرلين للحرية هو وهم العجز، وهو انعكاس ماكر للشعور الداخلي بالقنانة العاجزة عن الإقدام على أي فعل . كان لدى "ابسن" ***(Henrik Johan Ibsen)***(•) رؤية مختلفة جدا للحرية عندما كتب:

> **أنت لن تستطيع أن تجعلني أرى الحرية كمرادف للحرية السياسية. ما تسميه أنت حرية، أنا أسميه حريات؛ وما أسميه أنا كفاحًا من أجل الحرية هو لا شيء سوى تمثيل غذائي حي دائم لفكرة الحرية. من يملك الحرية على أنها شيء آخر غير ما نسعى من أجل امتلاكه، يمتلك الحرية فقط كشيء دون حياة أو روح، لأن فكرة الحرية لديها دائما هذه القيمة. إنها دائما تتوسع كلما احتضنها المرء، لدرجة أنه خلال الكفاح يتوقف المرء برهة ليقول: الآن أنا أملكها! ما يُظهِره المرء فقط هو فقدانها. ولكن أن تمتلك فقط مثل هذا النوع الميت من الحرية - رؤية ساكنة معينة للحرية - هو شيء مُميِّز لمنظمات الدولة؛ وأنها كذلك فقط تلك التي أسميها حرية لا تساوي شيئا(٦).**

لم يقف تشامبرلين ثابتا على طريق الحرية أبدا، فهو لم يكتشف نفسه لمرة واحدة على ذلك الطريق. نقده للديموقراطية يمتلك أساسا في الماضي؛ فهو الرجل

(•) هنريك يوهان إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦) الكاتب المسرحي النرويجي الكبير في القرن الـ١٩، والمخرج المسرحي، والشاعر. غالبا ما يشار إليه باسم "أبو الواقعية"، وهو واحد من مؤسسي الحداثة في المسرح. وهو أكثر مؤلف مسرحي تقدم أعماله المسرحية في العالم بعد شكسبير، وخصوصا مسرحية "بيت الدمية؟" بحلول أوائل القرن العشرين. [المترجم]

الذي ينظر للخلف، بالنسبة له كل مُنتَج للثورة كان كريها؛ لأنه يحمل على وجهه علامة أصله الثوري. ذلك الذي نسميه اليوم ديموقراطية نستطيع التغلب عليه فقط بواسطة القوى التي لا تنظر للماضي، ولكن للمستقبل. يكمن العلاج ليس فيما كان ولكن في التوسيع المستمر لمفهوم الحرية وتطبيقاته الاجتماعية. حتى الديموقراطية لم تتغلب على إرادة "أن تتسلط" (***will to power***)؛ لأنها مكبلة بأغلال في يد السلطة ولا تجرؤ على هز امتيازات الطبقات المالكة. ولكن تشامبرلين لم يجد قاعدته في المستقبل؛ وثبت نظرته مُحملقا بطريقة لا تتغير في الماضي. لذلك أدان حتى الملكية الدستورية كشيء غريب على الروح الألمانية بشكل أصيل، وقدَّم فكرة الحكم الملكي المطلق على "الشعب الحر" مهما يكن شكل ما يعنيه بذلك. لقد كان واحدا من أولئك الراسخين الذين عارضوا دفاعا عن أقصى حد من حدود السلطة الملكية في بروسيا ومثل كل أسلافه وخلفائه في نظرية الأجناس وقف علنا في معسكر الرجعية السياسية والاجتماعية الصريحة.

ربما يعتقد المرء أن عملا مثل "القواعد" الذي لا يمنح أي نافذة لفهم رصين، والذي لا ينظر إلى العلاقات الاجتماعية ولا إلى العملية البطيئة للمساعي الروحية والذي فيه لا تتكشف فعليا سوى النزوات العنيفة للمؤلف، ربما سوف يتحطم بسبب تناقضاته المجنونة ذاتها. ولكن الأمور جرت عكس ذلك تماما. لقد أصبح الكتاب قدَر الطوائف الألمانية الحاكمة. كان الافتتان بهذا العمل عميقا لدرجة أن القيصر السابق كتب في مذكراته: "لأول مرة تتكشف الروح الألمانية في كامل مجدها للشعب الألماني المدهوش وتم التبشير بها إليه على يد تشامبرلين في كتابة "قواعد القرن التاسع عشر". ولكن الأمر، كما هو بادٍ من انهيار الشعب الألماني، دون تأثير".

البطل المخلوع عن عرشه المنادي بالحق الإلهي، أن يتخذ اليوم موقفا بأن الشعب الألماني هو المسئول عن السقوط، فذلك أمر مساوٍ تماما لتجليات بهيجة "للروح الألمانية الوقور"، كما هو الدور المؤسِف لأولئك الذين يوقرون في بهجة عبودية هذا المعتوه الذي لا أمل فيه "كإمبراطور لألمانيا"، فقط ليتوجهوا إليه بعد سقوطه ويركلونه مثل الحمير المجنونة بل وحتى يطلقوا عليه علامة تجارية مسجلة بوصفه "نسل اليهود".

ما كان قد بدأه تشامبرلين بشكل فخور، استمر بنفس الروح بواسطة رجال مثل "وولتمان" (Woltmann) و"هاوزر" (*Hauser*) و"جونثر" (*Gunther*) و"كلاوس" (*Clauss*)(•) و"ماديسون جرانت" (*Madison Grant*)(••) و"روزنبرج" (*Rosenberg*) وعديد وآخرين. وولتمان، الماركسي السابق والاشتراكي الديموقراطي، الذي أطاح في أحد الأيام اللطيفة بالصراع الطبقي مستبدلا به الصراع العرقي، حاول توفير الدليل التاريخي لما كان قد أكده جوبينو وتشامبرلين حول أصل وطبيعة الثقافات الأجنبية. قام بتجميع كمية هائلة من المادة التي مضت بشكل مفترض تبرهن على أن كل الأشخاص المتميزين في التاريخ الثقافي لفرنسا وإيطاليا قد انحدروا من أصول ألمانية. حتى يصل إلى هذا الاستنتاج، قام وولتمان بفحص الصور الشخصية لعدة مئات من الشخصيات البارزة في عصر النهضة وتبوأ موقعا يعلن منه للعالم المندهش أن معظمهم أشقر الشعر وأزرق العينين. كان وولتمان مهووسا للغاية بنظرية الشُقر ذوي العيون الزرقاء وكانت تسكره النشوة في كل مرة يعتقد أنه قد اكتشف موهبة شقراء جديدة(٧).

يفشل المرء فشلا مطلقا في أن يرى ماذا تريد هذه التأكيدات أن تدلل عليه. وجود عناصر جرمانية في سكان فرنسا وإيطاليا فذلك ليس محل تساؤل أبدا. كلا الشعبين مختلطٌ عرقيا، مثلهما مثل الألمان، وكما كل شعوب أوروبا. اجتاحت القبائل الجرمانية فرنسا وإيطاليا مرات ومرات، بالضبط مثل العديد من مرات الطوفان البشري للقبائل السلافية والسلتية والمنغولية التي تدفقت على ألمانيا. ولكن

(•) لودفيغ فرديناند كلاوس (١٨٩٢-١٩٧٤) منظر الأجناس والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، الألماني صاحب التأثير الكبير في رايخ هتلر الثالث. [المترجم]

(••) ماديسون جرانت (١٨٦٥-١٩٣٧) محام أمريكي معروف في المقام الأول لعمله باعتباره اختصاصي تحسين النسل والحفاظ على البيئة. كان مسئولاً عن العنصرية العلمية، ولعب دورا فعالا في صياغة قوانين قوية في الولايات المتحدة لتقييد الهجرة ومكافحة تمازج الأجناس. يعود الفضل لجرانت في الحفاظ على البيئة والعديد من أنواع الحيوانات المختلفة، وتأسيس العديد من المنظمات البيئية والخيرية المختلفة وتحقيق الكثير من الانضباط في إدارة الحياة البرية. [المترجم]

إلى أي مدى تتأثر ثقافة شعب من الشعوب بالأجناس فذلك هو السؤال الذي لم يجد له العلم إجابة بعد، وليس من المرجح أن يجد له إجابة. نحن هنا نعتمد فقط على ظنون لا تستطيع أن تصلح أبدا كبديل للحقائق الواقعية. فلم نعرف بعد شيئا واحدا بشكل محدد حول الأسباب الكامنة وراء حتى الصفات الخارجية الخالصة مثل لون الشعر والعينين.

وهكذا كامل التشخيص القائم على الصورة الشخصية الذي أجراه وولتمان وخليفته "أوتو هاوزر" بلا قيمة على الإطلاق. إنها أكثر الوسائل التي لا يمكن الاعتماد عليها لتأسيس صفات محددة. في ألبومات صور عرّاف الأجناس تبدو مثل هذه "الوثائق" لطيفة جدا، وتوفي هناك بغرضها تماما، ولكن بالنسبة لطالب دارس جاد هي لا تمنحه حتى نقطة انطلاق. مهنة الرسام ليست التصوير الفوتوغرافي، التي تعكس بشكل سليم تماما ما هو أمامها. يجب من البداية تقييمها كإعادة إنتاج ما تشعر به العين الداخلية للفنان؛ وهذه الصورة الداخلية التي تحوم حول الرسام، ودونها لا يمكنه إنتاج أي عمل فني نادرا ما لا يخطئ فيه تمثيل الشكل الأصلي من منطلق واقعي. أيضا، الأسلوب الشخصي للفنان والمدرسة التي ينتمي إليها يلعبان دورا مهمًا في العمل الفني. بالنسبة لأي باحث فريد من نوعه، مثلا، سوف يخطر بباله محاولة الخروج بمميزات لجنس من الأجناس من لوحات وجوه شخصيات لفناني اليوم من التكعيبيين (***cubists***) أو مدرسة المستقبل (***futurists***)؟ بجانب أن نفس لوحات الوجوه التي استخدمها وولتمان كأدلة على الأصل الألماني لثقافات الفرنسيين والإيطاليين، توفر لأنصار آخرين لنظرية الأجناس قاعدة لآراء مختلفة تماما. على سبيل المثال، ألبرت ويرث (***Albrecht Wirth***)(*)، الذي يعتقد أيضا أنه يجد في الجنس/العرق العامل المُحدِّد للتطور التاريخي، يشرح في كتابه "العرق أو الجنسية" (***Rasse und Volk***): "هذه الرؤية تتضمن خطأ غريبًا؛ أن وولتمان ومناصريه اكتشفوا في عديد من العبقريات والرجال ذوي الموهبة في فرنسا وإيطاليا سمات جرمانية. للعين المنصفة الصور نفسها التي قدمها وولتمان لنا كنماذج مصورة تُظهِر العكس تماما: أنماط من جنس البشكير وسكان البحر المتوسط والزنوج".

(*) ألبرخت ويرث (١٨٦٦-١٩٣٦) مؤرخ ، ولغوي وباحث ألماني في الأجناس. [المترجم]

في الواقع، وسط كامل معرض لوحات الوجوه الفنية الطويل الذي استعرضه وولتمان أمام العالم دعما لفرضيته، من الصعب أن تجد نمطًا واحدًا يصمد بشكل فريد لتمثيل الجنس الجرماني. تظهر بوضوح في كل لوحة منها خصائص ساطعة لهجين بشكل أو بآخر. إذا كان لأبحاث وولتمان وهاوزر أن تؤدي بنا إلى أي "قانون للتاريخ" على الإطلاق، فهي لن تستطع أن تؤدي بنا إلا إلى هذا: أن التناسل العرقي الداخلي ينسف تدريجيا الحيوية الروحية، ويمتلك كنتيجة له أفولا بطيئا بينما التناسل ما بين الأجناس يضيف إلى القدرات الخالقة للحضارة حيوية جديدة أبدا ويعطي أفضلية لإنتاج شخصيات ذات عبقرية. والشيء نفسه صحيح أيضا للألمان حملة مشعل الحضارة، ولم يخطئ "ماكس فون جروبر" (*Max von Gruber*) حين قال:

وعندما نطبق المعايير القياسية العرقية على الخصائص الجسمانية لأعظم رجالنا نجد فعليا في العديد منهم خصائص إسكندنافية (*Nordic*)، ولكننا لن نجد في أي منهم هذه الخصائص الشمالية وفقط. تكشف النظرة الأولى للخبراء أنه لا فردريك العظيم (*Frederick the Great*) ولا البارون "فون شتاين"(*Baron von Stein*) ولا بيسمارك كانوا إسكندنافيين خُلصاء؛ ونفس الشيء صحيح مع لوثر و"ميلانكتون" (*Melanchthon*) و"لايبنيتز" (*Leibnitz*) وكانط و"شوبنهاور" (*Schopenhauer*)، كما هو أيضا مع "لايبيج" (*Liebig*) و"يوليوس روبرت ماير" (*Mayer Robert Julius*) و"هيلمهولتز" (*Helmholtz*) ومع جوته وشيللر و"جريلبارزر" (*Grillparzer*) ومع "دورر" (*Durer*) و"منزل" (*Menzel*) و"فويرباخ" (*Feuerbach*) وحتى مع أعظم العبقريات في الفن الأكثر ألمانية من كل الفنون، الموسيقى، من باخ و"جلوك" (*Gluck*) و"هايدن" (*Haydn*) إلى "بروكنر"(*Bruckner*). كلهم كانوا هجينًا؛ والشيء نفسه صحيح في الإيطاليين العظماء. فمايكل أنجلو وجاليليو إذا ما كانا شماليين على الإطلاق إلا أنهما يبقيان شماليين غير أنقياء. يجب على ما يبدو

إضافة بعض مكونات من أجناس أخرى إلى خصائص الشمال حتى ننتج أسعد مزيج من الصفات[٨].

ومهما يكن قدر ما قد يؤكده وولتمان من أن "دانتي ورفائيل ولوثر ومن على شاكلتهم كانوا عباقرة ليس لأنهم هجين ولكن رغم كونهم كذلك"، فإن "أسس عبقريتهم هي ما ورثوه من الجنس الجرماني"، إلا أنه يظل تبشيرا فارغا طالما لسنا في موقع يؤسس دون خلاف ويؤكد بشكل علمي تأثير الجنس/العرق على الخصائص الفكرية للنوع البشري. وبنفس المنطق تماما نستطيع التأكيد على أن شرارة العبقرية في لوثر وجوته وكانط أو بيتهوفن كان لها أن تنتسب لوجود دم "أهل الإلب" (***Alpine***) أو "الشرقيين" فيهم. لن نبرهن على شيء بذلك؛ فقط سوف يغتني العالم بمزيد من هذه التأكيدات. في الواقع، خلال الحرب [العالمية الأولى] اكتشفوا على الجانب الآخر من جبال "الفوسجس" (***Vosges***) رجالاً مثل "بول سوداي" (***Paul Souday***) وآخرين فسروا أن كل الشخصيات العظيمة التي أنتجتها ألمانيا انحدرت من سلالات سلتية وليست ألمانية. لِمَ لا؟

تحمل المدافعون الأخيرون عما يُسمى مذهب الجنس/العرق آلاما عظيمة لإكساب آرائهم مظهرا علميا، ولجأوا خصوصا لقوانين الوراثة، التي تلعب دورا مهمًا في العلوم الطبيعية الحديثة، وما زالت مثار كثير من الجدال. بالوراثة؛ يعني علم الأحياء بشكل رئيسي حقيقة مؤسَّسة بشكل ثابت على الملاحظة العامة، أن النباتات والحيوانات تشبه آباءها وأن هذا التماثل يعود بشكل ظاهر إلى حقيقة أن النسل ينشأ من نتف من الجبلة نفسها (***protoplasm***) وهكذا يتطور من نفس أو مثيل المادة الأولية الوراثية (***primordia***). ومن هنا استتبع أنه في تلك الجبلة تسكن قوى معينة عن طريق الانفصال إلى حصص أصغر متناهية في الدقة، من الممكن بواسطتها نقل كل شيء إلى النسل التالي. وهكذا وصل الإنسان إلى إدراك أن السبب الحقيقي في الوراثة يجب البحث عنه في الشروط الخاصة لحياة مواد الخلية التي نسميها الجبلة أو البروتوبلازم.

وربما، مهما تكن القيمة العالية لمثل هذه المعرفة، فإنها لا تكاد تقربنا أكثر للحل الحقيقي للمشكلة. بدلا لقد طرحت هذه المعرفة للعلم مجموعة كاملة من المشاكل الجديدة، حلها لن يكون أقل صعوبة. في المقام الأول، من الضروري تأسيس ما هي العمليات الجارية في البروتوبلازم التي تحكم تطور صفات معينة، وهي المهمة التي يكتنفها تقريبا صعوبات لا يمكن التغلب عليها. ونحن بالضبط يحيط بنا الظلام نفسه المحيط بالعمليات الداخلية التي تسبق الوراثة. قد نجح العلم وهذا صحيح في تأسيس وجود ما يُسمى بالجزيئات الكيميائية بل وحتى وجود أعضاء جيدة التطور بشكل معقول داخل بناء الخلية، ولكن الترتيب النوعي لهذه الجزيئات والأسباب الداخلية للاختلافات بين مجموعات البروتين في المادة الجامدة والمادة الحية ما زالت مجهولة لنا حتى اليوم. يستطيع المرء القول آمنا إنه في هذا العالم المُحيِّر نحن نكاد نعتمد بالكامل على الافتراضات، حيث لا نظرية من نظريات الوراثة العديدة قادرة على رفع حجاب "المجوس" (***veil of the Magi***) الذي ما زال يُخبئ عمليات الوراثة الواقعية. لقد ربحنا الكثير من ملاحظة عمليات التهجين وتفسيرها؛ ولكن بالطبع هذا القدر أقل في تفسير الأسباب منه في تأسيس الحقائق.

منذ سبعين سنة مضت، الراهب "جريجور مندل" (***Gregor Mendel***)(•) أحد أتباع القديس أغسطس، شغل نفسه داخل حديقه ديره في "برون" (***Brunn***) باثنين وعشرين نوعًا من البازلاء وحقق النتائج التالية: عندما قام الراهب بتهجين نوعيتين من البازلاء الصفراء والخضراء، حمل كل النسل التالي (الأبناء) بذورًا صفراء وبدا أن البذور الخضراء قد انتهت بالكامل. ولكنه عندما نثر الأبناء الصفر المُهجَّنة بغبار حبوب لقاحها نفسه، الأخضر الذي كان قد انتهى من النسل الأول ظهر مرة أخرى في الأحفاد وبنسبة محددة. من كل أربع بذور في نباتات الجيل الثاني، ثلاث صفراء

(•) غريغور يوهان مندل (١٨٢٢-١٨٨٤) عالم وراهب من مورافيا الناطقة بالألمانية الذي ذاع صيته بعد وفاته باعتباره مؤسس علم الوراثة الحديث. رغم أن المزارعين قد عرفوا منذ قرون أن تهجين الحيوانات والنباتات يمكنه إعطاء بعض الصفات المرغوبة، فإن تجارب مندل النباتية على البازلاء التي أجراها بين ١٨٥٦ و ١٨٦٣ أنشأت العديد من القواعد، التي يشار إليها الآن على أنها قوانين الوراثة المندلية. [المترجم]

وواحدة خضراء. لذلك ظهر أن صفات النوعية الخضراء لم تختفِ؛ إنما فقط اختبأت خلف صفات النوعية الصفراء. لذلك يتحدث "مندل" عن صفة متنحية أو مختبئة وصفة سائدة أو حاجبة. الصفة المتنحية -في هذه الحالة البذور الخضراء- عند تجدد الإخصاب تُظهِر نفسها ويتم توراثها طالما تم ضبط الإخصاب الذاتي بحزم ولم يحدث تزاوج مع صنف جديد مختلف. إلا أن الصفات السائدة تتجمع بانتظام في كل جيل جديد. ثلث إنجابهم يمتلك صفات سائدة نقية، تتوالى بشكل أصلي في الأجيال التالية؛ والثلثان الآخران "يتبعان قانون مندل" أي يتوالى ظهورهما في الإنجاب مرة أخرى بنفس نسبة ٣ إلى واحد. وبنفس النسبة تستمر العملية إلى ما لانهاية.

تجارب لا حصر لها أجراها علماء نبات وحيوان معروفون جيدا أكدت منذ ذلك الحين قواعد مندل بشكل موسع. كذلك تتفق تلك التجارب مع نتائج علم الخلايا الحديث أو مع نظرية الخلية، بشكل جيدا جدا، إلى الحد الذي يكون فيه نمو وانقسام الخلية تحت الملاحظة ممكنا. لذلك يستطيع المرء أن يتفق مع أن هذه القواعد لها مصداقية في كل الكائنات العضوية حتى الإنسان، وأنه في الطبيعة ككل تتحقق خطة موحدة لضبط عملية الوراثة؛ ولكن هذا الاعتراف لا يتخلص من مصاعب لا حصر لها منعت لدرجة بعيدة تكوين بصيرة أعمق بهذا الحدث كثير الألغاز. يتضح من قوانين مندل للوراثة أن صفات الآباء تنتقل إلى الأبناء والنسل التالي بنسب محددة. ومن الناحية الأخرى، أظهرت أبحاث علم الخلايا أن المادة الأولية الوراثية للكائن الحي نبحث عنها في الأجزاء النووية المفصولة بعناية من الخلية الجنسية (*germ cell*) وهي الأجزاء التي نسميها الكروموسومات (*chromosomes*). وكل هذا الذي أسسه العلم يقينا بشكل أو بآخر يبدو مستنبطا من هذه العملية: ذلك أن المادة الوراثية الأولية تدخل في الخلية الجرثومية في أزواج، وأنه في كل زوج يأتي أحد العناصر من خلية الأب المنوية، والعنصر الثاني يأتي من بويضة الأم.

ولكن حيث لا يستطيع المرء أن يرى انتقال كل المواد الأولية الوراثية في كلا الأبوين لكل فرد من نسلهما لأنه في مثل هذه الحالة سوف تزداد أعدادها أكثر فأكثر مع كل جيل تالٍ، لذا يأتي المرء إلى استنتاج مفاده أنه فقط في نواة خلية الجسم

أو خلايا جسم الكائن الحي تكون كل المادة الوراثية الأولية حاضرة؛ في الأخير تكبح الخلية الجرثومية (الجنسية) جزءًا من العوامل النووية حتى أنها تتسلم فقط نصف كل المادة الأولية، أي، فقط فرد واحد من كل زوج مُحدِّد للصفة. يتعلم المرء أنه في الخلية العامة لجسم الإنسان يوجد ٤٨ كروموسومًا(•)، ولكن الخلية الجرثومية (الجنسية) عندما تصبح جاهزة للإخصاب تحتوي فقط على ٢٤. ولكن لا يقال إن الإنسان يمتلك فقط ٢٤ زوجا للصفات التي تؤدي وظيفة حامل راية الوراثة. في كل كروموسوم ربما توجد أعداد من أزواج الصفات، حتى يصبح من المحتمل أن تظهر في الأجيال التالية أكبر تنويعة مختلفة منها: ومع ذلك حيث إن كل تخصيب هو عبور متبادل للصفات الوراثية، حتى عندما يحدث بين كائنات من نفس الجنس، لأنه في الطبيعة لا يوجد زوجان من الأفراد متماثلان تماما، ويتلو ذلك أنه من كل واقعة تخصيب ربما تترتب النتائج الأكثر تعددا. من عاملين وراثيين مختلفين فقط سوف ينشأ هناك في جيلين أربع تنويعات؛ ومن ثلاثة أزواج ثماني تنويعات؛ ومن أربعة ست عشرة؛ ومن عشرة ١٠٢٤ وهكذا دواليك. من تلك الاحتمالات الجلية بوضوح للتجميع، أي رؤية شاملة لنتائج عمليات الوراثة لن تصبح فقط صعبة بشكل متزايد ولكن فعليا مستحيلة.

ولكننا ما زلنا نتحدث فقط عن صفات فيزيائية صرف. عندما نتحول إلى الصفات العقلية أو الأخلاقية تصبح العمليات المُتضمنَة أكثر كثيرا، لأنه هنا ليس ممكنا حدوث تجميع ولا تثبيت لصفات منفصلة. ومن ثم نحن لسنا في موضع نفصل فيه الصفات العقلية إلى مكوناتها وتمييز أحد الأجزاء عن الأخرى. الصفات الفكرية والأخلاقية تُعطى لنا ككليات؛ حتى لو اتفقنا أن قوانين مندل للوراثة فاعلة في هذا الميدان أيضا، إلا أننا لا نملك الوسائل لإخضاع عمليات هذه القوانين للملاحظة العلمية.

(•) في البشر، كل خلية تحتوي على ٢٣ زوجا من الكروموسومات، ليصبح المجموع ٤٦. اثنان وعشرون من هذه الأزواج، وتدعى الجسمية، تبدو متشابهة في كل من الذكور والإناث. الزوج الثالث والعشرون يسمى الكروموسومات الجنسية، تختلف في الذكور عن الإناث. [المترجم]

وعندما يصبح واضحا أن الأجناس النقية غير موجودة في أي مكان، في كل الاحتمالات لا توجد أبدا في الواقع؛ وأن كل الشعوب الأوروبية هي مجرد خليط تقدم لنا كل أشكال التجميل العنصري الممكنة للوجوه، والتي يمكن تمييزها من خارج وداخل كل أمة فقط بواسطة حصص المكونات الأساسية المنفصلة؛ فمن ثم لا يأخذ المرء سوى فكرة عن المصاعب التي تزعج الدارس الجاد عند كل خطوة. ولو للمزيد، احتفظ المرء في باله بقدر عدم اليقين الموجودة عليه اليوم نتائج البحث الأنثروبولوجي فيما يتعلق بالأجناس المختلفة وقدر قصور معلوماتنا اليوم عن العمليات الداخلية للوراثة، فمن ثم لا يستطيع المرء تجنب الاستنتاج بأن كل محاولة لإقامة نظرية على مثل هذه الفرضيات غير المؤكدة تكشف لنا بشكل مزعوم المعنى الأعمق لكل الأحداث التاريخية، وتُمكِّن أنصارها من الحكم بطريقة لا خطأ فيها على جدارة الصفات الثقافية والعقلية والأخلاقية للجماعات البشرية المختلفة لابد وأن تصبح هذه المحاولة إما تمثيلية لا معنى لها أو مجلبة فظة للضرر. وكون أن اكتساب مثل هذه النظريات مثل هذا التداول الواسع خاصة في ألمانيا فهو علامة خطيرة على انحطاط عقلي لمجتمع قد فقد كل القوة الأخلاقية الداخلية وهو لذلك مشغول باستبدال قيم أخلاقية متهالكة بمفاهيم إثنولوجية.

من أنصار نظرية الأجناس اليوم، الدكتور "هانز جونتر" (***Hans Gunther***) هو الأكثر شهرة وأكثر من اختلفوا عليه. نالت كتاباته المتعددة وخصوصا "دراسة سلالات الشعب الألماني" (***Rassenkunde des deutschen Volkes***) انتشارا مدهشا في ألمانيا، وحققت في دوائر واسعة تأثيرا لا يجرؤ المرء على التقليل منه. ما يميز "جونتر" عن أسلافه ليس محتوى مذهبه، ولكن الآلام التي يتحملها لإحاطته بمعطف علمي، وجلال خارجي لا ينتمي إليه. لقد جمع "جونتر" كقاعدة أساس لآرائه كمية عظيمة من المواد ولكن ذلك هو كل شيء. وعندما يصبح ضروريا تأسيس استنتاجات ذات أهمية حاسمة بشكل علمي، يفشل بالكامل ويرتد إلى أساليب جوبينو وتشامبرلين اللذين اعتمدا بالكلية على مفاهيم التمني. بالنسبة له يتراجع الآريون بوضوح إلى الخلفية؛ وقد استنفد الرجل الألماني دوره هذا أيضا؛ والمثال عند

"جونتر" هو "جنس الشماليين" الذي أسبغ عليه الصفات الأصلية الثمينة بكرم يماثل ما يفعله جوبينو مع الآريين ويفعله تشامبرلين مع الألمان. إضافة إلى أن "جونتر" أغنى التصنيف الأوروبي للأجناس بمكون واحد جديد وقد زوَّد التقسيم الموجود فعلا بأسماء جديدة دون أن يضيف بذلك أي شيء لمعارفنا.

العلامة الأكاديمي الأمريكي، "ريبلي" (***Ripley***)(•) الذي كان أول من حاول كتابة تاريخ أنثروبولوجي للشعوب الأوروبية، أرضى نفسه بثلاثة أنواع رئيسية، حددها بأسماء: الجنس "التيوتوني" (***Teutonic***) و"الألبي السلتي" (***Alpine-Celtic***) و"البحر متوسطي" (***Mediterranean***). لاحقا أُضيف نوع رابع، الجنس "الديناري" (***Dinaric***)(••) وكان الاعتقاد أنه في تلك الأنواع الأربع الأصلية من الممكن تمييز المكونات الرئيسية للتركيبة العرقية الأوروبية. بجانب تلك الأجناس الأربع الرئيسية هناك أيضا في أوروبا سلالات "الشوام" (***Levantine***) والساميين والمنغول والزنوج. بالطبع لا يستطيع المرء تمثيل تلك الأنماط الأربع كأجناس نقية؛ فنحن نهتم هنا فقط بفرضية سليمة من أجل العلم، ولتمكينه من أخذ تصنيف للشعوب الأوروبية على خطوط سليمة بشكل أو بآخر. كتلة شعوب أوروبا هي ناتج الاختلاط بين هذه "الأجناس". ومع ذلك هؤلاء أنفسهم هم مجرد ناتج امتزاج معين في مجرى الزمن أخذ أشكالاً معينة كما في حالة كل واقعة لتكوين جنس من الأجناس. أضاف جونتر، بشكل متزايد، نوعا خامسا لهذه الأجناس الأربع الرئيسية، وهو ما يُسمى جنس "شرق البلطيق". ومع هذا الاكتشاف الجديد رتب جونتر إعادة معمودية الجنس "الألبي" الذي سماه "الشرقي" (***ostisch***). لم يكن هناك سبب على الإطلاق يدعو لهذا التغيير، وألد خصومه في معسكر الأجناس، الدكتور "ميركنشالجر"

(•) جورج ريبلي (١٨٠٢–١٨٨٠) المصلح الاجتماعي الأمريكي وزير الموحدين، والصحفي المرتبط بالفلسفة المتعالية. وكان مؤسسًا لفترة قصيرة الأجل لمجتمع طوباوي في مزرعة بروك في غرب روكسبري، ماساشوستس. [المترجم]

(••) ديناريك مصطلح يأتي من اسم جبل يسمى دينارا، على الحدود بين كرواتيا والبوسنة والهرسك. في الجغرافيا، يستخدم الاسم لوصف سلسلة جبال الألب الدينارية. وفي الأنثروبولوجيا المادية، يستخدم لوصف الجنس الديناري. [المترجم]

(*Merkenschalger*)(•) ربما كان على حق عندما تصور أن جونتر بإعادة التسمية هذه للجنس الألبي، كان غرضه مجرد "تصوير هذا الجنس أمام مشاعر قرائه كجنس ملوث وتمكين الجماهير الساذجة من تفسير الاسم "كيهود شرقيين".

وعلى منوال تقريبا كل منظري الأجناس في يومنا الحالي يبدأ جونتر مناقشاته نظريات الوراثة الحديثة. فهو يستخدمها كأساس له خصوصا الافتراضات النظرية للمندلية الحديثة (*neo-Mendelism*). طبقا لتلك المفاهيم المادة الأولية الوراثية لا تخضع لأي تأثير خارجي لدرجة أن التغير في العوامل الوراثية لا يمكنه الحدوث إلا فقط من خلال التزاوج. ومن هذا يترتب أن الإنسان وكل الكائنات الحية تُعتبَر مجرد مُنتَجات لمواد أولية وراثية خاصة تتلقاها الكائنات قبل مولدها وليس بالإمكان تحريفها عن مسارها المُقدَّر لها لا بتأثير البيئة الطبيعية والاجتماعية ولا بتأثير أي قوى أخرى.

هنا مكمن الخطأ الجوهري لكل نظرية أجناس، والسبب وراء استنتاجاتها الزائفة بشكل حتمي. ينطلق جونتر ومعه كل أنصار نظريات الأجناس من الافتراضات التي لا يمكن التدليل عليها بأي حال والتي يمكن إظهار تهافتها بأمثلة ونماذج من الحياة اليومية ومن التاريخ. يستطيع المرء أخذ تلك التأكيدات على محمل الجد فقط إذا ما كان المدافعون عنها في موقع من يقدم الدليل القاطع على هذه النقاط الثلاث: أولا، إن المادة الأولية الوراثية (*primordia*) هي واقعيا غير قابلة للتغيير ولا تتأثر بتأثيرات البيئة؛ ثانيا إن الخصائص الفيزيائية يجب اتخاذها كعلامات غير قابلة للخطأ على صفات فكرية وأخلاقية معينة؛ ثالثا، إن حياة الإنسان تتحدد بالكلية نتيجة لعوامل وراثية وإن الخصائص المكتسبة أو المجلوبة لا تمتلك تأثيرا جوهريا على مصيره.

بالنسبة للسؤال الأول قد أظهرنا فعلا أن العلم يعرف سلسلة كاملة من الحقائق المؤسسَّة بقوة والتي تبرهن بشكل لا يقبل الدحض على أن عمل البيئة على العوامل

(•) فريدريش ميركنشالجر (١٨٩٢-١٩٦٨) خبير زراعة نباتات ألماني، مؤرخ محلي وشاعر. [المترجم]

الوراثية يحدث وينتج منه تغيرات في العوامل. حقيقة أن العديد من الباحثين قد نجحوا في إحداث تأثير لتعديل العوامل الوراثية عن طريق الإشعاع وتغيرات درجات الحرارة وهكذا هي شاهد على ذلك. أيضا لدينا تأثيرات الترويض الذي جذب "إدوارد هان" (*Eduard Hahn*)(*) و"يوجين فيشر" (*Eugen Fischer*)(**) انتباهنا بقوة لأهميته. فعليا أدى ذلك بفيشر لإعلان أن: "الإنسان هو منتج الترويض، ولهو الترويض الذي سبب قدرته العالية على التنوع أو ساهم فيها".

فيما يتعلق بالنقطة الثانية، لن تنفع سفسطة. ولن نستطيع الاستشهاد بظل برهان يُظهِر أن صفات الأجناس الخارجية مثل شكل الجمجمة ولون الشعر وبنيان الجسم الأنحف أو الأكثر متانة تمتلك علاقة ما بالعوامل العقلية أو الروحية أو الأخلاقية عند النوع البشري، لذلك مثلا رجل شمالي طويل وأشقر وذو عينين زرقاوين بسبب صفاته البدنية الخارجية لابد له أن يمتلك صفات عقلية وأخلاقية لن يجدها المرء في السلالات المنحدرة من أجناس أخرى. يزعم أيديولوجيو الأجناس عندنا هذا ويزعمون أنه حقيقة، ولكن مذهبهم لايصمد تماما أمام أي نقد، وقائم على تأكيدات لا يمتلكون على صحتها أقل دليل.

لقد أكدنا توا أنه في الصف الطويل من العباقرة الذين يستحقون آيات التكريم لإسهاماتهم في الثقافة الفكرية لألمانيا، يكاد لا يوجد واحد يتطابق مظهره الخارجي بطريقة نصف كاملة مع المفهوم النموذجي "لرجل الشمال". وبالدقة، أعظم من فيهم هو أبعدهم بدنيا عن الصورة الخيالية لأتباع جونتر وهاوزر وكلاوس. لا نحتاج سوى التفكير في لوثر وجوته وبيتهوفن الذين يكادون يفتقدون بالكامل تقريبا العلامات الخارجية "لجنس أهل الشمال"، بل إن المدافعين البارزين عن نظرية الأجناس يتميزون باختلاط دمائهم بدماء سلالات الشرق والساحل الشرقي وزنوج

(*) إدوارد هان (١٨٥٦-١٩٢٨) خبير علم الأجناس الزراعي والجغرافيا والاقتصادي والمؤرخ الألماني. [المترجم]

(**) يوجين فيشر (١٨٧٤-١٩٦٧) أستاذ ألماني في الطب وعلم الإنسان وعلم تحسين النسل. عينه أدولف هتلر عميدا لجامعة وليام فريدريك في برلين في عام ١٩٣٣، وانضم لاحقا إلى الحزب النازي. [المترجم]

الملايو. سوف يبدو الأمر حتى أسوأ إذا ما كان للمرء أن يذهب بعيدا إلـــى درجـــة إجراء اختبار الدم، على سبيل المثال، لأبطال ساحة صراع الأجنـــاس، مثـــل هتلـــر و"ألفريد روزنبـــرج" (***Alfred Rosenberg***) و"جـــوبلز"(***Goebbels***)(•) و"سترايـــشر" (***Streicher***)(••)، ويعطي الفرصة لممثلي الجنس الشمالي وللمصلحة الوطنيـــة ذوي الجدارة أولئك، حتى يؤكدوا بفضل دمائهم سلطان الرايخ الثالث.٩

إذا كان أمرا لا يُنازَع أن رجالاً مثل سقراط و"هوراس" (***Horace***) ومايكـــل آنجلو ودانتي ولوثر وجاليليو ورمبرانت وجويا وروسو و"بيستالوتزي" (***Pestalozzi***) وهيردر وجوته وبيتهوفن وبايرون وبوشكين ودوستيوفـــسكي وتولـــستوي وبلـــزاك وديماس و[إدجار آلان] بو وستريندبرج (***Strindberg***) وإبسن وزولا ومئات آخـــرين كانـــوا من أجناس مختلطة؛ فهذا بالتأكيد برهان على أن علامات الأجناس الخارجية لا علاقة لها بالصفات الفكرية والأخلاقية للبشر. وإنه لأمر مُـــسلٍ فعـــلا ملاحظـــة الأعذار التي يحاولها عبدة أوثان الأجناس الحديثة للتغلب علـــى هـــذه المـــصاعب. وهكذا، علق الدكتور "كلاوس" على خصائص "بيتهـــوفن" العرقيـــة غيـــر المريحـــة ببساطة تامة معلنا: "كان بيتهوفن للحد المتعلق بقدراته الموسيقية رجلاً مـــن الجـــنس الشمالي. طراز أعماله يبرهن على هذا بوضوح كافٍ؛ وهـــذا لا يغيـــره حقيقـــة أن جسمه – من منظور أنثروبولوجي– أي فقط كتلة ووزن جسمه– ربما كـــان شـــرقيا خالصا بشكل مريح" (١٠).

وكما نرى، أنقى تناسخ أرواح (***metempsychosis***). أي قوة غامضة فاعلـــة مسئولة عن جناية احتلال "روح الجنس الشمالي" الخاصة ببيتهـــوفن لبـــدن شـــرقي حقير؟ أو هل ربما اليهود أو الماسون الأحرار لهم يد في ذلك!

(•) بول جوزيف غوبلز (١٨٩٧–١٩٤٥) سياسي ألماني وزير الرايخ النازي للدعاية من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥. أحد المقربين من هتلر وأتباعه الأكثر تفانيا، وكان يعرف عنه الخطابة ومعـــاداة عميقة وضارية للسامية. [المترجم]

(••) يوليوس شترايشر (١٨٨٥–١٩٤٦) عضو بارز في الحزب النازي قبل الحـــرب العالميـــة الثانية. مؤسس وناشر صحيفة المهاجم، التي أصبحت عنصرا أساسيا من آلة الدعاية النازية. بعد الحرب، أدين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وأُعدم. [المترجم]

ويبقى السؤال الأخير، هل يكتسب الإنسان صفات خلال مجرى حياته أم لا، أو ما هي الصفات المجلوبة إليه بواسطة الثقافة التي يعيش فيها ولا تمتلك واقعيا تأثيرًا على عوامل فطرته. إذا ما استطعنا البرهنة على ذلك، فمن ثم هل يجب علينا فعليا أن نندفع إلى الحديث عن "قسمة ونصيب الدم" الذي لا يستطيع أحد تحديه. ولكن ما هو موقف القضية في الواقع الحقيقي؟ تكشف قوة الخصائص الظاهرة للعيان عن نفسها كل يوم في حياتنا، ودائما ما تستتر العوامل الموروثة التي نبدأ بها رحلتنا في الحياة. كمثال ربما نأخذ أقوى باعثين –اللذين يكشفان عن نفسيهما بالقوة نفسها في كل الكائنات الحية وفي البشر من كل الأجناس والأجواء – الجوع والحب. أحاط الإنسان بهاتين الغريزتين اللتين تستنفد الطاقة الحيوية للفرد والأجناس فيهما نفسها بشبكة من العادات والتقاليد قديمة العهد والاستخدام. وقد تم بناء هذه الشبكة في مجرى الزمن كمبادئ أخلاقية محددة، حتى إن الدافع الفطري في معظم الحالات كف عن أن يؤكد نفسه ضد هذه الشبكة من المفاهيم المجلوبة والمكتسبة. ألا نرى يوميا كيف أن آلافًا من الكائنات البشرية التي تتضور جوعا في مدننا الكبيرة تتسلل صامتة أمام المعروضات الوفيرة في واجهات متاجر بيع الطعام؟ إنهم يلتهمون هذه الأطايب بعيون جشعة، ولكن من النادر جدا أن يجرؤ واحد منهم ويستسلم لدافعه الفطري ويأخذ ما يلبي إشباع أحد أكثر الاحتياجات العاجلة. الخوف من القانون وخشية الرأي العام والاحترام غير المحسوب لحقوق ملكية الآخرين كل ذلك يبرهن على أنه أقوى من محرك الدافع الفطري. وعليه، نحن نتعامل هنا مع خصائص مكتسبة لم تعد قابلة للانتقال بواسطة الوراثة أكثر من الكف الخشن ليد الحداد. يواجه الطفل هذه الأشياء تماما دون فهم يحيط بها حتى يتعلم تدريجيا أن يضبط نفسه لها.

والحب؟ بكم من المحظورات والواجبات والعادات البشعة يتحوط الإنسان على أكثر دوافعه جوهرية. حتى بين الشعوب البدائية توجد كتلة عظيمة من الأخلاقيات والعادات التي اكتسبت القداسة من اعتياد الاستخدام ونالت احترام الرأي العام. اخترع الخيال الإنساني عبادة عشتروت (*Astarte*)(*) في بابل وعبادة "ميلِتا"

(*) عشتروت هي الشكل الهيليني للإلهة عشتار التي تعبد في الشرق الأوسط من العصر البرونزي إلى العصور القديمة الكلاسيكية. ويرتبط اسمها وعبادتها في بلاد الشام القديمة مع الكنعانيين والفينيقيين. كما احتفلوا بها في مصر في أعقاب استيراد العبادات المشرقية هناك. [المترجم]

(*Mylitta*)[*] في آشور، والأديان الجنسية في الهند ورهبنة القديسيين المسيحيين. لقد خلق الإنسان كل مؤسسات السلوك الجنسي؛ تعدد الزوجات وتعدد الأزواج والزواج الأحادي وكل أشكال المجون من "البغاء المقدس" في الشعوب السامية إلى عزل عاهرات الشوارع بواسطة الدولة. لقد جلب ذلك كامل مصفوفة العواطف الجنسية تحت حكم صارم، وتطورت آراء محددة أصبحت اليوم متغلغلة بعمق في عقول البشر. وما هو سارٍ أيضا هنا هو مجرد مفاهيم مكتسبة وعادات ومؤسسات وجدت تعبيرها العاطفي في خصائص محددة تم التدريب عليها. وإنها فقط تلك الخصائص التي توجه حب عمر الإنسان في مسارات محددة، وتحث الفرد بشكل دائم على قمع دوافعه الفطرية بشكل مؤلم. حتى إن أكثر ألوان السفسطة دهاء لا تستطيع تجنب هذه الحقائق.

تُظهِر لنا كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري النفوذ القوي للأفكار الدينية والسياسية والأخلاقية على التطور الاجتماعي للإنسان، ذلك النفوذ القوي للشروط الاجتماعية التي في ظلها نحيا والتي بدورها تتفاعل مع شكل الأفكار والآراء. هذا التأثير الأبدي المتبادل يؤسس كامل محتوى التاريخ. دفع مئات الآلاف من البشر حياتهم من أجل أفكار معينة، في الغالب جدا مع أكثر النتائج المصاحبة رعبا وعن طريق مسلكهم هذا استهانوا بأكثر الدوافع فطرية الموجودة في كل كائن حي. وقد تم كل ذلك تحت تأثير النفوذ الغالب للأفكار المكتسبة. جذبت أديان، مثل الإسلام والمسيحية شعوبًا من كل الأجناس إلى رابطتها. ونفس الأمر يُقال عن كل الحركات الشعبية في التاريخ. لا نحتاج سوى التفكير في الحركة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية الآفلة، وفي الحركات العظمى في زمن إصلاح فيضان الأفكار الدولي مثل الليبرالية أو الديموقراطية أو الاشتراكية، هذه الأفكار التي استطاعت ممارسة سلطة تبشيرية على الرجال والنساء من كل طبقة اجتماعية وتجنيدهم تحت راياتها. لم تكن شعوب "الجنس الشمالي" استثناءً لهذه القاعدة.

(*) هي إلهة زوجة للإله الآشوري آشور. قد تكون متطابقة مع آلهة بلاد ما بين النهرين. نين ليل، زوجة الإله إنليل، بالتوازى مع آشور نفسه الذي كان على غرار إنليل. تُعرف عشتار مع نينوى في زمن الإمبراطورية الآشورية الحديثة. [المترجم]

حاول سيميائيو الأجناس إنقاذ ماء وجوههم بالتشديد على أن شعوب الجنس الشمالي قد ضلت الطريق في كثير جدا من المرات بسبب هذه الأفكار الغريبة عرقيا عليهم، والتي لا تمتلك نحوها أي ميل داخلي حقيقي. إنهم يسمون ذلك غزوا غير مفهوم "للعادات الأجنبية" وهذه "الروح الأجنبية" هي واحدة من أكثر الجوانب التي يُرثى لها في الروح الألمانية وفي الجنس الشمالي عموما. مثل نوبات الغضب تلك والشائعة تماما عند "جونتر" و"هاوزر" و"نوينر" (***Neuner***) وآخرين تبدو غريبة نوعا ما. أي نوع هذا من الأجناس المرموقة التي تشعر بنفسها كما يزعمون مشدودة نحو أفكار أجنبية وعادات أجنبية مثلما ينجذب الحديد إلى المغناطيس؟ هذه الظاهرة غير الطبيعية تجعلنا نعتقد بسهولة أن لدينا شكلا منحطا مريضا من "روح الجنس الشمالي" والذي يظهر من ناحية أخرى بوضوح كافٍ في كامل مخلفات "أجناس" زماننا. بل ويبقى أمرا جديرًا بالملاحظة أكثر أن المتعبدين السكارى بالجنس الشمالي العجيب يسعون بشكل دائم لاستئصال هذه الشوائب الأخلاقية عن معبودهم وفي نفس الشهقة يعلنون أن الجنس هو قدر. ولو كان ذلك صحيحا ما هي جدوى كل هذا التمذهب؟ ما هي منفعة أن جونتر و"حلقته الشمالية" (***Nordic Ring***) -التي هي نوع من الأمية الزرقاء الشقراء (***BlueBlond International***)- يحاولون بكل وسيلة منع حرب بين شعوب الشمال في المستقبل؛ أو أن "أوتو هاوزر" يصرح للعالم المندهش أن واضعي الاستراتيجية الرئيسيين للحرب العالمية [الأولى] على كلا الجانبين كانوا من الشماليين الشقر، ويسبغ آيات التكريم على الجنرال الفرنسي "جوفريه" (***Joffre***) بوصفه "قوطيًا أشقر"؟ كل ما هو أسوأ إذا كان هذا هو الحال. فلن تبرهن ساعتها سوى على أن الشماليين الشُقر على كلا الجانبين المتضادين قد قتل احدهما الآخر من أجل قضية طبقا للدم الذي يجري في عروقهما غريبة على كليهما: فوق كل شيء إنها تبرهن على أن "نداء الدم" الفطري لا يتسيد ضد المصالح الاقتصادية والسياسية التي دارت الحرب بسببها.

ذات مرة أعلن أيديولوجي الأجناس الفرنسي "فاشيه دو لا بوج" (***Vacher de Lapouge***)(*) أنه في القرن العشرين "سوف يقتل بعضنا بعضًا بالملايين بسبب درجة

(*) جورج فاشير دي لابوج (١٨٥٤-١٩٣٦) الأنثروبولوجي الفرنسي والباحث في الجانب النظري من علم تحسين النسل والعنصرية. [المترجم]

أو درجتين أكثر أو أقل في المؤشر الدماغي"، وأنه "بهذه العلامة التي سوف تحل محل اللغو التوراتي وعلاقات النسب بين اللغات، سوف تعترف الأجناس ذات العلاقة ببعضها البعض، ولسوف يحيا آخر أنصار المذهب الرومانسي ليرى إبادة هائلة للشعوب". حتى الحقيقة المروعة والعارية للحرب كانت أقل هولا من الخيال المتعطش للدماء عند هذا المتعبد لوثن الأجناس. في الحرب العالمية [الأولى] لم نهشم الجماجم لأنها كانت أطول أو أقصر، ولكن المصالح المتعارضة داخل العالم الرأسمالي قد نمت إلى هذه الدرجة التي بدت عندها حرب الطبقات الحاكمة الطريق الوحيد المتاح الذي يأملون من خلاله الإفلات من "الحارة المزنوقة" التي وصلوا بأنفسهم إليها. في الحرب العالمية الأخيرة [الأولى] حاربت أكثر الأجناس تنوعا كتفا إلى كتف على كلا الجانبين. لقد جررنا رجالاً سودًا وصُفرًا معنا إلى الكارثة، دون أي مانع من موانع "نداء الدم"، حتى يتركوا أنفسهم للذبح من أجل مصالح لم تكن بالتأكيد مصالحهم.

لم تتعرض الشعوب مرات قليلة إلى تغيير جوهري لأخلاقياتها وعاداتها وهو الأمر الذي لا يمكن تتبعه على أية حال في الاختلاط ما بين الأعراق. طبقا للشهادة التي يجمع عليها كل منظري الأجناس، رجال من الجنس الشمالي هم اليوم أكثر عددا في البلدان الإسكندنافية خصوصا السويد. ولكن هؤلاء السويديين والنرويجيين والدنماركيين القح قد مروا في مجرى تاريخهم بتجارب غيرت بعمق من طرق معيشتهم القديمة. تلك البلدان التي كانت سابقا محل كراهية وخشية شديدة كموطن لأشرس القبائل الحربية في أوروبا يتجمع فيها الآن أكثر السكان المسالمين في القارة. "روح الفايكنج" الشهيرة التي كان من المفترض أنها الصفة المميزة للجنس الشمالي، في نفس الأرض الإسكندنافية هذه، قد انطفأت تماما. عبارة "وُلِد مسالما" التي ابتكرها "جونتر" ومن يدورون في فلكه خصوصا لتلويث السمعة الأخلاقية لمن يسمونه "الرجل الشرقي" لا تنطبق على أحد أفضل من الإسكندنافيين الحاليين. أحدث مصير لعقيدة الأجناس هو حتمية من أكثر الحتميات ضحالة لم يوضع مثيلها من قبل؛ إنه الاستسلام الأكثر أسفا وانحطاطا للروح أمام أوهام أكلة لحوم البشر "بنداء الدم".

من أجل منع غرق "الجنس النبيل" ضربوا في ألمانيا على وتر الفكرة العظمى "لهيمنة طابع الجنس الشمالي" (*nordification*) التـــي أدت بـــالعقول المـــاكرة إلـــى الوصول إلى أكثر المقترحات طيشا. استدعت هذه النظرية خلال الـــسنوات العـــشر الماضية فيضانًا كاملاً من الإنتاج الأدبي من الصعب أن تجد أي شيء أكثـــر منـــه هولا. لا يداني ألمانيا أي بلد آخر في ذلك. معظم هؤلاء القديـــسين الغربـــاء الـــذين فرضوا أنفسهم تطفلا في ألمانيا اليوم يرغبون في جعل عملية الإنجـــاب تحـــت يـــد الدولة المسيطرة. ويقف الآخرون علنا في صف إدخال تعدد الزوجـــات أو الأزواج بشكل قانوني حتى يقف الجنس الشمالي بشكل أسرع على أقدامه الأضعف بشكل ما. وهكذا ربما يحصل رب العائلة على حقه "في وسط هذا العالم القديم المخنـــث" طبقـــا للصورة التي عبر عنها "ألفرد روزنبرج"، المستشار الروحي لهتلر. السيد "ريتـــشارد رودولف" (*Richard Rudolf*) في مقالته "الأخلاق الجنـــسية" (*Geschlechtsmoral*) يدافع عن تعدد الزوجات، ليس فقط لأنه يوفر وسيلة لرفع خصوبة الجنس الـــشمالي إلى أقصى طاقاتها، ولكن أيضا لأن هذه المؤسسة تتوافق بشكل أفضل مع الغرائـــز الفطرية للذكر نحو العلاقات الجنسية المتعددة.

استدعى الأنصار المُلهَمون بهذه الفكرة إلى الحياة حركة خاصة للدفاع عمـــا يُسمى "زواج ميدجارد" (*Midgard marriage*) التي اقترح رعاة هذه الحركة تأسيس وتمويل مستوطنات حيث يقوم الرجال والنساء المُختارون لهذا الغرض فـــي تعـــاون مخلص بتكريس أنفسهم للمهمة السامية بمنع انقراض الجنس النبيـــل. هنـــاك كانـــت عشر نساء لكل رجل. ونظروا للزواج كنوع من الرابطة لأجل الإنجاب ويستمر فقط حتى مولد الطفل، إن لم تعبر الجماعة عن الرغبة في تطويل المدة. في كتابه "فلـــسفة وتربية الإنـــسان" (*Weltanschauung und Menschenzuchtung*) دافـــع مفـــوض الصحة "إف دوبريه" (*F. Dupre*) عما يُسمى "الزواج المؤقت" الـــذي يخـــدم فقـــط أغراض إنجاب الذرية. عينت الدولة "مجلس الكبار" للإشراف على مثل هذه الأمور. وفي صياغة غريبة أعلنوا، "يجب على الزوجين الاقتران معا بغرض الإنجاب بشكل بحت، وعند إنجاز هذا الغرض من المتوقع لهما أن ينفصلا.. نفقات إنجـــاب الذريـــة

من المتوقع أن تتحملها الدولة". وقريب الشبه جدا "بهنتشل" (**_Hentschel_**) مخترع فكرة "زواج الميدجارد"، السيد "والتر داريه (**_Walther Darre_**)، وزير التغذية الاشتراكي الوطني الألماني، الذي شرع في العمل، في كتابه "نبالة جديدة من الدم وتراب الوطن" (**_Neu- Adel aus Blut und Boden_**) من أجل توليد ذرية من النبالة الجديدة في "مزارع توليد سلالات" (**_Hegehofen_**) خاصة. يرغب السيد "داريه" في إخضاع نمو الأمة تحت الإشراف الدائم بتأسيس "عنابر توليد". يتم إعداد "دفتر قطيع" و"سجلات عائلية" لكل النسوة. يتم تقسيم كل العذارى إلى أربع فئات ليُسمح لهن بناء على أسس "قوانين التوليد" بالزواج، أو يُمنَع عنه طبقا لخصائصهن العرقية ولياقتهن للحمل والإنجاب. في ١٢ مارس ١٩٣٠، قدم الاشتراكيون الوطنيون في الرايخستاج (**_Reichstag_**) الإضافة التالية للمادة ٢١٨ من القانون الجنائي:

> **كل من اضطلع اصطناعيا بتقييد الخصوبة الطبيعية للشعب الألماني لضرر الأمة، أو اضطلع بالكلمة أو الكتابة أو الطباعة أو الصورة أو بأي وسيلة أخرى لمساعدة مثل هذه المحاولات، أو كل من ساهم عن طريق الاقتران بأحد أعضاء الطائفة ذات الدم اليهودي أو الأجناس الملونة أو هدد بالمساهمة في إفساد أو انحلال الشعب الألماني، سوف يُعاقَب بالحبس بسبب الخيانة العرقية.**

في ٣١ ديسمبر ١٩٣١، أصدرت الإدارة الوطنية لقوات الصاعقة الهتلرية أمرا أنه بعد ١ يناير ١٩٣١ يجب إصدار رخصة الزواج لكل عضو من أعضاء قوات الصاعقة من خلال ما يُسمى "مكتب الأجناس". تعطينا أول فكرة مسبقة عن أمجاد الرايخ الثالث هذه الوثيقة العجيبة التي تدافع عن "الاحتفاظ بسلالات ألمانية شمالية مميزة بواسطة الوراثة السليمة صحيا"، وتخلق مرجعية "لسجل علاقات ذوي القربى لقوات الصاعقة (*S.S*)". ومن خصائص ذلك أن نفس الجمهور الذي يُسوّق بضاعته في "المثالية الألمانية" بهذا الإصرار وبمثل هذا الحماس الأخلاقي العميق يصارع "الانحطاط المادي" لألمانيا ويعطي قيمة غالية للعلاقات الجنسية من وجهة نظر مربي الحيوانات بشكل بحت. ولسوف يختزلون حب الرجال إلى مستوى

أكشاك إنتاج الذرية وإسطبلات خيول السباق. بعد "ترشيد الصناعة"، يـأتي ترشـيد الجماع الجنسي — أي مستقبل أمامنا!

ولكن كل الحديث عن "التحويل إلى الجنس الشمالي" لا قيمة له بالكلية لقصور كل شروط مثل هذه العملية. وحتى لو أن الأجناس ليست سوى فكرة، ولكنها وحـدة معيشة واقعية تنتقل خصائصها للذرية في كليتها، إلا أنه يظل مـن غيـر الممكـن الاضطـلاع بهـذا المشروع. ربما يكون الفلاح في وضع من يربي ثوره أو أبقاره أو خنزيره من أجل إنتاج اللحم واللبن أو السمن، ولكن أن تربي كائنات بشرية مـن أجل خصائص أخلاقية وفكرية محددة يصبح ذلك أمرا آخر. كل التجارب التـي تـمّ إجراؤها إلى هذا الحـد أو ذاك علـى النبـاتات والحيوانات قد أظهرت أن الجـنس لا يدخل أبدا في مزيج ككل. ما دامت الكائنات البشرية التـي تحمـل الخـصائص العرقية المماثلة أو الشبيهة تحتفظ بها لأنفسها وتنمو فقط داخل دائرتها الخاصة تعاود صفاتها الخاصة الظهور بشكل أو بآخر ملتصقة أو بعلاقات شبيهة. ومع ذلـك عنـد حدوث خليط مع عناصر عرقية أخرى، فمن ثم لا يورِّث العرق كوحـدة متماسـكة، ولكن كل صفة منفصلة بنفسها أو في مدارات منفصلة. لذلك من المحتمل أنه لن ينتج فقط صفات مختلطة ونقية في الجيل الأول؛ بل يوجد في كل منها إمكانية حدوث كل تركيبة متصورة من المادة الأولية الموروثة من الوالدين.

لم يعد يوجد أي جنس نقي، على أقل القليل في أوروبا. ما تُـسمى "الأجنـاس الجوهرية" في أوروبا هي اليوم مشوشة تماما مع بعضها البعض حتى أن الـشعوب النقية عرقيا لم يعد ببساطة لها وجود. وهذا حقيقي خصوصا بالنسبة لألمانيـا، التـي تبدو بسبب وضعها الجغرافي في قلب القارة أنها كانـت الطريـق الـسريع لعبـور الشعوب والقبائل. في أزمنة هجرات الشعوب تركت القبائل الشمالية موطنها القـديم في أرتال عسكرية وتحركت نحو الجنوب، حيث ضُخ الدم الشمالي تدريجيا مـع دم "أجناس الغرباء" من السكان الأصليين. استولت القبائل السلافية التي اجتاحت الأرض من الشرق على مقاطعات نصف خالية من السكان، وانتشرت شمالا إلى حـد جبـال الألب وفي الجنوب بلغت "ريجنيتس" (***Regnitz***). وحتى منتصف القرن الحادي عشر

كانت غابة "تورينجيان" (*Thuringian*) تُسمى "الغابات السلافية" (*Slavenwald*) ويستطيع المرء إدراك وجود تأثير قوي للدم السلافي في مظهر السكان هناك حتى اليوم. أُعيد تشكيل سكان ألمانيا القدماء بواسطة الاختلاط البيني المستمر للدماء. توقف توافق الألمان منذ وقت طويل مع الوصف الذي كتبه "تاسيتوس" (*Tacitus*)[•] ذات مرة عن الشعوب الجرمانية. لم تتبدل فقط الخصائص الفيزيائية، بل جرى تغير عميق في الصفات العقلية والروحية أيضا. من بين الستين مليونًا الذين يقطنون ألمانيا اليوم من المحتمل عدم وجود إلا بالكاد شخص واحد يستطيع المرء أن يصفه كشمالي نقي. لذلك يصبح واحد من أغرب الأوهام عزم الرجال الخروج من هذا الخليط المتنوع بعد تقطيره مرة أخرى بواحد من "الأجناس الرئيسية". في الواقع لابد للمرء أن يكون أحد منظري الأجناس حتى يؤمن بمثل هذه الأشياء؛ فكامل يوتوبيا "التحويل إلى الجنس الشمالي" كما علق "برونهولت سبرينجر" (*Brunhold Springer*) بمهارة "ليست عملية إجرائية ولكنها مسرحية الجماعة الألمانية القديمة"[11].

إنها لنهايات قصوى تجذب بندية بعضها الآخر، خصوصا في الحب بين الجنسين. سوف ينجذب الأشقر دائما للملون أكثر من انجذابه لواحد من نمطه. إنه الغريب الذي يسحر ويغوي ويحرك السخونة في الدم. نفس حقيقة أنه لا توجد أجناس نقية وأن كل الشعوب هي خليط تبرهن على أن صوت الطبيعة أقوى من نداء الأجناس، أو الدم. "رجل الشمال" عند جونتر وأتباعه هو صورة تخيلية تماما. الإيمان بجنس ما يُوحِّد في ذاته كل سمة للجمَال الفيزيائي مع صفات العقل والروح الأكثر سموا، هو نوع من الإيمان بالمعجزات، وفكرة حالمة لا تتوافق مع شيء في الماضي أو المستقبل. وإذا كان الجنس الشمالي هو في الواقع كيانًا إعجازيًا تنطلق منه كل حضارة إنسانية، كيف حدث أنه في أرض الشمال لم يكن قادرا على إحداث

(•) بوبليوس (أو غايوس) كورنيليوس تاسيتوس (٥٦–١١٧ م) عضو مجلس الشيوخ ومؤرخ للإمبراطورية الرومانية. الأجزاء الموجودة من كتاباته عملان– حوليات وتواريخ ممتدة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية من وفاة أغسطس ١٤ م إلى سنة الحرب الأولى بين اليهود والروم في ٧٠ م، وهو معروف بالإيجاز في النثر اللاتيني، فضلا عن أفكاره القوية في علم نفس سياسة القوة. [المترجم]

أي حضارة تستحق الذكر؟ لماذا تتكشف "طاقته الفطرية على بناء الحضارات" فقط في المناطق البعيدة، وبعيدا عن تراب موطنه؟ لماذا لابد لنا أن نذهب إلى اليونان وروما لنجد "سوفوكليس" (***Sophocles***) ما، و"براكسيتيليس" (***Praxiteles***) ما و"بركليس" (***Pericles***) ما و"ديموستينيس" (***Demosthenes***) ما و"إسكندر" (***Alexander***) ما و"أغسطس" (***Augustus***) ما ومائة آخرين نالوا تكريم جونتر وأنصاره وولتمان وأنصاره وهاوزر وأنصاره كممثلين للجنس الشمالي؟ الحقيقة هي للأسف أن الرجل الشمالي قد كشف عن قواه المُحتفَل بها في بناء الحضارات فقط في بيئة أخرى، مُصاحبا لشعوب أجنبية. بالنسبة "لرحلات الفايكنج الفخورة" التي تشتعل بها كل الكتب التي تتحدث عن الأجناس من الصعب وصفها على أنها أنشطة ثقافية. على العكس، كلها في مرات كثيرة جدا هددت الحضارة وبددت عناصر منها ذات قيمة غالية، كما تظهرها بوضوح كاف إغارات لصوصية القوط والفاندال (***Vandals***) والنورمان (***Normans***) والقبائل الجرمانية الأخرى.

إلا أن كل منظري الأجناس المحدثين يتفقون على أن طاقة بناء الدول كانت أهم خصائص الرجل الشمالي، الذي كان مُقدَّرا له هو وحده أن يكون قائدا ومرشدا للشعوب والأمم. ولو كان ذلك صحيحا، كيف حدث أن الرجل الشمالي في تلك الأراضي الشمالية نفسها لم يُنشئ فيها قط مملكة عظمى مثل الإسكندر الأكبر وقياصرة روما أو جنكيز خان، ولكنهم مكثوا دائما مُغلَقين على أنفسهم في مجتمعات محلية صغيرة الحجم؟ بالأحرى يبدو الأمر فعليا عجيبًا حيث إن هذا الجمهور الحاشد الذي يمتلك الكثير جدا ليقوله عن عبقرية بناء الدول عند الشمالي الأشقر، ينوح في اللحظة نفسها على الفرقة الأبدية بين القبائل الجرمانية كواحدة من أكثر المظاهر المؤسفة في طبيعتهم، ويحذر الألمان الحاليين اليوم من العواقب الوخيمة لهذه العادة السيئة عند الأسلاف. بالتأكيد من الصعب مصالحة وضع الأمور على حالتها هذه مع القدرة على توحيد ممالك وأمم عظمى معا؛ الحقيقة –التي يمكننا ملاحظتها بشكل عابر– هي أنها ليست سوء حظ بالغ. دافع القبائل الجرمانية للانقسام وهو ما يُضرب به المثل تماما، يتماشى بشكل سيئ جدا واقعيا مع قدرتهم المزعومة على بناء الدولة.

اكتسب الشماليون الشُقر ذلك فقط في الأجزاء الأجنبية عندما وصلت إليهم مفاهيم القوة عند الإمبراطورية الرومانية مثل الوحي الجديد والكارثة.

نحن لا نعني إنكار الطاقة الثقافية "لرجل الشمال" أو الصفات القيمة الأخرى. لا شيء أبعد عما ننتويه من السقوط في الخطأ المعاكس لما يعتنقه منظرو الأجناس. ولكننا نحمي أنفسنا بكل تواضع ضد العجرفة غير المحسوبة عند هؤلاء الأشخاص الذين يجرؤون على إنكار كل المشاعر العميقة نحو الثقافة عن الأجناس الأخرى ولكن إنكارهم أيضا لكل فكرة عن الشرف والإخلاص. في النهاية كل حديث عن "روح الجنس" هو لا شيء سوى تلاعب كسول بالأفكار التخيلية. الوسيلة التي تأتي بكل الجماعات البشرية فكريا وروحيا تحت سيطرة عادة وحيدة هو توحش لا يمكنه سوى الدفع في اتجاه استنتاجات أكثرها خطأ بشكل خبيث. وليس محل خلاف أن البشر الذين تناسلوا لمدة قرون في نفس قطعة الأرض وتحت نفوذ نفس البيئة السياسية والطبيعية يمتلكون صفات خارجية وداخلية مشتركة. أوجه التشابه هذه هي أكثر إفصاحا عن نفسها بين أعضاء نفس العائلة أكثر منها في قبيلة أو شعب ما؛ ويظل ما يجده المرء من تباينات لا حصر لها في الشخصية عندما يغوص بشكل أعمق في داخل الغلاف الفكري والروحي للأفراد أعضاء العائلة الواحدة. في العموم ما تُسمى "الشخصية الجماعية" لشعب أو أمة أو جنس ما إنما هي ببساطة تعبير عن الآراء الشخصية للأفراد التي يتناولها الآخرون ويكررونها دون تفكير.

مثلا، ماذا نعتقد في جونتر عندما كان لابد له أن يقول في كتابه "سلالات الشعب اليهودي" (***Rassenkunde les judischen***) حول ما يُسمى "الجنس الشرقي"؟ فقد قال جونتر، "خرج هذا الجنس من الصحراء ومال بهم هذا السلوك العقلي إلى السماح للأراضي التي كانت مزروعة سابقا أن تتحول إلى صحراء مرة أخرى". هذا لغو فارغ لا أساس له على الإطلاق. في المقام الأول، نحن نفتقد أي دليل تاريخي على أن هذا الجنس في الواقع قد خرج من الصحراء؛ وفي المقام الثاني من سوف يعطي برهانا على أن هناك من أعضاء هذا الجنس مَنْ تسكنهم فعلا غريزة "ترك الأراضي المزروعة لتصبح صحراء مرة أخرى"؟ ولكن جونتر احتاج إلى هذا

البنيان التاريخي لإقناع قارئه بتفاهة شأن اليهود المطلقة. إلا أن اليهود في فلسطين كانوا المزارعين؛ وقد تم بناء كامل تشريعهم حول هذه الحقيقة. إلا أن العرب حولوا إسبانيا إلى حديقة تبدلت حصص عظيمة منها إلى صحراء مرة أخرى بعد طرد المغاربة منها.

الخشية من اليهود قد تطورت بين المدافعين عن نظرية الأجناس إلى هلع عرقي فريد. بالطبع من المعترف به حتى داخل تلك الدوائر أنه لا يوجد واقعيا شيء مثل ذلك اسمه الجنس اليهودي، وأن اليهود مثل كل الشعوب الأخرى هم خليط من كل عنصر عرقي ممكن. ذهب منظرو الأجناس المحدثون بعيدا إلى الحد الذي يؤكدون فيه أنه على طول ساحل الشام، الدم الشرقي والحامي والمنغولي بل وحتى نقطة أو اثنتان من الدم الشمالي يتدفق في أوردة اليهود! ورغم ذلك، يبدو أن اليهودي نال أسوأ الموروث من كل الأجناس. بالكاد لا توجد أي صفة شريرة لم ينسبها إليهم الخيال المعادي لليهود. فاليهودي هو مخترع حقيقي للاشتراكية، وفي نفس الوقت هو الذي ترك الرأسمالية تنطلق بلا قيود في العالم. لقد أصاب بالعدوى كل البلاد بأفكاره الليبرالية وفكك كل روابط السلطة؛ وما زال دينه هو عقيدة أكثر أنواع السلطة صرامة، وعبادة لأقصى أنواع الاستبداد. اليهودي كان سببا للحرب واستثارة الثورات. يبدو أن لديه بالضبط واحدًا من الأغراض السرية لتفريخ المؤامرات المحبوكة ضد الرجل الشمالي النبيل. نحن متأكدون من أن خليط الدم يدمر الصفات الأصلية للجنس وينحرف بمسار ميولها العقلية والروحية. كيف حدث من ثم أن جنسا بهذا المزيج الواسع من الدم المختلط مثلما حدث مع اليهود، استطاع هذا الجنس لمدة ألفي سنة أن يحافظ على نظامه الديني رغم ألوان الاضطهاد البشع التي كابدها بسببه؟ ألا يخرج المرء من هذا بأن هناك عوامل في التاريخ لا ترث الخصائص العرقية؟ وكيف حدث أن اليهود استطاعوا تسميم العالم كله "بروحهم الحداثية" إذا ما كانت أفكار الإنسان هي فقط ناتج عامل وراثي متضمن في دمه؟ ألا يجب علينا الاستنتاج من هذا إما أن اليهود مرتبطون بشكل وثيق بنا أكثر من استعداد

أيديولوجيي الأجناس عندنا للقبول بهذه الحقيقة، أو أن الخصائص الوراثية التي يحددها الدم هي أكثر ضعفا بكثير للصمود أمام الأفكار الأجنبية؟

ولكن هجوم مذهب الأجناس الحديث ليس موجها فقط ضد اليهود؛ بل إنهم حتى يتجمعون بقوة أعظم ضد قسم من شعبهم نفسه، ضد نسل ما يُسمى "جنس جبال الألب" الذي أعاد جونتر معموديته وأسماه "الجنس الشرقي". عندما يتحدث جونتر وهاوزر وكلاوس ومساعدوهم عن الشعوب الشرقية فإنهم يصبحون على قدر كبير من الأذى الصريح. وحيث إن الجنس الشرقي قد استقر في قلب أوروبا ذاتها فذلك طبقا لجونتر من سوء البخت العظيم، لأنهم "بدمهم غير النقي" يهددون بشكل دائم سمو الجنس الشمالي، الذي لن يؤدي باختلاطه مع هذا الجنس "الخالي من المواهب" و"غير المبدع" سوى إلى الخراب. فالشرقي هو النقيض التام لرجل الشمال. فإذا كان في الجنس الأخير تجد "روح القائد" أكثر تعبيراتها تميزا، ففي الجنس الأول تعيش فقط "روح عفنة" لجندي مسلح برمح طويل غير قادر على المشاركة في الحملات العظيمة. الشرقي "وُلِد مسالما"، "رجل الجموع"؛ ومن هنا تفضيله للديموقراطية التي تنمو من احتياجه لإحباط أي شيء متفوق عليه. لا يمتلك سمات بطولة، ولا يشعر على الإطلاق بعظمة أرض الآباء والأمة. الشرقيون هم "رجال جان بول (*Jean Paul*)[•]؛ أعدادهم وفيرة فعلا بشكل كاف، في الحقيقة أكثر من متوفرة بشدة في ألمانيا". هم يصلحون كرعايا طيبين، ولكنهم لا يستطيعون أبدا أن يكونوا قادة، فقط رجل الشمال هو بحكم القدر القائد (انظر هتلر وجوبلز). ولكن ذلك ليس كل شيء.

> "**المعاشرة الجنسية بين أقرب الأقارب وأيضا بين الإخوة والأخوات والآباء والأطفال هي كما أكدها لي أطباء البلاد، قل ليست غير معتادة في تلك المقاطعات التي يقطنها "الشرقيون". ربما بسبب أصوله لا يعرف العقل الشرقي فكرة زنى المحارم**"[١٢].

(•) جان بول (٢١ مارس ١٧٦٣-١٤ نوفمبر ١٨٢٥)، اسم الميلاد: يوهان فريدريش بول ريختر، وهو كاتب الرومانسية الألماني، اشتهر بروايات وقصص روح الدعابة. [المترجم]

لدى أوتو هاوزر أسوأ الأشياء ليقولها عن الرجل الشرقي، الذي يقـدم عنـه الصورة الساحرة التالية:

سوف يفعل أي شيء من أجل المال. سوف يبيع دون تردد شرفه إذا ما كان لديه شيء منه. إنه الذي وُلِد ديموقراطيا ورأسماليا... الرجل الشرقي أكثر فسوقا من الأجناس النقية أو مـن الأجناس الأخـرى المختلطة. فهو يجعل الرجال والنساء يرقصون عراة على المسرح ويصارع بعضهم البعض. إنه يهوى القراءة عن السلوكيات الجنسية المنحرفة وممارستها عندما يستطيع. إنـه يـستعبد المـرأة وهـي تستعبده. إنه نصير للفردوية بمعنى أن كل فرد يفعل ما يحلـو لـه، يغتصب الفتيات والولدان الصغار، ويستخدم أي وسيلة في الصراعات الاجتماعية أو الفكرية أو السياسية. ورغم أن هذا عكس كل قواعـد الروح الرياضية أن تُمسِك بالخصم من خصيتيه فإنه وهو الذي يدافع عموما عن تحرير كل الرغبات، يود استخدام هذه الممارسـة عنـدما يريد أن يجرجر خصومه من العبقريات المزعجة له إلى مـستواه ولا يستطيع هزيمتهم في نزال شريف(١٣).

في مكان آخر من أعماله يروي هاوزر الآتي لقرّائه:

الشرقي مبتذل في حياته الجنسية. لا يستطيع المرء أن يمكـث معـه نصف ساعة قبل أن يبدأ في إخباره ليس بمجرد قصص غير مهذبة، ولكنه يحكي عن تجاربه الجنسية ومن الممكن أن تكون هذه القصص مع زوجته؛ وتثرثر النساء لمـستمعاتهن بروايـات عـن مـصاعب دورتهن الشهرية. شياطينه يلطخون الجدران بصور مهبـل النـساء والقضيب الذكري، ويتفق على مواعيد الجماع الجنسي فـي بيـوت الراحة العمومية.

لا يملك المرء أن يصدق عينيه عندما يقرأ هذا الكلام. الانطباع الأول هو أن المرء يتعامل مع عقل مريض، لأن هذا التلاعب الماجن الذي يتخيل حيـاة الآخـر

الجنسية بالتأكيد ينبع من تصرفات شاذة وخيال مـريض عـاجز عـن الإحـساس الصحي. دعنا نكن واضحين حول توحش هذه الاتهامات المنشورة هكذا للعالم كلـه. إنها تلقي بالقاذورات على كامل هيئة الكائن البشري، الذي يعيش بالملايين في بلاده، وتنسب له "سمات شخصية" مزعومة تنبع بالفعل من خيالها الخاص المريض والقذر فقط. هذا النوع من "العرض" تتميز به أساليب أيديولوجيي الأجناس المحدثين؛ وهـو كذلك صورة نمطية لانحطاط البشر الذين لا يتورعون حتى عن البناء على أسـرار بيوت الراحة لتلويث "العدو العرقي"، وهكذا لإشباع غرائزهم الدنيئة الخاصة. وقد تم صب هذا السم في البلاد لسنوات في كتب ونشرات ومقالات جرائد لا حـصر لهـا. فلا يندهش أحد إذا ما كان نثر أسنان التنين سوف ينبت في يوم من الأيـام. لعبـث الحركة القومية الألمانية الحالية، يكفي هذا بالضبط: ذلك أنها تـستقر علـى نظريـة الأجناس وأنصارها العميان يفشلون في رؤية أنهم يدمرون بأيديهم ذاتها أقوى حصن لدى الأمة، وهو الشعور الفطري باللُحمة الوطنية. إذا لم يكن أحد مخدوعا بما يكفـي حتى يستطيع هكذا إهانة أعضاء من أمته الخاصة، فإنه يستطيع بسهولة رؤية كيـف أن هذه القدرية العرقية لابد وأنها تشتغل ضد الشعوب الأخرى. مـن هـذا الإيمـان قصير النظر بتفوق الجنس النبيل الذي قد رتبته السماوات، يترتب منطقيـا الإيمـان "برسالتها التاريخية". تصبح الأجناس مسألة من مسائل القدر، حلم إعادة تجديد العـالم بواسطة الإرادة الواعية للنوع الألماني. وحيث لا يستطيع المرء القبـول بـأن كـل الشعوب سوف ترى المصير المقترب من نفس زاوية النظر، سوف تصبح الحـرب هي الحل الوحيد. علمتنا التجربة إلى أين يؤدي ذلك. الاعتقاد أنه "في النوع الألماني سوف يجد العالم مسرته مـرة أخـرى" (***Am deutschen Wesen einmal noch die Welt genesen***) يثير فقط في تلك الطبقات التي تمتلك أعظم نفوذ على مصير ألمانيا اقتناعا بحتمية "الحرب الألمانية" التي يتكلمون عنها كثيرا في حلقة تـشامبرلين. فـي عمل منتشر بشكل واسع يشيد بالحرب بوصفها "قابلة كل الثقافـات" يعلـن "أوتمـار سبان" (***Othmar Spann***)(*): "يجب أن نرغب في هذه الحرب فقط لنبرهن علـى أن

(*) أوتمار سبان (١٨٧٨-١٩٥٠) الفيلسوف وعالم الاجتماع النمساوي والاقتـصادي المحـافظ صاحب وجهات نظر جذرية معادية لليبرالية وللاشتراكية، اسـتنادا إلـى أفكـار المدرسـة الرومانسية للقرن الـ١٩ التي عبّر عنها آدم مولر وآخرون. شـاعت بـين النـاس كتبـه=

كل أعبائها سوف تستقر علينا حيث إننا وحدنا من سوف يحاربها بكل قوتنا التي أظهرها الجنس الألماني الإلهي خلال آلاف السنين".[١٤]

تم الاعتزاز بهذه الروح عبر عقود السنين وتدريجيا انسحبت للوراء إلى الوهم القدري الذي يرى كل التاريخ تحت ظل الأجناس. لم يكن "سبان" الوحيد الذي لعب بحرب الأجناس المستقبلية. في مؤتمر "اتحاد كل ألمانيا" (***Alldeutscher Verband***) في الثلاثين من نوفمبر ١٩١٢، تصدرت مسألة الحرب القادمة مقدمة المواضيع. كان هناك حديث عن "الصراع الحاسم بين الشعوب السلافية الجماعية والنوع الألماني" تصدره البارون "فون ستوسل" (***Baron von Stossel***) وآخرون؛ وأعلن الدكتور "رويتر-هامبورج" (***Reuter-Hamburg***) أن "مهمتنا الرئيسية إخبار الناس بالأرضية الحقيقية للحرب التي من المحتمل وقوعها"، والتي لا يمكن اعتبارها سوى "معركة السلافية المتحدة ضد الألمانية". عندما جلبت الإدارة الألمانية مقترحاتها الجديدة حول الأمن في أبريل ١٩١٣، وضع "بيتمان-هولفيج" (***Bethmann-Holweg***) البنود الجديدة حول ضرورة الإعداد للصدام المُنذِر بين السلافيين والألمان. ورغم أن تجمعات القوى في بدايات الحرب لابد وأنها تبرهن لكل شخص ذي بصيرة على عدم إمكانية وجود حديث هنا عن "حرب أجناس"، لم يندر وجود أولئك الذين لم يروا في الكارثة المخيفة سوى أثرٍ حتميٍ للأجناس. حتى عالِم تاريخ معروف لدائرة واسعة جدا مثل "كارل لمبرخت" (***Karl Lamprecht***)[•] نشر في عدد ٢٣ أغسطس ١٩١٤، مقالة في "صحيفة برلين" (***Berliner Tageblatt***) اليومية تكلم فيها عن "حرب النزعة الألمانية والنزعة السلافية: اللاتينية (الكاثوليكية) ضد البربرية الشرقية الغازية".

=ومحاضراته، وساعد في استعداء الفصائل السياسية في النمسا خلال سنوات ما بين الحربين. [المترجم]

(•) كارل جوتهارد لامبرشت (١٨٥٦-١٩١٥) مؤرخ ألماني متخصص في الفن والتاريخ الاقتصادي الألماني. [المترجم]

اكتشف لمبرخت عندئذٍ أن البلدان الإسكندنافية وهولندا وسويسرا وأمريكا تقـع تحت تأثير مشاعر عرقية، حتى إنهم يفضلون القضية الألمانية، وأعلن بفرح "سـوف يُنبئنا الدم!" وهم وقوف أمريكا كحليف قد أدى به حتى إلى إعلان المـستقبل الحـي "للجنس التيوتوني الجرماني!" وحيث إنه في آخر المطاف لم تصطف إنجلترا مع هذا المخطط، أخذ المؤرخ الكبير يشدد على: "فقـط لاحـظ أن الأرض المركزيـة فـي إمبراطورية بريطانيا العالمية لم تعد تهيمن عليها روح جرمانية نقية ولكن بـالأحرى روح سلتية"(١٥).

إذا كانت نظرية الأجناس قد استطاعت إنتاج مثل هذا الوهم غير القابل للعلاج في مخ أكاديمي مشهور عالميا، ألن نحتاج للعجب من هذه الفرضـية الحمقـاء مـن اقتصادي مثل "سومبارت" (***Sombart***)(*) الذي استطاع في ذلك اليوم العالمي إعـلان أنه: "بالضبط مثل طائر ألماني يحلق النسر عاليا فوق جميع الحيوانات الأخرى على الأرض، وبالضبط مثله سوف يشعر الألماني بنفسه يسمو فـوق كـل ذلـك النـوع البشري الذي يحيط به والذي يراه هو على مسافة سحيقة لا نهائية تحته"(١٦).

ولا نؤكد أن الألماني فقط هو القادر على مثل هذه الأفكار الموهومـة. كـل إيمان بدين مُختار، أو أمة مختارة أو جنس مختار يؤدي إلي مسوخ مماثلـة. ولكـن يجب علينا إدراك أنه لم تجد نظرية الأجناس بين شعب آخر مثل هذا القبول الواسـع أو ألهمت مثل هذه الأدبيات التي نالت ذيوعا واسعا كما حدث بين الألمان. يكاد يبدو كما لو أن ألمانيا عام ١٨٧١ قد أعربت عن رغبتها في تعويض ما قد حذفته لحـسن الحظ أعظم روحياتها قبل تأسيس الإمبراطورية، بسبب موقفهم الإنساني النبيل علـى نطاق واسع.

وجد دعاة المذهب العرقي أنفسهم في موقف لا يُحسَدون عليـه حتـى إنهـم يستطيعون المغامرة بأكثر التأكيدات إسرافا دون الحاجـة لإرهـاق أنفـسهم بتقـديم

(*) فيرنر سومبارت (١٨٦٣-١٩٤١) عالم اقتصاد واجتماع ألماني، رئيس "مدرسة التاريخ الـشبابية" وأحد أبرز علماء اجتماع القارة الأوروبية خلال الربع الأول من القرن الـ ٢٠. [المترجم]

البراهين الواضحة. وحيث إنهم أنفسهم يعرفون أن معظم هـذه التأكيـدات لا يمكـن دعمها على أساس قيمتها العلمية، التجأوا إلى عصمة غريزة العِرق، التي يزعمـون أنها تعطي بصيرة أوضح مما هو موهوب لتجارب البحث العلمي المـضنية. ولـو كانت هذه الغريزة المشهورة للعِرق حقيقية وقابلة للظهور أمام كل فرد فإنها سـوف تتفق بشكل لطيف مع العلم حيث إن "الصوت الداخلي" أو "العِرق الكامن في حـضن كل فرد" سوف يجلب اليقين للرجال أمام كل سؤال صعب حتى عندما يفـشل العلـم. ولكن في تلك الحالة يجب علينا على الأقل توقع أن يكون معظـم أنـصار نظريـة الأجناس في اتفاق كامل ويعلنوا إجماعا معينا على استنتاجاتهم. ولكن هنـا بالـضبط تكمن المشكلة. يكاد لا يوجد سؤال واحد ذو أهمية جوهريـة يتفـق حولـه أولئـك الأيديولوجيون من أنصار نظرية الأجناس حتى ولو نصف اتفاق. غالبا مـا تتفـرق آراؤهم ببون شاسع لا يمكن تصور طريقة لرأب الصدع بينهم. وهـا هـي بعـض الأمثلة القليلة من بين آلاف:

في كتابه "الأجناس والثقافة" (***Rasse und Kultur***)، يخبرنا أوتـو هـاوزر أن اليونانيين "كانوا شعبا من الشُقْر بصرامة، وتماما بلغوا بأنفسهم قدرا عاليا من الثقافـة دائما ما كان مثارًا للإعجاب، ولسوف تفيدنا اليونان كنموذج مادام الدم الشمالي يتدفق في أي شعب، في أي كائن حي". رأى "ولتمان" و"جونتر" وآخـرون نفـس الـشيء بكلمات أخرى دون شك عن "غريزة أهل الشمال" المماثلة والتي تغلغلت في دم ذوي القربى عبر آلاف السنين. ولكن جوبينو المؤسس الحقيقي لنظرية الأجناس لم يكتشف شيئا طيبا ليقوله عن اليونانيين؛ بل دائما ما استخف بهم بكل طريقة، بسبب كراهيتـه العميقة للديموقراطية. في كتابه ذي المائتي صفحة، "تاريخ الفـرس" (***Histoire des Perses***)، امتدح "جوبينو" ثقافة الفرس بمفردات طنانة، وصوَّر اليونان كبلد نـصف بربري دون ثقافة خاصة به تستحق الذكر. بل إن جوبينو حتى أنكر على الهيلينيـين كل قيمة أخلاقية، وأعلن عدم امتلاكهم أي فهم لمشاعر الشرف – عندما نرى أنقـى "شرقيين".

بالنسبة لتشامبرلين المسيحية هي أعلى تعبير عن الروح الآرية؛ تكشف الروح الجرمانية في الإيمان المسيحي عن نفسها عمقها الحقيقي وبأقصى تحديد يتم الطـلاق

بينها ذاتها وكل مفهوم ديني للساميين؛ لأن اليهودية هي النقيض الكامل للدين المسيحي؛ وأي تركيب فلسفي للعقل اليهودي والجرماني حتى في الدين هو أمر لا يمكن التفكير به. من الناحية الأخرى، يرى "ألبرشت ويرث" (*Albrecht Wirth*) في المسيحية منتجا للعقل اليهودي الهيليني الذي اضطلع "بتشييد عالم داخلي أعلى بينما يفر اليهود المُحتقَرون من بؤس العالم الخارجي"[١٧]. بينما يدين "يوجين دوهرينج" (*Eugen Duhring*)(•) المسيحية بشكل مطلق، لأنه تحت تأثيرها قد تم تهويد العقل الآري[١٨]. يتهم "لودفيج نيونر" ملوك الفرنجة بالسرقة من أسلافنا والتدمير التام "للإيمان القديم والعقيدة الأصلية التي نبعت من رؤية شبه طفولية للطبيعة" وإجبارهم بدلا على اعتناق "نظام قاسٍ لدين ذي طبيعة عالمية صريحة"[١٩]. ثم "إيريك مالمايستر" (*Mahlmeister*) يؤكد لنا في أطروحته "من أجل الحرية الفكرية الألمانية" (*Fur deutsche Geistesfreiheit*): "المسيحية ذات طبيعة استعبادية جبانة، في تعارض مباشر مع الطبيعة الألمانية". وعن شخص المسيح يمرر مثل هذا الحُكم: "الإله المنبوذ الخائن لبلده من الطائفة المكروهة الذي يتوقع أن يركع أمامه الألماني على ركبتيه".

يرى جونتر وهاوزر وكلاوس في البروتستانتية حركة روحية للجنس الشمالي، و"لابوج" أيضا يرى فيها "محاولة لتكييف المسيحية مع النمط الخاص للجنس الآري". أيضا تشامبرلين الخصم العنيد للكنيسة الكاثوليكية يشير في كتابه "القواعد" إلى الأصل السامي للبابوية. فهو يرى في البابوية النقيض التام للروح الألمانية التي لا تعترف بطائفة كهنوتية، وتعارض شعوريا عالما ذا ترتيب هرمي. لذلك، بالنسبة له الإصلاح هو تمرد الرجل الشمالي ضد قيصرية روما السامية وواحد من جليل الأعمال للنزعة الألمانية، عموما. وضد ذلك يسمو "وولتمان" بالبابوية كتمجيد للروح الألمانية ويتحمل آلاما عظيمة لتصوير السلالة الجرمانية لمعظم الباباوات. وقد تأثر بشكل خاص بذلك "الطفل من القوط" "هيلبرانت"

(•) يوجين كارل دوهرنغ (١٨٣٣-١٩٢١) فيلسوف واقتصادي ألماني، واشتراكي ناقد قوي للماركسية. [المترجم]

(*Hildebrandt*) الذي جلس على العرش البابوي باسم جريجوي السابع، وكان المؤسس الحقيقي لسلطة البابوية الزمنية. إلا أن أوتو هاوزر يشرح هذا الاضطراب المُميِّز للروح الجرمانية كما يلي: "إنها صفة جوع الرجل الشمالي إلى السلطة التي تجعله قادرا على استعمال كل قوته عند كل اضطلاع بعمل ما، وتجعله يستخدم دون تردد كل وسيلة لتحقيق غاية. نحن نعرف كم كان قدر التفاهة القصوى التي كان عليها موقف العديد من الباباوات نحو البابوية والمسيحية. لذا بينما قام خط لا ينقطع تقريبا من الألمان بتمثيل البابوية لفترة، فقد كانت البابوية رغم ذلك فكرة غير ألمانية وغير شمالية" (٢٠).

كيف لنا أن نجد طريقا وسط كل هذا؟ أي نوع من الأشياء الغريبة هذه "الروح العنصرية الشمالية"؟ إنها تلمع بكل ألوان الحرباء. إنها شبه بابوية وشبه مناهضة للبابوية، كاثوليكية وبروتستانتية. نداء الدم فيها معارض لحاكمية الطائفة الكهنوتية ذات الامتيازات، وينبذ فكر التسلسل الهرمي العالمي ولكن في نفس الوقت يبذل ممثلوها كل جهد ممكن لجلب العالم تحت نير البابوية التي تستمد أشكالها من "الاستبداد الشرقي للساميين"؛ ويصبح الأمر أكثر إثارة عندما نعلم أن "إغناسيوس لويولا" (*Ignatius Loyola*) مؤسس نظام الجيزويت (*Jesuit Order*) كان سليلا أشقر الشعر للألمان – كما يؤكد ولتمان وهاوزر.

هنا كما في حالة بيتهوفن، يبدو أنهم يلعبون على الطبيعة بحيل قذرة. فكِّر فيها: "لويولا"، ألماني بشعر أشقر وعيون زرقاء، الداعية شبه الحربي والمُبشِّر المعترف به لمناهضة الإصلاح؛ و"مارتن لوثر"، "روح الإصلاح الألماني" الرجل ذو الشعر الأسود وبنية الجسم المدكوكة، بعيونه البنية، الذي يستعرض بوضوح المواصفات الخارجية "للشرقي" التي لا يستطيع حتى جونتر وهاوزر وولتمان إنكارها!. وأن جوبينو في عمله عن الأجناس وفي أماكن أخرى يذكر مادحا اليد المسيطرة للكنيسة الكاثوليكية، وفي كتابه "أوتار جارل" (*Ottar Jarl*) يلعن من كل قلبه كل هرطقة ضد كنيسة الأم المقدسة، ولا يميل إلى تبسيط الموضوع. وكما لو كان كل ذلك ليس كافيا، يؤكد هاوزر لنا أن الإصلاح كان "حركة الدم" ويشير إلى "إزاحة الشماليين لروح الدم المختلط"(٢١). ويقول ذلك فقط بعد أن رسم لنا قبلها بعدة

صفحات قليلة، هذه الصورة لرجال الإصلاح: "ما بقي من ألمانيا قد وصل إلى أدنى نقطة من المد الثقافي والعرقي حوالي عام ١٥٠٠. كان الألمان في ذلك الوقت عادة قبيحي المنظر جدا حتى أن "دورر" (*Durer*) والرواد والمعاصرين له في لوحاتهم الواقعية كادوا يعجزون مطلقا عن تقديم ملامح نبيلة قاطعة الملامح وجميلة، فقط ملامح منفرة وحشية تماما؛ بل وحتى في تصويرهم للشخصيات السماوية والقديسين من التاريخ المقدس نادرا جدا ما استطاعوا التقاط كائن نصف جميل لأنهم حتى عجزوا عن التقاط موديلات يتبعونها أثناء الرسم". ولكن أولئك الرجال في زمن "المد العرقي" بعد كل شيء، صنعوا الإصلاح. كيف نفسر أن "حركة الدم" هذه التي أزاحت "الروح المختلطة" قد حدثت في زمن عندما وصلت ألمانيا طبقا لعبارة هاوزر الخاصة إلى "أدنى نقطة في مدها الثقافي والعرقي"؟

دع المرء يأخذ أي فترة مهما تكن في التاريخ البشري، ولسوف تتعثر قدمه دائما في نفس هذه التناقضات. مثلا، هناك الثورة الفرنسية الكبرى. إنها مجرد طبائع الأمور ألا يجد المرء بين أنصار نظرية الأجناس؛ أي آثار لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية لهذا الاضطراب الأوروبي الكبير. بالضبط كما يقرأ الغجري مصير الإنسان من خطوط كف يده، هكذا يقرأ العرّافون المؤمنون بنظرية الأجناس من رسم وجوه الأرواح القائدة لذلك الزمن العاصف قصة الثورة الفرنسية كاملة وأسبابها "التي يحددها الدم". "نحن نعرف أن الإنسان يجب بالضرورة أن يتصرف طبقا لما يشير إليه مظهره، وأن هذا القانون يستطيع أن يعلن عن نفسه أيضا في تمام التعبير الأكثر بدائية وأيضا تمام التعبير الأكثر تعقيدا واضطرابا، حتى إنه يجب أن يبقى دائما قانون وراثة الحياة الأبدي الذي لا يتغير"[٢٢].

وإن هذا العرض المتقن لمذهل جدا فهو يتعامل مع السؤال الأكثر صعوبة والذي تعامل معه العلم لمدة عقود عديدة كما لو أنه أهم أمر بطبيعة الحال في العالم. "نحن نعرف!" مَن يعرف؟ كيف نعرف؟ من وضع هذا "القانون" الذي يتكلم عنه مؤلفنا؟ لا أحد! ولا العلم! نحن نتعامل هنا مع تأكيد أجوف فقط لا يساوي بنسا رديئا. في الواقع، حاول المؤلف من لوحات الوجوه المرسومة للويس السادس عشر

وميرابو ومدام رولان (*Madame Roland*) وروبسبيير ودانتـون ومـارا تأسـيس القانون الداخلي لسلوكهم واستنباطه من درجة خليطهم العرقي. ولسوء الحظ لا يعتمد هذا الاستنباط على قانون سوى فقط الخيال، الذي لا هو "أبدي" ولا هو "ثابت". ربمـا يوجد رجال شخصيتهم مكتوبة على جباههم ولكن لا يوجد العديد من أولئك الرجـال؛ أمثال "كارل وفرانز موور" (*Karl & Franz Moor*) الذين يعيشون فقط في أعمـال الروايات الخيالية؛ في الحياة الواقعية نادرا ما يقابل المرء هؤلاء. لا يـستطيع أحـد إدراك السمات العقلية والأخلاقية لرجل من صفاته الخارجية؛ بالكاد يـستطيع كبـار خبراء "قراء الوجـوه" (*physiognomists*) أن يقـرأوا أهميـة أي شخـصية مـن الشخصيات التاريخية العظيمة من ملامح وجوههم. تتكشف هذه القدرة عادة عنـدما يعرف المرء مع من يتعامل فقط؛ ولن تكون بهذه السهولة لمؤلف العمل الذي اخترناه لتمرير أحكام على شخصيات مثل ميرابو (*Mirabeau*) وروبـسبير (*Robespierre*) ومارا (*Marat*) أو دانتون (*Danton*) إذا ما كان لا يزال على هؤلاء الرجال لعـب أدوارهم التاريخية.

رأى جوبينو في الثورة الكبرى فقط تمردا "للهجين الروماني الـسلتي" ضـد الطبقة الحاكمة الجرمانية من النبلاء الفرنسيين، ولعن كامل الحركة الهائلة بالكراهية نفسها الضارية عند الملكيين الذين أدانوا من حيث المبدأ كل محاولة لتحطـيم نظـام الحكم الإلهي. كانت الثورة بالنسبة له تمرد عبيد، لرجال من جنس أكثر انحطاطـا، يحمل لهم الكراهية فعلا؛ لأنهم دعاة تلك الأفكار الثورية والديموقراطية الحديثة فـي أوروبا التي وجهت ضربة مميتة لطائفة السادة القديمة. حاكم تشامبرلين الثورة مـن وجهة نظر شبيهة، حيث إنه مثل جوبينو رأى في الديموقراطية والليبراليـة الخـصم القاتل للروح الجرمانية. وعلى النقيض، رأى وولتمان في الثورة مظهرا لنفس الروح الجرمانية. ولدعم هذه الرؤية حاول البرهنة على أن معظم العقـول القائـدة للثـورة كانت من أصل ألماني. وبينما كان شعار الثورة "الحرية، المساواة، الإخاء" بالنـسبة لجوبينو هو مجرد كلام لخليط عرقي مطلق العنان بالكامل، يخبرنا هاوزر: "مطلـب الحرية والمساواة والإخاء هو مطلب بروتستانتي على نحو فريد ولكنه يحمل الخيـر

للمجموعة المختارة التي انتقتها البروتستانتية فقط لجماعات مثل تلك". في مكان آخر من العمل نفسه يقول: "بدأت الثورة كعمل للألمان ومن هم أشباه الألمان وعلى أساس فكرة جرمانية، وجدت صدى في كل هذه الأجناس الأعلى ولكنها تنتهي إلى سبت الساحرات للدوافع الطائشة للجموع متدنية المولد، والتي استفادت من "الأضواء السماوية" الجرمانية فقط "حتى تكون أكثر وحشية من أي وحش".[٢٣] الآن هل هذا يعني أن المُحتَد الجرماني للنبالة الفرنسية التي يخبرنا بها جوبينو كانت مجرد تباهٍ خامل أم هل نتعامل هنا مع حرب إفناء بين الألمان والألمان، كنوع من الانتحار العرقي؟

كون ماركس ولاسال يهودا بالأصل هو بالنسبة لرجال من طبعة "فيليب ستوف" (*Philipp Stauff*) و"تيودور فريتش" (*Theodor Fritsch*) وأشباههم، أفضل برهان على أن المذهب الاشتراكي مبني على أساس من العقلية اليهودية وهو مذهب غريب على الشعور العرقي لرجل الشمال. وكون الأغلبية الهائلة من مؤسسي الاشتراكية من غير اليهود وكون الحركة الاشتراكية قد وجدت مدخلا سهلا تماما في البلدان الجرمانية مثلما حدث داخل البلدان الرومانية والسلافية، فإن ذلك لا يمتلك بالنسبة لأولئك السادة المحترمين إلا مغزى قليلاً عن حقيقة أن ماركس ولاسال في تطورهما العقلي وقعا تحت تأثير أكثر عمقا وأكثر ديمومة ليس للأيديولوجية اليهودية ولكن لفلسفة هيجل. أما بالنسبة لفكرة الاشتراكية ذاتها، كما يفسرها وولتمان، فأكثر المناصرين اقتناعا بها في الأقسام الألمانية من السكان هم البروليتاريا بسبب دمائهم، لأن الدافع نحو الحرية يجد أقوى تعبير عنه في العناصر الجرمانية. جوبينو على العكس يرى في الاشتراكية علامة نمطية على الجنس المنغولي وشراهة فيمَنْ وُلِد عبدا، ومن هنا ازدراؤه الصريح للعمال، الذين ينكِر عليهم أي طموح ثقافي مستدام. يُعيِّن "درايسمانس" (*Driesmans*) الاشتراكيين بوصفهم "منغوليين سلتيين" (*CeltoMongolians*). يشتم تشامبرلين في الحركة الاشتراكية أينما كانت تأثيرا للأيديولوجية اليهودية التي تسعى من خلال هذه الحركة إلى تحقيق أغراضها في تدمير الروح الألمانية في الألمان تماما. ومع ذلك، أعلن "دوهرنج" (*Duhring*)

بشكل قاطع: "الاشتراكية الديموقراطية اليهودية هي عصابة رجعية تميل أنشطتها المدعومة بسلطة الدولة إلى الاتجاه ليس نحو الحرية والتربية الجيدة ولكن نحو عموم العبودية والاستغلال من خلال الخدمة الجبرية عند الدولة لصالح القيادة اليهودية وجمعياتها"(٢٤). وهكذا لا ينقص هذا الخليط الأحمق شيء، فقد أعلن "فرسان" نظرية الأجناس "المتحجرون" في ألمانيا حربا مقدسة ضد الماركسية المتهودة، وأعلنوا ما تُسمى "الاشتراكية الوطنية" التي ربما تعرض أكثر أنواع الإحياء شناعة للتفاهات الرأسمالية بشعارات اشتراكية متهالكة لم يفكر فيها أحد من قبل. تحت هذه الراية، وبالشعار المحبوب، "ألمانيا تستيقظ! ويهودا يهلك!" شقوا طريقهم إلى "الرايخ الثالث" (***Dritte Reich***).

ولكن يبقى ما هو أكثر حمقا وهو تلك الصورة التي يضع فيها أنصار نظرية الأجناس أنفسهم لإخضاع الشخصيات التاريخية العظيمة لاختبار الدم الشمالي. ما خرجوا به من ذلك لا يمكن كتابته في شهادة ذات صحيفة واحدة، رغم أن صحائف الشهادة مصنوع من جلد بقرة السحاب "أودوملا" (***Cloudcow Audumla***) المشهورة في الملحمة الإسكندنافية. أولا هناك جوته، الذي تصبح صورة وجهه الشخصية في كتاب الأجناس مهزوزة بشكل مثير للريبة. بالتأكيد مظهر كهذا "الأكثر ألمانية من بين كل الألمان" قليل الشبه جدا بما هو عليه الرجل الألماني. فمن بداية القول، يفتقد جوته "العين اللامعة سماوية الزرقة"، والشعر الأشقر وعديدًا من الصفات الأخرى التي وحدها تجعله ١٠٠٪ شماليا. وبغض النظر عن هذا، يصنفه تشامبرلين أنه العبقرية الأكثر اكتمالا في الجنس الجرماني ويرى في "فاوست" المُنتَج الأنضج للعقل الألماني. "ألبرشت ويرث" من الرأي الذي يبدو أن الأنثروبولوجيين يتفقون عليه بشكل مريح، القائل إن جوته لم يكن شماليا؛ ويرى معظم الأنثروبولوجيين فيه ناتجا من الجنس الألبي. يرى "لنز" (***Lenz***) في جوته هجينا جرمانيا مشرقيا (***Levantine Germanic***). يتشكك "دوهرينج" في المنحدر الآري لجوته ويعتقد أنه يرى فيه سمات سامية. يمضي "هانز هيرمان" (***Hans Hermann***) إلى شوط أبعد من الجميع. في كتابه "مصحة الحب الحر" (***Sanatorium of Free Love***) يعرض هانز هيرمان

هذه الصورة لأعظم شعراء ألمانيا: "ينظر المرء الآن إلى جوته؛ هذه العيون البنية الجاحظة، وهذا الأنف المنحني قليلا عند طرفه، وهذا الجسم الطويل بأرجله القصيرة حتى مع تعبير الوجه "السوداوي" قليلا؛ ويصبح لدينا أمام أعيننا ذات النموذج عينه لأحد أحفاد [النبي] إبراهيم (***Abraham***)".

"لسنج" الذي كانت أعماله بتلك الأهمية الحاسمة والعميقة للتطور الفكري الألماني، ينال تكريم "درايسمانس" بوصفه التجسيد الحي للروح الألمانية. وعلى العكس، يبحث "دوهرنج" عن استنباط براهين أن مؤلف كتاب "ناتان" (***Nathan***) لديه في عروقه دماء يهودية. حتى أنفا شيللر وريتشاد فاجنر أثارتا احتقار شمامي الأجناس، وكان شيللر جيدا بقدر ما حدث معه عندما أرجع "أدولف بارتيلز" (***Adolf Bartels***)(*) بابا الأدب في الدولة الهتلرية الحالية "عدم الجرمانية" في أعمال شيللر الأدبية نتيجة للشوائب السلتية في دمائه.

بالنسبة لتشامبرلين كان نابليون التجسيد الحي لكل ما هو "غير جرماني". ولكن وولتمان اكتشف فيه ألمانيا أشقر الشعر، وأدلى هاوزر برأيه: "إذا ما رأى فيه المرء [كورسيكيا] فإنه يصنفه في جماعة يكون الاستثناء فيها؛ ومع ذلك ففي النبالة الإيطالية الشمالية التي ينتمي هو إليها يجد المرء كل قادة مرتزقة عصر النهضة الرائعين (***condottieri***) ويشعر في الحال أنه معدود بينهم".[٢٥] بالنسبة لهذا ربما نلحظ أن فكرة نشأة نابليون من خط قادة المرتزقة والجيوش هو مجرد إقرار بلا تفكير لما أكده "تاين" (***Taine***). الحقيقة هي أنه في كل قبيلة البونابرتيين لا يوجد قائد مرتزقة واحد –لا في الخط النابع من "تريفيزو" (***Treviso***) ولا في ذلك الآتي من فلورنسا– ربما يوجد القديس "بونافنتورا" (***Saint Bonaventura***). وقد تساءل

(*) أدولف بارتلز (١٨٦٢–١٩٤٥) أحد الصحفيين والشعراء الألمان. يعتبرونه بوقا للحزب النازي في معاداة السامية. توفي بارتلز في فايمار في ٧ مارس ١٩٤٥. إنتاج بارتلز الأدبي تضمن رواية تاريخية مستمدة من موطنه يدعو فيها للحياة الريفية، باعت أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نسخة خلال عشرينات القرن العشرين، ورواية مارتن لوثر (١٩٠٣)؛ هذه الكتب أصبحت طي النسيان إلى حد كبير اليوم. [المترجم]

"ميريشكوفسكي" (*Mereshkowski*) بشكل سليم عن السبب: "لماذا يجب أن يجري دم هذا اللص المتلون (قائد المرتزقة) في أوردة نابليون بشكل أقوى من دم القديس الذي يمكن إثبات قداسته في الواقع؟".

ولكن يكفي هذا القدر من تلك اللعبة السخيفة، الذي يستطيع المرء أن يمضي فيها بلا نهاية دون أن يخرج منها أكثر حكمة. لا استنتاجات العلم ولا نداء الدم هما المسئولان عن أفكار مؤسسي نظرية الأجناس ولكن مشاعرهم المعادية للمجتمع بشدة، التي تجعلهم يضربون عرض الحائط بكل مشاعر الكرامة الإنسانية. لا ينطبق على أحد غيرهم قول جوته القديم: "نحن قادرون على أن نفهم بشكل صحيح ما يعتقده أي فرد في أي مسألة خاصة عندما نعرف ماذا يشعر به نحوها". فلم يكن مذهبهم هو الذي صاغ شكل مشاعرهم؛ إنها مشاعرهم التي أعطت الشكل والمحتوى للمذهب. ولكن هذه المشاعر تضرب بجذورها في ذات أسس كل الرجعية الروحية والسياسية والاجتماعية: في سلوك السادة نحو عبيدهم. كل طبقة تحقق سلطتها إلى هذا الحد البعيد تشعر بالحاجة إلى ختم حكمها بعلامة "المُقدَّر غير القابل للتبدل"، حتى يصبح هذا في الأخير يقينا داخليا في أعماق الطوائف الحاكمة نفسها. إنهم يعتبرون أنفسهم طوائف مُختارة، ويعتقدون أنهم يرون في أنفسهم خارجيا علامات الرجال ذوي الامتيازات. هكذا ثار في إسبانيا الإيمان "بالدم الأزرق" (***azul sangre***) للنبلاء، الذي جاء ذكره أولا في "حوليات قشتالة القروسطية". الآن هم يلجأون إلى دم "الجنس النبيل" الذي يزعمون دعوته إلى الحكم فوق شعوب العالم جميعها. إنها الفكرة القديمة للسلطة هذه المرة متنكرة في صورة الأجناس. ومن هنا واحد من أحسن المدافعين عن فكرة الأجناس الحديثة يعلن بثقة ذاتية نبيلة: "كل ثقافة الجنس الشمالي هي ثقافة سلطة؛ كل موهبة في الجنس الشمالي هي موهبة في مسائل السلطة، موهبة لمسائل المشاريع وصنع العالم سواء في مملكة المادة أو الروح، في الدولة وفي الفنون وفي البحث"[٢٦].

كل أنصار مذهب الأجناس الحديث كانوا شركاء ومدافعين عن كل رجعية سياسية واجتماعية، وأنصار كل مبدأ للسلطة في أكثر أشكاله توحشا. يقف جوبينو

علنا في معسكر الثورة المضادة ولم يخفِ غرضه في الهجوم بواسطة تعليمه "الديموقراطية وسلاحها الثورة". أيضا لجأ مالكو العبيد في البرازيل وفي ولايات جنوب أمريكا الشمالية إلى أعماله لتبرير عبودية الزنوج. كتاب القواعد لتشامبرلين كان إعلاننا مفتوحا للحرب ضد كل إنجازات المائة سنة الأخيرة في اتجاه الحريات الشخصية والمساواة الاجتماعية بين البشر. لقد كره بمرارة عبوس كل شيء نبع من الثورة وظل إلى النهاية رائدا للرجعية السياسية والاجتماعية في ألمانيا. في هذا المقام لا يختلف ممثلو نظريات الأجناس الحديثة بأقل درجة عن أسلافهم إلا أنهم كانوا أكثر تجردا من الإنسانية وأكثر وقاحة ووحشية ولذلك أكثر خطورة في وقت يتم عرقلة روحية الشعب وتنمو القسوة والكآبة في مشاعرهم بسبب الحرب وآثارها اللاحقة المروعة. بشر من نوعيات "آمون" (*Ammon*) وجونتر وهاوزر وروزنبرج في كل أفعالهم هم رجعيون قساة وجامدون. مآل ذلك يُظهِره لنا رايخ هتلر وجورينج (*Goering*) وجوبلز بشكل واقعي. عندما تحدث جونتر في كتابه "سلالات الشعوب الألمانية" (*Rassenkunde des deutschen Volkes*) عن "تدرج صفوف الألمان طبقا لدمائهم" كان مفهومه بعمق عن الشعب السلافي الذي يترتب في نظام متدرج بشكل محدد يذكرنا بنظام الطائفة عند الهنود والمصريين(*). يفهم المرء كيف وجد هذا المذهب مثل هذا القبول الفعلي في صفوف رجال الصناعة الكبار. هكذا كتبت صحيفة "أرباب العمل الألمانية" (*Deutsche Arbeitgeberzeitung*) عن كتاب جونتر: "ماذا يتبقى من حلم المساواة الإنسانية بعد أن تلقي حتى بنظرة وحيدة على هذا العمل؟ نحن لا نعتبر فقط دراسة عمل مثل هذا مصدرا لأعلى اهتمام وتعلُّم؛ أيضا نحن حتى نعتقد أنه لا يستطيع أي سياسي تكوين حكم صحيح دون التعامل مع فحص المشاكل الموجودة هنا".

طبعا! لم يكن من الممكن إنتاج تبرير أخلاقي أفضل من أجل عبودية الصناعة التي يحتفظ بها ملاك القوة الصناعية عندنا أمامهم كصورة للمستقبل.

(*) هل كان لدى المصريين في تاريخهم نظام طوائف اجتماعية مغلقة مثل الذي قام في الهند؟؟ هل يشير "روكر" للوضع الاجتماعي في مصر البطلمية، مع المستوطنات المغلقة لليونانيين الوافدين، والذي انحل اجتماعيا بشكل تدريجي مع نهاية دولة البطالمة!؟ [المترجم]

ظهرت نظرية الأجناس أولا كتفسير للتاريخ. ولكن مع الوقت اكتسبت النظرية أهمية سياسية وتبلورت اليوم في ألمانيا كأيديولوجية جديدة للرجعية تكمن فيها مخاطر المستقبل التي لا يمكن التغافل عنها. من يعتقد أنه يرى في كل التناقضات السياسية والاجتماعية مجرد مظاهر يحددها الدم بين الأجناس، ينكر كل التأثير التصالحي للأفكار، وكل مجتمع للمشاعر الأخلاقية، ويجب أن يلجأ أمام كل أزمة إلى القوة الغاشمة. في الواقع، نظرية الأجناس هي عبادة السلطة الوحيدة. يصبح العِرق قدرا، من غير المجد الكفاح ضده؛ لذلك أي لجوء إلى المبادئ الأساسية للإنسانية هو مجرد حديث خامل لا يستطيع كبح جماح عمل قوانين الطبيعة. هذا الوهم ليس فقط خطرا دائما على العلاقات السلمية بين الشعوب بعضها البعض بل إنه يقتل كل تعاطف داخل الشعب الواحد نفسه ويتدفق منطقيا داخل الدولة بطوفان من البربرية الأكثر توحشا. وإلى أين يؤدي ذلك، فهذا ما يظهره كتاب "المغزى من القوة" (*Moral der Kraft*) من تأليف "إرنست مان" (*Ernst Mann*) حيث نقرأ:

> **"ذلك الذي بسبب شجاعته في معركة من أجل الصالح العالم قد نال جرحا بليغا أو مرضا عضالا فإنه حتى لا يملك حقا في أن يصبح عبئا على زملائه البشر كعاجز أو مُعاق. إذا ما كان شجاعا بدرجة كافية ليخاطر بحياته في معركة يجب عليه أن يمتلك أيضا الشجاعة النهائية لإنهاء حياته بنفسه. الانتحار هو العمل البطولي الوحيد المتاح للعجزة والمصابين إصابة لا شفاء منها".**

وهكذا يصبح من دواعي سرورنا أن نبلغ المستوى الثقافي لأهل بابوا. مثل خطوط التفكير هذه تؤدي إلى الفساد الكلي لكل شعور إنساني وتصيبه بجروح أعمق مما كنا نظن. نظرية الأجناس هي النغمة المتكررة للبربرية الجديدة التي تعرض للخطر كل القيم الفكرية والروحية في الثقافة، وتهدد بنسف صوت الروح "بندائها للدم". وهكذا يصبح الإيمان بالعرق هو العنف الأكثر وحشية ضد شخصية الإنسان، وهو إنكار أساسي لكل العدالة الاجتماعية. ومثل كل حتمية، هكذا تصبح حتمية العِرق أيضا هي رفضًا لكل روح، وانحطاطًا بالإنسان إلى مجرد وعاء دموي من

أجل العِرق. مذهب الأجناس عندما نطبقه على مفهوم الأمة يبرهن على أن هذا ليس مجتمعا للسلالة كما جرى تأكيده في أغلب المرات؛ وبينما تقـوم النظريـة بتـشريح الأمة إلى مكوناتها المنفصلة تقوم بتدمير أسس وجودها. ورغم ذلك عنـدما يـزعم أنصارها اليوم بصخب شديد أنهم أنفسهم ممثلو المصالح القومية لايـستطيع المـرء سوى تذكّر قول "جريلبارزر": "مسار التعليم الجديد يجري بالإنـسانية مـن خـلال القومية إلي التوحش".

هوامش الفصل الثالث

(١) بعض علماء اللغة الإنجليز ينسبون الفعل "*to write*" إلى "*reizza*" حيث إنه من الأصل يعني أن يضع علامة على شيء ما.

(2) Ernst Vatter, Die Rassen und Volker der Erde. Leipzig, 1927, p. 37.

(3) F. Boas in Die Zeitschrift fur Ethnologie, 1913; Band 45. Compare also the same author's Kultur und Rasse. Zweite Auflage, Berlin, 1922.

(4) Die Germanen in Europa. Dresden, 1916, p. 5.

(5) Demokratie und Freiheit. Munich, 1917.

(6) Letter to George Brandes of February, 1871, in Henrik Ibsens samtliche Werke in deutscher Sprache. Zehnter Band, Berlin, 1905.

(7) Ludwig Woltmann, Die Germanen und die Rensissance in Italien; 1905, Die Germanen in Frankreich; 1907.

(8) "Volk und Rasse" in Suddeutsche Monafshefte, 1927.

(٩) "ماكس فون جروبر" (*Max von Gruber*)، العالِم المعروف لسلامة صحة الأجناس من مدينة ميونخ، ورئيس الأكاديمية البافارية للعلوم والعقل الرائد في حركة الأجناس في ألمانيا هو بالتأكيد أحد الشهود المحايدين، وقد رسم هذه الصورة لهتلر: "اليوم أرى هتلر عن قرب لأول مرة. الوجه والرأس من عِرق سيئ، خليط. جبهة ضيقة مسحوبة للخلف، وأنف قبيح وعظام وجنات عريضة وعيون ضيقة وشعر أسود. شارب صغير يشبه فرشة الأسنان باتساع أنفه فقط، ليعطي وجهه هيئة متحدية. تعبيراته ليست لقائد يسيطر على ذاته، ولكن لشخص هوائي أحمق. هناك ارتعاشات متكررة في عضلات الوجه. التعبير الأخير لذلك هو السعيد الراضي عن ذاته. (*Esstner Volkswacht of November 9, 1929*).

(10) Rasse und Seele, Munich, 1925, p. 60

(11) Brunhold Springer, Die Blutmirchung als Grundgesetz des Lebens, Berlin.

(12) L. F. Clauss, Rasse und Seele, p. 118.

(13) Rasse und Kultur, Braunschweig, p. 69.

(14) Zur Soziologie und Philosophie les Krieges, 1913.

(15) F. Hertz: Rasse und Kultur.

(16) Werner Sombart, Handler und Helden, Patriotische Besinnungen, Munich, 1915, p. 143

(17) Das Auf und Ab der Volker. Leipzig, 1920, p. 84.

(18) Die Judenfrage als Frage der Rassenschadlichkeit fur Existenz, Sitte und Kultur der Volker. See also, Sache, Leben und Feinde.

(19) Deutsche GottNatur-Kunde

(20) Die Germanen in Europa, p. 112

(21) Rasse und Kultur, p. 331

(22) A. Harrar, Rasse Menschen von Gestern und Morgen. Leipzig, p. 86

(23) Die Germanen in Europa, pp. 149-150

(24) Sache, Leben, und Feinde, p. 207

(25) Rasse und Kultur, p. 14

(26) L. F. Clauss, Rasse und Seele, p. 81.



الفصل الرابع

الوحدة السياسية ونشوء الثقافة وارتقاؤها

فيما يتعلق بمفهوم الثقافة. الثقافة كمعيار أخلاقي للقيمة مع كـانط، وهردر وآخرين. الثقافة والحضارة. الثقافـة كمقاومـة واعيـة لمسار الأحداث الطبيعي. شعوب الطبيعة وشعوب الثقافة. الثقافة في الصراع ضدّ الطغيان وشهوة السلطة. التضامن كمُروِّج أكثر فعالية للثقافـة. علاقـات الجماعات البشرية المستقلة بمـسار الثقافـة العـام. الحيويـة الثقافيـة بواسطة التأثير الأجنبي. انتصار الثقافة الأعلى علـى القمـع الـسياسي. اللياقة الثقافية والهضم بواسطة الدولة.

قبل أن نمضي لأبعد داخل العلاقة بين الدولة القومية والمسار العام للثقافـة من الضروري تحديد مفهوم "الثقافة" بوضوح قاطع، حتى نتجنب التـشوش. كلمـة "الثقافة"، الاستعمال العام لها هو بالأحرى مسألة حديثة، لا تجسد أي فكرة محـددة بوضوح شديد — كما قد يستنتج المرء من تعدد تطبيقاتها. وهكذا يتكلم المرء عـن ثقافة الأرض، وعن الثقافة المادية والروحية والفكرية، وعن ثقافة "الجنس أو الأمة أو رجل ثقافة ما" وأمور على هذا المنوال، وفي كل حادثة تعني الكلمة شـيئا مـا مختلفًا. ولم يمض زمن طويل جدا منذ أن أعطينا لمفهوم الثقافـة معنـى أخلاقيـا خالصًا تقريبا. تكلم المرء عن أخلاقيات الشعوب كما نتحدث اليوم عن ثقافتهم. في الواقع، حتى نهاية القرن الثامن عشر ولاحقا استخدم البشر مفهوم "الإنسانية" الـذي هو مفهوم أخلاقي خالص بالمعنى نفسه الـذي نستخـدم فيـه اليـوم كلمة الثقافة ولا يستطيع المرء القول إن مثل هذا التطبيق أقل ملاءمة أو أقل وضوحا.

بحث مونتسيكيو وفولتير ولسينج وهيردر وعديد آخرون في الثقافة كمفهـوم أخـلاقي فقط. "هيـردر" فـي كتابـه "أفكـار لفلـسفة تـاريخ النـوع الإنـساني"

(*Ideas for a Philosophy of the History of Mankind*) طرح مبدأ أن ثقافة شعب ما هي أعلى في نسبتها عندما تعبر عن روح البشرية. إلى جانب ذلك حتى في يومنا هذا الشعور الأخلاقي بالنسبة للعديد هو المحتوى الأساسي لكل ثقافة. وهكذا، تعلن "فيرا ستراسر" (*Vera Strasser*) في عمل نال كثيرًا من الاهتمام أن "تقدم الثقافة يتكون من التالي: أن كل فرد سوف يقمع المتوحش داخله ويُنمِّي الروحاني"، وهي باختيار المتناقضات كشفت أن "كانط" أيضا رأى في الأخلاقيات سمة جوهرية للحضارة. الانطلاق من نقطة هذا الموقف بأن الإنسان هو كائن يوجد فيه الميل نحو العزلة يضاهي دافعه نحو الاجتماع، جعل "كانط" يرى في الصراع بين هذين المسلكين "الأداة العظيمة للثقافة" والمصدر الحقيقي للشعور الأخلاقي في الإنسان. بهذه الأداة تمكن الإنسان أولا من التغلب على فظاظته الطبيعية وصعد درجات الثقافة، التي طبقا لكلام "كانط" نفسه "تشمل الجدارة الاجتماعية للإنسان". بدت الثقافة له الغرض النهائي من الطبيعة التي حققت في الإنسان الوعي بنفسها. طبقا لرؤية كانط تحمل الثقافة في نفسها عراقيل متعددة يبدو أنها تمنع النمو الحر للإنسانية، ولكنها تخدم فعلا هذا الغرض النهائي. ومع تبنيه لهذا الموقف اعتقد كانط أنه رأى في كل شكل للتعبير عن الثقافة بصمة إصبع تشير إلى الهدف العظيم الذي تجاهد البشرية من أجل الوصول إليه.

لاحقا بُذِلت محاولات للتمييز بين الثقافة والحضارة. كانت الحضارة تعني مجرد خضوع الإنسان لمظاهر الطبيعة الخارجية، بينما الثقافة يتم تقييمها كصقل فكري وروحاني للوجود المادي. بناء على هذا التقسيم المحدد تم اعتبار "الظواهر الاجتماعية للحياة والفن الإبداعي، الأدب والموسيقى والدين والفلسفة والعلم "مجالات ثقافة" منفصلة؛ بينما المهارة الفنية والحياة الصناعية والمنظمات السياسية تم جمعها تحت عنوان الحضارة. أيضا أراد الآخرون إدراك العلم كمظهر من مظاهر الحضارة فقط حيث إن التطبيقات العملية للعلم تؤثر دوما على الحياة المادية للإنسان وتعمل على تحويلها. لكل من هذه المحاولات مميزاتها الخاصة، ولكلٍ أيضا نواحي قصورها؛ لأنه ليس أمرا بسيطا أن ترسم خطوط تقسيم هنا، حتى عندما ندرك أن هذه هي الطريقة الوحيدة لإنشاء تصنيف سوف يجعل من دراسة الوقائع الحقيقية مهمة أسهل.

الكلمة اللاتينية "*Cultura*" التي ربما يكاد يطويها النسيان، كانت تُستعمل من الأصل بشكل يكاد يكون حصريا على الزراعة وتربية الحيوان وأمور مماثلة، وهي تمثل الهجوم عن وعي من الإنسان على مسار الأحداث الطبيعية؛ فلديها معنى قريب جدا من التربية أو الزراعة. لا تحتوي مثل هذه المقاربة على تناقض؛ من الممكن تصورها كتشكيل خاص للأحداث التي تهاجم بنفسها، على المدى الطويل، الوقائع الطبيعية. من المحتمل جدا أنه فقط طريقة التفكير الكهنوتية المسيحية كانت سببا لإنشاء هذه المعارضة الاصطناعية بين الطبيعة والثقافة بوضعها للإنسان "فوق" الطبيعة، و"إيمانها بأن الطبيعة خُلِقت بالكلية لمصلحة الإنسان"[1].

عندما نتناول الثقافة لتعني ببساطة هجوم الإنسان الواعي على العمليات العمياء لقوى الطبيعة، مع إمكانية التمييز بين الأشكال الأدنى والأعلى للعملية الثقافية، لن تتواجد بعد أي احتمالية لسوء الفهم. وبهذا الفهم، تصبح الثقافة هي مقاومة الإنسان الواعية ضد مسار الطبيعة، حيث يدين الإنسان لهذه المقاومة وحدها بالحفاظ على نوعه. الأنواع التي لا حصر لها التي كانت قد سكنت الأرض بادت في فترة العصر الجليدي الأول؛ لأن الطبيعة قد حرمتها من الطعام أو شروط حياتها القديمة. ولكن الإنسان كافح ضد الظروف المتبدلة ووجد طرقا ووسائل للإفلات من تأثيراتها المدمرة. بهذا المعنى، كامل مسار تطور الإنسان وانتشاره فوق الأرض قد كان كفاحا مستمرا ضد الظروف الطبيعية لبيئته التي حاول الإنسان بطريقته تغييرها لمصلحته. لقد صنع لنفسه أوعية وأسلحة وأدوات اصطناعية وتعلم استخدام النار وكيَّف نفسه بالملابس والملاجئ المناسبة لظروف المناخ التي وجد نفسه مضطرا للعيش فيها. وهكذا صنع - إذا جاز لنا الكلام - مناخه الخاص وأصبح متمكنا من تغيير مكان إقامته وتحدي الظروف الطبيعية لحياته. وبهذا الفهم، ظهور الإنسان هو بداية الثقافة، والحياة الإنسانية هي ببساطة محتواها. قدم "لودفيج شتاين" (*Ludwig Stein*)[*] عرضا منيرا للمفهومين المتباينين، الطبيعة والثقافة:

الانتظام الذي لا ينقطع في توالي الأحداث التي تستمر دون غرض محدد ومستقلة عن نشاط الإنسان، نحن نسميه الطبيعة. ما يُكمِّله

(*) لودفيج شتاين (١٨٥٩-١٩٣٠) الفيلسوف المجري السويسري، عالم الاجتماع، وحاخام، وصحفي، وداعية السلام. [المترجم]

الكائن البشري وخطط له وجاهد من أجله وحققه وشكّله عن عمد ولغرض معين نحن نسميه الثقافة. ما ينمو بحرية من التربة دون أي طلبات من عمل الإنسان هو ناتج طبيعي؛ ولكن ما يأخذ شكله فقط بتدخل من العمل الإنساني هو قطعة مصنوعة أو مُنتَج ثقافي. عبر اتباع أغراض واعية وبواسطة نظام متطور لتطويع هذه الأغراض للوسائل المتوافرة، يسيطر المجهود البشري على النشاط الخلاق لتعديل الأشياء الذي تمارسه الطبيعة بشكل غير واعٍ. بواسطة الأدوات التي يصنعها الإنسان ذلك الكائن المُقلِّد في تماثل قريب مع أطرافه نفسها وبمساعدة مؤسسات وأجهزة توفير العمل التي يخترعها الإنسان يستطيع تسريع المسار المضني والرتيب للعمليات الجارية في الطبيعة لخدمة غاياته الخاصة. لذلك نمط الحالة الطبيعية هو: سيادة الإنسان بواسطة بيئته؛ وجوهر الحالة الثقافية، من الناحية الأخرى هو: سيادته على بيئته.[٢]

هذا التعريف للمفهوم هو تعريف بسيط وواضح، ويمتلك ميزة أكثر في أنه يقدم ببساطة العلاقة بين الطبيعة والثقافة دون أن ينشئ معارضة فورية بينهما. وهذا هام؛ لأنه إذا ما تمسك المرء برؤية أن الإنسان هو أيضا جزء من الطبيعة وأحد مخلوقاتها الذي لا يقف فوقها ولا خارجها، فمن ثم لن يقع عمله خارج الإطار العام للطبيعة سواء أسميناها ثقافة أم حضارة أم شيئًا ما آخر. بهذه الرؤية، تصبح الثقافة إعلانًا خاصًا فقط للطبيعة وبدايتها ترتبط بظهور الإنسان فوق الأرض. يصبح تاريخه هو تاريخ الثقافة في درجاتها العديدة والمتنوعة؛ وهو ينتمي إذاً، مثل كل كائن آخر إلى كلية الأشياء نفسها التي نسميها الطبيعة. فهي الثقافة التي تؤكد له مكانه في مملكة الطبيعة العظمى، التي هي أمه أيضا. بالطبع يستطيع المرء الحديث فقط عن السيادة النسبية للإنسان على الطبيعة لأنه حتى الثقافة الأكثر تقدما لم تصبح بعد في موقع "تسيطر فيه على الطبيعة" بالكامل. فموجة مد واحدة كفيلة بتدمير سدوده التي بناها بعناية كبيرة، وتُغرِق حقوله المزروعة وترسل بسفنه المُشيَّدة بمهارة إلى

أعماق البحر. يبيد الزلزال في دقائق معدودة منتجات بنتها جهود شاقة لنشاط إبداعي استمر لقرون. لذلك، تقدم الثقافة هو فقط سيادة تدريجية من الإنسان علـــى الطبيعـــة، وتصبح بتطوره إلى الأمام سيادة أحكم تخطيطا بشكل مستمر، وسيادة أكثر تأكدا من هدفها دون أن تصبح أبدا سيادة مطلقة.

بهذه الرؤية يختفي الفاصل الاصطناعي الذي أقيم بين "الـــشعوب الطبيعيـــة" و"الشعوب الثقافية". مثل هذا الفاصل لا يتطابق بأية حال مع الحقائق الواقعية حيث إنه لا توجد قبائل ولا شعوب في أي مكان دون ثقافة. فعليـــا، فريـــدريك راتـــزل (***Friedrich Ratzel***)(•) المؤسس الحقيقـــي للنظريـــة الجغرافيـــة الأنثروبولوجيـــة للتاريخ، قرر في كتابه "علم الأعراق البشرية" (***Volkerkunde***) أنه لا يوجـــد مـــا يجعلنا نكتشف فروقا جوهرية بين شعوب الطبيعة وشعوب الثقافة، ولكنها مجـــرد اختلافات في درجة ثقافتهم، حتى أن المرء لا يستطيع الحديث في الواقع سوى عن شعوب أفقر ثقافيا وشعوب أغنى ثقافيا.

دفعت أشكال الحياة الثقافية المختلفة من تلقاء نفسها إلى نشوء تمايزات معينـــة لكن وحتى رغم ذلك، كانت إمكانية رسم خطوط حادة بين الميادين المنفصلة لنـــشاط الثقافة الإنسانية صعبة، ومع ذلك ما زلنـــا لا نـــستطيع المـــضي قـــدما دون هـــذه التمايزات، لأن تركيب عقولنا هو على نسق لا يسمح لنـــا بالمـــضي قـــدما ســـوى بمساعدة عكاز من المفاهيم. ولهذا، قُدِّمت عروض من التاريخ الـــسياسي الخـــالص لدول منفصلة يقتصر محتواها تقريبا بشكل حصري على تعـــداد الأســـر الملكيـــة، ووصف الحروب والغزوات وتفسير مختلف نظم الحكومات التي أعطت بـــلا شـــك أول دافع لتفسير ثقافي أعمق للتاريخ. ووصلنا لنرى أن هـــذه العـــروض التاريخيـــة أحادية الجانب لم تبدد فقط وفرة غير محدودة من الأحداث الثقافية ولكـــن بـــالأحرى قدمت عرضا غير لائق لأكثر جوانبها عقما. ولأنه كما بالضبط لا تعمل كـــل قـــوى

(•) فريدريك راتزل (١٨٤٤ -١٩٠٤) عالم الحيوان والجغرافيا الألمـــاني. مؤســـس الجغرافيـــا البشرية، وكذلك رائد مؤثر في الجغرافيا السياسية. [المترجم]

الطبيعة على خدمة أغراض الإنسان هكذا أيضا ليست كل الوقائع في البيئة الاجتماعية التي بناها الإنسان تعزز تطوره إلى الأعلى. يعمل بعضها في الواقع كموانع خطيرة تعرقل تطوره.

حتى العبودية والاستبداد هما مظهر من مظاهر الحركة الثقافية العامة؛ لأنهما أيضا يمثلان هجوما واعيا على المسار الطبيعي للأشياء. ولكنهما في التحليل الأخير مجرد عيوب في الثقافة الاجتماعية أصابت آثارهما وعي الإنسان في مجرى تاريخه بالمزيد والمزيد من الكوارث بشكل واضح. القائمة الطويلة من الاضطرابات الاجتماعية الخطيرة والانتفاضات التي لا حصر لها ضد نظم الحكم القديمة والجديدة هي شهادات حية على ذلك. وبينما يكافح الإنسان باستمرار من أجل تزويد بيئته الطبيعية بشكل أكثر فأكثر من طبيعته الخاصة، يضطره تطوره الخاص الجاري بمقاييس متزايدة أبدا لاستئصال الشرور من بيئته الاجتماعية، وحفز التطور الفكري لسلالاته، وقيادتهم نحو أعلى اكتمال أبدا. ذلك هو المكنون الجوهري لكل ثقافة، الإنسان لا يُخضِع ثقافته بشكل أعمى لشهوة وجشع عمليات الطبيعة الغشيمة، فهو يكافح ضدها من أجل تشكيل مصيره طبقا لمعاييره الخاصة وحتى يكسر تلك القيود التي صاغها لنفسه بينما كانت الخرافة والجهل يتقاطعان مع بصيرته الأكثر حرية.

وكلما شق عقله سبيلا أعمق عبر منحنيات طريق نشوئه وارتقائه الاجتماعي، أصبحت الأغراض التي يضعها نصب عينيه أعرض، وكانت محاولاته أكثر وعيا وأكثر إصرارا من أجل التأثير على مسار هذا النشوء والارتقاء ولجعل كل الوقائع الاجتماعية في خدمة الغايات الأعلى للثقافة.

وهكذا نحن نتقدم تحت إلحاح شوق داخلي وبإيعاز من تأثير المؤسسات الاجتماعية التي نحيا في ظلها نحو ثقافة اجتماعية لن تعرف بعد ذلك أي شكل من أشكال الاستغلال أو العبودية. وسوف تعمل هذه الثقافة الآتية بأكثر نفعا وأكثر وضوحا، يدركهما ممثلوها من أجل الحرية الشخصية للفرد واتحاد الجميع في روابط تضامنية بإحساس من العدالة الاجتماعية منبعا رئيسيا لنشاطهم الاجتماعي. الحرية

ليست في معناها المجرد عند هيجل، ولكنها الحرية التي نتصورها كإمكانية عملية تضمن لكل عضو في المجتمع احتمال تطوير كل تلك القوى والمواهب والقدرات التي وهبته إياها الطبيعة إلى أقصى تمامها، دون عوائق يصنعها قهر سلطوي وتأثيرات حتمية لأيديولوجية قوة غاشمة! حرية الشخص بناء على قواعد العدالة الاجتماعية والاقتصادية! فقط بذلك يُمنَح الإنسان إمكانية الازدهار الكامل لذلك الوعي بمسئوليته الشخصية التي هي القاعدة الثابتة لكل حرية تماما، ولتطور الإحساس الحيوي بوحدته مع نوعه إلى مرحلة تصبح فيها أمنيات ورغبات الفرد نابعة من أعماق شعوره الاجتماعي.

بالضبط كما في الطبيعة، الصراع الوحشي من أجل الوجود الذي يُحارَب بالأنياب والمخالب ليس هو النمط الوحيد المُستخدَم من أجل الحفاظ على الحياة. يجري متماشيا مع هذا المظهر الخام شكل آخر من الوجود أكثر تشاركا بكثير ويجد تعبيره في تجمُّع الأنواع الأضعف معا في زُمَر اجتماعية وكذلك في تقديمهم عمليا للمعونة المتبادلة لبعضهم البعض. كذلك أيضا تظهر في الثقافة أشكال مختلفة من النشاط الإنساني تستخدم السمات الأكثر بدائية أو الأكثر تطورا في الإنسان. وبالضبط كما في الطبيعة النمط الثاني من الكفاح من أجل الوجود أبعد فعالية بكثير في الحفاظ على الفرد والجنس من نمط الحرب الوحشية التي تُسمى حرب "القوي" ضد "الضعيف" – وهي حقيقة تتبدى بشكل مرضٍ عبر الانقراض المدهش لتلك الأنواع التي لا تمتلك حياة اجتماعية والتي كان عليها أن تعتمد في كفاحها مع البيئة على التفوق المادي فقط[٣] – لذا أيضا في الحياة الاجتماعية للنوع الإنساني، الأشكال الأعلى للتطور الأخلاقي والفكري تحقق تدريجيا النصر على القوى الغاشمة لأشكال الحكم السياسية، التي أدت بذلك إلى خدمة عرقلة كل تطور ثقافي أعلى لحد بعيد.

من ثم، نحن نُقاد لاستنتاج أنه إذا كانت الثقافة ببساطة هي إخضاع الإنسان الدائم لعمليات الطبيعة البدائية والمساعي السياسية داخل البناء الاجتماعي، الذي يقيد الإنسان طوال عمره ويُخضع أنشطته الإبداعية لقهر الأشكال الجامدة الخارجية، فمن ثم، تصبح الثقافة في جوهرها هي نفسها في كل مكان رغم عدد الثقافات المتزايد أبدا

والتنوع الذي لا ينتهي لأشكالها الخاصة في التعبير. لذا فكـرة الوجـود المزعـوم لثقافات قومية بشكل نقي، كل منها تمثل في حد ذاتها كلاً مغلقًا وتحمل داخـل ذاتهـا قوانين أصلها، ليست أكثر من مفهوم – تمنٍ لا يمتلك شيئا مُشتركا مع حقائق الحياة. الشمول الذي يكمن في أسس كل الثقافات هو بشكل غير محدود أكثـر أهميـة مـن الاختلاف في أشكالها الخارجية، الذي يتحدد في الجزء الأغلب بواسطة البيئـة. لأن كل ثقافة تنبع من الدافع نفسه، وتسعى بشكل مثابر نحو نفس الهدف. في كل مكـان هي تبدأ أولا كقوة تَحضُّر، ترسي حدودا اصطناعية لحكم الطبيعة الطائش الأهـوج، وتُمكِّن الإنسان من إشباع احتياجاته الأساسية بشكل أكثر سهولة مع أقل تدخل. فيمـا بعد ينمو هناك خارجها طموح تلقائي تماما لتنظيم أكثر جدارة وروحا أكثر رفعة في الحياة الاجتماعية والفردية يضرب بجذوره عميقا في الشعور الاجتمـاعي للإنـسان ويجب اعتباره قوة دافعة في كل ثقافة أعلى. إذا ما رغب المرء في أن يحصل علـى صورة واضحة للعلاقات والصلات الأقرب بين جماعات البشر المتنوعة مـع هـذا الشيء الذي نسميه ثقافة ربما يستخدم مثل هذه المقارنة:

فوق السطح العريض للمحيط تسحب الشمس بشكل لا يتوقف أبخرة مائية إلى السماء. تتكون السحب وتطفو وتدفعها الرياح إلـى الأراض حيـث تـتخلص مـن "محصول امتلائها وتسقط على الأرض كأمطار مثمرة. تخفي نفسها قطرات المطـر التي هي بالملايين داخل حضن الأرض، ثم من ينابيع لا حصر لها تتدفق ضـاحكة لتخرج مرة أخرى على سطح الأرض. نهيرات صغيرة تتشكل وتقطع مسافات عبر الأراضي في كل اتجاه وتنتفخ في غدير ونهر. يجري النهر بفيضانه منحـدرا مـرة اخرى إلى نفس ذلك البحر الذي كانت منه بدايته. وخلال زمن لا ينتهي تستمر هـذه الدورة بيقين لا يقاوم ولا يتغير. ولسوف تستمر الدورة في تسلسل لا ينقطع ما دامت الظروف الفلكية في نظامنا الشمسي نفسه صامدة بلا تغيير.

مع عمل الشعوب الثقافي، لا يختلف الأمر عنه مع كل نشاط إبداعي للفرد. ما نعينـه عمومـا كثقافة ليس إلا قاع وحدة جامعة عظمى "لما يقع"، يموج بتحـولات لا تنقطع ولا تستكين وتتبدى في أشكال وهياكل لا حصر لها. دائما وفي كل الأنحاء

نفس الدافع الخلاق جائع للحركة، لا يختلف سوى نمط التعبير عنه وطريقة تكيُّفه مع البيئة. وفقط بينما كل نبع، كل جدول، كل نهر هو في أعماقه متصل مع البحر، هـو يصب نفسه من جديد في مَدِّه بشكل أبدي، كذلك أيضا كل دورة ثقافة منفـصلة هـي فقط جزء من نفس الوحدة الجامعة، تستمد منها أعمق قواها وأكثرها أصـالة ويقـع على حجرها دائما عملها الإبداعي الخاص مرة أخرى فـي نهايـة الأمـر. ومثـل الجداول والأنهار هي كل أشكال الثقافة التي تتابعت خلال آلاف السنين وراء بعضها البعض أو قد تواجدت جنبا إلى جنب. كلها قد ضربت بجذورها فـي نفـس التربـة البدائية التي يتحالفون معها في الأعماق مثل اتصال مياه الأنهار بالبحر.

يحدث دائما إعادة البناء الثقافي والتحفيز الاجتماعي عنـدما تـدخل شـعوب وأجناس مختلفة في اتحاد أوثق. تبدأ كل ثقافة جديدة بمثل هذا الاندماج لعناصر مـن أناس مختلفين وتأخذ شكلها الخاص من هذا. وهذا أمر طبيعي تماما، لأنه فقـط مـن خلال التأثيرات الخارجية تنشأ تلك الاحتياجات الجديدة وتلك التفاهمات الجديدة والتي تكافح بشكل دائم من أجل التعبير عن نفسها في كل ميدان للنشاط الثقافي. الرغبة في الحفـاظ علـى "نقـاء ثقافة" شعب من الشعوب بالقضاء المتعمد علـى التـأثيرات الأجنبية – فكرة يتم الدفاع عنها اليوم بحماس عظيم بواسـطة قـوميين متطـرفين ومناصرين لمذهب الأجناس – وهي بالضبط رغبة غير طبيعية مثلما هـي رغبـة عقيمة، وتُظهِر فقط أن هذا التطرف الخاص للاستقلال الذاتي الثقافي لم يفهـم علـى الإطلاق المغزى العميق للعملية الثقافية. مثل هذه الأفكار المشوهة تمتلك تقريبا معنى القول نفسه لرجل أنه يستطيع بلوغ أعلى حالة من الرجولة فقط إذا ما حذف المـرأة من حياته. والنتيجة سوف تصبح هي نفسها في كلتا الحالتين.

تنشـأ الحيـاة الجـديدة باتحاد المرأة مع الرجل. وبالضبط هكذا تُولَد ثقافـة أو تتخصب فقط بدوران دم طازج في أوردة ممثليها. بالضبط كما ينتج الطفل عـن التزاوج هكذا تنشأ أشكال ثقافة جديدة من التخصيب المتبادل بين مختلـف الـشعوب وتعاطفهم الروحي مع الإنجازات والقدرات الأجنبية. يحتاج المرء إلى جرعة قويـة

من قصر النظر الفكري ليحلم بسحب بلد كامل من التأثيرات الروحية للدائرة الثقافية الأوسع التي ينتمي إليها، خصوصا في يومنا هذا، عندما تعكف الشعوب بشكل أكبر على التوسيع المتبادل لطموحاتها الثقافية.

لكن وحتى لو وجِدَتْ إمكانية تحقيق ذلك، مثل هذا الشعب لن يجرب نهوضا في حياته الثقافية، كما يصر بشكل غريب أنصار الاستقلال الذاتي الثقافي. كل التجارب تشير بدلا إلى أن مثل هذا التناسل الداخلي سوف يؤدي لا محالة إلى تقزم عام في النمو، إلى إبادة بطيئة للثقافة. في هذا المقام، الأمر مع الشعوب مثلما هو مع الأشخاص. كم قدر سوء عاقبة ذلك الرجل الذي لابد له من أجل تطوره الثقافي أن يعتمد بالكلية على مخلوقات شعبه الخاص! ولهو أمر بعيد تماما عن حقيقة أن من غير المجدي الحديث عن مثل هذه الإمكانية، حيث إنه حتى الحكمة الأكبر ليست هي الحُكْم على أي من الممتلكات الثقافية لشعب من الشعوب قد صنعه واقعيا بنفسه، وأيها قد استعاره بشكل أو بآخر من الشعوب الأخرى. تنمو الثقافة الداخلية لإنسان بالضبط عند قيامه بتطوير القدرة على التلاؤم مع إنجازات الناس الآخرين وإغناء عقله بها. وكلما كانت قدرته على صنع ذلك بسهولة أكبر كان ذلك أفضل لثقافته الفكرية، وكان حقه أعظم في نيل اللقب، رجل الثقافة. إنه يغمس نفسه في حكمة "لاو تسي" (***Lao-Tse***) اللطيفة وتبتهج روحه في جمال أشعار "الفيدا" (***Vedic poems***) الهندية. تتفتح أمام عقله عجائب روايات "ألف ليلة وليلة" العربية، مع النشوة الداخلية التي ينهل منها في أقوال عاشق النبيذ "عمر الخيام" (***Khayyam Omar***)[*] أو المقطوعات الشعرية المهيبة "للفردوسي"

(*) عمر الخيام: غياث الدين أبوالفتح عمر إبراهيم الخيام النيسابورى، (١٠٤٨-١١٣١)، عالم الرياضيات، والفلكي والفيلسوف والشاعر الفارسي، الذي يعتبر واحدًا من العلماء الأكثر تأثيرا في كل العصور. كتب العديد من الأطروحات فى الميكانيكا، والجغرافيا، وعلم المعادن والفلك. [المترجم]

(*Firdusi*)(•). تمتص روحه أعماق سفر أيوب ويتأرجح مع إيقاع الإليـــاذة (*Iliad*). إنه يقهقه مع "أريستوفانيس" (*Aristophanes*) ويبكي مع "سوفوكليس" (*Sophocles*) ويقرأ مستمتعا النوادر الطريفة في كتاب "حمار أبوليوس الذهبي" (*the Golden Ass of Apuleius*)(••)، ويستمع باهتمام لتصوير "بترونيوس" (*Petronius*)(•••) للأحــوال مع أفول روما. ومع المعلم "رابليه" (*Maistre Rabelais*) يخطو متذوقا زينة قاعات دير "تيليمي" (*Abbey of Theleme*) السعيد، ويتجول مع "فرانسوا فيون" (*Francois Villon*) مارا ببلدة "رافنستون" (*Ravenstone*). هــو يحــاول فهــم روح "هاملــت" (*Hamlet*) ويبتهج لشهوة "دون كيخوت" (*Don Quixote*) في القيام بجليل الأعمــال. إنه يشق طريقه وسط أهوال جحيم دانتي (*Dante's Hell*) وينتحــب مــع "ميلتــون" (*Milton*) من أجل "الفردوس المفقود". بكلمة واحدة، هو في كل مكان داخــل بيتــه ولذلك هو يعرف أفضل من أي أحد كيف يُقَيِّم سحر موطنه الخاص. هو يفتش بعــين غير منحازة لرأي مسبق في الممتلكات الثقافية لكل شعب، وهكذا يحس بشكل أكثــر وضوحا بالوحدة القوية لكل العمليات العقلية. ولا يستطيع أحد أن يسرق منــه هــذه

(•) الحكيم أبو القاسم الفردوسي الطوسي (٩٣٥-١٠٢٥ م)، أو الفردوســي، الــشاعر الفارســي المبجل ومؤلف ملحمة الشاهنامه (بالفارسية "كتاب الملوك")، وهي أطول قصيدة ملحمية فــي العالم أنشأها شاعر واحد. صيغت الشاهنامه تحت رعايــة الدولــة الــسامانية والغزنويــة. [المترجم]

(••) رواية التحولات لأبوليوس – التي أشار إليها القديس أوغسطين باسم الحمار الذهبي – هــي الرواية الرومانية القديمة والوحيدة في اللاتينية. اسم بطل الرواية لوسيوس. في نهاية الرواية، تبين أنه من ماداوروس، في الجزائر القديمة، مسقط رأس أبوليوس نفسه. وتدور أحداثها حول فضول بطل الرواية ورغبته النهمة لرؤية وممارسة السحر. أثناء تنفيذ محاولة التحول إلــى طائر، تحول عن طريق الخطأ إلى حمار. وهذا يؤدي إلى رحلة طويلة، حرفيا ومجازيا، مليئة بالحكايات. في نهاية المطاف يجد الخلاص من خلال تدخل الإلهــة إيــزيس، التــي انــضم لعبادتها. [المترجم]

(•••) جايوس بترونيوس (٢٧-٦٦ م) أحد رجال البلاط الروماني في عهد نيرون. يعتقد عموما أنه صاحب الرواية الساخرة ساتريكون التي يعتقد أنها ربما قد كتبت في عهد نيرون. [المترجم]

الممتلكات. فهي خارج سلطان قضاء الحكومات وهي لا تخضع لإرادة الأقوياء بين أهل الأرض. ربما يكون المشرِّع في وضع من يستطيع إغلاق بوابات بلاده أمام الغريب ولكنه لا يستطيع منعه عن تحقيق مطالبه في كنز الشعوب وثقافتها الفكرية بنفس الثقة التي يتصرف بها أى وطني ينتمي للمكان.

هنا النقطة التي عندها تكشف عن نفسها الأهمية الراجحة للثقافة، متجاوزة أي تثبيت لحدود قومية سياسية بأوضح صورة. الثقافة تفك أغلال الروح اللاهوتية للعمل السياسي التي كُبِلت بها الشعوب. بهذا المعنى، الثقافة في أعمق جوهرها ثورية. ننغمس في تأملات عميقة حول اضمحلال كل الوجود، ونتصور أن كل الممالك العظيمة التي قد لعبت دورا عالميا رائدا في التاريخ كان مصيرها الذي لا رجعة فيه هو السقوط فور بلوغها أعلى ذروة لثقافتها. بل إن عددا من المؤرخين المعروفين جيدا قد أكدوا أن لدينا ما نتعامل معه هنا كعملية حتمية لقانون محدد، تخضع له كل العمليات التاريخية. ولكن فعلا حقيقة أن أفول أو انهيار مملكة ما لا يعادل بأي شكل كان ما تشير به إلينا أفول ثقافة ما حيث إن الأسباب الواقعية لهذا السقوط يجب أن تخضع للبحث. فنظام حكم سياسي من الممكن له أن يسقط دون أن يترك خلفه أثرا واحدا لوجوده السابق؛ إلا أن الأمر مع الثقافة يصبح شيئا آخر تماما. من الممكن كما حدث سلفا أن تذوي ثقافة في بلد حيث يضطرب نموها الطبيعي. في هذه الحالة هي تبحث عن إمكانيات جديدة للنمو خارج دائرتها القديمة للعمل، وتدخل تدريجيا في ميادين جديدة وتتخصب هناك بذور كانت بمعنى ما تنتظر وقت تخصيبها. وبذلك تنشأ أشكال جديدة من العمليات الثقافية التي تختلف دون شك عن القديمة ولكن رغم ذلك تحمل فيها قواها الخلاقة. استطاع الغزاة الرومان والمقدونيون وضع نهاية للإستقلال السياسي للجمهوريات-المدينة اليونانية، فإنهم لم يستطيعوا منع استزراع الثقافة اليونانية بشكل عميق في آسيا الصغرى، ولا نموها كبرعم جديد في مصر، ولا انتعاشها الفكري في روما نفسها.

وهذا هو السبب الذي يجعل الشعوب ذات الثقافة الأقل تطورا لا تستطيع واقعيا إخضاع شعوب ذات وضع ثقافي أعلى أبدا حتى وهي تتفوق عليها ببون شاسع في القوة العسكرية. من الممكن فقط لعدد صغير جدا من السكان أن يخضعوا

كاملا سكانا آخرين بسبب ضعفهم العددي وتصبح هناك إمكانية لاستسلامهم بسهولة؛ أما التغلب على أي شعب أكبر عدداء التحم معا في مجرى القرون العديدة بواسطة ثقافة مشتركة فهو أمر لا يمكن تصديقه. استطاع المغول التعامل بسهولة مع الصينيين عسكريا بل إنهم حتى كانوا في موقف مكّنهم من تنصيب رجلٍ من قبيلتهم حاكما مستبدا للمملكة السماوية (***Celestial Kingdom***)، ولكنهم لم يمتلكوا أدنى تأثير على التركيب الداخلي للحياة الثقافية والاجتماعية لشعوب الصين التي لم تضطرب عاداتهم المميزة بأدنى تأثير إلا بالكاد بواسطة الغزو. من الناحية الأخرى، ثقافة المغول البدائية لم تستطع الصمود أمام ثقافة الصينيين الأقدم كثيرا والأرفع بما لا يقاس، وتم في الواقع امتصاصهم بالكامل بواسطة الثقافة الصينية لدرجة أنها لم تترك لهم أثرا خلفها. مائتان من السنوات كانتا كافيتين لتحويل المغول الغزاة إلى صينيين. ثقافة "المغلوب" الأعلى برهنت على أنها ذاتها أقوى وأكبر تأثيرا من القوة العسكرية الوحشية "للغزاة".

وكم كان غالبا عدد مرات اجتياح "شبه الجزيرة الأبنية" (***Apennine Peninsula***)، إيطاليا الحالية، أو غمرها تماما بواسطة القبائل الأجنبية. من أزمنة هجرات الشعوب إلى غزو الفرنسيين تحت حكم تشارلز الثامن وفرانسيس الأول، كانت إيطاليا هي الهدف الدائم لهجمات قبائل وسكان لا حصر لهم، جذبهم إلى الجنوب شوقهم القديم وفوق كل شيء طموح الغنائم الثرية. السيمبريون والجرمان التيوتون (***Cimbri and Teutons***)، اللومبارد والقوط (***Lombards and Goths***) والهون والفاندال (***Huns and Vandals***) وعشرات من القبائل الأخرى نشروا قواتهم العسكرية البدائية عبر أودية شبه الجزيرة الخصيبة التي عانى سكانها بشدة من هذه الغزوات المستمرة. ولكن حتى أكثر الغزاة قوة وأكثرهم بدائية استسلم أمام الثقافة الأعلى للبلاد، حتى رغم معارضتهم لذلك في البداية بعداء صريح أو باستهانة مزرية(•). ولكن كل هذه الشعوب الغازية دخلت في هذه الثقافة تدريجيا

(•) بهذا يخبرنا "بروكوبيوس" [*ocopiusPr*] في قصته عن الحروب بين القوط والفندال بكلام له مغزاه صرح به "لويتبراند" [***Luitprand***]: "عندما نرغب في إهانة عدو علنا ونضعه في الهوان فإننا نسميه رومانيا". القبائل الجرمانية كانت أكثرهم عدوانية بشكل خاص. [المؤلف]

واضطرت لممارسة طرق الحياة الجديدة. قوتهم الطبيعية خدمت فقط في عملية جلب عوامل حيوية جديدة إلى الثقافة القديمة وملأت أوردتها بدم جديد طازج.

يعرف التاريخ العديد من الحالات المماثلة. وقد أفادت هذه الحالات في "تصوير التفوق اللامحدود للعمليات الثقافية على الغباء المؤسف للمساعي السياسية. كل جهود غزو الدول لهضم سكان المناطق المكتسبة حديثا بواسطة ممارسة القوة – قمع اللغة الأصلية والتدخل القسري مع مؤسسات التقاليد وهكذا– قد كانت كلها سدى أكثر من أن تأثيرها في معظم الحالات قد كان بالضبط عكس ما سعى الغازي لتحقيقه. لم تستطع إنجلترا أبدا ربح ولاء الأيرلنديين. معالجتها العنيفة لم تؤد سوى إلى تعميق وتوسيع الهوة التي فصلت بين الشعبين وزادت من كراهية الأيرلنديين للإنجليز. "جهود ألمنة" الحكومة البروسية في بولندا جعلت حياة البولنديين أكثر صعوبة ومرارة، ولكنهم لم يستطيعوا تغيير مزاجهم العام، ولا جعلهم يتصرفون بروح صديقة للألمان. اليوم نحن نجني ثمار هذه السياسة الرعناء. سياسة روسنة الحكومات القيصرية (*Tsarist*) في مقاطعات بحر البلطيق أدت إلى الاعتداءات المشينة على الكرامة الإنسانية، ولكنها لم تدفع الشعب إلى الاقتراب أكثر من الروس ولم يربح من ذلك بشكل رئيسي سوى البارونات الألمان المقيمين هناك، وبهذه السياسة زاد استغلالهم الوحشي للجموع هناك. ربما يُقنِع أنصار السياسة الإمبراطورية في ألمانيا أنفسهم بأنهم قادرون على اكتساب عواطف سكان الألزاس لصف النزعة الألمانية بواسطة "قراراتهم الديكتاتورية" ولكن ألمانيا فشلت في تحقيق تلك الغاية رغم أن سكان الألزاس بحكم كلٍ من اللغة والعادات ألمان. وبالمثل جهود الفرنسيين الحالية لهضم سكان الألزاس وحقنهم بحب فرنسا لن يأتي سوى بالقليل من النتائج. تقريبا تحمل كل دولة كبرى داخل حدودها أقليات قومية تعاملها بهذه الطريقة. والنتيجة في كل مكان هي نفسها. لا يمكن الحصول على الولاء والحب بالإجبار؛ يجب اكتسابهما؛ وأقل الوسائل ملاءمة لتحقيق هذه الغاية هي القوة والقمع. سياسة القهر القومي التي اتبعتها الدول الكبرى قبل الحرب [العالمية الأولى] طورت في القوميات المُضطَهَدة مذاهب قومية متطرفة تجد تعبيرها اليوم في تطبيق الدول

الصغيرة حديثة النشأة لنفس المعاملة مع أقلياتها القومية التي كانت تجدها سابقا عندما كانت هي نفسها أقليات قومية – وهي الظاهرة التي تبدو للعيان جميعا بكل وضـوح أن الدول الصغيرة تتبع وقع خطوات الدول الكبرى وتقلد ممارساتها.

نحن نستطيع إلا قليلا تحويل شعب بالقوة إلى أخلاقيـات وعـادات وأنمـاط غريبة في التفكير بمثل ما نستطيع إجبار إنسان ما على الدخول فـي إطـار فرديـة الغرباء. اندماج قبائل وعناصر عرقية مختلفة هو أمر ممكن فقط في عـالم الثقافـة؛ لأنه في هذا العالم لا ينشأ أي قهر خارجي، فقط احتياج داخلي للوفاء بما يجعل لكـل عضو من الفريق مساهمته الخاصة. لا تستقر الثقافة على القوة الغاشـمة ولا علـى الإيمان الأعمى بالسلطة؛ لأنه كما يرى "بروكوبيوس" (*Procopius*)(•)، هذا العـدوان اليومي لكل التعليمات والتأثير التربوي يرون فيه إضعافاً لأنشطتهم الحربية يـصيبهم بالوهن. فعالية هذا الاندماج تقوم على أساس القبول الحر لكل مـا هـو نـاتج عـن الجهود التعاونية من أجل الرفاه المادي والروحي. القضية الحاسمة هنا هي الاحتياج الطبيعي وليس القرار الرسمي الأعمى من أعلى. لأن هذا السبب في كـل الفتـرات العظيمة هو الذي جعل الثقافة تسير يدا بيد مع الاتحاد والاندماج الطوعي للجماعـات البشرية المختلفة. في الواقع، هذان العاملان هما ضروريان بـشكل متبـادل. فقـط الإرادة الطوعية التي تنشأ في معظم الحالات بشكل غير واعٍ تماما قادرة على توحيد البشر من أصول مختلفة في جهودهم الثقافية وبهذه الطريقة في إنتاج أشكال جديـدة من الثقافة.

والحالة هنا هي نفسها كما تكون مع الفرد. عندما أتناول عملاً لمؤلف غريـب يكشف عن أشياء جديدة لي، ويثير عقلي. لا أحد يدفعني لقراءة الكتـاب أو يـدفعني لأتوافق مع أفكاره. إنه فقط التأثير الفكري الذي يؤثر علي والذي ربما لاحقا يـزول بتأثيرات أخرى من نوع آخر. لا شيء يضطرني قسرا لصنع قرار مزعج لطبيعتـي

(•) بروكوبيوس القيصري عالم بارز من فلسطين الأولى. رافق الجنرال الروماني بيليـساريوس في حروب الإمبراطور جستنيان. يعتبر المؤرخ الرئيسي للقرن السادس. [المترجم]

المكنونة ويقهر عقلي. أنا أتوافق مع المسألة الغريبة علي لأنها تجلب لـــي الـــسرور وتصبح جزءا من كينونتي الروحية. أنا أهضم نفسي فيها حتى في الأخيـــر تتلاشـــى الحدود بين نفسي وبينها. بهذه الطريقة كل الوقائع الفكرية والثقافية تحدث.

وهذا الهضم الطبيعي وغير الإجباري يستمر دون ملاحظة وإشراف من أحد، ودون أي تحليل للأدلة، لأنه ينمو نتيجة متطلبات شخصية للفرد ويتوافق مع خبراتـــه الفكرية والروحية. أي عملية ثقافية تمضي بشكل أكثر سلمية وبأقل احتكاكات، كلمـــا كانت الدوافع السياسية أقل ظهورا؛ لأن العمل السياسي والثقافة نقيضان، دائمـــا مـــا يفترقان بشكل واسع؛ حيث تنتمي ولاءات كلٍ منهما لعالمين مختلفين.

هوامش الفصل الثالث

---

(1) Psychologie der Zusammenhdnge und Begebenheiten. Berlin, 1921
(2) Die Anfänge der menschlichen Kultur, Leipzig, p. 2
(3) Peter Kropotkin, Mutual Aid, a Factor of Evolution



الفصل الخامس

اللامركزية السياسية في اليونان

الوحدة القومية السياسية كعائق للتطور الثقافي. إعادة اكتشاف اليونـــان. وضع الدين في اليونان. فيما يتعلق بالمحتد العرقي للهيلينيين. الفكــر اليونـــاني. أفكار عن الإنسان والكون. العلم والفلسفة. تعدد جوانب الثقافة الهيلينية. الشعر. الدراما. الكوميديا. المسرح كمقياس للحرية الشخصية. الثقافة المادية. المعمـــار. الطراز اليوناني. النحت. الرسم. الفن كمبدأ للحياة. التفكــك القــومي–الــسياسي لليونان. تأثير البيئة الطبيعية على تعدد الثقافة الهيلينية. طبيعة المدينة اليونانية. غرابة المستعمرة اليونانية. مشاركة الفرد في الشئون العامة. أوليمبوس كرمــز للأحوال السياسية. حروب الفرس. أسباب انتصار الهيلينيين. الوحــدة الثقافيــة والوحدة السياسية. حرب البولونيز ومسألة الوحدة الوطنيــة. علامـــات انهيـــار الإسكندر تتسبب في حدوث الوحدة السياسية لليونـــان وتـــدمر مـــصادر الثقافـــة الهيلينية.

أشرنا في الجزء الأول من هذا العمل إلى المعارضة غير القابلـــة للتـــصالح بين المساعي السياسية للأقليات الصغيرة في التاريخ والنشاط الإبداعي بشكل ثقافي للجماعات الإنسانية المتحالفة بشكل سياسي، وحاولنا الخروج للقارئ بنتـــائج هـــذا التناقض الداخلي بشكل واضح قدر الإمكان. وكل شيء آخر يترتب على هذا. قبل كل شيء، يترتب أنه في الفترات التي يسودها الفكر والعمل السياسي في المجتمع، يسقط الخَلق [الإبداع] الثقافي وخاصة أشكاله الأعلى في التحلل والانهيار. ولو سار الأمر على نحو آخر، فمن ثم سوف تكون الثقافة في تمام ازدهارها فـــي أوقـــات أعلى اكتمال للسلطة السياسية القومية، ولسوف تذوي وتجف في أوقـــات التفكـــك

القومي. ولكن التاريخ في كل الأنحاء يُظهِر لنا العكس. اليونان وروما هما الشاهدان على ذلك، ولكنهما ليس الشاهد الوحيد. يحمل تاريخ كل الأزمنة وكل الشعوب شهادات بليغة على ذلك. أدرك "نيتشه" ذلك بكل وضوح عندما قال في كلامه المعروف جيدا عن بعث الروح: "في سرير المرض السياسي يعيد أي شعب عادة تجديد شبابه ويجد مرة أخرى الروح التي فقدها في سعيه من أجل السلطة واستمرار احتفاظه بها. تدين الثقافة بأعمق ما يكون لأزمنة الضعف السياسي".

يتفق الناس بصورة حسنة على الأهمية المدهشة لثقافة اليونانيين القدامى. حتى لو كان امرؤ من الرأي بأن هذه الثقافة قد احتلت مرتبة نموذجية مبالغا فيها بواسطة الأنصار المتحمسين للآثار الكلاسيكية، يظل المرء لا يستطيع إنكار أهميتها الأثرية. من السهل تفسير المبالغة غير المعتدلة في التقدير التي أُعطِيت في وقت ما للآثار التاريخية. يجب ألا ينسى المرء أنه مع تطور الكنيسة المسيحية ظلت أوروبا لقرون فاقدة بالكامل لصلتها بحياة اليونان الفكرية التي بالطبع بدت للفكر المسيحي غريبة ومتمردة بشكل أصيل. بإعادة اكتشاف اللغة اليونانية واليقظة الشاملة للعقول نحو ختام القرون الوسطى، توحد الإنسان مرة أخرى بشكل روحي مع "هيلاس" (***Hellas***) القديمة. بمجهود الإنسانيين في القرن السادس عشر (***Humanists***)، أخذ هذا العالم القديم الذي بزغ فجأة من زوايا النسيان والذي مع النظر إليه من على بُعد، أخذ يتلألأ بألف درجة لون، ولا بد أنه قد ترك واقعيا انطباعا ساحرا، خصوصا أنه طرح مقارنة فورية مع الحاضر عندما كانت الكنيسة تتصارع بحمية متزايدة أكثر فأكثر مع المفاهيم الجديدة للكون مُستخدِمة التعذيب وآلات تقطيع الأوصال. دون شك كان للثقافة اليونانية مع سماتها المنيرة والموحية أيضا عيوب اجتماعية عميقة يجب ألا يتغاضى المرء عنها إذا ما رغب في تكوين صورة واضحة عن طبيعتها الكلية. وبذا يجب ألا ينسى المرء أنه في اليونان كما في كل دول الزمن القديم، تواجدت العبودية رغم أن معاملة العبيد كانت أكثر إنسانية في اليونان –ما عدا إسبرطة (***Sparta***)– مما كان عليه الحال في روما مثلا. في مجتمعات يونانية عديدة كان العرف أن تعتق أولئك العبيد الذين تلقوا

تعليما يونانيا. وقد حدث أيضا في بعض الأحيان تحت ظروف غير معتادة أن جزءًا من العبيد يتم تبنيه داخل طبقة الأسياد. وقد حدث هذا في إسبرطة في وقت الحرب "الأركيدامية" (*Archidamian war*)(•) عندما حل الضعف الشديد بالطائفة صاحبة الامتيازات نتيجة خساراتها وكان عليها أن تتعامل مع انتفاضة طبقة الأقنان (*helots*)(••). وقد حدث نفس الشيء مرات عديدة في أثينا.

أيضا، لم يخل بالكلية تاريخ اليونان من اضطهاد الأفكار على أية حال. كان على سقراط (*Socrates*) شرب "الشوكران" السام. اضطر "بروتاجوراس" (Protagoras) للفرار هو وكتابه. كل ما هو ضد الآلهة أُحرِق علنا. تعرض "ديوجينس" من "أبولونيا" (*Diogenes of Appolonia*) و"تيودوروس" (*Theodorus*) "الملحد" للاضطهاد. حتى شعراء مثل "دياجوراس من ميلوس" (*Diagoras of Melos*) و"أسخليوس" (*Aeschylus*) عانوا في وقت من الأوقات من الرعب خوفا على حياتهم، وتم تهديد "يوريبيديس" (*Euripides*) بتوجيه الاتهام العام له بسبب "أفكاره الإلحادية". بالطبع لا يمكن مقارنة هذه الصور من الاضطهاد العارض حتى ولو من بعيد مع صور اضطهاد الهراطقة خلال العصور الوسطى. الافتراضات الأساسية لاضطهاد العصور الوسطى لم تكن موجودة تماما في حالة اليونان. في اليونان غابت الطائفة الكهنوتية المنظمة وكذلك غابت الكنيسة. كما افتقدت البلاد أيضا أي بداية نحو الوحدة السياسية، التي يميل أنصارها دائما إلى قمع حريَّة

(•) الحرب البيلوبونيزية (٤٣١-٤٠٤ قبل الميلاد) هي الحرب اليونانية القديمة التي خاضتها أثينا وإمبراطوريتها ضد العصبة البيلوبونيزية بقيادة إسبرطة. تقليديا قسم المؤرخون هذه الحرب إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى هي الحرب الأركيدامية: حين أطلقت إسبرطة الغزوات المتكررة على أتيكا، عندما استفادت أثينا من تفوقها البحري لمداهمة ساحل البيلوبونيز لمحاولة قمع بوادر الاضطرابات في إمبراطوريتها. واختتمت هذه الفترة من الحرب في ٤٢١ قبل الميلاد، مع توقيع صلح نيقياس. [المترجم]

(••) مجموعة من السكان المقهورين في لاكونيا وميسينيا (المناطق التي تحكمها إسبرطة). هنا دب الخلاف بين المؤرخين على الوضع الدقيق لهم في العصور القديمة: وفقا لكريتياس، كانوا "عبيدا إلى أقصى درجة ممكنة"، في حين وفقا لبولكس، احتلوا مكانة "بين العبيد والأحرار". [المترجم]

التفكير ورفع مستوى اضطهاد نوع معين من الأفكار إلى نظام. ومع ذلك تواجدت بالطبع بين الناس أنفسهم كل أنواع الخرافات، وفي أماكن عديدة خصوصا دلفي (*Delphi*). تطور ذلك تحت تأثير الكهنة إلى مذهب أصولي متطرف ولكنه لم يكتسب سوى أهمية محلية حيث افتقدت الأجزاء الأخرى من البلاد كل صلة منظمة به.

ورغم هذه العيوب، فالعظمة الفكرية للثقافة اليونانية ليست محل خلاف. الثقافة التي تستطيع التأثير على مجمل الشعوب الأوروبية لهذا الوقت الطويل في مثل هذه الميادين المتنوعة، بقوة لا تُقاوَم ولم تستنفد نفسها بعد حتى اليوم رغم اختفاء خالقيها من التاريخ منذ ألفي سنة مضت، من الممكن بسهولة المبالغة في قيمتها ومن الصعوبة بمكان التغاضي عنها.

لن يحاول إنسان ذو بصيرة عميقة التأكيد على أن اليونانيين قدَّموا من بين أنفسهم كل المساهمات التي صنعوها في مختلف ميادين الحياة الثقافية المتنوعة. تكمن عظمة وأهمية كل ثقافة فقط في هذه النقطة: فعاليتها الفكرية والاجتماعية لا يمكن حبسها داخل حدود وطنية أو سياسية. ربما نستطيع خلق الدولة بالسيف، ولكن الثقافة لا – لأن الثقافة تقف فوق كل منظمات الدولة أو المؤسسات ذات السيادة، وهي في جوهرها الضمني أناركية (بلا رئيس) – حتى لو استطاع المرء التغاضي عن حقيقة أن العبودية السياسية قد كانت لهذا الحد أو ذاك أعظم مانع لأي تطور ثقافي أعلى. وقوع اليونان في تطورها تحت تأثير ثقافات أخرى هو أمر واضح تماما، ولابد أن يكون المرء واحدًا من بين منظري الأجناس حتى ينكر ذلك. إضافة إلى هذا، تحمل الميثولوجيا اليونانية نفسها شهادة على تلك التأثيرات الأجنبية – كما في إرث "قدموس" (*Cadmus*)(•) و"كيكروبس"

(•) في الأساطير اليونانية، قدموس هو مؤسس طيبة وأول ملك لها. وهو أمير فينيقي، نجل الملك أجينور والملكة تيلي فاسا من صور، وشقيق فينيكس، وسيليكس وأوروبا. بعثه والداه للبحث عن شقيقته أوروبا ومرافقتها إلى صور بعد أن اختطفها زيوس من على شواطئ فينيقيا. [المترجم]

(*Cecrops*)(•) و"داناوس" (*Danaos*)(••) وآخرين. في الأزمنة الحديثة لا يكاد يمر عام لم يجلب فيه البحث العلمي إلى الضوء مادة جديدة تكشف بشكل أكثر وضوحا التأثير الشرقي والتأثير المصري على تشكيل الثقافة اليونانية. وهكذا، أُخرِجت إلى النور عناصر سامية في أشعار هوميروس مرارا وتكرارا. وحملت حفائر "هاينرش شليمن" (*Heinrich Schliemann*) في آسيا الصغرى أهمية خاصة لا بأس بها كشفت الغطاء عن بقايا ثقافة قديمة أسموها "المايسينية" (*Mycenian*). ثم في عام ١٩٠٠، جاءت حفائر العلامة الإنجليزي "إيفانز" (*Evans*) في جزيرة كريت لتلقي الضوء على بقايا ثقافة أقدم كثيرا جدا من الممكن تحديدها في وقت قبل ألفي سنة على الأقل من تاريخنا المُسجَّل.

بالطبع فتحت النتائج الرائعة للبحث الأركيولوجي أمام التسجيل التاريخي ميادين جديدة وحتى الآن مجهولة تماما، ولكنها أنتجت أيضا سلسلة كاملة من المشاكل الجديدة، كانت جهود العلم لحلها حتى الحين لا تزال سدى. وهكذا اليوم لم يتم تقرير هل كانت هناك صلات وثيقة بين ثقافات كريت ومايسنيا، أو هل نحن نتعامل هنا مع مسارين متميزين للتطور. سؤال هل خالقو هاتين الثقافتين يجب أو لا يجب اعتبارهم بقايا يونانيين أم لا، ذلك سؤال يظل بلا إجابة تماما. لقد اكتشفوا في كريت آلاف الألواح الطينية تحمل نقوشا غريبة – ولكن العلم لم ينجح في فك شفراتها، ونحن ما زلنا في انتظار عديد من الحقائق التي ربما تخبرنا بحقيقة الأمر. لقد تم البرهان منذ وقت طويل على وجود الكلام بلغات أخرى في اليونان.

(•) كيكروبس هو ملك أسطوري من أثينا. وفقا لسترابون يدل اسمه على أصل غير يوناني. يقال إنه ولد من الأرض نفسها، نصفه العلوي على شكل رجل والنصف السفلي على شكل ثعبان أو ذيل السمكة. مؤسس وأول ملك لأثينا. كيكروبس بطل ثقافي، علَّم الأثينيين الزواج والقراءة والكتابة، واحتفالية الدفن. [المترجم]

(••) في الأساطير الإغريقية كان داناوس الأخ التوأم لايجيبتوس وابنا لآخيروي وبيلوس، ملك مصر الأسطوري وملكتها. كان لداناوس خمسون بنتًا، وكان لشقيقه التوأم خمسون ولدًا. أمر ايجيبتوس بزواج أبنائه الخمسين من بنات أخيه الخمسين. قرر داناوس الفرار ببناته بدلا من ذلك، ولهذا الغرض، بنى أول سفينة عرفها البشر. [المترجم]

سلسلة كاملة من أسماء الأماكن مثل "أثينـــا" و"طيبـــة" و"كورنيـــث" و"أوليمبـــوس" و"بارناسوس" ما زالت تتخفى في الظلام – فليس لهذه الأسماء أي نـــوع مـــن العلاقة باللغة اليونانية – وتنتمي فعليـــا إلـــى الكـــلام الهنـــد–جرمـــاني (***Indo-Germanic***). إضافة إلى ذلك، يخبرنا هيرودوت (***Herodotus***) أنه في ترحاله زار مدنًا متعددة كان الناس السابقون على اليونانيين (***Pelasgians***) يتكلمون لغة غريبة أطلق عليها اسـم "اللغـــة البربـــرية". طبقـــا لاســـتدلالات "مـــوريتز هيـــرنيس" (***Moritz Hoernes***) الحكيمة ثقافة كريت الميسينية هي – إذا جاز لنـــا الكـــلام – رابطة الاتصال بين ثقافات مصر والشرق القديمة وثقافة اليونان الخاصة تلك(•) – النظرة التي تربح دائما قبولا أوسع. الحقيقة هي أن الحياة الفكريـــة النـــشطة فـــي اليونان تطورت أولا في الشرق حيث الاتصال مع المصريين والفينيقيين والفـــرس هو الأكثر نشاطا.

ولكننا لا نتعامل هنا مع سؤال إلى أي مدى تأثرت الثقافة اليونانية بالثقافات الأخرى، ولكنه مجرد تعامل مع حقيقة أنها واحدة مـــن أكثـــر الثقافـــات البـــاهرة والشاملة التي قد أنتجتها البشرية أبدا. فقد أثرت على كامـــل التطـــورات اللاحقـــة لشعوب أوروبا بأكثر عمقا وأكثر ديمومة مما فعلته أي ثقافة أخرى، ومـــا زالـــت تتضح آثارها البعيدة أكثر فأكثر. قبل كل شيء، هناك هذا النـــوع مـــن عمليـــات التفكير التي جعلها اليونانيون أقرب إلينا من أي شعوب أخرى في الزمن الماضي. موهبتهم العجيبة في الملاحظة العلمية والمنطق الاستدلالي مكنتهم غالبا من إدراك حقائق لم تؤسس علميا إلا بعد مرور قرون لاحقة عليهم، هذه الهبة لـــديها قرابـــة بطرقنا الحالية في التفكير أكثر كثيرا مما لدينا مع ألغاز المـــصريين أو البـــابليين. ورغم أنه اليوم فوق أي شك حصول اليونانيين على معلومـــاتهم الفلكيـــة الأولـــى والمواضيع الأخرى من الشعوب الشرقية، فإنهم نظموا هذه المعرفة بوضوح ساطع وطوروها إلى ذُرا لم تستطع أي شعوب أخرى من العالم القديم أن تـــصل إليهـــا.

(•) ***Kultur der Urzeit. Band II, 1912*** [المؤلف]

وعلم الرياضيات عالي التطور لديهم هو دليل مجيد على ذلك. ما تميزت به الحالة العامة للحياة الفكرية هو أنه بين المصريين والكالدانيين (***Chaldeans***) والفرس احتفظ الكهنة و"الماجي" (***Magi***) بكل المعارف المتعلقة بالطبيعة، بينما في اليونان مارس التفكير الواقعي-النظري رجال ليس لهم أي علاقة بأي نوع من الكهانة.

ورغم أن ما وصل إلينا من أفكار المفكرين اليونانيين هو مجرد شطرات من الأفكار، وكثير منها جاء منقولا بواسطة أشخاص آخرين – أساسا بواسطة أرسطو (***Aristotle***)(•) وشيشرون (***Cicero***) – ولم يكن النقل دون بعض تشويه للنص الأصلي، إلا أن هذا القليل الذي نمتلكه الآن يعطي فهما واضحا بصورة كافية لإنتاجيتهم الفكرية. حتى في فلسفات الطبيعة الأيونية (***Ionic nature philosophies***) يصادف المرء هذه الدقة المضيئة في الملاحظة، متحدة مع وضوح التعبير الذي يميز تفكير اليونانيين بشدة. طاليس (***Thales***)(••) وأناكسيماندر

(•) أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) الفيلسوف اليوناني الذي تغطي كتاباته العديد من الموضوعات – الفيزياء والبيولوجيا وعلم الحيوان، والميتافيزيقيا، والمنطق، والأخلاق، وعلم الجمال، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والخطابة، واللغويات والسياسة والحكومة – أعماله تمثل النظام الشامل الأول للفلسفة الغربية. انضم في الثامنة عشرة إلى أكاديمية أفلاطون في أثينا، وبقي هناك حتى سن السابعة والثلاثين. بعد وفاة أفلاطون بفترة وجيزة، غادر أرسطو أثينا، وبناء على طلب من فيليب المقدوني، عمل مدرسا لابنه الاسكندر الأكبر ابتداء من ٣٤٣ قبل الميلاد. بعد وفاة أفلاطون، انغمس أرسطو في الدراسات التجريبية وتحول من الأفلاطونية إلى التجريبية. وجهات نظر أرسطو في العلوم الفيزيائية شكلت بعمق محتوى الدراسة في العصور الوسطى. امتد نفوذه لعصر النهضة ولم تستبدل منهجيته حتى عصر التنوير، وظهور نظريات مثل الميكانيكا الكلاسيكية. وفقا لدائرة المعارف البريطانية "أرسطو أول عالم حقيقي في التاريخ ... [و] كل عالم هو مدين له". [المترجم]

(••) طاليس من ميليتس (٦٢٤-٥٤٦ قبل الميلاد) فيلسوف وعالم رياضيات يوناني قبل سقراط من ميليتس في آسيا الصغرى وأحد الحكماء اليونانيين السبعة. حاول طاليس تفسير الظواهر الطبيعية دون الإشارة إلى أساطير. أرسطو هو من ذكر فرضية طاليس "أن مبدأ الطبيعة وطبيعة المادة مصدرها مادة واحدة: المياه". [المترجم]

(*Anaximander*)[•] وبيريقيديس (*Pherecydes*)[••] وأناكسيمينيس (*Anaximenes*)[•••] وآخرون وضعوا قواعد كل شيء على دراسة الطبيعة، التي أعطت لتعاليمهم من البدايات الأولى طابعا مُميّزا. على أساس بيانات أناكسيمينيس الذي تعرّف على حركة الأفلاك والنجم القطبي، وعلى أساس الأفكار الفيثاغورثية (*Pythagoreans*)، وصل أريستارخوس من ساموس (*Aristarchus of Samos*)[••••] في الأخير إلى استنتاج أن الأرض تدور حول محورها مرة كل ٢٤ ساعة وأن كوكب الأرض وكل الكواكب تدور حول الشمس مرة كل سنة، بينما تظل الشمس وعدد من النجوم ثابتة دون حركة في الفضاء. بالطبع افتقد اليونانيون أي فرضيات عملية مثل التي نملك ناصيتها اليوم، كقاعدة لتعاليمهم. ولكن ما يحمل أهمية كبيرة جدا كان هو الطريقة التي شيدوا بها لأنفسهم صورة للكون والتي ألقت بظلالها على كل شيء آمن به رجال الفترة اللاحقة لمدة ألف وخمسمائة سنة كحقيقة لا يمكن هزيمتها.

(•) أناكسيماندر (٦١٠-٥٤٦ قبل الميلاد) الفيلسوف اليوناني قبل سقراط الذي عاش في ميليتس أيضا. ينتمي الى تعاليم مدرسة طاليس وأصبح ثاني أستاذ لتلك المدرسة حيث يعد من بين تلاميذه أناكسيمينيس، ويمكن القول، فيثاغورس أيضا. [المترجم]

(••) بيريقيدس من سيروس (القرن السادس قبل الميلاد) مفكر يوناني من جزيرة سيروس. وضع فكرة عن نشأة الكون، مستمدة من ثلاثة مبادئ إلهية، زيوس والأرض والزمن. شكلت أفكاره جسرا بين الفكر الأسطوري عند هسيود وفلسفة ما قبل سقراط. يعتبره أرسطو جزئيا كاتبًا أسطوريًا وأعطاه بلوتارخ، والعديد من الكتاب الآخرين لقب اللاهوتي. [المترجم]

(•••) أنكسيمانس (٥٨٥-٥٢٨ قبل الميلاد) الفيلسوف اليوناني قبل سقراط. من طلاب اناكسيماندر. مثل الآخرين في مدرسته الفكرية مارس المادية الأحادية للتعرف على حقيقة واحدة كامنة تتكون من شيء مادي. [المترجم]

(••••) أريستارخوس ساموس (٣١٠-٢٣٠ قبل الميلاد) عالم فلك يوناني قديم وعالم رياضيات، قدم أول نموذج معروف عن وضع الشمس في مركز الكون والأرض تدور حولها. مثل أنكساجوراس من قبله، اشتبه أيضا في أن النجوم هي مجرد أجسام مثل الشمس. رُفِضت أفكاره الفلكية لصالح نظريات مركزية الأرض عند أرسطو وبطليموس. [المترجم]

أبدى الحكماء القدماء نفس الاهتمام باعتبارات التغير الحادث في المادة. تقسيم المادة المشهور إلى أربعة عناصر أساسية -التربة والماء والهواء والنار- التي تُنسَب إلى "إمبيدوقليس" (***Empedocles***)، سيطر على أفكار الإنسان لقرون عديدة، وفي الأخير تم التخلص من هذا التصنيف بنتائج الكيمياء الحديثة. اتخذ أنصار النظرية "الذرية" (***atomists***) خطوة حاسمة نحو بناء صورة للكون على أسس طبيعية عندما حاولوا تحديد طبيعة المادة. بالطبع لا يستطيع المرء وضع نظريات "ديموقريطس"(***Democritus***)(•) أو "ليوكيبوس" (***Leucippus***)(••) دون تغيير على مستوى النظرية الذرية الحديثة "لدالتون" (***Dalton***)(•••) أو "أفوجادرو" (***Avogadro***)(••••) القديم؛ لأنها تكاد تفتقد كل الأفكار التمهيدية لمثل هذا. ومع ذلك الأمر المتعلق بنظرياتهم الذي يثير دهشتنا حتى يومنا هذا هو ضخامة المهمة وانفتاح طبيعة المفهوم، في وقت كانت الشروط الأولية لما بلغناه اليوم في الفيزياء والكيمياء مجهولة عندهم بالكامل. وحيث إن أصحاب النظرية الذرية نسبوا كل ظاهرة إلى أسباب طبيعية فقد حرّموا على مفهومهم للكون المصادفة والنزوة الفجائية، وبالتالي، اتبعوا هذا الأسلوب من التفكير الذي يحاول إيجاد غرضٍ خاصٍ لكل الأشياء. لهذا يستطيع المرء فهم لماذا أُعجِب "بيكون" (***Bacon***) لهذا الحد البالغ بديموقريطس وفضل مذهبه على مذاهب أرسطو وأتباعه المسيحيين العميان.

(•) ديموقريطس (بمعنى "اختيار الشعب")؛ (٤٦٠-٣٧٠ قبل الميلاد) الفيلسوف اليوناني القديم ما قبل سقراط. يُذكر في المقام الأول لصياغته النظرية الذرية للكون. [المترجم]

(••) ليوكيبوس (القرن الخامس قبل الميلاد) يذكر في بعض المصادر القديمة إنه الفيلسوف الذي كان أقرب اليونانيين إلى تطوير نظرية المذهب الذري – فكرة أن كل شيء يتكون بالكامل من عنصر لا يتجزأ ولا يفنى يسمى الذرة. وكثيرا ما يرتبط اسم ليوكيبوس كأستاذ للتلميذ ديموقريطس. [المترجم]

(•••) جون دالتون (١٧٦٦-١٨٤٤) الكيميائي، الفيزيائي، وعالم الأرصاد الجوية الإنجليزي. معروف لعمله الرائد في تطوير النظرية الذرية الحديثة؛ وأبحاثه في عمى الألوان. [المترجم]

(••••) لورنزو رومانو أميديو أفوجادرو كارلو (١٧٧٦-١٨٥٦)، عالم إيطالي. صاحب مساهمات في النظرية الجزيئية، وما يعرف باسم قانون أفوجادرو. تكريما له، وحدة الكيانات الابتدائية (للذرات، أو للجزيئات، أو للأيونات أو لأي أجسام دقيقة أخرى)، معروفة باسم: ثابت أفوجادرو. [المترجم]

وقد وصل إلينا بالكاد أربعمائة بيت من كل قصيدة إمبـدوقليس(*) التعليميـة الكبيرة عن الطبيعة. وقد أُطلِق عليه لقـب "أول رائـد" للمنظـرين اللاماركيين (***Lamarckian***)-الداروينيين (***Darwinian***)، وفي الحدود الضرورية، من الممكن السماح لهذا الوصف بالتماسك. عرف إمبدوقليس في الحب والنفور قوتين أوليتـين تعلنان عن نفسيهما كقوة جذب وتنافر. كما أن من الممكن تتبع أصل وانحلال كـل الأشياء في عملياتهما. يتكون البشر والحيوانات والنباتات من نفس المـواد، ولكـن الخليط يختلف عند كل سلالة. في مجرى الأزمنـة غيـر المحـسوبة، بتركيبـات وانفصالات لا حصر لعددها بدأت النباتات تدريجيا الخروج إلى حيز الوجود، ثـم الحيوانات. في البداية أنتجت الطبيعة كل الأعضاء بـشكل منفـصل: الأذرع دون أكتاف والرؤوس دون أعناق وهلم جرا؛ وفي الأخير فقط لم تحافظ علـى البقـاء سوى تلك الأشكال التي كانت قادرة على الوجود بشكل مستقل.

وما أكَّد عليه "زينوفانيس" (***Xenophanes***) المؤسس المزعوم لمدرسة "إيليا" (***Eleatic school***) الفلسفية، هو محاولته تفسير الرسـومات المتحجـرة للنباتـات والحيوانات في الصخور كبقايا أثرية لأنواع من الكائنات عاشت في الزمن السابق قبل انقراضها. أدرك "زينوفانيس" أيضا "التجـسيم" (***anthropomorphism***) الـذي يؤكد كل إيمان بالآلهة، وأكد قبل "فيورباخ" (***Feuerbach***) بعدة قرون أن الإنـسان يبجل في الله طبيعته الخاصة.

لكن ليس فقط مفهوم الأشياء والأكوان، بل جذبت طرق التفكير أيضا انتباها مبكرا عند المفكرين القدماء، وأدت بهم إلى الاعتقاد بأنه فقط من خلال الملاحظـة والتجربة يستطيعون معرفة كيف يصبحون سادة مصائرهم. وهكذا نـشأت وسـيلة إعادة التقييم (***transvaluation***) بناء على مبادئ جديدة لكـل المفـاهيم الأخلاقيـة

(*) إمبيدوكليس (٤٩٠-٤٣٠ قبل الميلاد) الفيلسوف اليوناني قبل سقراط ومواطن مدينة يونانيـة في صقلية. صاحب نظرية العناصر الأربعة الكلاسيكية. واقترح أيضا قوى تـسمى الحـب والفتنة لتحقيق الخلط والفصل بين العناصر. كان يؤيد عقيدة التناسـخ. يعتبـر إمبيـدوكليس عموما الفيلسوف اليوناني الأخير الذي نظم أفكاره نثرا. [المترجم]

التقليدية التي حملها الكلابيون (*Cynics*) والسفسطائيون (*Sophists*) على وجه الخصوص(•) إلى أقصى حدودها، حتى شرح سقراط (*Socrates*)(••) الأساس الحقيقي لكل المشاعر الأخلاقية في حياة الجماعة الاجتماعية. يقول سقراط "الفضيلة ليست هبة من الآلهة ولكنها المعرفة التي يقوم عليها الدليل لما هو طيب فعلاً وتمنح الإنسان قدرة العيش دون تقييد الآخرين والتصرف بعدل، وخدمة ليس فقط نفسه ولكن المجتمع المحيط به. دون ذلك لا يمكن التفكير في مجتمع". فيما بعد بنى "الإبيقوريون" (*Epicureans*)(•••) و"الرواقيون" (*Stoics*) بالمزيد فوق هذا الأساس وطوروا نظرياتهم التي تتعلق بالوعي الأخلاقي للإنسان.

إلى جانب ذلك، شغل عدد كبير من المفكرين اليونانيين أنفسهم بمسألة الاقتصاد العام والبناء السياسي للحياة الاجتماعية، ووصل أفراد من بينهم إلى

(•) السفسطة هي طريقة للتدريس في اليونان القديمة. السفسطائيون هم فئة من المدرسين تخصصوا في استخدام تقنيات الفلسفة والبلاغة لغرض تدريس "التميز" أو "الفضيلة" – في الغالب للشباب والنبلاء. ابتدعوا ممارسة دفع المال مقابل التعليم وتوفير الحكمة فقط للقادرين، مما أدى إلى إدانة سقراط وأفلاطون فضلا عن زينوفون لهم. لذلك، أصبح المعنى الحديث لكلمة السفسطائيين أنهم "المخادعون". [المترجم]

(••) سقراط (٤٦٩–٣٩٩ قبل الميلاد) الفيلسوف اليوناني (الأثيني) الكلاسيكي، أحد أهم مؤسسي الفلسفة الغربية. شخصية غامضة، نعرفها أساسا من خلال كتابات تلاميذه أفلاطون وزينوفون وكذلك مسرحيات أريستوفان المعاصرة له. الدرجة التي يختفي بها سقراط خلف أفضل تلاميذه، أفلاطون، ليست واضحة. شهرة سقراط تعود لمساهمته في مجال الأخلاق والتربية. قدم سقراط أيضا إسهامات هامة ودائمة في مجال نظرية المعرفة. [المترجم]

(•••) أبيقور (معنى الاسم: حليف، أو رفيق) (٣٤١–٢٧٠ ق.م) فيلسوف يوناني قديم، وكذلك مؤسس مدرسة الفلسفة الابيقورية. لم يتبق سوى بضع شظايا وخطابات من ٣٠٠ عمل كتبهم. معظم ما هو معروف عن الفلسفة الأبيقورية يستمد من أتباعه والمعلقين عليه في زمن لاحق. غرض إبيقور هو تحقيق حياة سعيدة وهادئة، تطلب الطمأنينة والسلام والحرية من الخوف.: غياب الألم والعيش حياة مكتفية ذاتيا وإحاطة الأصدقاء لازمون للحياة السعيدة. يرى إبيقور أن اللذة والألم تدل على ما هو خير وما هو شر؛ وأن الموت هو نهاية لكل من الجسد والروح، ولذا ينبغي ألا نخاف؛ الآلهة لا تملك للبشر ثوابا ولا عقابا. الكون لانهائي وأبدي. والأحداث في العالم تعتمد على تفاعلات وذرات تتحرك في فراغ الفضاء. [المترجم]

استنتاجات بعيدة المدى. في هذه التقاليد العتيقة لعصر ذهبي (***Golden Age***)، ظل الشعر فيه حيا بين الناس، ولعب دورا ليس بسيطا وتدريجيا صاغهم في مذهب "الحق الطبيعي" الذي كان محل دفاع متحمس خصوصا من الكلابيين (***Cynics***). ونتيجة لتلك الأفكار تطور هناك تدريجيا مسلك جديد نحو المؤسسات الاجتماعية ونحو الشعوب الأجنبية، الذي وجد أنضج تعبير عنه في تعاليم "زينون" (***Zeno***) تلميذ الكلابي "كراتيس" (***Crates***) و"ستلبوس الميجاري" (***Stilpos Megarian***) وبلغ قمته في الرفض الكامل لأي ممارسة للقوة في المجتمع.

بالكاد لا توجد فترة أخرى في التاريخ استعرضت مثل هذه الحياة الفكرية الراقية والمتعددة الجوانب. ولكن يظل إعجابنا أعظم عندما نتأمل مصفوفة الآداب الهيلينية. أكثر الأعمال الشعرية قدما عن اليونانيين والتي وصلت إلينا، الإلياذة (***Iliad***) والأوديسة (***Odyssey***)، تستعرض إتقانا شعريا بمثل هذه القوة والجمال لدرجة اعتبارهما النموذج المثال على الملاحم الشعرية. المفهوم بكر الحساسية متين النسج للكون مع أعمق نبضات القلب البشري، والعظمة الملونة بقوة طاغية للمشاهد الطبيعية والنمو المزدوج الحميم للروح البشرية مع الطبيعة الخارجية وفوق كل شيء التلقائية المرحة في التصوير كل ذلك وصل هنا قمة من الإتقان نادرا ما بلغناها في الأزمنة اللاحقة إلا ببون شاسع جدا. خلفت القصيدة التعليمية قصائد الملاحم، حيث ينال شاعرها القديم "هسيود من أسكرا" (***Hesiod of Askra***)[*] الشرف. بدلا من شعر الملاحم القديم بعجائبه ومغامراته ظهر هناك الشعر المعتمد على التراب الوطني، ومشاعر الانتماء للأعمال المفيدة في الحياة اليومية والتأمل القصدي في الأشياء.

(*) هسيود شاعر يوناني يعتقد العلماء عموما أنه عاش بين ٧٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد، تقريبا في نفس زمن هوميروس. يعود المؤلفون القدماء بالفضل إلى هسيود وهوميروس لإنشاء العادات الدينية اليونانية. العلماء المحدثون يشيرون إليه باعتباره مصدرا رئيسيا في الأساطير اليونانية، وتقنيات الزراعة، والفكر الاقتصادي منذ وقت مبكر (يعتبر في بعض الأحيان الاقتصادي الأول في التاريخ)، وعلم الفلك اليوناني القديم وعلم التأريخ. [المترجم]

الإحساس الدفين بعمق عند اليونانيين نحو الفن الأعظم رومانسية بين كل الفنون، وهو الموسيقى الذي يجد مثل هذا التعبير الساحر في الأساطير القديمة مثل "أمفيون" (***Amphion***) و"أورفيوس" (***Orpheus***) أدى إلى تطور الشعر الغنائي المبكر إلى سمو لا نظير له. وإذا كان تركيب الشعر الملحمي قد حبس نفسه في التصوير الجرافيكي للماضي، خلق الشعر الغنائي موضوعه مُستمَدا من التجارب الداخلية للشاعر وزاوجها بإيقاع النص الشعري ونغمات القيثارة والناي، وهكذا أعطى لسانا لكل ما يُحرِّك الروح. وهكذا أصبح الشاعر ضيفا لا يمكن الاستغناء عنه في كل احتفال عام، وتنافست المدن مع بعضها البعض لابتكار ما يجذب الشاعر للعيش داخل أسوارها. طابور طويل من أكثر علامات فن الشعر الغنائي شهرة جاء من جزيرة "لسبوس" (***Lesbos***)، والتي أصبحت معروفة بموطن الغناء العاطفي بمعناه الضيق. هناك كتب "تيربوندروس" (***Terpondros***) الخالق الحقيقي للشعر الحر في ميليتوس (***Melian poesy***)، الذي صهر الموسيقى والنص الشعري معا بمثل هذا الفن البارع حتى سارت الأسطورة بأنه قد عثر مرة أخرى على قيثارة "أورفيوس" المفقودة. وصل الشعر الغنائي إلى ذروته-في "لسبوس" في هذين الزوجين النبيلين من الشعَراء، "الكيوس" (***Alcaeus***)(•) الكاره بعنف للطغاة والشاعرة العظيمة "سافو" (***Sappho***) التي تعد قصائدها في الحب التي تُسكِر من بين أجمل ما كُتِب عن الحب. أيضا "آريون" (***Arion***)(••) المغني في احتفالات

(•) ألكيوس من ميتيليني (القرن السادس قبل الميلاد)، الشاعر الغنائي اليوناني من جزيرة لسبوس. موضوع في قائمة أهم تسعة شعراء للشعر الغنائي من قبل علماء الإسكندرية الهلنستية. كان معاصرا ومحبا لسافو، وقد تبادلا القصائد فيما بينهما. ابن من أبناء الطبقة الحاكمة.الأرستقراطية في ميتيليني، المدينة الرئيسية في جزيرة لسبوس، حيث كان مشاركا في الخلافات السياسية وتناحر العصبيات. [المترجم]

(••) أريون هو شاعر من اليونان القديمة له الفضل في اختراع القصيدة الحماسية. يزعم سكان جزر لسبوس أنه مواطنهم، ولكن أريون وجد راعيا في بيرياندر طاغية كورينثوس. بلا شك هو أول من أدخل القصيدة الحماسية إلى كورينثوس. يرتبط اسم أريون بأصول التراجيديا المسرحية أيضا. [المترجم]

ديونيسوس (***festivals Dionysian***) ومبتكر القصائد الحماسية (***dithyramb***) الـــذى أشادوا به، كان من "ليسبوس". وجدت أغاني القدماء أكثر ممثليها مرحا وبهجة في "آناكريون" (***Anacreon***)(•) من "طاوس" (***Taos***) المغني الحماسي للحـــب والنبيـــذ. معه كتب إيبيكوس من ريجيوم (***Ibycus of Rhegium***) و"سيموني‍ديس من كيـــوس" (***Simonides of Ceos***) وفوق الجميع "بيندار من طيبة" (***Pindar of Thebes***) الذي كرّمه كينتيليان (***Quintilian***) بأسم "أمير شعراء الأغنية". اشتهر بيندار أيضا فـــي عموم اليونان بأنه كاتب لأغاني المائدة (***scholia***). مالت هذه الأغاني إلـــى زيـــادة حماسة إضافية إلى متع موائد الولائم التي انتشرت في كل بـــلاد اليونـــان، أرض هيلاس (***Hellas***)[1]. ويجب أن نفكر هنا أيـــضا فـــي العبـــد الـــسابق "آيـــسوب" (***Aesop***)(••) الملحن الهزلي للأغاني الخرافية عن الحيوانات، التي تناقلت الألـــسنة رواياتها المضحكة. كان لكل مدينة مطربوها وشعراؤها ومن النادر وجـــود فتـــرة تاريخية أخرى في بلد صغير مثل هذا وفي مثل هذا الزمن القصير نسبيا أن تجـــد خلالها مثل هذا العدد المدهش من الشعراء والمفكرين ظاهرا داخل تلك المجتمعات المحلية الصغيرة في اليونان.

وصل الهيلينيون إلى قمة فنهم الشعري في الـــدراما، التـــي تطـــورت مـــن المسرحيات الاحتفالية القديمة لتكـــريم ديونيـــسوس (***Dionysus***)(•••) أو "بـــاكوس"

(•) آناكريون (٥٨٢–٤٨٥ قبل الميلاد) شاعر غنائي يوناني قـــديم، مـــشهور بأغـــاني وأناشـــيد الشراب. في وقت لاحق وضع الإغريق اسمه في قائمة أهم تسعة شعراء للـــشعر الغنـــائي. [المترجم]

(••) ايسوب (٦٢٠–٥٦٤ قبل الميلاد) أبو القصة الخرافية اليونانية القديمة. له الفضل في خلـــق أسلوب الرواية الخرافية التي تعرف الآن باسم خرافات إيسوب. رغم أن وجوده لا يزال غير مؤكد، جُمع العديد من القصص المنسوبة إليه عبر القرون وبالعديد من اللغات. تتميز حكاياته التي كتبها بشخصيات من الحيوانات والجماد يتحدثون ويحلون المشاكل، وعمومـــا يمتلكـــون خصائص الإنسان. [المترجم]

(•••) ديونيسوس (أو باكوس، أو باخوس) هو إله حصاد العنـــب، والعـــسل والنبيـــذ، والجنـــون الطقوسي والخصوبة والمسرح والنشوة الدينية في الأساطير اليونانية. [المترجم]

(*Bacchus*). للشعر الدرامي طابور طويل من الرواد المرموقين بشكل أو بآخر منهم "ابيجينيس من سيكيون" (*Epigenes of Sicyon*) وتسبيس من ايكاريون (*Thespis of Icaryon*) وخصوصا فرينيكوس (*Phrynichus*) مؤلف التراجيديا. نتذكر ثقافة ميليتوس (*Miletus*) في أغلب الأحيان. ولكن الدراما بلغت أعلى إتقان لها بعد الحروب الفارسية في وقت الازدهار الأثيني، عندما أنار أسخيليوس وسوفوكليس ويوريبيدس، النجوم الثلاث، كل أرض هيلاس بمجدهم، محاطين بشعراء مثل "فيلوكليس" (*Philocles*) وإيوفوريون (*Euphorion*) و"زينوكليس" (*Xenocles*) ونيكوماخوس (*Nichomachus*) وعديد آخرين. من المائتي قطعة لأسخليوس (*Aeschylus*)(•) وصل إلينا سبع قطع فقط من بينها تراجيديته الرائعة "وثاق بروميثيوس" (*Prometheus Bound*) التي ينكشف فيها المزاج الجريء والقوة الهائلة وفخامة الأفكار بأقوى ما يكون. يقال عن سوفوكليس (*Sophocles*)(••) إنه كتب أكثر من مائة مسرحية درامية إلا أن سبعًا منها فقط حُفظت من الضياع. من هذه المسرحيات نحصل على فكرة عن عظمة عبقريته التي تجد أتم تعبير عنها في مسرحيته "أنتيجون" (*Antigone*). احتفظ لنا الزمن بمسرحيات أكثر من أعمال يوريبيديس (*Euripides*)(•••) "شاعر التنوير" كما

(•) إسخيليوس (٥٢٥ ق.م – ٤٥٦ ق.م.) كاتب مسرحي يوناني، ويعتبر من مؤسسي اللون التراجيدي في الأدب اليوناني. إسخيليوس واحد من أقدم ثلاثة كتاب مسرح يونانيين وهم سوفوكليس واوريبيدس. كتب العديد من المسرحيات التي جسدت التاريخ اليوناني ويقدر عددها نحو سبعين مسرحية ولم يصلنا في الوقت الحالي منها سوى سبع مسرحيات. [المترجم]

(••) سوفوكليس (٤٩٧–٤٠٦ قبل الميلاد) واحد من ثلاثة تراجيديين يونانيين قدامى نجت مسرحياتهم. كتب أول مسرحياته بعد إسخيليوس، وفي وقت أسبق من يوربيدس. كان سوفوكليس الكاتب المسرحي الأكثر تكريما في مسابقات الاحتفالات الدينية في لينايا وديونيسيا. تنافس في نحو ٣٠ مسابقة، فاز ربما في ٢٤. فاز إسخيلوس في ١٤ مسابقة، وهزم أحيانا سوفوكليس، في حين فاز يوربيدس في ٤ مسابقات فقط. [المترجم]

(•••) يوربيدس (٤٨٠–٤٠٦ قبل الميلاد) تراجيدي أثينا الكلاسيكية. واحد من القلائل الذين نجت مسرحياتهم مع الآخرين مثل إسخيليوس، وسوفوكليس. نسب بعض العلماء القدماء خمسًا وتسعين مسرحية له. مسرحياته التي نجت أكثر من مسرحيات إسخيليوس وسوفوكليس معا،=

أطلقوا عليه. من المائتي مسرحية التي تُنسَب إليه تم الحفاظ علـــى تـــسع عـــشرة للأجيال القادمة. كان فن يوريبيديس أكثر رصانة من فن أسخيليوس وســـوفوكليس ويقال إنه حتى في أثناء حياته، بينما صوَّر سوفوكليس البشر كما يجب أن يكونوا، يوريبيديس أظهرهم كما هم. امتلاكه القدرة على تحريك الرجال بقوة مـــن خـــلال تصويـــره لهـــم يُظهِر تصويره الشيطاني للعواطف، الذي لم يبرع فيه أحد مثلـــه من قبل.

تطور المسرح الكوميدي الإغريقي من البدايات مثل المـــسرح التراجيـــدي؛ فهو أيضا نما من المسرحيات الاحتفالية القديمة مصحوبا بـــشكل خـــاص بجوقـــة القضبان المعدنية. ولكن مسرح الكوميديا بلغ أعلى تطور له في أثينا لأول مـــرة. هناك كتب "كراتينوس" (*Cratinus*) الذي قيل عنه إنه حتى بيـــريكليس (*Pericles*) أعظم رجال الدولة اليونانيين لم يسلم من ســـخرياته اللاذعـــة؛ ومعـــه "كـــراتس" (*Crates*) و"إيوبوليس" (*Eupolis*) و"فيريكراتيس" (*Pherecrates*) وآخرون الـــذين اختفوا كاملا مع ذلك وراء ظل "أريستوفانيس" (*Aristophanes*)(•)، ذلك "المحبوب المدلل بالنعم". من الأربع والخمسين مسرحية كوميدية لأريستوفانيس بقيـــت فقـــط إحدى عشرة مسرحية، ولكنها تكفي لإعطائنا "صورة للشاعر الذائع الصيت الـــذي عرف كيف يمزج الأفكار". لم تعرف خفة دمه اللاذعة حدودا؛ فقد جلـــد الرجـــال

=ويرجع ذلك جزئيا إلى الصدفة، وبسبب شعبيته بينما تناقصت شعبية الآخرين. في العـــصر الهلنستي، كان حجر الزاوية في الأدب القديم مـــع هـــوميروس وديموســـثينيس وميانـــدر. [المترجم]

(•) أريستوفانيس (٤٤٦-٣٨٦ ق م)، كاتب مسرحي كوميدي من أثينا القديمة. له إحدى عـــشرة مسرحية من ثلاثين باقية كاملة تقريبا. معروف أيضا باسم أبو الكوميديا وأمير الكوميديا. اتهم أفلاطون مسرحيته "الغيوم" بأنها ساهمت في محاكمة وإدانة سقراط رغم أن كتّابًا مـــسرحيين ساخربن آخربن قد انتقدوا سقراط أيضا. مسرحيته الثانية، البابليون، ندد بها الغوغائي كليـــو واعتبرها تشهيرًا ضد مجلس أثينا. لم يتم تسجيل تفاصيل محاكمة لأريستوفانيس. ولكنه قـــال من خلال جوقة الممثلين في إحدى المسرحيات التالية، "في رأيي مؤلف ومخرج المسرحيات الكوميدية لديه أصعب مهنة على الإطلاق." [المترجم]

والمؤسسات بسياط النقد الأكثر جرأة والمنفلت دون احتشام. ورغم كونه محافظا جدا في آرائه فإن سخرياته المُهلِكة لم تتوقف دون الآلهة ولا الأشخاص الرسميين، وظل يهز بنهم قبعة رأسه وأجراسه على أكثر الأشياء قدسية.

فقط لم تكن مصادفة بلوغ الكوميديا والدراما هذا المستوى العالي من الإتقان حينما كانت الديموقراطية الأثينية في كامل ازدهارها. يُظهِر التشخيص غير المقيد تماما للكوميديا في تلك الأوقات، تفهما للحرية الشخصية أفضل كثيرا مما تفعله أجمل التوصيفات في الدساتير الجمهورية. لأن روح عصر ما لا تتحدد بالحروف الميتة لقوانينه ولكن بالأفعال الحية لرجاله التي تعطيه أولا طابعه.

في الأخير لو ألقينا بنظرة موجزة على ما قدمه الإغريق في العمارة والنحت والرسم سوف نستطيع تقدير كامل عظمة وعمق ثقافتهم. يعرف التاريخ العديد من الشعوب التي قدمت أشياء عظيمة جدا في ميادين محددة من الخلق الثقافي؛ ولكن اليونانيين ربما هم الشعب الوحيد الذي كان قادرا على تحقيق الأعلى في كل ميدان من ميادين الثقافة. لقد كانت هذه الحقيقة هي التي أعطت لخلقهم وإبداعاتهم ذلك التوازن الداخلي الذي أثار طوال الألفي سنة الأخيرة بشكل دائم الإعجاب المنبهر بأعظم العقول. يفهم المرء ماذا كان يعني جوته عندما قال عن الفن الإغريقي: "بالنسبة لكل الثقافات يجب أن يسمح المرء بمكرمات؛ بالنسبة للإغريق وحدهم يصبح المرء دائما مديونًا".

بالنسبة للإغريق لم يكن الفن اهتماما فرديا خاصا، ولكنهم تابعوه كما لو كان نوعا من الرياضة، لم يكن سوى نشاط إبداعي نما مصاحبا بشكل حميم لكامل حياتهم الاجتماعية، ودونه لا يستطيعون تصور الوجود. ربما كان الهيلينيون الشعب الوحيد الذي فهم أبدا كيف يصنع فن الحياة ذاتها؛ على الأقل لم يصل إلى علمنا عن شعب آخر تواجدت فيه مثل هذه الصلة الحميمة بالفن مع كل مرحلة من مراحل الحياة الشخصية والاجتماعية بهذا الوضوح وبهذا الظهور المؤثر. مجتمع كالمجتمع الأثيني، الذي أنفق من أجل دعم مسرحه وفن الدراما لديه أكثر مما أنفقه

على الحروب ضد الفرس الذين هددوا كامل الوجود السياسي لهيلاس القديمة، من الصعب تصور ذلك بالنسبة لنا اليوم، في هذا الوقت من بربرية الدولة عندما تمتص البيروقراطية والعسكرية بشكل هائل الجزء الأعظم من الدخول القومية لكل ما يُسمى الشعوب "المتحضرة". ولكنه فقط في مثل هذا المجتمع يستطيع الفن التطور إلى مثل هذه القمة العالية.

وهذا أيضا صحيح في العمارة، الأكثر اجتماعية من كل الفنون، التي يعتمد تطورها بالكامل على فهم أن البشر يقتربون منها بشكل اجتماعي. فقط في بلد حيث يأخذ الفرد بشكل ثابتَ أكثر أنواع الأدوار حيوية في الشأن العام، ويستطيع دائما تتبع تلك الشئون، تستطيع المهارة المعمارية أن تصل لمثل هذا الإتقان. من بين أهل بابل والمصريين والفرس وشعوب العصر القديم الأخرى اقتصرت العمارة كفن على قصور ومقابر الملوك ومعابد الآلهة. نجد بين الإغريق لأول مرة تطبيق العمارة على كل أغراض الحياة العمومية وعلى الاستخدام الشخصي.

إلى جانب أن المعبد اليوناني تنفس روحا مختلفة جدا عن المباني المقدسة للشعوب الشرقية، التي عبرت ضخامتها فاقدة الشكل عن كامل الوزن الساحق والقهري للأنظمة الدينية الكئيبة والعقائد المتحجرة الكهنوتية. هناك تحوم حول الأفكار الدينية الإغريقية البهاء الشاعري لرؤية فرحة للحياة، التي اعتبرت الآلهة أيضا كبشر ومُثقَلين بالأعباء دون عقائد جامدة كارهة للحياة. حكمت حساسية صحية حياة الإغريق ووضعت علامتها حتى على مفاهيمهم للألوهية. انبطح الهيلينيون (***Hellene***)(•) أرضا ومرَّغوا وجوههم في التراب أمام لا إله. فكرة الخطيئة كانت أجنبية تماما عليهم؛ فهم لم يكفروا أبدا بإنسانيتهم. وهكذا أصبحت الثقافة بالنسبة لهم احتفالا دنيويا بفرح الحياة. الأغاني والرقصات والمسرحيات

(•) الهيلينيون أو الإغريق يشكلون مجموعة عرقية في اليونان وقبرص وألبانيا والأناضول وجنوب إيطاليا، وغيرها من المناطق في الشتات الكبير، مع المجتمعات اليونانية التي أنشئت في جميع أنحاء العالم. [المترجم]

الهزلية والمأساوية والمنافسات الرياضية مصحوبة بولائم مرحة حيث النبيذ والحب يعزفان نغمة مميزة. ولم يحدث ذلك خلف جدران المعابد السميكة، ولكن تحت قبة السماء الزرقاء، وسط مظاهر الطبيعة المحبوبة التي أمدتهم بإطار مناسب لهذه الممارسات المرحة. هذا الحس بفرحة الحياة كشف حتما عن نفسه في أعمال الإنسان. رسم "تاين" (***Taine***) تخطيطا لتفرد الإنجازات المعمارية في "هيلاس" بهذه الكلمات:

> **في هذا المبنى لا يوجد شيء طقوسي ولا غريب ولا فني يسبب العذاب؛ إنه مستطيل محاط بصف من الأعمدة؛ ثلاثة أو أربعة أشكال هندسية في الأساس لدعم الجميع، ويصبح التماثل في المخطط ظاهرا من خلال تكرار هذه الأشياء ونقيضها واحدا أمام الآخر. تتويج نهايات الحوائط مع السقف، واللوح المسطح لرأس العمود، وكل الملحقات وجميع التفاصيل توضح بالتساوي الطبيعة الخاصة لكل عنصر وتنوع التلوين يكمل التأكيد على هذه القيم وإيضاحها[٢].**

هذا النوع الخاص من فن المعمار هذا الجمال المرن الرشيق الذي فيه كل خط يذوب في الكل المتألق المنسجم، يوجد في كل أنحاء هيلاس: معبد زيوس (***Zeus***) في الأوليمب (***Olympia***) ومعبد أبوللو (***Apollo***) في "فيجاليا" (***Phigalia***) وفي "ثيسيوس" (***Theseus***) في البارثينون (***Parthenon***) ومن معمار مداخل المعابد (***propylea***) في الأكروبوليس (***Acropolis***) إلى الأعمال الرائعة "لإكتينوس" (***Ictinus***) و"كاليقراطس" (***Kallicrates***) والكثير من المعلمين الآخرين.

لم ينتشر فن بين الهيلينيين مثل النحت. في الواقع إنه يتفوق على كل شيء قد صنعته الشعوب في هذا الميدان، ويخطف ألبابنا بشكل ثابت بغزارته المذهلة في مخلوقاته. في زمن الغزو الروماني، دمر الجنرالات الرومان الكنوز الفنية عند الإغريق إلى مدى لم يُسمَع به من قبل. بل إن التقارير حتى تسرد أنه قد أقيم في روما وجوارها ما يزيد على ستين ألف تمثال يوناني. إلا أنه ورغم ذلك فقد

استطاع "باوسانياس" (***Pausanias***) الذي عاش في القرن الثاني بعد المسيح في زمن الأباطرة الرومان "هادريان" (***Hadrian***) و"أنطونيوس التقي" (***Antoninus*** Pius) و"ماركوس أورليوس" (***Marcus Aurelius***)، القول بعد رحلته العظيمة عبر هيلاس إن جميع البلد من الساحل إلى الساحل كانت مثل متحف عظيم للفن.

طبقا "لوينكلمان" (***Winckelmann***) يتحدث "باوسانياس" عن عشرين ألف تمثال رآهما بنفسه.[٣] من هذه الأرقام يستطيع المرء تكوين تقدير تقريبي للوفرة السخية من النحت الإغريقي وتوزيعه الواسع. العناية بالجسد العاري أصبح بالنسبة للإغريق عبادة عادية. الألعاب العامة والمنافسات الرياضية كانت جزءًا من كل احتفال ومنحت لعين الفنان الجسد الإنساني في كل وضع متصور، مما أعطى أبدا إلهاما جديدا لممارسة قدراته الإبداعية.

وهكذا مع المعلمين الأفراد تطورت في مراكز مثل أثينا وكورينث (***Corinth***) وآرجوس (***Argos***) وسيقيون (***Sicyon***)، مدارس كاملة للنحت. وأي جحافل من عظام الفنانين نجدها هنا. اشتهر "آجيلاديس" (***Agelades***) الذي كان يعمل في آرجوس كمعلم لثلاثة من المعلمين العظام، "فيدياس" (***Phidias***) و"مايرون" (***Myron***) و"بوليكليتوس" (***Polycletus***). فيدياس معروف كمبدع لتمثال زيوس الذي يبلغ ارتفاعه أربعين قدما في معبده في الأوليمب. أيضا التمثال البرونزي الهائل الحجم "لبروماخوس" أثينا في الأكروبوليس، الذي من الممكن رؤيته من على بعد بواسطة البحارة من البحر، كان أحد أعماله. نستطيع تكوين فكرة قاصرة فقط عن تمثال فيدياس الهائل لأثينا في البارثينون، لأنه مثل العديد من التماثيل الأخرى في تلك الفترة قد اختفى بالكامل. لاحقا تطورت هناك مدرسة الأتيك (***Attic***) الجديدة التي بلغت أعلى قدراتها في أعمال "سكوباس" (***Scopas***) من "باروس" (***Paros***) وفوق الجميع، أعمال براكسيتيليس (***Praxiteles***) من أثينا. يعطينا تمثال هيرميس (***Hermes***) المكتشف حديثا في شمال معبد الأوليمب فكرة عن الفن المتقن لبراكسيتيليس. والنحاتون العظام "إيوفرانور" (***Euphranor***) من

كورينث و"ليسبوس" (*Lysippos*) من سيقيون لا يجب إغفال ذكرهما. من المئـــات على مئات من المعلمين الأقل شهرة الذين لا نعرف عادة أسماءهم أبدا.

بالطبع قلة أقل كثيرا من أعمال الرسامين الإغريق هي التي بقيَــت. نجمـــع معلومات من روايات القدماء عن تواجد عدد عظيم من مدارس الرسم المـــشهورة في كل جزء من البلاد مثل المدرسة الأيونية (*Ionic school*) للرسامين في آســـيا الصغرى، خصوصـا في "إفسوس" (*Ephesus*) – حيث عمل "زيوكسيس" (*Zeuxis*) و"فاراسيوس" (*Parrhasius*) – ومدارس سيقيون و"بائيستوم" (*Paestum*) وهكذا. يدور الحديث عادة عن "بوليجنوتـــوس" (*Polygnotus*) مـــن جزيـــرة "تاســـوس" (*Thasos*) كأول رسام يحمل أهمية مرموقة، ولكن "أبيليس" (*Apelles*) أنتج أعظـــم الأعمال في ميدان الرسم، حيث تمتلئ كتب القدماء بمديحه.

وجد فن الإغريق تعبيرا عنه في كل أشياء الاستخدام اليومي، فلقـــد اكتـــسح هذا الفن مثل إلهاما مُجدِّدا لكل ظاهرة في الحياة العامة والخاصة، وهو ما نستطيع رؤيته في آنية الزهور التي لا حصر لها برســـوماتها الـــساحرة ومـــن الأحجـــار الكريمة والنقوش والجواهر الثمينة المرصعة من أكثر الأنواع المتعددة التي تثيـــر إعجابنا الشديد. من الصعب المبالغة في تقدير العظمة المدهشة وتعـــدد الجوانـــب اللانهائية لهذا الشعب، حتى رغم أن المرء لا يغيب عن ناظريه الجانـــب الأســـود لديهم، ويعطيه ما يستحقه من وزن كامل. لم يكن هناك شعب آخر فـــي التـــاريخ القديم بقادر على بذل مثل قوة الجذب هذه على أعظم العقول فـــي كـــل الأزمنـــة اللاحقة. خرج عدد لا حصر له من الكتب بكل لغة حول كل فـــرع مـــن فـــروع نشاطهم الإبداعي الغني بل وحتى من الصعب أن يمر عام لا يُسلَّط فيـــه الـــضوء على مادة هامة وجديدة تتعلق بثقافة هيلاس القديمة.

إذا ما التفت المرء لملاحظة ماذا كان عليه الوضع بين الإغريق فيما يتعلـــق بتلك الوحدة السياسية والقومية التي يؤكدون على عدم الاستغناء عنها كشرط أولي لتطور أي نوع من الثقافة وسط شعب ما، يأتي المرء إلى استنتاجات مدمرة تمامـــا لهذه الرؤية. لم تعرف هيلاس القديمة أبدا ماذا كانت تعنيه الوحدة القوميـــة، ومـــن

وقتها ونحو نهاية تاريخها تم فرض الوحدة القومية السياسية بالقوة عليها من خارجها، وكانت نهاية الثقافة الإغريقية التي كان عليها منذ ذلك الحين أن تجد بيتا آخر لها لتمارس أنشطتها الإبداعية فيه. ببساطة لم تستطع الروح الإغريقية الصمود أمام التجربة القومية السياسية وأخذت تنطفئ تدريجيا في البلاد التي تدفقت فيها قوتها بأقصى شدة لمدة قرون.

الذي وحد القبائل والشعوب اليونانية كان هو ثقافتهم المشتركة والتي كشفت عن نفسها في آلاف فوق آلاف من الأشكال المختلفة – وليست رابطة منسوجة بشكل مصطنع للاجتماع القومي السياسي، لم يشعر يوناني واحد نحوها بأي اهتمام أو مصلحة، وظل جوهرها غريبا دائما على الهيلينيين؛ كانت اليونان بشكل سياسي أكثر بلد ممزق الأوصال على وجه الأرض. تعطي كل مدينة عناية فائقة خشية الاعتداء على استقلالها السياسي، ولذلك لا يخطر على بال حتى أصغر مدنهم فكرة الاستسلام. كان لكل جمهورية مدينة من تلك الجمهوريات الصغيرة دستورها الخاص وحياتها الاجتماعية الخاصة بتفردها الثقافي الخاص وذلك هو ما أعطى الحياة الهيلينية ككل ثروتها المتنوعة من القيم الثقافية الخاصة. عن حق قال "ألبرشت ويرث": "إنجازات الإغريق تُبهِرنا أكثر كلما كانوا كشعب ممزقين ومنقسمين أكثر. لم ينجح أحد أبدا في توحيد لانهائيتهم كقبائل مختلفة من أجل أي عمل جماعي، وجمعهم خلف أي رأي مفرد واحد... فهم كلهم دائما يعطون قيمة عالية لعضويتهم في زمرة ناسهم هم، ولكنهم لا يمتلكون قوة كافية للتضحية ولا شعورا سياسيا كافيا للحمهم في كل كبير واحد يُخضِعون له طموحاتهم المنفصلة" (٤).

ولكنه بالضبط هذا الافتقار للشعور السياسي الذي أسرع بالنشاط الثقافي لليونانيين، نعم، هو أول من جعلهم روحيا يمتلكون حساسية له. عندما كان أرسطو يعمل على جمع مادة عمله عن الدساتير الهيلينية اكتشف نفسه تحت إلحاح ضرورة مد جهده لتغطية مائة وثمانية وخمسين مجلسا بلديا، كل منها يقدم كيانا سياسيا في

حد ذاته وبسبب استقلال كل منها ذاتيا فقد امتلك كلٌ منهـا خـصائص اجتماعيـة متفردة. حتى طبوغرافيا شبه الجزيرة كانت مواتية بشدة لمثل هـذا التطـور مـن الحياة الاجتماعية. فالأرض جبلية في أجزاء منها وتتمتع بطقس معتـدل ولطيـف ترك دون شك أثرا قويا على عقول وأرواح السكان. تقطع الأودية الحبيبة والمثمرة عابرة المشهد الطبيعي للأرض في كل اتجـاه، ويختـرق البحـر بعمـق الأرض خالقا خلجانا لا حصر لعددها ويوفر من ثلاثة جوانب أعجب السواحل التـي مـن الممكن تخيُّلها. أضف إلى هذا جمهرة من الجزر الصغيرة والكبيرة تـصل شـبه الجزيرة بآسيا الصغرى تقريبا مثل جسر. كامل هذا المشهد الطبيعي الغنـي كـان متنوعا بشكل غير معتاد ولا يمكنه سوى إلهام الرجال بالتأملات التي لـن تتـوافر لهم في أي مكان آخر. كل جزء من البلاد له شخصيته المنفردة التي تساعد علـى إعطاء طابع محدد لأنشطة سكانه. وهكذا نهض وتعزز ذلك التنوع الغنـي للحيـاة الاجتماعية والفكرية المميزة جدا لهيلاس القديمة.

يتضح لنا اليوم أكثر فأكثر بشكل ثابت أن اليونانيين لا هم شـعب منـسجم ولا جنس نقي. يشير كل شيء بدلا إلى أن علينا التعامل هنا مع مزيج سعيد بشكل استثنائي ما بين أناس وعناصر عرقية مختلفين انصهروا في وحدة روحية بواسطة ثقافة مشتركة. التأكيد على أن الهيلينيين هم شعب من الجنس الجرماني غزا شـبه الجزيرة وأخضع تدريجيا السكان المقيمين هو تأكيد بهذا الشكل الكاسح لا يُبـرهِن عليه دليل قابل للفهم. وكلما جاهد البحث العلمي لاختراق الحجب التي مـا زالـت تغطي التاريخ البدائي لليونان جلب إلى الضوء حقائق تـشير إلـى عكـس ذلـك بالضبط. إن شبه الجزيرة قد عانى من غزوات متعددة من القبائل الأجنبيـة التـي ضغطت عليه من الشمال هو أمر ليس محل نقاش. ولكننا لا نزال بعيدين عن فهم واضح للانتماء العرقِي لهذه القبائل التي فقدت أصولها بالكامل في غيـوم التـاريخ غير المسجل. وقعت مثل هذه الغزوات في حقب ما قبل التاريخ واحتفظت بأقـسام واسعة من البلاد تختمر بشكل ثابت كما تعلمنا تقاليد اليونانيين أنفسهم. بواسطة هذه الهجرات السكانية والصدامات المستمرة طُرِد سكان بأكملهم من مواطنهم وهربـوا

إلى جزر بحر إيجة أو إلى ساحل آسيا الصغرى. أعظم هذه الهجرات هي هجرة الدوريين (*Dorians*) التي يُعتقَد أنها قد وقعت قبل زماننا بنحو ألف ومائة عام والتي أدت إلى نشوء التغييرات الكبيرة في الحياة الاجتماعية للبلاد.

ولكن الهجرات التي أتت من الشمال لم تكن الوحيدة بالتأكيد، فهناك كثير من الأسس للاعتقاد بأن القبائل الآسيوية قد شقت قبل هذه الغزوات بزمن طويل طريقها بالقوة إلى داخل موطن الهيلينيين المستقبلي. توجد آثار متعددة للتأثير الآسيوي في الأساطير اليونانية القديمة وبشكل شديد التأكيد، بينما تمثل أسماء عديد من المدن والمناطق المحلية شهادات على ذلك. إلى أي مدى امتد التأثير السامي للفينيقيين على الأراضي اليونانية الأم فذلك أمر لم يتحدد بعد؛ وأن هذا التأثير قد لا يكون تأثيرا صغيرا كما تُظهره حقيقة أن عددًا كبيرًا من الجزر اليونانية القح مثل جزر "سيقلادس" (*Cyclades*) و"سبورادس" (*Sporades*) و"رودس" (*Rhodes*) و"قبرص" (*Cyprus*) و"كريت" (*Crete*) كانت مستعمرات فينيقية قبل وجود المجتمع الإغريقي بزمن طويل. الشعب الكاري (*Carian*) في آسيا الصغرى قد خلّف أيضا آثارا متميزة في اليونان. فقط منهم نستطيع أن نشتق أسماء قلعة كاريا (*Karia*) في "ميجارا" (*Megara*) و اسم الملك الأسطوري "كار" (*Kar*) ملك الدوريين، و"الآيوليين" (*Aeolians*) و"الآيونيين" (*Ionians*) الذين يُنظَر إليهم باعتبارهم ثلاثة خطوط رئيسية في شعب اليونان، بينما يبدو الآيونيون الذين هم الأعلى موهبة، وثقافيا الأكثر تقدما من الجميع أنهم أقل مَن يسري فيهم الدم الهيليني.

ذكر عدد كبير من المؤرخين المشهورين الاختلاط المكثف ما بين الآيونيين مع الشعوب السامية والشرقية. "إرنست كيرتيوس" (*Curtius Ernst*) – وآخرون معه – قد حددوا حتى آسيا الصغرى موطنا أصليا للآيونيين. لدعم هذه الرؤية أصر كيرتيوس بشكل أساسي على أنه فقط في آسيا الصغرى يصبح ممكنا تأسيس وجود تاريخي لبلد آيوني. بالطبع لا يبرهن ذلك على أن الآيونيين قد بدأوا من

هناك فعلا. ربما مجرد أنهم قد كانوا مجرد عابرين داخل آسيا الصغرى وأسسوا مستوطنات هناك.(٥) أشار هيرودوت (***Herodotus***) أيضا في أماكن متعددة إلى أصل غير هيليني للآيونيين خصوصا من الأثينيين وحددهم كمنحدرين من "البلاسجيين" (***Pelasgians***) الذين تبنوا لاحقا اللغة اليونانية.

من كل هذا تظهر حقيقة واحدة بوضوح، أن اليونانيين لم يقدموا وحدة سياسية-قومية خاصة ولا عرقًا واحدًا ولا منحدرًا واحدًا وأن كل التأكيدات من الناحية الأخرى تستقر على تكهنات غامضة ومفاهيم تمنٍ غير محددة. وفي توافق تام مع استنتاجاتنا المبكرة تواجدت الوحدة فقط في الثقافة اليونانية التي انتشرت من الساحل الغربي لآسيا الصغرى وجزر بحر إيجة إلى صقلية وجنوب إيطاليا. كما يجب إضافة مستوطنات منفصلة في منطقة القرم (***Crimea***) على الشواطئ الشرقية للبحر الأسود وعند مصب نهر الرون (***Rhone***) إلى ذلك.

لذا يجب وجود أسباب أخرى عززت من نمو ثقافة رائعة مدهشة الغنى مثل الثقافة الهيلينية. ونشعر أننا لم نضل الطريق عندما نرى لهذا الحد البعيد أن السبب الأكثر أهمية والأكثر حسما من تلك الأسباب في الانفصالية السياسية والتنوع القومي للبلاد. لقد كانت تلك اللامركزية الصحية وهذا الانفصال الداخلي لليونان إلى مئات المجتمعات المحلية الصغيرة التي لا تحتمل أي تنميط والتي أثارت بشكل دائم العقل لأخذ مواضيع جديدة في الاعتبار. كل هيكل سياسي أكبر يؤدي حتما لنوع من التصلب في الحياة الثقافية ويدمر ذلك التنافس المثمر بين المجتمعات المنفصلة التي ميزت كامل حياة المدن اليونانية بشكل كبير. يلتقط "تاين" هذه الحالة السياسية بوضوح شديد في هيلاس القديمة:

> **"تبدو الدولة الإغريقية للعيون المعاصرة مثل رسم مُصغَّر. تمتلك "أرجوليس" (*Argolis*) طولا يبلغ من أربعين إلى خمسين ميلا وعرضًا من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلا؛ "لاكونيا" (*Laconia*) كانت في نفس الحجم تقريبا. "أكايا" (*Achaia*) هي شريط ضيق من**

الأرض على جوانب جبلية تنحدر نحو البحر. كل منطقة "أتيكا" (*Attica*) لا تساوي نصف محافظة من أصغر أقسامنا الإدارية [في فرنسا]؛ ومنطقة "كورينث" و"صيقيون" و"ميجارا" تمتد لمسافة رحلة تستغرق ساعة واحدة؛ في العموم وفوق كل شيء في الجزر وفي المستوطنات كانت الدولة مجرد مدينة على الساحل بدائرة من المزارع حولها. ينظر المرء من القلعة أو المعبد على رأس أحد التلال (*acropolis*) إلى القلعة المقابلة أو الجبل المقابل لمدينة أخرى. في مثل هذا المحيط الضيق كل شيء واضح وسهل الفهم؛ لا تمتلك أرض الآباء الفكرية شيئا له علاقة بالضخامة، ولا المجرد ولا اللا محدد، كما هو الأمر معنا؛ يستطيع العقل أن يحيط به، فهو مميز بأرض الآباء المادية؛ كلاهما محدد في عقل المواطن بحدود واضحة. حتى تتخيل أثينا أو كورينث أو أرجوس أو إسبرطة فهو يفكر في دروب الوادي أو في حدود مدينته. هو متعارف مع كل مواطنيها بالضبط كما يستطيع رسم كل حدودها وضيق حافظته السياسية يشبه شكل حافظته الدنيوية، تزوده مقدما بذلك النمط المحدود والمتوسط الذي سوف تتشكل فيه كل مفاهيمه الفكرية"(٦).

هذه الكلمات تكشف لنا كامل طبيعة المدينة اليونانية. في مثل هذه الدولة المُصغَّرة حب الإنسان لموطنه يميز نفسه بالكامل بواسطة حبه لمجتمعه المحلي. يبقى الموطن وأرض الآباء شيئا واحدا وهما نفس الشيء ولا يشتركان في شيء مع الفكرة الحديثة المجردة عن أرض الآباء. لذلك، ما تُسمى "الفكرة القومية" دائما ما كانت غريبة بالكامل على اليونانيين وحتى في أكثر الأزمنة التي واجهوا فيها المخاطر لم تستطع هذه الفكرة أن تضرب بجذورها بينهم. لا يجد المرء في هوميروس أدنى أثر للزمالة الوطنية، ولا يوجد شيء يُظهِر أن الفكرة الوطنية كانت جذابة بالكثير للإغريق في قمة ازدهار ثقافتهم.

لقد كان مجرد الوعي بالانتماء إلى ثقافة مشتركة هو الذي ربط المدن اليونانية معا. وكان هو السبب وراء اكتساب استعمار اليونانيين طبيعة أخرى تماما غير تلك التي كانت مع كل الشعوب في الزمن القديم. رأى الفينيقيون في مستعمراتهم أوليا شركاء تجاريين. بالنسبة للرومان لعبت المستعمرات دورا في المناطق الخاضعة التي كان يتم نزح ثرواتها اقتصاديا بواسطة البلد الأم، وكانت بالكلية معتمدة على الدولة الرومانية. لم يكن الأمر هكذا مع الإغريق. لقد أسسوا مستعمراتهم بنفس الفكرة التي أسسوا عليها مدنهم في أرض الوطن الأقرب - كمنظمات مستقلة ترتبط فعليا مع البلد الأم بنفس الثقافة ولكن من ناحية أخرى تشعر في نفسها بضربات نبضها الخاصة بحياتهم المنفصلة. أكثر من ذلك كان للمستعمرة دستورها الخاص وكانت بؤرة في حد ذاتها تتنافس مع المدن الأخرى في أرض بلادها من أجل تطوير مستقل لحياتها الثقافية الخاصة.

وحيث إن المجلس البلدي الإغريقي لا يمتد نطاقه سوى إلى بضعة أميال مربعة فقد كان كل مواطن قادرا بسهولة على متابعة الحياة العامة بأكملها وعلى تكوين حُكم خاص به في كل شيء - وهو ظرف ذو أهمية كبيرة - وهو الأمر الذي لا يمكن تصوره في منظمة دولتنا الحديثة مع التفريعات الواسعة لماكينتها الحكومية والحركة المعقدة لتروس مؤسساتها البيروقراطية. ومن هنا العجز المُحيِّر لمواطن الدولة الحديثة، وتقييمه المُبالَغ فيه للبيانات الحكومية وللقيادة السياسية، التي تحرمه من كل مبادرة شخصية. وحيث إنه بالطبع ليس في موقف يُمكِّنه من متابعة كل ميادين نشاطها وسياستها الداخلية والخارجية، وهو من الناحية الأخرى مقتنع تمام الاقتناع بالثبات الذي لا يتبدل لكل هذه الوظائف واعتقاده بأنه سوف يغرق في رمال متحركة لا قاع لها إذا ما اختل التوازن السياسي على الإطلاق، وشعوره بعدم أهمية شخصيته نفسها، وأصبحت اعتماديته على الدولة أكثر قوة واعتقاده في الضرورة المطلقة للسلطة السياسية - التي هي اليوم تقبع في أعماق الإنسان بصورة أعمق من إيمانه بسلطة الله - ما زالت عميقة. وهكذا في أحسن الأحوال، هو يحلم فقط بتغيير الأشخاص في رأس الدولة ولا يتفهم أن كلِ نواحي

عدم الكفاءة والشرور المتعلقة بالماكينة السياسية التي تضطهده بشكل ثابت تعتمد على الوجود نفسه للدولة ذاتها ومن هنا دائما ما يتكرر وقوع المشاكل في أي شكل من أشكالها المتنوعة التي قد تتخذها.

الأمر ليس كذلك مع اليوناني القديم. فهو يستطيع بسهولة أكبر أن يحصل على رؤية للعمل الداخلي في مدينته (*spoli*) حيث يحتل موقعا أفضل لإصدار حُكْم على مسلك قياداته؛ لأنه يضع إنسانيتهم الراسخة نصب عينيه دائما وأكثر اهتماما بشئونه الخاصة لأن لياقته الفكرية لا يعرقلها إيمان أعمى بالسلطة. لم نرَ بلدا يتعرض كبارها لحكم الرأي العام مثلما كانت اليونان في وقت أوج تطورها الثقافي. حتى أعظم موهبة لا يمكن إنكارها لم تكتسب حماية في هذا المقام. كان على رجال في مكانة "ميلتيادس" (***Miltiades***)(•) و"ثيمستوكليس" (***Themistocles***)(••) المرور بهذه التجربة في أشخاصهم أنفسهم. بهذه الطريقة

(•) ميليتيادس الأصغر (٥٥٠-٤٨٩ قبل الميلاد)، ابن قيمون كوليموس، وهو متسابق عربات مشهور في الألعاب الأولمبية. وكمواطن أثيني يعتبر نفسه سليل الايجيين المنحدرين من زيوس، وكذلك عضو في عشيرة الفيليد البارزة. شهرته تعود لدوره في معركة ماراثون، فضلا عن سقوطه المأساوي بعد ذلك والحكم عليه بالخيانة والغرامة والموت في سجنه نتيجة جرح أصيب به في المعارك. [المترجم]

(••) ثميستوكليس (٥٢٤-٤٥٩ قبل الميلاد) سياسي أثيني من أصل غير أرستقراطي برز على الساحة في السنوات الأولى من الديمقراطية الأثينية. كان ثميستوكليس شعوبيا مدعوما من الطبقة الدنيا الأثينية، وعادة في خلاف مع نبلاء أثينا. أثناء الغزو الفارسي الأول لليونان، قاتل في معركة ماراثون، وربما كان واحدا من الجنرالات العشرة في تلك المعركة. وفي السنوات التي تلت ماراثون، وحتى الغزو الفارسي الثاني، أصبح أبرز السياسيين في أثينا. خلال الغزو الثاني، أصبح قيادة فعالة لسلاح البحرية اليونانية في معارك أرتمسيوم وسلاميس. انتهى الغزو في العام التالي بهزيمة الفرس في معركة برية في بلتا. بعد انتهاء الصراع، واصل ثميستوكليس بروزه بين السياسيين الأثينيين. ومع ذلك، أثار عداء إسبرطة وبدأ حياة العجرفة منفرا الأثينيين منه. في ٤٧٢ أو ٤٧١ قبل الميلاد، فر إلى المنفى في أرغوس. انتهزت إسبرطة الفرصة لتدميره وورطته في مؤامرة خيانة مع جنرالهم بوسانياس. وهكذا هرب ثميستوكليس من اليونان، وأعطاه الإسكندر الأول المقدوني ملاذا مؤقتا قبل السفر إلى آسيا الصغرى، حيث دخل في خدمة الملك الفارسي أرتحشستا الأول. وعاش هناك بقية حياته. [المترجم]

احتفظت الحياة العامة في اليونان دائما بالسيولة، ولم يستطع أحد إبقاء نظام الأمور ثابتا لوقت طويل. وهكذا كانت الحرية الشخصية أفضل ضمانة لتطوير إمكانيات الفرد ولم تُستنفَد مبادرته ذاتها في الأشكال الميتة لسلطة الدولة المركزية. في هذه الحالة من الحرية الفكرية أسست تلك الثقافة الفخمة هذا التطور القوي الذي لا يمكن بغير ذلك تفسيره. يذكر السير "فرانسيس جالتون" (***Fransis Galton***) عن حق أن أثينا أنتجت وحدها، وهي أهم الجمهوريات-المدن الإغريقية والجمهورية-المدينة حيث كانت الحرية الروحية في أقصاها كموطن، في مجرى قرن واحد من عام ٥٣٠ إلى ٤٣٠ قبل الميلاد، أنتجت ما لا يقل عن عشرة من أكثر الرجال عظمة في التاريخ اليوناني كله وهم بالاسم: ميلتيادس، ثيمستوكليس و"اريستيديس" (***Aristides***)(•) و"قيمون" (***Cimon***) و"بيركليس" (***Pericles***)(••) و"ثيوقديديس" (***Thucydides***)(•••) وسقراط و"زينوفون" (***Xenophon***) وأفلاطون وأسخيليوس

(•) أريستيد (٥٣٠-٤٦٨ قبل الميلاد) رجل دولة في أثينا القديمة. ملقب بالعادل. ازدهرت سيرته في الربع الأول للفترة الكلاسيكية في أثينا وتذكر براعته في الحرب الفارسية. شهد هيرودوت بأنه "أفضل وأشرف رجل في أثينا"، وتلقى نفس الاحترام في حوارات سقراط التي كتبها أفلاطون. [المترجم]

(••) بريكليس (٤٩٥-٤٢٩ قبل الميلاد) أبرز وأقوى رجال الدولة في اليونان، خطيب أثينا خلال العصر الذهبي بين الحروب الفارسية والبيلوبونيسية. حول بريكليس أثينا إلى إمبراطورية، وقاد بلاده خلال العامين الأولين من الحرب البيلوبونيسية. رعى بريكليس الفنون والآداب. بدأ مشروعا طموحا لإنشاء معظم الأبنية الحالية في الأكروبوليس (بما في ذلك البارثينون). هذا المشروع وفر الحماية للمدينة وتجميلها، وأعطى فرص العمل للشعب. كما عزز بريكليس الديمقراطية الأثينية لدرجة أن النقاد يطلقون عليه سياسي شعبوي. [المترجم]

(•••) ثيوقيديس (٤٦٠-٤٠٠ قبل الميلاد) مؤرخ أثيني، وفيلسوف سياسي وعام. أطلق عليه أبو "التاريخ العلمي" بسبب وضعه معايير صارمة لجمع الأدلة وتحليل السبب والنتيجة دون الإشارة إلى تدخل الآلهة. كما يلقب بأبى مدْرسة الواقعية السياسية التي ترى أن السلوك السياسي للأفراد والنتائج اللاحقة للعلاقات بين الدول تحدث في نهاية المطاف بناء على مشاعر الخوف والمصلحة الذاتية. ما زالت نصوصه تدرس في كل الجامعات والكليات العسكرية المتقدمة في جميع أنحاء العالم. ما زالت خطبته في جنازة بريكليس تدرس على نطاق واسع في النظرية السياسية، والتاريخ، والدراسات الكلاسيكية. بشكل أعم، أظهر=

وسوفوكليس ويوريبيديس واريستوفانيس وفيدياس. أضاف العلامة الإنجليزي أن فلورنسا فقط قد طورت في ظل نفس الظروف ثقافة بهذا الغنى حتى ولو كانت من نوع آخر ومن الممكن مقارنتها بأثينا في هذا المقام(٧).

بلغت هذه الروح من النشاط الإبداعي حالتها العالية من الإتقان في كل مدينة يونانية باستثناء إسبرطة (*Sparta*)، التي لم تحرر نفسها أبدا من هيمنة الأرستقراطية بينما كل المدن الأخرى قد شقت طريقها إلى الديموقراطية. لذا لعبت فكرة السيادة السياسية في إسبرطة دورا حاسما خضع له كل شيء آخر. حقا ليس من الممكن إنكار تلك السيادة في البلاد كلها ولكن ذلك يبرهن فقط على أن كل شكل من أشكال الدولة يقف عائقا في طريق الثقافة بل وحتى عندما تصبح سلطتها محدودة جدا هكذا. ولكن الانفصالية السياسية والقومية الكاملة في اليونان سلبت القوة من محاولات امتداد السلطة تلك، والتي حتى عندما صادفت نجاحا عابرا فقد كان ذلك لحظيا ولم تبلغ أبدا وضع نظام سياسي ثابت مثلما تحقق مع كل الدول الكبرى. منذ سنوات مضت أدرك نيتشه التعارض الداخلي بين الطبقات والثقافة ووصَّف الصلة الضرورية المزعومة بينهما كوهم من الأوهام(٨).

ليس فقط، لم تعرف اليونان دولة قومية موحدة؛ بل هي لم تتعلم أبدا الاعتراف بتسلسل هرمي كهنوتي مثل ذلك الذي قام عند البابليين أو المصريين أو الفرس، والذي على منواله كنموذج أولي تشكلت البابوية. وحيث إنه لم تكن هناك كنيسة، فلم يكن هناك أيضا علم لاهوت ولا تعليم شفهي ديني. دين الهيلينيين كان هيكلا هوائيا، نصيب الشعراء في بنائه كان أعظم كثيرا من نصيب الكهنة. لم تدعم المفاهيم الدينية عقائد متحجرة لطائفة لاهوتية ونادرا ما شكلت عائقا أمام حرية التفكير. فكَّر الإغريقي في آلهته بشكل مختلف عن معظم الشعوب الشرقية الأخرى. لقد ألبسهم كل صفات العظمة الإنسانية والضعف الإنساني، ولذلك

=ثيوقديدس اهتماما في تطوير فهم للطبيعة البشرية في سلوكها أثناء أزمات مثل وباء الطاعون والمجازر والحرب الأهلية. [المترجم]

واجههم بتلك البساطة النادرة التي أعطت لمفاهيمه الدينية نبرة عجيبة لا تجدها بين شعوب العالم القديم الأخرى. وهذا هو أيضا السبب وراء بقاء فكرة الخطيئة الوراثية دائما غريبة على الهيلينيين. كان "شيلر" مُحِقا تماما عندما قال إنه في الوقت الذي كانت تُعتبَر آلهة اليونان بشرا كان على الإنسان أن يشعر بنفسه إلهًا. كل "الأوليمبس" (***Olympus***)(•) إذا جاز لنا الكلام كان نسخة صادقة من الحياة الثقافية الهيلينية بانفصاليتها السياسية الداخلية وتعدد ألوانها القوي وقوتها البناءة وتنافسها الدائم وإنسانيتها المطلقة وغاياتها الإنسانية. في هيلاس أيضا عكس الإنسان صورة الآلهة في مرآته. فقط عندما ينظر المرء بوضوح إلى أي تأثير معوِّق مارسته الكنيسة المسيحية لقرون على الحياة الثقافية لأوروبا وقدَّر دعمها لكل استبداد وبقاءها لليوم المعقل المنيع لكل رجعية فكرية واجتماعية ألا يفهم المرء حينها أي هوة سحيقة تفغر فاها بين التجربتين الإغريقية والعقائد المتحجرة الميتة والمكبلة للروح عند الكنيسة المسيحية(٩).

هناك فترات قليلة من التاريخ تتوفر فيها شروط ضرورية لانطلاق ثقافة عظيمة بمثل هذه الوفرة كما حدث في هيلاس القديمة. ما قد يبدو لرجل الدولة الحديث كعيب عظيم في العالم الهيليني وهو الانقسامية السياسية البالغة للبلاد، كانت هي أعظم نعمة للتطور الثري والمنطلق لقوتها الثقافية. كم كان ظهور الشعور بالوحدة الوطنية بين الإغريق بأكثر أشكاله وضوحا قليل القدر إبان الحروب الفارسية. ولو كان هناك أبدا وقت لحسابه من أجل إيقاظ الوعي القومي بين القبائل الإغريقية فقد كان هذا هو الوقت، عندما أعد الاستبداد الفارسي نفسه

(•) أوليمبوس في الأساطير اليونانية هو اسم بيت آلهة الأوليمب الاثني عشر، يوجد على قمة ميتيكاس. في الدين والأساطير اليونانية القديمة الآلهة الرئيسية اليونانية هم عادة زيوس، هيرا، بوسيدون، ديميتر، أثينا، أبولو، أرتميس، آريس، أفروديت، هيفايستوس، هيرميس، وإما هيستيا، أو ديونيسوس. بيرسيفوني يُدرَج أحيانا كواحد من الاثني عشر إلها، إلا أنهم يستبعدونه لأنه يقيم بشكل دائم في عالم الجريمة السفلي ولم يقم بزيارة أوليمبوس أبدا. [المترجم]

لوضع نهاية لحرية واستقلال المدن اليونانية. الخطر الذي هدد الهيلينيين حينها كان عظيما بالتساوي للجميع. لم يكن ليستطيع أحد أن يمتلك أضعف الأوهام حول ذلك؛ عرف كل فرد ماذا يعنيه انتصار الفرس بالنسبة للمجتمع الإغريقي. ولكنه بالضبط في وقت هذا الخطر الأعظم أن أصبح التفكك السياسي للهيلينيين ملحوظا بأقصى شدة.

فعليا وقت حملة "هارباجون" (***Harpagon***) المنتصرة، بناء على أوامر من الملك الفارسي "قورش"، التي أتت بمعظم المدن الإغريقية في آسيا الصغرى تحت الهيمنة الفارسية (٥٤٦-٥٤٥ قبل الميلاد) وفيما بعد وقت التمرد الأيوني (٤٩٩-٤٩٤ قبل الميلاد) هما حادثتان على درجة بعيدة المدى من الأهمية، واللتان يمكن اعتبارهما مقدمة للحروب الفارسية اللاحقة، واللتان أظهرتا بشكل لا يقبل الخطأ النقص التام لأي جهد قومي موحد بين الإغريق، بل إن مقاومة موحدة ضد الفرس ليس لها أن تحدث أبدا. "ميليتوس" (***Miletus***) المدينة التي تعرضت للعقاب القاسي عند قمع التمرد الأيوني، بمناسبة حملة هارباجون العسكرية، تركت المدن الأخرى في وضع حرج للتفاوض مع الفرس حول سلام مناسب. فقط قلة من المدن شنت الحرب إلى نهاياتها المرَّة. معظم المدن عندما شاهدت أن أي مقاومة للفرس لن تكون ذات جدوى، فضلت هجر تراب أرضها القديمة والارتحال لاكتشاف أرض جديدة لهم على مسافة أبعد. رفض الإسبرطيون تقديم أي عون مهما يكن للمدن الإغريقية المتمردة في آسيا الصغرى - وهو ما لا يمكن ببساطة مواءمته مع أي شعور قومي متطور بشكل قوي. دعم الأثينيون التمرد الأيوني، بشكل رئيسي لأن "هيبياس" (***Hippias***) الطاغية الذي كانوا قد طردوه إلى المنفى، قد وجد ملجأ له في البلاط الفارسي ومن هناك أخذ يحرض عصبة منشقين ضد مدينته الأصلية. هؤلاء الملوك الصغار الذين قبل إدخال الشكل الجمهوري للدولة قد ثبتوا أنفسهم تقريبا في كل مدينة إغريقية، ولم يسمحوا لأنفسهم بالوقوع تحت سيطرة أي اعتبارات قومية وكانوا جاهزين دائما لأداء أكثر الخدمات انحطاطا ودناءة لصالح المستبدين الفرس مقابل المساعدة في قمع النضالات من أجل الحرية التي تقوم بها

شعوبهم. مكائد الرجال من أمثال "بيسيستراتوس" (***Pisistratus***) في أثينا و"أليوتوس" (***Aleutos***) في "ثيسالي" (***Thessaly***) وملك إسبرطة "ديماراتوس" (***Demaratus***) تبرهن على ذلك.

وعندما حرر الملك الفارسي "داريوس" (***Darius***) يده في الأخير أرسل جيشا عظيما ضد "إريتريا" (***Eretria***) وأثينا، هاتان المدينتان اللتان كرههما بشكل خاص نتيجة لدعمهما للتمرد الأيوني. إلا أنه كان واضحا أن هجومه ذلك كان موجها لكل اليونان، لأن القوة الفارسية لم تكن في مأمن داخل آسيا الصغرى إلا بعد أن يتم حرمان الهيلينيين هناك.من كل إمكانية لتلقي المعونة من مدن البلد الأم. كان الخطر عظيما، وزاد ذلك الخطر نتيجة لوجود الطاغية "هيبياس" مع الجيش الفارسي وبوصفه يونانيّا، استطاع تقديم خدمات مفيدة عديدة لهم. ورغم هذا فلم تشتعل جمرة للوعي القومي بين الهيلينيين. كان مسلك إسبرطة غامضا، كما هو على الدوام – هذا رغم حقيقة أن الرسل الفرس الذين أُرسِل بهم للمطالبة بالتراب والماء كرمز على الخضوع قد أُلقِي بهم في بئر، مقترحين عليهم بأنهم في قاع البئر سوف يستطيعون جمع ما يريدونه لأنفسهم. استسلمت عدة مدن في الجزر وأيضا على الأرض الأم تقريبا دون مقاومة، والجزء الأكبر من بينهم كان من "بيوشيا" (***Boeotia***). حتى أقرب جيران الأثينيين سكان جزيرة "ايجينا" (***Aegina***) لم يخاطروا بأي مقاومة ضد الجيش الفارسي وفضلوا الاستسلام على الوقوع في الأسر المُحتمَل.

ولما في الأخير عند "الماراثون" (***Marathon***) وصل الأمر إلى صراع حاسم بين القوات الأرضية للفرس والإغريق، التي واجه فيها الأخيرون قوة متفوقة بشكل كاسح، نزل الأثينيون إلى الميدان تقريبا وحدهم، لأنه لم يتوافر لهم أي عون آخر، ما عدا ألفًا من الجند المشاة بخوذات الرأس المعدنية (***hoplites***) التي بعثها أهل "بلاطيا" (***Plataea***). حتى الإسبرطيون الذين دخلوا الحرب ضد الفرس ظهروا في الميدان فقط بعد المعركة ولم يسهموا بشيء في النصر الهائل الذي أحرزه

"ميلتياديس" بقواته. ومع النصر الذي تحقق في "ماراثون" تم وقتها تجاوز الخطـر الذي هدد هيلاس، واضطر الجنرالات الفرس إلى الانسحاب بقواتهم إلى آسيا مـرة أخرى. ورغم ذلك، فلابد وأن ظهر لكل شخص بالتأكيد، رغم تأجيل الخطر لفترة، أنه على أية حال لم ينتهِ. لم يعد هناك بقية من شك في أن الاستبداد الفارسي سوف يعد كل قواته العاملة حتى يعادل الهزيمة التي مُنِي بها. كان الوضع برمته واضحا لا لبس فيه حتى أنه لا أحد فهمه على نحو خطأ. لـذلك ربمـا يتوقـع المـرء أن الأغريق سوف ينتهزون لأنفسهم فرصة التقاط الأنفاس القصيرة حتـى يـستعدوا بشكل أفضل لمواجهة الخطر المنذر. لو كان قد وُجِد في اليونان أدنى ملمح لتلـك "الروح القومية" التي تكلم عنها المؤرخون بشكل غير نقدي كثيرا، لكانت قد كشفت بالتأكيد عن نفسها بكل الوسائل في مثل هذه الأحوال المرعبة. ولكـن لـم يحـدث شيء يستطيع المرء الإشارة إليه بوصفه يكشف عن تعزيز الوعي القومي. ظلـت الأحوال الداخلية في اليونان كما هي نفسها. إسـبرطة التـي تـضررت مكانتهـا السياسية والعسكرية بشكل كبير نتيجة لنصر الأثينيين في منطقة ماراثون، وجهـت منذ ذلك الحين فصاعدا كامل نشاطها السياسي نحو قطع الطريق بكل شكل علـى تطور أثينا السريع. وتسبب ذلك في حدوث مشكلة للأرستقراطية الإسبرطية أكثـر أهمية بكثير جدا من خطر الفرس.

من ثم في عام ٤٨٠ قبل الميلاد، وبعد معركة ماراثون بعشر سنوات، عندما هدد الملك الفارسي "زيركسيس" (***Xerxes***) اليونان بجـيش هائـل علـى الأرض وأسطول قوي على طول ساحل البحر، لم تتغير الحالة العامة عند الإغريق شـعرة واحدة إلى الأفضل بعد الهجوم الفارسي الأول. حتى ذلك الوقت لم يبـد هنـاك أي أثر للإجماع القومي في وجه خطر مخيف يهدد الجميع على السواء. فـي البدايـة كان هناك هلع شامل. إلا أنه لم يفكر أحد في دفاع مشترك عن "المصالح القومية". مدينة "طيبة" (***Thebes***) التي حقق داخل أسوارها ما يُسمى "حزب الوسط"(***Median party***) نفوذا قويا(دون أدنى شك كان المستبد الفارسـي راعيـا لهـذا الحـزب)، استسلمت هذه المدينة إلى العدو دون مقاومة. اتبع منوالها العديد من القبائـل فـي

الأجزاء الوسطى للبلاد. حاول البيوشيان (***Boeotians***) والثيساليان (***Thessalians***) والإخيان (***Achaeans***) باستسلامهم الهرب من الخطر الذي كان يتهددهم.

ولكن حتى المجلس الشهير الذي انعقد في "إزموس" (***Isthmus***) والذي أرسل إليه عدد قليل من المدن التي عزمت على المقاومة بمندوبيها، طرح كل شيء إلا صورة العزيمة الوطنية. أول كل شيء لم يستطع أحد حث الإسبرطيين على إلقاء قوتهم العسكرية بأكملها في الجزء الشمالي من البلاد لمواجهة الجيش المعادي المتقدم. كانوا مستعدين تماما وبوضوح للسماح بفقدان اليونان الأوسط، ولم يكن هناك شك في أن الطائفة الحاكمة في إسبرطة سوف تسعد برؤية دمار أثينا على يد الفرس وأيديهم ليتخلصوا هكذا من منافس مربك لهم. كامل دور الإسبرطيين في هذا الوقت كان في نفس غموض موقفهم الذي كانوا قد اتخذوه منذ عشر سنوات مضت، وقت الحرب ضد داريوس. وعندما اضطروا في الأخير إلى الموافقة على استعراض مقاومة للفرس في "ثيرموبيلاي"(***Thermopylae***)، ومن أجل تجنب ظهور أغراضهم السرية على هذه الدرجة من الوضوح الشديد، أرسلوا "ليونيداس" (***Leonidas***) في ثلاثمائة مواطن إسبرطي فقط ونحو ألف من "أحرار محيط إسبرطة" (***Perioecae***) الذين التحقت بهم قلة من القبائل الأخرى. عدد الجنود المسلحين تسليحا جيدا مجتمعين كان أقل من أربعة آلاف، وهو عدد مضحك صغير مقارنة بجحافل الفرس الجبارة. وعندما عبَّر "جروت" (***Grote***) ورواة مشهورون آخرون عن شكوكهم في إخلاص الإسبرطيين كانت أسبابهم واضحة جدا في ضوء الحقائق التاريخية.

وحتى عندما اضطر "زيركسيس" بعد الهزيمة الكارثية لأسطوله في "سلاميس" (***Salamis***) إلى الانسحاب عبر "مضيق الدردنيل" (***Hellespont***) بالجزء الأعظم من جيشه، استمرت إسبرطة في اتباع نفس التكتيكات الملتبسة. انسحب زيركسيس وقد كان هذا صحيحا إلى آسيا، ولكنه قد ترك خلفه في ثيسالي جيشا قويا تحت قيادة الجنرال "ماردونيوس" (***Mardonius***) الذي استمر في مكانه حتى

الشتاء من أجل استئناف الحرب في الربيع. ولكن فقط في هذه المعركة الأخيرة الحاسمة، أظهر الملك الإسبرطي "باوسانياس" الذي كانت لديه القيادة العليا للقوات الهيلينية المحاربة، مثل هذا النقص المرعب لافتقاد القدرة على اتخاذ القرار وهو ما يبدو أنه إشارة إلى درجة الخيانة. نهاية "باوسانياس" الذي في مناسبة لاحقة اندفع إلى خيانة علنية لمصالح الإغريق، تبرر الشك بأنه حتى قد عقد صفقة سرية مع "ماردونيوس" في ذلك الوقت. تكتسب هذه الفرضية احتمالا إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه قبل نشوب العداوات بشكل مفتوح عرض "ماردونيوس" اقتراحا سريا على الأثينيين بواجب دخولهم في تحالف معه واعدا إياهم بأن استقلالهم في جميع الأحوال لن يُمَس. رفض الأثينيون بكبرياء العرض، ومن السهل التخمين بأن ماردونيوس قد حاول طرح ذلك على باوسانياس وتلقى منه رد فعل أفضل. على أية حال، كامل تصرف باوسانياس قبل معركة بلاتاي يسلم نفسه لتفسير مثل هذا.

الفرس، رغم تفوقهم ورغم مكائدهم السرية تلقوا هزيمة حاسمة، ويعود ذلك إلى أن قوات الهيلينيين حاربت من أجل استقلالهم وحريتهم والذين كان عليهم ألا يخسروا شيئا سوى كل مالديهم، وقد كانت تُحرّكهم روح مختلفة جدا عما حرّك جيش الفرس الجرار، الملتحم معا بإرادة حاكم مستبد والجزء الأعظم من جنوده مُجنّد للحرب من بين سكان أجانب. لهذا السبب كسب الإغريق الحرب رغم انقسامهم القومي وتفككهم السياسي، دون أن يكونوا مدركين أن هذه الأشياء تمثل نقاط ضعف.

محاولة العديد من المؤرخين تفسير الحرب "البيلوبونيزية" (***Peloponnesian war***) اللاحقة كصراع حول الوحدة القومية لليونان لا تمتلك أي أسس مأمونة. علق "ماوزنر" (***Mauthner***) بشكل مدهش عن عدم معقولية هذا التأكيد:

> **دع المرء يفكر فقط مثلا أنه خلال حرب البيلونيزية التي استمرت ثلاثين سنة تقريبا، لم تخرج فكرة القومية الهيلينية إلى العلن عمليا؛ طبعا رجل مثل "القيبياديس" (*Alcibiades*) الذي وضع موهبته الابداعية تحت وطأة الغضب والحاجة مرة في متناول زملائه**

الأثينيين، وحينا في متناول الإسبرطيين المعادين وأحيانا أخرى في متناول العدو الوراثي في فارس، كان حتى في ذلك الزمن استثناءً؛ ولكن حتى بين الإغريق البسطاء، أولئك الذين كونوا أي مفهوم عن قوميتهم وأولئك القوميين الهيلينيين أو القوميين اليونانيين كانوا نادرين ورغبوا في إنهاء الحرب. لم تكن فكرة القومية فعالة بعد، رغم حبهم للوطن الأم ولمدينتهم.

في هذا الصدام الدموي الطويل الذي استقطعت اليونان فيه من لحمها الحي وقضمت من أعضائها الحيوية، لم يكن الصراع دائرا حول الوحدة السياسية القومية للقبائل اليونانية ولكن حول سؤال: الاستقلال الذاتي أم الهيمنة؟ ما كان يتم تقريره هو أي مدينة أكبر هي التي تتولى القيادة: أثينا أم إسبرطة أم طيبة أم كورينث. بعد الحروب الفارسية توسعت الثقافة خصوصا في أثينا إلى ازدهارها الأكمل؛ لكن الانتصار على الفرس أسهم بشدة في امتداد الوعي بالسلطة السياسية. الأثينيون مع حلفائهم الذين استمروا في الحرب ضد الفرس ورغبوا في تأمين تحرر المدن الأغريقية في آسيا الصغرى من نير الهيمنة الفارسية لم تُحرِّكهم لاتخاذ هذا الموقف دوافع اقتصادية صرف. كانت الأرضية الرئيسية لسلوك هذه المدن دون شك هي الاقتناع بأن تحالف المدن الحرة في آسيا الصغرى سوف يؤسس لوجود حصن قوي ضد مزيد من الهجمات التي يشنها الاستبداد الفارسي. وفي الوقت الذي انسحبت المدن الإسبرطية والبيلوبونيزية من الحرب، أسست أثينا والمدن التي انحازت إلى التزاماتها اتحاد الدليان–الاتيك (***Delian-Attic League***)، الذي كان في البداية فدرالية حرة من مجتمعات مستقلة، داخل إطار عملها تمتعت كل مدينة بالحقوق نفسها. ولكن هذا الاتحاد انتهى بتطور الهيمنة داخله في صورة تنازل تدريجي بمميزات أعظم فأعظم لأثينا التي استطاعت الإمساك بهذه الامتيازات فقط على حساب حلفائها. وقد جلب هذا التطور الحافز السياسي بشكل أكثر حدة في مقدمة الحياة الاجتماعية وقواها الثقافية الإبداعية. حتى المدن الإغريقية أثبتت أنها

ليست استثناء لهذه القاعدة، وسقطت في تحلل داخلي بالضبط بنفس النسبة التي يحظى فيها الطموح السياسي باليد العليا في ذلك.

أكثر من ذلك، بدا مؤكدًا بشكل ثابت وقتها واستمر أبدا أن الحرب التي يحتفل بها البلهاء العجزة بوصفها إعادة ضخ للحيوية داخل الحياة الاجتماعية، تؤثر عادة على المنتصر بالضرر بأكثر من المهزوم. ولأن الحرب تثري بشكل مختل أقسامًا معينة في المجتمع كإحدى نتائج الحرب، وتحل محل الحدود الأولى للازدهار وهكذا تسبب اختلال التوازن الاجتماعي إلى مثل هذه الدرجة التي يصبح عندها بشكل دائم التحدث عن مصالح مجتمعية مشتركة أكثر صعوبة؛ وتعلن التباينات الطبقية في المجتمع عن نفسها بقوة أكبر ودون تنكر. هذا ما حدث في أثينا أيضا. ويدًا بيد مع النمو الفاحش للطغمة المالية جرى إفقار الأقسام الدنيا من الناس؛ وتدمير الأسس القديمة لمجتمعهم. وكان على اليونان في الأخير أن تحطم نفسها على صخرة ذلك وعلى صخرة اقتصادها العبودي.

الصراع على الهيمنة الذي وجد تعبيره مفرط القوة في الحرب البيلونيزية، وفي نفس الوقت أطلق بداية أفول الثقافة الإغريقية ومهد الطريق لإخضاع اليونان للحكم الملكي المقدوني، حيث إنه أدى في كل مكان – في أثينا وفي إسبرطة وفي طيبة – إلى نفس النتائج الحتمية. إحدى الظواهر السارة في الصراع من أجل الزعامة هي حقيقة أنه لم تستطع مدينة كبيرة واحدة تأكيد هيمنتها لأي مدة من الزمن، لأن شعور الحرية عند الهيلينيين اضطر دائما كل مدينة بمفردها إلى التمرد وهز نير الهيمنة الذي كان يُفرَض عليها جميعا. ولكن الحرب استمرت زمنا أطول من اللازم ودمرت تماما أسس الحياة الاجتماعية. وبعد إنهاء العداوات كانت كل المدن مُجهَدة إلى درجة أنها جميعا كانت في وضع لا يستطيع مناهضة الرعب المقدوني المقترب. وأقل من ذلك؛ لأنه نتيجة إفساد العادات وتحلل كل المبادئ الأخلاقية الناتجة عن الحرب والصراع من أجل السلطة كان الملك المقدوني قادرا على الاحتفاظ بعملاء تقريبا في كل مدينة، الذين عملوا بنشاط في تعزيز وتوسيع

خطته. في الواقع، الانحطاط الأخلاقي كان في تمام الاكتمال بالضبط عندما كان "ديموستينيس" (*Demosthenes*)(•) يسعى دون جدوى لاستنهاض هيلاس من أجل إنشاء دفاع موحد ضد الرعب المقدوني.

في الأخير أقام الإسكندر المقدوني الوحدة السياسية القومية لليونان بالسيف، وجلب البلاد كلها تحت سيادته الخاصة. قد كان المؤسس الحقيقي لما بات يسمى "الهيلينية" التي يزعم مؤرخوها الأذلاء أنها كانت قمة الثقافة الإغريقية. في الواقع، لقد كانت الأفول الفكري، العاجز عن أي تجديد للحياة الفكرية. أرسى الإسكندر أسس مملكة يونانية موحدة، وبصنعه هذا كان قد دمر التنوع الذي لا ينفد للحياة الثقافية الغنية التي كانت تتميز بها المجتمعات اليونانية لهذه الدرجة الكبيرة في وقت ازدهارها. أصبح المواطنون السابقون للمدن الحرة رعايا في دولة قومية موحدة، توجه كل قواها لاختزال كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية إلى المستوى الميت لأغراضها السياسية. "كانت "الهيلينية" مجرد بديل لثقافة لم تكن لتستطيع الازدهار سوى في الحرية فقط؛ لقد كانت الهيلينية انتصارا للمُستغِل غير المبدع على الروح الخلاقة للمدينة اليونانية.

معظم كُتّاب التاريخ يكرّمون الإسكندر بوصفه الناشر العظيم للثقافة الهيلينية في مناطق مملكته الشاسعة. ولكنهم يتغاضون عن حقيقة أنه دون أي اهتمام بانتصاره الخاص على القوة العسكرية الفارسية سقط هو فكرا وحركة سقوطا بالغا

(•) ديموستينيس (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) رجل دولة يوناني بارز وخطيب في أثينا القديمة. تمثل خطبه تعبيرا كبيرا عن البراعة الفكرية لزمنه وتوفر نظرة ثاقبة في سياسة وثقافة اليونان القديمة خلال القرن الرابع قبل الميلاد. في ٣٥٤ قبل الميلاد ألقى أول خطاب سياسي علني له. كرس سنواته الأكثر إنتاجا لمعارضة التوسع المقدوني. بعد وفاة فيليب، لعب ديموسثينيس دورا رئيسيا في انتفاضة مدينته ضد ملك مقدونيا الجديد، الإسكندر الأكبر. ومع ذلك، فشلت جهوده نتيجة رد فعل مقدونيا القاسي. خليفة الإسكندر في هذه المنطقة، أنتيباتر، أرسل رجاله لتتبع ديموسثينيس لمنع حدوث ثورة مماثلة ضد حكمه. أجهز ديموسثينيس على حياته بنفسه، من أجل تجنب إلقاء القبض عليه. [المترجم]

تحت لعنة الأفكار الفارسية عن التملّك والمملكة، ووضع لنفسه مهمة استزراع ذلك في أوروبا. "جروت" بالكلية مُحِق تماما عندما أكد في تأريخه لليونان أن الإسكندر لم يجعل بلاد فارس يونانية، ولكنه جعل اليونان فارسية، وهكذا خنق للأبد أي فرصة لمزيد من تطورها الثقافي؛ نعم، ذلك أن غرضه الفعلي كان تحويل هيلاس إلى "مرزبانية" (*Satrapy*) أخرى، كما فعل بها الرومان بعد ذلك لاحقا عندما حولوا اليونان إلى ولاية في مملكتهم العالمية. تحت حكم الإسكندر وحكم خلفائه جفت ينابيع الثقافة اليونانية القديمة. ولوقت طويل اقتات الإنسان على خصوبتها ولكنها لم تُطوِّر أي منتج جديد. رددت الوحدة القومية السياسية صدى أصوات البذرة الميتة للثقافة الهيلينية.

هوامش الفصل الخامس

(*1*) في فن أغاني الموائد تجد الدوافع السياسية دائما تعبيرات مثل كراهية الطغيان وهلم جرا. هذه الافتتاحية من الأنشودة المنسوبة لـــ "كاليقراطس" (***IlicratesKa***)، إشادة بـــ "هارموديوس" (***Harmodius***) و"أريستوجايتون" (***Aristogeiton***) قاتلي المستبد:

"ميرتل" (***Myrtle***) سوف أسن سكيني القاتل مثلما فعل هارموديوس

وأريستوجايتون،

عندما تُقام وليمة الثالوث المقدس في "بالاس" (***Pallas***)،

أسقطا الطاغية "هيبارخوس" (***Hipparchus***)،

دائما سوف تبقى شهرتكما على الأرض.

عزيزي "هامويوس وأريستوجايتون"،

لأنه عندما أسقطتما الطاغية،

أقمتما أثينا مرفوعة الرأس وحرة مرة أخرى.

(2) Hippolyte Taine, Philosophy of Art
(3) J. J. Winckelmann, Geschichte der Kunst des Altertums, 1764
(4) Volkstum und Weltmacht in der Gesckichte. Leipzig, p. 18
(5) Ernst Curtius, Geschichte Griechenlands and Die Jonier vor ier jonischen Wanderung
(6) Philosophy of Art, p. 319
(7) Hereditary Genius, Its Laws and Consequences, 1869
(8) Menschliches Allzumenschliches, Chap. 8
(9) Fritz Mauthner, Der Atheismus. Band I, p. 102



الفصل السادس

مركزية الرومان وتأثيرها

روما ما قبل التاريخ. الإتروريون (*ETRUSCANS*). تأسيس مدينة روما. النبلاء (*PATRICIANS*) والعوام (*PLEBEIANS*). روما كمركز عسكري وسياسي. الغزو كمبدأ دولة. طبيعة الدولة الرومانية. الديكتاتورية والقيصرية. من الوحدة القومية السياسية إلى السيادة العالمية. الدين في خدمة الدولة. روما والثقافة. صراع "الرومانية الفريدة" ضد الروح الهيلينية. كاتو (*CATO*) وسقراط. الغزو بالثقافة اليونانية. شعب مقلدون. الفن في روما. ازدراء العمل. الأدب كغرض للدولة. المسرح في روما وفي أثينا. "العصر الذهبي". إنيادة (*AENEID*) فيرجيل (*VIRGIL*). شكوى "هوراس" (*HORACE*). الفلسفة والعلم في روما. الغزو كمقاصة نقدية. روما كمصاص دماء عالمي. فيما يتعلق بأفول روما. زيادة نفوذ الزعماء العسكريين. الجندية والفلاحة. القانون الروماني. البروليتاريا (*PROLETARIAT*). انتفاضات الفلاحين. انعدام المبادئ والعبودية كمبدأ. القيصرية (*CAESARISM*) والحرس الإمبراطوري (*PRETORIANISM*). الانحلال والمسيحية. نهاية الإمبراطورية.

عندما نتحدث عن اليونان نحن نفكر أيضا في روما، وهو تزاوج في الأفكار قام لدينا منذ أيام المدرسة. مفهومنا عن "العصور القديمة الكلاسيكية" يشمل الإغريق والرومان كشعبين من نفس الدائرة الثقافية؛ نحن نتحدث عن "فترة الثقافة الإغريقية الرومانية" (*Graeco-Roman*) ونزاوج مع هذا فكرة الصلات الداخلية العميقة التي لم

تقم قط، ولا كان من الممكن لها أن تقوم. من الصحيح أنهم أخبرونا ببعض الصفات المعينة التي تميز بين الإغريق وبين الرومان. في مواجهة الاستقلال البهيج للإغريق أظهروا لنا إحساس الواجب العبوس عند الرومان؛ "الفضيلة الرومانية" المغلفة في قشرتها الخشنة زودتنا بمعيار ما نقيض للمرح الصريح في حياة هيلاس. ومع ذلك فوق كل شيء مدحت مدارسنا الحس السياسي عالي التطور عند الرومان، الذي مكنهم من بناء كامل شبه الجزيرة الإيطالية كوحدة سياسية متينة وهو الشيء الذي لم يستطع الإغريق إتمامه أبدا في بلدهم نفسه. وكل ذلك قدموه لنا ليبعثوا إلينا بيقين الانطباع بأن الرومانية كانت مجرد امتداد ضروري لمفهوم الإغريق عن الحياة الذي حملته الرومانية بمعنى ما إلى مجرد نهايته المنطقية. دون شك هناك صلات بين الثقافتين الهيلينية والرومانية، ولكنها كانت صلات ذات طبيعة سطحية خالصة ولم يكن لديها أدنى علاقة بالأنماط الخاصة للفكر أو الطموحات الفكرية والثقافية للشعبين. وحتى لو توافرت أدلة على الرؤية التي تعتبر الإغريق والرومان منحدرين من نفس الشعب (الشعب الذي سكن في أزمنة ما قبل التاريخ حوض نهر الدانوب الأوسط ومنه كما يقولون تجول جزء منه في منطقة البلقان بينما شق الآخر طريقه بالقوة إلى داخل شبه الجزيرة الأبنينية (***Apennine peninsula***) ، إلا أن هذا ليس برهانا على الاعتماد المتبادل بين الثقافتين الإغريقية والرومانية. الاختلاف الواسع جدا في التطور الاجتماعي للشعبين سوف يُظهِر في تلك الحالة مجرد أن البيئات المختلفة قد أثرت بشكل حاسم على المواصفات الوراثية للإغريق والرومان، وأجبرت مسار حياتهم الاجتماعية على الولوج في دروب مختلفة.

فيما يتعلق بالتاريخ البدائي للرومان لا نعرف أكثر مما نعرفه عن الموطن المبكر للقبائل الإغريقية. معهم أيضا كل شيء يتلاشى في غمام كثيف من التقاليد الأسطورية. بل إن مشاهير العُمُد في التاريخ الروماني (مثل "ثيودوب مومسن" [***Theodop Mommsen***] علي سبيل المثال) يؤكدون أن العديد من هذه الأساطير خصوصا أسطورة تأسيس مدينة روما بواسطة الأخوين "رومولوس" (***Romulus***) و"ريموس" (***Remus***)، قد تم اختراعها في وقت متأخر جدا بغرض سياسي عمدي

لإعطـاء الطـابع الرومـاني القـومي للمؤسـسات المنتزعـة مـن الإتـروريين (*Etruscans*)(•) لإيهام الشعب بالإيمـان فـي الأصـل الذي انحدر منه مجـتمعهم. لا يُمكِن الشك اليوم في اجتياح شبه الجزيرة مـرارا بواسـطة القبائـل الجرمانيـة والسلتية في أزمنة ما قبل التاريخ؛ ولكن في كل الاحتمالات حـدثت هجـرات مـن أفريقيا وساحل الشام عبر طرق بحرية، وهذا قبل زمن طويل من اسـتعمار صـقلية وجنوب إيطاليا بواسطة الفينيقيين – ولاحقا بعدة قرون قليلة بواسطة اليونانيين.

من المؤكد أن ما تُسمى الشعوب الإيطالية لا تنتمي إلى السكان الأصليين لشبه الجزيرة كما كان مقبولا بشكل واسع من قبل. الإيطاليون كانوا بالأحرى شـعبًا مـن أصل هندي جرماني عَبَر جبال الألب في عصور ما قبل التاريخ واستقر على سهول وادي نهر البو (*Po*). فيما بعد، وقد طُرِدوا بواسطة الإتروريين. انسحب هذا الشعب إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية للبلاد، حيث منِ المحتمل أنهم قد اختلطوا مع شـعب الجابيكو–ميسابيين (*Japygo-Messapians*). يُغلِّف الظلام الـدامس زمـن دخـول الإتروريين شبه الجزيرة. عند وصولهم إلى شـبه الجزيـرة صـادفوا الليجـوريين (*Ligurians*) القادمين ربما من آسيا الصغرى. فيما بعد اختفوا بالكامل من المشهد؛ ولكن مقاطعاتهم كانت قد امتدت سابقا على كل الجزء الشمالي مـن شـبه الجزيـرة والألب وجنوب فرنسا وإلـى حـد شـمالي إسـبانيا حيـث اختلطـوا بـالأيبيريين (*Iberians*).

ومع ذلك، من بين كل الشعوب التي لعبت دورا قبل تأسيس روما، ومارسـت نفوذا قويا على تطور الحضارة الرومانية يأتي الإتروريون في المقام الأول. ما زلنا معا غير متأكدين من أصل هذا الشعب المرموق، حيث لم ينجح البحث العلمي فـي فك شفرة نقوشهم بعد. امتدت مملكة الإتروريين في الأزمنة المبكـرة مـن أقـصى

(•) الحضارة الإترورية هو الاسم الحديث الممنوح لحضارة إيطاليا القديمة في المنطقة المقابلـة تقريبا لتوسكاني، وغرب أومبريا، وشمال لاتسيو. سماها الرومان قديما توسكي أو إتروسكي. الاسم الروماني هو أصل اسم توسكاني، الذي يشير إلى معقلهم، وإتروريا، تشير إلى منطقـة نفوذهم على نطاق أوسع. [المترجم]

الشمال تماما حتى ضفاف نهر "التيبر" (***Tiber***)، الذي كان يُسميه القـدماء جـدول إتروسكي (***Etruscan stream***). سيطرتهم التي استمرت مستقرة لقـرون تحطمـت لأول مرة بواسطة القوة النامية للرومان. ولكن حتى عند تأسيس مدينة روما ظلـوا يلعـبون دورا مهمـا. مـن بـين الملـوك الرومـان "تـاركينيوس سـوبربوس" (***Tarquinius Superbus***) ميزوه بشكل صريح كإتروري، بينما "نومـا بومبيليـوس" (***Numa Pompilius***) و"أنكوس مـاركيوس" (***Ancus Marcius***) أطلـق عليهمـا المؤرخون الرومان اسم السابين (***Sabines***).

دون شك الأبنية العظيمة في روما القديمة مثـل الكهـف الأعظـم (***čloaca maxima***) ومعبد الكابيتول وهكذا، شُيِّدت بواسطة المهندسين الإترورويين لأنـه لـم يكن أحد من القبائل اللاتينية متطورا ثقافيا بما يكفي لإتمـام مثـل هـذه الأعمـال. وأصبحت محل قبول عام فكرة أن اسم روما هو من أصول إترورية ومن المحتمـل أنه يرجع في الماضي إلى قبيلة "الروما" (***Ruma***). أكثر من ذلك في تقاليد الرومـان شبه التاريخية يُذكَر الإترورويون بوصفهم واحدًا من الشعوب الأصلية الثلاث الـذين يُنسَب إليهم تأسيس المدينة. من كل هذا يترتب أن الرومان الأصليين دخلوا التـاريخ كشعب مختلط فعلا، تسري في عروقه دماء أجناس متعددة.

الوقائع المباشرة التي أدت إلى تأسيس مدينة روما ترقد كـاملا فـي العتمـة. للعديد من المؤرخين رأي يقول إن تأسيس المدينة من الممكن تتبعه إلى "زمن الربيع المقدس"، وهي عادة واسعة الانتشار بين القبائل اللاتينية، يترك الشبان الصغار فـي سن العشرين، طبقا لها، مكان سكنهم القديم ليؤسسوا في مكان آخر منزلا خاصا بهم. نشأ عديد من المدن من خلال هذه العادة، وليس مـن المـستحيل أن رومـا تـدين بوجـودها لهـذه العـادة أيضـا. ويتضح أيـضا مـن التقاليـد أن "تـل بـالات" (***Palatine Hill***) تم استيطانه أولا بينما أضيفت التلال الست الأخرى إلى المدينـة فقط لاحقا، وكان يسكنها واقعيا قبائل مختلفة. حدث اندماج هـذه المـستوطنات فـي مدينة روما متأخرا كثيرا، ولسنا في موقع لتحديد الأسباب المباشرة لهـذا الانـدماج تاريخيا. ربما لعبت القوة دورا هاما في هذا الاندماج، وهي الرؤيـة التـي تكتـسب

مصداقية من التقاليد القديمة في أن الآباء القبائليين لمدينة روما كانوا يجمعون حولهم كل أنواع الهاربين الذين منحت لهم المستوطنات الشابة ملاذا آمنا. أسطورة اغتصاب نساء "السابين" (***Sabine***) تشير أيضا إلى أن الاستعماريين الأوائل للمكان لم يكونوا جيرانا على درجة كبيرة من اللطف.

المعروف لنا من التاريخ البدائي للرومان قليل جدا ولكن ذلك القليل يُظهر لنا بوضوح أنهم كانوا شعبا من الفلاحين ومربي الماشية. اعتمدت حياتهم الاجتماعية على ما يسمى النظام الأممي (***system gentile***). توحدت العشائر العائلية المنفصلة تدريجيا مع الآخرين في منظمات قبلية، ومنها بدأ الشروع في فدرالية من القبائل التي ربطت نفسها معا في اتحاد من أجل الدفاع والهجوم. المجتمع الذي خرجت منه روما لاحقا أظهر وحدة سياسية استمرت فيها بالتوازي مع أشكاله السياسية الجديدة- بالضبط كما بين الإغريق- بقايا النظام الأممي القديم الذي حافظ على بقائه زمنا طويلا. في العموم، تحقق التحول من اتحاد اجتماعي خالص إلى منظمة سياسية فقط تدريجيا. في الواقع تقريبا، المعيار الذي تحلل به الاتحاد الطبيعي للنظام الأممي القديم بواسطة الملكية الخاصة والعائلة حقق تأثيرا سلَّم به كل السلطة في أيادي رأس العائلة. وهكذا تزحزح قانون الأعراف القديمة بشكل متزايد أكثر فأكثر عن مكانه بواسطة مراسيم الدولة التي نمت لتصبح القانون الروماني.

بالطبع أثرت التحولات الداخلية أيضا على العلاقات مع مجتمعات الجيران. من السهل رؤية أنه مع النمو السريع للمدينة تصبح أراضيها فورا غير كافية لانتاج مواد الطعام للوفاء باحتياجات السكان، وهكذا ربما قد نشأت العداوات الأولى. وهكذا يصبح لدينا المعارك الأولى الناتجة عن الرغبة في غزو أراضي المجتمعات المجاورة لإخضاعها لروما. ولكن الأراضي المقهورة يجب السيطرة عليها وضمان عدم حدوث انتفاضات من السكان القدامى، وهذا من الممكن تحقيقه فقط بواسطة منظمة عسكرية قوية، أغرقت الدولة الرومانية نفسها فيها خطوة بعد خطوة لتغرق فيها بالكامل. نشأ نظام جديد ذو طبيعة عسكرية صريحة. في السابق كانت مسئولية الشئون العامة تقع على كاهل المجلس الشعبي (***Comitia Curata***) الذي كان لا يزال

يتشكل على نسق النظام الأممي القديم، ولكن فعليا تحت سيطرة "نومـــا" (*Numa*)(*)، خليفة رومولوس، حدثت هذه التأثيرات مما أدى إلى تبدلات حاسمة في النظام ومالت بشدة لإعطائه طبيعة سياسية خالصة. الشروط المسبقة لهذا التحول نراها فـــي تلـــك التقسيمات الداخلية للمجتمع الروماني إلى طبقات والتي كانت فعلا ملحوظة بوضوح في ظل حكم الملوك الأوائل. إنه لسخف مطلق محاولة رؤية أعضاء نـــبلاء وعامـــة من أجناس مختلفة يحملون أحدهم نحو الآخر بدرجة ما علاقة الغـــازي والمقهـــور. الحقيقة البسيطة لاحتمال انتماء بعض المنحدرين من العائلـــة نفـــسها إلـــى النـــبلاء والآخرين إلى العامة تكشف لنا هذه الرؤية. في الواقع نحن نتعامل هنا مع وضـــعين اجتماعيين مختلفين يخرجان من نظام الملكية الخاصة ومن التفاوت فـــي الظـــروف الاقتصادية. في هذه الرؤية للنبلاء يمثلون الفلاحين الكبار بينما العوام يُجمَعون مـــن بين صفوف الفلاحين الصغار الذين هم نتيجة للتفاوت الواسع للحيازات يأتون بـــشكل متزايد أبدا تحت نير زملائهم المواطنين الأغنياء.

مجتمع روما الأولي كان منقسما إلى عشائر عائلية، كل عشيرة يرأسها شـــيخ أو ملك يحوز سلطات كبير الكهنة والجنرال فور توليه الرئاسة. بجوار الملك يقـــف مجلس من زعماء العشيرة، يستقر عليه عبء إرشاد شئون المجتمع. وبسبب العلاقة القريبة بين الملك والزعماء فقد كان طبيعيا تماما التزامه باختيار مسئوليه المساعدين من بين صفوفهم. ونتيجة للوفرة الاقتصادية عند الفلاحين الكبار ســـيطروا تـــدريجيا على وظائف رسمية هامة واستخدموها لبناء وتراكم مصالحهم وامتيازاتهم الخاصـــة، حتى أن الجزء الأفقر من السكان وقع أكثر فأكثر تحت سيادتهم. نتيجة لهذا الوضـــع تطورت أولى البدايات لطائفة من النبلاء، عملت من أجل إلغاء نظام الأمم القديم على أمل أن يمضي غزو المقاطعات الأجنبية بصورة أكثر منهجية. هذه الالتزامات بدأت بشكل محدد تحت حكم "نوما"؛ ولكن لم يقع ما يشبه الوجه العظيم الذي اكتـــسب بـــه

(*) نوما بومبيليوس (٧٥٣-٦٧٣ قبل الميلاد؛ حكم ٧١٥-٦٧٣ قبل الميلاد) ثاني ملك لروما خلفا لرومولوس. وهو من أصل سابيني. منسوب إليه العديد من أهم المؤسسات الدينية والـــسياسية في روما. [المترجم]

المجتمع الروماني طابعه السياسي الفريد حتى زمن "سيرفيوس توليوس" (*Servius Tullius*)[*]. أصبحت مدينة روما بؤرة كل المقاطعات المحيطة والمفتوحة بالغزو. نشأ هناك بدلا من المؤسسات القديمة هيكل سياسي عسكري يقوم على أساس من خمس طبقات بحصص حقوق غير متساوية. حل مجلس الشيوخ (*Senate*) مكان مجلس زعماء العشائر، فيه يمتلك النبلاء فقط المقاعد والأصوات، وقد ارتفعوا بهذا إلى وضع الأرستقراطية الوراثية. انقسمت الطبقات المختلفة إلى علاقات عسكرية، جاهزة دائما للخدمة في الحرب. طبقا لهذا التقسيم الجديد حل المجلس العسكري (*comitia centuriata*) مكان المجلس الشعبي (*comitia curiata*). لكل طبقة فرقها العسكرية المنفصلة؛ ويتم تحديد وزنهم الانتخابي النسبي بناء على ممتلكاتهم وحيازاتهم.

دون شك تم خداع الناس بشكل مؤسف بواسطة هذا التقسيم الجديد؛ إلا أنه بسبب المزج الماكر لبقايا النظام القديم مع الجديد، لم يكن معظمهم على علم بذلك. وهكذا أتى للوجود نظام الدولة الأرستقراطي الديموقراطي هذا، الدولة التي كان تنظيمها الداخلي يقوم على الغزو والسلب. والتحم كامل الشعب في جيش، وتابعت الحكومة بمثابرة لا تلين هدفها من إخضاع شبه الجزيرة كلها تحت الحكم الروماني وبنائها كوحدة سياسية شاسعة. فقط من وجهة النظر هذه من الممكن الحكم على العلاقة بين النبلاء والعوام بشكل صحيح. سوف يكون عكس الحقيقة تماما محاولة رؤية العوام كطبقة مقهورة توجهت جهودها لإلغاء الامتيازات وتأسيس نظام اقتصادي جديد. لم يكن العوام يفكرون في شيء من هذا القبيل. بالأحرى، كان اهتمامهم الوحيد هو المشاركة في امتيازات النبلاء والحصول على نصيب مساوٍ من

(*) سيرفيوس توليوس الملك الأسطوري السادس لروما، والثاني من السلالة الأترورية. حكم ٥٧٨-٥٣٥ قبل الميلاد. تصف المصادر الرومانية واليونانية أصوله الوضيعة وزواجه لاحقا بابنة أول ملك لروما من الأتروريين، الذي اغتيل في ٥٧٩ قبل الميلاد. كان ملكا شعبيا، وأحد أهم المحسنين في روما. في حكمه توسعت روما لتشمل ثلاثة تلال. كان له الفضل في إقامة المهرجانات، وبناء المعابد، واختراع أول عملة رومانية حقيقية. ملك لمدة ٤٤ عاما، حتى قتل على يد ابنته توليا وزوجها تارقوينيوس. [المترجم]

أسلاب الحرب. لم يكن هناك فرق جوهري بين الشريحتين؛ كلتاهما بشكل مساو مهووسة "بالروح الرومانية"، كلتاهما جاهزة لامتلاك عبيد وظلم الشعوب الأخرى؛ كلتاهما تصارع من أجل انتهاز فرص الاستغلال.

ولكن الطبيعة العسكرية للدولة الرومانية المعتنية دوما بالغزو أدت واقعيا إلى اضطرار النبلاء للاستسلام أمام مطالب العوام. لم يفعلوا ذلك برحابة صدر؛ لقد دافعوا عن امتيازاتهم بتصميم عنيد بل إنهم حتى حظروا الزواج بين النبلاء والعامة. كنتيجة لسياسة الغزو التي اتبعتها الدولة بدم بارد، خصوصا في فترة الجمهورية، طُرِحت مطالب أكثر ثقلا على السكان الأفقر واتسعت الهوة بين الطبقتين بشكل ثابت. إلا أن السياسة الرومانية كانت تطالب بمزيد من الجند؛ تلك هي الضرورة التي اضطرت النبلاء تدريجيا لمشاركة امتيازاتهم مع العامة. وبالتوازي مع هذه التنازلات نشأت نبالة جديدة لدعم تلك السياسة الإمبراطورية العالمية التي كان لها أن تأتي بكل البلدان المهمة في العالم المعروف وقتها تحت سلطة روما وبناء الدولة الرومانية في شكل ماكينة النكبات المخيفة التي ليس لها مثيل في كل تاريخ شعوب الأرض.

يؤكد بعض المؤرخين أنه خلال حكم الأباطرة أصبحت روما لأول مرة مغارة لصوص العالم، اختفت في فمها الذي لا يشبع حريات وثروات الشعوب. دون شك فعالية ما أسموه "الروح الرومانية" كانت أكثر تحت حكم الإمبراطورية؛ ولكن يجب أن يكون المرء أعمى حتى لا يدرك أن الازدهار المسموم للقيصرية غُرِست بذوره في زمن الجمهورية. ففيها تم إعداد الشروط الأولية التي لا يمكن الاستغناء عنها لكل مزيد محتمل من تطور السلطة غير المحدودة. في ظل الجمهورية نهضت المؤسسة المشئومة للديكتاتورية التي بررت من حيث المبدأ كل انتهاك للسلطة وبددت كل ميلاد لحرية الإنسان. وضع دستور الجمهورية قنصلين على رأس الدولة، مسلحين بكل سلطات الملوك السابقين. في حالات الطوارئ يستطيع القنصلان بموافقة مجلس الشيوخ تعيين ديكتاتور يمتلك سلطة غير محدودة. للديكتاتور الحق في تعليق كل القوانين القائمة ويطالب كل مسئولي الدولة بطاعة غير

مشروطة، وهو يستطيع تعليق كل حقوق الحرية والأمن المصانة بواسطة الدستور للمواطنين. فقط دولة قامت أسسها بالكامل على إخضاع الشعوب الأخرى تستطيع استدعاء مثل هذه المؤسسة الرهيبة للوجود.

هناك خطوة واحدة فقط من الديكتاتورية للقيصرية. الإمبراطورية هي مجرد ثمرة ناضجة لنظام أقام السلطة كمبدأ أساسي للحياة. كان "هيجل" مُحِقا بالكلية عندما قال إن "روما كانت من البداية شيئا اصطناعيا إرغاميا وليس بدائيا" وإن "الدولة الرومانية، جغرافيا وتاريخيا استقرت على دافع العنف". إرادة أن تتسلط، التي تجسدت فيها "روح روما" تماما، خلقت هذه الأيديولوجية الكئيبة التي تنحط بالفرد إلى أداة بلا روح في يد الدولة، الإدارة الميكانيكية التلقائية الخالية من الإحساس للسلطة العليا؛ التي تبرر كل وسيلة من أجل تحقيق أهدافها. لم تكن "الفضيلة الرومانية" المحمودة كثيرا أي شيء آخر أبدا سوى عبودية الدولة مرتفعة إلى مستوى مبدأ وأنانية غبية لا يخففها أي ملمح من التعاطف والرحمة. ازدهرت الدكتاتورية والقيصرية كلتاهما في روما الجمهورية تماما بنفس رفاهية روما القياصرة. حتى "نيبور" (*Niebuhr*)(*) الذي كان عموما من المعجبين بلا أي حدود بسياسة الدولة الرومانية، يقرر في كتابه "التاريخ الروماني" (***Roman History***) أنه "من الأزمان الأولية وبعدها سادت أكثر الشرور رعبا، وشهوة لا تشبع من أجل السلطة واحتقار بلا ضمير لحقوق الأجانب ولا مبالاة بليدة الحس لمعاناة الغرباء وحب اختزان المال والسرقة وتفرد حصري مستقر نشأ منه تحجر قلب لا إنساني ليس فقط نحو العبيد

(*) بارتولد جورج نيبور (١٧٧٦-١٨٣١) رجل الدولة، والمصرفي، والمؤرخ الدنماركي الألماني الذي أصبح مؤرخ ألمانيا الرائد في تاريخ روما القديمة وأحد الآباء المؤسسين للتأريخ العلمي الحديث. نالت روما الكلاسيكية (بدلا من اليونان) إعجاب المفكرين الألمان. قبل ١٨١٠ كان نيبور يشعل الوطنية الألمانية لدى طلاب جامعة برلين بتحليله للاقتصاد والحكم الروماني. يصور المؤرخون نيبور كرائد لعصر الرومانسية ورمز للروح الوطنية الألمانية التي ظهرت بعد الهزيمة في "يينا". لكن نيبور كان أيضا متجذرا بعمق في روح كلاسيكية عصر التنوير بافتراضاته الفكرية، وأسلوبه في استخدام التحليل اللغوي، وتشديده على كل الظواهر العامة والخاصة في التاريخ. [المترجم]

ولكن حتى نحو زملائهم المواطنين". أعمدة الدولة الرومانية كانوا يتقنون الحساب ويستخدمون المنهج في وضع سياستهم؛ فهم لا يتورعون عن ارتكاب أي خسة أو عار أو غدر أو خيانة أمانة تعدهم بإعطاء ميزة لخططهم. لقد كانوا المخترعين الحقيقيين "لأسباب الدولة" (***reason of state***) هذه المقولة-الفكرة التي نمت في مجرى الزمن إلى لعنة مخيفة على كل مبدأ للإنسانية والعدالة. لم تكن هباءً "أنثى الذئب" (***She-Wolf***) رمزا لروما؛ كان لدى الدولة الرومانية في الحقيقة دماء ذئب تسري في عروقها.

ورغم أنه بدايةً، إخضاع شبه الجزيرة الإيطالية كان هو هدف السياسة الرومانية، لذلك يبدو منطقيا تماما بعد بلوغ هذا الهدف أن يكون للسيادة العالمية مثل هذه الجاذبية التي لا تُخطِئ لكل دولة تدّعي السلطة. كانت شبه الجزيرة الإيطالية بسواحلها الطويلة معرَّضة بشكل دائم لهجمات القوى المعادية لدرجة لا تسمح بإعلان أي خطط توسع إلا بعد أن يتحد البلد سياسيا ويُحصَّن بشكل جيد. الأرض الأم هي وحدة جغرافية عظيمة بحكم الطبيعة، والهدف الرئيس للسياسة الرومانية المحترفة تم توجيهه نحو تحويل هذه الوحدة الجغرافية إلى وحدة سياسية. بواسطة سلسلة من الحروب الداخلية خضع شعب بعد الآخر للدولة الرومانية. في العموم المعاملة التي تلقتها القبائل الإيطالية بواسطة الغزاة كانت أكثر اعتدالا مما مارسوه هم لاحقا نحو الشعوب الخاضعة الأخرى. وكان هذا بوضوح لغرض أسباب سياسية معتبرة جيدا، لأن رجال الدولة الرومان لا يجرؤون على تهديد حكمهم لأرض إيطاليا بالانتفاضات المستمرة من السكان المقهورين إذا ما كان لهم أن يتابعوا تقدم خططهم الأعلى؛ ومن هنا لطف التعامل. نشوب انفجارات بلاد الغال فضلت اتباع هذه السياسة الماكرة، حيث إنها تجعل السكان الأصليين أكثر اعتمادية كثيرا على حماية روما لهم. وهكذا تطور في مجرى الزمن شعور بحميمية أقرب إلى تلك التي تجسدت تدريجيا في "الفكرة القومية": ليس فقط في سكان مدينة "روما" ولكنها غطت كامل شبه الجزيرة وشعر السكان أنهم أنفسهم "رومان".

فقط بعد أن تحقق التوحيد السياسي للأرض الأم، استطاعت السياسة الرومانية أن تضع لنفسها التزامات أوسع، تابعها قادتها فيما بعد بجشع لا يخفي على أحد

ومثابرة عبوس ولم يسمحوا لأنفسهم أبدا بالخوف والتراجع أمام النكبات المؤقتة. بهذه الأهداف الأعرض أمام أعينهم نما في الرومان هذه الثقة الداخلية بالقوة وتلك العجرفة الخاصة نحو الشعوب الأخرى التي تميز كل الغزاة في العالم. روما فور أن أصبحت بؤرة العالم آمنت أنها عن حق مدعوة لإخضاع كل الشعوب الأخرى تحت حكمها. كسبت نجاحاتها لنفسها "رسالة تاريخية" بزمن طويل قبل أن يضع "هيجل" هذه الفكرة في أسس نظريته للتاريخ. في "الإنيادة" (***Aeneid***)، تلك الملحمة القومية للرومان، أعطى "فيرجيل" (***Virgil***)[•] لهذه الفكرة الثابتة تعبيرا شاعريا:

سوف يلمِّع الآخرون بشكل أكثر سحرا التماثيل البرونزية التي تقف كما لو كانت تتنفس

أنحت أنا على يقين بالسهولة نفسها وجوها من الرخام كما لو كانت نابضة بالحياة

ترافع في المحاكم بأدق فصاحة وقس مع عقارب الساعة الشمسية

دورات النجوم في السماء تخبرنا بساعات صعودها

كن أنت أيها الروماني مشغولاً بتجميع قوة سيادة العالم

لك مثل هذه الفنون، إذاً؛ وبعد، لك أن تحتقر وتنزل بهم الضربات

بكل فخر الرجل الذي سوف يقيم عالمًا حيث الناس سلميون!

بعد سقوط قرطاج (***Carthage***) وكورينث نمت هذه الأفكار مع الرومان إلى يقين داخلي، كنوع من الدين السياسي؛ لذا نشأت تدريجيا تلك الآلية المتوحشنة للدولة الرومانية مدعومة بالقوة والنكبات كما وصفها كروبتكين (***Kropotkin***) في كلمات صادمة:

(•) بوبليوس فيرجيليس مارو (٧٠-١٩ ق.م)، فيرجيل، الشاعر الروماني القديم لفترة حكم أغسطس. يعتبر فيرجيل تقليديا واحدًا من أعظم الشعراء في روما. وتعتبر الإنيادة ملحمة وطنية لروما القديمة من وقت تأليفها وحتى يومنا هذا. على غرار إلياذة وأوديسة هوميروس، تتبع الإنيادة إينيس الذي فر من طروادة وهو يسعى لتحقيق مصيره ويصل إلى شواطئ إيطاليا، وهو في الأساطير الرومانية الفعل المؤسس لروما. في الكوميديا الإلهية، يظهر فيرجيل دليلا لدانتي في الجحيم والمطهر. [المترجم]

المملكة الرومانية كانت دولة بالمعنى الحقيقي للكلمة. حتى يومنا هذا تظل نموذجا للمشرعين والخبراء القانونيين. غطت مؤسساتها مملكة قوية بشبكة من خيوط عنكبوتية لا تُرى. كل شيء يصب متجمعا في روما؛ الحياة الاقتصادية والحياة العسكرية والعلاقات القانونية والملكية والتعليم بل وحتى الدين. من روما أتت القوانين، والقضاة والفرق العسكرية الحامية للبلاد، وكبار شاغلي المناصب الحكومية والآلهة. تصل الحياة الجماعية للمملكة إلى قمتها في مجلس الشيوخ، ولاحقاً في القيصر، إله المملكة كلي المعرفة وكلي القوة. كل ولاية كل مقاطعة لديها "كابيتول" صغير، يمثل كِسرة من السيادة الرومانية، مهمتها إرشاد الحياة الجماعية. قانون مفرد يُفرَض من روما كان له الحكم على المملكة بأسرها. هذه المملكة لم تكن بأي معنى اتحادا للمواطنين؛ لقد كانت حظيرة رعايا[١].

في الواقع كانت روما الدولة بامتياز، الدول التي اعتنت بالكامل بعمل مركزية جبارة لكل القوى الاجتماعية. لم تستطع دولة أخرى الاحتفاظ بسيطرتها العالمية كل هذا الزمن الطويل؛ ولم تمارس دولة مثل هذا النفوذ القيادي على التطورات السياسية اللاحقة في أوروبا وعلى شكل مؤسساتها القانونية. ذلك النفوذ لم يختف بالكامل حتى يومنا هذا؛ بل حتى إنه قد زاد في السنوات الأخيرة منذ الحرب العالمية [الأولى]. "فكرة روما" كما سمَّاها شليجل ما زالت أساس السياسة في كل "الدول الكبيرة" الحديثة، حتى عندما تتخذ أشكال هذه السياسة مظهرا مختلفا.

إذا ما قابلنا في كل أنحاء التاريخ الإغريقي روح الاستقلال الذاتي وتقطع الأوصال القومية الكامل، نجد في روما من البدايات الأولى فكرة الوحدة السياسية الشاملة التي وجدت أكثر تعبيراتها اكتمالا في الدولة الرومانية. لم تطور إمبراطورية أخرى فكرة الوحدة السياسية لمثل هذه الدرجة وزرعته بهذا العمق في الحياة الواقعية. لقد سرت الفكرة عبر كل التاريخ الروماني وشكلت إذا ما جاز لنا الحديث شعار محتواها الجماعي.

بالطبع لم تفكر روما أبدا في تسليم أو منح أي حقوق قومية أو سياسية من أي نوع للأراضي المفتوحة بالغزو والتي تقع خارج شبه الجزيرة الإيطالية والتي تم دمجها في المملكة كولايات. الأجنبي –حتى عندما يغزو الرومان بلاده– لا توجد له حقوق في روما مطلقا. وإنه لأمر مُميِّز لنمط تفكير الرومان أن لغتهم تعطي كلمة واحدة فقط لفكرتي "الأجنبي" و"العدو" وهي كلمة "***hostis***". أكثر من ذلك تصبح فكرة خطأ بالكلية التي تقول إن الدولة الرومانية شغلت نفسها فقط بالاستغلال الاقتصادي للشعوب الخاضعة، وفي مقامات أخرى استرشدت بمعالجتها للمقهور بأفكار عالمية. يدا بيد مع الإخضاع العسكري والسياسي مضى مشروع "رومنة" المناطق المقهورة بالغزو؛ وتم تنفيذ ذلك بمثابرة عنيدة. فقط أظهر الرومان نحو الأديان اتساع أفق معين – طالما لا يوجد في الطريق أي خطر على تفوقهم. وفي هذه الصلة يجب ألا ننسى أنه في روما خضع الدين بالكامل حتى لأغراض الدولة. لذلك لم تكن هناك كنيسة تستطيع الوقوف كمنافس للدولة. كل عبادة خضعت لإشراف الدولة. نظم مجلس الشيوخ كل الشئون الدينية، كما يتضح من المراسيم التي لا حصر لها. خضع الكهنة لموظفي الدولة وبجوار ذلك كانت المناصب الكهنوتية الأعلى كلها في أيادي قيادات رجال الدولة أو أيادي مجلس الشيوخ.

في مملكة عالمية مثل روما كل عبادة هي مقبولة بشكل متساوٍ ما دامت تخضع بنفسها للدولة. فعليا ضرب الإسكندر المقدوني مثالا موحيا في هذا المقام بجعل التسامح مع نظم الأديان الأجنبية أداة للسلطة السياسية. فقدم طاعته لأبيس (***Apis***) المصريين أو إله اليهود بالتشريفات نفسها التي كان يقدمها لزيوس إله الإغريق. يعلق "ماوزر" بقوله، "مثل هذا التسامح الذي هو فعليا لا مبالاة أصبح منذ البدء مع الرومان أداة فريدة لإمبرياليتهم الدائمة، وسياستهم لغزو العالم". ومع ذلك إذا ما أصبح دين من الأديان سببا للقلاقل والمتاعب أو واقعيا خطرًا على الدولة، ينتهي التسامح سريعا ويبدأ الاضطهاد. كان ذلك هو الأساس في الهجوم على المسيحيين الأوائل الذين ضرب مذهبهم في نفس أسس الإمبراطورية والذين رفضوا تقديم التبجيل الإلهي لشخص الإمبراطور. نبع الاضطهاد الديني في روما دائما من دوافع سياسية.

أظهر دين الرومان قليلا مما هو بدائي. لقد استعاروا عناصر من العقيدة الدينية من كل شعب على قدر الإمكان وضموا هذه العناصر معا في جسم أفكارهم. فاليوم الرأي الموحد في موضوع العقيدة هو أنهم اشتقوا جزءا كبيرا من عبادتهم القديمة من الإتروريين . وهذا على نحو خاص صحيح فيما يتعلق بإيمانهم في الشياطين وفي الطقوس الإيمانية المنظمة بدقة لصلواتهم التي تلعب دورا في كل مرحلة من حياتهم اليومية. يعلق "إليزيه ركليوز" (**Elisee Reclus**) على ذلك بحدة قائلا:

"طقوس المحاكم والقصور الحكومية والمعابد والمساكن الخاصة التي اتبعها الرومان تقريبا دون تغيير لمدة قرون كانت مثل تلك الطقوس التي تبناها الإتروريون. من أي زاوية نظر يراها المرء مهما تكن، لا يستطيع المرء تجنب الخروج باستنتاج أن الشعب الروماني قد تغذى على جسد الإتروريين بما يشبه كثيرا تلك الحشرات التي تجد طعامها كله جاهزا في خلايا الدم المُعدَّة سلفا لها".[٢]

لا يستطيع المرء التعرف في أي حالة من الدين الروماني تتبع من دين الهيلينيين، كما يحدث غالبا. من الصحيح وجود العديد من الاستعارات في عباداتهم من الإغريق؛ ونفس الأمر صحيح مع عدد من آلهتهم. ولكن المرء لا يستطيع أن يستنبط من هذا علاقة أصيلة بين الديانتين. فشعب كئيب وغير شاعري مثل الشعب الروماني لا يمتلك فهما على الإطلاق للنشاط البهيج عند الأوليمبوس الإغريقي. السلوك التلقائي الحر للآلهة الهيلينية من الصعب توليفه مع الإحساس الروماني بالنظام. كان الدين يعني عند الرومان عبودية روحية، كما يكشف عنه في اشتقاق الكلمة نفسها. إلا أن العبودية ببساطة لا تنحدر من الهيلينيين؛ فهم بهذا المعنى لا دينيون. "زيوس" بالنسبة لهم هو أبو الآلهة، وغير ذلك فهو موهوب بنفس الامتيازات بالضبط وبنفس نقاط الضعف كما كل الآلهة الأخرى. إلا أن "جوبيتر" (**Jupiter**) المُبجَّل عند الرومان كان بشكل خاص تماما الإله الوصيّ الحارس على "الكابيتول" (**capitol**) والدولة الرومانية.

تعدد الآلهة عند الإغريق كان تصوفا منيرا بشكل شاعري فيه تتجسد القوى الطبيعية المتنوعة في آلهة سماوية فردية. بين الرومان لا تُجسِّد الإلوهية شيئا ما أكثر من مبدأ مجرد بتطبيق عملي واحد. وهكذا كان لديهم آلهة للحدود وللاتفاقيات وللرفاه وللسرقة وللوباء وللحمى وللرضا وللقلق ولمن يلجأ إليه المؤمن في الحالات الخاصة. ترتبت أماكن سكن الآلهة بنفس ترتيب الدولة الرومانية بالضبط:

لكل إله منصبه الخاص به، حيث لا يشاركه في عمله أي فرد آخر. لأن الدين الروماني مثل كل شيء آخر، مخصص لأن يكون عمليا ولخدمة غرض معين؛ كامل العبادات استنفدت نفسها في طقوس جامدة بنفس قدر خلوها من أي روح. بل إن حتى عبادات المصريين والسوريين والفرس والآخرين التي وجدت لها لاحقا مسكنا بين الرومان كان عليها أن تضبط نفسها مع نفس الطبيعة الغريبة الخاصة بالدولة الرومانية. وقفت فكرة الوحدة السياسية بين الرومان رأسا ضد كل اعتبار آخر، مادة حازمة من مواد العقيدة يجب ألا ينالها التشويه ودون حاجة لشرحها.

إذا ما كان التأكيد صحيحا بأن الوحدة القومية أو السياسية هي أمر لا غنى عنه من أجل تطور ثقافي يستمر دون عائق لشعب من الشعوب، فمن ثم يجب أن يحجب الرومان بظلهم كاملا كل الشعوب الأخرى في التاريخ فيما يتعلق بكل من القدرة الإبداعية والنشاط الثقافي، لأن التمسك بمثل هذه المفاهيم وسط الرومان لا يضاهيه شعب آخر في هذا الحزم وهذا الشمول. أكثر من ذلك، امتدت هيمنة روما عبر فترة ألف ومائتي عام؛ لم تستمر قوة عالمية أخرى مثل هذه الفترة الزمنية. لذلك لا يستطيع أحد أن يؤكد أن الرومان لم يكن لديهم الوقت الكافي حتى يطوروا قدراتهم الثقافية تطويرا كاملا. ورغم ذلك، فإن أكثر المعجبين تطرفا بالدولة الرومانية و"العبقرية السياسية" للرومان لن يغامر بالتأكيد على أنهم كانوا شعبا خلاقا ثقافيا أو أن من الممكن مقارنتهم حتى ولو في الأحلام بالهيلينيين الممزقين سياسيا وقوميا بالكامل. مجرد التفكير في مقارنة كهذه سوف يكون خيانة لكل الثقافة. كل

العقول المرموقة التي لم تعتم نظرتها الفكرية بواسطة "إرادة أن تتسلط" تتفق على أن الرومان كانوا عموما شعبًا بلا خيال بمصالح سياسية فقط وأنه نتيجة لهذا الهوس السياسي الخالص لم يكن لديهم تفهم للمغزى الأعمق للثقافة. كانت إنجازاتهم الثقافية الحقيقية ذات أهمية هامشية؛ فهم لم يقدموا في أي مجال ثقافي مساهمة مدهشة واحدة؛ ظلوا دائما جنسا مُقلِدا. بالطبع لقد عرفوا كيف يختصون أنفسهم بمنتجات الآخرين الإبداعية وكيف يستغلونها لمصلحة غاياتهم الخاصة. وفي نفس الوقت، كانوا يصيبونهم دائمًا بجرثومة الموت، لأن المرء مع الحصانة لا يستطيع تقييد الجهود الثقافية في أشكال سياسية.

يمتلك كل شعب مواهب وقدرات إبداعية معينة، ولسوف يكون جحودا أن ننكر كل ذلك على الرومان. ولكن هذه القدرات الطبيعية قد تم تقييدها بواسطة ظروف خارجية على البيئة الاجتماعية وتم حصرها في اتجاهات محددة. أو لنتكلم مثل نيتشه، كل شعب –بالضبط مثلما كل إنسان– يسيطر فقط على قدر كلي من قواه وطاقاته وهكذا الكثير من هذا المجموع الكلي الذي تم إنفاقه على تملك العالم أو في مجهود سياسي هو بالضرورة يُخصَم من النشاط الثقافي. ذلك هو نفس التفكير الذي ألبسه "هيجل" هذه الكلمات: "ثُبِّت المبدأ الروماني بالكلية في التملك والسلطة العسكرية. لم يكن لديه نقطة بؤرية فكرية كهدف لاحتلال أو لإشباع العقل". الوحدة المُقيَّدة لهيكل الدولة لم تكن من النوع الذي منح مدى حرًا لطاقات الرومان الثقافية. على العكس، كامل تاريخ الدولة الرومانية الذي يساوي اثنى عشر قرنا أعطى برهانا شافيا بأن الوحدة السياسية هي شيء وحده، والنشاط الثقافي هو أمر آخر.

سلط الرومان العذاب على مواهبهم الطبيعية حتى الموت على "سرير بروكرستيز" (***Procrustean bed***) للوحدة السياسية. إطار العمل المتصلب للماكينة العسكرية والبيروقراطية عرقل كل فكرة خلاقة. لقد خلقوا من الدولة إلهًا أرضيا يرشد كل شيء، ويحدد مصير كل شيء، ويقرر كل شيء، وبصنعهم هذا أخمدوا كل نبضة نحو النشاط المستقل والتلقائي عند ميلادها. لقد قدموا العالم بأكمله –وأنفسهم– قربانا لهذا "المولوك" (***Moloch***). وكلما زادت الدولة الرومانية امتدادا وقوة على

مجرى القرون، فقط انكمشت في الإنسان بأكثر كثيرا جدارتـه الروحيـة وأهميتـه الاجتماعية، وبشكل أكثر اكتمالا بالضبط ذبل إحساسه بشخصيته ودافعه نحو الخلـق الثقافي الذي لا يستطيع احتمال قهر سياسي.

كشف الرومان عن هذا خصوصا في فنهم الذي يمثل بين كل شـعب النقطـة العالية في إبداعه الثقافي. حتى بعد الإخضاع الكامل لكل البلاد المحيطة بهـم، فـي المتوسط لا يستطيع المرء الحديث عن فن روماني على الإطلاق. كـل شـيء فـي روما من الممكن تصنيفه في مجال من مجالات الفنون التشخيصية حتى ذلك الوقـت كان ذا أصول إترورية أو يونانية. من السهل التقاط تأثير الإتروريين فعلا في أيـام روما الأولى. لاحقا خرج من المستوطنات اليونانية في جنوب شـبه الجزيـرة هـذا التدفق الآخر الذي أتى لأول مرة بالشعب الإيطالي في اتصال لصيق بفن الهيلينيـين. من غزو اليونان بعد الحرب "البونيقية" (*Punic*)(*) الثانية والإلحاق القـسري للـبلاد بالمملكة الرومانية، جاء الاتحاد المباشر الذي مثّل بالنسبة للهيلينيـين فـي الأزمنـة المتأخرة نكبة فادحة ولكنه جلب أول أشكال الثقافة الأعلى داخل روما. سرق القـادة الرومان المدن اليونانية من معظم كنوزها الأكثر روعة وسحبوا منها إلى روما كـل ما أمكن نقله. من الثروات المذهلة من الكنوز الفنية المسروقة لا نستطيع إلا بصعوبة وضع مجرد تقديرات. يخبرنا "تاين" في كتابه "فلسفة الفن": "عندما نكبت روما العالم اليوناني بالكامل استحوذت على سكان في وضع تقريبا مساو لوضع شـعبها. إنهـم

(*) الحروب البونيقية سلسلة من ثلاث حروب دارت رحاها بين روما وقرطاج مـن ٢٦٤ قبـل الميلاد إلى ١٤٦ قبل الميلاد. تأتي التسمية بالبونيقية من الكلمة اللاتينية بونيقـوس، ومعناهـا "القرطاجي"، إشارة إلى الأصل الفينيقي للقرطاجيين. السبب الرئيسي في الحروب البونيقية هو تضارب المصالح بين الإمبراطورية القرطاجية القائمة والجمهورية الرومانية التوسعية. فـي بداية الحرب البونيقية الأولى، كانت قرطاج قوة مهيمنـة فـي غـرب البحـر المتوسـط، كإمبراطورية بحرية واسعة النطاق. كانت روما قوة صاعدة سريعا في إيطاليا، لكنها تفتقـر إلى قوة البحرية القرطاجية. بحلول نهاية الحرب الثالثة، بعد أكثر من مائة عام، وفقدان مئات الآلاف من الجنود على الجانبين، غزت روما قرطاج، ودمرت المدينة تماما وأصبحت أقوى دولة في غرب البحر المتوسط. [المترجم]

اليوم يقدّرون عدد التماثيل الموجودة في روما ومحيطها بعد كل هذه القرون وبعد كل التدمير الذي لحق بها بأكثر من ستين ألفاً".

ولكن الرومان لا يمتلكون أي نوع من الفهم الداخلي لهذا الفن. فهم يزينون بيوتهم ومدنهم بصور إغريقية بشكل ما مثل حديثي النعمة الأغنياء الأمريكيين اليوم الذين يبدأون بشراء "رمبرانت" (***Rembrandts***) و"فان دايك" (***Van Dycks***) لأنهم يعتقدون أنهم يدينون بها لمركزهم الاجتماعي. ومن أين يحصلون على مثل هذا الفهم؟

الاستمتاع السعيد بالحياة عند الآريين الشرقيين وبهجة الهيلينيين في العري، في جمال الطبيعة البشرية هي في كل تفصيل من تفاصيلها غريبة بالكامل على الرومان. لا يمتلك الروماني مسرحيات العطلات المدهشة، وهو لا يسبغ الشرف على الشعراء ولا الكتاب، وهو محتشم للغاية حتى أن زوج الابنة غير مسموح له بالاستحمام مع حميه. ما يميز الروماني هو شدته وأسلوبه. يجب عليه أن يعرف أن بيته منظم ودولته منظمة. حياته العائلية منضبطة بصرامة ولذلك كئيبة للغاية؛ إنه يطلق على بناته أسماء "الخامسة" و"السادسة" ويقضي على ابنه بالموت إذا ما عصاه. وعلى غير منوال معظم الآريين هو يعطي قيمة عالية للمظاهر الخارجية، وعلى الاحتفاظ بحسن الصورة الخارجية. الرزانة الكرامة اللياقة - تلك هي تعبيراته المفضلة، كلمات على لسان شيشرون (***Cicero***) الطريف والمهذار تصبح مؤثرة بشكل مزدوج[٣].

ولا عجب بالتأكيد عند التمسك بمثل هذا المفهوم للحياة أن يلاقي مَن يسمون "الرومان المتفردون" اقتحام أنماط الحياة الإغريقية لحياتهم دائما بقدر معين من الخجل أو حتى بعدوانية محددة. أخذ هذا النفور مع العديد منهم أشكالاً غريبة تماما. وهكذا حذر "كاتو الأكبر" (***Cato the Elder***)[*] ابنه من الأطباء اليونانيين مؤكدا تدبير

(*) كاتو الأكبر (٢٣٤-١٤٩ قبل الميلاد)، اسمه ماركوس بورسيوس كاتو والذي يعرف أيضا باسم كاتو الرقيب، وكاتو الحكيم، وكاتو القديم. عضو مجلس الشيوخ الروماني ومؤرخ اشتهر بالروح المحافظة ومعارضة الحضارة الإغريقية. وكان أول من كتب التاريخ باللاتينية. [المترجم]

الإغريق لمؤامرة ضد الرومان تعيَّن فيها للأطباء مهمة دس السم لكـل المـواطنين الرومان من خلال عقاقيرهم(•)، وكاتو هذا نفسه أعلن أن سـقراط محـرض عـالي الصوت مثير للمشاكل استحق تماما مصيره. وتنبأ أيضا أنه عندما تتشبع روما تماما بتعاليم الفلسفة الإغريقية سوف تفقد مِلكيتها للعالم. مالـك العبيـد جامـد المـشاعر والمرابي الذي لا يرحم يتكهن غـريزيـا بـأن الثقافـة ومِلكيـة العالـم نقيـضان لا يتصالحان، فأيهما يستطيع تأكيد نفسه فقط على حساب الآخر.

قدر ما كانتِ عليه عدم حساسية الرومان الكاملة والغبية نحو كل تجربة ثقافية أعلى حتى نهاية الحرب البونيقية الثانية فهذا ما يظهِره الدمار القاسي غير الإنـساني مطلقا الذي ألحقه القائد الروماني "لوشيوس ماميوس" (***Mummius Lucius***) بمدينـة كورينث، أحب مدينة في اليونان. مع عدم رضاه عن ذبح كل السكان القادرين علـى حمل السلاح وبيع النساء والأطفال في العبوديـة وإباحـة المدينـة لنهـب الجنـود الهمجيين، قام بإشعال النار في المدينة وفي الأخير لم يترك فيها حجرا على حجـر. حدث ذلك قبل إنزال نفس المصير بمدينة قرطاج بوقت قصير حيث استمرت النيران مشتعلة بها لمدة سبعة أيام، وفرشوا نفاياتها على الأرض. ثم جرى المحراث عليهـا رمزا لعدم رحمة الرومان.

ورغم كل هذا فلم تستطع روما الهرب من تأثير الثقافة الهيلينية، وراحت كـل تحذيرات كاتو ومناصريه أدراج الرياح. تستطيع الجيوش الرومانية إسـقاط اليونـان بقوة السلاح وتستطيع أن تجعل من هيلاس ولاية رومانية ولكنها لا تستطيع بناء سد ضد طوفان الثقافة الهيلينية. هوراس (***Horace***)(••) الشاعر الرومـاني وضـع هـذا الاعتراف في هذه الكلمات:

(•) لا شيء جديد تحت الشمس. اليوم لدينا "جوليوس سترايـشر" (***Julius Streicher***) الـصديق المحبوب لهتلر، الذي اتخذت معه مناهضة السامية واقعيا شكلا مرضيا، وهو يؤكد علـى أن الأطباء اليهود قد اشتركوا في مؤامرة لدس السم للشعب الألماني. [المؤلف]

(••) كوينتس هوراشيوس فلاكوس (٦٥-٨ قبل الميلاد)، المعروف بهـوراس فـي الإنجليزيـة، شاعر غنائي روماني رائد في عهد أوغسطس (واستمر أيضا في عهـد أوكتافيـان). يـزعم كينتيان البليغ أن قصائده اللاتينية هي الوحيدة التي تستحق القراءة. تزامنت مسيرته مـع التغييـر=

هيلاس تغلبت، تغلبت على سادتها الجهلاء،

حملت الفن بلطف إلى داخل "لاتيوم" (*Latium*) حتى تهزمها.

أبيات الشعر الكئيب الغشيم قد اختفت. طعم أرقى من ثم تخلص من

الجاف والطارد، رغم أن بقايا ظلت طويلا تظهر هناك

من الفظاظة المبكرة، وهي لم تختف بعد على الإطلاق؛

لأن العقل الروماني يتحول متأخرا نحو الحروف الإغريقية.

بعد الحرب البونيقية، هو يستريح في فتور، هو يعتقد أنه يستفسر

ما الذي يستطيع أن يجنيه من سوفوكليس و"تسبيس" وأسخيليوس.

إلا أنه سرعان ما حاول إلباسهم عن جدارة خطابا لاتينيا.

لا، لم تستطع روما التملص من هذا الغزو السلمي للثقافة الأعلى، الأكثر تهديدا للروح الرومانية من "هانيبال" (***Hannibal***) أو اعتداءات البرابرة. الانتشار الواسع للهيلينية سبب تغيرا عميقا في البدايات المتدنية القميئة للشعر الروماني البدائي. قوات كاملة من رجال المعمار والرسامين والنحاتين والحدادين وخبراء تشكيل البرونز ونحاتي العاج اليونانيين عملوا في قصور الأرستقراطية الرومانية – عديد من بينهم عبيد جرجروهم إلى روما بالقوة. عدد كبير من بين هؤلاء العبيد كان مُزوَّدا بكل كنوز المعرفة الهيلينية، وبدوا كما لو كانوا مدعوين للإتيان لسادتهم بثقافة فكرية وروحية أعلى. لكل هذا لم يتقدم الرومان أبدا في ممارستهم للفنون متجاوزين التقليد العبودي للأعمال الأصلية الأجنبية، وقد كان أمرا مُميِّزا أنه في كامل تاريخ

=التاريخي في روما من الجمهورية إلى الإمبراطورية. كضابط في الجيش الجمهوري، كان صديقا لساعد أوكتافيان الأيمن في الشئون المدنية، ميسيناس، وأصبح هوراس المتحدث باسم النظام الجديد. بالنسبة لبعض المعلقين، هوراس حافظ على التوازن الدقيق مع النظام بقدر كبير من الاستقلال، ولكن بالنسبة لآخرين مثل جون درايدن، هو عبد البلاط المهذب. [المترجم]

روما، التاريخ الأطول المكون من اثني عشر قرنا لا نجد سوى أكثر قليلا من نصف دستة من الفنانين العظام فعلا، أي، فنانين مُلهَمين بأفكارهم الخاصة، بينما تقريبا كل مدينة يونانية – باستثناء أسبرطة وحدها – استطاعت أن تحتوي على فيلق كامل منهم.

حتى ما يُسمى "العصر الذهبي" (*Golden Age*) لم يقدم سوى القليل ويُمكِن تمييزه كفن روماني حقا. عرض "جوزيف سترزيجوفسكي" (***Strzygowski Joseph***) بشكل قاطع أن الفن الروماني في عصر الإمبراطورية كان مجرد المرحلة الأخيرة من الهيلينية الآفلة التي كانت مراكزها لتوجد في آسيا الصغرى، وسوريا ومصر. في ذلك الوقت ظهرت في الهيلينية تأثيرات شرقية قوية مؤدية تدريجيا إلى خلق ما يُسمى الفن البيزنطي، الذي لم يكن في جوهره رومانيا(٤). أنتج الرومان فقط في العمارة طرازا جديدا؛ ولكن حتى هنا يجب ألا ننسى أن معظم المباني الظاهرة في زمن الإمبراطورية كان قد تم تشييدها تحت توجيه معماريين أجانب. في البداية استعار الرومان فن البناء من الإترورييين كما ظهر بوضوح في الشكل المميز لمعابدهم الأولى. لاحقا عند اشتداد عود الثقافة الهيلينية المتأخرة بشكل دائم في روما، أصبحت الروح الإغريقية فاعلة بشكل أكثر وضوحا في العمارة، رغم أن النمط الإتروري ظل باقيا لزمن طويل بشكل لا تخطئه عين. تعلم الرومان من الإتروريين فن بناء الأقواس والأقبية التي جلبها الأولون معهم من الشرق. وبالتطبيق العملي ومزيد من التطوير لهذا الفن استطاعوا لاحقا تنفيذ هذه الأعمال العامة العظيمة التي تصيبنا حتى اليوم بالدهشة. فن الأقبية أدى من ثم في تطوره الأوسع إلى بناء "القبة" (*coupola*) التي قدمت مبدأ جديدا في العمارة. الأثر الجليل لهذا الطراز بلغ قمة تعبيره في "البانثيون الروماني" (***Roman Pantheon***) الذي يُنسَب تشييده إلى "أبوللو الدمشقي" (***Apollo of Damascus***).

ذلك أن الرومان في فن الرسم لم يتجاوزوا القدرة المتوسطة فذلك أمر يعرفه كل فرد. كما أنهم لم يمتلكوا أبدا أي شعور عميق نحو الموسيقى.

لاحقا، حظر الوطنيون الألمان القدامى في مجلس الشيوخ حتى عام ١١٥ قبل الميلاد استخدام الآلات الموسيقية، فقط نظروا إلى الناي الإيطالي البدائي نظرة

حسنة. بالطبع لم يُنفَّذ هذا الإجراء بشكل دائم قسرا، فقد اختفى قبل تقدم الهيلينية ولكن حتى لاحقا بزمن طويل ظلت الموسيقى مُودَعة بالكامل بين أيادي العبيد الإغريق. ولقد كان أمرا مميزا تماما أن الرومان تقريبا فشلوا كاملا في مجال الفن التشكيلي. ورغم تزيين مدنهم بالأعمال المجيدة المسروقة من اليونان إلا أنهم تركوا بالكلية فن النحت بين أيادي الفنانين الهيلينيين الذين أتوا بهم إلى روما كعبيد. وهكذا هناك في روما طوروا مدرسة "الاتيك" (*Attic*) الحديثة التي أنتجت أعمالا عظيمة جدا. كل الأعمال المشهورة عالميا لتلك الفترة مثل "أعمدة الفتيات العاريات الحاملة للسقف" في البانثيون (*caryatides of the Pantheon*)، ومُصارِع بورغيز (*Borghese gladiator*) و"فينوس دي ميدتشي" (*Venus de Medici*) و"هرقل الفارني" (*Farnese Hercules*) صنعهم إغريق. حقا نحن لا نعلم من هو مُبدِع "أبولو بيلفيدير" (*Apollo Belvedere*) ولكن هناك شكًا في أنه كان إغريقيا؛ جهود الرومان المُفسِدة للفن التشكيلي لا تسمح لنا بأي استنتاج آخر.

لا توجد شعوب أصيلة بالكلية في إبداعها الفني. حتى الإغريق حرّكتهم وخصَّبتهم فكريا ثقافات أخرى؛ ولكن الإغريق استخدموا المادة الأجنبية بطريقتهم الخاصة، حتى أصبحت جزءا من تفكيرهم ومشاعرهم الخاصة. وهذا هو السبب وراء أننا عندما ننظر في قطعة فنية من عمل الإغريق التي نعرف أن إنتاجها قد تم تحت سيطرة تأثير أجنبي لا نشعر بالعنصر الأجنبي، أو في الأقصى نحس فقط باضطراب خفيف عند تحديد العمل الهيليني ضمنيا. لا يشعر المرء أبدا مع الهيلينيين أنهم يقلدون أشياء أجنبية؛ كل شيء محل تجربة بمشاعر حميمة داخليا. مع الرومان يستطيع المرء عموما وضع يديه على مكان التقليد على الفور. وهي ليست مسألة نقص المعرفة الفنية؛ بل هي دليلاً بالأحرى على النقص المطلق لوجود فهم ودي نحو الأشياء التي يراها الفنان الروماني فعلا أنها أجنبية. بل وحتى خلال الفترة المزدهرة للثقافة الرومانية لم يقترب المتعلم الروماني أكثر إلى جوهر الفن الإغريقي. "فرايدلاندر" (*Friedlander*) في كتابه "سباق الجنس البشري في روما" (*Sittengeschlchte Rom*) يعلق بعدالة تامة:

في واقع الأمر ورغم كل مظاهر الأبهة الفنية الجديدة والقديمة في روما والممالك الرومانية، لم يكتسب الفن التمثيلي أبدا تأثيرًا على السكان الرومان ككل؛ عندما نرى الأدب الروماني في كليته تعطينا تلك الرؤية برهانا مُقنِعا بلا رد على هذا. من بين مثل هذا العدد الكبير من الشعراء والكتاب في فترات متنوعة معظمهم يقف على قمة التعليم الخاص بزمنه، ويفيدنا كممثل مُعتَمَد بالكامل لهذه الفترة، لم يكن واحدٌ منهم خائنا سواء لمصلحة الفن التشكيلي أو لفهمه. في هذا الأدب المتنوع بشكل عالٍ جدا والذي يغطي فترة قرون ويلمس كل الميول والمصالح المهمة، والذي وجَّه في القرن الأول بعد المسيح (أي في فترة الإمبراطورية قبل هيمنة المسيحية) اهتمامه على الحاضر بشكل خاص، بل وحتى بحث وضعه الفكري بعديد من المديح والتحذيرات، نادرا ما نكتشف فيه ملمحًا من الفهم للجوهر الحقيقي للفن ولا تعبيرًا عن فهم لعظمة ما يحققه الفن. أينما ذُكِر الفن الروماني نجد إما عدم فهم صريح أو على الاقل نجده دون دفء أو تعاطف. ومهما يكن عدد الأفراد الرومان الذين ربما نجحوا في اختراق جوهر الفن الإغريقي تظل الثقافة الرومانية على اتساعها دائما نائية وغريبة.

هذا الرأي السيىء في الفن الذي انتقل مع كاتو والحزب الروماني القديم إلى ازدراء صريح وعلني تجده في كل مكان. تتخلل كتابات شيشرون ملاحظات تزدري الفن والفنانين. التطور الهائل للعبودية في روما أدى بشكل طبيعي إلى احتقار عميق للعمل، جعل الرومان المبتذلين يضمون الفن إلى ذلك. قول "بلوتارخ" (***Plutarch***) المشهور يحمل مغزى مدهشا في هذه الصلة. (بالمناسبة هذا المعلم المزعوم للإمبراطور هادريان (***Hadrian***) كان يوناني المولد إلا أن ما يثير الدهشة هو تحقق الطريقة الرومانية في التفكير بأوضح تعبير في أغلب أعماله).

يقول بلوتارخ: "لا يوجد شخص شاب محترم ينظر إلى زيوس في "بيزا" (***Pisa***) أو "هيرا" (***Hera***) في "أرجوس" (***Argos***) ويرغب بناء على ذلك في أن يكون

فيدياس (*Phidias*)(•) أو أبلس (*Apelles*)(••)، رغم أن العمل قد يكون مقبولا أو مرضيا لنا إلا أن مبدعه على أية حال سوف يستحق حسدنا".

الظواهر نفسها تعلن عن نفسها في أدب الرومان. ورغم تعدّد جوانبه يظل الأدب الروماني ككل أدب محاكاة. يتطلع المرء دون جدوى نحو شخص مثل سوفوكليس أو اسخيليوس أو اريستوفانيس؛ مع استثناءات قليلة، يتنفس الأدب كله روح التوسط الكئيب. ككل ظل الأدب في روما دائما أحد سلع الرفاهية للأقلية صاحبة الامتيازات، ولم يستطع أبدا أن يضرب بجذوره بين الشعب ذاته. لم يقدم "العصر الذهبي" (من ٨٠ قبل الميلاد حتى ٢٠ قبل الميلاد) أي استثناء لذلك. في أثينا إنتاج سوفوكليس أو أريستوفانيس لمسرحية كان حدثا يحرّك كامل السكان. في روما من الصعب الشعور بمثل هذه الأمور، واشتكى هوراس بمرارة من أن الناس سوف تفضل التسلية بأداء راقص الحبل أو مهرج الشارع أكثر من التعلم بواسطة إنتاج درامي. ومثل كل شيء في روما كان الأدب أيضا فوق كل شيء في خدمة أغراض الدولة. أعلنها كاتو الأكبر هكذا صراحة وكرّس عملا كاملا لذلك. في زمن الجمهورية بلغ الأدب مستوى قليلاً؛ بينما في ظل القيصرية كان الأدب في خدمة البلاط. لذلك لا يوجد أدب آخر مملوء بأكثر أشكال النفاق إثارة للاشمئزاز نحو أولئك العظماء على الأرض مثل الأدب الروماني. لا تستعرض روح الخنوع ولعق الأحذية نفسها بهذه الصراحة وعدم الخجل في أي أدب آخر. لم يتواجد زمن تمرغ فيه الشاعر أو الفنان في الهوان كما حدث في "العصر الذهبي".

(•) فيدياس (٤٨٠-٤٣٠ ق. م) نحات ورسام ومعماري يوناني قديم. صاحب تمثال زيوس أحد عجائب الدنيا السبع. كما صنع تمثال الإلهة أثينا في أكروبول أثينا، وتمثال أثينا بروماخوس، وهو تمثال برونزي ضخم بين أثينا وبين البروبيليا، بمثابة بوابة ضخمة لمدخل اكروبول أثينا. [المترجم]

(••) أبلس من كوس (القرن الرابع قبل الميلاد) رسام مشهور من اليونان القديمة. بليني الأكبر، الذين ندين له بالكثير من معرفتنا بهذا الفنان، وضعه في مكانة متفوقة على الفنانين السابقين واللاحقين. [المترجم]

في البداية تم إنتاج أدب فريد في روما عبر تأثير اليونان، بناء على ذلك أُطلِق على الأدب الروماني بشكل عادل أنه انعكاس معتم للهيلينية وهي تلفظ أنفاسها. ما كان يظهر في روما سابقا على ذلك كأدب يكاد لا يستحق الاسم. وهذا يصبح صحيحا خصوصا مع "الأشعار الرصاصية الكئيبة" (***Saturnine verses***)، وهي أغاني الأجازات الخالية من الفن وذات المحتوى الضئيل والخشبية الخالية من الحياة. افتقد الرومان ملحمة مثل تلك الملاحم التي تمتلكها معظم الشعوب. لا توجد علاقة بين التاريخ الأسطوري لروما والأدب الروماني. (أول محاولة لإنتاج ملحمة كان في زمن الإمبراطورية لمدح كبرياء القياصرة). ثم جاءت "الأغاني الفاحشة" (***ninesFescen***) أغاني الأعراس الماجنة، التي تُغنَى بشكل ارتجالي، ثم لاحقا "الأغاني الأتيلانية" (***Atellanes***)(*) نسبة لمدينة "أتيلا" (***Atella***) الأوسكانية (***Oscan***)، التي تواجد بها التأثير الإغريقي بشكل محسوس. ولكن تلك البدايات المبكرة نحو أدب بدائي اختفت بالكامل من المشهد عندما شقت الهيلينية طريقها إلى روما، وأصبح التعليم الإغريقي هو رطانة الطوائف المتميزة.

الشعراء الأوائل الذين يُعتبَرون عادة مؤسسي الأدب الروماني، هم "ليفيوس أندرونيكوس" (***Livius Andronicus***) و"غنيوس نيفيوس" (***Gnaeus Naevius***) و"كوينتوس إنيوس" (***Quintus Ennius***)، والثلاثة إغريق، أولهم عبد معتوق ترجم هوميروس إلى اللاتينية. وقد كانت ظاهرة فريدة أن شعبًا يلعب في التاريخ مثل هذا الدور الطويل والمهيمن على العالم يجب أن يدين ببدايات آدابه إلى الأجانب. تشبع بلاوتوس (***Plautus***) و"تيرينس" (***Terence***)، الخليفتان المباشران لهؤلاء الثلاثة، كاملا بالروح الهيلينية، وأعادا في أعمالهما بشكل أساسي صياغة للأصول الإغريقية. أكثر من ذلك، جاء تيرينس من قرطاج وقد جلبوه إلى روما كعبد حيث استرد حريته لاحقا من سيده اعترافا بموهبته.

(*) معروفة أيضا باسم ألعاب أوسكان وهي مجموعة من الهزل المبتذل، تحتوي على كثير من الكوميديا الساقطة أو ثنائيات المهرجين والنكات الوقحة. وكانت ألعابًا ذات شعبية جارفة في روما القديمة. ظهرت في روما نحو ٣٩١ قبل الميلاد. [المترجم]

ولكن فرص تطور الفن الدرامي لم تكن في روما هي نفسها في اليونان، وخصوصا أثينا. في هيلاس استطاعت الدراما بلوغ قمم عالية فقط لأن تطورها الطبيعي لم يخضع لأي قيود خارجية. يتطلب كل فن أقصى أنواع الحرية تصورا من أجل تأكيد حياته في كامل عظمته – وفن الدراما أكثر من أي شيء آخر يحتاج إلى هذه الحريات. لم توجد مثل هذه الحرية في روما. في أثينا تواجدت أكثر أنواع الصلات حميمية بين المسرح والحياة العامة للمجتمع، حتى أن بيريكليس مثل أي رجل آخر كان عليه تحمل هجمات ضده من خشبة المسرح بلطف ورضا. لن تُعتبَر في روما مثل هذه الجرأة سوى اعتداء على حصانة الدولة. الإغريقي "نيفيوس" (*Naevius*)، واحد من أوائل كتاب الدراما في الأدب الروماني، عندما جرؤ في واحد من أعماله الكوميدية السخرية من نبيل مرموق، أجبروه على الاعتذار علنا وأرسلوا به إلى المنفى، حيث مات. لهذا السبب لم تستطع الدراما أن تضرب بجذورها بين الناس. ماذا تكون المصلحة التي يستطيع أن يجدها الروماني العادي فيها؟ المادة المُقدَّمة له على خشبة المسرح كانت مستعارة من حياة شعب أجنبي لا يستطيع مشاركته تجاربه العقلية والروحية. المادة التي تستطيع الاستيلاء على انتباهه والإمساك به هي تلك المادة التي تمثل الوقائع الفعلية من حياته العامة التي يشارك فيها، ولكنهم حظروها من على خشبة المسرح.

وقع شعراء زمن الجمهورية بالكامل تحت هيمنة الأدب الهيليني، ولحد بعيد الجزء الأعظم من عملهم اقتصر على ترجمة النصوص الأصلية الإغريقية بشكل ما أكثر أو أقل. اللون الأدبي الوحيد الذي أظهر وقتها ثم لاحقا درجة من الاستقلال كان هو السخرية، خصوصا بعدما أعطاه "لوشيليوس" (*Lucilius*)(•) شكل القصيدة الساخرة التي فيها طبعا أخذ من النماذج الإغريقية إيماءاته. في ظل الإمبراطورية وقع الأدب بالكامل تحت الرعاية الأبوية للبلاط. حتى ممثلوه الأكثر أهمية "فيرجيل"

(•) غايس إنيوس لوشيليوس (١٨٠–١٠٣ قبل الميلاد)، الهجّاء الروماني المبكر، لم يبق سوى شطرات قليلة فقط من كتاباته، وهو مواطن روماني من طبقة الفرسان، ولد في سويسا أورانكا في كامبانيا. [المترجم]

(*Virgil*) و"هـــوراس" (*Horace*) و"أوفيـــد" (*Ovid*)[*] و"تيبولـــوس" (*Tibullus*) و"بروبيرتيوس" (*Propertius*) لم يستطيعوا تحرير أنفسهم من هذه القيود الخرقــاء، ورغم قدراتهم اضطروا لحرق البخور أمام الإمبراطور وحاشيته المفضلة والاحتفال بفضائلهم كأشباه آلهة. وهكذا "إنيادة" فيرجيل التي نالت المديح المفرط التـــي حـــاول فيها -مقلدًا هوميروس- أن يخلق لروما ملحمة قومية، ربما أنها لم تكن لتُكتَب أبـــدا إذا لم يخطر للشاعر أن يرتفع "بآنياس الطروادي" (*Trojan Aeneas*) إلى موقع سلف عائلة جوليان (*Julian*) التي انحدر منها الإمبراطور (أغسطس). من الظروف التـــي أملت على فيرجيل وصيته التي أمر فيها بحرق قصيدته البطولية التي لم تكـــن قـــد نُشِرت بعد، يستطيع المرء أن يستنتج أن الشاعر في نوبة انفجـــار لاحترامـــه لذاتـــه شعر بالعار من انحطاطه. كان شعراء العصر الذهبي منفردين وجماعـــة معتمـــدين على الغني والقوي في الدولة، الذي يستطيعون شراء أفضاله فقط بواسطة الانحطاط الذاتي والنفاق الذليل. بعدما جمع "ميـــسالا" (*Messala*) و"ميـــسيناس" (*Maecenas*) و"أغسطس" (*Augustus*) حولهم حاشية كاملة من الشعراء يتقلبون في وهج ســـيدهم الكريم، أصبحت صيحة العصر أن يحتفظ كل مُحدَث الثراء بشاعره الخـــاص الـــذي يوفر له فرص النجاح والذي يقوم بدوره بالمساهمة في تأليهه. "هوراس" الذي حاول دائما مقاومة إغراءات "أغسطس" (والذي رغم ذلك قام هـــوراس بتأليهـــه بـــلا أي استحقاق) اعترف لنا في "رسائله" (*Epistles*) كيف أن الحاجة المُذِلة للخبز دفعته إلى قرض الشعر. وبعد أن أخبرنا كيف ساقه مصيره إلى مغادرة "أثينا الطيبة" ليعود إلى "روما"، وصل الشاعر إلى اعترافاته:

عندما استدعاني "فيليبي" (*Philippi*) للعودة من خدمتي هناك

مُحبَطا، مقصوص الجناح، مسروقًا من قطيعي في مراعي بلدي

(*) بوبليوس أوفيديوس ناسو (٤٣ ق.م-١٧ م)، والمعروف باسم أوفيد، شاعر روماني عاش في عهد أوغسطس. كان معاصرا لفرجيل وهوراس. أشهر أعماله التحولات. أثر إلى حد كبيـــر فى الفن والأدب الغربي خلال العصور القديمة المتأخرة والعصور الوسطى. [المترجم]

نعم من المراعي نفسها، ثم الفقر العابس، الوقح،

دفعني لإقراض الشعر

الآن امتلك وسيلة لعيشي،

حيث يوجد ما يكفي من الشوكران (شراب السم) ليُطهِّرني بالكامل،

إذا ما كان النوم يجب أن يبدو لي أفضل من قرض الشعر؟

هذا الاعتراف العجيب لواحد من أعظم الشعراء الرومان الذي لا تعوزه المأساة الضمنية هو اعتراف مُميِّز لظروف الفترة الزمنية. أن تحفر كدودة لتصل إلى منصب شاعر هو أعز أمنية لجحافل من المخلوقات التي يسوقها الجوع والذين اكتسبوا بشكل أو بآخر تعليما إغريقيا يحاولون الآن إيجاد سوق له بتلاوة إطراء ومديح موزون مقابل أجور عظيمة. في العصر الذهبي كان لمهنة الشاعر عمليا أن يتخلى عن رجولته ويصبح مدَّاحًا أجيرًا للأغنياء والأقوياء. لا يحتاج المرء سوى قراءة متأنية للإطراء المثير للاشمئزاز الموجه لأسياد "مارشيال" (***Martial***) و"ستاشيوس" (***Statius***) حتى يدرك إلى ماذا وصل أدب الدولة في ذلك العصر، عندما أصبح كل شيء للبيع. مما له مغزى أنه فقط أكثر المستبدين قسوة وهولا هم الذين مجَّدهم شعراؤهم. استقرت القيصرية مثل ثقل ضخم على كامل الحياة العامة؛ لقد حولت الأمة إلى حشد من الأذناب من بين زعمائهم شعراء يحتلون الصف الأول. أصبحت الحالة أكثر إثارة للأسف ومثيرة للتمرد بينما يستفحل التمزق الداخلي تحت التملك المشين للقياصرة. "بيرسيوس" (***Persius***) و"بترونيوس" (***Petronius***) وخصوصا "جوفينال" (***Juvenal***) صوَّروا لنا الحماقة الأخلاقية العامة لزمنهم. احتل "جوفينال" على الأخص الدرجة الأولى في التقاط العادات وسخريته منها، خصوصا الرسالة السادسة التي استعرضت قدرة بارعة على الوصف الواقعي.

لو تناول المرء أدب روما ككل، يصل المرء إلى اقتناع بأن إنتاجها المستقل أفقر من أي أدب آخر، ولا يستطيع أدبها تحمل أدنى مقارنة مع أدب الهيلينيين الغني والخلاق. فهو يعتمد كلية على الأخير. وممثلوه باستثناءات قليلة جدا حرصوا حرص

العبيد على تقليد الإغريق تماما. حتى العمل المدهش مثل "جمار أبولايوس الـذهبي" (*Golden Ass of Apuleius*) الذي يُصنًف دون شك من بين أكثر المساهمات فخـرا للتأليف الروماني، لم يكن ليظهر في الوجود دون الدافع الفكـري والقـدرة البنـاءة للإغريق. أحب جزء في هذا العمل "قصة كيوبيد والروح" (*episode of Cupid and Psyche*) تُظهِر ذلك دون حاجة لأي توضيح. فقط كتابة التاريخ، التي امتلكت جاذبية أكبر عند الروماني صاحب الروح العملية من الرونق الوردي للـشعر، كانـت لهـا أصالة معينة ملحوظة في الاستعراض، خصوصا عندما تعامل الكاتب مع الأحـداث الجارية من خلال تجربته الخاصة. ولكن حتى هنا يجب ألا يتغاضـى المـرء عـن حقيقة أن "الفكرة الرومانية" تكمن في قواعد كل الكتابات تقريبا.

في الفلسفة اعتمد الرومان حتى أكثر على الإغريق من أي شيء آخـر. لـم يثروا العالم بأي فكرة واحدة جديدة، ولكنهم ارتضوا الاستمرار فى اتبـاع الخطـوط القديمة للفكر وإعادة إنتاجها في شكل أضعف. ويجب ألا يفكر المرء فـي مـدارس فلاسفة أثينا والمدن الإغريقية الأخرى. مثل تلك الظواهر لم تكن كلها معروفـة فـي روما. هنا لا يوجد سقراط واحد يكلم كل المواطنين علنا؛ الفلسفة الداخلية في رومـا كانت فقط في قصور الأثرياء، حيث كانت بالنسبة لهم صيحة اللحظـة، مثـل الفـن والأدب. حارب الوطنيون من الحزب الروماني القديم الفلسفة بنفس الـشراسة التـي أظهروها نحو الفن الهيليني. في عام ١٧٣ قبل الميلاد، طُرِد أصحاب مذهب "أبيقور" (*Epicurus*) من روما؛ ثم بعدها باثنتي عشرة سنة نفوا كل الفلاسفة والهراطقة مـن العاصمة، لاستشعارهم خطرا من تعاليمهم على الدولة. أعطى اختراق الهيلينية داخل روما مجالا أوسع للفلسفة ولكن معلميها كان ينُظِر إليهم دائمـا بقـدر مـن الريبـة ومورس اضطهاد للفلاسفة خصوصا الرواقيين (*Stoics*) تحت حكم كـل الأبـاطرة الرومان تقريبا.

من بين النظم الفلسفية عند الإغريق وجـد فقـط الإبيقوريـون والرواقيـون والمتشككون (*Skepticism*) قبولا واسعا بين الرومان المتعلمين. ولكن أنصار هـذه المذاهب لم يغنوا مفاهيم الإغريق بأي أفكار من إنتاجهم. وعندما حاولوا إنتاج مفاهيم

أصيلة فقدوا أنفسهم في اصطفائية (*eclecticism*) ضحلة افتقدت بالكلية قوة الإقناع الداخلية. لقد كان هناك زمن يُكرَّم فيه شيشرون كمفكر عميق؛ واليوم من المعترف به منذ زمن طويل أنه لم ينتج فكرة أصلية واحدة ولكنه حصر نفسه في إعداد التجميعات الأكثر سطحية التي يُمكِن تصورها عن أعمال المفكرين اليونانيين – العديد منهم عرفناهم هكذا لأول مرة، حتى ولو كان ذلك في صورة باهتة كثيرا. قد قال ماوزنر عن حق: "شيشرون لم يكن لديه مكان في تاريخ الفلسفة وعلى الأكثر ربما مكانه في تاريخ تاريخ الفلسفة أو تاريخ المصطلحات الفلسفية؛ فهو الذي فاق كبرياؤه تقريبا شهرته اللاحقة وقد نذر نفسه بشكل محدد معتمدا على الإغريق – فهو ذاته فقير في الأفكار وغني فقط في الكلمات غير المسكوكة".(٥)

القصيدة التعليمية المضيئة التي ألفها "لوكريشيوس" (**Lucretius**) واسمها "فيما يتعلق بطبيعة الأشياء" (***De rerum natura***) هي دون شك استعراض مدهش لمذاهب إبيقور، ولكنها ليست أكثر من ذلك. وهذا يتفق أيضا مع كل خط الفكر عند "بليني" (***Pliny***)(•) و"لوسيان" (***Lucian***) والإبيقوريين الرومان الآخرين. ومن الممكن قول الكثير من نفس الشيء عن الرواقيين الرومان؛ فهم بالمثل لم يساهموا في مذهبهم بفكرة من لدنهم، وتقع أهميتهم الأعظم بالكثير في ميدان الحياة السياسية. وجود معظم الساخرين بين الرواقيين وفي روما أعطى الهزل فرصة فقط لقذف الأحجار من مكان مستور على نوافذ الطابق الأعلى. جاهد الرواقيون من أجل إصلاح الظروف الاجتماعية؛ ولهذا السبب جلبوا على أنفسهم أحيانا غضب المستبدين، الذي عبر عن نفسه غالبا في اضطهادات قاسية. مضى العديد منهم إلى حد بعيد في أفكارهم؛ مثلا، عارض "سينيكا" (***Seneca***)(••) العبودية، وفي العديد من خطاباته خصوصا في

(•) غايوس بيلينوس سكوندس (٢٣ م – ٧٩ م)، المعروف باسم بليني الأكبر المؤلف والفيلسوف الطبيعي الروماني، فضلا عن كونه قائد البحرية في جيش الإمبراطورية الرومانية المبكرة وصديقًا شخصيًا للإمبراطور فيسباسيان. قضى معظم وقت فراغه في الدراسة والكتابة والتحقيق في الظواهر الطبيعية والجغرافية، وكتب العمل الموسوعي، الحالة الطبيعية تاريخ شعب، والذي أصبح نموذجا لجميع الموسوعات الأخرى. [المترجم]

(••) لوسيوس سينيكا أنيوس أو ببساطة سينيكا (٤ ق.م – ٦٥ م) فيلسوف رواقي ورجل دولة روماني، وكاتب مسرحي، وصاحب عمل واحد فكاهي، من العصر الفضي في الأدب=

الرسالة التاسعة عشرة، وصل إلى استنتاجات اشتراكية بشكل فريد. بالطبع يجب ألا نهمل ذكر أن المرء لا يستطيع التوفيق بين حياة سينيكا جيدا مع تعاليمه؛ فقد كان عليه أن يواجه في مجلس الشيوخ اتهامات بأنه قد جمع ثروته (ترك خلفه ثلاثة ملايين ستسترس (*sesterces*)، قل نحو خمسة عشر مليون دولار) عن طريق الخداع في التركات وممارسة أشر أنواع الربا.

لا يوجد مجال في الحياة الفكرية ميَّز الرومان أنفسهم فيه بأصالة واستقلال التفكير. لذلك يجب اعتباره ميزة خاصة امتلاكهم لمثل هذه الطاقة على الاستيلاء على اكتشافات وابتكارات الآخرين واستغلالها لأنفسهم من أجل أغراضهم الخاصة. اعتماديتهم الفكرية على الإغريق تبدو بوضوح في كل ميادين نشاطهم العلمي. لم يتقدموا بخطوة واحدة متجاوزين الأسس الأولية التي أرساها الإغريق في العلم؛ وفي مجالات أخرى تخلفوا كثيرا حتى عن هذا. ويصبح ذلك صحيحا خاصة في علوم فلكهم ومفهومهم عن هيكل الكون. استولوا من الإسكندريين على النظام البطلمي، الذي به توارى إلى الخلفية المفهوم المستلهم من أريستارخوس الساموسي (*Aristarchus of Samos*) لمدة ألف عام حتى قاد كوبرنيكوس (*Copernicus*) الفكر الإنساني مرة أخرى إلى الطريق السليم. بالطبع في روما خدم العلم أيضا مصالح الدولة فقط. ويتفق مع هذا أن كل التعليم أيضا قد انحط، ليصل تحت هذه الإمبراطورية إلى تلك الحالة من الانتفاخ التافه البالي التي صورها "شلوسر" (*Schlosser*) هذا التصوير المدهش:

> **التنظيم الصارم الشامل للفكر طرد كل الحيوية والطبيعية من الحياة؛ أصبح العلم خادما للغايات العابثة والمبتذلة؛ كانت المدارس والمدرسون والطلاب العديدون ضحايا بدرجة متساوية لفراغ الخيال**

=اللاتيني. وكان المعلم والمستشار في وقت لاحق للإمبراطور نيرون. اضطر إلى الانتحار بسبب تهمة التواطؤ المزعوم في مؤامرة لاغتيال نيرون، وترى بعض المصادر أنه ربما كان بريئا. والده سينيكا الأكبر، وشقيقه الأكبر لوسيوس جونيوس جاليو مذكور باسم جاليو في الكتاب المقدس، وابن أخيه هو الشاعر لوكان. [المترجم]

والفخر المتعجرف والطعم الكاذب وعدم الاقتناع. وراء أناقة الحديث المجيد واللعب الفكري بالمفاهيم والأفكار والمعلومات، تُرصَد جلافة القلب وفراغ الروح وأنانية المشاعر والفهم بالغ السطحية.

الشعب الذي يُصنف فيه المجهود السياسي أعلى كثيرا من أي مساهمة فكرية، لا يستطيع تحقيق شيء آخر مختلف. وبالضبط كما كان الدين بالنسبة للرومان ليس سوى قمة العبودية الروحية، هكذا أيضا بجّلوا في الدولة مبدأ العبودية السياسية والاجتماعية التي تُوِّجت بالخضوع الكامل للإنسان أمام الآلة السياسية. ذلك أن فكرة الدولة التي استقرت معهم منذ البدايات الأولى على أساس عسكري، تطورت تدريجيا إلى القيصرية وبلغت أعلى نقطة لها في رفع الإمبراطور إلى مكان الإله الواقعي، تلك كانت النتيجة المتوقعة الطبيعية لمبدأ السلطة الحازمة، هذا المبدأ الذي لن يخضع لأي فحص وليس متاحا لأي تناول بشري أن يصل إليه. "رودولف فون جييرنج" (***Rudolf von Jehering***) العالِم القانوني المعروف جيدا أصدر حكمه على الرومان في هذه الكلمات:

> **من الممكن تعيين الشخصية الرومانية بفضائلها وأخطائها كنظام للأنانية المنضبطة. المبدأ الرئيسي الذي يؤطر هذا النظام هو أن التابع يجب أن يضحي من أجل مَن يعلوه، والفرد للدولة والحدث التفصيلي للقانون المجرد، واللحظة للحالة الدائمة. الشعب الذي ينتشر بينه أن فضيلة الخضوع الذاتي ما زالت هي طبيعة ثانية في وجود أعلى حب للحرية، هذا الشعب يُستدعى للسيادة على الآخرين. ولكن ثمن عظمة الرومان كان بالتأكيد ثمنا باهظا. شيطان الأنانية الرومانية الذي لا يشبع قدم كل شيء قربانا من أجل غاياته: دماء وسعادة مواطنيه أنفسهم بنفس القدر الفعلي الذي ضحى فيه بقومية الشعوب الأجنبية. العالم الذي ينتمي إليه هو عالم بلا روح، مسروق منه أحب ممتلكاته، عالم لا تحكمه الكائنات البشرية ولكن تحكمه القواعد والمراسيم المجردة – آلية ضخمة محل إعجاب لحزمها**

وانتظامها واليقين الذي تعمل وفقا له، للقدرة التي طورتها من أجل سحق كل شيء يعارضها إلى ذرات ولكنها مجرد ماكينة سيدها هو في نفس الوقت عبدها[٦].

الدولة التي تأسس تاريخها كله على مبدأ الغزو والتي في كل مراحل تطورها التاريخي الطويل تمسكت بهذا المبدأ بمثابرة لا تحيد، جاءت من الضرورة التي تحتم الاستسلام الكامل لكل اعتبار إنساني. كانت الحرب هي عنصرها السليم، والنهب الوحشي هو غرض حياتها، الذي تتبعه كل الاعتبارات الأخرى. وهكذا جاءت إلى الوجود تلك العبودية المشينة التي كانت في الواقع جوهر "الرومانية الحقيقية". الدولة التي من واجب كل مواطن فيها من البداية أن يكون جنديا، والتي لا يستطيع المواطن فيها الحصول على منصب عام إلا إذا شارك في عشر معارك على الأقل، هذا المواطن لا يستطيع سوى البطش بسكان هذه الدولة. في الواقع كان الرومان شعبا يتصرف كالهمج. حتى غزو الهيلينية لم يستطع التغيير إلا قليلا، حيث إن تأثيرها لم يصل فعليا إلا لأقلية صغيرة من أصحاب الامتيازات ولم يمس الجماهير الغفيرة إلا بالكاد(•).

(•) ريتشارد فاجنر (*Richard Wagner*) الذي أدرك بوضوح شديد في أيامه الثورية مغزى حرية الثقافة في العموم وفي الفن على الأخص، انفجر غيظا هكذا في عمله "الفن والثورة" (*Kunst und Revolution*) حول الهمجية الضمنية للقومية الرومانية: "الرومان الذي أفسح فنهم القومي مبكرا الطريق أمام فن الإغريق المتطور، واستعملوا خدمات المعماريين والنحاتين والرسامين الإغريق؛ واستغلوا خطاب ونظم الشعر الإغريقي؛ افتتحوا ساحات المسارح العامة العظيمة ولكن ليس للآلهة وأبطال الأساطير وليس للراقصين والمغنين الأحرار في الجوقات المقدسة؛ بدلا فتحوها للوحوش والأسود والفهود والأفيال المفترسة، التي كان عليها تمزيق بعضها البعض إربا لإدخال السرور والبهجة في العيون الرومانية؛ المصارعون العبيد المُدرَّبون لاكتساب القوة والمهارة – كان عليهم دغدغة الأذن الرومانية بصرخات موتهم. غزاة العالم المتوحشون هؤلاء استمدوا السرور فقط من الحقيقة الإيجابية؛ فخيالهم يستطيع التعامل فقط مع الواقعي بشكل مادي. لقد سمحو للفيلسوف بالهرب في وجل من الحياة العامة إلى تكريس نفسه للفكر المجرد؛ بينما من أجل أنفسهم أعطوا المزيد في العلن لاستعراض القتل المادي الملموس، ليروا أمام أعينهم نماذج المعاناة الإنسانية المادية الواقعية". [المؤلف]

ومع ذلك كشف الرومان فـي مجاليـن عـن أصالة فكر وتطبيقاته العمليـة، لا يستطيع أحد بشكل عادل أن يرفض الاعتراف بهما – رغم أنهمـا حقـا يتعلقـان بالمؤسسات الاجتماعية التي من الصعب القول إنهما يـدفعان نحـو تقـدم الثقافـة. فالرومان هم المبدعون الحقيقيون للعسكرية ومخترعو هذا النظام الوحشي الخالي من الروح الذي نسميه "القانون الروماني" (***Roman law***) والذي مـا زال حتـى اليـوم الأساس النظري للدساتير القانونية لما تُسمى "الدول المتحضرة". القانون الرومـاني، المؤسَّس فقط على الحسابات باردة الدم للمصالح الأكثر مادية بشكل خالص، مُنكِـرا في نظريته الاعتبارات الأخلاقية مهما تكن، كان هو النتيجة الطبيعية لمفهوم الدولـة الرومانية. كانت الدولة الرومانية دولة عسكرية، دولة القوة في أضيق معانيها؛ لقـد عرفت فقط حقا واحدا، حق الأقوى. لذلك لم يستطع القانون الروماني أن يصبح شيئا آخر سوى الانتهاك الوحشي لكل فكرة من أفكار الحق الطبيعي. لقد أرسـى أسـس الشكلية الموحشة لكتب القانون الحديثة لدينا التي يُخنَق فيها الوجود الحيوي بواسـطة المبادئ المجردة. ولم يتغير ذلك على الإطلاق بواسطة ما يُـسمى "المـساواة أمـام القانون" التي كانت دائما بشكل عملي كذبة، ونظريا لديها رؤية فقط في مساواة العبيد الذين وجدوا أنفسهم على نفس المستوى من الانحطاط. "هاينريش هاين" (***Heinrich Heine***) الذي كره من أعماق روحه عدم الإنـسانية المتـوحش لمفـاهيم القـانون الروماني، صب قلبه في هذه الكلمات:

> **أي كتاب مخيف "مجموعة القوانين" (*Corpus Juris*) هـذا، تـوراة الأنانية! لقد كرهت دائما قواعدهم القانونية مثلما كرهـت الرومـان أنفسهم. تمنى هؤلاء اللصوص حماية أسلابهم وغنائمهم وما كسبوه بالسيف فحاولوا حمايته بالقانون؛ لذلك كان الروماني في نفس الوقت جنديًا ومحاميًا، يقدم خليطا من النوع الأكثر تمردا. واقعيا يجب علينا شكر هؤلاء الرومان اللصوص من أجل نظرية الملكية – التي كانـت سابقا مجرد حقيقة واقعة – وتطوير ذلك المذهب فـي كـل اتـساقه الحقير بالقانون الروماني المُشاد به والذي يرقـد فـي أسـاس كـل**

مؤسسات دولتنا الحديثة، رغم أنه يقف في تناقض فاضح مع الدين والأخلاق والمشاعر الإنسانية وعقلها(•).

لم يعط أي تشريع من قبل أبدا لمفهوم الملكية هذا الشكل غير الإنساني القاسي والأناني. القانون الروماني يعلن أن الملِكية هي حق استخدام الشخص لممتلكاته وإساءة استخدامها. هذه النظرة التي لا تزال الأساس القانوني لكل استغلال ولكل احتكار اقتصادي لا تخضع لأي حدود ما عدا تلك الحدود التي تقوم على أساس أسباب الدولة. كل محاولاتِ الخبراء القانونيين اللاحقين لحجب أو تخفيف الوحشية الضارة لهذا الإعلان راحت سدى ولم تُثِر سوى غمام من الغبار. أعطى برودون هذا التعبير المدهش:

لقد حاولوا تبرير كلمة "إساءة استخدام" بتفسيرها على أنه لا يجب أخذها بمعنى إساءة استخدام تعسفية في استهانة بالأخلاقيات، ولكنها مجرد إشارة إلى السيطرة غير المحدودة للمالك على ممتلكاته. وهذا تمييز فارغ لا معنى له يُستخدَم ببساطة لتضخيم قداسة الملكية وبه لا تُدمَر متعة الاستحواذ ولا تتأثر بشكل مزعج. ربما يدع المالك فاكهته تتعفن على الأشجار ويستطيع أن يبذر حقوله بالملح، ويستطيع أن يصب لبن أبقاره على الرمال، ويستطيع تحويل الكرمة إلى صحراء ويقلب بستان الزهور إلى حديقة خضراوات فقط لصالح متعته الخاصة. هل كل هذا إساءة استخدام أم ليس كذلك؟ في كل اعتبار للملِكية الاستخدام وإساءة الاستخدام يختفيان معا(٧).

مَنْ يعط للملِكية مثل هذه القوة يجب بالضرورة أن يُصنِّف جدارة الإنسان بصورة منخفضة جدا. وهذا يظهر خصوصا في القانون الروماني للدَين وفي الوضع المُعطَى لرب العائلة. طبقا لقانون الألواح الأثنى عشر، للدائن الحق في أن يأتي بالمَدين أمام المحكمة وإذا لم يضمنه أحد أو يتحمل دَينه فله الحق في بيع المَدين في

(•) *Memoir en, 1854* [المؤلف]

الرق. وإذا ما أقام عدد من الدائنين دعوى قضائية ضد نفس المَدين فمن ثم أعطاهم القانون الحق في قتله وتقطيعه إربا. الحقيقة الموضوعية البسيطة للدَين كانت حاسمة، ولا توجد أي اعتبارات إنسانية تحول ضدها. حق التَملُّك للمالك يقف فوق حياة وحرية الإنسان.

يجد المرء نفس السمات القاسية أيضا في قانون العائلة الروماني. رب البيت يمسك بسلطة الحياة والموت على أعضاء عائلته. هو يستطيع التخلص من الطفل عند ميلاده أو بيعه في العبودية؛ هو يستطيع أيضا إصدار حكم بالموت على أي من يعولهم. من الناحية الأخرى، لا يستطيع الابن تقديم شكوى ضد أبيه، حيث إنه يُعتبَر مجرد واحد من رقيق أبيه. يستطيع الابن إنهاء هذه الإعالة فقط بتأسيس مسكن منزلي يخصه، وهو ما لا يستطيع الإقدام عليه إلا بموافقة والده. "هيجل" الذي هو نفسه المدافع بلا أي تحفظ عن مبدأ السلطة، يعلق بملاحظاته اللافتة للنظر: "بالنسبة للخشونة التي عاناها الروماني من الدولة، وجد تعويضا عنها في الخشونة التي مارسها هو في عائلته – هو قن من ناحية وهو مستبد من ناحية أخرى. أسس هذا عظمة روما؛ فخصوصيتها كانت الإصرار القاسي على وحدة الفرد بالدولة، وبقانون الدولة وبولاية الدولة"(٨).

كان كامل القانون الجنائي الروماني قانونا من قوانين الوحشية المُتعمَّدة والقسوة البربرية. يستطيع المرء الاعتراض بأن القسوة في فرض العقوبة كانت في ذلك الوقت عادات عامة؛ ولكن ما يعطي قانون العقوبات الروماني نغمته الخصوصية، هو ظرف الحال الذي هو هنا أيضا يُفصِّل كل تفصيلة طبقا لأسباب الدولة، وينظر إلى كل اعتبار إنساني بلا مبالاة باردة. وهكذا في سلسلة طويلة من الحالات يصبح من الممكن معاقبة الأطفال من أجل أخطاء ارتكبها آباؤهم؛ علّق عليها الحكيم شيشرون بوداعة: "الخشونة التي تعاقب الأطفال عما ارتكبه آباؤهم من سوء أفعال تملؤني بالحزن، ولكن يبقى أنها بند حكيم في قوانينا، لأنه عن طريقها، الأب بوسيلة أقوى من كل الروابط، بواسطة الحب الذي يشعر به نحو أطفاله سوف يلتزم بمصلحة الدولة".

هذه البنود وبعضها الآخر كانت في الأزمنة اللاحقة أخف وأكثر اعتدالا، ولكن الجوهر الداخلي لطبيعتها لم يتغير. من السهل تخمين نصيب العبد في ظل مثل هذا النظام من القوانين. كان العبد كاملا دون حقوق، وفعليا كان من الصعب النظر إليه كإنسان؛ في أحسن الأحوال كان يعتبرونه المرء الذي كان سابقا إنسانًا. أهون عصيان، أهون عدم خضوع أو حتى الأشياء التي لم يكن مسئولا عنها مطلقا يلقى جزاءها بانتقام وحشي. قد يجد مثل هذه التعيس لسانه منزوعا وكلا كفيه مقطوعين وتُخزَق عيناه ويُصَب في حلقه الرصاص المغلي، وبعد أنواع التعذيب هذه ربما يثبتونه في صليب بالمسامير أو يُلقَى به إلى الوحوش المفترسة لتلتهمه - كل ذلك بواسطة حق السيد غير القابل للمساءلة.

يبذل المعجبون بفكرة الدولة الرومانية كل جهد لتعويض خلل نقص أي مشاعر عميقة نحو الثقافة بين الرومانيين، وهو حتى ما يضطرون للاعتراف به، ويأتي هذا التعويض عن طريق الثناء غير المحدود "لروح التشريع الروماني" الذي يُنظَر إليه كعمل من أعمال الفن، إلا أنهم يجدونه واقعيا أمرًا مذهلا. ولكن ضد ذلك هناك كثير من الكلام ليقال. رجل ليس أقل من "تيودور مومسن" (***Theodor Mommsen***) في كتابه "تاريخ روما" (***Romische Geschichte***) أصدر هذا الحكم على القانون الروماني:

> **"اعتاد البشر مدح الرومان كشعب موهوب بشكل خصوصي في فقه القانون وينظرون بإعجاب ممزوج بالدهشة إلى نظمهم القانونية الممتازة كما لو كانت هبة أسطورية سقطت عليهم من السماء، ربما يعود السبب في ذلك بشكل أساسي ليوفروا على أنفسهم بعضًا من العار الذي يلحق بهم نتيجة الوضع المزري الذي عليه قوانينهم الخاصة. إلقاء نظرة على القانون الروماني الجنائي الهش والمتخلف بشكل لا يُقارَن يجب أن تكشف عدم معقولية هذه المفاهيم المُوحِلة حتى بالنسبة لأولئك الذين يبدو لهم أنه إفراط في التبسيط القول إن شعبًا من الأصحاء سوف يمتلك قوانين صحيحة؛ وشعبًا من المرضى ستكون قوانينه مريضة".**

فقط من الممكن لمثل هذه الدولة أن تصل بشكل كامل تماما إلى نظام العسكرتارية. ليست العسكرتارية ولا المؤسسة العسكرية هما نفس الشيء، رغم أن وجود الجيش النظامي القائم يُعتبَر أول الشروط المسبقة لوجود العسكرتارية. يأتي تقييم العسكرتارية أول كل شيء كحالة نفسية. إنها تخلي المرء عن أفكاره وإرادته الخاصة، وتحويل الإنسان إلى ميكانيكية ميتة تحت سيطرة الخارج وتُدار من الخارج، ينفذ بشكل أعمى كل الأوامر الصادرة له دون أن يكون واعيا بمسئوليته الشخصية الخاصة. في كلمة واحدة العسكرتارية هي أخس وأحط شكل للروح العبودية مرفوعة إلى مكانة الفضيلة القومية التي تحتقر كل قواعد العقل وتخلو من كل الكرامة الإنسانية. فقط دولة مثل الدولة الرومانية حيث قيمة الإنسان ليست أكثر من مجرد جزء ميكانيكي من آلة تهضم الجميع، وتُقيِّم فيها القوة الباطشة كمبدأ أعلى للسياسة، هي الدولة التي تستطيع إحداث مثل هذا التشوه بالعقل الإنساني وهكذا ترسي أساس النظام المشين الذي ما زال جاثمًا بثقل الجبال على الشعوب بل وحتى اليوم هو الخصم المميت لكل تطور ثقافي أعلى. العسكرتارية والقانون الروماني هما النتيجتان الحتميتان "للفكرة الرومانية"، المفهوم الذي يشوش العقول اليوم بأكثر مما كان أبدا. لم تستطع ثورة بهذا أن تقيد "الفكرة الرومانية"، ولا أن تقطع الحبل الذي يربط بيننا وبين ماضٍ اختفى منذ زمن طويل. بالنسبة للإغريق، مؤسسات حياتهم المجتمعية كانت وسيلة لغاية. في روما كانت الدولة غاية في حد ذاتها، يتواجد الإنسان لمصلحة مؤسساتها التي أصبح عبدا وتابعا لها.

كُتِب الكثير عن سقوط الإمبراطورية الرومانية، وبرز للأمام كل تفسير متصورٌ لهذا الانهيار الجبار. يرى البعض سبب الانهيار في "الثقافة بالغة الرقي الزائد عن الحد"، والآخرون في الإهمال الكامل للأخلاقيات. مدرسة واحدة في هذه الأيام لديها الكثير لتقوله عن "تخريب روح العِرق" - مهما يكن ما تعنيه ربما هذه العبارة الفارغة- وتحاول جاهدة لتمثيل أفول روما "ككارثة عرقية" - رغم أنه في هذا بشكل عمدي يتم تجاوز حقيقة أن روما نفسها صدرت عما يُسمى "الفوضى العرقية"، التي لم تمنع الرومان من لعب دورهم التاريخي في تاريخ العالم إلى

النهاية. إلا أن الأسباب الواقعية لسقوط الإمبراطورية الرومانية هي ظاهرة أكثر كثيرا بوضوح مما عليه تلك الأسباب وراء الأحداث التاريخية الأخرى. إذا ما فحص المرء كل تفاصيل هذا الانهيار الجبار دون السماح للنفس بأن تضل الطريق بواسطة مفاهيم مسبقة مبنية بشكل اصطناعي يجب على المرء أن يصل إلى نفس استنتاجات المؤرخ الإنجليزي "جيبون" (***Gibbon***)(•): "ليس العجب في أن روما سقطت، ولكن في أن السقوط تأجل كل هذا الوقت الطويل". ولكن حتى بالنسبة لهذا التأجيل هناك تفسير: ماكينة الدولة الرومانية كانت مُشيَّدة بقوة والرجال مقتنعون اقتناعا شاملا باستقرارها الذي لا يهتز حتى أنها إذا جاز لنا الكلام تدير نفسها بنفسها، وتتغلب على كل العوائق لمدة طويلة بعد تأسيسها إن لم تكن قد فسدت تماما. روما كانت ضحية لجنون السلطة الخاص بها وما يصاحب هذا الجنون بشكل حتمي. جاهد قادة الدولة الرومانية بشكل لا يتوقف وفي عمى مخدوع من أجل امتداد حدود ممتلكاتهم ولم يتوقفوا أمام أي وسيلة لتحقيق ذلك مهما تكن وحشية أو مثيرة للتمرد. فهم أنفسهم أطلقوا الكارثة التي اجتاحتهم في يوم من الأيام.

الإسراف الأسطوري للطبقات صاحبة الامتيازات في زمن السقوط، والاستغلال معدوم الضمير لكل شعب، والانهيار المعنوي الكامل للحياة الخاصة والعامة لم يكن كل ذلك نتائجًا لانحلال الاجناس المادي، ولكنها العواقب الحتمية للشره القاسي الذي ألقى عالمًا بأكمله في الأغلال. نهاية مثل هذه السياسة كانت بالضرورة هي التمزق الكامل لكل الحياة الاجتماعية.

سحق جبروت روما كل شيء اتصل بها، دون تمييز لشعب أو عرق. حتى شعوب الشمال أظهرت نفسها في هذا الموضوع عاجزة عن المقاومة، ولم يتحمل "الدم الجرماني" تقديم حماية لهم ضد الفساد الشامل لنظام اضطهاد يُنفَّذ حتى نهاياته المُرَّة. في أحسن الأحوال استطاعوا فقط وضع الماكينة القاسية مؤقتا بين أياديهم،

(•) إدوارد جيبون (١٧٣٧-١٧٩٤) مؤرخ إنجليزي وعضو برلمان. عمله الأكثر أهمية، تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية، نشر في ستة مجلدات بين ١٧٧٦ و ١٧٨٨. يشتهر الكتاب بالنثر الساخر، واستخدامه لمصادر أولية، ونقده الصريح للدين المنظم. [المترجم]

وبفعلهم ذلك أصبحوا في نفس الوقت عبيدها دون شرط، وسحقتهم تـروسها التـي لا ترحم تماما مثل كل من سبقوهم.

علامات السقوط كانت ظاهرة بوضوح فـي زمـن الجمهوريـة. لـم تكـن الإمبراطورية سوى وريثة لسياسة حروب الجمهورية وتوسعت بها إلـى أقـصاها. كذلك لم يجن غزاتها إلا مغانم قليلة طالما تعلقت الحـرب بإخـضاع سـكان شـبه الجزيرة الإيطالية بأحجامهم الصغيرة، حيث كانت إيطاليا نسبيا بلـدا فقيـرا. ولكـن الظروف القديمة تغيرت جوهريا بعد الحرب "البونيقية" الثانية. الثروات الهائلة التـي تدفقت إلى روما أدت إلى تطوير اقتصاد سرقة رأسمالي جبار دمر كاملا كل أسـس البناء الاجتماعي القديم. "سالفيولي" (*Salvioli*) الذي تابع كل تفريعة لهذا النظام حتى أدق تفاصيله وصف بشكل مقنع نتائجه:

> **بعد الانتصارات الباهرة التي فتحت أفريقيا وآسـيا للرومـان، بلغـت المملكة أقصى اتساعها. ومن آسيا خصوصا، هذه الأرض الأسطورية للفن والصناعة، هذه المدرسة العليا للرفاهية والتذوق، هذا المـورد الذي لا ينـضب لتقـدم دولـة الفلاحـين و المنـدوبين الـساميين (*proconsuls*) اعتصرت القوة الأكثر بطشًا وقسوة سيلا من الـذهب والفضة. لم يتوقف هذا عن تجريف إيطاليا حتى نفاد المنبـع نفـسه. الخزائن التي تراكمت في الشرق وفي بلاد الغال وفي العالم كله وتلك التي ما زالت مهنة التنقيب عن المعادن تنتجها حتـى اليـوم، كلهـا انهمرت في وقت واحد على روما في صورة أسلاب حـرب وجزيـة وثمار للنهب وضرائب؛ وتلقت كل الأجزاء الأخرى من إيطاليا نصيبها من الازدهار العام حتى ولو كان متواضعا. أصـبحت رومـا وظلـت لبعض قرون السوق العظيم للثروة المعدنية. انتقال مسعور لـشهوة السلطة والجشع أمسك بشعب الفلاحين المحاربين البسيط هذا حتـى أنه كان يقيس شهرة قادته بكميات الذهب والفضة التي يأتون بها في مواكب انتصاراتهم. وجعل ذلك أن تكون ممارسـتهم هـي نـزف دم**

الشعوب المقهورة حتى الموت وبيع أفضال روما لحلفائها بأعلى سعر يستطيعون الحصول عليه. لم يعد هناك شيء مقدس لهذا الجشع؛ داسوا على الحق والعقل في الأوحال دون خجل. ملك قبرص بطليموس (*Ptolemy of Cyprus*) كان معروفا بامتلاكه لخزائن دولة ممتلئة عن آخرها وسفن احتفالات ملكية؛ لذا صدر قانون فوري أعطى لمجلس الشيوخ الروماني الحق في أن يرث من "الحليف" الثري طوال حياته. اعتبر مجلس الشيوخ خزائن كل العالم مجرد ممتلكات خاصة رومانية، والمهزوم لا يستطيع أن يدعي ملكيته لبنس واحد... هذا النهر الضخم المهول لم يُسمَح له بالتدفق هادئا دون انقطاع؛ رأي هذا القادة المنتصرون والمندوبون الساميون وجباة ضرائب الفلاحين الذين كانوا كلهم جوعى لثروات الملوك والشعوب المهزومة. آلاف التجار والمغامرين تتبعوا القطعات العسكرية يدفعون النقد السائل مقابل الأسلاب والغنائم التي كانت تُقسَّم بين الجنود ويأخذون من البلاد المفتوحة بالغزو أي شي يتركه القادة العسكريون وراءهم(٩).

وهكذا نشأ النظام الكارثي للمضاربين والغشاشين الذين كان هدفهم الوحيد في الحياة هو المغنم، والذين جاهدوا لانتزاع أرباحهم من كل شيء دون أقل اعتناء بما قد تكونه العواقب. تطور أكثر أنواع الربا مدعاة للعار إلى نظام قاتل الذي، ربما ببطء ولكن بشكل أكيد يجب أن يدمر في الأخير قواعد الحياة الاقتصادية الجماعية نفسها. هناك نشأ رأسماليون كبار وشركات أسهم رأسمالية حصلت من الدولة على امتياز جمع الضرائب من بلدان ومقاطعات بأكملها. وقد وفر هذا على الدولة الكثير من العمل والإزعاج، ولكن استُنزِفت آخر نقطة من دماء أوردة البلاد التي سقطت بين مخالب مصاصي الدماء هؤلاء، لأنهم لم يرحموا شيئا أثار جشعهم. وبنفس الطريقة قسَّموا إدارات الدولة ومشاريع التعدين الحكومية؛ لقد أمدوا البعثات بالتجهيزات الضرورية وجمعوا دائما رؤوس أموال أكبر؛ لقد نظموا تجارة العبيد

على المبادئ الميركانتيلية وأمدوا الأعمال الضخمة بموادها البشرية؛ بكلمة لقد كانوا دائما هناك إذا ما كان هناك ربح ليكسبوه.

شارك رجال الجمهورية الفضلاء في هذه السرقات بأعظم أريحية، وجمعوا ثروات عظيمة كمرابين ووسطاء عبيد أو مضاربين عقاريين. كاطو، الذي ما زال في مدارسنا ينال التكريم بوصفه فضيلة للرومانية القديمة في صورة شخص، كان في الحقيقة منافقًا مشينًا ومرابيًا بدم بارد لا يتورع عن وسيلة أبدا لتوسيع غاياته الأنانية. ربما يقول المرء إنه، كان النغمة الصحيحة لعصره عندما سك القول: "إنه الواجب الأول وأقدس واجب للإنسان أن يصنع النقود"! وضع بلوتارخ في فمه ككلماته الأخيرة تلك الكلمات المميزة: "أعمال الغزاة تسر الآلهة، ولكن أعمال المقهور تسر كاتو". إلا أن كاتو لا يمثل أي استثناء بين "الرومان الفضلاء" في زمانه. حتى قاتل الطاغية، "بروتوس" (***Brutus***)، الشهير بتراثه الذي يرتدي زركشات الاستقامة الصارمة، كان مرابيا لا قلب له، تماما مثل كاتو وآلاف آخرين، وممارسات أعماله كانت غالبا ذات طبيعة قابلة جدا للمساءلة حتى أن كاتو محامي المرابين والمضاربين الذي لا يُشَق له غبار، تجنب العناية بشئونه في المحاكم.

ومع ذلك القضية الأكثر أهمية لحد بعيد والتي ساعدت على ختم كارثة روما هي خراب ملاك الأراضي الصغار، الذين كانوا أقوى حصون التفوق الروماني. الحروب الدائمة والناجحة أجبرت الفلاحين الصغار الجوعي للثروات الأجنبية على الذهاب بعيدا عبر هذا الطريق الخطر والذي كان لأبعد حد الطريق القاتل للغزاة. سحق المدن الإترورية في الشمال وغزو المستعمرات الإغريقية في جنوب شبه الجزيرة قد حرّك فعلا وبقوة جشع الرومان. ثم عندما شنوا بنجاح أول حرب في الأراضي الخارجية بدأوا اتباع سياسة عالمية وتبعها كل شيء آخر من ذات نفسه. على المدى الطويل السياسة العالمية وطبقة فلاحية مزدهرة هما شيئان لا يتصالحان. الفلاح الذي يتعهد مزرعته ينمو في التربة التي يفلحها. الحرب المتواصلة مع انسحاب دون انقطاع لآلاف الرجال من العناية بالأرض يجب في مجرى الزمن أن يكون تأثيرها مدمرا لأكثر مدى أبدا. نظام في ظله خمسة وعشرون رجلا من كل

مائة رجل أعمارهم بين السابعة عشرة والرابعة والخمسين يحملون السلاح بشكل دائم يجب أن يؤدي هذا النظام لا محالة إلى سقوط الفلاحة التقليدية القديمة. أكثر من ذلك، ارتفعت الدولة بشكل علني بحرفة السرقة إلى سياسة، وبدا تراكم الثروة بواسطة القوة هذا في أعين الفلاحين أكثر ربحية من الفلاحة المرهقة للأرض. وهكذا اغترب الفلاحون تدريجيا عن الأرض. خلال الحروب الطويلة نزفت دماء طبقة الفلاحين تدريجيا حتى الموت. بل إن الكُتَّاب المعاصرين يؤكدون أنه بنهاية حتى الحرب البونيقية الثانية فقدت روما نصف سكانها الأوائل. ومع هذا تحركت ملكيات الأرض الصغيرة بشكل أكثر سرعة نحو نهايتها، وتطورت هناك بدلا منها الإقطاعيات (*latifundia*) التي قال "بليني" عنها بصدق تام إن الاقطاع كان هو سقوط إيطاليا والولايات.

في أيام روما الأولى لعبت مسألة الأرض فعلا دورا مهما، وهي الحقيقة التي وجدت تعبيرا واضحا بما يكفي في الصراعات الطويلة بين النبلاء والعوام. في هذا الصدام الكئيب كسب العوام في الأخير حقوقا متساوية مع خصومهم السابقين، وقوانين "لكس ليسينيا سيكستيا" المشهورة (*Lex Licinia Sextia*) التي وصلت نصوص كلماتها إلينا في شكل مبتور فقط، والتي اشترطت أنه بعد ذلك يجب مشاركة الطبقتين على قدم المساواة في تقسيم الأراضي العامة. واشترط القانون أيضا أن ملاك الأرض الأكابر يجب عليهم استخدام عدد معين من العمال الأحرار منسوبا لعدد الأقنان التي يستخدمها كل منهم. ومع ذلك، بعد نهاية الحرب البونيقية الثانية لم تكن هذه الشروط سارية عموما. مئات المزارع الصغير تُرِكت بلا زراعة تماما لأن ملاكها قد سقطوا في المعارك. أكثر من ذلك، حدث أن الدولة امتلكت مساحات واسعة من الأراضي بواسطة مصادرة مِلكية كل أنصار هانيبال في إيطاليا. الجزء الأعظم من هذه الأراضي سقط في أيادي المضاربين، واتخذت المضاربة على الأراضي أشكالاً مرعبة. أجمع الكُتَّاب المعاصرون في وصفهم للحيل الوضيعة التي تم بها سرقة الملاك الصغار مما يملكونه.

جشع لا يُتخَم

يتحرك جيئة إلى الحدود الحجرية للحقول المجاورة

أفرطت في الركوب في جميع الأنحاء

أسوار شجيرات الفلاحين

منبوذ يهيم على وجهه ذهابا إليها

زوج وزوجة على ظهريهما

بضائعهما وفي ذراعيهما أطفال مساكين(١٠)

ورغم أنه لم تُلغَ كاملا الملكيات الصغيرة في بعض أجزاء المملكة، فإن الخراب لحق بعدة آلاف من المالكين الصغار بسبب خططهم لإدارة الإقطاعية. عندما كان يُحظَر عليهم ترك الإقطاعية للبوار أو تحويلها إلى أرض مراع، يقوم من يُسمون "الأقنان" بفلاحتها، وقد كان نصيب هؤلاء الأقنان الأكثر عنتا من بين كل العبيد. بهذه الطريقة من زراعة الأرض أخذت إنتاجية الزراعة في التضاؤل بشكل ثابت، كما يحدث دائما مع عبيد الأجر. وهكذا حُرِمت الجموع الكبيرة من العمال الأحرار من وسائلهم للبقاء، بسبب عبودية الأجر هذه؛ بينما مسح استيراد الغلال من صقلية وأفريقيا بالكامل عددًا لا يُحصى من صغار الفلاحين.

وفي المدن أخذت صورة مماثلة تكشف عن نفسها. صناعة العبيد في منازل الأثرياء قطعت سبل عيش الحرفيين الصغار وألقت بهم في الهاوية التي سقط فيها الفلاحون الصغار والعمال الزراعيون. هام الأخيرون على وجوههم بالآلاف في المدن وتضخمت صفوف البروليتاريا (*proletariat*)(•) الشحاذين المحطمين التي

(•) البروليتاريا هو مصطلح يستخدم اليوم لوصف فئة من الأجراء (وخاصة العمال الصناعيين)، في المجتمع الرأسمالي، الذين لا يمتلكون سوى قوة عملهم (القدرة على العمل). ولكن البروليتاريا كما حددها دستور جمهورية الرومان، هم طبقة اجتماعية من المواطنين الرومان الذين يملكون القليل أو طبقة معدومة. ويرتبط أصل الاسم بطبقة المواطنين أصحاب ممتلكات بقيمة ١١٠٠٠ أو أقل، وبالتالي هم لا يستدعون للخدمة العسكرية ولا يحق لهم التصويت، ويدرج أطفالهم (*proles*) (باللاتينية، "ذرية") في السجلات بدلا من ممتلكاتهم. وبالتالي، فإن "البروليتاري" يعني المواطن الذي لا ينتج سوى "الذرية". وهو المنتج الذي تحتاجه الدولة الرومانية وقودا لحروبها. [المترجم]

فقدت بالكامل عادة العمل الإنتاجي، ومثّلوا للدولة "أصحاب عيال" فقط. هذه الجموع المتشردة الخاملة الهائمة التي اعتادت العيش على قمامة الأغنياء، منحت المغامرين والمتطلعين كل أنواع المصفقين بأجر الذين كان تأييدهم المدفوع ثمنه مفيدا لخطط جشع هؤلاء المغامرين. في ظل الجمهورية فعلا كان بيع أصواتهم الانتخابية قد أصبح مصدرا مريحا لدخولهم. اشترى الأغنياء أصوات المواطنين الأفقر وهكذا تمكنوا من احتلال المناصب الأكثر أهمية وتوريثها لأطفالهم، حتى أن مناصب معينة في الدولة ظلت تقريبا وبشكل ثابت في ملكية نفس العائلات. يصبح المرشح لوظيفة عامة في يأس تام إذا لم يكنْ في وضع يمكنه من رشوة الناخبين بتوزيع الهدايا أو إقامة الألعاب العامة — عادة مصارعة المحترفين.

تحت مثل هذه الظروف لم يكن هناك مفر من أن ينمو بالتأكيد وبشكل مستمر نفوذ القادة المنتصرين على مسار الشئون السياسية، وبذلك يمهد الطريق أولا إلى الحكم القيصري. في الواقع التغير من الجمهورية إلى الحكم الملكي تم في روما دون أي صعوبة تستحق الذكر. أنفق رجال مثل "قيصر" (***Caesar***) و"كراسوس" (***Crassus***) و"بومبي" (***Pompey***) مبالغ هائلة لقولبة الرأي العام. استفاد القياصرة المتأخرون من نفس هذه الوسائل، جاعلين من القول الشهير "الخبز والسيرك" (***Panem et circenses***) دعامة للسياسة الداخلية. آلاف فوق آلاف من أقوى العبيد تم تدريبهم بعناية في مدارس خاصة ليذبحوا بعضهم البعض في الحلبة أمام أعين جمهور جُنَّ توحشه أو لقياس قوتهم في الصراع ضد الوحوش المفترسة الجائعة. يقول "فرايدلاند": "كل نوع من الرعب الوحشي حدث في الساحة؛ حيث يكاد لا يوجد نوع من أنواع التعذيب ولا الموت المخيف قد عُرِف في التاريخ أو الأدبيات ولم يُقدَّم للناس في المسارح المكشوفة من أجل تسليتهم". تُقام عادة هذه الألعاب القاتلة لمدة أسابيع؛ ولذلك يُقال إن "تراجان" (***Trajan***)(•) كان يمتلك عشرة آلاف عبد مُصارِع

(•) تراجان (٥٣ –١١٧ م) الإمبراطور الروماني من ٩٨ م حتى وفاته في عام ١١٧ م. أعلن رسميا من قبل مجلس الشيوخ أنه "أفضل حاكم"، تراجان الجندي الإمبراطور الذي ترأس أعظم توسع عسكري في التاريخ الروماني. وهو معروف بعمله الخيري، والإشراف على=

يُساقون إلى الحلبة، حيث يتم الاستعراض الكئيب لمدة مائة وثلاثة وعشرين يومًا. أي تأثير مدمر لمشاهدة مثل هذه القسوة المقززة بشكل مستمر على طبيعة الناس، ذلك لا يحتاج لوصف.

وتلك كانت النتيجة المترتبة على الحروب المتواصلة أن أصبحت روما في وقت ما غير قادرة على التجنيد من بين صفوف سكانها الأحرار بما يكفي من رجال لائقين لحمل السلاح. في الواقع، بدأ "يوليوس قيصر" (***Julius Caesar***) في ضم جنود أجانب بالأجر إلى جيوشه. فيما بعد طور القادة العسكريون توظيف المرتزقة إلى نظام متكامل وخلقوا باستخدام نظام المرتزقة هذا نظام الحكم الملكي العسكري، الذي كانت الجمهورية قد زرعت بذوره. ولكن المرتزقة الأجانب الذين تشكلوا لاحقا وبشكل أساسي من السلتيين (***Celts***) والألمان والسريان (***Syrians***) افتقدوا تلك الفرضيات الأيديولوجية التي تدرب وترعرع عليها الرومان القدامى. بالنسبة لهم لصوصية الجند كانت مجرد تجارة مربحة؛ لم تزعجهم "الفكرة الرومانية" إلا قليلا جدا، حيث إن جوهرها كان غريبا تماما عليهم. لذلك اعتنى القياصرة دائما بالاحتفاظ برضا جحافل الحرس الإمبراطوري (***praetorian***)، إذا ما رغبوا في عدم تعريض حكمهم للخطر. آخر كلمات قالها الإمبراطور "سيفيروس" (***Severus***) لولديه، "احتفظ بولاء جندك لك ولا تعتن بأحد آخر غيرهم في العالم!"، تلك كانت هي الكلمات الحارسة للقيصرية.

ولكن حيث لم يتوفر لقيصر من القياصرة أن يتأكد تماما من استقرار نظام حكمه وكان عليه دائما حماية نفسه ضد منافسيه من بين صفوف جنرالاته وأصحاب الحظوة لديه، أصبح الجيش أداة تزداد تكلفتها بشكل ثابت، وأصبحت صيانة تماسكه عبئا متعاظما أيضا بشكل ثابت. وهكذا أصبح تدريجيا الحرس الإمبراطوري هو

=برامج واسعة النطاق لتنفيذ سياسات الرعاية الاجتماعية والمباني العامة، مما أكسبه سمعة بصفته ثاني الأباطرة الخمسة الطيبين (نيرفا، تراجان، هادريان، أنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس)، الذين ترأسوا حقبة من السلام والرخاء في عالم البحر الأبيض المتوسط. [المؤلف]

العنصر المسيطر في الدولة، وأصبح القياصرة في موقع ليس أفضل من مساجينهم. لذلك دعم الحرس الإمبراطوري بعض الحكام وأطاح بالبعض الآخر من على العرش طبقا لما يرونه جالبا لأعظم الأرباح من هذا الجانب أو ذاك. وقد صاحب كل انتخاب لإمبراطور نهب فادح يلحق بخزانة الدولة، التي يجب من ثم إعادة ملئها مرة أخرى باستخدام كل وسيلة عسف. وهكذا باتت الولايات بشكل ثابت مثل الإسفنجة تُعتصَر تماما على فترات أقصر فأقصر، مما أدى تدريجيا إلى الاستنفاذ الكامل لكل القوى الاقتصادية. بل ويجب إضافة أيضا أن الرأسمالية الرومانية لم تطور أي نوع من النشاط الإنتاجي ولكنها عاشت على النهب فقط الذي بالضرورة سارع بوقوع الكارثة.

وكلما تقدمت القيصرية في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر، اتسع عدد الطفيليات الذين تعلقوا على حساب جموع الشعب. واستفحل أمر رهن الأباطرة "لممتلكاتهم الشخصية" عند وزير المالية أو أصحاب مكاتب الرهونات لجمع النقود حتى يدفعوا للجند. فقد اضطر الإمبراطور "ماركوس أوريليوس" (***Marcus Aurelius***) عندما احتاج للنقود أن يبيع في مزاد علني كل ممتلكاته المنقولة بما فيها كنوز القطع الفنية في قصوره وخزانة ملابس الإمبراطورة باهظة الثمن. وجد آخرون في القضاء على معاصريهم الأثرياء أكثر ربحية من أجل مصادرة ممتلكاتهم. على سبيل المثال "نيرون" (***Nero***) عندما علم أن نصف أرض أفريقيا تقع في أيدى ستة أشخاص فقط، أمر بقتل الستة كلهم حتى يرثهم من بين ورثتهم الأصليين.

كل المحاولات الأولى لوضع نهاية للشر لم تأت بنتائج وقمعتها الطبقة المالكة بقسوة دموية. لهذا، كان على الأخوان "جراكوس" (***Gracchi***)(*) أن يدفعا حياتهما ثمنا

(*) إخوان جراكوس، طبريا وغايوس، من عوام الرومان وزعماء منابرهم في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. حاولا تمرير قانون إصلاح الأراضي الذي من شأنه إعادة توزيع الحيازات الأرستقراطية الرئيسية بين المناطق الحضرية الفقيرة وقدامى المحاربين، بالإضافة إلى تدابير=

لجرأتهما؛ ولم تفض محاولاتهما إلى نتائج أفضل من مؤامرة "كاتالين" (*Cataline*)(•) وزملائه المتآمرين الذين لم ينكشف هدفهم الحقيقي بوضوح كامل أبدا. وتمردات العبيد العديدة التي انتفضت داخل المملكة دوريا والتي كان منها تلك الانتفاضة الكبيرة تحت قيادة "سبارتاكوس" (*Spartacus*)(••) التي هددت روما نفسها بشكل خطير، كلها لم تفض إلى نتائج مستدامة. قد يكون ذلك راجعا لأن أغلبية العبيد قد تشبعوا بنفس الروح التي كانت لدى سادتهم. هنا نستطيع تطبيق قول "إيمرسون" (*Emerson*) بأن لعنة العبودية هي أن إحدى نهايتي طرف السلسلة تقفل على كاحل العبد، والطرف الآخر يحيط بكاحل مالكه. ثورات العبيد في روما كانت انتفاضات رجال يائسين يعانون من سوء المعاملة ولكن ينقصهم هدفٌ سامٍ. لهذا إذا ما حقق تمرد العبيد نجاحا قصيرا، فهم لا يعرفون مسارا للأمور أفضل من تقليد دوْر سادتهم السابقين. لهذا كانت الروحية التي تتنفسها روما فاسدة فسادا مطلقا، وقد أضعفت في الرجال كل دافع نحو الحرية. لم يكن ممكنا الحديث عن التحالف المتبادل بين المظلومين، لأنه حتى الشحاذين البروليتاريا في روما اعتبروا العبيد مخلوقات أدنى.

=إصلاح أخرى. بعد تحقيق بعض النجاح المبكر، تم اغتيال كليهما بواسطة أعداء هذه الإصلاحات. [المترجم]

(•) لوسيوس سرجيوس كاتالينا، والمعروف في الإنجليزية باسم كاتالين (١٠٨-٦٢ قبل الميلاد)، عضو مجلس الشيوخ الروماني في القرن الأول قبل الميلاد. كانت أول مؤامرة اتهم فيها هي محاولة قتل القناصل عام ٦٥ قبل الميلاد والاستيلاء على السلطة. يستبعد المؤرخون أنه قد شارك فيها أو، واقعيا، وجود مؤامرة على الإطلاق. المؤامرة الثانية كانت بمساعدة مجموعة من الأرستقراطيين وقدامى المحاربين الساخطين، لقلب نظام الجمهورية الرومانية في ٦٣ قبل الميلاد. كشف شيشرون المؤامرة، مما اضطر كاتالين للفرار من روما. [المترجم]

(••) سبارتاكوس (١١١-٧١ قبل الميلاد) المصارع التراقي الذي، جنبا إلى جنب مع إغريق آخرين، كان واحدا من قادة الرقيق الهاربين في حرب العبيد الثالثة، أو انتفاضة العبيد الكبرى ضد الجمهورية الرومانية. تتفق جميع المصادر على أنه كان مصارعا سابقا وقائدا عسكريا بارعا. فسر البعض هذا التمرد كمثال على قتال الشعب المظلوم من أجل حريته ضد أوليغارشية الرقيق. ورغم أن هذا لا يتعارض مع أقوال المؤرخين الكلاسيكيين، فإنه لا يوجد أي سرد تاريخي يذكر أن الهدف من الانتفاضة كان هو إنهاء العبودية في الجمهورية، ولم تُرصَد أي إجراءات لزعماء المتمردين تستهدف ذلك. [المترجم]

وهكذا حدث أن العبيد كان عليهم مساعدة الطبقات المالكة في قمع الأخوين "جراكوس" وقد ساعدت البرليتاريا نفس الطبقات المالكة في إخماد ثورة سبارتاكوس.

ماذا يمكن أن تكون نهاية وضع حيث كل القوة الفكرية مُكبّلة، وكل مبدأ أخلاقي قد أُلقي به في الأوحال؟ كأمر واقع كان كامل تاريخ القيصرية الرومانية سلسلة طويلة من الأهوال المخيفة. سادت في روما المترنحة الخيانة والاغتيال والقسوة الوحشية والاضطراب المجنون للأفكار والطمع المريض. استسلم الأثرياء لأكثر أنواع الإفراط إسرافا ولم يعرف الفقراء رغبة أخرى غير قدرتهم على المشاركة في هذا السفه، بشكل كثير التواضع أبدا. عصابة قليلة العدد من المحتكرين حكمت المملكة، ونظمت استغلال العالم طبقا لمبادئ مستقرة استقرارا حسنا. في بلاط القياصرة أخذت ثورات القصر تتبع بعضها البعض، وهياج دموي يمسح الهياج الذي يسبقه. وانتشرت أعين المتلصصين المحدقة في كل مكان، لم يأمن أحد على أكثر شئونه خصوصية. زُرِع جيش من الجواسيس في كل الأرض يبذر الريبة والاتهامات السرية في كل قلب.

لم يحدث من قبل أبدا أن احتفلت روح السلطة بمثل هذه الانتصارات. من البداية وفرت روما هذه الشروط اللازمة لمثل هذه الحالة المزرية التي يمكننا تسميتها "العبودية من حيث المبدأ". وبينما روح أحقر عبودية تجرد جموع الناس بالكامل من إنسانيتها، أخذ ينمو جنون عظمة الحكام بنسب عكسية؛ لأنه لم يجرؤ أحد على معارضة نزواتهم القاسية. أكثر أعضاء مجلس الشيوخ الروماني شرفا، وقد قهرهم البلاء، كانوا يمرغون جباههم في التراب أمام الإمبراطور الإله ويقدمون أسمى آيات التكريم له. هذا "الكاليجولا" (***Caligula***) جعلهم يختارون حصانه عضوا في "كلية الكهنوت المقدس" (***sacerdotal college***)؛ وهذا "الهليوجبلوس" (***Heliogabalus***)(•)

(•) هليوجبلوس (٢٠٣-٢٢٢)، الإمبراطور الروماني من ٢١٨ إلى ٢٢٢. كان سوريا. في شبابه المبكر شغل منصب كاهن الإله إيل جبل في مسقط رأس عائلة والدته بحمص. عندما أصبح إمبراطورا اتخذ اسم ماركوس أوريليوس أنطونيوس أوغسطس. لم يأخذ اسم هليو جبلوس إلا بعد وفاته. في ٢١٧، اغتيل الإمبراطور كركلا واستعاضوا عنه بالمحافظ الإمبراطوري،=

استطاع أن يجعل من حصانه "قنصلا رومانيا" (***Roman consul***). يبتلع الجبن والخسة الإنسانية حتى هذا.

لم يعد من الممكن للسائر على هذا الطريق أن يتوقف. بددت روما في هذا العمى المجنون ثروة العالم؛ وعندما تم استنفادها تماما، انهارت سلطتها مثل مبنى متداع كان السوس ينخر دعائمه منذ وقت طويل. بالنسبة لشعب مثل هذا لم يعد ممكنا له التحرر اعتمادا على قواه الذاتية، لأن كل عزم جاد وكل نبضة مستقلة داخله كان قد تم سحقها. جاء التمرد ضد "الفكرة الرومانية" في شكل المسيحية. ولكن روما المحتضرة انتقمت لنفسها ساعة ما كانت تسلم الروح، لتنقل العدوى بواسطة أنفاسها المسمومة في نفس اللحظة التي لاحت فيها إمكانية التطلع إلى أمل جديد لعالم مُستعبَد، وحولت هذا الأمل إلى كنيسة. وهكذا خرجت مِلكية الكنيسة الرومانية للعالم من رحم تملُّك الدولة الرومانية للعالم؛ لتحتفل القيصرية بإعادة بعثها من جديد في صورة البابوية.

=ماركوس ماكرينوس. عمة كركلا، جوليا ميزا، وجدة جبلوس لأمه حرضت بنجاح على ثورة بين الفيلق الثالث لصالح حفيدها الأكبر (وابن كركلا). أصبح إيل جبل، بالكاد وعمره أربعة عشر عاما، إمبراطورا، وبدأ عهدًا مشهورًا أساسا بفضائحه الجنسية الشاذة والجدل الديني وغرابة الأطوار. وسط معارضة متزايدة، اغتيل إيل جبل، وعمره ١٨ سنة فقط، وحل محله ابن عمه الكسندر سيفيروس في ٢٢٢، في مؤامرة صاغتها جدته. [المترجم]

هوامش الفصل السادس

(1) The State: Its Role in History
(2) L'Homme et la Terre, Volume II
(3) Albrecht Wirth, volkstum und Weltmacht, p. 40
(4) Joseph Strzygowski, Orient oder Rom? 1901.
(5) Der Atheismus usw. Band I, p. 161
(6) Geist ies Romischen Rechts. Leipzig, 1852. Vol. I, p. 298
(7) P. J. Proudhon, Qu'est-ce que la propriete ou recherches sur le principe du droit du gouvernement. Paris, 1840.
(8) Philosophie der Geschichte
(9) J. Salvioli, Der Kafitalismus im Altertum. Stuttgart, 1922, p. 26
(10) Horace, Odes. Book II

الفصل السابع

الوحدة القومية وأفول الثقافة

روما واليونان كرمزين. إقطاع القوط الغربيين (*VISIGOTHIC*) في إسبانيا. الثقافة العربية. أولى المدن الإسبانية والاستقلال الذاتي للبلدات. الفساد السياسي ذروة الثقافة المغاربية. الحرب بين الهلال والصليب. ميثاق القوانين (*FUEROS*) ودساتير المدن الإسبانية. البرلمان الإسباني (*CORTES*). الروح الفدرالية لإسبانيا. انتصار الدولة القومية الموحدة. محاكم التفتيش (*INQUISITION*) كأداة للسلطة السياسية. الاستيلاء على الطوائف المجتمعية (*COMUNEROS*) وطوائف الحرف (*GERMANIAS*). تدهور الثقافة في ظل الاستبداد. عصر المدن الحرة في إيطاليا. صعود الحياة الفكرية. توسع الفنون والحرف اليدوية. طوائف الحرف وزمن الفدرالية. المحامون عن الوحدة الوطنية كخصوم ألداء للفدرالية. حلم ماتزيني (*MAZZINI*) وحس برودون (*PROUDHON*) بالحقيقة الواقعة. الاستبداد المطلق كمدمر للثقافة الشعبية الفرنسية. الأدب واللغة في القميص الضيق للحكم المطلق. التنظيم الصارم للصناعة. الوحدة الوطنية ونهاية الثقافة الفكرية في ألمانيا. البيسماركية. نظرات في المستقبل.

اليونان وروما مجرد رمزين. كامل تاريخهما مجرد حالة مفردة من الحقيقة الكبرى بأنه كلما كان الحس السياسي أقل تطورا في شعب كانت أشكال حياته الثقافية أغنى؛ وكلما كان للمساعي السياسية اليد العليا انحط المستوى العام للثقافة الروحية والاجتماعية أكثر، وكلما زاد الموات الكامل للدافع الطبيعي للابتكار وكل الشعور

الروحي العميق – بكلمة واحدة، انحط كل شيء إنساني. تُستبدَل الروحانيات بأساليب فنية ميتة في شئون تضع في اعتبارها فقط الحسابات الباردة، وتهمل كل المبادئ الأخلاقية. تحل ميكنة القوى الباردة مكان التدفق الحيوي في كل الأنشطة الاجتماعية. لم يعد تنظيم القوى الاجتماعية وسيلة لتحقيق الغايات العليا للمجتمع، وهو الشيء الذي كان قد أصبح عضويا، ودائما ما يكون في حالة سيولة وتدفق؛ تحول إلى غاية موحشة في حد ذاتها ويؤدي تدريجيا إلى تخلف كل النشاط الابداعي الأعلى. وكلما أصبح الإنسان مدركا لعجزه الداخلي، الذي هو نتيجة لهذه الميكنة فقط، تعلق الإنسان مستميتا بالأشكال القديمة، باحثا عن أي علاج لهذا الأسلوب الذي يلتهم روحه ويبدد عقله. "رابندرانات طاغور" الذي هو آسيوي، وينظر باتساع أفق للحضارة الغربية بشيء ما من الانفصال، قد بيَّن بوضوح المعنى الأعمق لتلك الأحداث في هذه الكلمات الحكيمة:

عندما تبدأ الماكينة–التنظيم في احتضان مناطق واسعة، ويصبح عمال الماكينة جزءا منها حينئذٍ يذوب الشخص الإنساني ويتحول إلى شبح، وكل شيء كان إنسانيا يصبح ماكينة ويدير عجلة العمل السياسي العظيمة دون أدنى شعور من التعاطف والمسئولية الأخلاقية. ربما يحدث بشكل حسن أنه حتى في هذا الأداء الخالي من الروح تظل الطبيعة الأخلاقية للإنسان تحاول تأكيد نفسها، ولكن الحبال وبكرات الروافع تصر وتئن وخيوط القلب البشري تشتبك بين أسنان تروس الماكينة البشرية وفقط بصعوبة يستطيع الأخلاقي استدعاء صورة باهتة خرساء لما يجاهد في سبيله[1].

لذلك، الوحدة السياسية القومية، التي تعني دائما أسلوبًا فنيًا على حساب الثقافة ليست وسيطا تغذويا للقوة البنائة الإبداعية لشعب. هي بالأحرى العائق الأعظم لأي ثقافة فكرية أعلى، لأنها تدفع كل الالتزامات الاجتماعية الهامة إلى داخل الحلبة السياسية وتُخضِع كل مشروع اجتماعي لإشراف الماكينة القومية، التي تخنق داخل الرجال أي دافع نحو غايات أعلى وتجبر كل نبضات الحياة الاجتماعية على

الاحتباس داخل أشكال محددة تتكيف مع أغراض الدولة القومية. لم يكن "فن حكم البشر" أبدا فن الرجال المتعلمين، حيث إن هذا الفن لا يمتلك في متناوله سوى ذلك النمط من الاجتهاد السياسي الذي ينشأ على جلب كل الحياة في الدولة تحت عرف معين واحد. يعني التعليم إطلاق التصرفات والطاقات الطبيعية في البشر من أجل التطور المستقل. الاجتهاد التعليمي في الدولة القومية يخنق هذ التوسع الطبيعي للإنسان الداخلي بالضغط عليه من خارج الأمور التي رغم غرابتها من الأصل عنه، يستمرون في جعلها شعار حياته. "الإرادة القومية" التي هي ليست سوى إعادة تعبير حذرة عن الرغبة في التسلط، تعمل دائما كقوة مُعوِّقة لكل عملية ثقافية؛ حيث إنها عندما تطغى تعاني الثقافة وتجف موارد دافعها الخلاق، لسحب التغذية عنها من أجل إطعام ماكينة الدولة القومية الشرهة شراهة كلية.

قدمت اليونان ثقافة عظيمة وأغنت النوع البشري لآلاف السنين، ليس برغم ولكن نتيجة تفتتها السياسي والقومي. ولأنها لم تعرف أبدا الوحدة السياسية فإن كل عضو منفصل استطاع التطور في حرية واستطاع إعطاء تعبير عن طبيعته الخاصة المتفردة. نمت الثقافة الإغريقية نموا عظيما على التقسيم الدقيق والانفصال الكامل للجهود عند السلطة السياسية. ولأن الدافع الثقافي الخلاق الذي ازدهر بقوة من أجل الحياة في المجتمع الهيليني يفوق بمراحل دافع السلطة عند الأقليات الصغيرة وهكذا تحمّل مجالا أوسع كثيرا للحرية الشخصية والتفكير المستقل بسبب ذلك، وفقط بسبب هذا، وجد التنوع الغني للدوافع الثقافية ميدانا غير محدود للنشاط ولم تعرقله القضبان الصارمة للدولة القومية الموحدة.

لم تعرف روما شيئا عن هذا الانقسام الداخلي؛ وفكرة الاستقلال السياسي الذاتي كانت بالكامل أجنبية عن قادتها، وظلت فكرة الوحدة السياسية عبر كل عصور تاريخها الطويل. بلغت روما في ميدان المركزية السياسية أعلى مستوى تستطيع دولة تحقيقه، ولكن بالضبط لهذا السبب لم ينتج الرومان شيئا هاما ثقافيا وظل الرومان شعبا غير خلاق بشكل عال لا يُعترَف له بأنه قد تغلغل بشكل عميق في معاني إبداعات الثقافات الأجنبية. استنفد الرومان بالكامل كل القوى الاجتماعية التي

كانت تحت تصرفهم في صراعات من أجل السلطة السياسية، التي أصبحت أكثر عنفا مع كل نجاح وفي الأخير أطلقت "جنون سلطة"، جامحا وفريدًا من نوعه؛ لم يكن لديهم أي احترام للإنسانية ولم يستطيعوا إيجاد لا الوقت ولا الفهم من أجل أي مسعى آخر. تحطمت المواهب الثقافية الطبيعية عند الرومان على صخرة الدولة الرومانية وصراعها من أجل تحقيق امتلاك العالم والاحتفاظ به. ابتلع التكنيك السياسي كل المشاريع الثقافية الأصلية وضحى بكل القوى الاجتماعية لمصلحة ماكينة نهمة، حتى في الأخير لم يتبق شيء للتضحية به، ولم تستطع الآليات الخالية من الروح سوى التداعي تحت ثقلها الذاتي. تلك هي النهاية الحتمية لكل سياسة غزو واستيلاء، التي صورها "جان بول" (***Jean Paul***) هذه الصورة المدهشة: "من الآلهة والعظيم، أنت محاط بالصحراء والموت. في روما لم تكن المستنقعات خضراء ولكن مسمومة، كل شيء يرقد فارغا ومُبدَّدا، ولا ينظر أهل قرية نحو القديس بطرس. أنت وحيدا تنتفخ بخطاياك وسط الضجيج، كجثة تنتفخ في عاصفة".

لكن تلك الظواهر لم تقتصر على اليونان وروما؛ إنها تحدث في كل حقبة من التاريخ البشري ولذا أدت في كل مكان إلى النتائج نفسها لحد بعيد. تلك علامة على أننا نتأمل هنا ضرورة معينة في مجرى الأحداث تنشأ من تلقاء ذاتها، وهو تقييم يرى أن الشعب قد ينشأ على نشاط ثقافي أو على مساعٍ نحو المشاريع السياسية.

دعنا نلق بنظرة على تاريخ إسبانيا. عندما اجتاح العرب شبه الجزيرة الأيبيرية من أفريقيا كانت مملكة القوط الغربيين في حالة فساد داخلي فعلا. بعد إخضاع القوط للبلاد استولوا على ثلاثة أرباع الأرض من السكان المقهورين وحولوها إلى أوقاف في أيادي الكنيسة والنبلاء الميتة. ومن هذا تطور خصوصا في الأجزاء الجنوبية من البلاد، تفوق ملاك أراض كبار على الباقين (***overlordship***) ومعه تطور نظام إقطاعي غاشم في ظله أخذت إنتاجية الأرض تتناقص بشكل ثابت. البلاد التي كانت سابقا مخزن غلال روما أصبحت أقل خصوبة فأقل وفي بضعة قرون قليلة تحولت إلى صحراء. وبواسطة القمع الشديد لليهود خصوصا في ظل

حكم "سيسبوت" (*Sisebut*)(•) الذي كان واقعا تماما تحت نفوذ الكنيسة، تلقت الحياة الاقتصادية ضربة خطيرة، لأن الأعمال التجارية والصناعة كانت في جزء كبير منها بين أيادي جماعات اليهود. بعد أن تسبب "سيسبوت" في صدور قانون بمقتضاه لم يكن أمام اليهود طريق سوى اختيار التحول إلى المسيحية أو أن يُسلَخ جلد رؤوسهم ويُباعوا عبيدا، هاجر نحو مائة ألف يهودي إلى أرض الغال وارتحل مائة ألف آخرون إلى داخل أفريقيا، بينما تم تعميد نحو تسعين ألفا. إلى جانب هذا، نشبت صراعات لا تنتهي من أجل العرش وهي الصراعات التي لعب فيها السم والخنجر والخيانة والاغتيال أدوارا ليست قليلة. فقط بهذا نستطيع شرح لماذا استطاع العرب غزو البلاد في مثل هذا الوقت القصير ودون مقاومة تستحق الذكر.

بعد الهزيمة الحاسمة لآخر الملوك القوط على يد الجنرال العربي طارق [بن زياد] تدفق العرب وحلفاؤهم كتيار مندفع إلى داخل البلاد في جحافل عظيمة وهناك طوروا بدايات حقبة الثقافة العظيمة تلك، التي جعلت إسبانيا لقرون أكثر الأراضي المتقدمة ثقافيا في أوروبا. تُسمى تلك الفترة، فترة الثقافة العربية في إسبانيا، ولكن ربما هذا التخصيص ليس صحيحا تماما، لأن العرب الأصليين لم يمثلوا سوى كسر عشري صغير من المسلمين الغزاة. كانت أعداد البربر (*Berbers*)(••) والسريان

(•) سيسبوت (٥٦٥-٦٢٠) ملك القوط الغربيين وحاكم هيسبانيا، وسبتمانيا وغاليسيا من ٦١٢ حتى وفاته. قاد حملة ناجحة ضد ما تبقى من السلطة الرومانية الشرقية في إسبانيا، وعزز سيطرة القوط الغربيين على الباسك وسانتندر، وطور علاقات ودية مع اللومبارديين في إيطاليا، وعزز الأسطول. كان معروفا بالتقوى والورع للمسيحية الخلقيدونية. في ٦١٦، أمر بمعاقبة اليهود الذين رفضوا اعتناق المسيحية بالسوط. وكان على صلة وثيقة ودية مع الباحث والعالم إيزيدور، أسقف إشبيلية. [المترجم]

(••) الأمازيغ أو البربر، هم مجموعة عرقية من السكان الأصليين لشمال أفريقيا. موزعون في منطقة تمتد من المحيط الأطلسي إلى واحة سيوة في مصر، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى نهر النيجر. تاريخيا، كانوا يتحدثون لغة أمازيغية، تشكل فرع البربر من العائلة الأفرو آسيوية. منذ الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا في القرن السابع الميلادي، اكتسب عدد كبير من البربر في المغرب درجات مختلفة من المعرفة باللغة العربية. ورث البربر لغات أجنبية أخرى، وخاصة الفرنسية والإسبانية إلى حد ما، من القوى الاستعمارية الأوروبية السابقة.=

(*Syrians*) أكثر كثيرا، إلى جانب أولئك اليهود الذين جاءوا أيضا بأعداد كبيرة، والذي أدوا أدوارا بارزة في بناء تلك الثقافة العظيمة. لقد كانت اللغة العربية بشكل أساسي هي الأداة التي وحدت هذه العناصر العرقية والبشرية المختلفة.

البلاد التي كانت جرداء تماما تحت حكم إقطاع القوط تحولت في وقت قصير إلى حديقة غنَّاء. ببناء عديد من القنوات ونظم الري الاصطناعية تطورت زراعة التربة إلى درجة لم تبلغها إسبانيا من قبل ولم تصل إليها منذ ذلك الحين. في الحقول المزدهرة تواجد نخيل البلح وقصب السكر ونبات الصبغة الزرقاء (*indigo*) والأرز وعديد من النباتات المفيدة الأخرى التي أدخلها العرب إلى إسبانيا. مدن وقرى لا حصر لعددها غطت البلاد المجيدة. طبقا لوصف المؤرخين العرب كانت إسبانيا أغنى بلاد أوروبا في عدد المدن، والبلد الوحيد الذي يستطيع أن يمر فيه المسافر بمدينتين أو ثلاث مدن في رحلة اليوم الواحد إلى جانب القرى العديدة. تواجدت على ضفاف نهر "الجواد الكبير" (*Guadalquivir*) في فترة الثقافة المغاربية المزدهرة، ست مدن عظيمة وثلاثمائة بلدة وألف ومائتا قرية. في سلاسل الجبال المليئة بالمعدن الخام بلغ التعدين أوجا لم يُستعد حتى اليوم. أكثر من ذلك انتعشت في المدن العديدة حرف المشغولات اليدوية والصناعة الفاخرة التي نشرت الرفاهية ولوازم الثقافة الأعلى في كل أنحاء البلاد. استخدمت صناعة النسيج والغزل وحدها أكثر من مليونين من الناس. دعمت صناعة الحرير في قرطبة (*Cordova*) وحدها مائة وثلاثين ألفًا من الناس، وكان نفس الشيء صحيحا في أشبيلية (*Seville*). في أعداد لا تحصى من الورش أُنتجت أجود أنواع المنسوجات – الآرآس (*arras*) والدمشقي (*damask*) والسجاد الفاخر– التي نالت الشهرة العالية خصوصا في الأراضي الأجنبية. المشغولات العربية المحفورة والمطعمة نالت شهرة عالمية. أنتجت إسبانيا

=اليوم، يعيش معظم البربر في بلدان المغرب العربي الكبير، مثل المغرب والجزائر. يوجد سكان بربر بحجم صغير أيضا في النيجر، ومالي، وليبيا، وموريتانيا، وتونس وبوركينا فاسو ومصر، فضلا عن الجاليات المهاجرة الكبيرة التي تعيش في فرنسا، وكندا، وبلجيكا وهولندا وبلدان أخرى في أوروبا. [المترجم]

في ذلك الوقت الأسلحة الصلبة الأغلى ثمنا، والمصنوعات الجلدية الأفخر والأواني الفخارية الأكثر جمالا المطلية بالذهب التي لا يمكن إنتاجها اليوم. دخل الورق إلى أوروبا بواسطة العرب وعن طريقهم تم تصنيعه في إسبانيا، مستبدلا الصحائف غالية الثمن (*parchment*). باختصار، يكاد لا يوجد أي فرع من كل صناعة لم يتطور إلى أرقى مستوى من الصنعة.

يدًا بيد مع هذا التطور المبهر للحرف اليدوية والصناعة، تطور الفن والعلم إلى درجة لا تزال تستدعي إعجابنا الذي لا يقدر. وبينما في القرنين العاشر والحادي عشر لا تستطيع أوروبا كلها أن تُظهِر لنا مكتبة عامة واحدة إلا نادرا ولا تستطيع أن تفخر إلا بجامعتين اثنتين فقط يستحقان اسم جامعة، تواجدت في إسبانيا في ذلك الوقت أكثر من سبعين مكتبة عامة منها مكتبة قرطبة وحدها التي احتوت على ستمائة ألف مخطوط. إضافة إلى ذلك امتلكت البلاد سبع عشرة جامعة مشهورة، من بينها تلك الجامعات في قرطبة وأشبيلية وغرناطة (*Granada*) وملقا(*Malaga*) وخين (*Jaen*) وبلنسية (*Valencia*) وألميرية (*Almeria*) وطليطلة (*Toledo*) كانت على وجه خاص جامعات مرموقة. جاء العديد من الطلبة من بلاد بعيدة للدراسة في المدارس العربية العالية وحملوا عائدين إلى بلادهم المعرفة التي اكتسبوها هناك – والتي لم تساهم بالقليل في النمو العلمي اللاحق في أوروبا. بلغ الفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة وفقه اللغة والجغرافيا في إسبانيا أعلى مستوى معروف في ذلك الزمن من أي مكان. وحقق الطب على وجه الخصوص تقدما لم يكن ممكنا تحقيقه في أي بلد أوروبي مسيحي لأن الكنيسة قد هددت بالموت كل من يقوم بتشريح الجثث الآدمية. اتحد الفنانون والدارسون في جمعيات خاصة لمتابعة بحثهم الدراسي. قد كانت هناك مؤتمرات منتظمة لكل فروع العلم يُعلَن فيها آخر منجزات البحث العلمي ويتم مداولتها، وكان من الطبيعي أن يسهم ذلك بشكل عظيم في نشر الفكر العلمي.

قدم العرب مساهمات عظيمة في مجالات الموسيقى والشعر وكان لقوالبهم الرشيقة نفوذ قوي على النثر في إسبانيا المسيحية. ما أنجزه العرب في العمارة يكاد

يصل إلى حد المعجزة. لسوء الحظ، معظم أفضل أعمالهم سقط ضحية لبربرية المسيحيين. وحتى أينما لا يتساوى التطرف الهمجي لحملة الصليب مع أي شيء آخر على وجه الأرض فإنهم يقومون بإلحاق الضرر الكافي بأعمال فنية باهرة بواسطة التشويه الغشيم. ورغم ذلك، مبان مثل قصر المورق في أشبيلية (***Alcazar of Seville***) وجامع قرطبة الكبير وفوق كل شيء قصر الحمراء (***Alhambra***) الذى بلغ فيه الطراز المغاربي أعلى إتقان له، يعطينا حتى اليوم فكرة عن تلك الفترة الباهرة. في جامع بقرطبة، الذي تحول بعد طرد المغاربة إلى كنيسة مسيحية، الانطباع القوي للتصميم الداخلي ببواباته التسع عشرة البرونزية والأربعة آلاف وسبعمائة مصباح كان قد تم تدمير جزء كبير منها في عملية إعادة بنائه البربرية، حتى أن تشارلز الخامس (***Charles V***) ومعه حق قذف بالاتهام في وجه إدارة الكنيسة في ذلك الوقت قائلا: "أنتم بنيتم هنا ما يمكن بناؤه في أي مكان آخر بالضبط تماما؛ وقد دمرتم ذلك الذي لا يمكن وجوده في أي مكان آخر في العالم".

ما أعطى الطرز المغاربي طبيعته المميزة كانت وفرة تلك الزخارف غير العادية للجدران والتصميم الداخلي المعروف باسم "الأرابيسك" (***arabesque***). وحيث إن القرآن قد حرَّم على أتباعه من المسلمين تصوير الإنسان والحيوان في الصور أو اللوحات، ضرب خيال المغاربة على اللعب المُلغِز بالخطوط التي لا تنفذ بثراء أشكالها الدقيق من أجل تحريك الروح بعمق - حتى ربما يتحدث المرء بصدق عن "أقصوصة أسطورية بالخطوط". توفر لفن العمارة مجالا واسعا، لأن المدن في ذلك الوقت ازدحمت بكثافة سكانية امتدت في المساحة. وهكذا على قمة الثقافة المغاربية تأتي طليطلة بتعداد سكان بلغ مائتي ألف، بينما بلغ سكان أشبيلية وغرناطة أربعمائة ألف في كل منهما. يخبرنا المؤرخون العرب أن قرطبة احتضنت أكثر من مائتي ألف مسكن من بينهم ستمائة مسجد وتسعمائة حمام عمومي وجامعة والعديد من المكتبات العامة.

أكثر من ذلك، تكشفت تلك الثقافة عالية التطور في زمن اللامركزية السياسية التي لم تقع تحت نفوذ شكل من الحكم الملكي المطلق للدولة. حتى عندما رفع

"عبد الرحمن الثالث" (*Abder Rachman III*) نفسه إلى منصب الخليفة اضطر إلى تقديم تنازلات بعيدة الأثر لمشاعر السكان الشخصانية وإحساسهم بالاستقلالية؛ فهو يعرف جيدا أن المركزية الحادة لسلطات الدولة سوف تثير فورا صداما مع الأفكار القبلية القديمة عند العرب والبربر ربما يهز مملكته بأكملها. انقسمت البلاد إلى ست ولايات أدارها نوابه. كان للمدن الكبيرة حكامها والبلدات الأصغر قاضيها (*cadis*)، وللقرى مدير أو حكيم (*hakims*) القرية.

إلا أن هؤلاء الموظفين الرسميين بمعيار ما لم يكونوا سوى وسطاء بين حكومة المملكة والحكومات المحلية. إدارة الأخيرة كانت مستقلة بالكامل؛ خصوصا حيث تقطن قبائل كاملة بمجموعاتها العائلية ويسود استقلال ذاتي بلا حدود. عاش العرب مثل البربر طبقا لقوانينهم ودساتيرهم القديمة ولم يسمحوا بأي تدخل للسلطات في شئون مجتمعهم. تمتع المسيحيون بحرية متساوية واختاروا رؤساءهم من بين أنفسهم. هؤلاء الأخيرون مع الأساقفة أداروا المُجمَّعات وكانوا مسئولين أمام الحكومة للوفاء بالتزامات زملائهم في الإيمان ولمجرد جمع الضرائب. كانت المُجمَّعات تختار الأساقفة بحرية ولكن هؤلاء كانوا يحتاجون لتأكيد مناصبهم بواسطة الخلفاء الذين نجحوا في وراثة الحقوق الاعتبارية لسيادة ملوك القوط. ترتبت الشئون المدنية لليهود كمواطنين بنفس الطريقة، حيث عمل رؤساء الحاخامات أساسا كرؤساء للمُجمَّعات[٢].

في الواقع لم ينجح قط حكام الأسرة الملكية الأموية طوال ثلاثمائة عام من مُلكهم في شد خيوط حكمهم بطريقة أحزم وتأسيس حكومة أكثر وحدة في البلاد. أدت كل محاولة في هذا الاتجاه إلى انتفاضات لا نهاية لها، ورفض لدفع الضرائب وانفصالات مؤقتة لولاية من الولايات، بل وحتى خلع الخليفة نفسه. وهكذا كانت المملكة بالأحرى هيكلا فضفاضا، انحل فورا إلى كيانات منفصلة عندما تنازل هشام الثالث (*Hischam III*) في عام ١٠٣١ عن سلطاته كخليفة، حيث هجر نشاطه السابق في كلمات استقالته التالية: "هذا جنس خُلِق لا ليُحكَم ولا يطيع". عندئذٍ صارت قرطبة جمهورية وانقسمت المملكة السابقة إلى بضع عشرات من إمارات الطوائف

(*taifas*)، والدول الصغيرة التي لم تعد تطيع سلطة حاكمة مركزية واحدة. في هذا الوقت بالضبط بلغت الثقافة المغاربية أعلى ازدهار لها. جاهدت المجتمعات الصغيرة لتتفوق على بعضها البعض في تطوير الحياة الفكرية والفنون والعلوم ولم يُلحِق انهيار سلطة الدولة أدنى أذى بهذا التطور الثقافي. على العكس، لقد عزز بالأحرى هذا التطور بواسطة ضمان الحرية له من القيود السياسية الضارة.

في إسبانيا المسيحية أيضا يستطيع المرء أن يرى بوضوح كيف ينهض مد التطور الثقافي وكيف يهبط حين تقلص سلطة الدولة من أنشطتها في حدود محددة أو تتخذ مجالا يحررها من كل القيود الداخلية ويضع بين يديها كل مجالات الحياة الاجتماعية. عندما هُزِم القوط الغربيون على يد العرب فر جزء من جيوشهم المبعثرة إلى جبال "أستوريا" (*Asturia*). هناك أسسوا دولة بائسة صغيرة، حافظوا منها على إطلاق هجمات دائمة على المناطق التي احتلها العرب. وهكذا تطورت حرب لا نهاية لها بين الهلال والصليب استمرت طوال سبعة قرون. نشأ من هذه الحروب ذلك التعاون بين الكنيسة والجهود القومية لدى الإسبان وهو ما أعطى للدولة الإسبانية الموحدة لاحقا طابعها المميز، وأعطى للكاثوليكية الإسبانية هذا الهيكل الفريد الخاص بها الذي لا تتخذه في أي بلد آخر.

في مجرى هذه الصراعات الدموية والمريرة فقد العرب مزيدًا ومزيدًا من المناطق، وهناك نشأت في بدايات القرن الثاني عشر في شمال وغرب شبه الجزيرة حاضنة لدول مسيحية أخرى، مثل آراجون (*Aragon*) وقشتالة (*Castile*) و"نابارية" (*Navarre*) والبرتغال، التي بسبب الصراعات التي لا تتوقف من أجل العرش كانت دائما مشتبكة مع بعضها البعض في صراع، ولم يظهر من هذا الاضطراب الداخلي حتى نهاية القرن الخامس عشر، إلا فرديناند الكاثوليكي (*Ferdinand the Catholic*) صاحب آراجون، و"إيزابيلا" (*Isabella*) صاحبة قشتالة ليحكما عدة دول متنوعة. تواجدت في الدول الأصغر أولا المَلَكية الانتخابية، ونشأت من بينها فقط لاحقا الخلافة الوراثية للعرش. ولكن بسقوط غرناطة، سقطت آخر قلعة للإسلام في إسبانيا ووضِعت أولى قواعد الدولة القومية الموحدة بزواج فرديناند لإيزابيلا، وانقضى وقت

ملموس قبل أن تسيطر الملكية على كل المؤسسات الاجتماعية في البلاد. وكما لاحظ "جاريدو" (*Garrido*): "في الاقتصاديات، وأساليب الإدارة ومن وجهة نظر السياسة كانت الأمة لا تزال غائبة. فوحدتها تجسدت فقط في شخص الملك، الذي كان يحكم عدة ممالك، كل منها يمتلك تشريعاته ودستوره ونقوده الخاصة به بل وحتى نظامه الخاص بالأوزان والمقاييس...". وقبل أن تستطيع الدولة الموحدة أن تطور قوتها الخاصة كاملا كان عليها التخلص من الحقوق القديمة للبلدات والولايات، التي كانت حرياتها تستقر في "الفويرو" (*Fueros*) أو دساتير المدن؛ ولم تكن تلك مهمة بسيطة.

عندما دخل العرب البلاد، فقط جزء صغير من السكان، النبلاء بشكل أساسي، فروا هاربين إلى الأراضي الجبلية الصعبة في الشمال. الأغلبية العظمى من القاطنين الأيبيريين والرومان إضافة إلى الجم الغفير من السكان القوط الفقراء مكثوا هادئين على بساتينهم المنزلية القديمة، خصوصا عندما رأوا معاملة الغزاة لهم بالرحمة والاعتبار. بل لقد تحول العديد منهم إلى الإسلام. ولكن الجميع مسلمين ومسيحين تمتعوا بمميزات الإدارة المحلية الحرة للعرب والبربر والسريان، وقد طمأنهم ذلك على المدى الواسع لحبهم للاستقلالية. الآن عندما اغتنم الإسبان في مجرى هذا الصراع الذي لا ينتهي مع العرب امتلاك مدينة أو أخرى أو مقاطعة جديدة اضطروا إلى احترام حقوق المجتمع القديمة وتركوها دون أن يعبثوا بها. في تلك الأماكن يسبق الغزو معارك طويلة مع السكان ويتحقق الانتصار إما بواسطة مذبحة للسكان أو بدفعهم إلى الهرب، وجد الغزاة أن من الضروري منح القاطنين الجدد "فويرو" [ميثاق مدينة] يضمن لهم حقوقًا وحريات محلية بعيدة الأثر. كان هذا هو السبيل الوحيد لضمان تحكم فعَّال في المناطق المستعادة ووصلها بالمنتصر. تحتوي الأدبيات الإسبانية على عدد كبير من الأعمال الهامة حول تاريخ مجتمعات المدن والبلاد تلك، ومواثيقهم[٣] التي نجمع منها أن إدارة المدينة استقرت مع المجلس الشعبي الذي يُستدعَى السكان إليه كل يوم أحد بقرع أجراس الكنائس من أجل مناقشة كل الشئون والمصالح العامة ولإعتماد القرارات.

الروح التي سادت هذه المجتمعات كانت روحًا ديموقراطية بعمق واعتنت بحماس بحقوق بلدياتها المحلية واستعدت في كل وقت للدفاع عنها بكل الوسائل التي

تملكها ولحمايتها ضد اعتداءات النبلاء والتاج. في هذه الصراعات لعبت هيئات العمال اليدويين في المدينة دورا هاما؛ وقد أسست هذه الهيئات في كل مكان عنصرا مفيدا جدا للتاريخ الغني والمتغير للبلديات الإسبانية، التي اندمجت فيها شئون الناس. ولذا يعلق "ثانكادا" (*Zancada*) قائلا:

> **من بين الأسباب المتنوعة للهبة المجتمعية يوجد عامل مشترك واحد الذي فضل كثيرا التنظيم الشعبي. هذا العامل الذي أمسك بين يديه سلطة كبيرة هو نقابات الحرف للسكان العاملين، والتي كانت قد نشأت كرد فعل ضد طغيان البارونات الإقطاعيين، التى استطاع العامل اليدوي تحت حمايتها ضمان احترام حقوقه. هذه النقابات كانت عموما وسيلة مدهشة لتحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي لأهل الحرف(٤).**

وكما في بلدان أخرى في ذلك الوقت، هكذا أيضا في إسبانيا، اتحدت البلديات في فدراليات أكبر وأصغر من أجل حماية أكثر فعالية لحقوقها القديمة. من هذه التحالفات ومن "مواثيق المدن" (***Fueros***) تطورت في الدول المسيحية المنفصلة المجالس (*Cortes*)، أولى محاولات التمثيل الشعبي، التي اتخذت شكلا في إسبانيا أسبق منه في إنجلترا بمائة عام. في الواقع لم تُفقَد بالكامل أبدا ذاكرة البلديات الحرة (*Municipos Libres*) في إسبانيا وبرزت دائما إلى المقدمة يكاد يكون في كل الهبات التي سببت الاضطراب في البلاد بشكل دوري لقرون. حتى ثورة الكانتونات (*Cantonalist Revolution*)(•) لعام ١٨٧٣ تمت بهذه الروح. اليوم في أوروبا

(•) ثورة الكانتونات هي انتفاضة وقعت خلال الجمهورية الإسبانية الأولى، ابتداء من ١٢ يوليو عام ١٨٧٣ في قرطاجنة. في الأيام التالية انتشرت الكانتونات عبر العديد من المناطق بما في ذلك فالنسيا والأندلس (وخاصة غرناطة) وقرطاجنة (والتي استمرت لعدة أشهر يحاصرها جيش نيكولا سالميرون) وفي محافظات سالامانكا وأفيلا. جرت محاولات لإنشاء كانتونات في إكستريمادورا، وكوريا، وهيرفاس وبلاسنثيا. استقال بي ذا مارجال من منصبه كرئيس للجمهورية ، بعد أن أعلنت الكانتونات المستقلة التأخر عن دفع ضرائب التحسينات، ليخلفه=

لا يوجد بلد آخر تعيش فيه روح الفدرالية داخل الشعب بهذا العمق مثلما هي في إسبانيا. وهذا أيضا هو السبب وراء أن الحركات الاجتماعية في تلك الأرض حتى اليوم تتميز بالروح التحررية التي لم نعد نجدها بنفس الدرجة في أي بلد آخر.

لقد مر وقت ما قبل أن نستطيع ملاحظة أي ثقافة محددة على الإطلاق في الدول المسيحية في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الأيبيرية. من بين بقايا السكان القوط الغربيين احتفظت الحياة الاجتماعية لمدة أربعمائة سنة بأشكال بدائية جدا، حتى أن المرء لا يستطيع الحديث على الإطلاق عن أي ثقافة عليا مستقلة بينهم. يعلق "ديركس" (*Diercks*) في كتابه "التاريخ الإسباني" (***Geschichte Spaniens***):

> **ثقافة شمالي إسبانيا لذلك هي مختلفة بالكلية عن تلك في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة. هنا نرى كل فروع الثقافة المادية والروحية تزدهر؛ من الناحية الأخرى ظل نسبيا تنظيم الدولة عند مستوى متدنٍ جدا ولم يتغير إلا قليلا؛ وهكذا المؤسسات التي تشكلت في الشمال حملت معها تطور الدولة وفرض سيطرة المؤسسات القانونية.**

تلك حقيقة ذات أهمية عظمى. ومع ذلك "ديركس" على ما هو ظاهر لا يدرك مغزاها على الإطلاق. ولأنه بالضبط في إسبانيا العربية لم تستطع سلطة الدولة أبدا أن تكون مركزية فعلا، استطاعت الثقافة التطور هناك دون إزعاج، بينما ظلت لوقت طويل عاجزة عن أن تجعل من نفسها محسوسة في الشمال حيث الصراع على السلطة السياسية يدفع كل المصالح الأخرى إلى خلفية الصورة. فقط بعد الاستيلاء على "سرقسطة" (***Zaragossa***) و"طليطلة" (***Toledo***) بدأ يظهر هناك ملامح تغيير عظيم، وفي ذلك كان للتأثير المغاربي أهمية حاسمة.

فقط قطلونية (***Catalonia***)، وفوق كل شيء "برشلونة" مثّلتا استثناءً، لأنهما منذ زمن طويل سابق على أي من الدول المسيحية الأخرى في إسبانيا، بلغتا درجة

=ساليرون. وفقا للموسوعة البريطانية: "خلال الثورة الإسبانية عام ١٨٧٣، حاول بي ذا مارجال إقامة اللامركزية كنظام سياسي على هدى أفكار برودون. [المترجم]

عالية من الثقافة الاجتماعية والفكرية. ويرجع ذلك إلى العلاقات الحميمة مع الجنوب الفرنسي، الذي كان قبل الجهاد الصليبي ضد الهراطقة "الألبيجينيين" (***Albigenses***) واحدا من البلاد الأكثر تطورا، فكريا وثقافيا، في كل أوروبا. إلى جانب ذلك، لم يشعر أهل قطلونية في أنفسهم التزاما بحظر البابا من التعامل مع العرب، واستمروا في عمل تجارة مزدهرة مع الدويلات العربية في الجنوب التي بالطبع جعلتهم على اتصال أكثر قربا من الثقافة المغاربية. وهكذا تطورت في قطلونية روحية أكثر حرية ومستوى أعلى للحياة الثقافية مما كانت عليه أي من الدويلات المسيحية الأخرى في شبه الجزيرة. هذا الفرق الذي جعل القطالونيين ما زالوا أكثر إدراكا بشكل حيوي لقمع الاستبداد الملكي العنيف لحقوقهم وحرياتهم القديمة، مما بدّلهم. وجعلهم عدوا لدودا لقشتالة وخلق هذا التناقض الحاد بين قطلونية وبقية إسبانيا الذي لم ينته بالكامل بعد.

وطالما أن السلطة الملكية – التي نمت قوتها بشكل ثابت بعد زواج فرديناند صاحب آراجون بإيزابيلا ملكة قشتالة- كانت لا تزال مجبرة على احترام الحقوق القديمة للبلديات والولايات، فقد انتعشت هناك في المدن ثقافة غنية انتقلت إليهم بواسطة العرب ودفعتهم تدريجيا إلى الإبداع المستقل. في بدايات القرن السادس عشر كانت كل الصناعات لا تزال في ازدهارها الكامل. وكما يخبرنا "فرناندو كاريدو" (*Fernando Garrido*) تعلم الإسبان تسريح الصوف والصباغة من العرب؛ وأصبح نسيج ليون (***Leon***) و"سيجوبيا" (***Segovia***) و"برغُص" (***Burgos***) و"استرامادورا" (***Estramadura***) الأحسن في العالم. في محافظات قرطبة وغرناطة و"مورثيا" (***Murcia***) وأشبيلية (***Seville***) و"طليطلة" (***Toledo***) وبلنسية (***Valencia***) انتعشت صناعة الحرير ودعمت الجزء الأعظم من السكان المحليين. ماثلت الحياة في المدن صناعة خلية النحل. وبالتوازي مع فنون الحرف اليدوية، بلغ المعمار على وجه الخصوص توسعا مجيدا؛ وتحمل كاتدرائيات برغص وليون وطليطلة وبرشلونة شهادات حية على هذا.

وطبعا لم يتم التغلب فورا على التناقضات الداخلية بين العديد من الدويلات خصوصا تناقضات قشتالة مع الدويلات الأخرى في أنحاء البلاد. لذلك لم تستطع

السلطة الملكية على الفور أن تشن هجومها على البلديات، وأُجبرَت غالبا على الخضوع لسيطرة المجالس الشعبية المحلية (*Cortes*) التي استطاعت وحدها تزويد السلطة الملكية بما تحتاجه من نقود للوفاء بالتزاماتها. ولكن الكاردينال القوي "خيمنيس دو ثيثنيروس" (*Ximenes de Cisneros*) قس اعتراف الملكة إيزابيلا، كان قد خطط فعلا للحملة ضد "الحقوق الخاصة" للبلديات. أحد أكثر الأسلحة فعالية في الصراع من أجل انتصار الحكم المطلق الملكي كان محاكم التفتيش (*Inquisition*) التي يُنظَر إليها كمجرد آلة من ابتكار الكنيسة فقط - وبشكل غير صحيح، لأن محاكم التفتيش لم تكن سوى قسم خاص من الجهاز الإداري للمملكة الذي ساعد على تقوية سلطة الحكم المطلق وتوسعه الكامل. وحيث إنه في إسبانيا جهود إقامة الدولة القومية الموحدة نمت يدا بيد بشكل أكثر حميمية مع وحدة العقيدة الدينية، عملت الكنيسة والحكم الملكي معا. ويبقى أن الكنيسة كانت بدرجة كبيرة مجرد أداة في يد الاستبداد الملكي، حيث ساعدت في تنفيذ خططه وأعطته بتطرفها الهمجي هذه النبرة الشاذة التي افتقدها الاستبداد في كل البلدان الأخرى. في الواقع، لقد ارتفعت محاكم التفتيش بواسطة الملكية الإسبانية إلى تلك الأهمية المخيفة مما حمّلها لعنات كل الأجيال اللاحقة. في كتابه عن إسبانيا المعاصرة، يعطينا "جاريدو" بعض إحصائيات "الأب مونت جايارد" (*Abbe Montgaillard*) التي طبقا لها تم حرق ٣١٩٢٠ شخصا حيا، و١٦٧٥٩ شخصا أُحرِقوا في دمى من عام ١٤٨١ إلى ١٧٨١. وصل العدد الكلي للأفراد الذين تمت التضحية بهم والذين صودرت ممتلكاتهم بواسطة الدولة ٣٤١٠٢٩ شخصا. ويضيف "جاريدو" إن هذا التقدير معتدل جدا.

فرديناند الكاثوليكي قد حاول فعلا فرض قيود على الحقوق البلدية القديمة في أماكن متنوعة من البلاد وقد نجحت محاولاته في العديد من المواقف، ولكنه اضطر للسير في إجراءاته بحرص وإخفاء غرضه الحقيقي تحت كل أنواع الخداع والتمويه. في حكم تشارلز الأول (الإمبراطور الألماني تشارلز الخامس) استمر التاج في جهوده في هذا الاتجاه بحماسة مزدوجة، وهكذا وقعت الهبة العظمى في المدن القشتالية في عام ١٥٢١. في البداية حقق التمرد نجاحات صغيرة قليلة ولكن بعدها

بقليل لحق بجيش الكوميونات (*Comuneros*) هزيمة كارثية في "بيـــالار" (*Villalar*) وتم إعدام "خوان دو باديا" (*Juan de Padilla*)، رئيس أركان التمرد.

ويكاد يكون في الوقت نفسه، تم إخماد تمـــرد جماعـــات الإخـــوان ونقابـــات الحرف (*Germainas*) في مقاطعة بلنسية (*Valencia*) بعد معركة رهيبة. نتيجة لهذه الانتصارات أصبح التاج في موقف مكّنه من وضع نهايات دموية لدساتير البلـــديات القديمة التي كانت سارية في الدويلات المسيحية في إسبانيا منذ بداية القرن الحـــادي عشر. لذلك تحت حكم فيليب الثاني عندما أُغرِق تمرد أهـــل آراجـــون فـــي دمـــاء متمردي سرقسطة وقُطعت رأس القاضي الرئيسي "لانوثا" (*Lanuza*) بأوامر المستبد الذي سحق الدستور، كان الاستبداد قد احتل مكانه بإحكام ولم يتعرض لاهتزاز جـــاد أبدا بواسطة الهبات التالية التي نشبت في أماكن أخرى من البلاد.

وهكذا تأسست الدولة القومية الموحدة في ظل تملُّك الحكم الملكي الاستبدادي. أصبحت إسبانيا أولى القوى العظمى في العالم، وأثر نفوذها الـــسياسي وممارســـاتها بقوة على السياسة الأوروبية. ولكن مع انتصار الدولة الإســـبانية الموحـــدة والقمـــع الوحشي لكل الحقوق والحريات المحلية جفت موارد كل الثقافـــة الفكريـــة والماديـــة وغرقت البلاد في حالة بربرية ميئوس منها. حتى الأنهار التي لا تنفد مـــن الـــذهب والفضة التي تدفقت إليها من المستعمرات الإسبانية الشابة في الأمريكتين لـــم تمنـــع الأفول الثقافي؛ بل سارعت به.

بالاقتلاع القاسي للمغاربة واليهود فقدت إسبانيا أفـــضل حرفييهـــا وفلاحيهـــا؛ سقطت أعمال الري العبقرية في الخراب، ومعظم المناطق الأكثر خصوبة تحولـــت إلى صحارٍ جرداء. إسبانيا التي كانت حوالي النصف الأول من القرن السادس عشر لا تزال تصدر الحبوب إلى البلدان الأخـــرى، اضـــطرت فعـــلا فـــي ١٦١٠ إلـــى استيرادها، رغم حقيقة استمرار انكماشها سكانيا. بعد الاستيلاء على غرناطـــة كـــان عدد المقيمين بالبلاد تقريبا ١٢ مليون شخص. في ظل حكم فيليب الثاني هبط عـــدد السكان إلى نحو ثمانية ملايين. نتج عن التعداد الذي جرى في النصف الثـــاني مـــن القرن السابع عشر وجود ٦٨٤٣٦٧٢ ساكنا. ورغم أنه سابقا لم تستطع إسبانيا فقـــط

إمداد مستعمراتها الخاصة بكل المنتجات المصنوعة التي تحتاجها ولكنها أيضا صدَّرت كميات معتبرة من الحرير والقماش والمصنوعات الأخرى إلى البلاد الأجنبية، في نهاية القرن السابع عشر ثلاثة أرباع سكانها ارتدوا الملابس المصنوعة من القماش الأجنبي. خربت الصناعة خرابا تاما، وفي قشتالة ومناطق أخرى اضطرت الحكومة لتأجير الأرض للأجانب. فوق كل شيء، وفي ظل الاضطهاد الذي لا يتوقف فقد الرجال كل فرح في العمل. كل من استطاع بأي صورة من الصورة النجاح في أداء عمل، أصبح راهبا أو جنديا، وكان الظلام الفكري دامسا. وبات العمل مُحتقَرا حتىٰ أن أكاديمية مدريد في ١٧٨١ منحت جائزة للمقالة التي تُظهِر أن الحرفة اليدوية لا تحط بأي طريقة من الطرق من الإنسان ولا تهبط بكرامته الشخصية. طبقا لجاريدو:

> **خفَّض البؤس من الفخر وذبح الحرية. جلبت الخرافة كل أنواع البلاء المخيف، حيث وقعت الثروة في الجزء الأعظم بين "أيادٍ ميتة". هوس التحقق من العذرية والوقف للكنيسة بالممتلكات جرت إلى حد أنه في بداية الثورة في هذا القرن [التاسع عشر] أكثر من ثلاثة أرباع الأراضي في البلاد خضعت للعبودية.**

ربما يذكر المرء هنا أنه بالضبط في زمن الاستبداد المطلق بلغ الأدب والرسم الإسبانيان أعلى نقطة لهما. ولكن دعنا لا نخدع أنفسنا. ما تم إنتاجه هنا لم يكن سوى الرواسب الفكرية لزمن مضى؛ لقد ألهم فقط قلة من العقول الأكثر تقدما، التي نالت تقدير أقلية صغيرة ذابلة ولم توقظ بين الناس أنفسهم أي استجابة. لذلك يعلق "ديريكس" بشكل عادل جدا قائلا:

> **إذا ما حدثت إنجازات مرموقة بالتوازي مع الخراب الحكومي في عديد من ميادين الثقافة، إذا ما ازدهر الشعر والرسم بشكل حيوي، فيجب ألا يخدعنا هذا الواقع نحو الأسباب الحقيقية للخراب العام، ولا يمكنه أن يقلل منه. تمنحنا الحياة الثقافية في بلدان أخرى مثل**

هذه التناقضات أيضا. تقدم القوى الحيوية الباقية في الشعب نفسها بشكل فعال في تلك الميادين فقط التي تستطيع أن تنشط فيها تحت ثقل الاستبداد الزمني والروحي(٥).

التطور العالي للأدب الروسي في ظل القياصرة الروس هو تصوير ممتاز لصحة هذه الرؤية. على أية حال، هذا الصعود المجيد للأدب الإسباني لم يستمر طويلا وانهياره المفاجئ خدمنا في جعل الأمر أكثر بروزا لاحقا.

لم تقف الثقافة الإيطالية عند مستوى أعلى من ذلك الذي بلغته خلال الفترة من القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر، عندما انشطرت شبه الجزيرة إلى مئات المجتمعات الصغيرة ولم يكن ممكنا الحديث عن وحدة سياسية على الإطلاق. خلال تلك الفترة كانت المدن الحرة واحات مُحققة من ثقافة فكرية واجتماعية أعلى ذات تنوع مبهر وحيوية خلاقة لم تتحقق منذ ذلك الحين أبدا. إذا أسقطنا من اعتبارنا المدن-الجمهوريات في هيلاس القديمة لن تكون هناك أبدا فترة أخرى في تاريخ الشعوب الأوروبية، أنتجت في مثل هذا الزمن القصير مثل هذه الثروة العظيمة من الأعمال الثقافية. قرر العلامة الإنجليزي "فرانسيس جالتون" (***Francis Galton***)(•) في أعماله أن فلورنسا وحدها أنتجت في ذلك العصر العجيب مزيدًا من العقول المتميزة في كل ميدان من ميادين الثقافة بأكثر من كل دول العروش الملكية في أوروبا المعاصرة مجتمعة. في الواقع كانت المدن الإيطالية في ذلك الوقت مثل مشاتل استنبات مثمرة للنشاط الثقافي والفكري وكشفت للإنسانية الأوروبية عن آفاق

(•) السير فرانسيس جالتون (١٨٢٢-١٩١١) وهو إحصائي ، تقدمي، موسوعي، عالم اجتماع، وعلم النفس، وعلم الإنسان، اختصاصي تحسين النسل، مستكشف استوائي، وجغرافي، ومخترع، وعالم للارصاد الجوية، والوراثة والعمليات النفسية الفيكتوري الإنجليزي. أنتج جالتون أكثر من ٣٤٠ ورقة بحثية وكتابًا. كما أنه خلق مفهوم الارتباط والانحدار الإحصائي نحو التوسط الذي راج على نطاق واسع. وكان أول من طبق الأساليب الإحصائية لدراسة الاختلافات البشرية والوراثة، وعرض استخدام الاستبيانات والاستطلاعات لجمع البيانات عن المجتمعات البشرية، وهو الأسلوب الذي كان يحتاجه لأعمال تدقيق الأنساب والسير الذاتية ودراساته للجسم البشري. [المترجم]

جديدة بالكامل للتطور الاجتماعي الذي لاحقا وعن طريق ظهور الدولة القومية ونفوذ رأس مال الأعمال التجارية [الميركانتيلية] ونمو الطموحات السياسية انحــرف عــن طريقه في خطوط أخرى تماما. وُلِدت في المدن الإيطالية تلك الروح التي تمــردت ضد نفوذ الكنيسة المُستعبِد. هنا أيضا بلــغ التيــاران الفلــسفيان لمــذهب الاســمية (*Nominalism*) والواقعية (*realism*)(*) أعلى درجة لهما، بعد أن استمدا الحيوية من الفكر العربي ولأن النبضة التي تلقياها حتــى قبــل ظهــور مــذهب "الإنــسانيات" (*Humanism*) كانت تبحث عن طرق جديدة للمعرفة. لأن المعنى الحقيقــي لهــاتين الحركتين – خصوصا الاسمية في المراحل الأخيرة لتطورها – يتمثل في هذا، أنهما حاولا وضع الفكر الفلسفي على قدميه مرة أخرى بعدما ظــل لألــف عــام تحــت الوصاية الفكرية للاهوت الكنسي (*ecclesiastical theology*). فقــط عنــدما يــصبح المرء واعيا بوضوح للعمليات الفكريــة المــشوهة لمــذهب المدرســية المــسيحي (*Christian scholasticism*) يستطيع المــرء تقييم هــذا التغير بشكل صحيح، الذي لا يخطئ في وسائل الحكم على الأمور الروحية. لمدة أربعمائة سنة انــشغل الفكــر المدرسي بأكثر المسائل هامشية وضيع نفسه فــي مخلفــات الــشكلية (*formalism*) الميتة التي لا تستطيع فتح نوافذ جديدة أمام العقل البشري. تعارك رجــال اللاهــوت المسيحي لعقود عديدة حول كيف تستطيع أن تقف عديد من الأرواح على سن إبــرة؛ وأي نوع من البراز يخرج من الملائكة؛ وهل وكيف أكمــل المــسيح مهمتــه فــي الخلاص؛ وهل أتى إلى الأرض كثمرة قرع عسلي أم كوحش أم كامرأة؛ وهل الفــأر الذي قرض قبر المسيح قد التهم جسده؛ وما هي عواقب فعل الفأر هذا إذا كــان قــد فعل. شغلت مثل هذه المسائل وأشباهها عقوّل المتعلمين لقرون وتفسيراتهم المتنطعــة مرت كعلامة على عمق تعليمهم.

(*) مذهب الواقعية يميل إلى الرأي القائل إن كل ما نعتقده الآن هو مجرد تقريب للواقع وإن كــل مراقبة جديدة تقربنا أكثر إلى فهم الواقع. الواقعية بمعناها الكانطي، تتنــاقض مــع الواقعيــة المثالية. بالمعنى المعاصر، تتناقض الواقعية مع معاداة الواقعية، في المقام الأول فــي فلــسفة العلوم. [المترجم]

تطورت في المدن مقدمات إعادة بعث للعلم، الذي كان قد سقط في فساد مطبق مع صعود العقل الكنسي. في عام ١٢٠٩ حظر مجلس كنسي في باريس على الكنسيين دراسة تلك الكتابات حول التاريخ الطبيعي الذي كان العالم المسيحي قد استلمها من القدماء. تواجدت في "ساليرنو" (*Salerno*) مدرسة عليا للعلوم يعود تاريخها إلى حوالي القرن العاشر، خصوصا في الطب حيث عمل هناك على الأغلب أطباء من العرب واليهود كمدرسين. ساهمت تلك المدارس بشكل عظيم في نشر التعليم العربي ومعرفة اللغة العربية في إيطاليا، ومنها عبر بقية أوروبا ومن خلالها خرج أول تحفيز على صحوة العلم من جديد. يقع خط طويل من الاكتشافات المتميزة في هذه الحقبة المجيدة التي قدَّم العديد منها مقدمات لازمة لثورة الاكتشافات العظيمة التي وقعت في نهاية القرن السادس عشر. الشخصية الساحرة "لليوناردو دا فنشي" (*Leonardo da Vinci*) الذي لم يكن فقط واحدا من المعلمين الأعظم لكل الأزمان في أكثر ميادين الفن تنوعا، ولكنه برهن نفسه أيضا كمفكر من الطراز الأول في كل فروع البحث العلمي وحقق خصوصا في الميكانيكا نتائج مبهرة، تلك الشخصية هي في تعدد جوانب نبوغها المبهر وعظمة عبقريتها تمثل بحق رمزا لهذا الزمان المدهش الذي حقق فيه الدافع الإنساني للابتكار مثل هذا التعبير القوي.

في المدن ارتفعت الحرف اليدوية إلى عظمة لم تكن معروفة من قبل. عاد العمل الإنساني مرة أخرى ليكتسب مكانة مرموقة ولم يعد يُحسب عارا لمن يقوم به. تم إنتاج أدق وأرقى المُطرَّزات في بلديات مدن شمال إيطاليا، وأكثر المنسوجات الحريرية إبهارا. نافست كل مدينة في إنتاج المشغولات الحديدية والذهبية الرائعة، وسلع الاستخدام اليومي. بلغت أعمال الحدادة وصب المعادن والأجهزة الميكانيكية وكل فروع الحرف الأخرى حد إتقان يستدعي إعجابنا حتى اليوم بتنوعها الذي لا ينفد ودقتها وصدق تنفيذها.

ما تم إنتاجه في كل ميدان من ميادين الفن خلال زمن ازدهار تلك الثقافة تفوق على كل شيء ظهر منذ سقوط العالم الهيليني. مازالت المباني الأثرية التي لا حصر لها في كل مدينة من مدن شبه الجزيرة تكشف لنا روح عصر الأقوياء

هذا، الذي كانت ضربات نبض المجتمع فيه على هذه الدرجة من القَوة، وعمل الفنانون والأكاديميون والحرفيون معا لصنع أفضل ما يستطيعونه. تشارك السكان جميعهم في تشييد الكاتدرائيات ودور مجالس المدن وأبراج أجراسها وبوابات المدينة، "لتتكشف عبقرية الجموع" كما أطلق عليها كروبوتكين، "في كامل عظمتها وتنوعها اللا نهائي". لقد ملأت كل التزام بروح العصر، وتنفست الحياة في الأحجار الميتة، وتجسدت كل الأشواق الساخنة التي ترقد داخل البشر وتتوق للوفاء، والعروة الوثقى التي تربطهم بالمجتمع. ما أتى إذاً بالبشر معا من أجل بذل جهد جماعي مشترك كان هو الضمير الحي للوحدة الداخلية التي تضرب بجذورها في المجتمع - هذه الوحدة غير المرئية لم تُفرَض على الفرد من خارجه، ولكنها نتيجة طبيعية لتجربته الاجتماعية. ولأن الإنسان في ذلك الوقت شعر دائما بالرابطة الحية التي تجمعه بكل الآخرين لم تكن هناك حاجة لفرض صلات اجتماعية عليه بالقوة من خارجه. يستطيع الإنتاج الحر، فقط نابعا من هذه الروح، أن يُنشِئ ما يطلق كل القوى الإبداعية في الإنسان ويصل بالحياة الاجتماعية للمجتمع إلى أتم اتساع لها. وبهذه الطريقة ظهرت للوجود أولا الشروط الاجتماعية الأولية من أجل تحقيق إنجازات معمارية قوية لتلك الفترة العظيمة.

ومثل المعمار نضج النحت والرسم إلى عظمة لم يتواجد مثيلا لها في المجتمعات الهيلينية. من نشأة مدرسة جنوب إيطاليا في النحت في النصف الأول من القرن الثالث عشر، وعمل "نيقولا بيسانو" (*Niccola Pisano*)(•) في "توسكانيا" (*Tuscany*) إلى روائع أعمال "دوناتيلو" (*Donatello*)(••) و"فيروكشيو"

(•) نقولا بيسانو (١٢٢٥-١٢٨٤) نحات إيطالي شهير بأسلوبه الروماني الكلاسيكي في النحت. يعتبر بيسانو أحيانا مؤسسًا للنحت الحديث. [المترجم]

(••) دوناتو دي نيكولو دي بيتو بردي (١٣٨٦-١٤٦٦)، والمعروف باسم دوناتيلو، أهم نحات في عصر النهضة المبكر في فلورنسا. درس فن النحت الكلاسيكي، واستخدمه لتطوير أسلوب كامل في النحت، حيث انتشر هذا الأسلوب في روما، وبادوا وسيينا وأجزاء أخرى من إيطاليا خلال حياته المهنية الطويلة والمثمرة. استخدم خامات الحجر والبرونز والخشب والطين=

(*Verrocchio*)(•) و"سانسوفينو" (*Sansovino*) و"مايكل أنجلــو" (*Michelangelo*)(••)، تقريبا قدمت كل مدينة خطها الخاص من النحاتين المرموقين، الــذين أعطــت روح المجتمع لقدراتهم أجنحة للطيران. لم يحدث أبدا في مثل هذا الزمن القصير أن ينــتج مثل هذا العدد الكبير من الرسامين المهمين، بمثل هذه الثروة من الأعمــال العظمــى التي خرجت للحياة. من "سيمابيو" (*Cimabue*) إلى "جيوتو" (*Giotto*) ومن رســامي اللوحات الجدارية الجصية (*fresco*) في أواخر القرن الثالث عشر إلى "فرا أنجيليكو" (*Fra Angelico*) و"ماستشيو" (*Masaccio*) و"ماسولينو" (*Masolino*) ومن "بيسانيلو" (*Pisanello*) و"كاستانيو" (*Castagno*) إلى "فيليبــو ليبــي" (*Filippo Lippi*)، ومــن "بييرو فرا ديلا فرانسيــسكا" (*Piero della Francesca*) ودائرتــه إلــى "مانتينيــا" (*Mantegna*) ومقلديه العديدين، ومن "لورنزو دي كريدي" (*Lorenzo di Credi*) إلى "فيروتشيو" (*Verrocchio*) و"جيرلاندايو" (*Ghirlandajo*) و"بوتيــشيلي" (*Botticelli*) ومن "بيروينو" (*Perugino*) إلى "بيلليني" (*Bellini*) وليونــاردو دافنــشي، ومــن "كوريجيو" (*Correggio*) و"جيــورجيــوني" (*Giorgione*) و"ديــل ســارتو" (*del Sarto*) إلى "تتيان" (*Titian*) ومايكل أنجلو و"رافاييلو" (*Raffaello*)، معلمون كبــار نشأوا تقريبا في كل مدينة وأعطوا الرسم مكانة رفيعة لم يعرفها من قبل. اســتعرض العديد من هؤلاء المعلمين الكبار شمولا مدهشا وعملوا في الوقت نفــسه كرســامين

=والجص والشمع. رغم أن أعماله الأكثر شهرة في معظمها تماثيل، طور دوناتيلو أنواعًا من النحت الغائر في أعمال صغيرة، وقدرًا كبيرًا من النقوش المعمارية الكبيرة. [المترجم]

(•) أندريا دل فروكيو (١٤٣٥-١٤٨٨)، رسام ، ونحات، وصائغ إيطالي. كان معلم ورشة هامة في فلورنسا. لقبه باللغة الإيطالية يعني "العين الحقيقية". وتنسب له بعض اللوحات على وجــه اليقين. تلاميذه يشملون ليوناردو دا فينشي، وبيترو بيروجيا ولورنزو دي كردي. [المترجم]

(••) مايكل أنجلو بوناروتي دي دوفيكو سيموني (١٤٧٥-١٥٦٤) نحات ورسام ومهندس وشاعر إيطالي، مهندس النهضة السامي الذي مارس تأثيرا لا مثيل له على تطور الفن الغربي. يعتبر أعظم فنان أثناء حياته، ومنذ ذلك الحين تم اعتباره واحدا من أعظم الفنانين في كل العصور. ورغم قيامه ببعض النزوات في غير الفنون، فإن تعدد مواهبه في التخصصات الفنية تعطيــه مثل هذا الترتيب العالي حتى إنه في كثير من الأحيان يعتبر منافسا على لقب الرجل الرمــز على النهضة، جنبا إلى جنب مع زميله الإيطالي ليوناردو دا فينشي. هناك عدد من أعماله في الرسم والنحت والعمارة من بين الأعمال الأكثر شهرة في الوجود. كان إنتاجه في كل ميــدان من ميادين الفن خلال حياته الطويلة معجزا. [المترجم]

ونحاتين وفي تشكيل البرونز ومعماريين وحرفيين. وهكذا أطلق "بينديمونتي" (*Pindemonte*) على مايكل أنجلو اسم "رجل بأربعة أرواح" لأنه رسم العشاء الأخير، ونحت تمثال موسى وشيد قبة كنيسة القديس بطرس وكتب سونتات (*sonnets*) بقوة تعبيرية شديدة. تشكلت في المدن الإيطالية بهذه الطريقة ثقافة غيرت بالكامل خلال قرون قليلة جوانب البلاد وأعطت لحياتها الاجتماعية اتجاها لم تكن تمتلكه من قبل.

في نفس الوقت كانت اللغة الإيطالية تتطور أيضا، ومعها تطور الأدب في البلاد. في البداية كان طراز الشعراء الصقليون المتجولون هو السائد، ولكن برزت إلى مقدمة الصف لهجة أهل "توسكانيا" أكثر فأكثر. وبسبب ثراء ثقافة المدن التوسكانية اكتسبت لهجتهم تأثيرا متزايدا بثبات. كتب شعراء مثل "جوينيتشيلي" (*Guinicelli*) و"كافالكانتي" (*Cavalcanti*) و"دافانتساتي" (*Davanzati*) بهذه اللهجة؛ ولكن شعر "دانتي" (*Dante*)(•) القوي هو أول من أعطى اللغة حيوية التعبير التي لا تُقاوَم، والقوالب المرنة والتلوين الدقيق اللذين مكّنا الشاعر من التقاط كل ما يحرك روح الإنسان. عمل "بترارك" (*Petrarche*)(••) و"بوكاتشيو" (*Boccaccio*)(•••) جنبا إلى جنب "دانتي" لصياغة أداة الروح هذه- اللغة.

(•) دورانتي ديلي أليغييري، هو ببساطة دانتي (١٢٦٥-١٣٢١)، شاعر إيطالي كبير في أواخر العصور الوسطى. صاحب الكوميديا الإلهية، التي تعتبر على نطاق واسع أعظم عمل أدبي في اللغة الإيطالية وتحفة من الأدب العالمي. في أواخر العصور الوسطى، كانت الأغلبية الساحقة من الشعراء تكتب باللاتينية، وبالتالي لا يصل إليهم إلا جمهور الأثرياء والمتعلمين. دافع دانتي عن استخدام العامية في الأدب. هذا الاختيار رغم أنه غير تقليدي للغاية، شكل سابقة مهمة بشكل كبير، جعل الكتاب الإيطاليين في وقت لاحق مثل بترارك وبوكاتشيو يتبعونه. ونتيجة لذلك، لعب دانتي دورا أساسيا في تأسيس لغة وطنية في إيطاليا. [المترجم]

(••) فرانشيسكو بتراركا (١٣٠٤-١٣٧٤)، عالم وشاعر إيطالي في عصر النهضة في إيطاليا، وواحد من أوائل الإنسانيين. غالبا ما ينسب اكتشاف بترارك لرسائل شيشرون إلى بدء عصر النهضة في القرن ١٤. في القرن الـ١٦، أنشأ بيترو بمبو نموذجا للغة الإيطالية الحديثة على أساس أعمال بترارك، وكذلك من جيوفاني بوكاتشيو، وإلى حد أقل، دانتي أليغييري. تم تقليد سوناتات بترارك في جميع أنحاء أوروبا خلال عصر النهضة وأصبحت نموذجا للشعر الغنائي. وهو معروف أيضا بكونه أول من وضع مفهوم "العصور المظلمة". [المترجم]

(•••) جيوفاني بوكاتشيو (١٣١٣-١٣٧٥) كاتب وشاعر إيطالي، وإنساني عصر النهضة المهم. كتب بوكاتشيو عددا من الأعمال البارزة، بما في ذلك ديكاميرون والمرأة الشهيرة. كما كتب=

هذه الثقافة الرائعة التي انتشرت من إيطاليا لتغطي معظم مدن أوروبا والتي بثت فيها الدافع لإعادة تشكيل الحياة الاجتماعية، هذه الثقافة انطلقت في زمن كانت البلاد خلالها منقسمة كاملا بشكل سياسي، وفكرة الوحدة القومية لم تمتلك بعد سلطة على عقول البشر. غطت البلاد كلها شبكة من المجتمعات ذات الاكتفاء الذاتي التي تدافع عن استقلالها المحلي بنفس الحماسة التي أبدتها المدن–الجمهوريات في هيلاس القديمة. في نفس البلدية تعاونت إخوانيات ونقابات طوائف الفنانين والحرفيين في مهمة مشتركة. لم تكنِ نقابات الطوائف مجرد مدراء وإداريين للحياة الاقتصادية، لقد مثلوا أيضا الأساس الوحيد للبناء السياسي للمجتمع. لم تتواجد أحزاب سياسية ولا سياسيون محترفون بالمعنى الحديث. انتخبت كل طائفة ممثليها للمجلس البلدي، حيث ينفذون تعليمات منظماتهم ويحاولون بالاجتماع مع مندوبين من المنظمات الأخرى الوصول إلى تسوية لكل المسائل المهمة على قاعدة الاتفاق الحر. وحيث إن كل نقابة طائفة تشعر في نفسها أنها تتحدد بشكل وثيق مع المصلحة العامة للمدينة، كانت الأمور تُقرَّر بواسطة تصويت الهيئات المُمثَّلة. ويتم نفس الإجراء في فدراليات المدن، أصغر سوق بلدة امتلك نفس الحقوق التي يمتلكها أغنى مجلس بلدي، حيث إن هذا السوق قد انضم إلى التحالف باختياره الحر ويمتلك نفس المصلحة في كفاءة التحالف بنفس الدرجة التي تعطيها كل المجتمعات الأخرى. وفي نفس الوقت، ظلت كل طائفة داخل المدينة وكل مدينة داخل الفدرالية كيانا مستقلا تسيطر على مالياتها الخاصة، ومحاكمها الخاصة وإدارتها الخاصة وتستطيع عقد معاهدات وحلها مع الجمعيات الحرة وفقا لحركتها الخاصة. فقط المتطلبات المشتركة لنفس المهام ونفس المصالح هي التي تأتي بنقابات الطوائف والمجالس البلدية المتعددة معا في هيئات اعتبارية (*corporate bodies*) من نفس النوع بهدف تنفيذ خطط بمدى أوسع.

الميزة العظمى في هذا النظام تكمن في حقيقة أن كل عضو من أعضاء نقابة الطائفة إلى جانب ممثلي الطائفة في الهيئة الاعتبارية يستطيع بسهولة أن يكون على

=الشعر بالعامية الإيطالية. كان حوار بكاتشيو واقعيا، يختلف عن معاصريه وكتاب القرون الوسطى الذين عادة ما اتبعوا نماذج صيغ حرفية. [المترجم]

علم بمسار كل وظائفها. كل فرد كان يتعامل مع الأمور التي يفهمها بدقة ويتخذ قرارات بشأنها – أمور يستطيع التحدث عنها كخبير ومُحكّم عارف ببواطنها. إذا ما قارن المرء هذه المؤسسة بالهيئات التشريعية أو الإدارية للدولة الحديثة، يرى تفوقها الأخلاقي واضحا في اللحظة. اليوم لا صاحب الصوت الانتخابي ولا الرجل الذي يُقال عنه إنه نائبه، في موقع يمكنهما من الإشراف بأي درجة (ولسنا نقول كاملا) على غول ماكينة الجهاز السياسي المركزي. يضطر كل مندوب، يكاد يكون كل يوم، أن يتخذ قرارات في مسألة لا يعرف عنها شخصيا أي معلومات ويجب عليه أن يرتكن إلى حكم آخرين فيما يخصها. حتمية أن مثل هذا النظام لابد وأن يؤدي إلى أسوأ نوع من الاختلال والظلم فذلك أمر لا يقبل الجدل. وحيث إن الناخب الفرد لنفس السبب ليس في وضع أفضل ليلم بمسار من يُسمى "نائبه" والسيطرة على أفعاله، من الممكن لطائفة السياسيين المحترفين والعديد منهم لا يرى سوى مميزاته الخاصة أن يتربحوا بواسطة هذه الفوضى والباب مفتوح على مصراعيه لكل نوع من أنواع الفساد الأخلاقي.

تاليا لتلك الشرور سيئة السمعة الواضحة بشكل لا لبس فيه وبشكل صارخ في كل دولة برلمانية اليوم، يصبح ما يُسمى "التمثيل المركزي" أعظم عقبة لأي تقدم اجتماعي، يقف في تناقض مباشر مع كل مبادئ التطور الطبيعي. تعلمنا التجربة أن كل بدعة اجتماعية تتغلغل أولا في دائرة صغيرة وفقط تدريجيا تحقق الاعتراف العام. لهذا السبب بالضبط تمنح الفدرالية أفضل ضمان للتطور غير المقيد، حيث إنها تترك لكل مجتمع محلي إمكانية تجربة أي تدابير داخل دائرته الخاصة قد يرى مناسبتها لتقدم وازدهار ورفاه مواطنيه. لذلك يصبح هذا المجتمع المحلي في موقف من يطبق تجارب عملية وهكذا يُخضِع فورا أيَ ابتكارات مُقترَحة لبرهان التجارب الإيجابية. وهكذا يمارس تأثيرا تنشيطيا وتحفيزيا على المجتمعات المجاورة والتي هكذا تضع نفسها في موقع من يحكم على ملاءمة أو عدم ملاءمة الابتكارات. مع الهيئات النيابية المركزية لزماننا مثل هذا التعليم في مجال وجهات النظر الاجتماعية مُستبعَد بالكامل. في مثل هذا البنيان، وفي طبيعة الأشياء ذاتها، الأقسام الأكثر تخلفا

في البلاد تمتلك التمثيل الأقوى. بدلا من قيادة المجتمعات المحلية الأكثر تقدما والأكثر نشاطا فكريا للآخرين بضرب المثال بأنفسهم، لا تمتلك سوى العكس. الموهبة المتوسطة الصريحة هي دائما التي تمسك باللجام وكل نبضة نحو الابتكار تُقتَل في مهدها؛ الأقسام الأكثر تخلفا والأبطأ فكريا من البلاد تضع القيود على الجماعات الأكثر تقدما ثقافيا وتعوق مبادراتها بمعارضتها. لا يستطيع أفضل نظام انتخابي تبديل هذه الحقيقة؛ فالنظام الانتخابي لا يخدم سوى في جعل الحالة أصعب وأكثر يأسا؛ هذا لأن جرثومة الرجعية تكمن في نظام التمثيل المركزي ولا تتأثر على الإطلاق بالأشكال المتنوعة للاقتراع العام.

لو قارن المرء الثقافة الرفيعة لعصر الفدرالية العظيم في إيطاليا بالثقافة الضبابية للدولة القومية الموحدة التي حلقت طويلا جدا أمام أعين الوطنيين الإيطاليين كأعلى هدف لطموحاتهم، يفهم المرء في الحال الفرق الهائل بين النظامين. كانت مخرجاتهما الثقافية مختلفة تماما مثلما كانت الافتراضات الفكرية التي حددت معالم كامل بنيانهما الاجتماعي. أنصار الوحدة الوطنية خصوصا "ماتزيني" الذي قامر بحياته نفسها على هذه الفكرة، كان مقتنعا بثبات بأن قدر إيطاليا الموحدة هو المسير في مقدمة صفوف كل شعوب أوروبا لتبادر بافتتاح فترة جديدة في التاريخ البشري. بكل التفاخر الحافل بالرؤى في صوفيته السياسية أعلن ماتزيني:

> **يبقى عائشا داخلي الإيمان بروما. داخل أسوار روما تنكشف الحياة مرتين بوصفها وحدة العالم. وبينما تختفي الشعوب الأخرى للأبد بعد إتمامها قدرا عابرا، لم يأت أحد إلى مقدمة الصف مرتين، استمرت الحياة هناك إلى الأبدية ولم يُعرَف الموت أبدا.. لماذا لا يجب أن يرتفع هناك، من روما الثالثة، شعب إيطاليا، تطفو رايته أمامي؛ لماذا لا تنشأ وحدة ثالثة عظمى، تأتي بالإنسجام بين الأرض والسماء، وبين الحق والواجب؛ ليس بالنسبة للفرد ولكن بالنسبة للشعوب، الحرة والمتساوية، وينطق هذا الشعب بكلمة مُوحِدة ومنيرة عن رسالته في هذا الوادي الأرضي؟**

آمن ماتزيني برسالة إيطاليا السماوية في تاريخ أوروبا الآتي بنشوة صوفية كمن أصابه مسّ كونيّ؛ قد كانت "الوحدة الإيطالية" (*Unita Italiana*) بالنسبة له مفهوما فكريا من خلاله فقط سوف تبدأ إيطاليا في تنفيذ "رسالتها التاريخية". بالنسبة له كانت الوحدة القومية هي مسألة سلطة فوق كل شيء؛ لأنه رغم ترديد اسم الشعب على لسانه دائما، فإن هذا الشعب بقي بالنسبة له مفهوما مجردا جاهد بشكل دائم لتكييفه مع متطلبات دولته القومية. تستطيع إيطاليا فقط من خلال الوحدة السياسية الحصول على القوة التي سوف تكون ملائمة للوفاء برسالتها المزعومة. ومن هنا صيحة ماتزيني ضد الفدرالية:

> **إيطاليا الفتاة هذه وحدوية؛ لأنه دون وحدة لا توجد أمة حقيقية، لأنه دون وحدة لن توجد سلطة، وإيطاليا المحاطة بالأمم الوحدوية، التي هي قوية وغيورة، يجب فوق كل شيء أن تكون ذات قوة. تختزل الفدرالية إيطاليا إلى حالة سويسرا العاجزة بلا حول، وتحت ضغط الضرورة سوف تسقط تحت نفوذ تلك الأمة أو الأخرى من الأمم المجاورة. سوف تعطي الفدرالية الحياة للمنافسات بين الكيانات المحلية المختلفة، الخامدة اليوم، وهكذا سوف تعود بإيطاليا مرة أخرى إلى العصور الوسطى... الفدرالية الساعية لتدمير وحدة العائلة الإيطالية الكبرى سوف تقضي تماما على الرسالة التي ستلبي إيطاليا نداء الوفاء بها من أجل الإنسانية(٦).**

كان أمل ماتزيني وأنصاره من تشييد دولة قومية موحدة، هو صعود قوي للثقافة الإيطالية التي فور تخلصها من أغلال الهيمنة الأجنبية سوف تنطلق إلى مجد لم يُحلَم به من قبل. ومع ذلك قبل كل شيء سوف تؤسس الوحدة الإيطالية لحرية الشعب وتضع نهاية لكل نوع من أنواع العبودية. كم كان قدر احتفال الوطنيين الإيطاليين بكلمات فخمة عن الإلحاح الطبيعي نحو حرية الإيطاليين، وبفخر خاص جدا مدحوا ذلك عند الفرنسيين. "كارلو بيساكاني" (*Carlo Pisacane*)، الوطني الاشتراكي الناري (الذي لم يكن، وهذا حقيقي، من أنصار ميتافيزيقا ماتزيني

السياسية رغم احترامه العالي له كرجل أعطى حياته لتحرير بلاده في عام ١٨٥١)، في عمله الكبير، "المقالات التاريخية والسياسية والعسكرية لجنوب إيطاليا" (*Saggi storico-politici-militari sud Italia*) أصدر حكما كريها جدا على الفرنسيين. فهو يراهم شعبا خاليًا من الإحساس بالحرية، يضعون الحرية دائما على لسانهم فعلا ولكنهم داخليا وبالكامل مُستعبَدون، ويدفعهم عطشهم للمجد للتعلق برقبة أي طاغية يصادفونه في طريقهم. هكذا وضع الحب الغريزي للحرية عند الإيطاليين في تباين واضح، ووصفهم بأنهم أولئك الذين لا يمكن حثهم على الاستسلام كالخراف لوضع مصيرهم بين أيدي أسرة ملكية، واستمر يكرر أنه لا يمكن بناء إيطاليا الموحدة بواسطة سلطة أقلية متميزة، ولكن يجب بناء إيطاليا الموحدة نابعة من حرية الشعب. لم يكن لدى ماتزيني وأتباعه رأي أفضل في فرنسا ولم يخفوا مشاعرهم.

لم يقترب هؤلاء الرجال بأدنى درجة من فكرة أن جهودهم تلك يجب أن تؤدي بهم على الفور إلى مجرد تلك الحالة التي كانوا يلومون الفرنسيين عليها. وهكذا لم تفتح دولة متحدة واحدة إلى هذا الحد آفاقا جديدة للطموحات الثقافية، ولكنها كانت تؤدي دائما إلى انحطاط كل الأشكال الثقافية الأعلى. ينتج عن كل وحدة سياسية قومية امتداد لصراع الأقليات الصغيرة من أجل السلطة السياسية، وهي التي يجب دائما شراؤها بواسطة تخفيض الثقافة الفكرية. فوق كل شيء لم تُؤدِ وحدة قومية رغم ذلك أبدا إلى حرية شعب، ولكنها دائما ما اختزلت فقط عبوديته الضمنية إلى سُنَّة محددة، ويُزعَم بعدها أنها الحرية. ورغم أن "بيساكاني" قد يعتز بوهم عدم احتضان الأمة الحقيقية في أعماقها لطوائف أو رتب أو طبقات متميزة، فقد أظهرت لنا التجارب إلى حد بعيد دائما أن الدولة القومية مشغولة بشكل ثابت بوضع امتيازات جديدة وبتقسيم الناس إلى طوائف ورتب لأن وجودها نفسه يقوم على أساس هذا التقسيم. كم كان قول برودون لماتزيني وأنصاره واضحا وقويا حول ما سوف تجلبه الوحدة الإيطالية للشعب:

تضيع كل سمة أصلية للمناطق على تنوعها في بلد ما بواسطة مركزية حياته العامة – لأن ذلك هو الأسم الصحيح لما يُسمى

"الوحدة". دولة مركزية بستة وعشرين مليون روح، كما سوف تفتأ إيطاليا، تكبت كل حريات المقاطعات والمجالس البلدية لمصلحة قوة أعلى - الحكومة. ماذا تكون وحدة الأمة هذه في الحقيقة الواقعة؟ إنها تذويب جماعات الناس المنفصلة التي يعيش فيها الإنسان والتي تختلف عن بعضها البعض داخل فكرة مجردة لأمة، لا يتنفس فيها أحد، ولا يتعرف داخلها أحد على الآخر... أن تحكم ستة وعشرين مليونًا من الناس الذين يُسرَقون من كل ملكية لهم على أنفسهم فذلك يستدعي ماكينة جبارة؛ ثم لتبدأ تشغيل تلك الماكينة البيروقراطية الوحشية بواسطة جيش من الموظفين. وحتى تحميها من داخلها ومن خارجها فذلك يتطلب جيشا نظاميا قائما وضباطًا وجنودًا ومرتزقة؛ كل ذلك من الآن فصاعدا سوف يمثل الأمة. عدد الموظفين في فرنسا منذ خمسة عشر عامًا مضت كان يُقدَّر بستة آلاف. لم ينخفض العدد منذ الانقلاب. تماثل قوة الجيش والبحرية نسبيا هذا العدد. كل هذا أمر لا يمكن الاستغناء عنه من أجل الوحدة. تلك هي التكلفة المعتادة لدولة ما، تكلفة بسبب مركزية تتزايد باستمرار بينما حرية المقاطعات تنكمش بشكل متواصل. تستدعي الوحدة العظيمة الشهرة واللمعان والرفاهية وقائمة مدنية مؤثرة - السفارات ورواتب التقاعد ومزايا وهلم جرا. في مثل هذه الدولة الموحدة، يرفع كل شخص يديه ومن يستطيع الاعتماد على النصابين؟ الشعب! مَن يقول إن الأمة الموحدة تعني أمة مُباعة لحكومتها... وما هي فوائد مثل هذا الترتيب الموحَّد؟ فوائد ليست في صالح الشعب ولكن من أجل الطبقات والطوائف الحاكمة في الدولة"(٧).

أدرك الفرنسي اللامع [برودون] بوضوح المبدأ المُحرِّك لمحاولات الوحدة. كل شيء كان قد تنبأ به للإيطاليين قد ثبت صدقه لآخر حرف. إذا كان "باساكاني" وأصدقاؤه قد آمنوا بأنه يحدث فقط مع فرنسا، أن يضع الشعب مصيره بين أيادى

مغامر يقدم الوعود العظيمة وخصوصا تلك التي تغازل عطشهم للمجد، فقد أظهر مثال موسوليني لنا منذ ذلك الحين أن الوحدة السياسية القومية قد أعدوها من أجل إيطاليا لصالح بالضبط نفس النوع من الأشياء. لأن ما حدث هذا كان أيضا نتيجة للمركزية الحكومية. كلما خُنِقت بشكل أكمل المبادرة الشخصية وخُنقَ دافع الاعتماد على النفس في الإنسان نما الإيمان داخله بصورة أشد "بالرجل القوي" الذي سوف يقضي على كل متاعبه. أكثر من ذلك، هذا الاعتقاد هو مجرد جزء صغير من دين سياسي مزروع بعمق في طبيعة الإنسان بواسطة الشعور بالاعتمادية على قوة أعلى.

ما استشرفه برودون بهذا الوضوح الكبير بسبب عدم تشوش منظوره العقلي بعقيدة الدولة العمياء، اشتراكيونا المعاصرون – من الاشتراكيين الديموقراطيين إلى شتى فصائل البلشفية الروسية – لا يستيطعون رؤية ذلك حتى في أيامنا هذه، لأنهم لم ينقروا بعد قشرة بيض أسلافهم اليعاقبة الذين تكونوا داخلها. لم تجلب الوحدة القومية لإيطاليا سوى بقرطة (***bureaucratizing***) الشأن العام وانحطاط النشاط الثقافي الأعلى لمصلحة الخطط السياسية لرجال دولتها وعشيقاتهم، البرجوازية. سرور البروجوازية المعاصرة بالدولة الموحدة هو سرور عظيم فقط لأنه يفتح لهم أفق سياستهم في الاستغلال لا تستطيع فدرالية المجتمعات الصغيرة أبدا أن توفرها لهم. فالدولة القومية الموحدة كانت دائما نعمة للمصالح المادية للأقليات الصغيرة في كل بلد من البلدان. ولأن حرية الشعب وتكوين الأشكال العليا للثقافة كانت دائما من سوء طالعهم.

صورنا في الجزء الأول من هذا الكتاب طريقة عمل جهود "مركزة" الدولة القومية الموحدة في فرنسا. هنا أيضا، جهود تجميع كل السلطة السياسية في يد الملك كانت على حساب كل الحقوق والحريات المحلية لمجالس المدن والمقاطعات حتى بلغت أبعادًا سياسية مطلقة لقوة عالمية، قام لويس الرابع عشر بتنميطها، ونكب فرنسا وقارة أوروبا بها ودفعهم إلى هاوية من البؤس والبربرية الفكرية. يجب ألا يسمح المرء لنفسه أن تعميه العظمة الفاخرة للبلاط الفرنسي، الذي جلب الشعراء

والفنانين من كل أنحاء العالم لدعم مكانته وتأليه شخص الحاكم. لأن الفن خدم بالنسبة للأوتوقراطية الفرنسية نفس الغايات التي خدمها سابقا مع قياصرة الرومان.

لم تعمل دولة الحكم الملكي المطلق بأية وسيلة على تقدم تطور الأدب والفن الشعبي كما استمروا في تأكيده غالبا دون تمحيص. بالعكس، فقد خلقت هذه الدولة، أولا، هوة واسعة بين الناس والأدب، لم تكن لتظهر في أي بلد آخر مثلما كانت عليه في فرنسا مع نظام الحكم القديم. حدث ذلك لأن الاستبداد الفرنسي تابع أهدافه بمثل هذه المثابرة النادرة، وكان عازما دائما على إخضاع كل مجال في الحياة الاجتماعية لإرادته من أجل استزراع روح السلطة في كل شريحة من الناس. قبل التأسيس الفعال للحكم الملكي، انتعشت ثقافة ثرية في المدن الفرنسية وخصوصا الجزء الجنوبي من البلاد، حيث كانت الحياة الفكرية أكثر حرية وأكثر نشاطا منها في الشمال، أهم معاقل السلطة الملكية والاسكولائية الكنسية. الشعر الغنائي في فرنسا القرون الوسطى، الغني في محتواه بشكل غير عادي، يدين بالكثير لمرونة لغة أهل "بروفانس" (***Provence***) الرشيقة. بل حتى ما هو أكثر أهمية أن هذا الشعر الغنائي استزاد من المصادر الشعبية ووجد أصدق قواعده في المعيشة نفسها. حامت الروح الشعرية في الجنوب حول المطربين بجوقاتهم (***minnesingers***) والمغنيين الجوالين (***troubadours***) في البروفانس، وأعطت لفنهم شكله وقوته الدافعة الصريحة. ولكن لم يكن المغنون المتجولون مجرد مُغَنِّين في الحفلات العامة، ولكنهم كانوا أيضا دعاة للرأي العام، وأثرت أناشيد المعارك (***sirventes***) التي غنوها على الأحداث الاجتماعية بدرجة عالية. برز بقوة في تلك الأغاني كراهية شديدة لروما وهيمنة الكنيسة. لم يكن لشيء أن يصبح الجنوب أرضا للهراطقة والشيع المنشقة، يخشاه بدرجة متساوية الملك والبابا.

امتلكت الرواية الهزلية القصيرة المكتوبة شعرا (***Fabliaux***) مشاعر الناس حتى بصورة أعمق نتيجة هذا المزيج العجيب الذي تحتويه من النظم الملحمي والتعليمي والذي غنّاه أو تلاه منشدون متجولون (***conieurs***) شغلهم كل ما يعطي غرضا أو محتوى من حياة الإنسان. في هذه الأغِاني لعبت السخرية دورا هاما ولم

يكن من النادر أن يفيد هذا في تأليب الرأي العام. مسرحيات "سر المسيحية" التي احتوت على مغزى ملتوٍ وكافر بشكل خاص بلغت أيضا في فرنسا القرون الوسطى أول شكل فني منتظم لها، ومنها تطورت الدراما لاحقا. في ذلك الوقت كان لا يزال قائما تحالف ضمني أصيل بين الشعب والأدب. ومع "فرنسوا فييون" (*Francois Villon*)(•) الذي كان يُطلَق عليه الخالق الحقيقي لفن الشعر الفرنسي، برز هذا التحالف واضحا في كل استروفية من القصيدة؛ ويقدم عمله "العهد العظيم" (*Great Testament*) شاهدا مجيدا على ذلك. وبالمثل "رابيليه" (*Rabelais*) الساخر اللامع وخصم الرومانسية الذي فهم عصره بأفضل من أي إنسان آخر، وقف بكلتا قدميه في حياة الناس؛ لهذا يبقى عمله الخالد "حياة جارجانتوا وبانتاجرويل" (*The Life of Gargantua and of Pantagruel*) حتى اليوم من الكتب الشعبية الفريدة بشكل خاص.

تغيرت مثل هذه العلاقة بشكل جوهري مع انتصار الحكم المطلق والدولة القومية الموحدة. وقد ظهر ذلك سريعا بعدما استطاع لويس الحادي عشر (هذا الكائن الشرير الذي كان يُطلَق عليه لقب "عنكبوت أوروبا" والذي نفذ خططه بهوس مجنون لا يتورع عن استخدام أي وسيلة تعد بالنجاح تحت أي حالة) كسر مقاومة أتباعه الكبار وهكذا وضع قواعد دولته الموحدة الاستبدادية. فرانسيس الأول الذي يزعمون أنه قد أتاح للفرنسيين الثقافة الفكرية الأعلى لعصر النهضة الإيطالي، اختار أمير مكيافيلي ليكون نموذجه، وفي رعايته للدراسات الكلاسيكية استمر يضع نصب عينيه غرضا سياسيا محددا. ما زالت تعيش في الروايات الهزلية الشعرية (*Fabliaux*) ومسرحيات السر والأغاني الشعبية ذكرى ماضٍ حاول تحرير نفسه من الاستبداد الملكي. لهذا قرر "فرانسيس الأول" منذ ذلك الوقت فصاعدا أن يعطي الشعر نفسه

(•) فرانسوا فييون ولد في باريس عام ١٤٣١ واختفى عن الأنظار في ١٤٦٣، هو الشاعر الفرنسي الأكثر شهرة في أواخر العصور الوسطى. الذي لم يفعل طيبا في حياته قط، والذي شارك في سلوكيات إجرامية، وفي مواجهات متعددة مع سلطات إنفاذ القانون. كتب فييون عن بعض هذه التجارب في قصائده. [المترجم]

للمادة الكلاسيكية ويتحول بعقله نحو روما، بدلا من ربط نفسه بعادات ومؤسسات عصر ربما يوقظ في الناس الشوق إلى الأشياء التي فقدوها.

ما كان قد ابتدأه فرانسيس الأول استكمله خلفاؤه وأتباعهم الكهنوتيون الدائرون في فلكهم بحماسة عنيدة. لذا أصبح الأدب أدب البلاط واغترب تماما عن الناس. لم يعد الشعراء يستمدون من المصادر الشعبية الثرية شعرهم، الذي أخذ يذبل أكثر فأكثر تحت هيمنة الاستبداد. وكما حدث في روما، هو الآن حادث في فرساي (***Versailles***) وباريس، دارت كل الفنون حول شخص الملك ومؤسسة الملكية المقدسة. تحمل الرجال كل صور الآلام لربط الإبداع الشعري بقواعد ثابتة، وضحوا بالروح الحية واستبدلوها بسعة اطلاع ميتة فقدت كل علاقة بالحياة الحقيقية. كل شيء انضبط داخل نظام وتحرك بتعليمات بيروقراطية، حتى اللغة. تم الاستخدام المبكر لأدوات السلطة من أجل القضاء على هرطقة "الجنوب الفرنسي" وأيضا لغتهم، "البروفنسال" (***Provencal***). في عام ١٦٣٥، أسس "ريشيليو" (***Richelieu***) الأكاديمية الفرنسية (***the French Academy***) من أجل إخضاع اللغة والشعر لطموحات الحكم الاستبدادي السلطوية. فقط ما يجدونه من أعلى صحيحا في الأسلوب وغير مُعترَض عليه يسمحون له بالخلود؛ ولا يوجد شيء آخر مسموح له بالبقاء. "بوالو" (***Boileau***) في عمله "الفن الشعري" (***Art Poetique***) أعطى للشعر عموما خطا عموديا محددا للأتباع بمثابرة عبودية، ليس فقط في فرنسا ولكن في البلدان الأخرى، وهكذا لزمن طويل أغلق كل نافذة جديدة لتطوير فنون الأدب. تعاني كل الكلاسيكيات الفرنسية من قيد الروح هذا وتبدو لنا غير مرتبطة بالعالم وتفتقد الدفء الداخلي. وعندما كان "كورني" (***Corneille***)[•] على درجة من الجراءة حتى

(•) بيير كورني (١٦٠٦-١٦٨٤) أحد المسرحيين الفرنسيين العظماء الثلاثة، جنبا إلى جنب مع موليير وراسين في القرن السابع عشر. عندما كان شابا، يقال إنه حصل على رعاية الكاردينال ريشيليو، الذي كان يحاول تعزيز الدراما الكلاسيكية ملتزمة بحدود رسمية، ولكن تشاجر معه فيما بعد، وخاصة خلال مسرحيته "لو سيد" المشهورة التي تدور حول محارب إسباني من القرون الوسطى، ونددت به الأكاديمية الفرنسية. واصل كتابة أعماله التي نالت استقبالا جيدا لما يقرب من أربعين عاما. [المترجم]

يغض الطرف عن القواعد المقررة في مسرحيته "السيد" (*Cid*)، سارع الكاردينال لردعه بتحريك الأكاديمية ضده. وهكذا نجحت الأكاديمية بسعادة في تمرير بقرطة اللغة والأدب والفن. هل يستطيع المرء أن يتعجب من أنه حتى فولتير (*Voltaire*) الذي نحا في أعماله الدرامية منحى أكاديميا وجد في شيكسبير (*Shakespeare*) "همجيا"؟

فقط قلة من الشعراء في فترة الاستعباد تلك، نجحوا في صنع أنفسهم استثناءً مجيدا. يأتي أول الجميع "موليير" (*Moliere*)(•) الفريد الذي ظلت فيه روح "رابيليه" حيّة، وأعطى لعبقريته قوة تتخطى بها الحدود الضيقة واستطاع تمزيق القناع الوقور للاصطناع الفارغ الذي كسا ملامح وجه زمانه المنافق. ولا عجب أن الأكاديمية الفرنسية فشلت في إضافة اسمه إلى كتيبة "الخالدين" أو أن أسقف باريس الأكبر هدد قراء مسرحية "طرطوف" (*Tartoufe*) بالحرمان الكنسي. ربما كان ذلك من حسن طالع الشاعر أنه قد مات شابا؛ فرأس متمرد مثل رأسه كان عرضة لمخاطر متعددة الأنواع في عصر القوالب الجامدة والكذب المهيب هذا. يجب هنا، ذكر أسماء "لافونتان" (*La Fontaine*)(••) و"لوساج" (*Lesage*)(•••). الروايات الخرافية الرائعة عند الأول احتفظت بطزاجة ألوانها؛ لأنه تخلص من القواعد الصارمة والتفت إلى الثروة التي لا تنفد من أفكار الروايات الهزلية القديمة (*fabliaux*). لوساج بهذه المهارة المحترفة والذي أخبر معاصريه بكل الحقائق الناصعة في "الشيطان فوق

(•) جان باتيست بوكلان، المعروف باسمه المسرحي موليير (١٦٢٢-١٦٧٣)، الكاتب المسرحي الفرنسي والممثل الذي يعتبر واحدا من أعظم أساتذة الكوميديا في الأدب الغربي. من بين أعمال موليير المعروفة عدو الإنسان، ومدرسة الزوجات، والمرائي، والبخيل، والرجل البورجوازي. [المترجم]

(••) جان دي لافونتين (١٦٢١-١٦٩٥) صاحب الروايات الخرافية. الفرنسي الأكثر شهرة وواحد من الشعراء الفرنسيين الأكثر قراءة على نطاق واسع في القرن الـ١٧. وفقا لفلوبير، كان الشاعر الفرنسي الوحيد الذي فهم وأتقن نسيج اللغة الفرنسية قبل فيكتور هوغو. [المترجم]

(•••) آلان رينيه لوساج (١٦٦٨-١٧٤٧) الروائي والكاتب المسرحي الفرنسي.

بقعتين" (***The Devil on Two Slicks***) و"جيل بيا اللذيذ" (***delightful Gil Bias***)، كـــان الخالق الحقيقي للرواية المعاصرة.

لقد كان أيضا هو الزمان الذي ينضبط فيه كل تعبير عن الحياة ليناســـب روح السلطة والاستبداد المطلق، حين كتب "بوسيه" (***Bossuet***) عمله "رسالة في التـــاريخ العالمي" (***Discours sur L'histoire universelle***)، ليصبح مؤسس المفهوم اللاهوتي عن التاريخ، مقترحا الإعلان عن نظام الاستبداد الملكي كواقع إلهي لا يملك الإنسان حياله سلطاناً، حيث إن قواعده تكمن في خطة العناية الإلهية نفسها. كل تمـــرد ضـــد هذا النظام أو شخص العاهل المقدس يصبح تمردا على الله وجريمـــة كبـــرى ضـــد الكنيسة والدولة عقوبتها الإعدام. لم يسمح اللاهوت الغبي الذي كان يُدرِّس ســـاعتها في "السوربون" (***Sorbonne***) بأي تفسيرات علمية. وهكذا، قدمـــت الكنيســـة خدمـــة لا تُقدَّر بثمن لسلطة الاستبداد الزمنية، حيث إنها لم تترك وسيلة لم تحاولهـــا لـــزرع مبدأ السلطة عميقا في ضمير كل الرعية.

ولم توضع فقط اللغة والفن والأدب تحت سيطرة سلطة خاصة. أيـــضا أتـــوا بالحرف والصناعة تحت سيطرة النظام القاسي للدولة ولم يعد في استطاعتهما اتخـــاذ قرارات مستقلة. قررْت الدولة أساليب محددة لكل الصناعات فـــي الـــبلاد، وكونـــت جيشا من الموظفين للتأكد من عدم انحراف أي فرع من فروع الصناعة قيد أنملة عن الأعراف المقررة. في عمله العظيم "الصناعة الفرنـــسية" (***L' industrie francaise***) صوَّر "جان دو شابتال" (***Jean de Chaptal***) الوحشية الكاملة لهذا النظام المجنون في كل تفصيلة من تفصيلاته، وقد أظهر كيف أن كل غريزة فطرية للإبداع تـــم خنقهـــا عن عمد، وكل فكرة جديدة أدانها القمع. وهكذا، أخبروا الخياط كم عدد الغرز التـــي تُستخدَم في حياكة الكم بالمعطف؛ وأخبروا الحداد كم عـــدد الأطـــواق التـــي تحـــيط بالبرميل الخشبي. لم تقرر بيروقراطية الدولة فقط طول وعـــرض ولـــون الأقمـــشة المنسوجة، بل إنها حتى قررت العدد الدقيق للخيوط في كل نسيج، وأشـــرف النظـــام البوليسي واسع الانتشار على هذا حتى يراعوا هذه القرارات بكـــل دقـــة. تعاملـــت الحكومة الملكية بصرامة مع الانتهاكات، وكانـــت العقوبـــة بالمـــصادرة أو تـــدمير

البضاعة. استُخدِمتْ في مثل هذه الحالات الخطيرة أساليب مثل تدمير الأدوات والورش وتشويه الجناة بل وحتى عقوبة الموت. ومن الواضح أنه في ظل هذه الظروف لابد وأن نظام الصناعة بأكمله كان مُكبَّلا. وبالضبط مثلما انكمش الإنتاج الزراعي في ظل القنانة، هكذا دمرت القرارات الملكية الصناعة وقادت البلاد نحو الهاوية. الثورة فقط هي التي وضعت نهاية لهذه الحالة المجنونة.

ولكن قيدا واحدا لم تستطع الثورة تحطيمه: قيد التقاليد السلطوية، المبدأ الأساسي للاستبداد. لقد غيرت الثورة الأشكال القديمة، حقا، ولكن المضمون الأعمق لم يُمَس، فقط واصلت هذه الثورة ما كان قد بدأه الحكم الملكي منذ زمن سابق طويل. وبالضبط كما اليوم في روسيا، حملت البلشفية مفهوم القيصرية الروسية للدولة السلطوية إلى نهاياته القصوى، بقمع لا يُميِّز لكل تبادل حر للأفكار؛ وبالتالي أخمدت كل دافع خلاق في الشعب، وهكذا، من ثم، حمل اليعاقبة المركزية السياسية في المجتمع إلى نهاياتها المطلقة وهكذا أصبحوا مثل مُقلِّديهم اللاحقين في روسيا، القادة الحقيقيين للثورة المضادة. أعطت الثورة لفرنسا الجمهورية، وكان من الممكن لذلك أن يحمل معنى فقط إذا ما مثَّلت الجمهورية نقيضا لاستبداد الحكم وحقًّا مصونًا بعزم مماثل لنفس العزم الذي حافظ به الحكم الملكي حتى الآن على سلطته. كان لابد للجمهورية أن تصبح رمزا على مجتمع الناس الحقيقي الذي تأتي فيه كل حركة بشكل حقيقي من الشعب وتستقر على حرية الإنسان. مقابل القول الملكي المأثور: "أنا الدولة!" يجب أن يكون رد التحرر الجمهوري: "نحن المجتمع!" يجب أن يصل الإنسان إلى الاحساس بأنه لم يعد بعد ملتزما بقرارات القوى الأعلى، وأن مصيره الآن يستقر على راحتيه هو وعلى تعاونه مع أترابه. كانت الجمهورية تستطيع أن تجلب للناس شيئا ما فريدا على نحو خاص فقط باستبدال المبدأ القديم للوصاية بحرية النشاط الإبداعي، والقهر الفكري بتعليم الاستقلال الفكري والتشغيل الميكانيكي لسلطة توجيه بالنشوء والارتقاء العضوي.

لقد حررت الثورة الناس فعلا من نير سلطة الحكم الملكي، ولكن خلال هذا التحرر، أسقطتهم في عبودية أعمق للدولة القومية. وقد برهن هذا القيد على فعالية

أكبر من القميص الضيق للحكم الملكي المطلق لأن مرساته لم تنزرع في شخص الحاكم ولكنها ارتبطت في الفكرة المجردة "للإرادة العامة" التي سعت لضبط كل جهود الشعب في عُرف محدد. وهكذا ألقوا بمرساتهم مرة أخرى في الحكم المطلق القديم الذي اعتقدوا أنهم قد أطاحوا به. وبينما يجر عبد مطبخ السفينة الكرة الحديدية المربوطة في أحد كاحليه وهو يتحرك، هكذا أيضا يجر المواطن الجديد طوال حياته فكرة الأمة المجردة، التي أعدوها كحاوية "للإرادة الحرة" وبصنع ذلك نسى العبد فن الوقوف على قدميه ذاتهما اللتين نادرا ما أعادتهما الثورة إليه. أعطى "الجمهوريون" للجمهورية محتوى الاستبداد، ولكنه ارتدى ثوب الأمة، وهكذا دمروا الاجتماع الخاص للناس (***res publica***). ما بدأه رجال الجمعية الوطنية (***Convention***) وما اتبعه كل مقلديهم في الهبات الشعبية اللاحقة دون أي انحراف: لقد احتفظوا بالاستبداد تحت اسم الحرية واتبعوا بخنوع تقاليد "الثورة الكبرى" التي ما زال مجدها الزائف حتى اليوم تطغى أضواؤه على كل علامات ورموز التحرر الفريد.

فهم "برودون" هذه الحقيقة في كامل عمقها؛ لذلك بالنسبة له، كل جهود الأحزاب السياسية للحصول على السلطة بين أيديها كانت ببساطة مظاهر مختلفة تحت ألوان زائفة. لقد توفر له أن يرى أن أي مَن يتكفل بثورة اجتماعية بواسطة الاستيلاء السياسي على السلطة يصل حتما إلى خداع نفسه والآخرين. لأن السلطة في جوهرها ذاته مضادة للثورة ونتوء لمفاهيم الاستبداد، يضرب فيها كل نظام للاستغلال بجذوره. الاستبداد هو مبدأ السلطة الذي يتمثل بأكثر الاشكال منطقية في الدولة والكنيسة. وحتى تتم الإطاحة بهذا المبدأ سوف يستمر ما تُسمى "أمم الثقافة" تغوص أعمق فأعمق في مستنقع سياسات القوة والأساليب الصناعية الميتة؛ ويحدث هذا أيضا على حساب الحرية والكرامة الشخصية التي ينتج عنها وحدها الثقافة الاجتماعية الأعلى. أحس "إبسن" (***Ibsen***) بهذا عندما قال:

> **"يجب أن ترحل الدولة! ولا أنا أمتلك أي علاقة بالثورة! انسف مفهوم الدولة؛ أسس لحرية الاختيار وتبعاتها الفكرية بوصفها العامل المُحدِّد الوحيد للاتحاد – أي بداية لحرية ذات جدارة ما! التغيير في شكل**

الحكومة هو لا شيء سوى إرهاق في تحديد الدرجة – أكثر قليلا أو أقل قليلا – كل ذلك مجرد لغو فارغ. نعم يا صديقي العزيز كل هذه الروايات لا تجعلك ترتعب، خشية احترام الملكية الخاصة. تضرب الدولة بجذورها في الزمن؛ سوف ينضج هذا مع الزمن. أشياء أعظم منها سوف تسقط؛ كل الدين سوف يسقط"[٨].

نفس التجارب تسري عبر تاريخ كل الشعوب؛ لقد أدت في كل الأنحاء إلى نفس النتائج. الوحدة القومية السياسية أبدا وفي أي مكان، لم تجلب الحيوية إلى تطور الثقافة الفكرية لشعب من الشعوب؛ بل العكس، لقد كانت دائما تضع القيود على هذا التطور، لأنها تضحي دائما بأفضل القوى الموجودة في الشعب ككل لصالح الطموح غير المحدود لسلطة الدولة القومية وهكذا جففت الوحدة القومية المصادر الأعمق للتقدم الفكري. وكما قد رأينا، فترات ما يُسمى "التفكك القومي" قد كانت دائما حتى الآن هي فترات الثقافة العظمى في التاريخ، بينما فترات "الوحدة القومية" دائما ما جلبت الانحطاط وخراب كل أشكال الثقافة الأعلى.

في ألمانيا القديمة بلغت الثقافة ذروتها في مدن العصور الوسطى الحرة وسط عالم من البربرية عديمة الثقافة. كانت المدن هي الأماكن الوحيدة التي يستطيع أن يتوسع فيها الفن والصناعات اليدوية، حيث ما زال الفكر الحر يمتلك مكانا وروحا اجتماعية تحتفظ بالبشر موحدين. ما زالت الآثار القوية لعمارة وفن القرون الوسطى شاهدا عظيما على التطور الثقافي الذي ينتمي لأكثر ما يستطيع التاريخ الألماني إظهاره من عظمة. ولكن تاريخ الثقافة الفكرية الأكثر حداثة في ألمانيا هو أيضا مجرد تأكيد على تلك الحقيقة القديمة، التي تفهمها قلة قليلة جدا للأسف. كل الإنجازات الفكرية العظيمة في هذا البلد تعود إلى زمن "تفككها القومي". أدبها القومي من "كلوبشتوك" (*Klopstock*)(•) إلى شيلر وجوته، وفن مدرستها الرومانسية، وفلسفتها الكلاسيكية من كانط إلى فيورباخ (*Feuerbach*)(••) ونيتشه، وموسيقاها من

(•) فريدريش جوتليب كلوبشتوك (١٧٢٤–١٨٠٣) شاعر ألماني. أفضل عمل معروف له هو قصيدته الملحمية "المسيح". خدمته للأدب الألماني هي ريادته في استكشاف ما هو خارج النماذج الفرنسية. [المترجم]

(••) لودفيغ فيورباخ أندرياس فون (١٨٠٤–١٨٧٢) فيلسوف وأنثروبولوجي ألماني. اشتهر كتابه جوهر المسيحية، الذي قدم فيه نقدا للمسيحية أثر بقوة على أجيال من المفكرين اللاحقين، بما=

بيتهوفن (*Beethoven*)(•) إلى ريتشارد فاجنر – كلها تقع في زمن قبل تأسيس الرايخ (*Reich*). بانتصار الدولة القومية الألمانية بدأ أيضا أفول الثقافة الألمانية، وجفاف قواها الإبداعية، وصحب هذا الانهيار انتصار البسماركية (*Bismarckism*) الذي وصّفه باكونين بالاتحاد الذي لا معنى له بين العسكرة والبيروقراطية. نيتشه كان على حق تماما عندما قال: "عندما بدأ الألمان في إثارة اهتمام شعوب أوروبا الأخرى فذلك يعود لثقافة لم يعد الألمان يمتلكونها الآن، نعم لقد نفضوا أنفسهم منها بحماسة عمياء كما لو كانت مرضا؛ إلا أنهم لم يعرفوا شيئا يضعونه مكانها أفضل من الوهم السياسي والقومي".

ويرى "كونستانتين فرانتز" (*Constantin Frantz*)(••) الفدرالي من الجنوب الألماني وخصم بسمارك: "لا يحتاج المرء سوى تأمل الحالة القائمة اليوم في كل حقل من حقول الفن التي يمثلها الإعلان عن الإمبراطورية الجديدة في فرساي (*Versailles*)، وطبيعة هذا المخلوق الجديد تواجهنا بكل الوضوح المطلوب: زمرة من الناس في زي رسمي لامع أمامها قلة من الرجال المهذبين في معاطف سوداء يؤدون دورا مسرحيا متواضعا تماما، والكل في ركاكة مثلما هم لا يشبهون البشر – لا تستطيع العسكرية تدشين نفسها بصورة أكثر جذرية من هذا"(٩).

=في ذلك كارل ماركس وفريدريك إنجلز. أحد المقربين من دوائر اليسار الهيغلي. دعا فيورباخ لليبرالية، والإلحاد، والمادية. كان فكره مؤثرا في تطور المادية الجدلية، حيث غالبا ما يتم التعرف عليه باعتباره جسرا بين هيغل وماركس. [المترجم]

(•) لودفيغ فان بيتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٧) المؤلف الموسيقي الألماني وعازف البيانو. حصيلة أعماله لعبت دورا حاسما في انتقال فن الموسيقى الغربية من العصور الكلاسيكية للرومانسية. أفضل تراكيبه المعروفة ٩ سيمفونيات، ٥ كونشيرتو البيانو، ١ كونشيرتو الكمان، ٣٢ سوناتا البيانو، ١٦ رباعية وترية، وقداسه العظيم ميسا سولمنيس وأوبرا فيديليو. [المترجم]

(••) كونستانتين فرانتز (١٨١٧-١٨٩١) الفيلسوف والكاتب وعالم الرياضيات والسياسي الألماني. خدم بشكل عارض في السلك الدبلوماسي البروسي. معروف ككاتب سياسي مرتبط بالهيغليين الشباب والرومانسية. كان فرانتز العقل المدبر لفكرة الاتحاد الأوروبي المركزي المستوحى من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو معارض لإنشاء بسمارك للرايخ الألماني. كان يعتبر دخيلا كل حياته، وتبين لاحقا أنه كان أحد المفكرين وراء قيام الرايخ الثالث. شخصية مثيرة للجدل في شهاداته وأهميته. [المترجم]

في الواقع، حولت الوحدة القومية ألمانيا إلى صورة مُكبَّرة من بروسيا (*Prussia*)، التي تشعر في نفسها أنها مدعوة لمتابعة دورٍ سياسيٍ عالمي. أصبحت معسكرات الجند هي المدرسة العليا للعقلية الألمانية الجديدة. أصبحت ألمانيا عظيمة في ميادين التكنيك والعلوم التطبيقية، ولكنها أصبحت ضيقة العقل وفقيرة الروح. أسوأ من كل شيء، فقدت ألمانيا ذلك التوجه الشامل العظيم عند لسنج وعند هردر وعند جوته وشيلر وجين بول وهاين الذين كانوا فخر الألمان. وهذه ليست حجة نتذرع بها من أجل الخصوصية أو لصالح دولة صغيرة. ما نلح عليه هو القضاء الكامل على مبدأ السلطة من حياة المجتمع ومترتبا على ذلك مد الدولة في كل شكل بالثقافة الاجتماعية الأعلى المُؤسَّسة على حرية الإنسان واتحاده الحر مع زميله الإنسان. ومع ذلك لا يبدل هذا حقيقة أنه كلما اتسعت الدولة وكلما أصبحت الأدوات التي تسيطر عليها وتقودها أقوى كان ذلك أخطر على الحرية الإنسانية وعلي مطالب الأشكال الأعلى للحياة الثقافية والفكرية. تلك هي الأمور الأكثر خطورة ورعبا في الدولة الموحدة المركزية. لقد أدرك "كارلو بيساكاني" ذلك بوضوح عندما كتب في "مقالة عن الثورة" (*Saggio sulla Rivoluzione*):

> **كل الحكومات حتى المستبدة، فور أن تجد نفسها في موقف يساعد على تقدم العلم وجذب اللامعين من الرجال والعقول العظيمة إليه؛ تفعل ذلك إما مضطرة للتنازل قليلا أمام روح العصر، وإما بسبب أن هذا يتفق مع الطموحات الشخصية لرأس الدولة. من هنا يستطيع المرء أن يستنبط حقيقة أنه كلما وجدت الحكومات بصورة أكبر في بلد، كان الاحتمال أكبر أن بعض شرارات الذكاء على الأقل سوف تنير الظلام العام.**

ربما يستطيع المرء ذكر إنجلترا كشاهد مضاد وإظهار أنه هنا شهدت الثقافة صعودا رغم وجود الدولة القومية خصوصا في عصر الملكة إليزابيث (*Queen Elizabeth*). ولكن يجب ألا ينسى المرء أنه فقط تحت حكم عائلة ستيوارت

(***Stuarts***) استطاع الاستبداد الخاص الزعم بنجاحه الساحق هناك، وأن الدولة الإنجليزية لم تنجح مطلقا في مركزة الحياة العامة إلى الدرجة التي بلغتها في فرنسا، مثلا. الحكومة الإنجليزية قد واجهت دائما تطور معارضة ليبرالية قوية ضدها، ضربت جذورها بعمق في الشعب وهي المعارضة التي أعطت لكامل التاريخ الإنجليزي طبيعته الخاصة. فالحقيقة هي أنه لم يستمر في أي بلد آخر الكثير من دساتير المجالس البلدية للمدن القديمة كما استمر في إنجلترا، وأن حكومة المدينة الإنجليزية اليوم إلى المدى الذي يتعلق بالاستقلالية المحلية، هي الأكثر حرية في أوروبا. وقد قمنا فعلا بشكل كامل في الجزء الأول من هذا الكتاب بتطوير حقيقة أنه في إنجلترا أيضا دائما ما حاولت السلطات المركزية للدولة تكبيل الحياة الثقافية والاقتصادية للبلاد، وحقيقة أن هذه القيود كسرتها الثورة فقط.

في رائعته السياسية، "مبدأ الفدرالية" (***Du Principe Fédéraliste***)، أعطى "برودون" تعبيرا لفكره: "إما أن القرن العشرين سوف يدخل حقبة الفدرالية أو تدخل البشرية لألف سنة أخرى إلى المطهر. المشكلة الحقيقية التي تؤجل هذا الافتداء هي في الواقع لم تعد المشكلة السياسية ولكنها الاقتصادية".

الآن لم يأت لنا القرن العشرون لحد بعيد بالفدرالية ولكن جلب تدعيمًا غير محدود للمركزية. أظهرت الحرب العالمية [الأولى] إلى أين أدى بنا تطور الأمور هذا؛ وقد ظهر القرن العشرون أيضا بهذه الفوضى المرعبة لظروفنا الاقتصادية والسياسية، وبعدم الروحانية المذهلة للزمن والنقص الكامل لأي شعور ثقافي أعلى. لقد وجدنا أنفسنا فعلا في المطهر، ولم يستطع أحد التنبؤ متى سوف تدق ساعتنا للافتداء. ولكن كون حل المشكلة التي تحدث عنها برودون ممكنًا فقط داخل إطار عمل من فدرالية الكوميونات الحرة على أساس من المصالح الاجتماعية للمجتمع يصبح اليوم يقينا داخليا أكثر فأكثر لكل فرد يدرك مخاطر المستقبل المباشر ولا يرغب في خنق الإنسان ببطء بواسطة الدولة الرأسمالية.

هوامش الفصل السابع

---

(1) Nationalism, p. 17

(2) Gustav Diercks, Geschichte Spaniens von den fruhsten Zeiten bis auf die Gegenwart. Berlin, 1895. Band II, S. 128

(3) Eduardo Hinojosa, El origen del regimen municipal en Castillo y Leon

(4) Praxiteles Zancada, El Obrero en Espana. Barcelona, 1902, p. 44

(5) Geschichte Spaniens. Band II, p. 394

(6) Allgemeine Unterweisung für die Verbreitung des Jungen Italien, 1831. Aus Mazzinis "Politiscien Scariffen." Leipzig, 1911. Band I, p. 105

(7) La fédération et l'unité en Italie, Paris 1862. p. 25

(8) Letter to Georg Brandes, February 17, 1873. Briefe von Henrik Ibsen. Berlin, 1905, p. 159.

(9) Die freussische Intelligenx tind ihre Grenzen. Munich, 1874, p. 53

الفصل الثامن

وهم وجود ثقافة قومية

الهوية الجوهرية لكل ثقافة. خطر المفهوم الجماعي. سيكولوجية الشعوب المقارنة. تأثير الدافع الاجتماعي. سيكولوجية الفرد والجموع. الحكم على الشعوب الأجنبية. صورة أمة المرء الخاصة كمفهوم تمنٍّ. رمز الأمة. وهم ثقافة قومية. حرية الثقافة من وجود حدود لها. الرأسمالية كنتيجة مؤقتة للارتقاء الاجتماعي. عقلنة الاقتصاد الرأسمالي. "أمركة" أوروبا. تأثير الاقتصاد الرأسمالي على سياسة الدولة الحديثة. شكل الدولة ليس تعبيرا عن مواهب قومية خاصة. الدولة الدستورية الحديثة. طبيعة الأحزاب. الماكينة البرلمانية. الفردوية الاقتصادية والدولة الرأسمالية. القومية الاقتصادية. إعادة البناء السياسي للعصر الحالي.

لا توجد ثقافة من أي نوع نستطع التأكيد على أنها قد نشأت معا بشكل مستقل ودون أي تأثير من الخارج. من الصحيح أننا قد اعتدنا زمنا طويلا على "تنظيم" ما يُسمى تاريخ الثقافة طبقا لنقاط رؤية محددة، بشكل ما مثل صاحب متجر العقاقير الذي يضع بضاعته في صناديق وزجاجات وعلب صغيرة ولكن لا يستطيع المرء التأكيد على أننا نجني من وراء ذلك الكثير. وبينما نغرق في بناء "التباينات الداخلية" بين أنساق الثقافات المختلفة بشكل عميق جدا، نفقد القدرة على التقييم بشكل صحيح للسمات المشتركة التي تكمن في قواعد كل ثقافة؛ ولا نستطيع بعد أن نرى الغابة بسبب الأشجار. كتاب "شبنجلر" (***Spengler***)(*) "أفول الغرب" (***Decline of the West***)

(*) أوزوالد غوتفريد أرنولد شبنغلر (١٨٨٠-١٩٣٦) مؤرخ وفيلسوف ألماني في التاريخ. معروف بكتابه "انحدار الغرب"، المنشور في ١٩١٨، والذي يغطي كل تاريخ العالم. افترض=

ليس سوى نتيجة متأخرة لهذا الهوس رغم منطقيته الكاملة. المنجزات المدهشة لعلمي وصف الأجناس والاجتماع المعاصرين يعطي دقة متجددة لفهمنا للتماثل المدهش بين التطورات الاجتماعية والثقافية في الجماعات البشرية المختلفة ويقودنا لمراجعة الآراء التقليدية. وأينما قاد البحث العلمي استكشافاته للحقبة الثقافية الماضية، فإنه يأتي على بقايا آثار لثقافات أكثر قدما أو صور لمزيج وانتقالات بينها تكشف بوضوح التأثير المُنشِّط للأنماط الاجتماعية المبكرة.

يقول "جراب" (***Grabbe***)(•)، "لا نستطيع السقوط خارج هذا العالم". يذكرنا هذا القول بشكل ثابت بالجوهري (***Essential***) والشامل (***Universal***) اللذين يوحدان كل الكائنات البشرية ببعضها البعض واللذين رغم كل الخصوصيات الناشئة من اختلافات الطقس والظروف الخارجية للحياة، يعملان تماما على انسجام التوازن الداخلي بين الجماعات البشرية المختلفة. كلنا أطفال هذه الأرض وخاضعون لنفس قوانين الحياة التي تجد أكثر تعبيراتها الأولية في الجوع والحب. ولأننا إلى حد كبير من نفس الفصيلة الفسيولوجية، ولأن البيئة الطبيعية التي نحيا فيها تؤثر علينا بالدرجة نفسها، حتى ولو لم تكن الشروط الخارجية هي نفسها في كل مكان، لذلك الرواسب الفكرية والروحية التي تنتجها فينا العوامل الخارجية المحيطة بنا هي مماثلة أكثر كثيرا مما يظن معظم الناس. في كل مكان يكافح

=شبنغلر عمرًا محدودًا لنموذج الحضارة يمكن التنبؤ به. دعم الكاتب الهيمنة الألمانية في أوروبا. كتاباته الأخرى ليس لها تأثير يذكر خارج ألمانيا. في عام ١٩٢٠ كتب شبنغلر "البروسية والاشتراكية" داعيا لنوع من الاشتراكية القومية غير الماركسية. بعض النازيين، ومن بينهم جوزيف غوبلز، رأى في شبنغلر مقدمة للفكر النازي، لكن النازيين نبذوه في نهاية المطاف عام ١٩٣٣ بسبب تشاؤمه بشأن مستقبل ألمانيا وأوروبا، ورفضه لدعم أفكار التفوق العنصري النازية، وبسبب كتابه النقدي "ساعة الحسم". [المترجم]

(•) كريستيان ديتريش جراب (١٨٠١-١٨٣٦) كاتب مسرحي ألماني من عصر الكونفدرالية الألمانية ما قبل ثورة ١٨٤٨. كتب العديد من المسرحيات التاريخية تصور العالم بخيبة أمل وتشاؤم، مع بعض المشاهد الحادة. رأى هاينريش هاينه فيه واحدا من أهم المسرحيين في ألمانيا، واصفا إياه بأنه "شكسبير مخمور". [المترجم]

الإنسان من أجل الحفاظ على بقاء نوعه وداخل هذه الأنواع يحافظ على بقاء وجوده الشخصي؛ في كل مكان أسس وقواعد مسلكه هي نفسها. البيئة الطبيعية والدوافع الفطرية التي انتقلت إليه بواسطة سلسلة لا تنفصل من أسلافه والتي تعمل في الجزء اللا واعي من عقولنا تخلق في كل مكان نفس الأشكال الابتدائية للتجربة الدينية. صراع البقاء والوجود يؤدي في كل المناطق إلى أشكال محددة من الحياة الاقتصادية والسياسية، التي تستعرض غالبا تماثلاً مدهشاً حتى عندما نتعامل مع شعوب من أجناس مختلفة تفصلها مسافات واسعة عن بعضها البعض بقارات ومحيطات. يُظهِر كل هذا أن تفكيرنا وأفعالنا بسبب أننا كلنا نملك نفس الخصائص الفسيولوجية ونفس الحساسية نحو تأثيرات البيئة، تخضع لنفس القوانين الجوهرية للحياة، التي تلعب كل اختلافات التعبير دورا خاضعا لها تماما مقارنةً بها. نحن نتعامل عادة مع الاختلاف في الدرجة الذي ينبع فقط من المتطلبات الثقافية الأكثر تطورا أو الأكثر بدائية.

ومنذ أن علَّمنا هيجل وآخرون التفكير بمفاهيم عمومية مجردة، أصبح هذا الأسلوب من التفكير صيحة وطرازًا. أخذنا ننمو معتادين العمل مع كميات نفسية وهكذا وصلنا إلى التعميمات الأبعد مدى دون أن يرتاب حتى معظمنا من أننا قد أصبحنا ضحايا لافتراضات متعسفة لابد وأن نخرج منها بأكثر الاستنتاجات ضلالا. "لازاروس" (**Lazarus**) و"شتاينتال" (**Steinthal**)(*) تتبعا وقع أقدام "هيربارت" (**Herbart**) بكل البراعة التي يمكن تصورها، بعد أن شيدا ما يُسمى "سيكولوجية

(*) موريتز لازاروس (١٨٢٤-١٩٠٣)، الفيلسوف وعالم النفس الألماني. هيمان أو هيرمان شتاينتال (١٨٢٣-١٨٩٩) العالم اللغوي والفيلسوف الألماني. كلاهما رأى أن البحث النفسي لا يمكن أن يقتصر بنجاح على الوعي الفردي، ولكن يجب أن ينصَبَّ في المقام الأول على المجتمع ككل. الطبيب النفسي يجب أن يدرس الإنسان من وجهة نظر تاريخية، وضرورة مقارنة وتحليل العناصر التي تشكل نسيج المجتمع، مع عاداته وتوجهات تطوره الرئيسية. سيكولوجية الشعب أو علم النفس المقارن كانت واحدة من التطورات الرئيسية لنظرية هيربارت الفلسفية في صورة احتجاج ليس فقط ضد ما يسمى وجهة نظر علمية للفلاسفة الطبيعيين، ولكن أيضا ضد فردية الوضعية. [المترجم]

الشعوب المقارنة" (*comparative psychology of peoples*)، مضيا بالانحراف قدما في هذه الوجهة بمرح وقادانا بمنطق جذاب إلى الفكرة المجردة حول "روح الجماعة" و"روح الطبقة" وروح "العِرق"، وأفكار أخرى مماثلة خلقتها بهلوانية فكرية يستطيع المرء أن يفكر طبقا لها بكل الأشياء وبلا شيء. وهكذا أصبح "دوستويفسكي" (*Dostoievsky*)(•) روح السلافيين، كما أصبح جوته كاشفاً عن روح الجرمان. برز لنا الرجل الإنجليزي كتجسيد حي للفهم الرزين الذي ينكر أي اعتبار للمشاعر؛ والفرنسي كممثل للمجد الباطل التافه؛ والألمان كشعب من "الشعراء والمفكرين". أسكرتنا طنطنة هذه الكلمات وأسعدتنا كالملوك عندما اغتنت اللغة بأصنام لفظية جديدة. نتحدث بمنتهى الرزانة عن "الشعب الفرد"، نعم بل وحتى عن "الدولة الفرد". بهذا يفهم المرء على أية حال البشر الذين ينتمون إلى شعب معين أو هم مواطنون في دولة معينة؛ بل لا، يتعامل المرء في هذه الحالة مع شعب بأكمله أو دولة بأكملها كما لو أنهم أفراد بسمات شخصية محددة وخصائص نفسية أو صفات عقلية منفردة. دعنا نفهم بوضوح ماذا يعني ذلك. البناء المجرد، مثل شعب ما أو دولة ما، الذي ينقل إلينا فقط مفهوما اجتماعيا، ويتمتع بخصائص معينة لا نحسها سوى في الفرد، والتي عند تطبيقها كتعميم يجب أن تؤدي بطريقة لا يمكن الرجوع فيها إلى الاستنتاجات الأكثر خداعا بصورة وحشية.

كيف أتت مثل هذه التراكيب إلى الوجود، فهذا ما يُظهِره لنا "لازاروس" بوضوح كامل في مواقفه التي دافع عنها في كتابه "نفسية الشعوب" (***Psychology of Peoples***). بعدما نقل صفات الفرد إلى شعوب وأمم بأكملها بطريقة لا تُصدَّق تماما، شرح بعمق أن الرجل المنفرد يأتي في المسألة مجرد ممثلٍ مطلقٍ للفكر الجمعي وبمثل هذا الوضع فقط من الممكن اعتباره ناقلا للأفكار(١). اعتمد لازاروس وشتاينتال متبعين منوال التفكير عند "ولهلم فون هامبولت" (***Wilhelm von***

(•) فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١)، الروائي الروسي، كاتب القصة القصيرة والرواية والصحفي والفيلسوف. تدور الأعمال الأدبية لدوستويفسكي حول استكشاف النفس البشرية في المناخ السياسي والاجتماعي والروحي المضطرب لروسيا في القرن الـ١٩ من خلال منظور الفرد في مواجهة صعوبات الحياة والجمال. [المترجم]

(*Humboldt*)، على اختلاف اللغات والبناء العضوي اللذين حاولا استنباطهما من النمط الفكري الخاص لكل شعب. رتب الكاتبان بناء على هذه الهبة الفكرية والروحية العجيبة أيضا الاختلاف في الأفكار الدينية عند الشعوب وأشكال الحكومة ومؤسساتهم الاجتماعية ومفاهيمهم الأخلاقية ونسبوا لكل أمة نمطًا خاصًا من المشاعر والفكر الذي لا تستطيع أن تقبله ولا أن ترفضه.

ومنذ ذلك الحين تعلمنا أن اللغة كتعبير عن وضع روحي وفكري خاص للشعب لا تدخل في المسألة على الإطلاق، حيث إنه لم يعد هناك شعب قد أبقى على لغته البدائية أو لم يغير لغته عبر مجرى تاريخه، كما قد حدث فعلا. ونفس الشيء يبقى صحيحا بالنسبة لأشكال الحكومات والمؤسسات الاجتماعية والآراء الأخلاقية والنظم الدينية المختلفة. ورغم هذا يسير البشر على الخطوط التي افتتحها لازاروس وشتاينتال. أصبح "جوستاف لوبون" (*Gustav Le Bon*)(*) مؤسسا "لنفسية الجموع" (*mass psychology*)؛ واكتشف آخرون "نفسية الطبقة" (*psyche of the class*)؛ بينما اكتشف لحسن الحظ "جوبينو" (*Gobineaus*) و"تشامبرلين" (*Chamberlains*) وولتمان (*Woltmanns*) و"جونتر" (*Gunther*) "روح الأجناس" (*race soul*). لقد اتبعوا جميعًا الأسلوب نفسه: لقد نقلوا صفات خصوصية من الفرد إلى الأمم والطبقات والأجناس، واعتقدوا أنهم هكذا قد حولوا بنيانًا تجريديًا إلى كائن حي. تلك هي الطريقة نفسها التي صَنع بها الإنسان آلهته: لقد نقل صفاته الخاصة إلى مخلوق باهت في خياله ومن ثم نصَّبه سيدا على حياته. مَن سوف يرتاب في أن المخترعين لسيكولوجيات جماعية متنوعة والذين شيدوا مخططاتهم بنفس الطريقة سوف يصلون بالضرورة إلى نفس النتائج؟ كل مفهوم جمعي تطور بهذه الطريقة أصبح الإله "ساتورن" أو زحل (*Saturn*) الذي يلتهم في هذه الحالة ليس أطفاله بل أبويه.

(*) جوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) طبيب نفس اجتماعي فرنسي، وعالم الاجتماع والإنثروبولوجي، ومخترع، وعالم فيزياء هاوٍ. صاحب العمل المعروف "الحشود: دراسة العقل الشعبي"، الصادر في ١٨٩٥. كتاباته تتضمن نظريات عن الصفات الوطنية والتفوق العرقي والذكورية وسلوك القطيع. [المترجم]

عندما بدأ الرجال العمل بمفهوم سيكولوجية الجماعة كانوا يعنون في البداية مجرد أن الإنسان عندما يجتمع مع عديد من الآخرين من نفس نوعه وبسبب مُحرِّك ما، يمسك به الشعور نفسه بالاستثارة، ويخضع لعاطفة خاصة تؤدي به في ظل ظروف معينة لأن يتصرف على نحو لم يكن ليقدم عليه إذا ما كان وحيدا في ذاته. حتى هنا هذا حسن. دون شك هناك مثل هذه الحالات المزاجية؛ ولكن هنا أيضا نحن نتعامل دائما مع مزاج الفرد، وليس مع مزاج الجماعة كما هي. ينشأ هذا النوع من المشاعر دون شك من الدافع الاجتماعي عند الإنسان، ويُظهِر ببساطة أن ذلك يمثل واحدة من أساسيات الوجود الإنساني. بهذه الطريقة تنشأ حالات مزاجية من الأسف العام ومن الابتهاج والنشاط العام، بالضبط مثلما تنشأ تجربة نفسية عميقة للفرد من التأثير المباشر لبيئته الاجتماعية. التعبير الجماعي للمشاعر الإنسانية مثلما نستطيع ملاحظته في مظاهرات تقوم بها أعداد واسعة من البشر يمتلك تأثيرا قويا فقط لأنه هنا هو حاصل جمع القوة الأولية لكل المشاعر الفردية التي تجعل نفسها محسوسة؛ ولذا تؤثر بشكل غير معتاد على حالة عقل الفرد.

أكثر من ذلك، يُظهِر التماثل في المشاعر بين الأفراد أنفسهم ليس فقط في الاجتماع بين الجموع العظيمة، ولكن في مظاهر أخرى مصاحبة، في مجرد القول إنه بغض النظر عن كل الاختلافات، يوجد في الكائنات البشرية بعض الغرائز الفطرية الأساسية المشتركة. وهكذا، فرض الشعور بالوحدة وأثارت الرفقة الإجبارية في العديد من الأفراد نفس المشاعر معا، التي تؤدي حتى إلى نفس السلوك. ويُلاحَظ نفس الشيء في العديد من ظواهر المرض وفي الاستثارة الجنسية وفي مئات المناسبات الأخرى. لذلك يستطيع المرء الحديث فقط عن "نفسية فردية" أو "حالة فكرية"، لأنه في الفرد فقط توجد تلك الشروط الفسيولوجية لظهور المشاعر أو الانطباعات العقلية من أي نوع؛ ولن تجدها في الكيانات المجردة مثل الدولة أو الأمة أو الجموع. نحن لا نستطيع تصور إلا قليلا حدوث فكرة دون مخ يؤدي وظائفه أو شعور بإحساس ما دون وساطة الأعصاب كما لا نستطيع عملية هضم دون وجود الأعضاء الملائمة. ولهذا السبب بالضبط تفتقد فكرة السيكولوجية

الجماعية هذا الأساس القوي الذي تستطيع أي مقارنة مفيدة أن تستند عليه. ولكن أنصار هذه النظريات لا تزعجهم مثل هذه الترهات ويعممون نظرياتهم بسعادة. ما يقدمونه هو أحيانا أشياء مبنية بمهارة وهذا هو كل شيء.

لم تكن عضوية طبقة أو أمة أو جنس معين لزمن طويل حاسمة بالنسبة لتفكير أو مشاعر الفرد، فقط القليل هو ما يمكن الخروج به كطبيعة أصلية لأمة أو جنس أو طبقة من أسلوب تفكير أو الصفات الجوهرية للأفراد. كل بنيان اجتماعي أكبر أو أصغر يحتوي على أشخاص بسمات شخصية من كل لون يمكن تصوره، ومواهب فكرية وغرائز أو سلوكيات فعالة، تجد فيها كل درجات الفكر والشعور البشري تعبيرا عنها. عادة ما يوجد بين الناس الذين ينتمون لمثل هذه الجماعة أو تلك شعور غامض بالعلاقة، لا تكون فطرية على أية حال، ولكنها مكتسبة، وهي ذات شأن قليل في الحكم على الجماعة ككل. ونفس الشيء صحيح أيضا في التماثلات الفكرية والمادية التي تمتلك أصولا في الشروط البيئية. في كل حالة الخصائص الخاصة للفرد طوال كامل تطوره تبرز بشكل أكثر حدة مما تكون عليه بعض السمات المشتركة التي تنشأ في جماعات بشرية معينة في مجرى الزمن. فعليا "شوبنهاور" (*Schopenhauer*)(•) قد أدرك ذلك فعلا عندما قال:

(•) آرثر شوبنهاور (١٧٨٨–١٨٦٠) فيلسوف ألماني. معروف بعمله "العالم كإرادة وتمثيل" في ١٨١٨، الذي يلتقط ظاهر العالم، وبالتالي كل عمل بشري، بوصفه نتاجا لإرادة ميتافيزيقية عمياء، خبيثة لا تشبع. انطلاقا من المثالية المتسامية عند كانط، وضع شوبنهاور نظاما ميتافيزيقيا وأخلاقيا إلحاديا وصفوه بأنه مظهر نموذجي للتشاؤم الفلسفي. من بين أوائل المفكرين في الفلسفة الغربية الذين أكدوا على المبادئ الكبيرة في الفلسفة الشرقية (على سبيل المثال، الزهد، والعالم كمظهر)، ليصل إلى استنتاجات مماثلة نتيجة عمله الفلسفي الخاص. كتاباته في علم الجمال، والأخلاق، وعلم النفس مارست تأثيرا مهمّا على المفكرين والفنانين طوال القرنين ال١٩ وال٢٠. ورغم فشله في كسب اهتمام كبير خلال حياته، ثبت أن تأثير شوبنهاور بعد وفاته كان عميقا في مختلف التخصصات، بما في ذلك الفلسفة والأدب والعلوم. من الذين تأثروا بشوبنهاور: فريدريك نيتشه، ريتشارد فاغنر، ليو تولستوي، لودفيغ فيتغنشتاين، أروين شرودنجر، سيغموند فرويد، جوزيف كامبل، ألبرت آينشتاين، كارل يونغ، توماس مان، خورخي لويس بورخيس، صمويل بيكيت، وغيرهم. [المترجم]

"إلى جانب ذلك تتفوق الفردية بشكل عظيم على الجنسية وتستحق مع أي كائن بشري معين أن توضع في الاعتبار بأكثر ألف مرة. الشخصية الوطنية حيث يجب أن تتعامل مع جمهور، لن تكون أبدا موضع فخر بشكل نزيه. بل هي بالأحرى محدودية وعناد وانحطاط بشري يظهر في كل بلد بأشكال مختلفة ونحن نسمي هذا الأمر الشخصية الوطنية. ومع اشمئزازنا من صفة منهم نحن نمتدح صفة أخرى حتى تكتسب اشمئزازنا أيضا. كل أمة تتحدث بازدراء عن الأمة الأخرى - وكلهم على حق".

ما يقوله "شوبنهاور" هنا عن الجنسية والشخصية الوطنية من الممكن تطبيقه دون تغيير على كل مفهوم جماعي آخر. الخصائص التي ينسبها "علماء نفس الجمهور" أو يبتكرونها لهياكلهم الجماعية نادرا ما تتطابق مع الواقع؛ فهي دائما نتيجة مفهوم التمني الشخصي، وهي لذلك يتم تقييمها فقط كهياكل خيالية. الجنس أو الأمة التي يحاول عالم نفس الجماعات أو الأجناس تمثيل خصائصهم هم دائما مثل الصورة التي يخلقونها لهم مقدما. طبقا للعاطفة أو النفور الذي يشعر هذا العالِم به نحوهم في اللحظة المعينة سوف يبدو هذا الجنس، أو هذه الأمة، لامعًا وشهمًا ومخلصًا ومثاليًا وشريفًا أو متخلفًا فكريا وحريصًا وكافرًا وماديًا وغادرًا. دع المرء يقارن الأحكام المختلفة التي صدرت خلال الحرب العالمية [الأولى] من أفراد كل أمة نحو الأمم الأخرى، ولن يستطيع المرء الاحتفاظ بأي أوهام عن المغزى الحقيقي لمثل هذه التقديرات. ولسوف يكون الانطباع أكثر تهلكة إذا ما اضطر المرء للمقارنة أيضا بين تقديرات الفترات الأسبق ويضاهيها بالتقديرات اللاحقة؛ قل مثلا أنشودة الرومانسي الفرنسي "فيكتور هيجو" (*Victor Hugo*)(*) عن الشعوب الجرمانية

(*) فيكتور ماري هوجو (١٨٠٢-١٨٨٥) شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي من الحركة الرومانسية. ويعتبر واحدًا من أكبر وأشهر الكتاب الفرنسيين. في المقام الاول تأتي شهرة هوجو الأدبية من شعره ولكنها تعتمد أيضا على رواياته. من بين العديد من دواوين الشعر، التأملات و ميراث القرون. خارج فرنسا، أشهر أعماله روايات البؤساء، ١٨٦٢، ونوتردام=

أو قصيدة الشاعر الإنجليزي "توماس كامبل" (***Thomas Campbell***) "إلى الألمان" (***To the Germans***)؛ للتباين مع القطع المنهمرة من المعاصرين المحترمين في كلا البلدين عن نفس الألمان. ورغم أننا هنا نتحدث فقط عن إنجليز وفرنسيين لن يقدم لنا الألمان أمثلة أفضل. دع المرء يقرأ أحكام الرؤوس الساخنة لمنظري الأجناس الألمان عن التخلف المزعوم للبريطانيين وانحطاط الفرنسيين، ويفهم المرء في الحال قول نيتشه المأثور، "أن ترتبط بإنسان كان له نصيب في تدليس الأجناس المخادع". كم كان قدر التأثير على الرأي العام في الأمم الأجنبية عظيما بتعديل الظروف والمزاج اللحظي الظاهر في إنتاج مؤلفين اثنين فرنسيين، قدمهما "كارل لان" (***Karl Lahn***) في كتابه الصغير القيِّم والصريح "فرنسيون" هكذا كان "فردريك-كونستان دو روجمون" (***Frederic-Constant de Rougemont***) قادرا على القول بهذا عن الألمان:

> **دخل الألمان العالم في حياة روحية. إنه يفتقد بهجة الفرنسي البسيطة والخفيفة. روحه غنية ومزاجه حساس وعميق. إنه يكد بلا تعب، ومثابر في العمل. لا يمتلك شعب مثلهم كودًا أخلاقيًا أعلى ولا يبلغ أحد مثلهم عمرا مديدا... بينما سكان البلدان الأخرى يفاخرون بأنهم فرنسيون أو إنجليز أو إسبان، يحتضن الألمان كل النوع البشري في حبهم غير المنحاز. وفقط بسبب موقعهم في وسط أوروبا تبدو الأمة الألمانية أنها تقع مباشرة في القلب والعقل المهمين للجنس البشري.**

دعنا نقارن بين هذه الأقوال مع تقدير نفس هؤلاء الألمان في كتاب "الأب الدومينكاني ديدون" (***Dominican Father Didon***) "الألمان" (***Les Allemands***):

=دي باريس، ١٨٣١ (المعروفة بأحدب نوتردام). أنتج أيضا أكثر من ٤٠٠٠ رسم. نال احترامًا واسع النطاق بوصفه داعية لقضايا اجتماعية مثل إلغاء عقوبة الإعدام. رغم إيمانه بالملكية عندما كان شابا، تغيرت وجهات نظره مع الوقت، وأصبح مؤيدا متحمسا للجمهورية. تم تكريم ميراثه في نواحٍ كثيرة، بما في ذلك صورته الشخصية التي كانت توضع على الفرنك. [المترجم]

لم أقابل أبدا بين ألمان اليوم، ولا حتى في ذلك العصر عندما كان البشر أقصى انفتاحا لأفكار الفروسية، أي مشاعر سامية تجاوزت أفق أرض آباء الألمان. تُغلَق الحدود على أجساد وأرواح الألمان. المصلحة الذاتية هي قانونهم الأعلى. أعظم رجال دولتهم هم مجرد نفعيون مهرة. سياستهم الباحثة عن الذات الأكثر تعطشا للربح من المجد، لم تشعر بأدنى إساءة نحو البلاد التي تقبل دون مقاومة وبصورة عمياء ما تلهمهم به هذه السياسات. يخلق الألمان لأنفسهم حلفاء وليس أصدقاء. أولئك الذين يرتبطون بهم مضطرين لذلك إما للمصلحة أو الخوف؛ إنهم يفكرون بمصاعب المستقبل. كيف يتخلص الناس من الخوف عندما يصبحون تحت رحمة سلطة لا تستلهم العدالة وعندما تصبح هيمنة المصلحة الذاتية بلا حدود؟... رجحان ألمانيا داخل أوروبا يعني العسكرة الشاملة، حكم الإرهاب، والعنف والأنانية. لقد حاولت عدة مرات فوق الحصر اكتشاف أي نوع من التعاطف بينهم نحو الأمم الأخرى؛ ولم يسعدني الحظ أبدا لاكتشاف ذلك.

الحكمان يدمر احدهما الآخر تماما ولكن دون شك - كل منهما بطريقته الخاصة - قد سيطر على الرأي العام في فرنسا. بالطبع هناك بعض التفسير لهذا التناقض الكاسح الذي نجده هنا. التقديران يأتيان من رجلين مختلفين؛ أحدهما قيل قبل والآخر بعد الحرب الفرنسية الألمانية لعامي ٧٠ - ١٨٧١. ثم، في "فترة الشموس العظمى"، التي أطلق عليها المغفلون ذوو الرؤوس الساخنة "حمام الصلب لتجديد شباب الناس" كانت أيادي الناس أسرع على زناد إصدار الأحكام إلى جانب تعلمهم تعديل الحكم ليتناسب مع الظروف. وهكذا، طرحت صحيفة "شعب إيطاليا" (***Popolo d' Italia***) لسان حال موسيليني الديكتاتور الأخير، هذا التقدير المثير للعجب بالرومانيين قبل دخولهم "الحرب" وإعلان انحيازهم لصف الحلفاء:

دعنا ننته في الأخير داعين الرومانيين أمتنا الشقيقة. فهم ليسوا رومانًا حتى ولو زينوا أنفسهم بهذا الاسم النبيل. فهم خليط من تلك الشعوب البدائية البربرية التي أخضعها الرومان مع السلاف و"البخنج" (Pecheneges) و"الخزر" (*Chazars*) و"الأفار" (*Avars*) والتتر (*Tatars*) والمغول (*Mongols*) والهون (*Huns*) والترك والإغريق، ويستطيع المرء أن يتصور بسهولة أي نوع من الخرق الممزقة يستطيع هؤلاء إنتاجها. ويبقى الروماني حتى اليوم فردًا متخلفًا من البرابرة، بالنسبة لتسلية الفرنسيين الساخرة الشاملة هو أحد القردة العليا، الباريسيون وأشباههم يصطادونه في الماء العكر عندما لا يكون هناك خطر أنه سوف يوقع بنفسه في مشكلة. وقد أظهر ذلك بوضوح في ١٩١٣.

بالكاد مع ذلك عند دخول الرومانيين الحرب في صف الحلفاء أن كتبت نفس صحيفة موسوليني عنهم الآتي:

برهن الرومانيون الآن بشكل مجيد أنهم أبناء جديرون لروما القديمة مثلنا ينحدرون منها. لذلك هم أقاربنا الأقربون، الذين بنفس الشجاعة والعزم، المتميزون به قد انضموا الآن إلى أجناس اللاتين والسلاف في الصراع ضد الألمان، بكلمات أخرى، الكفاح من أجل الحرية والثقافة والحق ضد الطغيان البروسي والحكم التعسفي والبربرية والأنانية. وبالضبط كما أظهر الرومانيون في ١٨٧٧ ما هم قادرين عليه بجوار حلفائنا الروس الشجعان ضد بربرية الترك، هكذا هم الآن أيضا يلقون بسيفهم البتار في الميزان ضد البربرية الألمانية المجرية النمساوية والانحطاط وسوف يأتون بهؤلاء راكعين على ركبتهم. بالطبع لا يمكن توقع شيء آخر من شعب يتشرف بانتمائه للجنس اللاتيني الذي حكم العالم يوما ما(٢).

سوف تكون مهمة محمودة أن تجمع بعناية وتضاهي بين تقديرات مماثلة قامت بها أمم شتى خلال الحرب العالمية [الأولى]. مثل هذه المجموعة سوف تؤسس لدليل أفضل عن عالمية زماننا أكثر من أحسن تعليقات مؤرخينا تدقيقا.

إذا ما كانت أحكام من يُسمون علماء نفس الأجناس أو الشعوب عن الأمم الأجنبية هي كقاعدة أحكام ظالمة، أحادية الجانب أو مبنية بشكل مصطنع، فالتمجيد المستمر لأمة المرء الخاصة إلى الدرجة التي يحتقر عندها كل الأمم الأخرى، سوف يترك على المرء تأثيرا سمجا وطفوليا تماما، شريطة أن يبقى في المرء أي مشاعر نحو هذه الأشياء. دعنا نفكر في رجل لم تضع منه فرصة لاستعراض نفسه كنموذج مثالي للحكمة، والموهبة والفضيلة، وبينما لهذا يحرق البخور لنفسه يلطخ سمعة كل الآخرين ويعاملهم كمستوى أدنى. بكل تأكيد سوف يعتبره المرء تافهًا أخرق أو معتوهًا ويعامله طبقا لذلك. ولكن للحد الذي يتعلق بأمتنا نحن فإننا نمسك بأشرس الأوهام ولا نخجل على الإطلاق من الركوب على كل الفضائل واعتبار الآخرين كشعوب من الصف الثاني – كما لو كانت جدارة خاصة أن نأتي إلى العالم بوصفنا ألمانًا أو فرنسيين أو صينيين. حتى العقول المميزة تخضع لهذا الضعف وعرف الفيلسوف الأسكتلندي "هيوم" (***Hume***) ما يقوله عندما أعلن:

> **عندما تدخل أمتنا حربا مع أمة أخرى نحن نمقت الأمة العدو بكل جوارحنا ونطلق عليها صفة القسوة وأنها بلا عقيدة وظالمة وعنيفة؛ إلا أننا نحن أنفسنا وحلفاءنا نصبح الشرفاء والعقلاء والمحترمين. نُصنِّف خياناتنا بأنها مهارة وقسوتنا تصبح بالنسبة لنا ضرورات. باختصار، تبدو لنا أخطاؤنا صغيرة وتافهة وليس نادرا أن نطلق عليها اسم تلك الفضيلة التي تروق لنا بالأكثر.**

تعاني كل سيكولوجية جماعية من نواحي القصور هذه وتضطر تحت وطأة المنطق الخاص لافتراضاتها باعتبار هذه الأمنيات الفارغة حقائق صلبة. بهذا هي تصل بشكل تلقائي إلى استنتاجات من النوع الذي يمهد الطريق إليه خداع الذات.

ومن سوء الحظ بشكل خاص التحدث عن "الثقافة القومية" التي يجد فيها "العقل" الخاص أو "الروح" الخاصة لكل شعب تعبيرا عنها. يستقر الإيمان بالثقافة-الروح القومية على نفس الوهم مثلما تفعل "الرسالة التاريخية" عند "بوسيه" (***Bossuet***) وفخته وهيجل وخلفائهم العديدين.

الثقافة من حيث هي ثقافة لم تكن أبدا قومية، لأنها دائما ما تمتد خلف الإطار السياسي لكيان الدولة ولا تُحبَس داخل أي حدود قومية. من السهل بنظرة موجزة على ميادين متنوعة من الحياة الثقافية تأكيد هذا. سوف نغض الطرف عن أي تمييز اصطناعي بين الحضارة والثقافة لأسباب سبق أن طرحناها. سوف يمتد المسح الذي سوف نقوم به بدلا إلى كل الميادين التي يوجد فيها هجوم للإنسان الواعي على المسار الطبيعي الغشيم للأحداث تعبيرا عنهما – من البناء المادي للحياة الاقتصادية إلى الأشكال الأعلى تطورا للإبداع الفكري والنشاط الفني؛ لما ألبسه "كاريل كابيك" (***Karol Capek***)(*) بشكل جميل في كلمات تصلح أيضا بالنسبة لنا:

> **"كل نشاط إنساني يمتلك غرضا في إتقان وتنوير وتنظيم حياتنا هو نشاط ثقافي. لا توجد هوة تفغر فاهًا بين الثقافة وكل شيء آخر. أنا لن أؤكد أن زئير محركات الآلات هو موسيقى الحاضر. ولكن زئير المحركات هو واحد من الأصوات في اللحن متعدد الأصوات للحياة الثقافية، مثلما بالضبط النغمات السماوية للكمان أو كلمات الواعظ**

(*) كاريل كابيك (١٨٩٠-١٩٣٨) الكاتب التشيكي في مطلع القرن الـ٢٠. لعب أدوارًا متعددة طوال حياته المهنية ككاتب مسرحي، وناشر ومراجع أدبي، وناقد فني. ومع ذلك، معروف ككاتب للخيال العلمي، بما في ذلك روايته "الحرب مع سمندل الماء" و"الروبوتات العالمية روسوم" الذي قدم فيه كلمة روبوت لأول مرة. أيضا كتب العديد من الأعمال السياسية التي تعاملت مع الاضطرابات الاجتماعية في عصره. بعد أن ساعد في خلق نادي القلم التشيكوسلوفاكي قاد حملة لصالح حرية التعبير واحتقر تماما صعود الفاشية في أوروبا. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، رغم وفاته الطبيعية، تم الاعتراف بميراثه كشخصية أدبية مرموقة. [المترجم]

أو صياح ملاعب الرياضة، فكلها أصوات في هذا اللحن متعدد الأصوات. فالثقافة ليست قسما أو كسرا عشريا من الحياة، إنها مجموعها الحسابي أو محورها".

مهمة البرهنة على الأصل القومي أو على محتوى نظام الاقتصاد الرأسمالي الذي نعيش في ظله لن تكون مجدية. قد حملت الرأسمالية الحديثة احتكار وسائل الإنتاج والثروة الاجتماعية لمصلحة أقليات صغيرة إلى مدى لا يمكن تصديقه وبفعلها هذا قد سلمت الجموع العظيمة من السكان العاملين إلى كل مشاق عبودية الأجر؛ ولكن الرأسمالية ليست نتيجة لأي مهمة قومية وليس لديها من الناحية الأيديولوجية أدنى عنصر مشترك مع مثل هذه المهمات. من الصحيح أن أنصار الاقتصاد الرأسمالي في ظل ظروف معينة يفضلون التناول القومي ولكن تفضيلاتهم دائما تظل مسألة حسابات لأن "المصالح القومية" التي ينذرون أنفسهم لها هي دائما فعليا مصالحهم الخاصة. لم يضحِ نسق اقتصادي في الماضي بهذه الصراحة وهذا الاندفاع فيما يُسمى "المبادئ القومية" لصالح ضراوة أقليات صغيرة في المجتمع كما فعل النسق الرأسمالي.

حدث تقدم في تشكل الأساليب الاقتصادية الرأسمالية في كل البلدان بمثل هذا الانتظام المدهش للدرجة التي يفهم المرء بسببها لماذا يعزف كل الاقتصاديين ورجال الاقتصاد السياسي دائما على قيثارة "حتمية" هذا التطور ورؤيتهم لكل تبديات النظام الرأسمالي على أنها نتيجة حتمية لقوانين الاقتصاد الحديدية، والتي تصبح تأثيراتها أقوى من إرادة وسيطها الإنساني. في الواقع، تُظهِر الرأسمالية في كل بلد قد وقع في أسرها، نفس الظواهر ونفس التأثيرات على الحياة الجماعية للبشر دون تمييز بين الأجناس أو الأمم. لو كان محسوسا هنا أو هناك بعض الاختلافات الصغيرة، فتلك ليست نتيجة سمات قومية خاصة ولكن نتيجة لدرجات متنوعة من التطور الاقتصادي الرأسمالي.

وهذا يُظهِر نفسه اليوم بشكل واضح جدا في تطور الصناعات الرأسمالية الكبرى في أوروبا وخصوصا في ألمانيا. ولم يمض زمن طويل منذ قيام آراء قوية

في كل مكان على أساس التطور المذهل للصناعة الأمريكية وأساليب عملها. سعى الرجال لاكتشاف التشغيل الحتمي لعقلية أمريكية فريدة في هذه الأساليب التي لا يمكن أن تنسجم أبدا مع مزاج الأوروبيين وخصوصا الألمان. مَن منا اليوم سوف يمتلك شجاعة الدفاع عن هذا التأكيد، من زاوية النتائج الأخيرة لحياتنا الاقتصادية الجماعية – بوصفه أمرًا لا يمكن الدفاع عنه فضلا عن كونه متعجرفًا؟ ترشيد الصناعة الشهير أو بصورة أفضل كثيرا سيئ الصيت، بمساعدة نظام "تيلور" (***Taylor system***) والتشغيل المتواصل عند فورد (***Ford's continuous operation***)، قد حقق تقدما عظيما خلال الأعوام القليلة الماضية في ألمانيا أكثر من أيِّ بلد آخر. فهمنا منذ زمن طويل أن "التيلورية" (***Taylorism***)(•) و"الفوردية" (***Fordism***)(••)

• التايلورية أو الإدارة العلمية، هي نظرية في الإدارة لتحليل وتجميع سير العمل. هدفها الرئيسي هو تحسين الكفاءة الاقتصادية، وخاصة إنتاجية العمل. كانت واحدة من أولى المحاولات لتطبيق العلم على هندسة عمليات الإنتاج والإدارة. بدأ فريدريك وينسلو تايلور تطويرها في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر في مجال الصناعات التحويلية. بلغت ذروة نفوذها في العقد الأول والثاني من القرن العشرين، ولا تزال أفكارها مؤثرة رغم دخولها في منافسة وتوافق مع أفكار أخرى متعارضة أو تكميلية. رغم سقوط "الإدارة العلمية" كنظرية أو مدرسة فكرية خلال ثلاثينيات القرن العشرين، فإن معظم مواضيعها لا تزال تمثل أجزاء هامة من هندسة الصناعة والإدارة اليوم. تشمل هذه الموضوعات: التحليل؛ التوليف؛ المنطق. العقلانية. التجريبية. أخلاقيات العمل. الكفاءة والقضاء على الفاقد؛ توحيد أفضل الممارسات؛ ازدراء التقاليد لذاتها أو لحماية الوضع الاجتماعي للعمال خاصة ذوي المهارات المعينة. التحول من الإنتاج الحرفي إلى الإنتاج الضخم؛ نقل المعرفة بين العمال والعاملات من خلال أدوات، وعمليات، ووثائق. [المترجم]

(••) الفوردية هي نظام للتصنيع يستهدف إنتاج بضائع موحدة ومنخفضة التكلفة ويتحمل أجورا لائقة للعمال كافية لشراء هذه البضائع. كما توصف الفوردية بأنها "نموذج للتوسع الاقتصادي والتقدم التكنولوجي على أساس الإنتاج الضخم: تصنيع منتجات موحدة في كميات ضخمة باستخدام آلات خاصة لهذا الغرض وعمالة غير ماهرة". رغم أن الفوردية كانت طريقة لتحسين الإنتاجية في صناعة السيارات، فإنها كمبدأ يمكن تطبيقها على أي نوع من عمليات التصنيع. نبع نجاحها الكبير من ثلاثة مبادئ رئيسية هي: توحيد المنتج وتوظيف خطوط التجميع، ودفع أجور أعلى للعمال حتى يستطيعوا شراء المنتجات التي ينتجونها. [المترجم]

ليستا على الإطلاق عقلية أمريكية، ولكنهما ظاهرتان جليتان للنسق الرأسمالي الاقتصادي في حد ذاته، يتقبل الداعية الألماني العاطفي مزاياهما مثلما يتقبلهما اليانكي جامد القلب، الذي لم نستطع سابقا إدانة مسلكه المادي الخالص بما يكفي.

لا تعني حقيقة أن تلك الأساليب قد نشأت أولا في أمريكا برهانا على أنها كأساليب تقوم على قواعد العقلية الأمريكية، ولها أن تُعتبَر سمات قومية خصوصية. فتلك الأساليب حتى لم تأت لفورد وتايلور كهبة خاصة من السماء؛ كان لهذين الرجلين أيضا أسلاف ومنظمون نشأوا من خلال الصناعة الرأسمالية ولم يُقدَّر لهم هذا الدور بواسطة هبة قومية خصوصية. العمليات المتواصلة، ساعة الإيقاف، "الإدارة العلمية"، في الوقت الذي كانوا يعمِّدون حساب كل حركة عضلية في العمل بالدقيقة، قد نشأ كل ذلك تدريجيا من الصناعة تحت السيطرة الرأسمالية وصاغوها بها. إنه لمغزى ضئيل للطبيعة العامة للإنتاج الميكانيكي أن تجد تطبيقات هذه الآلة أو تلك في ألمانيا أولا أم في أمريكا، ونفس الشيء صحيح عن أساليب العمل التي نمت من تطور التكنيك المعاصر.

مسعى جعل الإنتاج يفضي إلى أعظم النتائج بأقل إنفاق للقوة مرتبط بشكل وثيق بإنتاج الماكينات الحديثة وبالاقتصاد الرأسمالي عموما. التسارع الثابت لتسخير قوى الطبيعة واستعمالها الفني، التحديث الدائم للجهاز الميكانيكي وتصنيع الزراعة والتخصص المتنامي للعمل يحمل شهادة على ذلك. وكون التبديات الأخيرة للصناعة الرأسمالية ملحوظة في أمريكا أسبق من أي مكان آخر فذلك ما ليس له أدنى علاقة بالتأثيرات القومية. في بلد كان موهوبا بشكل غير معتاد بالطبيعة، والذي نشأ فيه التطور الصناعي بمثل هذا المعدل العملاق، تنضج بالضرورة أقصى إمكانيات الحياة الاقتصادية الرأسمالية ولم يكبل عقلها أي تقاليد عتيقة، وأدركوا الإمكانيات غير المحدودة تماما لهذا التطور بواسطة الغريزة الأكيدة. الزيادة الدائمة للطاقة الإنتاجية في الصناعة كان شعار الزمن وأدى إلى التحسين الأعمق والمستمر للجهاز الميكانيكي.

في ظل هذه الظروف هل كانت مثل هذه الظاهرة التي لم يُسمع عنها من قبل قد ضربت في رأس الإنسان فكرة ضبط ماكينة اللحم والعظم علــى إيقــاع ماكينــة الصلب والحديد؟ من نظام تايلور إلى السيور الناقلة للحركة لم تكــن ســوى خطــوة واحدة. كان فورد هو المنتفع من تايلور وتشكلت عبقريته التي كثر اللغو حولها فقــط من تطويره لأساليب تايلور لمدى أبعد لتحقيق أغراضه وتكييفها لتتوافق مع شــروط الإنتاج الضخم (*mass production*) الجديدة.

ومن أمريكا غمرت هذه الأساليب أوروبا لتغطيها كلها. الترشيد فــي ألمانيــا خلال عدة سنوات قلائل أحدث تحويلا كاملا في الــصناعة ككــل. اليــوم، تحمــل الصناعة الفرنسية العلامة التجارية للتايلورية أيضا. واتبعت البلدان الأخرى لمسافات قليلة – وجب عليها الاتباع إذ لم يكن لاقتصادها أن يسقط إلى المؤخرة. حتــى فــي روسيا البلشفية هم يتبعون المسار نفسه ويتحدثون عن "التحويل الاشــتراكي لنظــام تايلور" دون اعتبار لأنهم هكذا يسرقون مصير الاشتراكية، الذي كان للثورة الروسية أن تحققه.

وما هو حقيقي في هذه المرحلة الأخيرة من التطور الرأسمالي هــو حقيقــي لتطور الرأسمالية عموما. لقد بدأت في كل مكان بنفس الظواهر المصاحبة. فلم تكــن الحدود القومية لشتى الدول ولا تقاليدها القومية ولا الدينية بقادرة على وقف تقــدمها. في الهند والصين واليابان نلاحظ اليوم نفس الظواهر التي طرحتها علينا الرأســمالية المبكرة في أوروبا فيما عدا أن التطور يتقدم في كل الأنحاء اليــوم أســرع كثيــرا. الصراع من أجل المواد الخام وعلى الأسواق في كل البلدان الصناعية الحديثة وهــو الأمر الذي يدلل على طبيعة الاقتصاد الرأسمالي، يؤدي إلى نفــس النتــائج ويــضع خاتمه على كل السياسة الخارجية للدول الرأسمالية. هذه التبديات تمضي فــي كــل الأنحاء بانتظام "غريب" ويكاد يكون بنفس الأشكال. إلا أنه لا شيء، لا شيء علــى الإطلاق في هذا، يدل على أن القوي الفاعلة هنا من الممكن تتبع أسبابها إلى موهبــة قومية خاصة لهذا الشعب أو ذاك.

الانتقال من الرأسمالية الخاصة إلى الرأســمالية الاحتكاريــة التــي نــستطيع ملاحظتها اليوم في كل بلد صناعي يسري في كل مكان. في كل الأنحاء يظهــر أن

العالم الرأسمالي قد دخل إلى مرحلة جديدة من تطوره التي تعبر بأكثر علانية بعد عن طبيعته الحقيقية. تنفذ الرأسمالية اليوم محطمة كل حدود ما يُسمى "الميادين الاقتصادية القومية" وتعمل بأكثر من أي وقت مضى بشكل لا لبس فيه من أجل وضع لتنظيم كل الاقتصاد العالمي. الرأسمال، الذي كان يشعر سابقًا بالتزام مع مصالح قومية معينة يتطور إلى رأس مال عالمي ينشغل في تراكم بنّاء لاستغلال كل الجنس البشري على أساس مبادئ متماثلة نمطية. نرى اليوم كيف تتواجد وتتبلور بشكل أكثر وضوحا ثلاثة كيانات اقتصادية عظمى: أمريكا وأوروبا وآسيا؛ بدلا من الجماعات الاقتصادية القومية المبكرة. ولا يوجد سبب يمنع استمرار التطور في هذا الاتجاه، طالما يستطيع النظام الرأسمالي أن يطبق ذلك على الإطلاق.

إذا ما كان "التعاقد الحر" في السابق هو الشعار الأعظم لرجال الاقتصاد السياسي الذين رأوا في "اللعب الحر للقوى" شرط التشغيل الضروري لقوانين الاقتصاد الحديدية، اليوم هذه الأشكال التي انتهى زمانها فعلا أكثر فأكثر، تخلي الساحة لاستراتيجية المنظمات الرأسمالية الجماعية التي تتكفل بالقضاء على التعاقد تماما عن طريق إنشاء اتحادات أعمال (***tstrus***) قومية ودولية من أجل تحقيق سيطرة منتظمة على الأسعار. إذا ما كان التنافس المتبادل سابقا بين مالكي القطاع الخاص في الصناعة والتجارة اعتنى بعدم قدرة رجل الأعمال والتاجر على رفع أسعارهما لمستوى أعلى جدا من اللازم، اليوم مروجو الكارتلات (***cartels***)(*) الاقتصادية الكبرى يحتلون وضعا يسهل عليهم قمع كل المنافسة الخاصة ويمنحهم سيطرة متغلغلة لتعيين الأسعار للمستهلكين. الشركات الكبرى مثل "الدولية للصلب الخام" (***Internationale Rohstahl Gemeinschaft***) ومئات غيرها تُظهِر بوضوح مسار هذا التطور. معا ومع الرأسمالية الخاصة القديمة، تختفي كلمة الساعة "دعه

(*) في الاقتصاد، الكارتل هو اتفاق بين الشركات المتنافسة للسيطرة على الأسعار أو استبعاد دخول منافس جديد في السوق. وهي منظمة رسمية من بائعين أو مشترين تتفق على تحديد أسعار بيع أو شراء أو خفض إنتاج باستخدام مجموعة متنوعة من التكتيكات. تنشأ هذه الاتفاقات عادة في وضع احتكار القلة، حيث عدد البائعين صغير أو المبيعات والمنتجات التي يتم تداولها عالية التركيز وعادة ما تكون سلعًا. [المترجم]

يعمل" (*laissez faire*) لتفسح الطريق لديكتاتورية اقتصادية للرأسمالية الجماعية الحديثة. لا، نظامنا الاقتصادي الحالي لا يمتلك وريدا قوميا واحدا في جسده؛ فقط القليل القليل من نظام الماضي الاقتصادي، بقدر الاقتصاديات عموما.

ما يقال هنا عن الرأسمالية الصناعية الحديثة هو صحيح أيضا فيما يتعلق بالرأسمال البنكي والتجاري. يشعر مدراؤه والمنتفعون أنهم آمنون وثابتون في مواقعهم. فهم يتآمرون لإشعال حرب الأجور وتنظيم الثورات؛ إنهم يزودون السياسة المعاصرة بالشعارات الضرورية، وخلف حجاب من الأفكار المُضلِّلة يخفون الجشع القاسي الذي لا يشبع للأقليات الصغيرة. وعن طريق صحافة مرتشية وكاذبة تماما هم يعدّلون ويشكلون "الرأي العام"، وبسخرية باردة يتجاهلون كل سلطة للإنسانية والأخلاقيات الاجتماعية. بكلمة، إنهم يجعلون من الربح الشخصي نقطة الانطلاق لكل مناقشة، وهم دائما جاهزون لتقديم البشرية في سرائها وضرائها قرابين "لمولوك".

عندما تلتقط الأرواح البريئة رائحة الأسباب السياسية العميقة أو الكراهية القومية لا ينفتح لهم باب يلجأون إليه إلا للمؤامرات التي يحض عليها القراصنة الماليون. إنهم يستغلون كل شيء: التنافس السياسي والاقتصادي والعداوات القومية والتقاليد الدبلوماسية والتناقضات الدينية. في كل حروب الربع قرن الأخير يعثر المرء على أيدي الماليات العليا. غزو مصر والترانسفال (*Transvaal*) وضم طرابلس واحتلال المغرب وتقسيم فارس ومذبحة منشوريا (*Manchuria*) وحمام الدم الدولي في الصين بمناسبة انتفاضة الملاكمين، والحروب اليابانية – في كل مكان يتعثر قدم المرء ببنوك كبيرة... سوف تكون تكلفة الحرب مئات الآلاف من الرجال – ماذا يهم الماليات في ذلك؟ عقل رجل المال مشغول فقط بجداول الأرقام التي تنتهي بتوازن الرصيد. الباقي ليس من شأنه؛ إنه حتى لا يمتلك خيالا يكفي لضم الأرواح البشرية في حساباته[٣].

مستهدفات الرأسمالية في كل مكان هي نفسها؛ بالمثل، هي نفسها في اختيار وسائلها. تأثيراتها المدمرة على الحياة الفكرية والعاطفية للبشر هي أيضا في كل

مكان نفسها. وطريقة عملها في كل أجزاء الأرض تؤدي إلى نفس النتـائج وتطبـع على البشر طابعا خاصا لم يكن معروفا من قبل. إذا ما تابع المرء هذه الظواهر بعين مراقبة لا يستطيع تجنب الوصول إلى استنتاج أن نظامنا الاقتصادي الحديث هو رمز على حقبة محددة وهو ليس بأية وسيلة نابعًا من جهود قومية خاصة. امتلكت قـوى كل أمة دورا في حدوث هذه الحالة. ولو أراد المرء حقا الإمساك بطبيعتها الداخليـة، يجب على المرء أن يغوص في الافتراضات الفكرية والمادية للحقبـة الرأسـمالية؛ ولكن محاولة الحكم على القواعد الاقتصادية لذلك لن تكون مهمة مثمـرة، ولا لكـل الفترات التاريخية الماضية من خلال ما يُسمى وجهة النظر القومية.

وهذا بالضبط هو السبب وراء أن ما تُسمى "القومية الاقتصادية" التـي يـدور حولها اليوم كثير من الحديث، والتي ألقت بلعنتها حتى على اشتراكيين أُصلاء، هـي حوار متعالٍ ميئوس منه. حقيقة سحق الكيانات الاقتصادية القوميـة القديمـة اليـوم بالكامل أكثر فأكثر تحت أقدام اقتصاد عالمي يتشكل من رجال الاتحادات والكارتلات الدولية، قد انتهت هذه الحقيقة حتى قبل الأوان إلى نتيجة أن كل الاقتصاد سـيتحول ويعاد-بناؤه على قواعد المواهب الخاصة والقدرات الخاصة الكامنة في كـل شـعب بسبب خصوصيته القومية. وهكذا ينظر المرء إلى عمليات التشغيل في صناعة الفحم وفروعها المختلفة ومعالجة مواد الخيوط كوظائف تناسب أحسن ما يكـون الغرائـز الصناعية القومية للرجل الإنجليزي بينما يقولون عن الألمان أنهم يناسبون بأحسن ما يكون لصناعة البوتـاس (***potash industry***) والطباعـة الحجريـة (***lithography***) وتجارة الكيماويات والبصريات. وهكذا بات في الاعتقاد أنه من الممكن تعيين نـشاط صناعي خاص لكل شعب يتناسب بأحسن ما يكون مع مواهبه القوميـة وأنـه بهـذه الطريقة من الممكن الوصول إلى إعادة تنظيم كامل الحياة الاقتصادية.

في الواقع، تلك الأفكار هي مجرد طبعة جديدة لخطوط مماثلة مـن التفكيـر، لعبت سابقا دورا مهما في أعمال الاقتصاديين الإنجليز القدامى. ثم أيضا لقـد كـان هناك اعتقاد ضروري للتأكيد على أن الطبيعة ذاتها قـد قـدَّرت الـصناعة لـبعض الشعوب وللآخرين الزراعة. تخلصنا من هذا الوهم منذ زمن طويل، وإعادة الـسك

الأيديولوجي الأخيرة لن يكون نصيبها نهاية أفضل. فالبشر كأفراد من الممكن ضبطهم وإخضاعهم لتخصص صناعي معين؛ أما شعوب كاملة أو أمم فهذا لا يكون أبدا. يعاني خط التفكير هذا وأمثاله من العيب نفسه الموجود في أسس كل مفهوم جمعي. ربما إنسان واحد، بسبب خصائص وقدرات فطرية معينة، ينتمي إلى الكيمائيين أو الفلاحين أو الرسامين أو الفلاسفة؛ ولكن شعبا ككل لن يسمح أبدا لنفسه بأن يخضع لافتراض مجرد، لأن لكل واحد من أعضائه ميولا ومتطلبات مختلفة، والتي تبدو واضحة في التعدد الغني لمهامهم. هذا التعدد الكثير للجوانب، التي تكمل فيها المواهب والقدرات والميول الطبيعية بعضها البعض بشكل متبادل، تؤسس الجوهر الفريد لكل مجتمع محلي. من يتغافل عن هذا لا يمتلك فهما مهما كان للبناء العضوي للمجتمعات.

ما قد يقال هنا عن الجانب الاقتصادي للثقافة الاجتماعية ينطبق أيضا على الأشكال السياسية للحياة الاجتماعية. من الممكن الحكم على هذه الأشكال وتقييمها فقط كنواتج لعصور محددة، ولا يمكن أبدا أن تكون تبديات نمطية لأي نوع من الأيديولوجية القومية مهما تكن. سوف تكون مهمة عقيمة أن تفحص كل أشكال الماضي للدولة في ضوء طبيعتها ومحتواها القوميين. في هذا المجال أيضا، علينا التعامل مع التطور الاجتماعي الذي يتغلغل تدريجيا في كل جزء من دائرة الثقافة الأوروبية، وبالضبط لهذا السبب لا يرتبط بأي نوع من الأعراف القومية الخاصة. حتى الداعمون الأكثر حزما "للفكر القومي" لا يمكنهم إنكار أن الانتقال من "الدولة مع الرعية" إلى "الدولة القومية الدستورية" حدث في كل أوروبا في ظل نفس الافتراضات الاجتماعية وغالبا في أشكال مماثلة تماما.

الحكم الملكي المطلق الذي يكاد يسبق في كل أنحاء أوروبا الدولة الدستورية الحالية، كان من الأصل مضفورا بحميمية مع الاقتصاد الإقطاعي القديم كما تضافر لاحقا النظام البرلماني مع الوضع الاقتصادي لرأس المال الخاص؛ وكما لم يقتصر الوضع اللاحق على الحدود القومية هكذا أيضا، الشكل البرلماني للحكومة لم يخدم فقط أمة واحدة بعينها ولكنه خدم كل ما يُسمى "الأمم المتحضرة" كإطار سياسي

لأنشطتها الاجتماعية. حتى تبديات فساد النظام البرلماني الذي يستطيع المرء ملاحظتها في كل الأنحاء في يومنا هذا، يكشف عن نفسه في كل بلد بأشكال متماثلة. وربما مهما يظل موسوليني يؤكد اليوم كثيرا أن الفاشية الحديثة هي منتج إيطالي خالص لا تستطيع الأمم الأخرى تقليدها، فتاريخ السنوات العشر الأخيرة قد أظهر فعلا قدر زيف وعجرفة هذا الزعم. الفاشية أيضا - بغض النظر عن أيديولوجيتها القومية المتضخمة- هي مجرد ناتج لروح عصرنا، وُلِدت من حالة محددة وأخذت تقتات عليها. الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العامة التي نشأت في أعقاب الحرب العالمية [الأولى] أدت في كل البلدان إلى جهود متماثلة؛ كانت مجرد شاهد على أنه حتى القومية الأكثر تطرفا هي في النظرة الأخيرة تُعتبَر ميلا في العصر، تطور في ظل ظروف اجتماعية خاصة والتي لا تجسد بأي طريقة "الروح القومية" الخاصة لشعب معين.

السياسي المعاصر في كل بلد ذي حكومة برلمانية تُحدِّده نفس العادات ويسعى في كل الأنحاء خلف نفس الأهداف. إنه نمط موجود في كل دولة حديثة ويتشكل بعجائب مهنته. يرتبط بحزبه، معبّرا عن "إرادته" وهو يجاهد دائما ليجعل رأي الحزب الرأي السائد ويدافع عن المصالح الخاصة لحزبه بوصفها مصالح عامة. وإذا ما ارتفع قليلا فوق المستوى الفكري المتوسط لزعيم الحزب المعتاد هو يعرف تماما أن الإرادة المزعومة لحزبه هي إرادة أقلية صغيرة، تعطي الأوامر للحزب وتحدد نشاطه العملي. دائما ما يحكم قبضته على الحزب بقوة ويرشد أنصار الحزب حتى يعتقد كل منهم أن إرادته الخاصة هي التي تقود، حيث إن تلك هي واحدة من التبديات التي تميز النظام الحزبي الحديث.

طبيعة الأحزاب السياسية التي تستقر عليها كل حكومة برلمانية هي نفسها في كل بلد. يتميز الحزب في كل مكان عن التنظيمات الإنسانية الأخرى بمسعاه نحو بلوغ السلطة. الاستيلاء على الدولة منقوش على راياته. يقلد الحزب بكامل هيكله التنظيمي الهيكل التنظيمي للدولة؛ وبالضبط كما تخضع الحكومة لأسباب الدولة بشكل مستمر، يسترشد الحزب دائما باعتبارات أسبابه الخاصة. كل فعل أو فكرة

بالنسبة لأنصاره هي صواب أو خطأ، عدل أو ظلم، ليس لأنها تتفق مع الرأي الشخصي أو اقتناع الفرد، ولكن لأنها توفر ميزة أو تسبب ضررًا لمهمة الحزب، تعزز غاياته أم هي عقبة أمامه. وهنا يدلل على ذاته الانتظام الطوعي الذي يفرضه الحزب على أنصاره ومؤيديه، وكقاعدة، هو أكثر فعالية من التهديد بالقانون، لأن العبودية أمام المبدأ هي دائما أعمق جذورا من العبودية المفروضة على الإنسان بواسطة القوة الخارجية.

ومادام الحزب لم يحصل على النفوذ العام الذي يكافح من أجله، فهو يقف في صف معارضة الحكومة القائمة. ولكن المعارضة هي مثل هذه المؤسسة الضرورية لنظام الحكم البرلماني حتى أنه في حالة غياب المعارضة، كما علّق نابليون الثالث ذات مرة بسخرية شريرة، سوف تخلقها الحكومة. إذا ما أصبح الحزب أكثر قوة، حتى أن رؤوس الدولة تضطر لوضع نفوذهم في الحسبان، فإنهم يقدمون للحزب كل أنواع التنازلات وفي ظل بعض الحالات يدعون زعماءه للاشتراك في الحكومة. ولكن وجود الأحزاب السياسية ذاته ونفوذهم في الحياة العامة يتناقض بأقصى شكل صادم مع وهم "الوعي القومي" المزعوم؛ لأنه فقط يُظهِر بوضوح بالغ قدر هشاشة الهيكل الاصطناعي الذي تكون عليه الأمة وانقسامها الميئوس منه.

الآن، فيما يتعلق بالحكومة البرلمانية كما هي، هناك واقعيا في البلدان المختلفة بعض الاختلافات، التي مع ذلك يجب اعتبارها مجرد انحرافات شكلية وليست على الإطلاق فروقا جوهرية. في كل الأنحاء تدور الماكينة البرلمانية بنفس الأساليب وبنفس الروتين. تفيد المناقشات في الهيئات التشريعية بمعيار ما بوصفها مجرد استعراض مسرحي أمام الجمهور ولا تمتلك على الإطلاق غرضا لإقناع الخصوم أو إضعاف قناعاتهم. موقع من يُسمون "نواب الشعب" في الاقتراع على المسائل المتنوعة التي تُطرَح للنقاش يتحدد مقدما في المؤتمرات الحزبية المنفصلة ولن تستطيع حتى فصاحة "ديموستينيس" (***Demosthenes***) تغييرها. ولو قصر البرلمان نفسه على مجرد الاقتراع وأحجم عن كل المناقشات العلنية للمقترحات المنفصلة لن تتغير النتائج قيد أنملة. الاستعراضات الخطابية لحد كبير هي مجرد ملحقات مساعدة

ضرورية للاحتفاظ بدوام الظهور. وهذا الأمر هو نفسه في فرنسا كما هو في إنجلترا وأمريكا ولسوف يكون ضياعا للوقت محاولة اكتشاف سمات قومية خاصة في الإجراءات العملية للبرلمانات المنفصلة.

انطلق كامل التطور في أوروبا إلى الدولة الدستورية الحديثة في كل مكان بشكل أكثر أو أقل تماثلا ولنفس الأسباب، حيث إن الشروط المؤسِّسة لهذا التطور والتي لم تكن فاعلة فقط في أمة بعينها، ولكنها شقت طريقها عنوة بنفس المنطق الذي لا يقاوَم بين كل شعوب القارة، مهما تكن قدرة الداعمين لنظام الحكم القديم على الكفاح ضدها. ربما نستطيع اكتشاف بعض الاختلافات المؤقتة، لأن التحول الكبير لم يحدث في كل البلدان في نفس التوقيت، ولكن تبدياته كانت في كل مكان متشابهة ونشأت لنفس الأسباب. بل أكثر من ذلك، برهن على هذا أيضا نهوض وانتشار ما تُسمى النظريات الميركانتيلية (*mercantile theories*) التي مارست مثل هذا النفوذ الحاسم على السياسات الداخلية والخارجية لدول الحكم المطلق في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. وجدت تلك النظريات مدافعين مشهورين في كل بلد أوروبي: في فرنسا، "بودان" (***Bodin***) و"مونكرتيان" (***Montcretien***) و"دو واتفيل" (***de Watteville***) و"سولي" (***Sully***) و"ميلو" (***Melon***) و"فوربونيه" (***Forbonnais***) وآخرون؛ وفي إنجلترا "رالي" (***Raleigh***) و"مون" (***Mun***) و"تشايلد" (***Child***) و"تمبل" (***Temple***) وهلم جرا؛ وفي إيطاليا "جالياني" (***Galiani***) و"جينوفيزي" (***Genovesi***) وخلفاؤهما؛ وفي إسبانيا "أوثتاريث" (Ustariz) و"يوا" (***Ulloa***)؛ وفي هولندا "هيجو جروتيوس" (***Hugo Grotius***) و"بييتر دو جروت" (***Pieter de Groot***)؛ والنمسا وألمانيا "بيكر" (***Becker***) و"هرنيك" (***Hrneck***) و"سيكندورف" (***Seckendorff***) و"يوستي" (***Justi***) و"سوسميلخ" (***Sussmilch***) و"سوننفيلز" (***Sonnenfels***) وآخرون عديدون. هنا أيضا نحن نتعامل مع الجهد الفكري العام الذي نشأ من الوضع الاجتماعي لأوروبا.

في مجرى الزمن، كلما عملت دولة الحكم المطلق في مختلف البلدان كعقبة كأداء لأي مزيد من التطور الاجتماعي انكشفت شدة تدمير ميولها السياسية الاقتصادية بشكل أكثر وضوحا، وكان السعي لإعادة البناء السياسي والفهم الجديد

للنظرية الاقتصادية ظاهرا للعيان بصورة لا خلاف عليها. الإسراف المجنون للبلاط وسط شعوب تتضور جوعا، والتبذير المشين على المقربين والمحظيات، وانهيار الزراعة بسبب الامتيازات الاقطاعية ونظام الضرائب المتوحش، وتهديد الدولة بالإفلاس، وقلاقل الفلاحين الذين اعتبروهم شبه أنظمة الامتيازات غير الآدمية، وتدمير كل الروابط الأخلاقية واللامبالاة القاسية في كلمات "بونبادور" (*Pompadour*)(•) الصادمة تلك والتي نالت مثل هذه الشهرة المؤسفة، "[نحن ومن] بعدنا الطوفان!" (*Apres nous le deluge*) - كل ذلك لم يؤد سوى إلى تمهيد الطريق للإطاحة بنظام الحكم القديم وأدى إلى الرؤى الجديدة للحياة. سواء حدث ذلك من الداخل كما في حالة هولندا وإنجلترا وفرنسا، أم حدث كتبعات من الخارج، كما في حالة ألمانيا والنمسا وبولندا، فهذا أمر قليل الأهمية.

وهكذا ظهر نقاد للحكم المطلق ومصلحون اجتماعيون مثل مونتسكيو وفولتير وديدرو وعديد آخرين، الذين سبقهم في هولندا وإنجلترا مفكرين بأفكار مماثلة. قد نتجت أيضا عن نفس الأسباب، مدرسة الفيزيوقراط (*physiocrats*)(••) التي أعلنت

(•) جين أنطوانيت بواسون، ماركيز دي بومبادور، المعروفة أيضا باسم مدام دي بومبادور (١٧٢١-١٧٦٤)، عضو البلاط الفرنسي ورئيسة رسمية لعشيقات لويس الخامس عشر من ١٧٤٥ حتى وفاتها. أخذت مسئولية تنظيم جدول مقابلات الملك ومساعدة ومستشارة له، رغم صحتها الواهية والعديد من الأعداء السياسيين. حصلت على ألقاب النبالة لنفسها وأقاربها، وبنت شبكة من العملاء والمؤيدين. كانت راعية رئيسية للعمارة والفنون الزخرفية مثل الخزف. وكانت راعية للفلاسفة من عصر التنوير، ومنهم فولتير. [المترجم]

(••) الفيزيوقراطية (من اليونانية "حكومة الطبيعة") هي النظرية الاقتصادية التي وضعتها مجموعة اقتصاديين فرنسية من تنوير القرن الـ١٨ الذين آمنوا أن ثروة الأمم مستمدة فقط من قيمة "زراعة الأرض" أو "تنمية الأراضي" وأن سعر المنتجات الزراعية لابد أن يكون عاليا. ربما الفيزيوقراطية هي أول نظرية متطورة للاقتصاد. برز منهم فرنسوا كيناي (١٦٩٤-١٧٧٤) وآن روبرت جاك تورجوت (١٧٢٧-١٧٨١). سبقت هذه المدرسة وجود مدرسة الاقتصاد الكلاسيكي، الذي بدأ مع نشر آدم سميث لكتابه ثروة الأمم في ١٧٧٦. أهم مساهمة للمذهب الطبيعي كانت تركيزهم على العمل المنتج كمصدر للثروة الوطنية. هذا على النقيض من المدارس السابقة، كالميركانتيلية، التي ركزت على ثروة الحاكم، وتراكم الذهب، أو الميزان التجاري. [المترجم]

الحرب على "الميركانتيلية" (*mercantilism*)(•) واعتبرت الزراعة هي المصدر الحقيقي لثروة الشعب، وسعت لتحرير الاقتصاد عموما من كل تعليمات ولوائح الدولة. قول "جورناي" (*Gournay*) المشهور، "دعه يعمل دعه يمر" (*Laissez faire, laissez alter*)(••) الذي خدم فيما بعد مدرسة مانشستر (*Manchester school*)(•••) كشعار، كان لديه من الأصل معنى مختلف تماما. لقد كانت صيحة من الروح الإنسانية ضد القهر الحديدي لوصاية الدولة، التي هددت بخنق كل مظهر للحياة الاجتماعية. أصبح من المستحيل أكثر فأكثر التنفس بحرية وقد بدأ البشر يتشوقون لضوء الشمس والهواء. أفكار "كيسناي" (*Quesnay*) و"ميرابو" (*Mirabeau*) و"بودو"

(•) مذهب الميركانتيلية هو نظرية وممارسة اقتصادية. هيمنت الميركانتيلية على أوروبا من القرن ١٦ إلى ١٨، وشجعت تنظيم الحكومة لاقتصاد البلاد بغرض زيادة سلطة الدولة على حساب القوى المحلية المتنافسة. كان معادلها السياسي الحكم المطلق أو الملكيات المطلقة. تشمل الميركانتيلية سياسة اقتصادية وطنية تراكم الاحتياطيات النقدية من خلال التوازن الإيجابي للتجارة، وبخاصة السلع تامة الصنع. تاريخيا، أدت هذه السياسات في كثير من الأحيان إلى الحرب والتوسع الاستعماري. الميركانتيلية نظرية تطورت مع مرور الوقت مع تباين تفاصيلها من بلد لآخر. ارتفاع الرسوم الجمركية، خصوصا على واردات السلع المصنعة هي سمة تكاد تكون شاملة للسياسة التجارية فيها. [المترجم]

(••) تنبع هذه الجملة الشهيرة من اجتماع في ١٦٨١ بين وزير المالية الفرنسي القوي جان بابتيست كولبير ومجموعة من رجال الأعمال الفرنسيين بقيادة شخص يدعى السيد لي جندر. وعندما سأل الوزير الميركانتيلي كيف تكون الدولة الفرنسية في خدمة التجار، أجاب لو جندر ببساطة "دعونا نعمل". سياسة عدم تدخل الدولة كان شعار الفيزيوقراطي الفرنسي فينسنت دو جورناي، والذي استخدم الشعار لأول مرة وقد استمده من كتابات فرنسوا كيسناي عن الصين. كيسناي هو الذي صاغ مصطلح دعه يعمل، دعه يمر، الذي كان ترجمة مباشرة للعبارة الصينية وو وي – مو واي بالكانتونية. [المترجم]

(•••) مدرسة مانشستر هي حركة سياسية واقتصادية واجتماعية للقرن الـ١٩، نشأت في مانشستر، بإنجلترا، بقيادة ريتشارد كوبدن وجون برايت. نادت الحركة بأن تحرير التجارة يمثل فرصة لبلوغ مجتمع أكثر إنصافا، ويجعل المنتجات الأساسية متاحة للجميع. تبنت مدرسة مانشستر النظريات الليبرالية الاقتصادية الكلاسيكية التي نادي بها آدم سميث كأساس لسياسة الحكومة. ونادت أيضا بالسلمية، ومكافحة العبودية، وحرية الصحافة والفصل بين الكنيسة والدولة. [المترجم]

(***Beaudeau***) و"ديلاريفييـــر" (***de la Riviere***) و"تيرجـــوت" (Turgot) وآخـــرين، وجدت بسرعة مثيرة للدهشة أنصارًا مقاتلين في ألمانيا والنمـــسا وبولنـــدا والـــسويد وإسبانيا وأمريكا. تحت تأثير هؤلاء المفكرين وتأثير "ديفيد هيوم" طور "آدم ســـميث" نظريته الجديدة وأصبح مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي الذي سرعان ما انتشر عبر القارة، بالضبط مثل نقد الاشتراكية له الذي سار في أعقابه.

نحن نتعامل مع ظواهر العصر التي وُلِدت من الشروط الاجتماعيـــة العامـــة لفترة محددة والتي أدت تدريجيا إلى إعادة بناء الدولة وتجديـــد الحيـــاة الاقتـــصادية. ولكن "سان سيمون" (***Simon-Saint***) أدرك فعلا أنه حتى هذا الـــشكل مـــن الحيـــاة السياسية ليس الأخير عندما قال: "النظام البرلماني والدستوري الـــذي يبـــدو للجمـــع الغفير أنه المعجزة الأخيرة للفكر الإنساني هو مجرد مملكة انتقالية بين الإقطاع الذي نعيش على حطامه والذي لم نحطم أغلاله بالكامل بعد، وبين ترتيب أعلى للأمـــور. كلما نظرنا بشكل أعمق في البنيان الحالي للحياة الاقتـــصادية والـــسياسية، أدركنـــا بوضوح أكثر أن أشكالها قد نشأت من مجرى عام للتطور الاجتماعي ولذلك لا يمكن قياسها بواسطة المبادئ القومية".

هوامش الفصل الثامن

(1) *Moritz Lazarus, Das Lebenier Seele. Berlin, 1855-57*

(٢) نقلنا هاتين الفقرتين عن المقالة الرائعة (*Rasse und Politik, by Prof. Julius Goldstein, p. 152*)

(3) *P. Kropotkin, La science moiepney etc. Paris, 1913, p. 294*

الفصل التاسع

الدولة القومية وتطور العلم

العبقرية والأمة. جوته عن أصالة تفكيرنا. الرواد والمشاركون. صورة كوبرنيكس للكون ونظرية النشوء والارتقاء كنماذج. نظام مركزية الشمس (*HELIOCENTRIC SYSTEM*) للكون بين القدماء. النظام البطليموسي للكون. مذهب كوبرنيكس (*ERNICUSCOP*). يوهانس كيبلر (*JOHANNES KEPLER*) وجاليليو (*GALILEO*). قانون نيوتن (*NEWTON*) والجاذبية. الرواد السابقون على نيوتن. لابلاس (*LAPLACE*) وكانط. تطور فيزياء الفلك (*ASTRO-PHYSICS*). الشروط التمهيدية للنسبية (*RELATIVITY*). نظرية النشوء والارتقاء في العصور القديمة. تشكل فكرة النشوء والارتقاء حتى عشية الثورة الفرنسية. لامارك (*LAMARCK*) وجوته. الرواد السابقون على داروين (*DARWIN*). مذهب داروين و"والاس" (*WALLACE*). الداروينية الاجتماعية. نظرية كروبوتكين (*KROPOTKIN*) "للمعونة المتبادلة". الوضع الحالي لنظرية النشوء والارتقاء. تأثير فكرة النشوء والارتقاء على كل فروع الفكر الإنساني.

بالضبط كما لا ترتبط الأشكال الاجتماعية للبناء الاقتصادي والسياسي بشعب أو جنس أو أمة معينة هكذا أيضا تفكير ومشاعر الفرد لا تتبع خطوطًا قومية معينة، ولكن الفرد يقع دائما تحت تأثير أفكار العصر والدائرة الثقافية التي ينتمي إليها. الأفكار العظمى الرائدة في ميادين العلم والفكر الفلسفي والأشكال الجديدة للتعبير الفني لا تنشأ أبدا من شعب ككل أو أمة بأكملها، ولكنها دائما ما تنبع ببساطة من القوة المبدعة للعقول المستنيرة، التي تتكشف فيها العبقرية. لم يحدد أحد بعد كيف تنشأ العبقرية. قد يخرج العبقري من أي شعب ولكن ما هي الميزة الخاصة التي

تمتلكها الأمة أو الشعب في ذلك، فهذا ما لا يستطيع أحد أن يقوله. إلا أنه لا يوجد شعب ولا أمة ولا جنس من العباقرة، لم توجد شعوب من هذا النوع أبدا؛ ولهذا مساعي أنصار نظرية الأجناس القدريين المعاصرين مضطربة وخالية من المنطق بشكل ميئوس منه. ولكن حتى العبقري لا يدين بكل شيء لقدراته الخاصة؛ فأعظم العقول لا تقف خارج الزمان والمكان؛ فهو مثل كل الآخرين مرتبط بالماضي والحاضر. ذلك هو الأمر الذي يحمل مغزى في العبقرية، فهي تمنح صوتا وشكلا لما يرقد غافلا في العديد، وتكوِّن مفهوما موحدا لنتائج منفصلة للتطور الفكري لفترة من الفترات. عقل العبقري هو عقل شامل، يبني على ما خرج من كل ذلك الذي مضى من قبله صورة عالمية جديدة وهكذا يفتح للبشرية آفاقًا جديدة للحياة. وكلما كانت جذوره أعمق في بيئته الاجتماعية كانت الثمار التي يتسبب في نضجها أثمن. لم يشعر بهذا أحد بصورة أعمق من جوته الذي قال:

> **"إلا أننا في القاع كلنا كائنات جماعية نتخذ الوضع الذي يحلو لنا. فبالقليل الذي نملكه وبالقليل الذي نكونه والذي نستطيعه في أضيق معنى نستدعي أنفسنا! يجب علينا أن نتلقى وأن نتعلم أيضا من أولئك الذين سبقونا إلى جانب هؤلاء الذين يعيشون معنا. حتى أعظم العباقرة لن يذهب بعيدا إذا ما رغب في أن يستحق كل شيء يمتلكه داخله. ولكن العدد الكبير جدا من الرجال ذوي الجدارة لا يفهمون هذا وبأحلامهم عن الأصالة يتلمسون نصف حياتهم في الظلام. قد عرفت فنانين يتفاخرون بأنهم لا يتبعون أساتذة بل هم يدينون بكل شيء لعبقريتهم الخاصة. المغفلون! كما لو أن ذلك يحدث في أي مكان! وكما لو أن العالم لا يضغط عليهم مع كل خطوة وبرغم غباوتهم يصنع شيئا ما منهم! ... ربما أنا أتحدث عن نفسي وأخبركم بتواضع عما أشعر به. من الصحيح أنه خلال حياتي الطويلة أنجزت وأتممت تنويعة عظيمة من الأشياء التي ربما أُفاخِر بها. ولكن ما خرجت به، إذا ما أردنا أن نكون أمناء، فذلك كان فعلا ما يخصني ما عدا القدرة والميل أيضا لأن أرى وأن أسمع، أن أقرر وأن أختار، أن أعطى**

الحياة لما شاهدته وسمعته من روحي الخاصة وأنتجه من جديد ببعض المهارة. أنا لا أدين بأعمالي بأية طريقة إلى حكمتي الخاصة وحدها، ولكن آلاف الأشياء والأشخاص من خارجي منحوني مادتهم. هناك أتى الحمقى والحكماء، الرؤوس الصافية والمشوشة، الطفولة والشباب إلى جانب أيضا كبار السن الناضجين: كلهم أخبروني بما أحسوه، وبما اعتقدوه وكيف عاشوا وعملوا وأي تجارب جمعوها؛ لم يكن لدي المزيد لأصنعه سوى الإمساك بما بذروه لي وأحصده. في القاع لا يوجد سوى الهراء، سواء خرج المرء لنفسه بشيء ما أو سواء حصل عليه من الآخرين؛ سواء اشتغل المرء على نفسه أو عمل من خلال الآخرين: الشيء الرئيسي هو أن يمتلك المرء إرادة عظيمة ويمتلك مهارة ومثابرة على تنفيذ ذلك؛ الباقي كله لا يهم"[١].

نحن نعتمد دائما على أسلافنا، ولهذا السبب فكرة "الثقافة القومية" مُضلِّلة وغير متماسكة. لم نوجد أبدا في موقع لنرسم خطا بين ما قد اكتسبناه بواسطة قدراتنا الخاصة وما قد تلقيناه من الآخرين. كل فكرة سواء أكانت ذات طبيعة دينية أم أخلاقية أم فلسفية أم علمية أم فنية لديها السابقون، والرواد دونهم ما كان يُمكِنهم تصورها؛ ومن المستحيل تماما أن تعود للوراء بحثا عن بداياتها الأولى. يكاد بشكل متنوع أن يكون قد ساهم مفكرون من كل البلدان والشعوب في تطورها.

دعنا نتناول كأمثلة نظريتين اخترقتا ورجتا بعمق كل المفاهيم السابقة عليهما حتى قواعد الأساس، كما فعل نظام كوبرنيكس ونظرية النشوء والارتقاء الداروينية. هذان المذهبان لم يحولا فقط بشكل جوهري آراء البشر حول بنيان الكون وتطور الحياة على الأرض؛ ولكن بصنعهما هذا تسببا في إحداث تأثير ثوري فريد على كل ميدان آخر من ميادين الفكر الإنساني، وانقلب بالكامل كل العلم المعروف السابق عليهما. ولكن هنا أيضا شقت المعرفة الجديدة مسارها تدريجيا – في مجرى الزمن تراكمت مادة واقعية كافية حتى استطاع عقل موهوب بشكل لامع أن يستمد منها الاستنتاج الضروري ويعطي أسسا واضحة للآراء الجديدة.

إلى أي بدايات في الماضي تاريخيا تعود فكرة أن الأرض تدور حول محورها الخاص، وأنها مع باقي الكواكب الأخرى تدور حول الشمس، ربما لن نستطيع التأكد من ذلك أبدا. "ألبرت آينشتاين" (*Albert Einstein*)[*] المؤسس المرموق لنظرية النسبية، يعلق بإنصاف أنه خصوصا أينما يتعلق الأمر بالمبادئ الجوهرية لعلم الفيزياء، تتعثر قدم الإنسان دائما في شيء ما أسبق، لدرجة أن من المستحيل اتباع أي ماضٍ لخط من الاكتشافات حتى بداياته الأولى. وحتى لو كنا مجمعين على تكريم "ارستارخوس الساموسي" (*Aristarchus of Samos*) كأول العظماء الأسبقين لنظام كوبرنيكس الشمسي، يجب أن نبقى دائما محافظين على الشك في أن "أرستارخوس" ربما استقى ذلك بدوره من مصادر مصرية[٢]. لا يمكن الدفع باعتراض ضد مفهوم هذه الرواية لأن هذا يظهر من جديد في تاريخ كل ابتكار أو اكتشاف جديد. ولا حتى أكثر العقول اللامعة تخرج منها الفكرة الجديدة كاملة النضج كما تخرج "منيرفا" (*Minerva*) من رأس "جوبيتر" (*Jupiter*). لذلك ما لا يقبل النقاش أن فكرة مركزية الشمس في الكون (*heliocentric universe*) قد أمسك بها بشكل أولي مجموعة من المفكرين الجسورين قبل كوبرنيكس بزمن طويل وكانت قلة منهم قد أعطتها أسسا مقنعة بشكل أو بآخر. العالِم الإيطالي "شياباريللي" (*Schiaparelli*) طرح مقدما بصورة واضحة في دراسة خاصة شكلا أوليا لما قدمه كوبرنيكس.

حقيقة أن الإغريق يدينون بالكثير للبابليين والمصريين لمعرفتهم بالفلك والفيزياء هي اليوم حقيقة تتجاوز أي شك، لذا لا يهم ما إذا كان الفيلسوف الطبيعي الأيوني "طاليس الميلي" (*Thales of Miletus*) تلميذا للمفكر البابلي "بيروسوس" أم لا. بالتأكيد وجدت بين اليونان وبلدان "المشرق" صلات وثيقة جدا التي لابد وأن كان

(*) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥) عالم الفيزياء النظرية الألماني المولد. طور نظرية النسبية العامة، إحدى ركائز الفيزياء الحديثة (جنبا إلى جنب مع ميكانيكا الكم). امتلك عمل آينشتاين تأثيرا عظيمًا على فلسفة العلم. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء ١٩٢١ "لخدماته للفيزياء النظرية" وعلى وجه الخصوص اكتشافه لقانون التأثير الكهروضوئي، الذي كان خطوة محورية في تطور نظرية الكم. [المترجم]

لها تأثيراتها الفكرية. وهكذا يقال عن "فيثاغورس" (*Pythagoras*) أنه قد تنقل مرتحلا في مصر والشرق، وقد اكتسب هناك قدرًا كبيرًا من معرفته للفلك والرياضيات. في الواقع تتميز مدرسة فيثاغورس بمفاهيمها الجسورة عن بناء الكون. يروي "بلوتارخ" عن "فيلاوس" (*Philaos*) تلميذ فيثاغورس أنه طبقا لتعاليمه تتحرك الأرض والقمر في دائرة مائلة حول النار المحورية.

من المعروف يقينا أن أرستارخوس الساموسي قد طور نظرية الكون المتمركز حول الشمس. وصحيح أن مقالته حول الموضوع قد فُقدت، ولكننا نجدها عند بلوتارخ وفي مؤلَّف "حسابات الرمال" (*calculation of the sands*) "لأرخميديس" (*Archimedes*) نجد تخطيطات سريعة لنظرية ارستارخوس التي تخبرنا أنه يؤكد دوران الأرض حول محورها هي ودورانها أيضا حول الشمس كمركز، بينما النجوم والشمس ثابتة في الفضاء. نحن لا نعرف مدى انتشار مثل هذه التعاليم ولكن من السهل تخيل أن مناصري نظام مركزية الأرض الذين يضعون الأرض مركزا للكون كانوا الأغلبية حيث بدت الملاحظة المباشرة وقتها في صالحهم. حتى النظام الشهير لبطليموس الإسكندري (*Ptolemy the Alexandrian*) الذي طوره في كتابه "المجسط" (*Almagest*) الذي أوقع عقول البشر في أسره لألف وخمسمائة سنة كان له رواده السابقون عليه، ولم يكن هذا العمل سوى إتمام العمل الكبير الذي كان قد بدأه "هيبارخوس النيقي" (*Hipparchus of Nicaea*)(*) منذ ثلاثمائة عام خلت. أكثر من ذلك هيبارخوس يدين بكثير من مذهبه لرجال الفلك الكلدانيين.

وحقيقة أن النظام البطليموسي استطاع الصمود كل هذه المدة الطويلة دون معارضة فذلك يعود بشكل رئيسي إلى نفوذ الكنيسة. وضع الدين الكرة الأرضية مركزا للخليقة، وارتفع بالإنسان إلى موقع التاج من الخلق، وصورة للإله نفسه. لذلك لم يتناسب مع الكنيسة أن تفقد الأرض نقطة تميزها كمركز لكل الأشياء، وتدور

(*) هيبارخوس نيقية (١٩٠-١٢٠ قبل الميلاد)، الفلكي، والجغرافي، وعالم الرياضيات من اليونان القديمة. يعتبر مؤسس علم حساب المثلثات. [المترجم]

حول الشمس مثل باقي الكواكب. هذه الفكرة لم تكن مفهومة للمزاج الديني وربما تسببت في تطور الأمور لعواقب وخيمة. كان هذا هو السبب وراء محاربة الكنيسة لمذهب كوبرنيكس هذه المدة الطويلة وبهذه المرارة الشديدة. في روما، وحتى تاريخ صدور قرار كرادلة محاكم التفتيش الذي أصدره البابا "بيوس السابع" (**Pius VII**) في سبتمبر ١٨٢٣، لم يكن ممكنا طباعة ولا توزيع كتاب يناقش ويدافع علنا عن نظرية مركزية الشمس في الكون. أما عدد الخصوم السريين للنظام البطليموسي خلال تلك الفترة الطويلة من سيطرة الكنيسة غير المحدود فذلك بالطبع ما لا يمكن تحديده. فقط تحت تأثير إعادة اكتشاف كتابات القدماء، التي انتقلت أولا إلى الشعوب الأوروبية بأي مقياس كبير بواسطة العرب، أن تطورت خصوصا في المدن الإيطالية روحية جديدة وضعت نفسها في مواجهة سلطة أرسطو وبطليموس (**Ptolemy**). كشف مفكرون جسورون، مثل "دومينكيو ماريا نوفارا" (**Domencio Maria Novara**) الذي عاش من ١٤٥٤ إلى ١٥٠٤، لتلاميذهم "المذاهب الفيثاغورسية" (**Pythagorean doctrines**) وطوروا فكرة صورة جديدة للكون. كوبرنيكس (**Copernicus**) الذي كان يتابع في تلك السنوات دراسته في جامعتي "بولونيا" (**Bologna**) وبادوا (**Padua**)، وقع بالكامل تحت هوى هذه الحركة الفكرية الجديدة، التي أعطته دون شك أول دافع نحو تطوير نظريته. في الواقع كان يبني خلال الاعوام من ١٥٠٦ حتى ١٥١٢ أسس نظريته التي توسع فيها لاحقا في عمله الرئيسي "فيما يتعلق بدوران الأجسام السماوية" (**Concerning the Revolution of the Heavenly Bodies**) الذي ظهر في عام ١٥٤٣. سبقَ هذا العمل مقالة، فُقدت منذ ذلك الحين، بعنوان "رسم تخطيطي سريع للحركة المحتملة للأجرام السماوية" (**A Short Sketch of the Probable Movements of the Heavens**) التي أعاد الدارس الكوبرنيكسي "كيرتز" (**Curtze**) اكتشافها ونشرها في السبعينات [من القرن التاسع عشر]. وحتى ولو لم يضرب كوبرنيكس بنفسه تماما على فكرة مركزية الشمس في الكون، يبقى أن لمساهمته الفضل الذي لا يختلف عليه أحد فى تطوير وتأسيس المفهوم الجديد طبقا للمبادئ العلمية.

في مقالته المشهورة "السبعة موضوعات" دافع كوبرنيكس عن فكرة أن هناك مركزًا واحدًا فقط للنجوم ومداراتها؛ وأن مركز الأرض ليس مركزا للكون، ولكن مجرد مركز لمدار القمر وكتلته؛ وأن كل الكواكب تدور حول الشمس، التي تقف في مركز مداراتها؛ وأن المسافة من الأرض للشمس هي في علاقتها بعرض السماء، أصغر من نصف قطر الأرض في علاقته بالمسافة من الأرض للشمس، ومن هنا تختفي عندما توضع في مقارنة مع حجم السماء؛ وما يبدو لنا كحركة للسماء ليس كذلك، ولكنه بسبب حركة الأرض، التي فيها الأرض وبيئتها المباشرة تدور يوميا بينما قطباها الاثنان يحتفظان دائما بنفس الاتجاه؛ وأن السماوات من الناحية الأخرى تحتفظ بثباتها تماما بالنسبة لحدها الاقصى؛ وأن ما يبدو لنا حركة من الشمس ليس بسبب ذلك النجم، ولكن بسبب الأرض ومدارها الذي تتحرك فيه حول الشمس مثل كل الكواكب الأخرى، ولهذا تتحرك الأرض حركة مزدوجة؛ ذلك أن تقدم وتراجع الكواكب ليس نتيجة لحركتها ولكن نتيجة لحركة الأرض؛ ذلك أن تعدد الظواهر السماوية يجد تفسيره الكامل في حركة الأرض.

لا يقدم التاريخ أمام نظرية كوبرنيكس الجديدة هذه سوى إنجازات فكرية قليلة تقبل المقارنة؛ إلا أن البناء الفخور لنظام مركزية الشمس في الكون لم يكتمل بعد بهذه النظرية. فقد وجدت النظرية من البداية أنصارًا متحمسين، ورغم وجود أعداء أكثر، فإنها استطاعت من البداية أن تشق طريقها تدريجيا. ومع بزوغ شمس هذه النظرية وجدت أحسن استقبال لها في ألمانيا، حيث كانت سلطة الكنيسة قد اهتزت بشكل شديد بواسطة حركة "الإصلاح". ومن ذلك لا يجب علينا استخلاص أن البروتستانتية كانت تميل إلى استحسانها بأي قدر. لم تكن على الإطلاق تلك هي الحالة. لم يعط "لوثر" ولا "ميلانختون" (*Melanchthon*)(*) بالضبط أي فهم نحو المذهب الجديد وكانا معاديين له مثل البابا؛ ولكن الكنيسة الجديدة لم تكن قد ثبتت سلطتها بعد بدرجة

(*) فيليب ميلانختون (١٤٩٧-١٥٦٠) مصلح ألماني، معاون لمارتن لوثر، يقف بجوار لوثر وكالفين كمصلح، ولاهوتي، وواضع للبروتستانتية. مؤسس رئيسي للوثرية جنبا إلى جنب مع لوثر. [المترجم]

كافية، ولهذا السبب لم تستطع أن تمثل خطرا على البدعة الجريئة الجديدة مثل الكنيسة الكاثوليكية في البلدان اللاتينية. في إيطاليا "جيوردانو برونو" (*Giordano Bruno*)(•) الذي قدم له النظام الكوبرنيكسي خدمة طيبة كأساس لفلسفته عن الطبيعة، كان عليه أن يقف وسط كومة الحطب المشتعلة تكفيرا عن جرأته (عام ١٦٠٠)؛ بينما "جاليليو" (*Galileo*) المعلم الأكثر لمعانا للرؤية الجديدة للكون، ربما استطاع الهرب من نفس المصير فقط بالاستسلام لنبذ أخطائه المزعومة أمام محكمة التفتيش.

تلقت نظرية كوبرنيكس دافعا قويا من الفلكي الألماني "يوهانس كيبلر" (*Johannes Kepler*)(••) التلميذ الأكثر تميزا "لتايكو براهي" (*Tycho Brahe*) الذي

(•) جيوردانو برونو (١٥٤٨ –١٦٠٠ م)، الراهب الدومينيكاني والفيلسوف والرياضي والشاعر والفلكي الإيطالي. له نظرياته الكونية، التي ذهب بها إلى أبعد من نموذج كوبرنيكس. اقترح برونو أن النجوم مجرد شموس بعيدة تحيط بها كواكبها، وأثار احتمال أن هذه الكواكب بها حياة خاصة (موقف فلسفي معروف باسم التعددية الكونية). كما أصر على أن الكون هو في الواقع لانهائي ومن الممكن لأي جرم سماوي في دورته أن يكون هو "المركز". كانت وحدة الوجود عند برونو أيضا مسألة تثير قلقا بالغا. حوكم برونو ابتداء من عام ١٥٩٣، لبدعه حين واجهته محاكم التفتيش الرومانية بتهمة إنكار عدة مذاهب كاثوليكية أساسية (الثالوث، لاهوت المسيح، وعذرية مريم، والاستحالة الجوهرية). وجدته محاكم التفتيش مذنبا. أحرق برونو في روما في كامبو دي فيوري عام ١٦٠٠. [المترجم]

(••) يوهانز كيبلر (١٥٧١–١٦٣٠) عالم الرياضيات، والفلك، والتنجيم الألماني. شخصية رئيسية في الثورة العلمية في القرن الـ ١٧، له قوانينه المعروفة عن حركة الكواكب. ساهمت أعماله في أسس نظرية إسحاق نيوتن عن الجاذبية الكونية. خلال حياته المهنية، أصبح كيبلر مساعدا للفلكي تايكو براهي. بالإضافة إلى ذلك، قدم إسهامًا أساسيًا في مجال البصريات، حيث اخترع نسخة محسنة من التلسكوب (تلسكوب كيبلر). ذكر كيبلر في مؤلفاته اكتشافات جاليليو جاليلي المعاصر له. عاش كيبلر في عصر لم يكن هناك تمييز واضح بين علم الفلك والتنجيم، ولكن كان هناك انفصال قوي بين علم الفلك والفيزياء. وصف كيبلر مذهبه الجديد في الفلك "بالفيزياء السماوية"، كما وصفه بأنه "رحلة في ميتافيزيقيا أرسطو"، وبأنه "تكملة لأرسطو في السماء". يرجع الفضل لكيبلر في تحويل التقاليد القديمة في علم الكونيات إلى طريق تناول الفلك كجزء من الفيزياء الرياضية. [المترجم]

يدين له دون شك بالكثير جدا. طور "كيبلر" في كتابه "علـم الفلـك الجديـد" (*New Astronomy*) وفي أعماله اللاحقة قوانينه الثلاث الشهيرة، التي أحدث بهـا بمهـارة مدهشة وبعد تجارب طويلة وعقيمة برهانا رياضيا على صحة النظام الكوبرنيكسي. هذا المفكر اللامع، الذي لم تستطع عظمته الفكرية حمايته من أكثر صـور البـؤس مرارة، أظهر لمعاصريه أن مسارات الكواكب ليست واقعيا دوائر، ولكنها مـسارات بيضاوية (*ellipses*)، والتي مع ذلك تختلف قليلا جدا عن الدوائر الحقيقيـة. الأكثـر أهمية من كل شيء، أنه أظهر كيف يمكن حساب مـسافات ابتعـاد الكواكـب عـن الشمس من فترات دورانها، وماذا تحمل علاقة معدل سرعة حركتهـا عنـد نقـاط مختلفة من مدارها بمسافة ابتعادها عن الشمس. قد أمسك كيبلر فعلا كفرضية بتلـك الوحدة العظيمة للقوانين الفلكية التي طورها نيوتن (*Newton*) لاحقا بشكل لامع جدا.

ويكاد يكون في نفس الوقت، ولكن بشكل مستقل عن "كيبلر"، حقـق "جـاليليو جاليلي من بيزا" (*Galileo Galilei of Pisa*)(*) نظرة أعمـق فـي عمليـات القـوى الميكانيكية وأسس قوانين سقوط الأجسام، وحركة البندول والمقذوفات التي وضـعته في موقف يجيب منه على كل الاعتراضات الفيزيائية على نظام مركزية الشمس في الكون. ولكن حتى في هذا الميدان كان هناك من سـبقه. وهكـذا، "ميـشيل فـارو"

(*) جاليليو جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢)، الفلكي، والفيزيائي، والمهندس والفيلسوف وعالم الرياضيات الإيطالي الذي لعب دورا رئيسيا في الثورة العلمية في عصر النهضة. تشمل إنجازاته إدخال تحسينات على التلسكوب والرصد الفلكي وترتب على ذلك دعمه لمركزية الـشمس. يـدعى جاليليو "والد علم الفلك والرصد الحديث"، و"أبو الفيزياء الحديثة"، و "أبو العلم الحديث". تشمل إسهاماته في علم الفلك الرصدي تأكيد أطوار كوكب الزهرة، واكتشاف أكبر أربعة أقمار حول كوكب المشتري (تسمى أقمار جاليليو تكريما له)، ومراقبة وتحليل البقع الشمسية. كما اخترع جاليليو البوصلة العسكرية المحسنة وغيرهـا. ناصـر جـاليليو مبـدأ مركزيـة الـشمس والكوبرنيكسية المثيرة للجدل في حياته. حوكم من قبل محاكم التفتيش، التي وجدته "مشتبه به بشدة لبدعه"، وأجبرته على الارتداد، وأمضى بقية حياته تحت الإقامة الجبرية. حـين كـان جاليليو تحت الإقامة الجبرية كتب واحدًا من أروع أعماله، "اثنين من العلوم الجديدة". لخـص فيه ما قام به منذ نحو أربعين عاما، وقدم فيه علمين يسميان الآن الكينماتيكا وقـوة المـواد. [المترجم]

(*Michel Varo*) من جنوة قد أدرك فعلا بوضوح عام ١٥٨٥ العلاقة البينية لقـوانين الميكانيكا، وبشكل مستقل عنه حاول "سيمون ستيفين من بروجي" (*Simon Stevin of Brugge*) (١٥٤٨-١٦٢٠) عمليا تأسيس مبدأ من تلـك القـوانين. بجانـب هـذين الشخصين، يظل هناك مفكرون معزولون نشطوا بنجاح أكثـر أو أقـل فـي نفـس الميدان. بعد أن حاولوا فك ألغاز مفكرة "ليوناردو دا فنشي" اليومية، أصبح واضـحا أكثر فأكثر أن هذا الفكر الشامل الفريد قد سبق جاليليو وعديدًا آخرين فـي مقامـات عدة، مثل تفسير قانونٰ سقوط الأجسام، ونظرية الموج وعدد آخر قليل من القوانين.

نجح "جاليليو" بمساعدة التليسكوب الذي ركَّبه في تحقيـق عـدد كبيـر مـن الاكتشافات المهمة في الفضاء الكوني. وهكذا باكتشاف أقمـار كوكـب المـشترى (*moons of Jupiter*) قدم دليلا مقنعا على أن هناك واقعيا أجساما سماوية لا تـدور حول الأرض. بشكل عام، أدى اختراع التليسكوب إلى سلسلة كاملة من الاكتـشافات المماثلة التي تحققت في بلدان مختلفة وبشكل مستقل تماما عن بعضها البعض. نحتاج هنا فقط إلى تذكر ملاحظات الأب اليـسوعي "كريـستوفر شـايندر" (*Christopher Scheiner*) في "إنجلوشـتاد" (*Ingolstadt*) و"يوهـانس فابريـسيوس" (*Johannes Fabricius*) في "أوستيل" بفرايـسلاند (*Osteel, Friesland*) و"تومـاس هـاريوت" (*Thomas Harriot*) في آيسلورث (*Isleworth*) بإنجلترا[٣].

بعد نجاح "كيبلر" في بناء حركات الأجسام في الفضاء رياضيا بواسطة قوانينه الجوهرية الثلاث، وصياغة "جاليليو" للمبادئ العامة لقوة الجاذبية كما تكـشف عـن نفسها على الأرض، ظلت الفكرة جاهزة للطرح بأن نفس هذه القوانين ليست فاعلـة على كوكبنا فقط ولكنها فاعلة أيضا في كل الكون وأنها تحـدد حركـات الأجـسام السماوية. "فرانسيس بيكون" (*Francis Bacon*) (١٥٦١-١٦٢١) الذي لقبـوه بـأبى "الطريقة الاستقرائية" (*inductive method*) كان يحلم بزمن ينجح فيه العقل البـشري في تتبع كل الأحداث في الفضاء طبقا لنفس القوانين الفيزيائية المنتظمة.

إنه "إسحق نيوتن" (*Issac Newton*)(*) (١٦٤٢-١٧٢٧)، عـالِم الرياضـيات الإنجليزي اللامع والفيلسوف الطبيعي الذي ساعد مذهبي "كوبرنيكس" و"كيبلر" حتـى الانتصار الفعال النهائي بمعادلته لما يُسمى "قانون الجاذبية". أكد نيوتن أن القوة التـي تسبب سقوط تفاحة وقد انحل رباطها بفرعها بسبب نضجها هي نفسها التـي تحـتفظ بالكواكب داخل مداراتها في الفضاء. أدرك نيوتن أن قوة الجاذبية التي تسكن في كل جسم تزيد بزيادة كتلته بمعدل أن الجسم بما يساوي وزنه مرتين يجذب جسما آخـر بما يساوي قوته مرتين. واكتشف مع ذلك أيضا أن قوة جاذبية جسم تزيد أو تـنقص مع مسافته الأصغر أو الأكبر عن الجسم الآخر، وأنها تتناسب عكـسيا مـع مربـع المسافة؛ لذلك فإن جسمًا بحجم الأرض ولكنه يبتعد مرتين بمسافة بعد الأرض عـن الشمس ينجذب بواسطة الشمس فقط بربع قوة الجاذبية. اختزل نيوتن هذه العلاقة في معادلات رياضية محددة. بمساعدة حـساب التفاضـل (*infinitesimal calculus*) – وهي الطريقة الرياضية التي يمكن بها حساب كميات صغيرة إلى ما لا نهاية والتـي يكاد يكون المفكر الإنجليزي قد تصورها في نفس التوقيت مع الفيلـسوف الألمـاني "لايبنيتز" (*Leibnitz*) – كان نيوتن قادرا على البرهنة على صحة اكتشافه. وقد طرح ذلك في كتابه المشهور "مبادئ الرياضيات" (*Principia Mathematica*). فـي هـذه الكتاب زودنا نيوتن أيضا بأحسن التأكيدات على مركزية الشمس في نظام كوبرنيكس وعلى قوانين "كيبلر" الثلاث. ومنذ ذلك الحين أصبح القانون الذي يحمل اسم "نيـوتن"

(*) السير إسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٦) فيزيائي إنجليزي وعالم الرياضيات المعـروف علـى نطاق واسع باعتباره واحدا من العلماء الأكثر تأثيرا في كل العصور وشخصية رئيسية فـي الثورة العلمية. كتابه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية"، نشر لأول مرة فـي عـام ١٦٨٧، وضع فيه أسس علم الميكانيكا الكلاسيكية. قدم نيوتن مساهمات رئيـسية فـي البـصريات، ويتقاسم مع غوتفريد لايبنتز فضل تطوير حساب التفاضل والتكامل. صاغ نيـوتن مبـادىء قوانين الحركة والجاذبية الكونية، التي هيمنت على رأي علماء الكون المادي للقرون الثلاثـة التالية. أزال نيوتن الشكوك الأخيرة حول صحة نموذج مركزية الـشمس. بنـى نيـوتن أول تلسكوب عاكس عملي وطور نظرية الألوان معتمدا على ملاحظة تحليل المنـشور للـضوء الأبيض إلى العديد من الألوان في الطيف المرئي. صاغ قـانون التجريبيـة للتبريـد ودرس سرعة الصوت. خدم نيوتن الحكومة البريطانية كرئيس دار سك العملة الملكية. [المترجم]

هو أساس كل الحسابات الفلكية. وبالضبط كان لاكتشاف نيوتن اللامع أولئك الذين توقعوه مسبقا، مثل "ادموند هالي" (*Edmund Halley*) و"روبرت هوك" (*Robert Hooke*) و"كريستوفر فرين" (*Christopher Wren*) وآخرين، الذين شغلوا أنفسهم جميعهم بمشكلة الجاذبية، لذا لم تكن النظرية بأية طريقة نظرية غائية نهائية. هذه النظرية بدورها مثل كل اكتشاف عظيم آخر، أعطت الدافع لمزيد من الأبحاث والملاحظات. بناء على نتائج نظرية نيوتن استقرت المساهمات الرائعة للرياضي المشهور "ليونهارت ايولر من بازيل" (*Leonhard Euler of Basel*) والفرنسيين "ألكسيس كليرفو" (*Alexis Clairvault*) و"جان لو رون دالامبير" (*Jean le Rond d'Alembert*). هنا أيضا ربما نذكر الفلكي الدنماركي "أولاف رومر" (*Olaf Romer*) الذي مبكرا عام ١٦٧٥ –قبل ظهور عمل نيوتن الرئيسي– كان قد تكفل على أساس من نظام كوبرنيكس بعمل قياسات لمعدل سرعة الضوء عند حدوث الكسوف لأقمار المشترى.

أعطت الاكتشافات الفكرية لنيوتن دافعا لعديد من الاكتشافات الجديدة التي مهدت الطريق لتلك النظرية العظيمة التي طرحها الفلكي الفرنسي "بيير لابلاس" (*Pierre Laplace*) (١٧٤٩–١٨٢٧) في عمليه الاثنين، "معرض للنظام العالمي" (*Exposition du système du monde*)، و"معاهدة الميكانيكا السماوية" (*Traite de la mecanique celeste*)، اللذين فسر فيهما أصل نظامنا الكواكبي ونسب كل أحداث الفضاء إلى عمليات قوى مادية صرف. ولكن حتى نظريته لم تكن القول الفصل في بناء المفهوم الجديد للكون؛ فقد تم تصحيحها بشكل أصيل وتوسعتها وامتدادها بواسطة رجال مثل "فرايدريش جاوس" (*Friedrich Gauss*) و"جيه إل لاجرانج" (*J. L. Lagrange*) و"بي إيه هانسن" (*P. A. Hansen*) و"إيه إل كاوتشي" (*A. L. Cauchy*) و"جيه سي آدامز" (*J. C. Adams*) و"اس نيوكومب" (*S. Newcomb*) و"اتش دايلدن" (*H. Dylden*) و"إف تيسيران" (*F. Tisserant*) وعديد من المفكرين الآخرين من كل الشعوب والأمم.

أيضا تطورت فيزياء الفلك التي اكتسبت دافعا رائعا خلال مسار القرن الأخير بنفس الأسلوب. قبل نجاح عبقرية "جوستاف كيرتشهوف" (*Gustav Kirchhoff*) في

وضع قواعد التركيب الكيماوي للشمس باكتشافه للتحليل الطيفي (***spectrum isanalys***)، كتيبة كاملة من المفكرين والباحثين سبقته في بلدان شتى؛ رجال مثل "دابليو اتش وولاستون" (***W. H. Wolaston***) و"جوزيف فراونهوفر" (***Joseph Fraunhofer***) و"دابليو ايه ميلر" (***W. A. Miller***) و"إل فوكو" (***L. Faucoult***) و"ايه جيه انجستروم" (***A. J. Angstrom***) و"بلفور ستيوارت" (***Balfour Stewart***) و"جيه ستوكس" (***G. Stocks***) وعديد آخرينَ، اعتمد كيرتشهوف على نتائج أبحاثهم، بينما امتد بهذه النتائج بشكل رائع وضفرهم جميعا في تركيب جامع. من الناحية الأخرى فتح التحليل الطيفي الطريق لابتكارات واكتشافات جديدة لا تعد ولا تحصى ولا يمكن حتى ذكرها هنا نتيجة وفرتها.

لذلك مما لا جدال فيه، قد ساهمت عقول لامعة من كل البلدان في خلق وتطوير صورتنا المعاصرة للكون، لا نستطيع ذكر سوى أشهر الأسماء هنا باختصار. أكثر من ذلك، "نظرية النسبية" (***relativity theory***) "لألبرت أينشتاين" (***Albert Einstein***) الذي استطاع بمساعدتها النجاح في حل ألغاز مدار كوكب "عطارد" (Mercury) بأسلوب مدهش بقدر ألمعيته، تلك النظرية لم تكن ممكنة دون هؤلاء الأسبقين الذين لا حصر لعددهم. دع متعصبي الأجناس الفسدة يمتعون أنفسهم بالبرهنة من لوحات الصور الشخصية لكوبرنيكس وجاليليو أو لابلاس على عضوية هؤلاء في الجنس الشمالي؛ لن يحسدهم أحد على ألعابهم الصبيانية. أينما يتحدث الفكر عن الجنسية أو العرق يختفي كما الضباب أمام الريح ولسوف يكون من السخف محاولة الحكم على فكرة اجتماعية أو دينية أو نظرية علمية بمحتواها القومي أو طبقا للسمات العرقية في زعمائها. لقد رأينا بولنديين وألمانًا وإيطاليين وفرنسيين وإنجليزًا ودنماركيين وسويديين وهولنديين وبلجيكًا وسويسريين وآخرين قد عملوا من أجل انتصار نظام مركزية الشمس. قد وُلِد هذا البناء الفكري من عملهم المتحد؛ عالَم بأكمله ساهم في تطويره؛ ولا يمكن تحديد طبيعته بأي انتماء سياسي للعقيدة ولا بأي سمات قومية خاصة. عند تعاملنا مع الظواهر العقلية العالمية في الفكر الإنساني يصبح ظاهرا بأكثر وضوحا ولا يمكن أن يُصاب بلعنة الحدود القومية؛ أو كما

وضعها جوته بشكل مدهش: "لا يوجد فن وطني كما لا يوجد علم وطني. كلاهما ينتمي كما كل خير متعالٍ إلى العالم كله، ولا يمكن تعزيز هذا الخير العام سوى بالتعاون العام الحر لجميع من يعيشون في نفس العصر، مع الاعتبار الدائم لما بقي معروفا لنا من الماضي".

ما قد قيل هنا بكلمات قليلة عن تطور نظرية كوبرنيكس يثبت صحته بدرجة أكبر بالنسبة للنظرية الحديثة للنشوء والارتقاء، التي أدت بشكل مذهل في مثل هذا الوقت القصير إلى إعادة بناء كاملة لكل المفاهيم والافتراضات التقليدية. دع جانبا ما عليه نظام مركزية الشمس، يكاد لا يوجد أي مذهب امتلك مثل هذا التأثير العميق والممتد على كامل الفكر الإنساني مثل فكرة التطور المتدرج لكل الأشكال الطبيعية وتبديات الحياة تحت تأثير البيئة والشروط الخارجية للحياة. لم تؤد النظرية الجديدة فقط إلى ثورة كاملة في كل الميادين المتعلقة بعلوم الطبيعة؛ لقد طورت أيضا نقاطًا جديدة تماما من وجهات النظر في علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة. حتى القادة الدينيون الذين حاربوا في البداية فكرة النشوء والارتقاء بمرارة شديدة وجدوا أنفسهم مضطرين لتقديم تنازلات بعيدة الأثر أمامها وعلى طريقتهم قاموا بتكييف أنفسهم عليها. بكلمة فكرة النشوء والارتقاء قد استحوذت علينا بالكامل وأثرت على كامل تفكيرنا إلى الدرجة التي لا نكاد نستطيع اليوم تصور أي رؤية أخرى.

على أية حال، حتى هذه الفكرة التي تبدو لنا اليوم مؤكدة بالدليل من تلقاء ذاتها، لم تنشق الأرض عنها فجأة، ولكن مثل كل الإنجازات الفكرية الكبرى فقط نضجت تدريجيا وكسبت القبول العام. إلى أي زمن تعود تاريخيا الدلائل الأولى للنظرية، ربما ذلك السؤال لن يجد إجابته عن يقين أبدا. من المؤكد أن فكرة تطور طبيعي لكل الأشياء كانت منتشرة بشكل معقول بين المفكرين الإغريق الأوائل، ومن المحتمل جدا أن كامل الحياة الفكرية للشعوب الأوروبية كانت سوف تهتدي تحت هيمنة الكنيسة إلى مسارات جد مختلفة تماما إذا لم تُكتشَف كتابات الحكماء القدامى وظلت مجهولة لوقت طويل. وكما صار، انتقلت هذه الكتابات فقط في صورة أجزاء مبتورة وفي صورة مخففة جدا إلى رجال العصر الأخير الذين كانت تسيطر عليهم أفكار مختلفة تماما.

فعلا نجد بين الفلاسفة الأيونيين وخصوصا عند "أناكسيمينس" (*Anaximenes*) فكرة المادة الأولية التي تسكنها قوة بناءة ومتحولة تكشف عن نفسها في إنتاج وتبديل الكائنات الحية على الأرض. يبدو "إمبيدوقليس" (*Empedocles*) أنه قد أمسك بعمق شديد بهذا المفهوم عندما طرح رأيه بأن الأشكال الحية على اختلافها، تدين بأصلها إلى مزيج متحد خاص من المادة الأولية. هذا المفكر الجسور والفريد كان فعلا يشرح نشوء وارتقاء الكائنات العضوية من خلال التكيف مع بيئتها حيث طبقا لرؤيته سوف تستطيع الأشكال المجهزة بشكل مناسب الحفاظ على وصيانة نفسها بينما الأشكال الأخرى سوف تختفي. عند "هيراقليطس" (*itusHeracl*)، والذريّون الإغريق (*atomists*) إلى جانب الإبيقوريين (*Epicureans*) والآخرين، توجد إشارات إلى النشوء والارتقاء التدريجي والتحول لكل تبديات الحياة. جمَّع "لوقريطس" (*Lucretius*) هذه الإشارات لاحقا في قصيدته التعليمية الشهيرة وهكذا وصلت إلينا هذه الأفكار. أكثر من ذلك، يتضح من أعمال "لوقريطس" أن المفكرين القدماء تعاملوا على أية حال مع فكرة غامضة نسبت إليها الأجيال اللاحقة معنى يتطابق مع طريقتهم في التفكير لكن بمفهوم واضح وبينما ذلك كان قائما على الأغلب الأعم على أسس غير كافية إلا أن بذرته لا يمكن الخطأ فيها.

انزاحت إلى خلفية المشهد هذه البدايات اللامعة لنظرية النشوء والارتقاء لمدة خمسة عشر قرنا مع سيادة العقائد المسيحية الجامدة التي ألزمت نفسها بكامل الرواية الأسطورية التوراتية عن الخلق ولم تسمح بأي رؤية أخرى – رغم أن الفكرة نفسها لم تختف بالكامل أبدا. وعاودت الظهور في العصور الوسطى مع الفلاسفة العرب، كالفارابي (*Farabi*)(•) وابن سينا (*Avicenna*)(••)، رغم أن معاودة الظهور كان في

(•) الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد فارابى) (٨٧٢-٩٥٠)، الفيلسوف الشهير والفقيه الذي كتب في مجالات الفلسفة السياسية، والميتافيزيقيا والأخلاق والمنطق. عالم الكونيات، وعالم الموسيقى. ينسب إلى الفارابي فضل الحفاظ على النصوص اليونانية الأصلية خلال العصور الوسطى بسبب تعليقاته عليها ومعالجته لها، والتأثير على كثير من الفلاسفة البارزين، مثل ابن سينا وابن ميمون. أعماله معروفة جيدا في الشرق والغرب. [المترجم]

(••) ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا) (٩٨٠-١٠٣٧) الموسوعي الفارسي أحد أهم المفكرين والكتاب في العصر الذهبي للإسلام. أعماله الأكثر شهرة هي كتاب الشفاء،=

شكـــل شديد الغرابـــة، واقـــع تحت تأثيـــر شـــديـــد "للأفلاطونية الجديـــدة" (***neo-Platonism***)(•). وعلى نفس المنوال وجد تعبيرا في العمل المرموق "نافورة الحيـــاة" (***Mekor Chaim***) لليهودي الكابالي "سليمان بن جـــابيرول" (***Avicebron***)(••) وهـــو العمل المترجم أيضا إلى اللاتينية، الذي يذكرنا في بعض الجوانب بالصوفي الألماني "يعقوب بوهم" (***Jacob Bohme***)، ويقترب فيه الكابالي بشكل واعٍ من هاجس فكـــرة التطور الأبدي لكل الأشياء(٤). أيضا العالِم الاسكتلنـــــدي "دونـــــس سكوتـــــوس" (***Duns Scotus***) اقترب جدا من فكرة تطور الكون علـــى أســـس قـــوانين فيزيائيـــة محددة.

في تلك الفترة، في ظل تأثير الاكتشافات الكبرى لكوبرنيكس وكيبلر وجـــاليليو وعقول مستنيرة أخرى، صنعت فكرة النـــشوء والارتقـــاء لنفـــسها بدايـــة جديـــدة. "برناردينو تيليسيو" (***Bernardino Telesio***)(•••) العالِم والفيلسوف الإيطـــالي وواحـــد

=الموسوعة الفلسفية والعلمية، و"القانون في الطب" تلك الموسوعة التي ظلت قيد الاستخدام في العديد من جامعات القرون الوسطى، حتى عام ١٦٥٠. إلى جانب الفلسفة والطـــب، شـــملت كتابات ابن سينا علم الفلك والكيمياء والجغرافيا والجيولوجيا وعلم النفس واللاهوت الإسلامي، والمنطق، والرياضيات، والفيزياء، والشعر. [المترجم]

(•) الأفلاطونية الحديثة هو مصطلح حديث يستخدم لوصف تقليد فلسفي نشأ في القـــرن الثالـــث الميلادي حتى بعد وقت قصير من إغلاق الأكاديمية الأفلاطونية في أثينا عام ٥٢٩ على يـــد جستنيان الأول. رغم صعوبة اختزال مدرسة فكرية في مجموعة موجزة من الأفكـــار إلا أن الأفلاطونية الحديثة تتشارك في وصف اشتقاق الحقيقة كلها من مبدأ واحد، "الواحـــد". ولكـــن توجد اختلافات كبيرة في وجهات نظر فلاسفتها ومناهجهم. يعتبر أفلوطين، تقليـــديا مؤســـسًا للأفلاطونية الحديثة، ومفكرو المدرسة هم من انتقدوه وردوا على أفكاره. [المترجم]

(••) سليمان بن جبيرول (أبو أيوب سليمان بن يحيى بن جبيرول) الشاعر الأندلسي فـــي القـــرن الحادي عشر، والفيلسوف اليهودي من الأفلاطونيين الجدد. نشر أكثر من مائة قصيدة، فضلا عن تفسير الكتاب المقدس، وأعمال في الفلسفة والأخلاق والسخرية. فـــي القـــرن الـ١٩ تـــم اكتشاف أن مترجمي القرون الوسطى استخدموا اسما لاتينيا لجبيرول هـــو ابـــن ســـيبيرون (*Avicebron*). المعروف في تاريخ الفلسفة اعتقاد ابن جبيرول في أن جميع الأشياء تتكـــون، بما في ذلك الروح والعقل، من المادة، وتوكيده على الإرادة الإلهية. [المترجم]

(•••) برناردينو تيليسيو (١٥٠٩-١٥٨٨) الفيلسوف الإيطالي والعالم الطبيعي. رغم أن نظرياتـــه الطبيعية ثبت بطلانها لاحقا، فإن تشديده على أهمية الملاحظة العلمية، يجعلـــه مـــن "أوائـــل العلماء المحدثين" الذين طوروا في نهاية المطاف المنهج العلمي. [المترجم]

من أوائل الذين عارضوا أفكار أرسطو التي سادت العصور الوسطى، في عمله "حول طبيعة الأشياء" (*Rerum Natura*) تولى مهمة رد كل الأحداث الطبيعية إلى فعل القوانين الطبيعية وبحث عن تفسير لكل تبديات الكون بواسطة حركة عناصره، وهكذا اقترب على الأقل من مفهوم النشوء والارتقاء الشامل في الطبيعة. ومع ذلك قبل كل شيء يجب علينا هنا تذكر أن "جيوردانو برونو" في خطه الموحد للتفكير انعكست بوضوح فكرة النشوء والارتقاء. برونو الذي عاد في صياغته لشكل مذهبه إلى أفكار "ديموقريطس" (*Democritus*) والذريين القدماء وجمع أفكارهم مع مفهوم كوبرنيكس للكون و–متتبعا أثر خطوات الإبيقوريين– وصل إلى قناعة بأن الكون لا حدود له، وهي الفكرة التي كانت مجهولة بوضوح لكوبرنيكس حيث إنه صور الكون محدودًا بدائرة من النجوم الثابتة. تعدد الأشكال التي تظهر فيها المادة ينشأ كما يرى فيلسوف الطبيعة الإيطالي الكبير من تلقاء نفسه دون أي باعث خارجي. لذا يجادل "برونو" بأن "المادة ليست لا شكل لها؛ بل هي تُخفي داخل نفسها بذرة كل الأشكال، وحيث إنها تطلق ما تحمله مخبوءا داخلها فهي في الواقع أم الطبيعة وكل الأشياء الحية".

أيضا، الفيزيائي والتجريبي الفرنسي "جاسندي" (*Gassendi*)(*) يستولى على مذهب إبيقور (*Epicurus*) وينسب أصل العالم إلى لعب الذرات، التي كما يعتقد قد وُهبت بالقدرة على الحركة الذاتية. فهو يرى في الذرة الجزيئات الأولية لكل الأشياء التي ينشأ خارجا منها كل شيء ويتحرك صوب الاكتمال. من المثير أن تلاحظ قدر

(*) بيير جاسندي (١٥٩٢–١٦٥٥) الفيلسوف، والكاهن، والفلكي، وعالم الرياضيات الفرنسي. في حين شغل منصبًا كنسيًا في جنوب شرق فرنسا، كان أيضا عالما يعتمد على الرصد النشط، حيث نشر البيانات الأولى عن عبور عطارد في ١٦٣١. سميت الفوهة القمرية جاسندي على اسمه. له العديد من المؤلفات الفلسفية، وعمل على إيجاد وسيلة بين الشك والدوجما. يشير ريتشارد بوبكين إليه كواحد من أوائل المفكرين في صياغة "النظرة العلمية" الحديثة، الشك المحكوم والتجريبية. اصطدم مع معاصره ديكارت حول إمكانية المعرفة الأكيدة. صاحب مشروع فكري معروف حاول التوفيق فيه بين المذهب الذري الأبيقوري والمسيحية. [المترجم]

قوة أفكار فلاسفة الطبيعة الإغريق القدماء، التي استيقظت فجأة إلى حياة جديدة، لتسيطر على أحسن العقول منذ وقت طويل قبل اكتشافات كوبرنيكس إلى زمن الموسوعيين الفرنسيين (*French encyclopedists*)(•). ولهذا كان عمل "لوقريطس" في زمن "فولتير" (*Voltaire*) بين أيادي كل المتعلمين. وبشكل مكشوف كانت تعاليم الذريين القدماء هي التي طرحت بشكل رئيسي على مفكرين مثل "ديكارت" (*Descartes*)(••) و"جاسندي" وآخرين فكرة أن التطور التدريجي هو أساس كل الأحداث في الطبيعة. ولا نستطيع المرور من هنا ونتجاوز المفكر اليهودي اللامع "باروخ سبينوزا" (*Baruch Spinoza*)(•••) الذي فسر كل ظواهر العمليات الكونية

(•) الموسوعة الفرنسية، أو القاموس المنهجي للعلوم والفنون والحرف هي موسوعة عامة صدرت في فرنسا بين ١٧٥١ و١٧٧٢، مع ملاحق، وطبعات منقحة، وترجمات. كتبها العديد من الكتاب. وحررها دينيس ديدرو. كان لورن دالمبير محررا مشتركا حتى عام ١٧٥٩. الموسوعة هي أشهر تمثيل لفكر التنوير. ووفقا لدنيس ديدرو هدف الموسوعة كان "تغيير طريقة تفكير الناس". وقال إنه والمساهمين الآخرين دعوا إلى علمنة التعلم بعيدا عن اليسوعيين. أراد ديدرو دمج كل معرفة العالم في الموسوعة وكانت أول موسوعة عامة تصف الفنون الميكانيكية. [المترجم]

(••) رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) فيلسوف فرنسي، عالم رياضيات، وعلوم. وضع ديكارت الأساس لعقلانية أوروبا في القرن الـ١٧، التي دعا إليها باروخ سبينوزا وغوتفريد لايبنتز لاحقا، وعارضها فلاسفة الفكر التجريبي مثل هوبز، ولوك، وبيركلي، وهيوم. لعب لايبنتز وسبينوزا وديكارت دورا جيدا في الرياضيات فضلا عن الفلسفة، كذلك ساهم ديكارت ولايبنتز إلى حد كبير في العلم. عبارته الفلسفية الأشهر هي "أنا أفكر، إذن أنا موجود" وردت في الجزء الرابع من كتابه مقال عن المنهج (١٦٣٧) والجزء الأول من مبادئ الفلسفة (١٦٤٤). [المترجم]

(•••) باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) فيلسوف هولندي من اصل السفارديم البرتغاليين. اتساع وأهمية عمل سبينوزا لم يدركا بالكامل إلا بعد موته بسنوات، من خلال إرسائه لأسس التنوير في القرن الـ١٨ بما في ذلك المفاهيم الحديثة للنفس والكون ونقده الكتاب المقدس بشكل حديث، لذلك هو يعتبر واحدا من العقلانيين الكبار في الفلسفة. أعظم ما أبدعه هو كتابه "الأخلاقيات" الذي عارض فيه ثنائية ديكارت "العقل والجسم". قال عنه هيجل: "أنت إما اسبينوزي أو لا فيلسوف على الإطلاق". طور سبينوزا أفكارًا مثيرة للجدل فيما يتعلق بصحة الكتاب المقدس العبرية والطبيعة الإلهية. السلطات الدينية اليهودية حرمته من المجتمع=

بوصفها تدين للضرورة الصريحة، ولم يمتلك فقط مفهوما عن فكرة عمومية للنشوء والارتقاء، ولكنه توقع بعض أكثر فرضياتها جوهرية مثل الدافع الذاتي للبقاء.

عشية الثورة الكبرى كانت فرنسا مركز التطور الجديد في الفكر البشري الذي اختص عن حق بوظيفة المقدمة الفكرية للزلزال الاجتماعي اللاحق. الآراء القديمة عن الكون والإنسان، عن الدولة والمجتمع، عن الدين والأخلاقيات مرت بتحول جوهري. كان نشر الموسوعة الشهيرة محاولة مصطنعة لاخضاع كامل جسد المعرفة البشرية لفحص صارم من أجل التقدم بمذهب النشوء والارتقاء. في الواقع، نجد بين صف كامل من المفكرين في فترة الاختمار تلك بشكل أو بآخر بدايات محددة نحو نظرية النشوء والارتقاء، التي ألهمت الأبحاث اللاحقة. حاول "موبيرتوي" (***Maupertuis***) أن يروي أصل الحياة العضوية من الذرات الموهوبة بالحساسية. "ديدرو" العقل الأكثر شمولا في هذه الفترة، تكفل بالتقاط أصل وصياغة الأديان والمفاهيم الأخلاقية والمؤسسات الاجتماعية بوصفها تطورًا متدرجًا، ولديه كأسلاف في هذا الميدان مفكرون مثل "بودان" (***nBodi***) و"بيكون" (***Bacon***) و"باسكال" (***Pascal***) و"فيكو" (***Vico***). مضى "كوندروسيه" (***Condorcet***) و"لسنج" و"هردر" على نفس الخطوط المماثلة ورأوا في كامل التاريخ البشري مسيرة تحول دائمة من الأدنى إلى الأكثر تركيبا والأشكال الأعلى من الثقافة.

أدرك "لامتري" (***La Mettrie***) أننا لا نعرف شيئا جوهريا عن طبيعة الحركة والمادة، ولكن هذا الإنسان رغم ذلك يحتل موقعا يستطيع أن يحدد منه بواسطة الملاحظة الفرق الوحيد بين المادة العضوية وغير العضوية؛ أي أن الأخيرة منضبطة ذاتيا ولكن نتيجة لهذا السبب نفسه تستنفد قواها الحيوية وتتحلل بعد موت الكائن الحي إلى مكوناتها غير العضوية. وبالضبط حيث إن العضوي يتطور من

=اليهودي في سن ٢٣. في وقت لاحق وضعت الكنيسة الكاثوليكية كتبه في قائمة الكتب المحرمة. عاش سبينوزا حياة بسيطة ظاهريا كصانع عدسات، رافضا المكافآت والتكريم طوال حياته، بما في ذلك وظائف التدريس المرموقة. توفي سبينوزا في سن ٤٤ من مرض الرئة. دفن سبينوزا في باحة الكنيسة المسيحية الجديدة في كيرك بلاهاي. [المترجم]

غير العضوي، لذا يتطور العقلي من باطن العضوي. طبقا لنظرية "لامتري" تخضع كل أشكال الوجود الأعلى للقوانين نفسها تماما كما كامل الطبيعة العضوية وغير العضوية. لذلك لم يضع لامتري حدودا مصطنعة بين الإنسان والوحش ورأى في كليهما فقط نتائج مختلفة لنفس العمليات الطبيعية. وصل "روبينيه" (***Robinet***) لاستنتاجات مماثلة وتمسك بالموقف القائل إن كل وظائف المخ تعتمد على وظائف الجسد تلك. "هولباخ" (***Holbach***) في كتابه "نظام الطبيعة" (***Systeme de la nature***) جمع معا هذه الآراء المختلفة وانطلق من خطوط فكرية مادية بصرامة وطور فكرة التكوين المتدرج لمختلف الأشكال الحية على قاعدة نفس القوانين الطبيعية المنتظمة.

في ألمانيا "لايبنيتز" (***Leibnitz***) الذي حاول مواجهة مادية المفكرين الفرنسيين عرّض نفسه مرارا لهجمات "لامتري" والمتعاطفين معه. إلا أن نظريته في "الكائنات الحية الدقيقة أحادية الخلية" (***theory of monads***) التي تمتلك نقاط اتصال لا تُخطَأ مع آراء علم الأحياء المعاصر قادته أيضا إلى فكرة التكوين المتدرج للكون، التي أشار إليها في مرات كثيرة دعاة نظرية النشوء والارتقاء. حتى كانط كان لديه فهم لفكرة النشوء والارتقاء أوضح من لايبنيتز عندما أكد في كتابه "التاريخ الطبيعي العالمي ونظرية السماء" (***Allgemeine Naturgeschichte und Theorie des Himmels***) أن كامل نظام الكون نشأ من سدم دوارة، وحركة فوضوية للمادة الأولية اتخذت تدريجيا مدارات دائمة وثابتة. رأى كانط في الكون أنه جاء نتيجة لعمليات القوى الفيزيائية والميكانيكية واقتنع بشدة أن الأفلاك قد تشكلت تدريجيا بنفسها من داخل الفوضى وفي سياق فترة هائلة من الزمن سوف تغوص فيها مرة أخرى وتبدأ العملية من جديد. لقد رأى العالم مثل لعبة مستمرة من التكون والتحلل. هيجل أيضا رأى في مسار الطبيعة عملية لا تنقطع من التطور وبالطريقة الميتافيزيقية التي يختص بها وحده، نقل كل هذه الأفكار إلى التاريخ البشري؛ يدين بنفوذه أساسا على معاصريه بسبب هذه الحالة. لقد كانت نظرية النشوء والارتقاء فعلا وبشكل لا يُخطَأ حاضرة في الجو. سوف تقودنا الفكرة بعيدا جدا حتى تتطور بشكل أكثر اكتمالا إلى الدرجة التي ساعد بها مفكرون مثل "مالبيجي" (***Malpighi***) و"مالبرانش" (***Malebranche***) و"بونيه" (***Bonnet***) وآخرين، كل بطريقته في تطورها. كلمة "نشوء وارتقاء" (***evolution***) كانت متكررة الاستخدام بين رجال العلم في النصف

الأول من القرن الثامن عشر؛ وهو برهان على أن فكرة النشوء والارتقاء استقرت بالمزيد والمزيد في أفكار البشر.

من بين رواد النظرية الحديثة للنشوء والارتقاء بالطريقة التي عبر عنها داروين (***Darwin***) وخلفاؤه العديدون، يستحق الفيلسوف الطبيعي الفرنسي "بيفون" (***Buffon***) اعتبارا خاصا لأن آراءه يجب التفكير بها كنتائج لتأملات فلسفية أقل منها نتائج تجارب عملية وبحث جاد ومنهك. بيفون كان واحدا من أكثر الرجال المثقفين في زمنه، والمغزى الكامل للعديد من استلهاماته لم تُدرك بشكل صحيح إلا بعد مرور زمن طويل. لم يكن كتابه "التاريخ الطبيعي" (***Natural History***) مجرد محاولة موضوعة تصوراتها بشكل عظيم من أجل تفسير عقلاني لمسار الأحداث في الكون؛ لقد طورت هذه المحاولة أيضا في ميادين عديدة أخرى أفكارا مثمرة عظيمة عديدة. وهكذا صوَّر بالأمثلة العملية إمكانية نشوء أسباب متعددة تؤدي إلى تبدل أصناف النبات والحيوان – فكرته كانت شبيهة تماما بفكرة داروين فيما بعد. اعترف بيفون أيضا أن عملية النشوء والارتقاء لا يمكن لها أن تصل إلى نهاية محددة، واستنبط من ذلك أن العلم سوف يكون قادرا بالاختبارات والملاحظات أن يؤسس دون شك تبديات معينة لهذا النشوء والارتقاء. لذلك من السهل أن نفهم كيف يستطيع إنسان بمثل هذه المواهب الرائعة أن يمتلك مثل هذا النفوذ العظيم على مفكرين مثل جوته و"لامارك" (***Lamarck***)(*) و"سانت هيلير" (***Saint-Hilaire***)(**).

(*) جان باتيست بيير أنطوان دي مونيه، الفارس دي لامارك (١٧٤٤-١٨٢٩)، عالم الطبيعة الفرنسي، والجندي وعالم الأحياء والأكاديمي، وأحد الدعاة الأوائل لفكرة أن التطور حدث ويسير وفقا للقوانين الطبيعية. أعطى مصطلح البيولوجيا معنى أوسع ويمتلك بصمته في عدد من العلوم خاصة، الكيمياء، وعلم الأرصاد الجوية، والجيولوجيا، وعلم النبات، وعلم الحيوان. [المترجم]

(**) أوغستين فرانسوا سيزار برونسفال سانت هيلير (١٧٧٩-١٨٥٣)، عالم النبات والرحالة الفرنسي. كان له الفضل في تحقيق اكتشافات هامة في علم النبات. في رحلته البرازيلية الأولى، ١٨١٦-١٨٢٢ سافر نحو ٩,٠٠٠ كم من شمال شرق البرازيل إلى ريو دي لا بلاتا. جمع ٢٤٠٠٠ عينة من النباتات، من ٦٠٠٠ نوع، ٢٠٠٠ من الطيور، ١٦,٠٠٠ من الحشرات و١٣٥ من الثدييات مع العديد من الزواحف والرخويات والأسماك. معظم هذه الأنواع تم وصفها لأول مرة. في السنوات التالية كرس نفسه لدراسة وتصنيف ووصف ونشر

في بداية القرن التاسع عشر وجدت فكرة النشوء والارتقاء في كل مكان طريقها إلى كل العقول غير المنحازة لموقف مسبق. كان أكثر المدافعين عنها تميزا في ذلك الوقت هو جوته، الذي اجتمعت في شخصيته اللامعة، بأسعد الطرق، النظرة النبوئية للشاعر مع موهبة الملاحظة الرزينة والدقيقة للباحث. أثرت بقوة دراسة "بيفون" للتاريخ الطبيعي على جوته الذي طور مبكرا في ١٧٩٠ أفكارا في عمله "عن التحول في النباتات" (***über Die Metamorphose der Pflanzen***) الذي يقع بشكل كامل داخل خط تفكير نظرية انحدار السلالات؛ عندما تتبع أصل كل عضو في النبات إلى "التحور في الشكل" (***metamorphosis***)، أي إلى تكيف العضو المنفرد، ورقة النبات – الفكرة التي طرأت لاحقا عند "لامارك". طبق جوته نفس الأفكار على عالم الحيوان أيضا وأعطانا في نظريته عن "الفقاريات" (***vertebrate***) نموذجا رائعا ليقظة الملاحظة الحادة. أكثر من ذلك مفهوم جوته عن التغييرات الجيولوجية في سطح القشرة الأرضية احتوى على العديد من الأفكار التي فقط عمل عليها وأسسها لاحقا بشكل جوهري علماء مثل "لييل" (***Lyell***) و"هوف" (***Hoff***).

أحد الرواد المتفردين لنظرية النشوء والارتقاء كان "إرازموس داروين" (***Erasmus Darwin***)، جد "تشارلز داروين"، الذي (دون شك متأثرا بلوقريطس) في قصيدته التربوية الشاملة، "مملكة الحيوان" (***Zoonomia***) حاول أن يروي أصل الكون وكل الحياة على الأرض طبقا لأساس تاريخي–تطوري، وطرح عديدًا من الأفكار التي جاءت بشكل مدهش قريبة من رؤيتنا المعاصرة.

فيلسوف الطبيعة الألماني "تريفيرانوس" (***Treviranus***) في عمله "علم الأحياء: أو فلسفة الطبيعة الحية" (***Biologie: oder die Philosophie der lebenden Natur***) الذي ظهر في أعوام ١٨٠٢–١٨٠٥، دافع عن فكرة أن كل الكائنات الحية الأعلى قد تطورت من عدد صغير من الأشكال الأصلية البدائية وأن كل شكل للحياة

=هذه المادة الضخمة، ولم يمنعه سوى اعتلال الصحة بسبب الأمراض التي أصيب بها خلال رحلاته المدارية. حصل على وسام جوقة الشرف الفرنسي، ووسام المسيح البرتغالي. [المترجم]

هو نتيجة تأثيرات مادية تختلف فقط في اتجاه ودرجة فعالية عملها. "لورينز أوكن" (*Lorenz Oken*) المعاصر لجوته، وبشكل مستقل عنه تماما، طوَّر رؤية أن جمجمة الرأس تتألف من فقرات وهي مجرد استمرار للعمود الفقري، واستنتج أن كل كائن حي يتشكل من خلايا وأن كل الحياة العضوية على الأرض قد نشأت من "بلازما أولية" (*primal plasma*). أقدم "أوكن" أيضا على محاولة إعادة تصنيف كامل المملكة الحيوانية والنباتية بناء على سلالاتها.

انتهى هذا الصف الطويل من المفكرين الجسورين في كل أمة، الذين يُطلَق عليهم عن حق رواد النظرية الحديثة للنشوء، والارتقاء إلى عالِم الحيوان الفرنسي "لامارك" الذي يبقى رائدا ولكنه الأكثر تأثيرا. في كتابه "فلسفة علم الحيوان" (*Philosophie zoologique*) الذي ظهر في ١٨٠٩، جمَّع لامارك بشكل أو بآخر الأفكار المتطورة لسابقيه معا ومع نظرياته الخاصة وأعطاهم أساسا علميا محددا. هاجم لامارك مذهب عدم تبدل الأنواع واستنتج أن الأنواع فقط لا تبدو لنا قابلة للتعديل والتبدل بسبب أن عملية التحول تدريجية جدا لدرجة أننا لا نحيط بها خلال فترة عمر الإنسان القصيرة. إلا أن هذه التحولات غير قابلة للجدل ومشروطة بتبدلات في الطقس ووسائل المعيشة من أجل الحفاظ على البقاء وظواهر بيئية أخرى. ومنه يستنتج أن:

> **إنها ليست الأعضاء، أي، طبيعة وتركيب أجزاء جسد الحيوان التي ينتج عنها طباع وقدرات الحيوان الخاصة؛ ولكن على العكس، إنها عاداته وأسلوب حياته والشروط التي يُرغَم أفراد الحيوان المنحدر منها على العيش في ظلها، هي التي تحدد في توقيتها المناسب التركيب الجسماني له، وعدد وحالة كل عضو من أعضائه وقدراته.**

الرجعية الكبرى التي كانت ملحوظة في كل أنحاء أوروبا بعد الحروب النابليونية والتي في زمان الحلف المقدس للذكرى التعيسة لم تمارس فقط تأثيرا مكبلا على كامل الحياة الاجتماعية والسياسية، ولكنها أيضا وضعت قيدا على أفكار البشر وأنشأت سدا ضد مزيد من التوسع في مذهب النشوء والارتقاء، وهو السد الذي كان

ينبغي تحطيمه أولا قبل القدرة على التفكير في أي مزيد من التقدم في هذا الاتجـاه. سقطت الفنون والعلوم والفلسفة تحت مِلكية المسار الرجعي للأفكار، وكان لا بد مـن ميلاد روح جدِيدةٍ في أوروبا قبل أن يُخلَق دافع جديد داخل نظرية النشوء والارتقاء. كانت هناك قبسات من نور في تلك الفترة الطويلة من الركود الفكري، وكـان مـن النادر حتى الانتباه لومضات النور هذه. ولهذا طور العالِم الإنجليزي "دابليـو سـي ويلز" (*W. C. Wells*) مبكرا في عام ١٨١٣ بـبعض الوضـوح فكـرة الانتخـاب الطبيعي. أدرك "ويلز" أن البشرة الداكنة جعلت البشر أقدر علـى احتمـال مخـاطر المناخ الاستوائي، ومن ذلك استنبط أن من الأصل أصبح هؤلاء الأفراد فقط قـادرين على البقاء في المناطق الاستوائية لأن الطبيعة لسبب أو لآخر أسبغت علـيهم نعمـة هذه البشرة الداكنة. بالطبع حصر "ويلز" نفسه في أبحاثه على أنواع معينة ولم يقـدم على محاولة اختبار الصلاحية العامة لفكرته.

أكثر الأشياء أهمية التي ظهرت في تلك الفترة المظلمة ، كان عمـل "مبـادئ الجيولوجية" (***Principles of Geology***) "لتشارلز ليل" (***Charles Lyell***)(*) الذي ظهر في عام ١٨٣٠. هذا العمل، الذي هاجم فيه الجيولوجي الإنجليزي نظريـة النكبـات (***theory of cataclysms***) عند كوفييه (***Cuvier***)، كان برهانا على المغزى الجوهري لمزيد من تشكل نظرية النشوء والارتقاء. كانت سلطة مكانة "كوفييـه" فـي مجـال

(*) سير تشارلز ليل (١٧٩٧-١٨٧٥) محام بريطـاني وجيولـوجي. مؤلـف كتـاب مبـادئ الجيولوجيا، الذي أشاع به مفاهيم جيمس هوتون عـن أن الأرض شـكلتها نفـس العمليـات الصامتة الجارية اليوم. كتاب مبادئ الجيولوجيا بالتالي طعن في سـلامة نظريـات جـورج كوفييه ذات الشعبية والتي كانت أكثر الأفكار حول الجيولوجيا قبولا في إنجلتـرا فـي ذلـك الوقت. شملت إسهاماته العلمية تفسير الزلازل، ونظرية "البناء" التدريجي للبراكين، وتقـسيم فترة طبقات الأرض إلى العصر الحديث، وعصر الميوسين، والإيوسين. ولذلك فقـد صـاغ الأسماء المستخدمة حاليا للعصور الجيولوجية: حقب الحياة القديمة، الدهر الوسـيط وحقـب الحياة الحديثة. ليل يعتقد أن عمر العالم أقدم من ٣٠٠ مليون سنة. كان صـديقًا مقربًـا مـن تشارلز داروين، وساهم بشكل كبير في فكرة داروين عن العمليات التي ينطوي عليها التطور. ساعد في ترتيب نشر أوراق داروين وألفريد راسل والاس عن الانتقاء الطبيعـي فـي عـام ١٨٥٨ رغم مخاوفه الدينية الشخصية حول النظرية. [المترجم]

التاريخ الطبيعي وقتها ما زالت فوق مستوى الجدل. الآن نجح "ليل" في تأكيد أن كل التغيرات في سطح الأرض تقع ليس بسبب كوارث مفاجئة ولكن نتيجة عملية لا تتوقف من نفس القوى التي هي حتى اليوم ما زالت تعمل بشكل مستمر. هذه النظرية التي كان جوته فعلا قد افترضها، كانت فرضية ضرورية لكل الخط التاريخي التطوري من التفكير. فقط بواسطة هذه الوسائل من التفكير أصبحت فكرة التعديل التدريجي للأنواع وتكيُّفها مع التبدلات التدريجية في قشرة الأرض، فكرة واضحة بشكل صحيح وقابلة للتصور بشكل علمي.

في نفس العام الذي خرج فيه عمل "ليل" إلى الجمهور أُجريَت في أكاديمية باريس المناظرة المشهورة بين "كوفييه" و"سانت هيلير" وهي المناظرة التي تابعها جوته باهتمام يقظ رغم أنه كان طاعنا جدا في السن. دافع كوفييه عن مذهب ديمومة الأنواع بينما تكفل سانت هيلير بالبرهنة على تبدل الأنواع من خلال التكيف مع الظروف البيئية. ولكن روح الزمن كانت ضد هيلير، وخرج كوفييه من المناظرة منتصرا أمام المجتمع العلمي في جدل مثقف لم يخلُ من التفاهة. كل من كان مشاركا في هذا المجال العلمي وقف في صف كوفييه ولم يمنح سوى الازدراء والكراهية لخصمه. وبدا كما لو أن نظرية النشوء والارتقاء قد قامت لمرة واحدة وإلى الأبد، لأن مذهب كوفييه يكاد لم يهاجمه أحد طيلة العقود الثلاثة التالية. (حتى بعد ظهور عمل داروين الذي صنع عهدا جديدا، ردد المتخصصون في فرنسا وألمانيا والبلدان الأخرى في وضع الفكرة التي قام داروين بتطويرها هنا في بؤرة الاهتمام، ومر وقت طويل قبل أن يصبحوا قادرين على اتخاذ قرار لتمحيص النظرية الجديدة جديا).

كذلك فكرة الانتخاب الطبيعي بين الكائنات العضوية لم تلق قبولا، والتي عبَّر عنها الباحث الإنجليزي "باتريك ماتيو" (***Patrick Matthew***) في ملحق كتابه عن "بناء السفن وثقافة السكان الأصليين". بدا في الواقع أن نظرية النشوء والارتقاء قد ماتت. فقط مع انحسار الرجعية الاجتماعية والسياسية في أوروبا وانهيار مذاهب هيجل عاد مرة أخرى الطلب على التفكير العلمي في أوروبا إلى سيرته الأولى. ثم

استيقظت نظرية النشوء والارتقاء في حياة جديدة وحتى قبل ظهور عمل داروين، ووجدت مدافعين شجعانًا عنها في رجال مثل "سبنسر" (*Spencer*) و"هكسلي" (*Huxley*) و"فوجت" (*Vogt*)(•) و"بوخنر" (*Buchner*) وآخرين.

كان النصر الحاسم لمذهب النشوء والارتقاء هو ظهور عمل داروين العظيم في عام ١٨٥٩ "أصل الأنواع بوسيلة الانتخاب الطبيعي" (*The Origin of Species By Means of Natural Selection*)؛ ومن الجدير بالملاحظة وعلى صلة بالموضوع، داروين لم يكن متخصصا بالمعنى المعتاد، ولكن ربما يقول المرء، قد كرَّس نفسه للعلم الطبيعي كهواية. نواجه هنا نفس الظاهرة التي نستطيع ملاحظتها مرارا متصلة بالاكتشافات العظيمة والإنجازات الفكرية الثورية، والتي توفر فقط مزيدًا من البرهان على أنه في كل ميدان تؤدي السلطة إلى التكلس والعقم، بينما الانطلاق الحر للأفكار هو دائما المُبدِع.

وبشكل معاصر لداروين، الإنجليزي "ألفرد راسل والاس" (*Alfred Russell Wallace*)(••) عالِم الحيوان الذي كان يواصل أبحاثه في "بورنيو" (*Borneo*) وصل

(•) كارل كريستوف فوجت (١٨١٧ – ١٨٩٥) عالم ألماني نشر عددا من الأعمال البارزة في علم الحيوان والجيولوجيا وعلم وظائف الأعضاء. اشتغل بالسياسة طوال حياته، عضو في برلمان فرانكفورت الألماني في (١٨٤٨– ١٨٤٩) وفي وقت لاحق برلمان سويسرا. يذكر تشارلز داروين دعم فوجت لنظرية التطور في مقدمة كتابه أصل الإنسان. نشط فوجت في السياسة الألمانية وكان ممثل الجناح اليساري في برلمان فرانكفورت. انتقد كارل ماركس هجمات فوجت عليه في كتابه "هير فوجت". كان كارل فوجت من دعاة التطور متعدد الأجناس. رفض معتقدات معظم الداروينيين في وحدة الجنس، وبدلا من ذلك اعتقد أن كل جنس قد تطور من نوع مختلف من القرود. يعتقد فوجت أن الزنجي له علاقة بالقرد! [المترجم]

(••) ألفرد راسل والاس (١٨٢٣–١٩١٣) مستكشف، عالم الجغرافيا، والطبيعة، وعلم الأحياء البريطاني. والاس أحد مفكري التطور الرواد في القرن ال١٩ ومساهم في تطوير نظرية النشوء والارتقاء إلى جانب كونه مشاركًا في اكتشاف الانتقاء الطبيعي. وضع تصورًا مستقلاً لنظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي. نشرت ورقته حول هذا الموضوع مصاحبة لكتابات تشارلز داروين في ١٨٥٨. دفع هذا داروين للإسراع بنشر أفكاره في كتاب "أصل=

إلى النتائج نفسها، مؤسسا بشكل مستقل نظرية الانتخاب الطبيعي بنفس الطريقة التي وضعها بها داروين. ولكن الأخير [داروين] في مجرى بحثه المطول جمع مثل هـذه الثروة من المادة وقام بمراجعتها وصقلها بمثل هذه العبقرية مما جعل "والاس" يخطو للخلف ويتنازل عن الأسبقية لصديقه.

شرع داروين في العمل بحذر شديد مع نتائج خبرته الغنية تلـك التـي حقـق معظمها خلال رحلته الشهيرة حول العالم على متن سفينته "بيجـل" (*Beagle*) بـين عامي ١٨٣١ و١٨٣٦، وهو يحمي نفسه من أي تعمـيم قـد لا يـصمد أمـام أي اعتراض تافه. لهذا كاد يمضي ربع قرن قبل أن يطرح عمله أمام الجمهـور. وفـي نفس الأثناء لم يدخر وسعا ولكنه تبادل الرأي بجد مع مربى الـسلالات وأصـحاب "ذكور التزاوج" (*breeders and husbandmen*) لمعرفة ماذا قد علمـتهم التجـارب. التجارب التي جرت على الحيوانات الأليفة والنباتات المزروعة في مجرى التهجـين الاصطناعي خدمته في تأكيد استنتاجه بأن عمليات مماثلة تحدث في الطبيعة وتـؤدى إلى نشأة أنواع جديدة. لذا كان قادرا بثقة كاملة على أن يدع العـالم يعـرف نتـائج أبحاثه الطويلة ودعم استنتاجاته بمصفوفة لا تنفذ من الحقائق.

وصل داروين إلى استنتاج يقول إن تبدل الأنواع في الطبيعة ليس الاسـتثناء، بل هو القاعدة. ملاحظاته اقنعته بأن الأنواع ذات العلاقة تنحدر من شكل مشترك من السلف، وأن الاختلافات فيما بينها حدثت في مجرى الزمن بواسطة ظروف متغيـرة في الحياة والهجرات والتغيرات في عادات الأكل وتغيرات في الطقس. وقد دعم هذه الرؤية أساسا بأبحاث في علم الأجنة أظهر بها أن الاختلاف بين أجنة أجناس متنوعة من الحيوانات هي أصغر كثيرا من الاختلافات بين أفراد أجناس الحيـوان مكتملـة

=الأنواع". قام والاس بعمل ميداني واسع في حوض نهر الأمازون وفي أرخبيل الملايـو. خبيـر بارز في القرن الـ ١٩ في التوزيع الجغرافي للأنواع الحيوانية ويسمى أحيانا "والد الجغرافية البيولوجية". كان والاس أيضا ناشطا اجتماعيا انتقد ما اعتبره النظام الاجتماعي والاقتصادي الجائر في بريطانيا القرن الـ ١٩. اهتمامه بالتاريخ الطبيعي جعله من أوائل العلماء البارزين الذين يثيرون المخاوف من الأثر البيئي للنشاط البشري. [المترجم]

التطور. ولهذا كانت هناك أهمية خاصة في اكتشاف أن الأعضاء التي تخدم نفس الغرض تمتلك في الجنين أشكالاً مماثلة تماما حتى رغم أنها ربما لاحقا، في الأنواع المختلفة، تمتلك مظاهر مختلفة تماما - وهي الحقيقة التي يمكن أن تجد تفسيرها الوحيد في أن الأنواع المختلفة قد خرجت من أصل مشترك واحد. هذه التغيرات التي ظهرت لاحقا تنتقل تدريجيا إلى الأبناء والأحفاد، بطريقة ما حتى أن كامل تسلسل الصفات المكتسبة يتكرر في الجنين.

أدرك داروين أن تكيف الكائنات الحية المختلفة مع بيئتها هو قانون الحياة الأكثر أهمية، وأن الأنواع والأفراد يحافظون على استمرارهم فيما يُسمى "الصراع من أجل البقاء" بسهولة أكبر نسبيا كلما امتلكوا القدرة على تكييف أنفسهم مع الظروف البيئية. وهكذا، نظرية الانحدار ومذهب الانتخاب الطبيعي كانا هما حجري الزاوية لفكرة النشوء والارتقاء الحديثة وفتحا أعرض الآفاق أمامها داخل كل حقل من حقول البحث الإنساني. دونهما كان من المستحيل الوصول إلى النتائج الرائعة لعلم الأنثروبولوجي والفسيولوجي وعلم النفس والاجتماع وغيرها من العلوم. الانطباع الذي نتج عن كتاب داروين كان مدويا بشدة. كانت فكرة النشوء والارتقاء غريبة بشكل مطلق بالنسبة للناس خلال فترات الرجعية السياسية والفكرية للدرجة التي جعلت معظم الدارسين يعتبرونها ليست سوى أكثر قليلا من قصة خرافية. يستطيع المرء أن يفهم التأثير القوي لنظرية داروين على عصره فقط إذا ما نظر المرء لما كان يتوجب على الباحثين المشهورين من معاصريه قوله عن هذه النظرية. لذا، يعلن "فايسمان" (*Weisman*)، في "عرض عن نظرية اللياقة" (*Vorlrdge uber die Deszenztheorie*):

> **لا يستطيع المرء فهم تأثير كتاب تشارلز داروين أصل الأنواع إذا لم يكن يعرف كيف هجر أساتذة علم الأحياء تماما المشاكل العمومية في ذلك الوقت. أستطيع إخباركم فقط أننا شباب هذه الفترة الذين كانوا على مقاعد الدراسة في الخمسينات، لم يكن لديهم أي شك أبدا في أن هناك نظرية للنشوء والارتقاء مطروحة، لأنه لم يكن هناك أحد**

يتحدث عنها، بل وحتى لم يأت عليها ذكر في المحاضرات. لقد كان الأمر كما لو أن المدرسين في جامعاتنا قد سكروا حتى الثمالة من نهر النسيان وغفلوا عن حقيقة أن مثل هذا الأمر قد يصبح محل نقاش أبدا، أو حتى كما لو أنهم قد خجلوا من نزهات العلم الطبيعي الفلسفية ويريدون حماية الشباب من هذا النوع من الأشياء.

في عمله الأول ترك داروين مسألة أصل الإنسان ولم يمسها عن عمد؛ يبقى أنه يكمن في طبيعة نظريته عدم احتلال الإنسان مكانا استثنائيا في الطبيعة. لذلك، لم يكن منطقيا سوى أن باحثين معروفين جيدا مثل "توماس هكسلي" (*Thomas Huxley*)(•) و"إرنست هيكيل" (*Ernst Haeckel*)(••) لابد وأن يستخرجوا من هذا الفهم المكتسب حديثا، الاستنتاج الحتمي بوضع الإنسان في مكانه كعضو في سلسلة خط طويل من الكائنات العضوية الحية. بهذا استمرت طبعا استثارة خصوم الداروينية أكثر اشتعالا ضد المذهب الجديد، خصوصا بعدما نشر "هكسلي" كتابه: "شواهد وضع الإنسان في الطبيعة" (*Evidences of Man's Place in Nature*)؛ ولكن لم تستطع العقبات قطع الطريق على الأفكار المتقدمة المنتصرة. ولم يحدث حتى عام ١٨٧١ أن اتخذ داروين، من خلال كتابه العظيم "أصل الإنسان والانتخاب الطبيعي فيما يتعلق بالجنس" (*The Descent of Man and Natural Selection with Regard to Sex*) موقفا حول هذه المشكلة المثيرة للنزاع ويجيب عليها في توافق لما جاء في عمله الأول.

(•) توماس هنري هكسلي (١٨٢٥–١٨٩٥) عالم الأحياء الإنجليزي (والتشريح المقارن). مشهور باسم "بولدوج داروين" لدفاعه عن نظرية تشارلز داروين حول النشوء والتطور. كان لهكسلي نقاش مشهور في عام ١٨٦٠ مع صموئيل ويلبرفورس وكان حاسما في قبول الجمهور لنظرية التطور. [المترجم]

(••) إرنست هاينريش فيليب أغسطس هيكيل (١٨٣٤–١٩١٩) عالم الأحياء والطبيعة الألماني. فيلسوف، وطبيب، وأستاذ جامعي، وفنان. اكتشف، ووصف وعين آلاف الأنواع الجديدة، ورسم شجرة الأنساب المتعلقة بكافة أشكال الحياة، وصاغ العديد من المصطلحات في علم الأحياء، بما في ذلك الخلايا الجذعية، والأولانيات. هيكيل روج وأشاع عمل تشارلز داروين في ألمانيا وطور نظرية الخلاصة المؤثرة التي لم تصمد على نطاق واسع، التي زعم فيها أن التطور البيولوجي للجنين يلخص التطور التدريجي للأنواع. [المترجم]

ولكن نظرية المفكر الإنجليزي الكبير كانت قد انتهت على أية حال بهذا الكتاب؛ بالضبط إلا قليلا، مثلما انتهت إليه نظرية كوبرنيكس في زمانه. بدلا، لقد أعطت نظرية داروين حافزا لأبحاث جديدة وتأملات جديدة، بواسطة هذه التأملات تم تصحيح بعض أفكار داروين والمضي قدما بالبعض الآخر من أفكاره للأمام. حقا فهم داروين بوضوح أن نظريته كانت تحتاج كثيرا إلى مزيد من العمل، ولم يعلم سوى قليلٍ جدا عن أن الأفكار هي أيضا يجب أن تمر عبر عملية محددة من التطور. وهكذا على سبيل المثال، مرت فكرة الانتخاب الطبيعي كما كانت قد تطورت بواسطة "داروين" و"والاس" في مجرى الزمن بتغيرات كثيرة حتى توضع أهميتها في علاقة صحيحة مع عوامل أخرى تتعاون معها في تعديل الأنواع. بناءً على نظرية داروين في أصل الأنواع، استطاع "سبنسر" (*Spencer*)(•) البرهنة على أن أجناسًا لا حصر لها من الحيوانات والنباتات على الأرض قد تطورت من بضعة كائنات بسيطة قليلة العدد. "هيكيل" كان قادرا على المضي إلى مدى أبعد حتى يبني شجرة عائلة لكامل المملكة الحيوانية تتضمن الإنسان أيضا. في كتابه "المنشأ الجماعي لرفاق التاريخ" (*Natürliche Schafjunges geschichte*) ألحق العالِم الألماني أهمية خاصة بقانون "الوراثة العضوية" (*biogenetic*)، طبقا لهذا التصور كان التطور الفردي للكائن الحي هو بدرجة كبيرة خلاصة موجزة وسريعة الاكتمال

(•) هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) الفيلسوف الإنجليزي، وعالم البيولوجيا، وعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، والمنظر الليبرالي الكلاسيكي البارز في العصر الفيكتوري. وضع سبنسر مفهوم التطور التدريجي للعالم المادي، والكائنات البيولوجية، والعقل البشري، وثقافة الإنسان والمجتمعات. وكان "داعية متحمسًا للتطور"، بل لقد "كتب حتى عن التطور قبل داروين". لموسوعيته، ساهم في طائفة واسعة من الموضوعات، بما في ذلك الأخلاق، والدين، والأنثروبولوجيا، والاقتصاد، والنظرية السياسية والفلسفة والأدب، وعلم الأحياء، وعلم الاجتماع، وعلم النفس. خلال حياته تحققت له سلطة أدبية هائلة، لا سيما في الأوساط الأكاديمية الناطقة باللغة الإنجليزية استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر. مشهور عن سبنسر التعبير الشائع: "البقاء للأصلح"، الذي صاغه في كتابه مبادئ علم الأحياء (١٨٦٤)، بعد قراءته لكتاب تشارلز داروين أصل الأنواع. هذا المصطلح يشير إلى قوة الانتقاء الطبيعي، ولكن امتد به سبنسر أيضًا في مجالات علم الاجتماع والأخلاق. [المترجم]

لكل التغيرات في الشكل التي مر من خلالها أسلاف هذا الجنس بأكملهم في مجـرى نشوئهم وارتقائهم الطبيعي، والمعتمد على العمليات الفسيولوجية للوراثـة (التناسـل) والتغذية. هذه الرؤية الجديدة في عمليات النشوء والارتقاء أدت بدورها إلى سلـسلة كاملة من التفسيرات الجديدة في البحث والاستقصاء العلمي في ميادين منفصلة شديدة الاتساع، والتي امتدت بها آفاق معارفنا بشكل ملحوظ جدا.

اعتقد داروين ووالاس أنهما قد وجدا تفسيرا كافيا لتبدلات الأشكال الحية فـي الانتقاء الميكانيكي للأحسن، وكانا مقتنعين أن هذا الانتقاء قد حدث نتيجة صراع دائم بين مختلف الأنواع – وأيضا داخل نفس النوع – خلال سياق يفنـى فيـه الأفـراد والأنواع الأضعف، وفقط يستطيع القوي البقاء. نحن نعرف أن داروين كان متـأثرا بشدة في تطوير نظريته بقراءة كتاب "مالتوس" (***Malthus***) عن المـشكلة الـسكانية. وقد قام لاحقا بمراجعة هذا الرأي، وخصوصا في عمله عن أصل الإنسان ووصـل جوهريا إلى نتائج مختلفة. ولكن نظرية "الصراع من أجل البقاء" كما طُرحَـت أولا، في شكل ناقص وأحادي الجانب، مارست تأثيرا قويا علـى كامـل صـف البحاثـة المرموقين، وبشكل خاص على مؤسسي ما بات يُسمى مذهب "الداروينية الاجتماعية" (***social Darwinism***). صادف أن رأى البشر في الطبيعة ميدان معركـة متوحـشا تدوس فيه أقدام الأقوى على الضعيف بلا رحمة. وفي الواقع، آمنوا أنه داخـل كـل جنس يدور نوع من الحرب الأهلية الدائمة ناشئة عن ضروريات طبيعية. في البداية رأى عدد كبير من الأكاديميين ومن بينهم "هكسلي" و"سبنسر"، المجتمع البشري على ضوء هذه الفكرة، واقتنعوا اقتناعا راسخا بأنهم يمشون على صراط قـانون طبيعـي ذي مصداقية شاملة. وهكذا أصبحت "حرب الجميـع ضـد الجميـع" عنـد هـوبز (***Hobbes***) مرة أخرى المسار الذي لا يتبدل للطبيعة، المسار الذي لا يمكن تغييـره بواسطة الاعتبارات الأخلاقية. لم يكل أنصار "الداروينية الاجتماعيـة" عـن ترديـد إعلان مالتوس الكئيب بأن مائدة الحياة لا تمتد لكل فرد. دون شك نشأت هذه الفكـرة من الاتجاه البرجوازي عند الأكاديميين دون أن يكونوا أنفسهم على علم بـه. جعـل المجتمع البرجوازي من مبدأ المنافسة الحرة النقطة الرئيسية في الاقتصاديات؛ مـاذا

إذاً كان أبسط من أن ترى في ذلك مجرد امتداد لهذا الصراع نفسه الذي هو طبقا لرؤية العديد من الداروينيين المرموقين قائم لنراه في كل أنحاء الطبيعة، والذي لا يملك حتى الإنسان الهرب منه؟ وهكذا وُجِدت التبريرات لكل استغلال واضطهاد للإنسان، بترتيبه على نفاذ قانون الطبيعة الذي لا يُقهَر. "هكسلي" في كتابه المعروف جيدا "الصراع من أجل البقاء وتبعاته على الإنسان" (***The Struggle for Existence and Its Bearing on Man***)، بالتماسك الذي كان مُميِّزا له بلا شروط، دافع عن وجهة النظر هذه وهكذا مناقضا لنواياه صاغ للرجعية الاجتماعية سلاحا ظل معها حتى اليوم، تنتفع به بين الحين والآخر كوسيلة للدفاع عن نفسها. أخذ مفكرو العصر هذه الأمور بشكل أكثر جدية لأن معظمهم كان مقتنعا اقتناعا راسخا بالصراع الذي لا يُقهَر في الطبيعة الذي افترضوه بلا أي شروط ودون أن يكلفوا أنفسهم عناء فحص هذه الفرضية بعناية.

في ذلك الزمن كانت هناك قلة فقط من الداعمين للنظرية الداروينية الذين تساءلوا عن صحة هذه الرؤية. انتمى لهذه القلة عالِم الحيوان الروسي الأشهر "كيسلر" (***Kessler***)(•) الذي أعلن مبكرا في عام ١٨٨٠ في أحد مؤتمرات العلوم الطبيعية في سان بطرسبرج رأيه بأنه يصاحب الصراع الوحشي بالناب والمخلب في الطبيعة، ما زال يسود قانون آخر يجد تعبيره في المعونة المتبادلة بين مجتمع الأنواع الحية ويساهم جوهريا بهذه المعونة المتبادلة في بقاء الجنس. هذه الفكرة التي أشار إليها "كيسلر" فقط سريعا، مُنِحت تطبيقا موسعا وأبعد مدى بواسطة "بيتر كروبوتكين" في عمله المعروف جيدا "المعونة المتبادلة – عاملا للنشوء والإرتقاء" (***a Factor of Evolution —Mutual Aid***). أظهر كروبوتكين بناء على أساس لمادة واقعية ثرية، أن تبديات الطبيعة كساحة معارك غير محدودة كانت تصويرا هزليا

(•) كارل فيدوروفيتش كيسلر (١٨١٥-١٨٨١) عالم الحيوان الألماني الروسي الذي أجرى معظم دراساته على الطيور في المناطق الأوكرانية من الإمبراطورية الروسية. كما درس أيضا أسماك نهر دنيستر، ودنيبر، وساحل البحر الأسود. كيسلر أول من اقترح أن المعونة المتبادلة، بدلا من الصراع التنافسي، هي العامل الرئيسي في تطور الأنواع. [المترجم]

مُبالَغا فيه للحياة يؤذي بعنف الوقائع الحقيقية.[٥] ومثل كيسلر، شدد كروبوتكين أيضا على أهمية العيش معا لأفراد الأنواع في مجتمعات من أجل استمرارها، وكذلك شدد على غريزة العون المتبادل والتضامن التي تنمو من العيش في مجتمعات. هذا الشكل الثاني من الصراع من أجل البقاء بالنسبة لكروبوتكين سواء بالنسبة لاستمرار الفرد كما بالنسبة لاستمرار الجنس، كان ذا أهمية أعظم من الحروب الوحشية التي يشنها الأقوى ضد الأضعف، وهي الرؤية التي يؤكدها الانحطاط الملحوظ لتلك الأنواع التي لم تمتلك حياة اجتماعية وتحاول الحفاظ على نفسها فور تفوقها المادي. وبينما كان كيسلر من الرأي القائل إن غريزة التعاطف هي نتيجة العاطفة الأبوية ورعاية النسل، اتخذ كروبوتكين موقفا يرى أننا نتعامل هنا ببساطة مع نتيجة العيش الاجتماعي معا الذي ورثه الإنسان من أسلافه الحيوانات، الذين هم مثله عاشوا في مجتمعات. وهكذا اعتبر أن الإنسان ليس خالق المجتمع ولكن المجتمع هو خالق الإنسان. هذه الرؤية التي نالت منذ ذلك الحين قبول العديد من البحاثة هي خصوصا بالنسبة لعلم الاجتماع ذات تطبيق واسع، لأنها تلقي الضوء على كامل التاريخ التطوري للإنسان وتثير أكثر التأملات المثمرة فيه.

الدخول في تفاصيل كل العوامل التطورية العديدة في النظرية الداروينية سوف يمضي بنا في دروب بعيدة جدا. نظرية الانتخاب الطبيعي ومشكلة الوراثة بالأخص قد تسببت في نشأة سلسلة كاملة من البحوث العلمية التي تقدمت بمذهب التطور عموما حتى ولو لم تكن نتائجها دائما ناجحة جدا. كثير من النظريات المطروحة بهذه الطريقة ربما تبدو جريئة جدا ولكنها مفتقدة جدا الأسس؛ إلا أن المرء يجب ألا ينسى أن النتائج الإيجابية وحدها لا تخدم في تقدم فكرة. من الممكن للفرضيات أيضا أن تُلهِم باعتبارات جديدة وتُسارِع في البحث بشكل عظيم. وهذا صحيح على نحو خاص فيما يتعلق بنظرية "فايسمان" (**Weismann**) للوراثة ولكل محاولات تفسيرها التي قام بها باحثون ذوو جدارة مثل "مندل" (**Mendel**) و"نيجيلي" (**Naegeli**) و"دو فرايز" (***de Vries***) و"رو" (***Roux***) والعديد من أتباعهم، وأيضا عن طريق دعاة "اللاماركية الجديدة" (***neo-Lamarckianism***)، والمدافعين عن، وخصوم

"نظرية الطفرة" (*mutation theory*). أسهم معظم محاولات التفسير هذه دون شك في تعزيز تطوير نظرية النشوء والارتقاء، رغم أن هذه المحاولات البحثية قد أوغلت بعيدا في التعقيد الشديد للتفاصيل حتى بات صعبا أمام المرء تقييم أهميتها الواقعية بالنسبة للمستقبل عن يقين.

سوف يكون جهدا ضائعا أن تحاول مسح ظاهرة فكرية بمثل هذا الاتساع الهائل في المدى كما نظرية النشوء والارتقاء الحديثة، طبقا لمكوناتها الوطنية. جيش كامل من المفكرين والباحثين من كل الشعوب والأمم، فقط قليل من أسمائهم معروف جيدا، من الممكن ذكره هنا، قد ساهم في التراكم الشامل لهذه النظرية وإعطائها الدافع الفكري. لا تستطيع أمة الخطأ في تأثيرها. لقد وجهت هذه النظرية كامل الفكر الإنساني عن البشر في دائرتنا الثقافية نحو مسارات محددة، وأعادت تقييم كلِ الفرضيات السابقة المتعلقة بالإنسان والكون وخرجت بمفهوم جديد بالكلية لكل مشاكل الحياة. فوق كل شيء ما هي الأهمية التي تحملها كل الغرائب التافهة التي تُميِّز الجماعات البشرية المختلفة – التي هي في أحسن الأحوال من الممكن تحديدها والتي هي في النهاية نتائج لمفاهيم وأفكار وعادات مكتسبة تماما – مقارنة بالتأثير الطاغي لفكرة أو لمفهوم عن الكون ينطبق على كل البشر بقوة متساوية ويتقدم بخطى واسعة تخترق كل الحدود القومية المصطنعة. لا، لن يسمح العقل الإنساني لنفسه بأن يُقيَّد بأغلال الإجحاف المخلوق بصورة مصطنعة ولن يتحمل تقييد المحدودية القومية. ربما يخضع الإنسان الفرد مؤقتا أو بشكل دائم للعنة الأيديولوجية القومية، بالضبط كما ربما يقع إنسان العلم تحت تأثير أحكام مُسبَّقة فطرية لطبقته أو منصبه؛ ولكن لا توجد قوة في موقع لتعطي ختما قوميا للعلم في حد ذاته أو أن تثبت فكر شعب بأعراف مصطنعة لما يُسمى "الفكرة القومية". وهذا هو السبب في ظهور الحالة الحاضرة في ألمانيا وإيطاليا على هذا النحو من الوضوح.

مجرد حقيقة أن العقول القومية في كل بلد تُقنِع نفسها أنها يجب أن تنفذ بالقوة أفكار خطها الفكري على كل الآخرين، وفي حالة الضرورة حتى ضد إرادتهم، هو إعلان بالإفلاس الفكري لأي نوع من القومية. وإذا كانت المشاعر القومية في الواقع

هي ظاهرة روحية مُعترَفًا بها، والتي تصوغ نفسها في البشر كنوع من الغريزة، فمن ثم هذا الشعور سوف يكون حيا داخل كل واحد منا ويؤكد نفسه بالضرورة الملحة، ولن تكون هناك حاجة لغرسه في النفوس وإنفاذه في وعي البشر بطريقة اصطناعية.

لقد طرحنا للتفكير عن عمد نظام كوبرنيكس الكوني ونظرية النشوء والارتقاء لأن فيهما تظهر الطبيعة العالمية للفكر الإنساني بأوضح صورة. ولتحقيق نفس النتائج سوف يكون كافيا طرح أي فرع خاص من فروع علم ما، أو نظرية فلسفية أو حركة شعبية اجتماعية أو اكتشاف كبير. كل نتفة من المعرفة العلمية، كل تفكير فلسفي في الإنسان والكون، وكل حركة اجتماعية وُلِدت في شروط زمانها، كل تطبيق عملي لمعرفة مكتسبة في الأساليب الفنية والصناعة، يصاغ ويُبنَى بواسطة أفراد من كل الأمم. لا يستطيع المرء الحديث إلا قليلا عن العلم القومي كما يتحدث عن النظام القومي للكون أو النظرية القومية في الزلازل. العلم من حيث هو علم ليست لديه أي صلة مشتركة بالطموحات القومية، بدلا هو يقف ضدها في معارضة لا يمكن أن تضل، لأنه بينما العلم دون ريب هو واحد من العوامل الأكثر فعالية الموحِدة للبشر وربطهم بعضهم ببعض، تصبح القومية هي عنصرًا عاملاً على اغترابهم عن بعضهم البعض، وتحاول القومية دائما جعل تعارفهم الطبيعي صعبا وعدوانيا. ليست الأمة هي التي تصوغ شكل تفكير النوع البشري وتلهمه وتجهزه للتجارب الجديدة؛ إنها الدائرة الثقافية التي ننتمي إليها التي تعمل على نضج كل شيء فكري فينا وتحفزه باستمرار. ولا تستطيع أي عزلة قومية أن تمنع عنا هذا التأثير؛ لا تستطيع العزلة القومية إلا المساهمة فقط في إفقارنا الثقافي وحجب مواهبنا وقدراتنا الثقافية، كما يظهر اليوم بمثابرة مرعبة خصوصا في ألمانيا [النازية].

هوامش الفصل التاسع

(1) *J. P. Eckermann, Conversations With Goethe in the Last Years of His Life. 1823-1832*

(2) *A. Moszkowski, Einstein, Einblick in seine Gedankenwelt. Berlin, 1921*

(٣) ساهم أعضاء من كل الأمم في تقدم تطور التليسكوب وزيادة دقته. جاليليو بكل السبل هو مخترع التليسكوب الفلكي العاكس، وهو ما تم التأكيد عليه مرارا؛ وقد قال هو بنفسه إنه استرشد في إعداد أداته باكتشاف وصل إليه أحد البلجيكيين. من المؤكد أن التليسكوب قد تم اختراعه في هولندا أثناء العقد الأول من القرن السابع عشر، وقد تم واقعيا تسمية صانعي العدسات الاثنين "هانز ليبرشي" (*Hans Lippershey*) و"زاكارياس جانسن" (*Zacharias Jansen*) كمخترعين للتليسكوب. إلا أنه كان قد تم تركيب أجزائه بشكل فردي قبل هذا. الابتكار إذا جاز لنا الكلام هو في الهواء وقد عاونت عقول من كل أمة في تحقيق تطوره اللاحق.

(٤) "سالمون مونك" (*Salomon Munk*) في كتابه "خليط من الفلسفة اليهودية والعربية" (*Mé*langes *de philosophie juive et arabe*) قدم دليلا على أن "أبو سيبرون" (*Avicebro*) لم يكن شخصا آخر سوى الشاعر الفيلسوف اليهودي الكبير "ابن جابيرول" (*irolIbn Gab*).

(٥) في البداية نشر كروبوتكين العمل في أجزاء منفصلة في الدورية الإنجليزية "القرن التاسع عشر" (*Nineteenth Century*) من سبتمبر ١٨٩٠ إلى يونيو ١٨٩٦. آخر أعماله "الأخلاقيات" (*Die Ethik*) (برلين ١٩٢٣)، الذي لم يكتمل لسوء الحظ، يمثل ملحقا قيما لمطبوعه الأسبق.

الفصل العاشر

العمارة والقومية

الفن والقومية. الإنتاج الفني والفلسفة العالمية. شخصية الفنان. الأساليب والأشكال المجتمعية. تعسف تسميات الأسلوب. العمارة والمجتمع. الضرورة والجماليات. تأثير المادة على الأسلوب. الجسر بين مصر وبابل. من المعبد الإغريقي إلى الأسلوب الهيليني للفن. الصلة بين الأشكال الإترورية والإغريقية. الهياكل المقوسة. الانتقال إلى أسلوب الكنيسة المسيحية. النمط المحوري والقيصرية. الطراز البيزنطي. هجرات الشعوب والطراز الرومانسكي (*ROMANESQUE*). الانتقال إلى القوطي. القوطي كهيكل اجتماعي. عصر النهضة (*RENAISSANCE*). تطور أنماط معالجة الفراغ. مايكل أنجلو (*MICHELANGELO*) والانتقال إلى عصر الباروك (*BAROQUE*). الاستبداد وتشكيل الباروك. أسلوب اليسوعيين (*JESUITS*). سقوط النظام القديم والروكوكو (*ROCOCO*) في الفن. العالم الرأسمالي وفوضى الأسلوب. المصنع. المخزن.

"ولكن، الفن". "قد يقول شخص ما. أليست الروح الخاصة لكل شعب تتحدث عنه". أليست الفروق التي تكشف عن نفسها في فن مختلف الشعوب تنتج عن خصائصهم القومية المنفردة وتتحدد بها. ألا يعيش هناك في كل عمل فني شيء ما معين لا يمكن الشعور به سوى بشكل قومي، ولن يفهمه أبدا بشكل حقيقي نسل شعب آخر أو جنس أجنبي، لأنهم يفتقدون أداة خاصة مطلوبة لاستيعابه عاطفيا. تلك هي الأسئلة التي يقابلها المرء غالبا عندما يصبح "جوهر الفن القومي" بؤرة للنقاش.

أولا دعنا نصور لأنفسنا كيف يأتي عمل فني ما إلى الوجود – في كل مكان، حتى يكون الأمر مفهوما، دون أي فواصل بين جنس أو أمة. على سبيل المثال

عندما ننظر إلى مشهد طبيعي، ما نلتقطه ربما يبعث فينا بتأثيرات مختلفة. ربما يضطرنا إلى الإمساك بتفاصيل الأشياء التي تحسها أعيننا، لتمييزها عن بعضها البعضَ من أجل إدراك الخصائص الفريدة واكتشاف علاقتها بالبيئة. ربما يقترب أصحاب المذهب الطبيعي من الأشياء بهذا التوجه الفكري الخالص أولا، وبذلك يصلون إلى تفسيرات علمية خالصة يحتفظون بها في العقل ويقومون بتطويرها لشكل متكامل. ولكننا قد نصنع أيضا تقييما وجدانيا خالصا من نفس المشهد الطبيعي؛ ربما نتأثر فقط بمجرد بهاء الألوان وتنويعاتها ودرجاتها، دون أن نشغل أنفسنا بماهية النوع الخاص لمادة هذا التكوين. في هذه الحالة تجربتنا مع ما نراه هي تجربة جمالية خالصة، وإذا ما وهبتنا الطبيعة القدرة المطلوبة لإعادة إنتاج ما قد رأيناه هنا ينتج عمل فني. من غير الممكن بالتأكيد أن تنفصل دائما انطباعاتنا البصرية بهذا الوضوح عما نفترضه هنا، ولكن كلما كان الوجداني الصرف أكثر عمقا، تغلغل ما يُسمى "المزاج" (*mood*) في العمل الفني، وكان استحقاق العمل الفني للاسم أفضل. لهذا السبب ذاته لن يكون الفن أبدا محاكاة للطبيعة. لا يعكس الفنان ببساطة ما يراه، إنه يحرّكه، يتنفس داخله تلك الحياة الملغِزة التي وحدها تمتلك القدرة على إيقاظ المزاج الغريب الذي يمثل خاصية فريدة غريبة للمشاعر الفنية؛ بكلمة الفنان "يضع روحا في كل شيء" (*wirkt Seele ins All*) كما صاغتها عبارة "ديميل" (*Dehmel*)(•) المدهشة.

ذلك أن الفنان يستطيع تكريس فنه لخدمة فلسفة عالمية خاصة ويعمل بروحها، هي حقيقة واضحة جدا حتى أنها لا تحتاج إلى برهان. منذ البدء لا يهم إلا قليلا سواء أكانت هذه الفلسفة دينية أم جمالية أم ذات طبيعة اجتماعية عمومية. لذلك، حتى "الفكرة القومية" –مهما يكن معنى ذلك– تستطيع تحريك الفنان والتأثير على إبداعاته. ولكن العمل الفني لم يكن أبدا نتيجة مشاعر قومية فطرية ذات أهمية مُحدّدة

(•) ريتشارد فيدور ليوبولد ديميل (١٨٦٣–١٩٢٠) أحد الشعراء الألمان الأشهر في حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى. تتميز قصائده باكتمال الشكل في خطط أوزان متنوعة. تحولت أشعاره إلى موسيقى بواسطة مؤلفين موسيقيين أمثال ريتشارد شتراوس. [المترجم]

لخصائص العمل الفني الجمالية. يكتسب الإنسان الفلسفات التي تأتي إليه من خارجه. وطريقة استجابته لها هي مسألة تخص شخصيته، ونتيجة موهبته الفردية، وليست بأية طريقة هي أثر الصفة القومية الخاصة التي يحملها. القيمة الشخصية للفنان تكشف عن نفسها في أسلوبه، النبرة الخاصة التي تتكشف في كل شيء ينتجه.

بالطبع لا يقف الفنان خارج الزمن والمكان؛ فهو أيضا إنسان ليس إلا، مثل أقل واحد من معاصريه. ذاته الأنانية ليست صورة مجردة، ولكنها كيان حي، ينعكس عليها كل جانب من جوانب وجوده الاجتماعي مع استمرار الفعل ورد الفعل. هنا أيضا يرتبط الفنان برجال زمانه بألف رباط؛ في مأساتهم وندمهم وفي أفراحهم ولهوهم لديه نصيب يشارك به؛ وفي قلبه تجد طموحاتهم وآمالهم وأمنياتهم صدى. وبوصفه كائنًا اجتماعيًا، يتمتع الفنان بنفس الغريزة الاجتماعية؛ ينعكس في شخصه كامل البيئة التي يحيا ويعمل فيها والتي بالضرورة تجد تعبيرا عنها في إنتاجه. ولكن الطريقة التي سوف يعلن بها هذا التعبير عن نفسه، والأسلوب الخاص الذي سوف تتفاعل به روح الفنان مع الانطباعات التي تنطبع عليها مما يحيط بها؛ سوف يتقرران في المُخرجات النهائية بواسطة حالته المزاجية الخاصة، وموهبة شخصيته الخاصة – في كلمة بحكم شخصيته.

القدر المطلق لكون الفن هو أعلى تبديات مجتمع الثقافة القائم، والقدر الضئيل الذي من الممكن به اعتبار الفن نتيجة خصوصيات عرقية مزعومة أو مُركّبات وجدانية قومية، ينكشف خصوصا بواسطة فن العمارة. الطراز المعماري المتنوع ارتبط دائما بفترات زمنية معينة وليس بأمة محددة أو جنس محدد. وحينما يقع في حياة الشعوب الأوروبية إعادة ترتيب للأشكال الاجتماعية وافتراضاتها الروحية والمادية، تظهر طرز جديدة في الفن عموما وفي العمارة على الوجه الأخص، تعطي تعبيرا عن الطموحات الجديدة. وتقتصر هذه التغييرات في الدافع التشكيلي الفني لبلد أو أمة واحدة بنفس القدر القليل الذي تحدثه التغييرات الاجتماعية التي تتسبب في حدوثها. بالأحرى إنها تنتشر في كل الدائرة الثقافية الأوروبية التي ننتمي إليها والتي وُلِدت خارجة من رحمها. "الانتيك" (*Antique*)، و"القوطي" (*Gothic*) و"الرينيسانس"

(*Renaissance*) [النهضة] - لنذكر فقط أشهر الطرز - لا تمثل ببساطة تيارات خاصة في الفن؛ بل يُنظَر إليها أيضا كأشكال تعبير عن البناء الاجتماعي والمتطلبات الفكرية لعصور محددة.

وكلما أدرك الإنسان المفكر الهوة التي تتفتح بين العصر القديم بأشكال فنه الكلاسيكي والعالم المسيحي الذي تطور لاحقا والدوافع التشكيلية المميِّزة له كان اندفاعه أقوى للبحث من أجل الخروج بالأسباب الجمالية وراء هذا التباين. وقد حدث هذا عندما عقد البشر لأول مرة المقارنات بين المنتجات الفنية للعصرين؛ وكانت إعادة اكتشاف العصور القديمة باعثا فوريا لعقد مثل هذه المقارنات. وفي هذا نادرا ما أخذوا في حسبانهم العمليات التطورية الأعمق التي تشكل أساس البنيانين الاجتماعيين وتأثيراتهما الفكرية. ودائما ما كانت تؤدي مثل هذه المقارنات إلى أحكام محددة على القيمة، جعلت التفكير المجرد يظهر كرموز محسوسة. ولكن الحكم على القيمة مسبوق دائما بمفهوم للغرض. عندما تقام مقارنات بين أساليب مختلفة يعتمد الحكم على الدرجة التي يصلح بها أي أسلوب معين أو يفشل في ملاءمة افتراضات معينة. بهذه الطريقة وصل "لسنج" و"جوته" و"شيللر" و"وينكلمان" (*Winckelmann*)[*] وخلفاؤهم العديدون إلى الاستنتاجات في نظرياتهم عن الفن. لقد رأوا في الفن مجرد غرض تمثيل ما هو جميل؛ وحيث إن النموذج الإغريقي للجمال يبدو لرجال الكلاسيكيات عندنا هو الأتم، فقد اكتسب النموذج الإغريقي بالنسبة لهم مغزى مطلقا؛ وترتب على هذا أنه كان بالنسبة لهم الجميل الذي يجب أن يبدو غشيما

(*) يوهان يواكيم وينكلمان (١٧١٧-١٧٦٨) مؤرخ الفن وعالم الآثار الألماني. العالِم الرائد للحضارة اليونانية وأول من وضع الفروق بين الفن اليوناني واليوناني-الروماني والروماني. واحد من مؤسسي علم الآثار العلمي وتطبيق أنماطه على أساس واسع ومنهجي لتاريخ الفن. أثرت كتاباته ليس فقط على العلم الجديد للآثار وتاريخ الفن ولكن على فن الرسم الغربي والنحت والأدب وحتى الفلسفة. كتابه تاريخ الفن القديم (١٧٦٤) واحد من أوائل الكتب المكتوبة باللغة الألمانية لتصبح عملا كلاسيكيا في الأدب الأوروبي. له نفوذ لاحق على ليسينغ، وهيردر وغوته، وهولدرلين، وهاينه ونيتشه، وجورج، وشبنغلر وهو ما أطلقوا عليه "طغيان اليونان على الألمان". [المترجم]

وقاصرا، كل طراز آخر يُقاس عليه. لذا، في متابعتهم لدرب الزمن العتيق، وصلوا إلى العديد من الاكتشافات القيّمة، إلا أنهم تركوا لُب السؤال دون أن يمسوه.

"ما هو الجميل؟" هو سؤال يثور حوله كثير من الجدل، يمتلك معنى خاصًا ليس فقط بالنسبة لشعوب تحيا في مناطق مختلفة ودوائر ثقافية مختلفة؛ فنموذج الجمال عند نفس الشعب ونفس المجتمع الثقافي – إذا ما كان للمرء أن يتحدث عن مثل هذا الأمر – يخضع دائما لتنويعات عظيمة. لذلك ما يبدو للفرد اليوم بدعة قبيحة، غدا يكتسب اعترافا كمفهوم جديد للجمال. لذلك نحن مع الرأي القائل إن في الفن عموما لا يوجد هدف محدد، فقط هو طريقة يجد بها الدافع التشكيلي للإنسان تعبيرا. تتبع الأشكال التي يكشف فيها هذا الدافع عن نفسه مهمة جذابة وليس أكثر من ذلك. إنها تزودنا بنقطة لا تتوقف للغرض المزعوم للفن؛ لأنه في هذا المجال، أيضا الغرض يمتلك أبدا معنى نسبيا وليس مطلقا. "شيفلر" (***Scheffler***) كسا بشكل جميل هذه الفكرة بهذه الكلمات: "فقط لا يمتلك شيء دنيوى واحد كل الحقيقة، بالضبط لأن الحقيقة بالأحرى مُقسَّمة بين الجميع، وهكذا أيضا الفن ككل ليس ممتلكات أي شعب وحيد أو أي زمن واحد محدد. كل الأساليب معا هي مجرد الفن"[١].

وبالضبط كما في العلم الطبيعي كذلك أيضا في تاريخ الفن، تم هجران نظرية الكوارث (***theory of catastrophes***) منذ زمن طويل. لا يقفز طراز فني إلى الوجود فجأة من تلقاء ذاته دون نقاط اتصال بطرز أسبق. كل مؤرخ للفن يحتل موقعا ليشرح كيف تطور تدريجيا الطراز الفني من داخل طراز آخر، بالضبط بنفس الطريقة التي تسلكها الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية في الواقع. وطبعا هذا لا يمنع أن يتحول التصادم بين الآراء حول جدارة أنماط الطراز المختلفة إلى نزاع حاد في الغالب. ولهذا أصبح من الشائع حديثا الإشادة بالطراز القوطي بوصفه الحامل "للروح الجرمانية" والتفاخر بجماله الغريب في معارضة لفن العصور القديمة وعصر النهضة. في الواقع، إذا ما قارن المرء بين معبد إغريقي وكاتدرائية قوطية يجد المرء اختلافا طاغيا تماما بينهما. ولكن أن تستنتج من ذلك أن التباين في

الأسلوب هو ناتج نبع من الجنس أو القومية فتلك سخافة متوحشة. ولو كان الطراز القوطي هو في الواقع نتيجة موهبة عرقية محددة أو جهد تشكيلي قومي خاص فمن ثم يصبح من الصعب أن تفهم لماذا رجال مثل لسنج وجوته وشيلر ووينكلمان وآخرين الذين ينالون التكريم بوصفهم أبرز ممثلي الجنس الألماني ينذرون أنفسهم لاعتماد الآثار القديمة اعتمادا غير مشروط. جوته الذي كان منجذبا في سنوات شبابه الأولى بقوة بالفن القوطي - كما يظهر في ملاحظته عن الكاتدرائية في ستراسبورج (*ssburgStra*)- انقلب فيما بعد بشكل أكثر حسما بشكل متزايد إلى نموذج الجمال في العصر القديم، ولم يجعل من تقديره القليل لكل شيء قوطي سرا. ألا ينبغي لهذا أن يثبت لنا أن كل النظريات التي تسعى لأن تجد في الاحساس الفني عموما، وفي الأنشطة الإبداعية للفنانين على الأخص، مجرد وحي لعبقرية جنس أو أمة تقوم على أساس مجازات عقيمة لا تمت بصلة مشتركة إلى حقائق الحياة؟

هناك شيء واحد عجيب نشير إليه ذو علاقة بنظريات الفن والأساليب الفنية. تمتلك تلك النظريات ميزة لأنها تأتي بالاختلافات المحددة بين الإبداعات الفنية بشكل أكثر وضوحا أمام وعينا، ولكن جانبها الضعيف هو أنها كلها تنطلق من افتراضات تتفق مع الآراء التعسفية لمؤسسيها. عندما يحاول المرء التمسك بما يفضله في أسلوب خاص على باقي الأساليب الأخرى تنشأ في الغالب تباينات ذات طبيعة تجريدية خالصة، ربما تفي بالغرض فيما يتعلق بالتفاصيل المجيدة الخاصة، ولكنها ذات قيمة قليلة بالنسبة لإيضاح المشكلة الحقيقية. حتى التسمية التي أُعطيَت للأساليب الفنية المختلفة كانت تُختار عادة بطريقة تعسفية ونادرا ما تطابقت مع أي فكرة محددة بوضوح. وهكذا كلمة "النهضة" (*Renaissance*)(•) لا تغطي المفهوم الذي نزاوجه بها هذه الأيام لأن ثقافة تلك الفترة تمثل أكثر كثيرا جدا من إعادة ميلاد للعصر القديم (*antique*). لقد كانت النهضة انقلابا كاملا لكل الأفكار التقليدية

(•) معنى مصطلح "الرينيسانس" ومفهومه هو "الميلاد من جديد"، وربما الكلمة العربية التي تعبر عن ذلك بشكل أدق هي "البعث" ولكننا اصطلحنا على ترجمة مصطلح الرينيسانس "بالنهضة" وأصبح عصر الرينيسانس هو عصر "النهضة". [المترجم]

والمفاهيم الاجتماعية، التي جعلت نفسها بشكل طبيعي محسوسة في الفن أيضا. بـدلا من مجتمع القرون الوسطى بروابطه الدينية والاجتماعية التي لا تُحصى، صـوفيته وبعض رغباته الدنيوية الأخرى، هناك ظهر نظام جديد للأمور، كانت الاكتشافات العظمى لهذا الزمان والتحولات السريعة لكل الظروف الاقتصادية مواتية له. لذلك لم يكن عصر النهضة تكرارا بأية حال لأشكال الحياة في العصور القديمة ولكنه تحـرر عظيمًا من الأغلال نحو دوافع جديدة في كل مجالات الحيـاة. لا يمكـن أن يكـون عصر النهضة هو إعادة بعث للقديم، ولكنه عصر لم يستطع بشكل تعسفي هز أركان تقاليد ألف وخمسمائة سنة من المسيحية بل ارتبط بتلك التقاليد طوال تطوره.

ويبقى أن الأكثر تعسفا هو تسمية "القوطي" (*Gothic*) لفن العصور الوسـطى المسيحي؛ فلم يكن للفن القوطي أدنى علاقة بالـشعب الـذي كـان يُـسمى القـوط (*Goths*). "فاساري" (*Vasari*)(•)، الذي أخذنا عنه هذه التسمية، وقـصدنا أن نُعبِّـر بواسطتها عن مجرد التباين مع فن عصر النهضة؛ تُظهِر هجماته واضـحة العنـف على مبادئ الفن القوطي أنه قد أراد للمصطلح أن يرتبط بفكـرة الغـشيم والخـشن والبربري. وليست الحـال بأفـضل مـع تعبيـرات مثـل "البـاروك" (*baroque*) و"الروكوكو" (*rococo*)، فيما يتعلق بالمعنى الأصلي المبهم علينا بشكل مطلق. فقـط لاحقا هذه الكلمات أخذت معنى محددا بشكل أو بآخر، تكاد تختلـف جوهريـا عـن مغزاها الأصلي بشكل دائم. ومن هنا تقتنع الأغلبية العظمى لخبراء الأساليب الفنيـة النفسيين منذ زمن طويل بعدم ارتباط الطراز الخاص بشعب ما أو أمة ما. وهكـذا،

(•) جورجيو فاساري (١٥١١-١٥٧٤) رسام إيطالي، ومعماري، وكاتب ومؤرخ. شهرته اليـوم تعود لكتابته تاريخ حياة أكثر الرسامين والنحاتين، والمعماريين، حيث يعتبـر جهـده أساسًـا أيديولوجيًا لكتابة تاريخ الفن. فاساري هو أول من استخدم مصطلح "النهضة" (الرينيسانس) في الفن، دون وعي بأن الجاري ليس "إعادة ولادة"، وهو المسئول أيضا عن استخدامنا لمصطلح القوطية في الفن، رغم أنه استخدم كلمة القوطي بمعنى "الهمجي" على غرار النظرة الـسائدة لقبائل الجرمان حينذاك. قدم أيضا أطروحة جديدة عن الطرق الفنية المستخدمة فـي مجـال الفنون. لديه انحياز ثابت لصالح فناني فلورنسا، ويميل إلى تمييزهم مع كل تطـورات لفـن عصر النهضة. [المترجم]

"شيفلر" الذي اتخذ الموقف بأن الروح القوطية التي تقدم في كل مرحلة أشكالاً من القلاقل والمعاناة والإغريقي من الناحية الأخرى يقدم أشكالاً من السلام والسعادة، هو من الرأي القائل إن كلا الأسلوبين الإغريقي والقوطي قد ظهر بين كل الشعوب وفي أوقات منفصلة ببون عريض. لقد كان بهذا المعنى يتصل بمفهوم الطراز القوطي وما قبل التاريخ، والمصري والهندي، والباروك والأنتيك والمعاصر، والنائي (remote) والقريب (*near*). لا نستطيع إلزام أنفسنا باستنتاجات شيفلر عموما، لأنها تعاني من نفس العيوب كما كل نظريات الأسلوب الفني: من افتراضات تعسفية غير مُثبَتة وغير قابلة للإثبات. أطروحته بأن من الممكن النظر إلى الطراز الإغريقي باعتباره عنصرا أنثويا والقوطي باعتباره عنصرا ذكوريا في الفن هي في أحسن الأحوال. مزاوجة بارعة للأفكار. إلا أن شيفلر من ناحية كان محقا بشكل مطلق: الفكرة التي نجمعها عادة بالقوطي لم تقتصر على العصور الوسطى المسيحية، رغم أنك ربما تجد أكمل تعبير عنها في ذلك الزمن. تواجد دون شك قدر عظيم كان قوطيا في فن المصريين والآشوريين القدماء. عديد من المعابد الهندية أيضا تنقل إلينا انطباعا بالشعور الشيطاني، والخصوبة غير المحدودة للشكل والرحابة الواسعة المُميِّزة للقوطية. يستطيع المرء أن يدرك بالضبط في العديد من مباني المصنع الحديث ومستودعاته السمات نفسها، حتى يكاد تتملكه غواية الحديث عن قوطية الصناعة.

وقد طوَّر نيتشه فكرة مماثلة عندما حاول تأسيس ميلين مختلفين في الفن الإغريقي نفسه اللذين بشكل أو بآخر يتواجدان في كل فترة زمنية. أحدهما – الذي يسميه نيتشه ميل أبوللو (***Apollonian***) – ويبدو له تعبيرا عن القوى الإبداعية الخالصة، المحاطة "بضياء مُشِّع من الجمال" والذي يؤثر علينا باعتداله وهدوئه الفلسفي مثل حلم. الميل الآخر – الذي يسميه باسم "ديونيسوس" (***Dionysian***)– المحاط بألف لغز ونذر الشؤم المعتمة مثل هذيان، مع تصاعده "يختفي ما هو ذاتي في النسيان المطبق للذات". ولا يجد نيتشه هذه السمة في الثقافة الإغريقية وحدها. "حتى في ألمانيا العصور الوسطى مندفعة تحت ضغط نفس قوة ديونيسوس تتوالى جماعات متنامية أبدا تغني وترقص من مكان إلى مكان. في نوبات الهياج الجماعي

لرقص القديس جون (*Saint John*) والقديس فيتوس (*Vitus Saint*)[*] ندرك مـــرة أخرى جوقات باخوس (***Bacchus***) عند الإغريق، بتاريخهم الأســـبق فـــي آســـيا الصغرى وامتداده في بابل و"ساجالا" (***Sagala***) وحفلات عربدتهم". وضع نيتـــشه هذا التباين في تلك الكلمات الرائعة:

> **"ونحن لهذا الحد نلتقط صور هوى أبوللو (*Appollonian*) ونقيـــضه ديونيسوس (*Dionysian*) كقوتين فنيتين منبثقتـــين مـــن "الطبيعـــة" نفسها دون وساطة الفنان البشري، واللذين يجدان الرضا مباشرة في نبضاتهما الفنية: أحيانا أولا كعالَم خيالي لحلم يفتقد اكتماله بغياب أي صلة له بالذُرا الفكرية للخيال الفني عند الفرد، ومرة أخرى مثل واقع هذياني لا يضع في حسبانه مرة أخرى الفرد، ولكنـــه يحـــاول حتـــى تدمير الفرد وتذويبه في مشاعر الوحدة الصوفية" (٢).**

وسواء رغبنا لأنفـــسنا اغتنـــام المفـــاهيم القديمـــة "للكلاســـيكي" (***classic***) و"الرومانتيكي" (***romantic***) أو بدلا منهما نود تسمية هذه الأساليب ثنائية القطـــب التي يشعـــر بهـــا كل فـــرد بوصفها "واقعية" (***realistic***) و"مثالية" (***idealistic***) أو "انطباعية" (***impressionistic***) و"تعبيريـــة" (***expressionistic***) أو ســـواء فـــضّلنا

(*) هوس الرقص (المعروف أيضا باسم طاعون الرقص، رقص سانت جون، أو رقص ســـانت فيتوس) ظاهرة اجتماعية وقعت في المقام الأول في أرض أوروبا الأم، بين القرنين الـــ ١٤ والـــ١٧. ينطوي المرض على رقص مجموعة من الناس أحيانا بالآلاف بطريقة متقطعة، في كل نوبة. يرقص المصابون بالمرض من الرجال والنساء، والأطفال، حتـــى الانهيـــار مـــن الإرهاق. أحد التفشيات الرئيسية الأولى كانت في آخن، بألمانيا، في ١٣٧٤، وســـرعان مـــا انتشرت في جميع أنحاء أوروبا. حدث اندلاع ملحوظ للنوبة بشكل خاص في ستراسبورغ في ١٥١٨. وليس هناك توافق في الآراء بين العلماء في العصر الحديث لأسباب مرض هـــوس الرقص. عدة نظريات اقترحت وقوف مجموعة من الطوائف الدينيـــة وراء مواكـــب النـــاس الراقصة من أجل تخفيف توترهم وآلام أوضاع الفقر السائد في تلك الفترة. ومع ذلك، يعتقـــد كثيرون أنه بمثابة مرض نفسي شامل مع أعراض جسدية مماثلة، ومع عـــدم وجـــود ســـبب عضوي معروف، يؤثر على مجموعة كبيرة من الناس كشكل من أشكال التأثير الاجتمـــاعي. [المترجم]

تعبيرات أولئك المهووسين بالنزاع والجدل حول الألفاظ (***logomachists***) الذين يتحدثون عن "الفن التجريدي" (***art of abstraction***) لأهلِ الشمال ونقيضه "فن الحدس" (***art of intuition***) عند الإغريق أو مع نيتشه الذي يفضل حديث التعبير عن العواطف في الفن بطريقة أبوللو وديونيسوس، فذلك لا يهم في حده الأدنى إلا قليلا. ما قد أدركه نيتشه بوضوح شديد هو حقيقة أن التباين الذي يثور حوله الكثير من الجدل والذي حاول حله في مفهومي أبوللو وديونيسوس لا يمكن النظر إليه كمشكلة على الإطلاق بين الشمال والجنوب أو كتباين بين الأجناس والأمم ولكن بالأحرى بوصفها ازدواجية لا لبس فيها في الطبيعة البشرية، تحدث بين كل الشعوب والجماعات الإنسانية.

فوق كل شيء يجب علينا تجنب تعميم الظاهرة الفردية في تاريخ شعب أو فترة زمنية من أجل بناء شخصية جماعية لهم. بالتأكيد كان الإغريق شعبًا مملوءًا بفرح الحياة ولكن سوف يكون من العبث افتراض أنهم كانوا بمنأى عن تراجيديا الحياة وأن الإغريق لم يعرفوا أبدا كرب الروح وعذاب الاضطرابات العاطفية. وإنه بالضبط لأمر مخادع عندما يقوم بعض خبراء نفس الثقافات ومنظري الأساليب الفنية بتصوير العصور الوسطى لنا كزمن لشقاء الروح والدوافع البدائية الشيطانية ينشغل فيها الإنسان بشكل زائد عن الحد بأهوال الموت والمشكلة الكئيبة لاقتراب يوم القصاص ويغفل عن جوانب الحياة المفرحة والسلمية. عرفت العصور الوسطى أيضا فرح الحياة وكان لديها احتفالاتها المبهجة ومتعها الحسية الأرضية، التي تبدت بشكل كاف في فنها. لا يحتاج المرء سوى تذكر المنحوتات فائقة الواقعية على المباني الكنسية والعلمانية لذلك الوقت، حتى يجد شهادة فصيحة على هذا. لكل فترة أوهامها، وأوبئتها الروحية ورقصاتها للقديس جون والقديس فيتوس. لم تكن العصور الوسطى المسيحية استثناءً لهذه القاعدة. ومع ذلك نحن ننشغل غالبا بشكل كبير بالأفكار الوهمية عند الآخرين لدرجة أننا لا نصبح أبدا على وعي بأفكارنا الخاصة. إلا أن زماننا نحن يعطينا درسا في هذا الخصوص ليس من السهل الخطأ في فهمه.

الألم والفرح هما أعلى نقطتين في المشاعر البشرية، واللذان يقعان في جميع الأزمان، وتحت كل سماء؛ هما القطبان اللذان تدور حولهما حياتنا الروحية، وبالتبادل هما يضعان طابعهما على وجودنا المادي. وحيث إن الإنسان الفرد لا يستطيع أبدا أن يظل دائما في أعمق حالات كآبة الروح أو نشوة السعادة، تظل الشعوب بأكملها، بصورة حتى أقل، قادرة على ذلك لعصر كامل. يظل الجزء الأعظم من حياة الإنسان واقعا بين المعاناة والفرح. الألم والنعمة مثل التوأم السيامي (*Siamese twins*)؛ ورغم كل النقائض فإنهما يرتبطان معا، حتى أنك لا تستطيع تصور أحدهما دون الآخر. وهذا صحيح أيضا بالنسبة للتعبير الإبداعي عن العاطفتين في الفن. وحيث إن كل إنسان يمتلك حساسية لمشاعر الفرح والألم، لذا نجد في فن كل شعب دليلا على كلا المُركَّبين الوجدانيين، اللذين يتلاشيان بالتناوب ويلتحمان معا. فقط الاثنان مأخوذان معا بآلاف فوق آلاف من التحويرات والتدريجات والتغيرات ينقلان إلينا فكرة الفن ككل. شيفلر أدرك ذلك بوضوح عندما استنتج:

> **الشيء النموذجي لفهم الفن هو أن تقترب من تلك النقطة التخيلية خارج مدار كوكب الأرض التي حلم أرشيميدس بها. يجب ألا يكون لديها أي تحفظات ولا حدود؛ الحياة والفن يجب لأيهما حتى يصبح كلا واحدا هائلا، وكل نتفة من تاريخ الفن يجب أن تكون مُقتَطَفة من تاريخ شامل للفن. حتى وجهة النظر الوطنية لا تمتلك مصداقية. الطريقة التي تمتلك بها كل الأعراق والشعوب والأفراد نصيبهم في الحياة الأبدية للشكل الفني هي معجزة عظيمة جدا للدرجة التي لا يمكن اختزالها في نزعة قومية. ولكن إذا ما كان يجب التخلي عن النظرة القومية، أي إذا كان التذوق العلمي ربما لا يشارك في إرادة أمته الملحة، كيف سوف يصبح قادرا بصورة أقل كثيرا على اتباع إرادته الشخصية الضعيفة، ودوافعه الطبيعية الخاصة ويسك منها حجة مادية ظاهرة.**

وطالما اقتصرت معرفتنا على طرز الشعوب الأوروبية وأقاربهم فقط، فقد كان من السهولة بمكان أن نجري مسحا للفنون الجميلة ككل وخصوصا العمارة وأن نخرج بتصنيف محدد لهذه الطرز. ولكن امتداد معرفتنا كثيرا بهذا الخصوص قد تغير. لم يعد ممكنا أن نقيِّم دون جدال العلاقات الأساسية بين مختلف أساليب العمارة عند الشعوب القديمة وخصوصا عندما لا تمت هذه الأساليب بصلة للدائرة الثقافية الأوروبية، رغم تحقيق بعض النتائج المهمة في هذا الاتجاه. صلات لا حصر لعددها من الإبداعات التكتونية (*tectonic*)(*) التي وجدت في السابق قد اختفت في مجرى آلاف السنين دون أن تترك أثرا، سواء بسبب عدم قدرة المواد المستخدمة على الصمود أمام ويلات الزمان أو بسبب بعض أنواع التأثيرات الأخرى التي سارعت بعمليات التدمير. لهذا توقف تدريجيا أن يصبح عرفا معتادا في الدوائر العلمية التحدث ببساطة عن فن مصري أو آشوري أو فارسي رغم أنه ربما ما زال الحديث بهذه الطريقة غالبا بدرجة كافية في حياة كل يوم وفي التعليم بالمدارس. مع التوغل بشكل أكثر عمقا في تاريخ اليونان يبزغ علينا لأول مرة فجر معرفة أن العصر القديم نفسه لديه عصور أزمنته القديمة وعصوره الوسطى والفترة اللاحقة والأخيرة، الأمر الذي اتضح لنا بشكل خاص في تطور العمارة من أزمنة ما قبل هوميروس إلى صعود "الهيلينية" (***Hellenism***) وأفولها. إنه المحتوى الثقافي في الطراز الذي يكشف عن نفسه في الفترة الزمنية بأحسن ما يمكن، لأنه يعكس بدرجة معينة مجموع كل المساعي الاجتماعية في هذه الفترة. ولكن الأمر الأهم من جميع الأمور الأخرى ينكشف هنا أيضا التأثير الدافع الذي يأتي من الخارج وغالبا يتسبب في نهوض أشكال جديدة من الطراز. يجري هذا التحفيز المتبادل عبر تاريخ كل الشعوب ويمثل واحدا من القوانين الجوهرية للتطور الثقافي عموما.

(*) تكتونية: تتعلق بالعمليات التي تتحكم في تكوين القشرة الأرضية وخصائصها وتطورها عبر الزمن. [المترجم]

ومن الممكن ملاحظة ذلك في العمارة بأفضل من أي ميدان آخر للفن، لأن العمارة هي الفن الأكثر اجتماعية من كل الفنون وفي العمارة دائما تعلن إرادة كل مجتمع عن نفسها. يمتزج في العمارة ما هو نفعي بأكثر الأشكال حميمية مع ما هو جمالي. إنها ليست نزوة الفنان هي التي جعلته يبني هرما، أو معبدا إغريقيا أو كاتدرائية قوطية؛ لقد كان عموما إيمان ذو تجربة، وفكرة مشتركة وراء إقامة هذه الأشياء بواسطة أيادي الفنانين. إنها عبادة المصريين للموتى التي اضطرتهم لبناء ما يُسمى "المصاطب" (*mastabas*)[*] والأهرام. الهرم ليس إلا مقبرة هائلة تعكس في شكلها الخارجي الطبيعة الاجتماعية لعصر محدد. وهكذا بالضبط، المعبد المفتوح عند الإغريق يستطيع أن يظهر للوجود بين شعب يلهو باستمرار تحت سماء مفتوحة ولن يسمح لنفسه أبدا بأن يُسجَن في غرف مغلقة. وكان على الكاتدرائية المسيحية أن تصبح قادرة على استيعاب مجتمع محلى بأكمله؛ وهذا الغرض كان أساس كامل نمط بنيانها، ورغم كل تبدلات الشكل الخارجي فقد ظل الغرض دائما هو نفسه.

لقد أُطلق على العمارة اسم فن الأمزجة، وقد أصبح هكذا، وبدرجة أعلى كثيرا من أي فن آخر؛ ولكن هذا صحيح فقط لأن العمارة تعطي هذا التعبير الطاغي لروح المجتمع حتى أنها تستدعي المزاج الجماعي الذي تذوب فيه كل المشاعر الشخصية. التقط "شيفلر" هذا التأثير في العمل المعماري الفني بإظهار كم هو ثقل الفكرة الشاملة التي تتكشف هنا للناظر إلى العمل. يصبح الانطباع قويا جدا لأن ما يُنقَل إلى الإنسان ليس المزاج الذي يشير إلى علاقة داخلية ما بين العمل وخالقه، حتى عندما يكون خالق العمل معروفا.

(*) المصطبة (بمعنى "بيت الأبدية" في المصرية القديمة)، نوع من القبور عند المصري القديم في شكل هيكل مستطيل بسقف مسطح ذي جدران مائلة إلى الخارج من الجانبين، تشيد من الطوب الطيني (من نهر النيل) أو الحجر. المصاطب تميز مواقع دفن العديد من المصريين البارزين خلال عصر الأسرات المبكر والمملكة القديمة. خلال عصر الدولة القديمة، بدأ دفن الملوك في أهرامات بدلا من مصاطب أو أهرامات متعددة المصاطب (الهرم المدرج)، ورغم توقف استخدام الملوك للمصاطب فقد استمر الشعب في استخدامها لأكثر من ألف سنة. [المترجم]

"عند النظر إلى صورة يأتي إلى عقل الناظر تماما من تلقاء ذاته اتصال لا لبس فيه بين العمل الفني وصاحبه الذي أتى به إلى الحياة. من الصورة هو يحصل بمعيار ما على شعور بشخصية الفنان، ويشعر بحركة روحه. ولكن العمل المعماري الفني يظل خالقه بالنسبة له مجرد اسم؛ هنا الأمر ليس إرادة فردية تتحدث إليه؛ هنا أبراج لإرادة مجتمع، التي تبدو دائما مثل قوة بدائية مجهولة الاسم. يستخلص شيفلر من هذا أن المعماري هو فقط تلميذ لروح زمانه، هو فقط الأداة الذكية لمفاهيم فنية مثمرة. إنه بالأحرى الفرد الذي يُقاد وليس القائد"[٣].

ولكن الطموحات الداخلية وإرادة المجتمع، كما تتبدى في أفكار المجتمع الدينية، وعاداته والفلسفة الاجتماعية العامة، لا تتغير فجأة، ولكن تتغير تدريجيا فقط، وحتى لو حدثت هذه التغييرات نتيجة وقائع كارثية. ولا حتى الثورات تستطيع إنتاج شيء جديد من نفسها؛ إنها تطلق فقط القوى المختفية التي كانت تتطور ببطء في جسد الكائن القديم حتى لا يبيت الضغط الخارجي غير قادر على الصمود أمامها وتشق هذه القوى طريقها إلى الخارج. من الممكن ملاحظة نفس الظاهرة في تطور الأساليب المتنوعة في الفن، وخصوصا العمارة. حقا قد نلاحظ تغيرات ثورية والظهور الذي يبدو مفاجئا لأساليب فنية جديدة. ولكننا لو دخلنا في المسائل بعمق أكثر قليلا، ندرك بوضوح أن تطورا طويلا قد سبق فترات الثورة، وأنه دونه لا يمكن بناء شيء ما جديد أبدا. يتطور كل شيء جديد عضويا من تلك الأشياء القائمة فعلا وكقاعدة يستمر حاملا على ظهره لمدة طويلة قشرة البيضة التي خرج منها.

إذا ما أتى أحد بطرازين اثنين مختلفين تماما في تجاور، على سبيل المثال، الإغريقي والقوطي، بالطبع يقف عالَم بأكمله فيما بينهما، ولا يُمكِن التعرف على أي نقطة اتصال بينهما. ولكن إذا ما درس المرء النمو البطيء للطرز المتنوعة، ملاحظا كل روابط الاتصال فيما بينها والأنماط الانتقالية، فمن ثم سوف يدرك

المرء النضج البطيء للأشكال والهياكل المتنوعة. ومثل كل الآخرين، لهذا التطور فترات ركود وفترات تحرك حيوي للأمام، رغم عدم إمكانية وجود شيء يستطيع إحداث انقطاع طويل للتقدم الثابت للحركة بأكملها. وهذا أمر طبيعي تماما، لأن الفن ذاته هو مجرد واحد من التبديات العديدة للتقدم الثقافي البنّاء الذي يعطي في طريقه تعبيرا عن هذا. لذا هنا، أيضا، نجد المراحل العديدة لتطور الأسلوب تمتلك زمنا يطول أو يقصر طبقا لتيار الأحداث الاجتماعية أكان ينساب بطيئا أم يتضخم بشكل فجائي ليتحول إلى فيضان يغمر ضفاف النهر. ولكن تدرج ارتقاء التطور لا يمكن أن يُخطأَ فيه أبدا؛ فمن كل شكل هناك ينمو شكل آخر؛ ولا شيء ينشأ بالضبط من تلقاء ذاته، فالكل في حالة سيولة وتحول، كل شيء يتحرك.

ببساطة لا تنشأ مسألة الأسلوب من مفهوم الفنان؛ فهي تعتمد أيضا بمقياس كبير على المادة الموجودة في متناوله. كل مادة، أكانت خشبية أم طينية أم صخرية تتطلب معالجة خاصة لها، وتمتلك تأثيراتها الخاصة بها، والتي يدركها الفنان بالكامل ويضعها في حسبانه أثناء العمل. لذلك لا يتحدث البشر دون سبب عن روح المادة. لذلك يوجد مؤرخون للفن، يمثل التأثير الطاغي للمادة أهمية شاملة بالنسبة لهم. على سبيل المثال، استطاع "ناومان" (***Naumann***) تأكيد أن الطراز القوطي يدين بأصوله مباشرة إلى الحجر الرملي الناعم القابل للتشكيل في منطقة "إيل دو فرانس" (***France-de-leÎ***)، حيث اتخذ الطراز القوطي هناك شكلا ظاهرا لأول مرة. قد يكون هذا التأكيد كاسحا جدا، ولكننا يجب أن نعترف بوجود قدر كبير من الحقيقة يدعم ذلك. دع المرء يفكر في فن البنائين في مصر القديمة، وأصل الأهرامات. أو دع المرء يتناول مبانى البابليين أو الآشوريين الذين نتيجة افتقادهم الخشب والأحجار اعتمدوا تقريبا بالكامل على تصنيع قوالب الطين المخبوزة أو المجففة. أدى البناء بقوالب الطوب إلى تطور أنماط عجيبة من الأسلوب؛ فمنها فقط كان من الممكن للأقواس المستديرة وتدريجيا القبة المقببة (***vaulted dome***) أن تنشأ.

بالطبع المباني الشاهقة عند القدماء لم تنشأ كلها فجأة، ولكن في مجرى تطور ثقافي طويل، في مصر إضافة إليه في بابل شاركت فيه شعوب منحدرة من أوسع دائرة للأصول المختلفة. في عمل يحرّك بشدة مشاعر المرء وعلى درجة أكاديمية عالية لعالِم المصريات "هنري شافر" (***Henry Schafer***)، تم عرض النمو التدريجي لفن البناء بين شعوب وادي النيل بطريقة مقنعة جدا:[٤] كيف تطور المبنى الحجري تدريجيا من هيكل من الطين والطوب والخشب وبوص الأكواخ، وكيف حاول مخترعوه في البداية تقليد الأنماط القديمة بالحجر. من القبور الأقدم التي بسبب شكلها الذي يشبه النعش أطلق عليها العرب اسم "المصطبة" (***maustabas***) أي "مقعد الراحة [الأبدية]"، نشأت الأهرام تدريجيا بأكوام من النعوش الحجرية واحدا فوق الآخر. هرم سقارة (***Sakkarah***) المدرج المشهور وأهرام "دهشور" (***Dashoor***) المسطحة، ما زالت قائمة تستعرض أمامنا مراحل الانتقال المتعددة التي أدت في الأخير إلى الأسرة الملكية الرابعة ومبانيها المذهلة الرائعة في الجيزة (***Gizeh***).

صوَّر لنا "شافر" إلى أي درجة أثرت المباني الملكية لشعوب وادي النيل على كل الشعوب المجاورة ونقلت إليهم النمط المستطيل للبناء - وفعليا البناء الحجري عموما. وجود تزاوج ثقافي في الأزمان المبكرة جدا بين المصريين وسكان ما قبل التاريخ فيما بات يعرف لاحقا باسم اليونان، هي اليوم حقيقة ليست محل خلاف من أي جهة بحثية مرموقة. أيضا نتائج الحفريات الأثرية التي قام بها "ايفانز" (***Evans***)[•] وآخرون في جزيرة "كريت" (***Crete***) كشفت بوضوح الصلات

(•) السير آرثر جون إيفانز (١٨٥١-١٩٤١) عالم الآثار الإنجليزي الأكثر شهرة لكشفه قصر كنوسوس في جزيرة كريت اليونانية وتطوير مفهوم الحضارة المينوية من الهياكل والقطع الأثرية التي عثر عليها هناك وأماكن أخرى في جميع أنحاء شرق البحر الأبيض المتوسط. إيفانز هو أول من حدد حروف هجاء النص الكريتي، فضلا عن الكتابة التصويرية السابقة عليه. بناء على طلب من المنظمات الثورية لشعوب البلقان، لعب دورا مهما في تشكيل أمة=

مع آسيا ومصر. بل أصبح أكثر احتمالا أن نمط الأعمدة المصرية العجيب في مباني "الدير البحري" و"بني حسن" لم يكن دون تأثير على منشآت اليونانيين. وبالمثل التزاوج بين المصريين والشعوب العديدة التي احتلت المشرق وساحل الشام (*Levant*) وخصوصا منطقة حضارة أول الزمان التي يتدفق عبرها الفرات (*Euphrates*) ودجلة (*Tigris*) خرج إلى النور بشكل أكثر وضوحا بواسطة الاستكشافات الأحدث. حقا لسنا بعد في وضع لتحديد أفعال هذا التزاوج متعدد الوجوه وردود أفعاله تفصيليا ولو حتى بطريقة أولية. إلا أننا ربما لن نضل ضلالا بعيدا إذا ما قبلنا الرؤية القائلة إنه قد حدث هنا تحفيز متبادل جرى من شعوب ذات أعراق متنوعة ولم يكن دون أثر على تطور طرز متعددة. ومن غير المتصور تماما أن هذين النظامين الثقافيين الكبيرين مثل مصر وبابل اللذين تطورا في نفس الزمان وتجاورا بمثل هذا القرب لبعضهما البعض لم يمتلكا علاقة ببعضهما البعض. ومن المحتمل أن تلك التأثيرات المتبادلة قد قامت فعلا حتى قبل أن يصبح هناك تفكير في سيادة الفراعنة على النيل أو تملُّك الملوك البابليين والآشوريين لدجلة والفرات. يستطيع المرء حتى أن يقبل بيقين محتمل أن الاختلاط المتبادل ما بين الأعراق والشعوب الذي لعب منذ غابر الأزمان الأولى هذا الدور الواسع في تلك المناطق كان واحدا من أهم أسباب تطور هاتين الثقافتين.

من الممكن كما حدث مع المصريين، هكذا أيضا في فن البناء عند البابليين والآشوريين، ملاحظة التطور التدريجي للأساليب، الذي ربما جاء وتعزز بسبب اقتحام شعوب جديدة للأرض. عندما تكون الشعوب الوافدة مجرد قبائل بدوية بسيطة لا تملك ثقافة تستحق الذكر فإنهم سرعان ما يتم استيعابهم وهضمهم بواسطة الثقافات القديمة. ولكنه سوف يكون العكس تماما عندما تتعرض المملكة لاجتياح بواسطة شعوب عالية التطور. في هذه الحالة، بعد انتهاء الصدام

=يوغوسلافيا [التي انقسمت حاليا إلى عدة دول]. أرسلت تلك الأمة ممثلين لجنازته في ١٩٤١. [المترجم]

العسكري، سوف تظهر أشكال فنية جديدة تمتزج تدريجيا مع تلك الأشكال المستخدمة فعلا وتؤدى إلى ظهور أنماط جديدة من الأسلوب.

لسوء الحظ مواد البناء التي كانت متوفرة للشعوب التي سكنت على ضفاف دجلة والفرات لم تكن من الحجر مثل مباني المصريين، لم تكن من المواد التي تقاوم الزمن. لذلك ليس من السهل إعادة بناء صورة متكاملة من الخرائب الأثرية لثقافات هذا الماضي البعيد. إلا أنه من الممكن التعرف بوضوح على التأثير القوي لغزوات الفرس على الطراز القديم للمباني. إذا كان من الممكن مقارنة خرائب القصور الملكية القديمة في "خورساباد" (***Chorsabad***) بتلك الموجودة في "بيرسبوليس" (***Persepolis***) سوف تقفز الفروق إلى عين الناظر فورا. الميديون (***Medes***)(•) والفرس (***Persians***)(••) الذين هم كما هو معروف جيدا ومثل البابليين والآشوريين ليسوا شعوبا سامية (***Semitic***)، جلبوا معهم من موطنهم الأصلي

(•) الميديون شعب إيراني قديم عاش في منطقة تعرف باسم ميديا (شمال غرب إيران) ويتحدث اللغة الميدية. يرتبط وصولهم إلى المنطقة مع الموجة الأولى لهجرة القبائل الآرية إلى إيران القديمة من أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد (انهيار العصر البرونزي) إلى بداية الألفية الأولى قبل الميلاد (حوالي ٩٠٠ ق.م). من القرن العاشر إلى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، سقطت الأجزاء الغربية لميديا تحت هيمنة إمبراطورية آشورية واسعة مقرها شمال بلاد مابين النهرين، وامتدت من قبرص إلى إيران القديمة، ومن القوقاز إلى مصر والجزيرة العربية. وفر ملوك الآشوريين للميديين الحماية من إغارات الجحافل السيمرية. بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية، حوالي ٦١٦ قبل الميلاد، تشكلت الدولة الميدية الموحدة، والتي أصبحت مع بابل، وليديا، ومصر، إحدى القوى الأربع الكبرى في الشرق الأدنى القديم. في ٥٥٠ قبل الميلاد أخضعهم قورش العظيم، للإمبراطورية الأخمينية. [المترجم]

(••) الشعب الفارسي شعب إيراني يتحدث اللغة الفارسية الحديثة. الفارسي كلمة تعني "من برسيس" وهي منطقة شمال الخليج الفارسي [العربي] تقع في فارس بإيران. من هذه المنطقة أتى قورش العظيم، مؤسس الإمبراطورية الأخمينية، ليوحد كل الإمبراطوريات الإيرانية الأخرى (مثل الميديين) ودمج الإمبراطورية البابلية وإمبراطورية ليديا. الإمبراطورية الأخمينية هي أول إمبراطورية فارسية يعترف بها المؤرخون اليونانيون والفرس لتأثيراتها الثقافية والعسكرية والاجتماعية الهائلة على أثينا، ومقدونيا، ومصر، وليبيا. [المترجم]

طرازا للأبنية الخشبية الذي أخذ يبحث الآن عن وسيلة جديدة للتعبير عن نفسه تحت ظروف مختلفة وتحت تأثير الأشكال الآشورية. الأعمدة الرشيقة في قصر "زركسيس" (***Xerxes***) في "بريسبوليس" برؤوس أعمدتها الرائعة تحمل شهادة عيان على هذا التطور الجديد. طبعا لم تمتلك المباني الأبعاد الضخمة لقصور "خورساباد" الهائلة، ولكنها تتميز بنسق أبهى وخصوصا بانسجام أكبر لعناصر المبنى الخارجية والداخلية. في مباني "سوسة" (***Susa***) القديمة التي تنتمي إلى قصور "بريسبوليس" يبدو التأثير الإغريقي واضحا.

وإذا كانت الصلات الداخلية في فن بناء المصريين والشعوب المشرقية لا تزال في تفاصيلها مجهولة لنا إلى مدى واسع، فإننا نمتلك صورة أفضل كثيرا للتطور التدريجي لطرز البناء المتنوعة في أوروبا. ومن الصحيح أنه هنا أيضا تلتف حجب الظلمات حول البدايات الأولى، لأن المعابد اليونانية المبكرة التي نعرفها تقف فعلا على قمة مرحلة عالية جدا من الإتقان. ويبقى أن الحفائر في "تيرينيس" (***Tiryns***) و"ميسينيا" (***Mycenae***) بآسيا الصغرى وتلك في "كنوسوس" (***Knossos***) و"فايستوس" (***Phaestos***) في كريت قد برهنت بوضوح على أنه هنا أيضا يوجد تأثير محسوس للمصريين والشوام. ويظهر ذلك بشكل خاص في الزخارف المتعددة الموجودة في كريت، مثل، رموز الخصوبة التي تشير إلى شجرة حياة الآشوريين. في ميسينيا من الممكن تتبع صلات مماثلة.

نرى لأول مرة في المعبد الإغريقي عملا فنيا يعرض وحدة محبوكة العناصر. يمثل الداخل والخارج انسجاما غير منقوص. كامل البناء يتبع قانونا طبيعيا ينشأ كل شكل بواسطته من تلقاء نفسه. على قاعدة من ثلاث درجات (***a three-stepped socle***) تقوم أعمدة وجدران الغرف التي تحيط بالساحة المربعة المقدسة. تحمل الأعمدة والجدران مدماكا علويا (***entablature***) يخدم غرض دعم السقف الذي يكون على شكل السرج. أكثر إنجازات فن البناء الإغريقي أهمية هو التشكيل المتناغم للإفريز/الكورنيش (***the cornice***) واتصاله بالغطاء الأفقي للقاعة

الخارجية ومع الجمالون (***gable***). الزخارف الخارجية والداخلية بدرجة ما مستمدة من كامل المبنى. أعمال النحت والرسم تحتل بالضبط المكان الذي يبدو أنه مُقدَّر لها بواسطة الكل وتستمد قيمتها الصحيحة فقط من علاقاتها بالفراغ. يبدو كامل البناء مثل تركيب سعيد لصيغ حسابية ومشاعر موسيقية. والنمطي بشكل ملحوظ لمعبد إغريقي إنه يمنح نفسه لتنويعات متعددة الأوجه، حتى أن العبقرية المبدعة للفنان لا تخضع دون حكمة لقيود وهو لا يحتاج أبدا لتكرار نفسه. التنوع العظيم لأشكال الأعمدة، خصوصا الاختيار الغني ما بين رؤوس الأعمدة، كما يجد تعبيره في الأسلوب "الدوري" (***Doric***) والأيوني (***nicIo***) والكورنيثي (***Corinthian***)، أنتج انطباعات متنوعة دائما. في الواقع امتلاك الكمال الضمني للمبنى الإغريقي مثل هذا التأثير الطاغي الذي يجعل المرء يتفهم لماذا لا يعترف المدافعون اللاحقون عن الفن الكلاسيكي بمصداقية أي نموذج آخر للجمال.

آخر قالب فني أنتجته اليونان، ما يُسمى الأسلوب "الهيليني"، تطور أساسا في آسيا الصغرى ومصر، وهو الرابطة الواصلة مع الأسلوب الروماني. المعبد الروماني هو مزيج بين القوالب الإترورية (***Etruscan***) واليونانية. هنا استخدام الأعمدة يتحد مع القنطرة (***the arch***) والجدار اللذين جلبهما الإتروريون معهم من آسيا. أدى هذا الأسلوب إلى سلسلة كاملة من الإبداعات، نما من داخلها بدوره عدد واسع من الأساليب اللاحقة. وهكذا تطورت ما تُسمى القبة البرميلية (***barrel-vault***) التي تشبه نصف أسطوانة مقطوعة طوليا، والقبة المتقاطعة (***cross-vault***)، التي تتكون من نصفين أسطوانيين متقاطعين بزاوية قائمة ومتحدين معا. شكل الغرفة الذي نتج هكذا لاحقا لعب دورا مهما في تطوير عمارة الكنيسة المسيحية.

لم يرتضِ الرومان أصحاب النزعة العملية تقييد استخدام القوالب التي تلقوها من الإتروريين والإغريق فقط على معابدهم، وقاموا بتطبيقها أيضا على هياكل العديد من مبانيهم التي خدمت أغراضًا دنيوية بشكل خالص. بهذه الطريقة طور الرومان النمط الأكثر أهمية للغرفة المغلقة في المعمار، "قاعة الكاتدرائية"

(*basilica*). كانت البازيليكا في البداية قاعة مستطيلة واسعة في قلب المدينة تخدم التجار وموظفي المدينة كقاعة للمجلس، ولكنها وجدت مبكرا جدا استخداما آخر كمكان لتسوية الخلافات القانونية. أُغلقت مساحة الوسط طوليا بواسطة صفين من الأعمدة، يفصلانهما من اليمين واليسار ممران جانبيان ضيقان، يوجد أعلاهما دائما معرض للوحات فنية. لا يمكن الخطأ في أن معلمي البناء المسيحيين اللاحقين قد استعاروا القوالب الأكثر أهمية لترتيب الغرف من البازيليكا القديمة.

أدى تطور الغرف ذات القباب البرميلية منطقيا من القبة المتقاطعة (*cross-vault*) عبر أنماط وسيطة إلى إنشاء "القبة الكبيرة" (*cupola*)، التي وجدت أكمل تعبير عنها في "البانثيون" في روما. البانثيون هو أتم مبنى بقبة كبرى مركزية. تسميته كنصب تذكاري لعائلة "جوليان" (*Julian*) الإمبراطورية يوضح لنا أن المبنى لم يُعتبَر قاعة لمجلس مجتمع ما ولكن ببساطة فضاء مقفول يحيط بتمثال القيصر. يمتلك التصميم الداخلي في الواقع تأثيرا رائعا. القبة التي تسمح من أعلى بضياء منتظم التوزيع، لا تزودنا بأي عائق أمام الرؤية وتعطي الناظر شعورا بالصعود اللطيف إلى الأعلى. التأثير الشرقي ملحوظ في البانثيون أكثر من أي نماذج أخرى للهياكل الرومانية ذات القباب.

كان يُظَّن سابقا أن المباني المقببة للآراسيين (*Arsacides*) ولاحقا الساسانيين (*Sassanides*) في فارس من الممكن تتبعها إلى التأثير الروماني؛ اليوم نقترب بوضوح أكثر فأكثر للاعتراف بأن التأثير كان ساريا عكس الاتجاه. اتخذ "إيب" (*Ebe*) في كتابه "عقيدة الفضاء المعماري" (*Architektonische Raum Lehre*) موقفا يقول بأن لنا أن نعتبر هذا النوع من المباني استمرارا لبدايات ما بين النهرين، والذي خدم لاحقا أغراض المعمار "المسيحي البيزنطي" إلى جانب المعمار الإسلامي كنقطة بداية. في العموم نثق اليوم بشكل نزيه أن التأثيرات الفارسية والسورية والمصرية تعاونت بشدة في تطور الأسلوب البيزنطي الذي ظهر مع انتشار المسيحية. ومن الصحيح أن بدايات المعمار البيزنطي لم تُحفَظ لنا.

ويبقى أنه لا يمكن الخطأ في وجود التأثير الشرقي في مبانى الفترات اللاحقة. قد عبَّر بعض من أشهر مؤرخي الأسلوب الفني عن الرأي القائل إن الأنواع المتعددة للأسلوب تتجمع مثل أشعة العدسة الحارقة في بؤرة.لتمنح بشكل متواصل دوافع جديدة للفنان. في الواقع، أنتج هذا الجزء من "الشرق" خطًا كاملاً من المعلمين الممتازين للعمارة البيزنطية؛ من بين آخرين: "انتميوس التراللي" (***Anthemius of Tralles***) و"إيزيدوروس الميللي (***Isidoros of Miletus***)، وهما بناة كنيسة القديسة صوفيا (***Saint Sophia***) المشهورة بالقسطنطينية، التي توضع في مكانة المُنتَج الأتم للمعمار البيزنطي.

جوهريا يعرض مبنى الكنيسة البيزنطية انصهارا بين نوعين خاصين – يُعتبَر شكلا خالصا بشكل جمالي– يتجنب أحدهما الآخر، إلا أنهما ينموان معا تدريجيا في وحدة واحدة؛ الكنيسة البيزنطية المستطيلة، الهيكل ذو القبة المركزية. أعطت الوحدة هكذا مجالا أوسع للنظر إلى دافع الفنان في التصميم، وتؤدي هذه الوحدة إلي نواتج متعددة الجوانب في الأسلوب. في الواقع، يمتلك الفن البيزنطي تأثيرا قويا على كل أوروبا وبلدان المشرق ولمدة قرون هيمن على الإنتاج الفني. المباني العديدة التي يعود تاريخها إلى مدى ممتد من بواكير القرون الوسطى في القسطنطينية وإيطاليا واليونان وفلسطين وسوريا وأرمينيا إلخ تحمل شهادة عيان على ذلك. ظل الأسلوب البيزنطي حيا من القرن العاشر إلى الاثنى عشر، ويستمر حيا في البلدان اليونانية الكاثوليكية حتى اليوم. فن البناء عند الشعوب المحمدية يُنْصت أيضا إلى الأسلوب البيزنطي. أول إنتاج للفن الإسلامي المعماري هما مسجدا القدس ودمشق، وكان أسلوب بنائهما بيزنطيا خالصا والذي أشرف على تنفيذهما معلمون بيزنطيون. وإذا كان ربما من الصحيح تسمية مزيد من تطور المعمار المحمدي طرازا إسلاميا فذلك، كما حدث غالبا، محل تساؤل شديد. مثل هذا الانتظام الذي امتلكه الأسلوب كان فقط راجعا لحقيقة أن الدين المحمدي قد ساعد على تحديد الإطار الداخلي للجامع، بالضبط كما حددت المسيحية الترتيبات الخاصة لمبنى الكنيسة. ومع ذلك، فخارج ذلك تماما، هناك عدد هائل من الأشكال

المختلفة من الممكن اكتشافها في المبنى الإسلامي. الإسلام الذي اكتسح تقدمه الناجح عبر الشرق كل الأراضي، من شواطئ الجانج (*Ganges*) إلى ضفاف نهر "الايبرو" (*Ebro*)، تعلَّم في مسيرته أساليبَ من كل شعب وعرق محتمل، وقيَّمها كلها بأسلوبه. وهكذا يتواجد في فن البناء الإسلامي عناصر فارسية وسامية ومصرية وهندية وبيزنطية ومن العصور القديمة، التي أكدت نفسها بطرق متعددة الأوجه ولاحقا امتلكت تأثيرها على فن البناء في الغرب المسيحي.

وتطور من البازيليكا المسيحية المستطيلة تدريجيا أسلوب جديد طبع بطابعه على العمارة الأوروبية من القرن العاشر إلى الثالث عشر. نحن نتحدث عن نمط البناء الرومانسكي (*Romanesque*)(•)، الذي عاد بذاكرته في البدايات إلى الأسلوب الروماني المتأخر، ولكن الذي بلغ أعلى تطور له في البلدان الشمالية. كلمة "رومانسك" كتسمية لمظاهر محددة في الأسلوب هي، إن كان ذلك ممكنا، أقل ملاءمة حتى من مصطلح "القوطي" أو "الرينيسانس". أعطى علماء الآثار الفرنسيون انتشارا للكلمة في بدايات القرن الثامن عشر للإشارة إلى وحدة الأسلوب الذي كان يُطلَق عليه حتى ذلك الوقت في بلدان مختلفة أحيانا اسم "اللومبار" (*Lombard*) وأحيانا "الراينيش" (*Rhenish*) و"النورمان" (*Norman*) أو حتى أي اسم آخر ما. بالطبع التماثل المزعوم ينقصه الكثير مما هو مرغوب، ومبتكرو المصطلح الجديد لا يحتفظون في عقولهم أولا سوى ببعض التفاصيل المعينة من العصر الروماني القديم، مثل الأقواس المستديرة في اتحادها بالأعمدة، وهي ذات

(•) الرومانسك هو أسلوب فني ساد أوروبا منذ نحو عام ١٠٠٠ م إلى حتى نهوض الطراز القوطي في القرن الـ١٣، أو بعده، طبقا لظروف المنطقة. اخترع مؤرخو الفنون في القرن الـ١٩ هذا المصطلح، وخاصة في المعمار، الذي احتفظ بالعديد من الميزات الأساسية للأسلوب المعماري الروماني – أبرزها الأقواس ذات الرؤوس، وأيضا الخزائن البرميلية، وزخرفة ورقة الأكانتس – ولكن مع العديد من الخصائص المختلفة جدا. انتشر نمط الأسلوب الرومانسكي في أنحاء أوروبا الكاثوليكية كلها من صقلية إلى الدول الإسكندنافية. تأثر الفن الرومانسكي إلى حد كبير بالفن البيزنطي، وخاصة في الرسم، واستمد زخارفه من فن الجزر البريطانية. من هذه العناصر خرج أسلوب الرومانسك المبتكر للغاية والمتماسك. [المترجم]

أهمية قليلة في الصورة الكلية. ومن الممكن أيضا تمييز تأثير سلسلة كاملــة مــن الأساليب المختلفة في هذا الأسلوب الرومانسكي للبناء، الذي يعطيه فــي منــاطق مختلفة طابعا مُميّزا تماما. دع المرء يفكر في الهياكل الرومانسكية المقامــة فــي صقلية في زمن سيطرة النورمان بواسطة معلمــي البنــاء المــسلمين الــشرقيين (*Saracen*) والتي تُظهِر سمات أسلوب إسلامي لا يمكن الخطأ فيه. وهكذا بالضبط التأثير البيزنطي على الكنائس الرومانسكية في شمالي إيطاليا الواضح جدا لدرجــة أن المرء يتحدث بإنصاف كامل عن أسلوب "بيزنطي رومانسكي".

بلغ الأسلوب الرومانسكي مستوى خاصًا من الإتقان بــين شــعوب البلــدان الشمالية. بواسطة العواصف الممتدة لهجرات الشعوب وبواسطة العــالم الرومــاني نهضت تلك الشعوب واستثيرت دوافعها لمستوى أعلى من الإبداع. بالنــسبة لهــم كانت المسيحية التي غاصت فعلا بين الرومان في الفساد، تمتلك مغزى خاصا جدا في أنها مكّنتهم وقتها من إعادة تأسيس مجتمع رأي كان يعاني من ضربات مزلزلة عديدة خلال عاصفة وضغوط موجات هائلة من الهجرات والحروب التي لا تنتهي. لقد طوروا بطريقتهم الخاصة مبادئ فن مسيحي للبناء كانوا قد تلقوه عن الجنــوب، ورغم كثير من الصفات الغشيمة والخرقاء التي كانت لا تزال تتعلق بأعمالهم فــي البداية، فإنهم خانوا أصالة صحية كانت تحوي داخلها كثيرًا من العظمة.

تتكون السمة الجوهرية في المعمار الرومانسكي من التخلص مــن الــسقف المسطح والبازيليكا القائمة على أعمدة واستبدالهم بمستطيل مُقبب، تحــل الركــائز (*pillars*) أكثر فأكثر مكان الأعمدة التي في الأخير تجد مكانها في التصميم فقــط كعنصر من عناصر الزينة. باستخدام البازيليكــا ذات القبــاب المتقاطعــة تطــور تدريجيا نوع جديد من الغرف التي تعرض ميلا محددا نحو الحركة إلــى أعلــى. وكلما ازداد اتجاه هذا التطور، أصبحت هذه السمة ظاهرة بقوة. أصبح البرج جزءا جوهريا من الهيكل، الذي أخذ ينمو أكثر فأكثر إلى أن يكون جزءا متكــاملا معــه ومع رؤيته من الخارج، فذلك يعطيه طبيعة متميزة. تدفق هذا التطور في الأخيــر

إلى الأسلوب القوطي وفي نفس الوقت بلغ نهايته. لم يعد في الإمكان فعل المزيد في هذا الاتجاه. كان الطراز القوطي في الواقع النتيجة النهائية المترتبة على ذلك، ومثَّل المنتج التام لمبدأ البناء الرأسي ذلك، الذي في مرحلته الأخيرة من تطوره هذا نزع نفسه بطريقة خيالية من على الأرض وبدافع متهور أخذ يحلق في الأعالي. تحولت أحجاره إلى نشوة تعانق السماء وتفكر في الهرب من كل رابطة أرضية.

إلا أنه سوف يكون من الخطأ أن تتمنى رؤية الطراز القوطي فقط كتعبير عن مشاعر دينية؛ لأنه كان في نفس الوقت نتيجة لشكل محدد من الحياة الاجتماعية التي مثَّل الطراز القوطي إلى حد كبير رمزها. الطراز القوطي هو ترسبات فنية لثقافة قدمت بمعيار معين تركيبا من المبادرة الشخصية مع التعاون المتبادل. في ملحق لكتاب "ويويل" (***Whewell***) "تاريخ العلوم الاستقرائية" (***History of the Inductive Sciences***)، علَّق العالِم الإنجليزي "ويليس" (***Willis***) فيما يتعلق بهذا القالب من الطراز المسيحي للبناء بقوله:

> **قد نشأ بناء زخرفي جديد لا يتصادم مع، ولا يتسبب في اضطراب البناء الميكانيكي، ولكن يساعده ويجعله متناغما. كل عنصر، كل دعامة تدعم الثقل؛ وبواسطة عدد الدعامات التي تساعد بعضها الآخر والتشارك الناتج في حمل الوزن ترضى العين باستقرار الهيكل رغم المنظر الهزيل بشكل غريب لكل جزء من أجزائه المنفصلة.**

"جوستاف لانداور" (***Gustav Landauer***) في أطروحته الممتازة "الثورة" (***Die Revolution***) اقتبس من كتاب "كروبتكين" الرائع "المعونة المتبادلة" هذه الفقرة وألحق بها هذا التعليق الدقيق:

> **قصد رجل العلم هنا ببساطة تصوير طبيعة الأسلوب المسيحي في البناء؛ ولكن لأنه قد ضرب على محتوى صحيح وحقيقي لهذا الأسلوب، ولأن البناء في هذه الفترة العظيمة هو قمة ورمز على مجتمعه، وضع دون قصد في الكلمات صورة لذلك المجتمع: الحرية**

والاتحاد؛ وفرة من الدعامات التي تمنح المعونة لبعضها البعض. وهذا صحيح دون شرط؛ صحيح لدرجة أن الواحد لا يستطيع الوصول إلى صورة أوضح عن فن البناء القوطي على الإطلاق دون الغوص في عمق الهيكل الاجتماعي للقرون الوسطى وتفهم تعدد الجوانب الثري هذا الذي يجد تعبيرا صادقا في العمارة القوطية. ومثل مجتمع القرون الوسطى بنماذج اتحاداته التي لا تحصى، أخوة القسم، والنقابات والمجالس البلدية، ذات الطبيعة الفدرالية والتي لا تعلم شيئا عن مبدأ المركزية، الكاتدرائية القوطية هي أيضا ليست هيكلا مركزيا، ولكنها هيكل لأعضاء يتمفصل بعضهم مع بعض، فيها كل جزء يتنفس حياته الخاصة ورغم هذا يتصل عضويا مع الجميع. وهكذا يصبح المبنى القوطي رمزا حجريا لهيكل اجتماعي فدرالي متمفصل، حتى أصغر جزء منه يحقق فعالية ويساهم في صيانة واستمرار الجميع. فهو لا يستطيع النهوض إلا في مجتمع بهذه الدرجة من الغنى وبهذا الهيكل المتنوع، فيه كل جزء عن وعي أو دون وعي يجاهد نحو هدف مشترك. كانت الكاتدرائية إبداعا جماعيا في مُنتَج، يساهم فيه كل قسم وكل عضو في المجتمع بدور وهو سعيد. فقط من خلال تعاون متناغم من جميع قوى المجتمع، مدعومين بروح التضامن، يستطيع المبنى القوطي القيام ويصبح تجسيدا جليلا لهذا المجتمع الذي منحه الروح. تكشفت هنا روحٌ بنت منزلها الخاص من داخلها للخارج، مكتشفة أنه أسهل أن تتبع دافعها الإبداعي غير المستأنس الذي يخصها أفضل من اتباع قوانين الجماليات، والتي خلقت التوقيت المناسب جمالا من نوعها الخاص يجسد هذا التناغم بين كل جزء من الأجزاء، يتناسب بأحسن ما يمكن مع جوهرها المكنون.

المزعوم غالبا هو أن الطراز القوطي أعمق تجليات المزاج الألماني والطبيعة الألمانية؛ في الحقيقة إنه يجسد فقط مزاج وطبيعة فترة خاصة من الثقافة، بجذور تمتد إلى القرن العاشر، والتي انتشرت من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر في كل أنحاء أوروبا. ذلك العصر، بتماسكه الداخلي الذي ما زال يثير إعجاب البحاثة، لم ينشأ من مساعٍ خاصة لشعب مخصوص. بالأحرى لقد كان نتيجة إبداع جماعي، تعبيرا حيا عن كل الميول الاجتماعية والفكرية التي كانت تلهم وقتها الإنسانية الأوروبية وتحركها نحو نشاط إبداعي جديد. لسوء الحظ، هذه الفترة نفسها ظلمتها بشكل مشين أغلبية هؤلاء المؤرخين الذين يخضعون لتأثير فكرة الدولة الحديثة. تمثل قلة من المؤرخين في كل بلد استثناءً مجيدا، ونحن ندين لهؤلاء بشكل رئيسي الاحتفاظ بفهم كثير من هذه الفترة التي ساء تفسيرها حيا، على الأقل بالنسبة لأقلية. من بين هؤلاء، "جورج ديهيو" (***Georg Dehio***) في عمله بارع التصور عن الفن الألماني، استطاع بشكل وافٍ إظهار أن الأسلوب القوطي لم يكن ثمرة شعب خاص أو جنس خاص. فهو يقول:

> **كان الفرنسيون بشكل مؤكد تماما أول من جمَّع عناصر البناء القوطي في نظام منطقي، وأيضا أول من أدرك قيمتها كتعبير عن المزاج القوطي، ومشاعر العالم القوطي أو أي شيء آخر ترغب في تسميته. وتأكدوا بذلك من شرف مساهمتهم في تطبيق تاريخي عريض.**

إلا أنه ليس صحيحا أن تمضي لأبعد وتزعم أن هذا المزاج، هذه المشاعر العالمية بأي معنى حصري، صفة للعقل الفرنسي تعود إلى خواص وراثية. الجنس في حد ذاته هو مبدأ محل تساؤل لتفسير أي ظواهر تقع داخل حدود نفس الزمن. ماذا عن هذا المبدأ إذا ما تعامل المرء مع شعب مختلط الأجناس؟ هل هو عرق من "الغال" (***Gallic***) أو هو لاتيني (***Latin***) أو جرماني (***Germanic***) في الرجل الفرنسي قد وجد تعبيرا عنه في الطراز القوطي؟ يكفي أن تسأل السؤال حتى تدرك أن السؤال لا يمكن أن توجهه لنفسك. فالطراز القوطي لا يُفسَّر بواسطة تقاليد الدم؛

إنه التكوين الفني للثقافة الذي تم خلقه ومعايشته بشكل مشترك بواسطة الرجل الشمالي (*Nordic*) في مرحلة مؤقتة من تطوره. لقد كان ناتجًا زمنيًا للمواطنة العالمية في أوج العصور الوسطى، والذي خرج لينمو من فكرة لشعوب العائلة الجرمانية الرومانية - هذا كان البرعم الحقيقي للطراز القوطي[٥].

لقد ظهر بين قبائل "الفرنجة" (***Frankish***) من منطقة "إيل دو فرانس" (***Ile de France***) وفي "بيكاردي" (***Picardy***) الأسلوب القوطي أولا ليجد تعبيره الكامل بعد أن مر بنجاح عبر كل المراحل الانتقالية. من هناك انتشر الأسلوب القوطي تدريجيا ليغطي كل أوروبا ويتخذ في كل منطقة شكلا مميزا. غالبا كشفت الفروق عن نفسها حتى في نفس البلد، وليس من النادر أنها فعلت ذلك في نفس البلدة، لتكشف لنا عن التأثيرات متعددة الأوجه للعصر. وإذا كان الطراز القوطي لم يبلغ في إيطاليا مثل هذا الإتقان البالغ، الذي وصل إليه في عديد من الأماكن المحلية في ألمانيا، فلن يكون ذلك سبيلا لتتبع الاختلافات ما بين الأجناس أو اختلافات الجنسية. هنا قد لعبت تأثيرات الماضي دورا حاسما، وبالضرورة ظهر مفعولها في إيطاليا بطريقة معاكسة تماما لما ظهر منها في ألمانيا. في إيطاليا تقاليد أسلوب العصور القديمة لم تُقمَع بالكامل؛ فمن ثم أيضا لم يكن من الممكن تغيير معارضة الكنيسة المريرة "للتقاليد الوثنية" بهذا الخصوص. ظلت أصداء القديم دائما ملحوظة هناك، ولم يستطع تطور الأسلوب القوطي في البناء الهرب من هذه التأثيرات. ونفس الظاهرة من الممكن ملاحظتها أيضا في أجزاء عديدة من فرنسا، حيث لم يتم القضاء تماما على مبادئ النمط الرومانسكي في البناء في الهياكل المعمارية القوطية. في إنجلترا مرة أخرى مبدأ البناء الرأسي تم تنفيذه إلى الحد الأقصى من الطراز العمودي الذي كان يمثل صيغة خاصة من الأسلوب القوطي. وعن نفس الظاهرة التي نستطيع الإحساس بها في شتى تنويعات مراحل التطور لكل فترة أسلوب عظيم، هناك عديد من الظواهر العظيمة.

مع انحلال مجتمع القرون الوسطى وثقافة المدينة القديمة أيضا غاص الفن القوطي ببطء داخل قبره. بداية "الرينيسانس" هي ضربة أولية من فترة جديدة في تاريخ شعوب أوروبا وبالضرورة أدت أيضا إلى طراز جديد في الفن. إلا أن من

الخطأ اعتبار "الرينيسانس" مجرد شأن خالص للفنون. كل تحول عظيم في الأسلوب هو تعبير عن تغيرات اجتماعية ونستطيع فهمه بشكل صحيح فقط من خلال هذه التغييرات. كان الرينيسانس حدثا ثقافيا ذا أهمية أوروبية لا يستطيع شعب الهرب من تأثيراته. ولو رغب المرء في تقدير تأثيره بشكل صحيح على الهيكل الثقافي لأوروبا يجب على المرء تأمله ككل. بالنسبة لما كان يُسمى عادة كرينيسانس فرنسي أو إيطالي أو ألماني أو كان يظهر في أعمال المؤرخين كمذهب إنساني (***Humanism***) أو إصلاح (***Reformation***) أو عقلانية (***Rationalism***) هي أجزاء من كل نستطيع نحن فهمه في كليته فقط في ضوء الصلات الداخلية لكل نتائجه المنفصلة. وبالنظر إليها هكذا، كانت "الرينيسانس" بداية لانقلاب قوي في كل مجالات الحياة الشخصية والاجتماعية أدى إلى إعادة صياغة كل قوالب الثقافة الأوروبية. فقدت كل الأعراف والمفاهيم الأسبق قبضتها، وبدأت أكثر النظريات والأفكار الراسخة بحزم في الترنح وطاح القديم والجديد في فوضى مجنونة حتى تشكلت منهما تدريجيا عناصر جديدة للوجود الاجتماعي. وأن مثل هذه الواقعة التاريخية بعيدة الأثر التي كان يجب لها أن تنتج حتى في الفنون انقلابا أصيلا في كل الأساليب التقليدية، كانت أمرا حتميا لا يحتاج إلى مزيد من التفسير. في الواقع، أدت الرينيسانس إلى تجديد مفاهيم عتيقة للأسلوب، حقيقة تكشفت بوضوح خاص في العمارة. إلا أنه حتى هنا لا يستطيع المرء الحديث عن انقطاع حاد مع الماضي. من الصحيح أن الرينيسانس كانت نقطة بداية لمفهوم جديد للحياة وللهيكل الفني، ولكن صلاتها بما قد كان، من الممكن تمييزها رغم ذلك بوضوح. هنا أيضا تخترق الأشكال المنفصلة بعضها البعض، ويتمفصل الجديد مع القديم. يعلّق "جوستاف إب" (***Gustav Ebe***):

> **عموما يتم تصور عصر فن الرينيسانس العظيم الذي نشأ في إيطاليا وتوسع أولا في بلدان غرب أوروبا وفي الأخير امتد باتساع بوصلة العالم كله، بوصفه إعادة قبول للتقاليد الفنية للعصور القديمة وعصر الرومان؛ وتمضي هذه الرؤية حتى إلى أبعد لدرجة أنها تتصور**

الرينيسانس، على الأقل في أنقى شكل إيطالي لـه، مستمدا لكامل جهاز طرازه من مصادر رومانية. وفي نفس الأثناء، وبشكل مستقل عن المعالجة بأشكال الأسلوب التي تعبر عن نفسها في تباين حاد مع الطراز القوطي، التقدم المستمر في تطور الأنماط الفراغية أصبح محسوسا وقد كان ينمو بالكلية في تربة إنجازات العصور الوسطى. وفي هذا الحقل المذكور أخيرا لا يظهر أيضا انقطاع حاد مع سلفه المباشر، ولكن مزيد من تطور منطقي للأنماط القديمة يتطابق مع أفكار ومطالب العصر، في إعادة بناء ربما لن تكون قابلة للتصور دون عون معجم مرادفات يردد أصداء العصور القديمة(٦).

صحة هذه الملاحظة واضحة. في المعالجة الفنية للفراغ في عمارة الرينيسانس، رغم كل تباينات الأسلوب التي تفصله عن أشكال العصور الوسطى، مجرد أنها تضع توقيعها على جيل جديد. تُغيِّر وتُكيِّف الأشكال الخارجية نفسها مع المطالب الجديدة والتيارات الفكرية. الإنسان الذي يحول حملقته المتحمسة من السماء إلى الأرض مرة أخرى سرعان ما يثبتها على ما هو أرضي. تفقد المباني طبيعتها الرأسية التي وجدت أعلى إتقان لها في الطراز القوطي ولم يكن من الممكن التفوق عليها. بدلا من المرتفع الصاعد ظهرت هناك مرة أخرى سمة الانتشار الواسع على الأرض؛ أصبحت السمة الأفقية هي الشخصية الحاسمة في المباني الجديدة. لم تعد تنمو من الداخل صاعدة إلى السماء؛ اتخذت شكلا مرنا من الخارج، طبقا لمبادئ محددة وافتراضات فنية جديدة. أصبحت الأبعاد مرة أخرى مقياس كل شيء وتخصص لكل جزء مكانه الثابت الذي لا يقبل الرجوع فيه. الترتيب المكاني مُدبَّر مسبقا بشكل واضح، ويدعمه مبادئ محددة مُرشِدة للتنظيم. ينتهي غالبا المبنى بكورنيش التاج (***cornice crown***) الثقيل؛ والطوابق المنفصلة أيضا تتميز بشكل حاد عن بعضها البعض بكرانيش، تتأكد بها الطبيعة الأفقية للجميع بشكل أكثر قوة. تبرز هذه السمة بوضوح خاص في قصور الرينيسانس الإيطالية. عاد أيضا استخدام العمود، كما يظهر في الطريقة الساحرة بنحو خاص في باحات مباني الرينيسانس في إيطاليا المحاطة بواسطة المقاطع (***loggias***) والأروقة (***porticos***).

في المباني الكنسية المبدأ المحوري الذي كان الطراز القـوطي قـد قمعـه بالكامل، عاد للسيادة مرة أخرى. تغطي القبة الكبيرة الجزء الغالـب مـن الهيكـل المركزي، والتي لا تزال تُحدِث بأكثر قوة الطبيعة المنغلقة للهيكل. وحتى لو كانت الصلات بالنماذج الأولية للطراز البيزنطي والأنتيك لا يمكن الخطأ فيها، رغم ذلك، معلمـون مثـل "برونليسكي" (*Brunelleschi*)(•) و"برامـانتي" (*Bramante*)(••) و"مايكل أنجلو" (*Michelangelo*) بالأخص، استطاعوا إحداث تأثيرات جديدة بالكلية من الوزن والقوة المتمركزة بما لا يقارن. ومن الصحيح أنه كان ضروريا توحيـد النمط المركزي للبناء مع المستطيل بطرق متنوعة حتى يتكيف مع المطالب العملية ولكن كانت هذه التجارب التي وقعت بشكل خاص في أواخر عصر النهضة، هـي التي أعطت الدافع لثروة من أشكال الأسلوب المتميزة للغاية. تصميم مايكل أنجلـو لكنيسة القديس بطرس في روما هو أقوى تعبير عن هذا الأسلوب الجديد وإذا جاز لنا الحديث هو كلمته الأخيرة. برامانتي، الذي يُنسَب إليه بنـاء الكاتدرائيـة، فـي تصميمه لها أحاط القبة الكبرى الرئيسية بأربع قباب صغيرة إلا أن كلا منها كانت لديها حياتها الخاصة وقدمت في حد ذاتها كلاً تاماً. ولكن مايكل أنجلو الذي واصل العمل بعد وفاة برامانتي أخذ من الأربع قبـاب الـصغيرة شخـصيتها المنفـردة وأخضعها كلها تقريبا بشكل عنيف إلى هيمنة القبة الكبرى الرئيسية. وهكذا سُـرِق

(•) فيليبو برونليسكي (١٣٧٧-١٤٤٦) مهندس إيطالي وشخصية رئيسية في الهندسة المعمارية، يعتبر الأقدم بين الآباء المؤسسين للنهضة. وهو عموما الأكثر شهرة لتطويره تقنية المنظـور الخطي في الفن وبناء قبة كاتدرائية فلورنسا. اعتمد بشكل كبير على المرايا والهندسة، لتعزيز الروحانية المسيحية، وظل منظوره الخطي سائدا حتى أواخر القرن الـ١٩ ". تشمل إنجازاته وضع تصميمات أعمال معمارية أخرى وتصميمات في النحت والرياضيات والهندسة وتصميم السفن. أعماله الرئيسية الباقية يمكن العثور عليها في فلورنسا، إيطاليا. [المترجم]

(••) دوناتو برامانتي (١٤٤٤-١٥١٤) معماري إيطالي، قدم عمارة عصر النهضة إلـى ميـلان والطراز الرفيع منها إلى روما، حيث شكل مخططه لكاتدرائية القديس بطرس أساس التصميم الذي نفذه مايكل أنجلو. مبنى (سان بيترو في مونتوريو) الذي شيده برامانتي هو علامة على بداية عصر النهضة العليا في روما (١٥٠٢) عندما عينه البابا يوليوس الثاني لبناء دير ليكون رمزا على المكان الذي صلب فيه القديس بطرس. [المترجم]

من كل جزء استقلاليته وتم دمجه في الوحدة المركزية التي تكاد تكون قد سحقت حياة أجزائها المنفصلة. طور مايكل أنجلو هذه السمة إلى أقصاها؛ ولكنه فتح أيضا آفاقًا جديدة بالكامل أمام فن البناء وبث فيه الروحانية إلى درجة جعلت إبداعاته لا تقبل الفناء.

أسلوب الرينيسانس الذي قام بتذويب كل الأعراف التقليدية إلى لا شيء والذي، خصوصا في المرحلة الأخيرة من تطوره، اقترب إلى درجة خطيرة من الشك الذي عرقل مفعوله جهود هذا الأسلوب نحو ما هو أسمى، وتعثرت بالضرورة هنا، إن لم تكن قد تشبعت باشتياق أعمق محدد ظل يتطلع إلى شواطئ جديدة. لم يشعر أحد بذلك بشكل أكثر عمقا من الفلورنسي العظيم، الذي عكست شخوصه المعذبة بالصراع الداخلي لروحه الخاصة. لم يستطع مايكل أنجلو بطبيعته التي تشبه فاوست أن يرضى حتى بالعناصر الخارجية الأكثر مدعاة للتفاخر. جاهد مايكل أنجلو دائما لجعل الفن ذاتيا وطرق عديد من البوابات الكئيبة التي لم تُفتَح إلى هذا الحد أمام أحد سواه. تكشفت هذه السمة أيضا بشكل متميز في إبداعاته في صخور القشرة الأرضية (*tectonic creations*). أصبح عمله كيانا حيا يتنفس كل عاطفة من عواطف الروح البشرية، وكل تنافس خفي، وكل تحد متمرد، وفوق كل شيء هذا الإلحاح العملاق للإنسان الخارق المُميِّز لدرجة كبيرة كامل إنتاج هذا المعلم، الذي يمكنه حتى من التقدم متجاوزا أفق عصر النهضة.

خرجت الثقافة الاجتماعية لعصر النهضة من إيطاليا بشكل أساسي، وهذا حقيقي، ولكن حيث إنها أوجدت في كل مكان في أوروبا الخلفية الاجتماعية والفكرية المطلوبة، فقد أيقظت في كل بلد صدى حيويًا، وتطورت إلى أسلوب عالمي تنعكس فيه الثقافة الاجتماعية لعصر خاص. حدودها كانت واسعة لمدى بعيد لا يمكن تقييدها داخل الإطار الضيق للأفكار القومية. ومثل الطراز القوطي، تسبب طراز الرينيسانس في ميلاد أساليب متنوعة نمت منه في بيئات خاصة. إذا كان التطور الذي بلغه الطراز القوطي في ألمانيا لم يبلغه قط في إيطاليا بسبب منع

تقاليد أسلوب "الأنتيك" من تطوره هناك بطريقة غريبة، وبالضبط هكذا لم يستطع أبدا فن الرينيسانس بالكامل أن يتغلب على التقاليد القوطية الحيوية في ألمانيا. ومن الممكن إظهار نفس نوع الأمور للرينيسانس في إنجلترا، أو فرنسا أو أسبانيا. في كل مكان أثرت البيئات والتقاليد الخاصة للماضي على تطور الأسلوب. ولكن هذه الغرائب والانحرافات لم تدمر الصورة ككل؛ على العكس فقط أقامت الصورة كاملة ووضعت علامة على علاقة قرابة الطموحات التي كانت تتغذى في كل مكان من نفس المصادر. ليست الطبيعة الخاصة للجنس ولا خصوصية المزاج القومي هي التي استدعت فن الرينيسانس للحياة؛ إنها الثورة الاجتماعية العظمى التي انتابت كل أوروبا والتي أعطت في كل مكان الدافع لتطوير أنواع جديدة من الأسلوب ومفاهيم جديدة للفن بشكل عام.

منطقيا من فن الرينيسانس تطور فن الباروك (*baroque*)[*]، الذي ميَّز الأسلوب الفني للقرن السابع عشر وفي العديد من البلدان، خصوصا ألمانيا ساد هذا الفن حتى القرن الثامن عشر. هنا أيضا نحن لا نواجه انقطاعا حادا مع الماضي الذي لم ينشأ بدلا في فوضاه الأولية شيء ما جديد، ولكن مع تطور تدريجي تبلور ببطء من نمط أسلوب الرينيسانس، تحت تأثير التحولات الاجتماعية في حياة الشعوب الأوروبية مثل كل أسلوب آخر. ومن خارج الفوضى المحيرة لزمن

(*) برز عصر الباروك كأسلوب فني في أوائل القرن السابع عشر في إيطاليا (وفقا لكتّاب آخرين في نهايات القرن السادس عشر) ومن هناك امتد نحو أغلب أوروبا، رغم ظهوره أيضا بفعل الاستعمار في العديد من المستعمرات التابعة للدول الأوروبية وخصوصا في أمريكا اللاتينية. ومن ناحية زمنية فقد شمل عصر الباروك القرن السابع عشر بأكمله وبدايات القرن الثامن عشر، مع زيادة في هذه المدة أو نقصانها وفقا لكل بلد، حيث اتسمت هذه الفترة بنزاعات دينية قوية بين البلدان الكاثوليكية والبروتستانتية، إضافة إلى الاختلافات الملحوظة بين الدول المؤيدة لنظام الحكم المطلق والدول البرلمانية، مع بدء تشكل طبقة برجوازية ناشئة تضع أسس الرأسمالية. حملت كلمة باروك لوقت طويل (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) معنى تحقيرياً، حيث اعتُبر الباروك طرازا مخادعًا وغريبًا ومبالغا فيه، إلى أن أعيد تقييمه لاحقا بواسطة ياكوب بوركهارت وآخرين في نهايات القرن التاسع عشر. [المترجم]

عصر النهضة تشكلت تدريجيا الدول الأوروبية الكبرى متنكرة في الحكم الملكي المطلق. تطورت أسر ملكية قوية أو أكدت موقعها في معظم البلدان الهامة بعد التغلب على مقاومة المدن والنبلاء الأتباع. صعدت سلطة جديدة جلبت حتى الكنيسة تحت سيطرتها وجعلتها خادمة لغاياتها. بمساعدة جيوشها الضخمة وجهازها الإداري البيروقراطي نجح الحكم الملكي في اكتساح كل القوى المعادية من الميدان وفي قمع حقوق وحريات المجالس البلدية القديمة بالقوة. أصبح شخص الملك هو تجسيد السلطة الكاملة بشكل مطلق، وأصبح البلاط محور كل الحياة الاجتماعية. أخذت الدولة كل وظائف المجتمع بين أياديها أو تحت إشرافها ووضعت بصمتها على كل الأداء الاجتماعي. التشريع والقضاء وكامل الإدارة العامة أصبحت احتكارا للملكية؛ يكاد يكون المجتمع قد اندمج بالكامل في الدولة. هذا التحول في كامل الحياة الاجتماعية أرغم فكر ومشاعر الرعايا على المسير بالقوة في خطوط ترسمها الدولة. بدا أن كل شيء موجود فقط لتعزيز أغراض الأسرة المالكة. كان زمان "مملكة الشمس"، التي يستطيع ممثلوها أن يهتفوا بكلمات: "لا في [الحياة]، هي كلمة" (*LV c'est mot!*)

في حالة مجتمع، كل نشاط عام فيه يمتلك قاعدة خاصة وكل شيء محكوم ومنضبط بقواعد من أعلى حتى أدق التفاصيل لا يوجد هناك بالكاد شيء يمنح الفن إمكانية الإبداع الحر. ممثلو الفن هم في خدمة السيد المستبد وليس لديهم بالكاد مهمة أخرى سوى الدعاية لمجد نعمته السامية. كما أشرقت في السابق روائع الكاتدرائيات والاحتفالات الدينية الكنسية مثل هالة مقدسة لامعة، كذلك الآن فخامة القصور والبلاط الملكي شكلت هالة مقدسة للحكم الملكي وأضافت لسلطتها مجدا أسطوريا. في هذه الحكمة ارتفعت المباني العظيمة لفترة الاستبداد: "اللوفر" (*Louvre*) في باريس، والقصر والحديقة في "فرساي" (*Versailles*) و"الاسكوريال" (*Escorial*) في مدريد، و"الزوينجر" (*Zwinger*) في درسدن، وهكذا؛ وحيث إن كل مستبد صغير لابد له من "فرساي" خاصة به، انتشر الطراز الجديد في كل بلد. فقط في صلة بإعادة البناء الاجتماعي هذا في أوروبا نستطيع فهم فن "الباروك" بشكل

صحيح. المصطلح نفسه، والمستمد من الكلمة البرتغالية (***baroquey***) التي تعني لؤلؤة فريدة جدا تتشكل بواسطة صهر عدة وحدات من المقادير المُعبأة، هو في حد ذاته اسم غير هام على الإطلاق، وكان يُستخدَم أولا على سبيل السخرية.

في الواقع "الباروك" يعني طرازا جديدا نشأ من الرينيسانس، ولكنه يمتلك جذورا في مفهوم جديد للفن. في تباين حاد مع الطراز القوطي، ادعى الرينيسانس متتبعا خطوات أقدام أسلوب "الأنتيك"، أن التناغم المتزن بأعمق ما يكون وفعليا هو العنصر الوحيد الذي يعبر عما هو جميل. أرسى الباروك معيارا جماليا جديدا بوضع السلطة بديلا للتناغم. بذلك تكشف بوضوح تأثير إعادة البناء الاجتماعي في أوروبا. مفهوم السلطة عند الملَكية المستبدة ملأت عقل العصر. أصبحت السلطة جمالا، تعبيرًا عن مشاعر فنية جديدة، ونال الباروك تدريجيا كامل الإعجاب في خدمته للملَكية. يشع جلالة الحاكم الملكي المطلق ببهائه على كل شيء، ويُخضِع كل مشاعر الحياة الاجتماعية لنفسه. هذا المجد المتوهج للمستبد، السلطة بلا حدود التي عند أعلى تطور لها أصبحت الملَكية قادرة على أن تحيط نفسها به، تكشَّف هذا المجد أيضا في عمارة ذلك الزمان، وأعلن عن جبروته باتفاق مدوٍ. السلطة الكاسحة للدولة المطلقة المستبدة، التي لا تتحمل شيئا يقترب من شخص الحاكم يدعي المساواة في المولد ويطبع بطابع أغراضه على كل شيء، أعطت لفن الباروك هذه الطبيعة الممثلة للبلاط والمطبوعة بعمق، والتي كانت مُميِّزة هكذا لكامل القرن السابع عشر. وبالضبط كما جعلت حركة "اليسوعيين" (***Jesuitism***) مهمتها تحويل سلطة الكنيسة مرة أخرى إلى شأن ذاتي، هكذا سعى المدافعون عن الحكم الاستبدادي المطلق الآن إلى تحويل الطبيعة القهرية للحكم الملكي إلى شأن روحاني وجعل البشر يتناسون أصلها الحقيقي. وهكذا تناولت الملَكية بهاء بركة الإنسان المتفوق الذي يجد تعبيره حتى في مبانيها. في الواقع، يمسك المبنى الباروكي غالبا بالناظر في قبضة سلطة ضمنية لتبديات اسطورية ويملأ روحه بالرهبة والصدمة.

اتبعت مباني الكنيسة في تلك الفترة نفس الخطوط وأتت بجبروت مبدأ مطلق للسلطة إلى أعلى فاعلية له. تحت نفوذ الجيزويت، الذين جسدوا تاريخيا الثورة المضادة المنظمة، تطور هناك ما يُسمى "أسلوب الجيزويت" (***Jesuit style***). المشاكل الجديدة للفراغ والمساحة شقت طريقها إلى المقدمة وأنتجت في عقول المؤمنين تأثيرا طاغيا، دافعا مشاعرهم بسطوة لا تُقاوَم تحت نير تأثيرها المسيطر بشكل شامل. منزل الرب تحول إلى مكان للعرض، مزين بالزخارف البهية وغالبا كان محفزًا لمشاعر الإثارة العاطفية مثل تلك التي تتدفق فقط مع النشوة. موجات من الإرهاب السحري الغامض بدت كما لو أنها تنبثق من المكان المقدس. تم تصميم الهيكل الخارجي إلى جانب التأثيث الداخلي ليهمس إلى الإنسان بجبروت "الإرادة العليا" التي تخطو منتصرة فوق كل شيء يمتلك روابط أرضية.

في الأخير انتهى أسلوب الباروك إلى أسلوب "الروكوكو" (***rococo***).(•) جلالة الثلجية والوقار الناشف لمراسم البلاط أصبحت متعبة في الأخير، وأثارت احتياجا لأشكال أدفأ وأكثر حميمية. ما يُسمى "أسلوب الريجنسي" (***Regency style***)

(•) الروكوكو أو "الباروك المتأخر"، هي حركة فنية وأسلوب ظهر في القرن الـ١٨، أثرت على جوانب كثيرة من الفنون بما في ذلك الرسم والنحت والمعمار، والتصميم الداخلي، والديكور، والأدب، والموسيقى، والمسرح. في عام ١٨٣٥ ذكر قاموس الأكاديمية الفرنسية أن كلمة الروكوكو "عادة ما تغطي هذا النوع من الزخرفة والأسلوب والتصميم المرتبط بعهد لويس الخامس عشر وبداية حكم لويس السادس عشر". ظهر الروكوكو في مطلع القرن الـ١٨ في باريس، كرد فعل ضد العظمة، والتماثل، والأنظمة الفنية الصارمة للباروك، وخاصة قصر فرساي. استخدم فنانو ومعماريو الروكوكو نهجًا أكثر بهجة، ورشاقة من الباروك. كان أسلوبهم هو الزخرفة واستخدام الألوان الفاتحة والتصاميم غير المتكافئة، والمنحنيات، والذهب. وضع تصميم الديكور الداخلي لغرف الروكوكو كعمل فني مع أثاث أنيق ومزخرف، وتماثيل صغيرة، ومرايا الزينة، يكملها السجاد والنقوش واللوحات الجدارية. اهتم الروكوكو أيضا بالمسرح. مسرح الروكوكو " أنتج حوارًا أكثر ظرفا، وأناقة، بلغة مراوغة وتمويه وإيماءات، ونقد خفي". بحلول نهاية القرن الـ١٨، تم استبدال الروكوكو إلى حد كبير بالأسلوب الكلاسيكي الحديث. [المترجم]

الذي نشأ تحت وصاية فيليب أورليان (***Philip of Orleans***)(•) أخذ هذه الحاجة في الحسبان، وبدأ نمطا جديدا للتعبير نما تدريجيا إلى "الروكوكو" ووصل القمة تحت حكم لويس الخامس عشر (***Louis XV***). بدلا من البعيد عن المتناول وذي الجلالة، الذي ينبذ بكبرياء صارم كل حميمية، ظهر هناك الرشيق والساحر الذي يسعى لخيالات هوائية متلونة ومكائد غرامية من أجل السعادة فقط، ولم يعد ينوء بأعباء تمثيل نظام اجتماعي ما. وهكذا نشأ هناك نمط جديد يكشف عن نفسه بشكل رئيسي في تزيين البيئة الداخلية. فقدت الحوائط طبيعة الكتلة الضخمة وتحولت إلى إطار تكويني، مساحاتها مغطاة بخطوط عابرة ووحدات زخرفية من الزهور وعناصر أخرى من الزينة البهيجة. تمتزج الحوائط بالأسقف التي تتزين بشخصيات مرحة من الجص. فقدت الألوان خشونتها وذابت في تونات ناعمة. ساعدت المرايا الضخمة في الشقق السكنية على إزاحة الحدود الطبيعية للغرف إلى الوراء، وأخفت بطريقة مخادعة أبعادها المادية.

وما كان ساحرا على نحو خاص هو "البورسلين" (***porcelain***) الرقيق الذي لم تخلُ أناقته من تأثير على كامل تطور فن الروكوكو. فَقَدَ الأثاث أيضا كتلته الثقيلة المُربِكة وتكيَّف مع ترتيب التصميم الداخلي. هيمن على البشر والأشياء اضطراب استفزازي ناشيء من حساسية مرهفة، وسرى مفعوله مثل المخدر الغامض على أعصاب الشرائح العليا للمجتمع مفرطة الانتباه. تطابق النمط الجديد بالضبط مع الحالة العقلية للطوائف صاحبة الامتيازات. أصبح التبدل العميق في العادات والتقاليد الأكثر حميمية ظاهرا للعيان في هذه الدوائر، وفي الروكوكو وجدنا ترسباته العاطفية.

مبدأ السلطة والقوة، الذي استطاع الحكم الملكي المطلق في زمن تطور صعوده أن يعطيه مغزى ميتافيزيقيا، فقد الكثير والكثير من طبيعته هذه، وفي

(•) فيليب أورليان (١٦٧٤-١٧٢٣) عضو العائلة المالكة في فرنسا وعمل نائبا لجلالة الملك من ١٧١٥ إلى ١٧٢٣. نصب وصيا على لويس الخامس عشر حتى بلغ لويس رشده في فبراير ١٧٢٣، وعهده معروف بحكم الأمر الواقع أو الريجنسي (١٧١٥-١٧٢٣). مات في فرساي في ١٧٢٣. ويشار إليه من الناحية التاريخية باسم لو ريجنت [الوصي]. [المترجم]

دوائر المحاسيب والطفيليين تحول الأمر إلى تقييم نتائجه العملية فقط. بدأ الـــشعب يتندر على البحث العبوس عن المجد والفخامة الجوفاء للعظمة المزعومة التي لـــم تعد تثير انبهار أي أحد. كل الذي كان يثير الانبهار سابقا ببُعد المنال الأكثر جلالا والأكثر مدعاة للفخر أصبح يراه الناس الآن تصنُّعا زائفـــا سخيفـــا ومنـــح بشكل لا إرادي الفرصة للمثقفين لممارسة دوافعهم التهكمية واستعراض حدة مواهبهم في المكر والالتفاف. لم تعد الملكية فعلا سوى جثة محنطة تنتظر مراسم الدفن. عندما ميَّز لويس الرابع عشر الدولة في شخصه كان يعطي أكثر التعبيرات فخرا للجوهر الدفين للملَكية المطلقة المستبدة: الملك كل شيء، الشعب لا شيء! ولكن فيما بعـــد أطلقت "مدام دو باري" (*Madame Du Barry*)(•) بألفة حادة على مليكها الهمام، "إنه فرنسا" (*La France*)، لقد كانت أقسى السخريات وأكثرها ألما أن تلـــك الملَكيـــات "بنعمة من الرب" (*by the grace of God*) أقامت نفسها فوق الجميع. لـــم تنتظـــر الملَكية الجاهزة للسقوط زمنا طويلا في المـــستقبل حتـــى تحقـــق ســـقوطها. فـــي عواصف "الثورة" انهارت ثقافة الروكوكو الهشة إلى حطام، ســـويا مـــع المجتمـــع القديم الذي كان قد أنتجها. ووسط التشنجات الكئيبة والصدمات العنيفة أخذ يتـــشكل عالم مختلف، ونشأ جيل جديد، يتطلع نحو آفاق جديدة.

ما كان يأمله الجيل ويتطلع إليه لم يصبح حقيقة أبـــدا، وكلمـــات "الحريـــة والمساواة والإخاء" ما زالت صدى لحلم ليس إلا. المجتمع البرجوازي الذي دخـــل في وراثة لنظام الحكم القديم، كان قادرا، وهذه حقيقة، على منح الحيـــاة للـــصورة التجريدية للأمة الحديثة كما لو كان بمفعول السحر، ولكنه أنكر على هذه الأمة أن تشكل مجتمعا فريدا يمتلك جذوره في احتياجات الكل ويقوم على مبادئ من العدالة الاجتماعية. نظامه الاقتصادي الجديد، الذي رعا "حرب الجميع ضد الجميع" حتـــى صار مبدأً، ولَّد بالضرورة هذه الأنانية منزوعة الرحمة، التي تميز العالم الرأسمالي

(•) جين بيكو، الكونتيسة دو باري (١٧٤٣-١٧٩٣) آخر عشيقة رسمية للويس الخـــامس عـــشر ملك فرنسا، وواحدة من ضحايا عهد الإرهاب أثناء الثورة الفرنسية. [المترجم]

بشدة، الذي يتقدم بالسير فوق الجثث. لم يصبح هذا المجتمع في موقع ليخلق روابط اجتماعية بين البشر والشعوب؛ لقد وسَّع فقط من التناقضات وجعلها أكثر صعوبة في الحل وأدى منطقيا إلى الحرب العالمية [الأولى] والفوضى الرهيبة في زماننا.

لذلك لم يكن من المستطاع خلق آفاق فكرية جديدة للعمارة. هنا فقط لم يتم سوى تعزيز اللعب على التناقضات، وأدى ذلك إلى افتقاد طرازٍ خاص ذلك الذي تمت تسميته بشكل مميِّز "فوضى الطرز". دع المرء يفكر في خطة وأفق مدننا الصناعية الحديثة، بمساكنها التي تشبه الثكنات العسكرية ذات القبح غير المريح، بهياكل واجهاتها السمجة واختيالها الوقح الذي يحول الشارع إلى وادٍ موحش، ويمتلك المرء انطباعا بأن كل الأذواق الشاذة قد تم استدعاؤها لتقطن في موطنها. ولم يسك جيلنا دون سبب مصطلح "الخردة" (*junk*). المجتمع الذي فقد كل المشاعر الطبيعية للروابط التي تربط الإنسان بالإنسان، وتسمح للفرد بالغرق في فوضى الكتلة، لم يستطع الوصول إلى نتائج أخرى. واليوم أينما يتطور في المباني العامة أو في المستوطنات الحديثة طراز جديد حقا، فهو ينبع دائما من الشوق الداخلي لمجتمع جديد سوف يحرر البشر من العبودية وفراغ وجودهم الحالي ويعطون حيواتهم لغرض ومحتوى مرة أخرى.

في الختام، هذه الفترة أيضا بمذهب التصنيع فائق التطور، بمصانعها ومخازنها الكبرى وثكناتها العسكرية، بانقسامات مجتمعها غير القابلة للعلاج وفوضى فن البناء التي نشأت من كل هذا، هى برهان على قدر ضآلة ما يعنيه الوعي القومي في الأسفل. إنه العصر – أي ظروف الزمان المادية والروحية والفكرية – الذي يحقق في كل مكان التعبير عن نفسه، وفي التحليل الأخير يحدد أيضا منطوق الفن.

هوامش الفصل العاشر

---

(1) *Karl Scheffler, Der Geist der Gotik. Leipzig, 1921, p. 14*

(2) *The Birth of* Tragedy

(3) *Der Architekt. Frankfurt a/M, 1907, p. 10*

(4) *Heinrich Schafer, Die Leistung der agyptischen Kunst. Leipzig, 1929*

(5) *Geschichte der deutschen Kunst. Band I, p. 215*

(6) *Architektonisch Raumlehre. Dresden, 1900. Band II, p. i*

الفصل الحادى عشر

الفن والروح القومية

الشخصي في الرسم. ليوناردو ومايكل أنجلو. تصوُّر الحياة والدافع الإبداعي. السمات المجتمعية لحقبة زمنية وتأثيرها على الفن. "ألبرشت دورر" (*ALBRECHT DURER*) والإصلاح. العنصر الألماني في فن دورر. التأثيرات الأجنبية. "رمبرانت" (*REMBRANDT*) والمواطنة القومية. الفنان كضحية للخرافة القومية. "جويا" (*GOYA*) وروح الثورة. النموذج الفني عند أصحاب الامتيازات. الروكوكو والثورة. "ديفيد" (*DAVID*) والإيماءة الرومانتية في الثورة الفرنسية. حكم البرجوازي. "دومييه" (DAUMIER) ضد "حكم الكروش" (*OF THE RULE PAUNCHES*). العدالة والعسكرتارية في مرآة فن دومييه. يقظة العمل. مشكلة العمل في الفن المعاصر. "ميليه" (*MILLET*) و"موينييه" (*MEUNIER*). الفنان في الكفاح ضد النظام الاجتماعي. تيار الفن والخصوصية القومية. الإنساني بشكل شامل في الفن. سلطة الخيال.

عالجنا تطور العمارة بشكل مطول إلى حد ما لأن الانتقالات في الطراز وتأثير البيئة الاجتماعية على الإنتاج الفني هنا تصبح أوضح ما يكون. ولكنه سوف يكون من الخطأ أن نتصور أنه في الفنون الأخرى تمتلك "الخصوصية القومية" للفنان أي نفوذ أكثر حسما على طبيعة عمله. يتخذ الشخصي دائما المقام الأول في العمل الفني ويعطيه نغمته الخاصة. يولد اثنان من الفنانين في نفس المكان وينتميان لنفس الزمن ويرتبطان بنفس الطريقة لتأثيرات بيئتهما الاجتماعية، ولكن ينتج عن كل منهما استجابات مختلفة جوهريا للانطباعات التي يتلقيانها والتي تؤثر بقوة أكثر أو أقل على إبداعاتهما.

كان مايكل أنجلو وليوناردو دا فنشي كلاهما من "فلورنتينا" وكلاهما عاش في نفس الزمن، وكلاهما أمسكت به روح العصر؛ إلا أنهما يختلف أحدهما عن الآخر كما يختلفِ الليل والنهار، وليس فقط في صفاتهما الإنسانية الخالصة. تنتمي أعمال هذين الرجلين لعوالم جد مختلفة، حتى أجرأ الروايات القومية الخيالية لا تستطيع أن تعبر الهوة السحيقة التي تفصلهما.

يوجد في فن ليوناردو شيء ما يشبه صفارات الإنذار، ينادي بنعومة من أعماق لا قاع لها. الابتسامة المُلغِزة لشخصياته النسائية من عالم داخلي مُستمَدة من كل شيء زماني، تبدو فيها الروح ممتلئة بشوق يثير الغواية. يبدو الأمر كلعبة حالمة بالحواس التي لا يمكن لها أن تصبح حقيقة. ومثل حلم أيضا تلك المشاهد الطبيعية الغريبة التي لا تملك شيئا أرضيا فيها. مسافات غامضة تسحر العين وتوقظ ألحانًا ذات عمق حالم وما هو أكثر من المحبة البشرية. دع المرء يفكر بالمناظر الطبيعية في لوحات "عذراء الصخور" (***Virgin of the Rocks***) أو "القديس يوحنا" (***St. John***) أو "الموناليزا" (***Mona Lisa***). كل الشخصيات التي نقل ليوناردو إليها الحياة تشبه الحوريات، بما فيهن شخصياته "للعذراء مريم" (***madonnas***)، التي لم يمسها نفس واحد من التقاليد المسيحية. كل شيء محاط بغلالة من الحساسية بالغة الرقة، التي تحرك نبضات عميقة في الروح، يخرج منها ما يجعل المرء يعتقد أنه يسمع أصداء ناعمة لتناغم المجالات. يسري نفس هذا التيار الغريب عبر كل أعمال ليوناردو، يتكرر حدوثه مرات ومرات بتنوع لا ينفد. إنه هذا التيار الذي استدرج معاصريه والأجيال التالية مثل أخبار أرض الخيال النائية والتي لم يدخلها أبدا كائن أرضي واحد: دائما وفي كل مكان النظرة نصف المحجوبة، التي تتلصص على الخارج من أعماق مبهمة مظلمة وتبدو مثل رؤية قادمة من عالم آخر.

وكان مايكل أنجلو من نوعية مختلفة تماما، الخالق القوي للشخوص العملاقة التي فرض عليها لعنة حياته الخاصة. كونه نفسه عملاقا يريد أن يأخذ كل سماء بعاصفة، ودائما ما يشعر بنفسه مقيدا بواسطة ثقل روحه، واحد من الذين هوى بهم "القدر"، في روحه المظلمة يثور غضب قوى، يتفوق على البشر ولا يستطيع أبدا أن

يجد الرضا في أعماله، إلا أنه مدفوع بقهر داخلي للاستمرار في العمل ينتابه قلــق، لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا آخر. في شخوصه الشيطانية يعــيش عــذاب الوحــدة والاستغراق المتشائم في التفكير الذي تحوم حوله كل أهوال الأبديــة. العديــد مــن شخوصه يبهرنا مثل ثقل جبال الألب. دعنا نتأمل فــي إرميــا بكنيــسة السيــستين (***Jeremiah of the Sistine Chapel***) والعرّافات ونسوة الأعمدة الحاملة (***caryatids***) المرسومة على هذا السقف الجبار؛ أو حتى ذلك البناء العتيد فــي كنيــسة ميديتــشي بفلورنسا. هذا اليوم، هذه الليلة، هذا الصباح، هذا المساء الذي يتكئ عليه عبء كــل آلاف السنين والذي تعكس صورته مرآة روح الفنان المملوءة بالأسى. حتــى "ليــدا" (***Leda***)(•) وقد تزاوجت بالبجعة تُظهِر نفس تعبير الثقل الرصاصي الذي لا يثيــر أي مشاعر حسية. في شخصيات أخرى تحتدم عاصفة من الغضب العاطفي كمــا فــي التمثال العملاق للنبي موسى الذي تتقلص فيه كل عضلة من عضلات جسمه الجبــار والذي تُظهِر جبهته مزاج العاصفة الرعدية. حتى مسيح يوم القيامــة (***Christ of the Last Judgment***) وقوات العمالقة العراة الذين يملأون الخلفية يتنفسون نفس الروح.

إنه فرق في الفلسفة العالمية يجد تعبيره هنا. في فن ليوناردو يبقــى مــذهب الإنسانية الذي هو ليس روح أمة، ولكنه روح عصر، يمثل نقطة الذروة فيــه وفــي نفس الوقت التعبير الأشمل عنه. في مايكل أنجلو، المذهب الإنساني يتعرض للقمــع المطلق حتى يفسح المجال أملا في الإمساك بالخوارق والذي تجــرأ علــى طــرق البوابات السرية لكل السماوات ولكل أنواع الجحــيم، مــدفوعا بــسخونة الحماســة والرغبة المتطرفة لنيل قانون يجب ألا يكون قانونا بشريا. الرجل الذي صــمد أمــام

(•) في الأساطير الإغريقية، ليدا هي ابنة الملك الأيتولي "تيستيوس"، وزوجــة ملــك أســبرطة "تينداريوس". زيوس كان معجبا بليدا. سقط زيوس في صورة بجعة بين ذراعي ليدا ليحتمــي من نسر يتابعه. وجامعها في الليلة نفسها بينما ترقد بجوار زوجها "تينداريوس"، وأسفر هــذا الجماع عن بيضتين إحداهما فقست هيلين (عرفت فيما بعد باسم الجميلة "هيلــين طــروادة")، زوجة أجاممنون، والأخرى فقست كاستور وبــولكس. واختلفــت الروايــات أيهــم ذريــة "تينداريوس" وأيهم من زيوس، وبالتالي هم نصف خالدون، ولم يعرف أيضا أي طفل قد خرج من أي بيضة. [المترجم]

كلٍ من الإمبراطور والبابا، الذي دافع في "حوارات جيانوتي" (*Gianotti's dialogues*) عن قتل الطغاة – "لأن الطاغية ليس كائنا بشريا ولكنه وحش في صورة إنسان" – عاش أيضا في عمله.

ذلك الذي يتكشف من النظرة الأولى في عمل فنان عظيم يضع المشاكل الروحية في شكل مرئي، ليس صدفة قوميته ولكن الذي يتكشف هو الجوهر الإنساني العميق داخله الذي ينتمي لكل الأزمنة ويعلمنا فهم خطاب كل الشعوب. مقارنة بذلك تلعب اعتداءات البيئة المحلية – مهما تكن أهميتها كمؤشرات على الحكم التاريخي والفني على عمله – دورا صغيرا جدا. ولكن حتى اللمسات المحلية تماما في أي عمل فني لا تعطيه شخصية قومية؛ لأنه داخل كل أمة وخصوصا كل أمة كبيرة، توجد جمهرة من التأثيرات المحلية التي تعمل بسلام معا في خليط متنوع لا يمكن جمعه أبدا داخل الإطار الضيق لمفهوم الأمة الخرافي.

على سبيل المثال ما رغب ليوناردو في التعبير عنه في لوحته "الموناليزا" كان هو المشاعر متعددة الجوانب للروح الإنسانية، الانحسار الدفين والتدفق العميق للمشاعر الداخلية. في هذه اللوحة تابع ليوناردو التأرجحات الأكثر رهافة للمزاج، والمرأة، التي إذا جاز لنا الكلام قد اكتشفها من أجل الفن، أعطته نقطة بداية فائقة لهذا. تعكس ملامح الوجه المُلغِزة للموناليزا كل تطرف في المشاعر الإنسانية؛ الإشعاع المحبوب والشيطاني إلى أبعد الحدود، البراءة البهيجة والحساب الماكر، والنقاء البريء والشهواني المدمر. إنها روح الفنان نفسه التي تشع علينا من هذه الصورة؛ هو نفسه "فاوست" الذي يتابع كل مسار مبهم، يتوجع من دوافعه للمعرفة إلا أنه عاجز عن شق طريقه بالقوة إلى غاية المنى (*Ultima Thule*). إنها بالضبط تلك التجربة العميقة لما هو مأساوي بالفطرة في الروح الإنسانية التي تنقل إلى أعماله تلك العظمة المدهشة. ومع مايكل أنجلو أيضا كل عمل يتحول إلى تعبير عن تجارب روحه الخاصة: "وقد أصبحت دائما صورة لعذاباتي، حاملة خطوط الاكتئاب المرسومة على جبهتي أنا". بهذه العاطفة الأعمق للإنسان والفنان لا تجد من يتنفس نفسا واحدا بمشاعر قومية. كم قدر الضآلة وقدر العبث في كل هذا التأكيد المتخبط

للتأثير القومي في تناقضة مع هذه الإنسانية المكافحة التي تسعى دائما من أجل الوصول إلى الإنسان الخارق.

وبالضبط كما في التاريخ تُدفَع التيارات القومية المزعومة إلى خلفية الصورة تماما بواسطة تيار فيضان العصر الشامل، وهكذا أيضا في الفن. ولذا لا نكاد نستطيع تصوير فن "ألبرشت دورر" (*Albrecht Dürer*)[•] لأنفسنا دون التقاط حركة "الإصلاح" (***Reformation***) وتياراتها التحتية التي لا تُحصى. فقط إذا ما احتفظ المرء في عقله بوضوح بالعاصفة والضيق في هذا العصر من الاختمار الذي مخض خلاله القديم والجديد بعضهما البعض كاملا، يستطيع المرء أن يتفهم التركيبات الغريبة التي تظهر في أعمال دورر. ننقل عن دورر لأنه في الكثير جدا من الأحيان ودون أساس كان "الأكثر ألمانية من كل الرسامين الألمان". لا تعني هذه التسمية فعلا أي شيء على الإطلاق. إذا ما أراد المرء إطلاق كلمة "ألمانية" على مشاعر صاحب العمل العميقة نحو استلهاماته المرهفة والإشعاع الروحي النابع من تراب موطنه الأصلي، اتركه يفعل ذلك بأية وسيلة، ولكن ذلك لا يعبر على أية حال عن جوهر مُميِّز لفن دورر. كان "لافارج" (Lafarge) مُحقا تماما عندما قال: "ولكن الجانب الألماني من عمله يمثل قيوده. الجانب القومي أو العرقي من أي عمل فني هو نقطة ضعفه. ما يُسمى ألمانيًا هو احتمالا لا شيء أكثر من شكل لحضارة أقل طولا" [١].

تعيش في فن دورر أرض الأحلام تلك التي استدعاها مما يحيط بموطنه إلى الوجود في روحه، الناس مع مخلوقات خيالاته المولودين في المشهد الطبيعي يتنفسون هواءه ويحسون سماءه تشرق الشمس فوقهم. أعمال مثل "جيروم في هومي" (*Jerome at Homey*) و"الطيران إلى مصر" (*Flight into Egypt*)؛ و"القديس

(•) دورر (١٤٧١-١٥٢٨) رسام، ومصمم مطبوعات وصاحب أطروحات نظرية من عصر النهضة الألمانية. أنشئ دورر سمعته ونفوذه في جميع أنحاء أوروبا في العشرينيات من عمره بطباعة القطع الخشبية عالية الجودة. تواصل مع الفنانين الإيطاليين الكبار في زمنه، رافاييل، وجيوفاني بيليني وليوناردو دا فينشي. ومن ١٥١٢ شمله الإمبراطور ماكسيميليان الأول برعايته. تتضمن أعماله النقش ولوحات الوجوه والصور الذاتية، والألوان المائية والكتب. دورر صاحب أطروحات نظرية حول مبادئ الرياضيات والمنظور والنسب المثالية. [المترجم]

أنطوني" (*Saint Anthony*) و"الفارس" (*The Knight*) و"الموت والشيطان" (*Death and the Devil*) وأعمال عديدة أخرى، مُنارة ببصيص ضوء غريب من أرض موطنه، مريح بدرجة كبيرة للعين. ولكن في هذا الفنان نفسه الذي ينعكس على مرآة روحه كل سحر موطنه في بلاد الشمال تعيش أيضا الأشواق الموحية والإيقاع الصامت لتلك الحقول التي تنيرها الشمس والتي جاست فيها أقدامه. هذا التأثير، هذا الصوت من الجنوب البعيد يظهر بشكل مبهر في عمل الأستاذ. عندما أعلن "شيفلر" أنه في عمل رسام مثل دورر دخل القوطي في اتحاد جديد بالملاحظة مع الإغريقي" لم يكن يعطي سوى تعبير عن هذا الشعور ولكن بكلمات أخرى. امتص دورر داخل نفسه كامل الدافع الإبداعي لعصر النهضة الإيطالي وتشبع كل خيط من كيانه به. تأثير الأساتذة الإيطاليين مثل "فيروتشيو" (*Verrocchio*) و"ليوناردو" و"مانتينيا" (*Mantegna*) و"بيلليني" (*Bellini*) و"رفاييلو" (*Raffaello*) و"بولايولي" (*Pollajuole*) وعديد آخرين، وجد تعبيرا واضحا في العديد من أعماله. تمثال "فيروتشيو" لفروسية "كوليوني" (*Colleoni*) حرّك مشاعر دورر بعمق وما يستطيع المرء قبوله بشكل محدد هو أنه دون هذا التأثير أعمال مثل "القديس جورج" (*Saint George*) و"الفارس والموت والشيطان" (*Ritter, Tod und Teufel*) لم تكن لتظهر إلى الوجود أبدا. المناظر الطبيعية لعصر النهضة وأيضا وفوق كل شيء الجسم البشري العاري الذي أصبح واحدًا من أكثر الخصائص النمطية لعصر النهضة كان له تأثير لا يُخطأ على فن دورر.

هضم دورر كل شيء أجنبي وامتصه من كل مسامه، حتى أصبح جزءا من نفسه. وهكذا امتزجت في أعماله غرائب بلاد الشمال المضطربة والمغبشة وانطباعات الجنوب البهيجة والساطعة التي زادت من نقاء وسطوع نزواته الزاخرة وأمدت تيار فنه ككل. حتى ما هو أعمق إنسانية في عمله الذي اقترب بشدة منا خصوصا بتصويره للمسيح، ليس بأي حال من الأحوال وحيا لروحه الألمانية، ولكنه وحي لطموحات زمانه الروحية. هنا يتحدث معنا دورر الإنساني، الذي يتابع كل عاطفة إنسانية حتى أعمق أعماقها. أيضا، تعجبنا السمة الإنسانية العميقة لفن دورر

في الصورة الذاتية المعروفة جيدًا للأستاذ في معرض فنون ميونخ (*Munich Pinakothek*) – المفكر حاضن الصمت بعيونه الباحثة التي تبدو نظرتها الفاحصة متوجهة إلى داخله. يشعر المرء أن خلف هذه الجبهة مشاكل زمانه العظيمة تكافح حتى تتخذ شكلا، ولكن الجدية التي تبثها ملامح وجهه تخبرنا أيضا أن مخه لن يحل كل الألغاز. نتأمل بشكل لا إرادي المرأة المجنحة في "المزاج السوداوي" (*Melancholy*) للأستاذ، الذي يحملق غارقا في تأمل كئيب في المسافة المُلغِزة، التي ينتشر عليها ضياء مبهم للمذنب والنور الشمالي.

ولو كان في الواقع شيء مثل الفن القومي، فمن ثم لا يمكن تصوّر فنان مثل "رمبرانت" (*Rembrandt*)(•) ومعه كتيبة من الآخرين. بالنسبة "للمشاعر القومية" لمعاصريه لم يمتلكوا نحو عمل هذا الفنان العظيم الذي قدمته هولندا الصغيرة لمرة واحدة، سوى مشاعر الازدراء والسخرية. لم يمتلك المتحدثون باسمه سوى فهم بسيط لعظمة رمبرانت لدرجة جعلتهم يسمحون له بأن يهلك بؤسا، ولم يعطوا أدنى انتباه حتى وفاته. فقط بعد وفاته بزمن طويل وجد رمبرانت طريقه ليقف بين صفوف الخالدين حتى أنه اليوم يفيد بلاده كرمز "لروحها الوطنية".

مواطنو البلاد الواطئة، الذين خاضوا كفاحا مستميتا من أجل تحرير البلاد من نير الاستبداد الإسباني، خرجوا من ذلك الصراع منتصرين. دخلت روح جديدة في كل طبقة من السكان، وجلبوا للبلد الصغير قامة لم تكن في الأحلام. أصبحت هناك في كل مدينة إثارة وحركة؛ وفي كل الأنحاء فائض من الطاقة الحيوية.

(•) رمبرانت (١٦٠٦-١٦٦٩) رسام هولندي. يعتبر عموما واحدًا من أعظم الرسامين وفناني أعمال النقش في الفن الأوروبي والأهم في التاريخ الهولندي. بعد أن حقق النجاح منذ شبابه كرسام لوحات بورتريه، تميزت سنواته الأخيرة بمأساة شخصية ومصاعب مالية. إلا أن لوحاته نالت الشعبية طوال حياته. وتتمثل أعظم انتصارات رمبرانت الإبداعية في لوحاته عن معاصريه، وصوره الذاتية ورسوم توضيحية لمشاهد من الكتاب المقدس. سلسلة لوحاته الذاتية تتبع سيرة حياة فريدة وحميمة عن الفنان نفسه دون غرور تمثل دراسة لشخصيته بأقصى قدر من الإخلاص. وبسبب تعاطفه مع حالة الإنسان، أطلقوا عليه لقب "أحد كبار أنبياء الحضارة." [المترجم]

لا يزال باقيا في لوحات "فرانز هالز" (*Franz Hals*)(•) آخر رواسب روح زمن محدثي النعمة الوقحين الذين أسكرتهم قوتهم الخاصة. ولكن هذه الروح المنفلتة سرعان ما تم تهذيبها بدلا؛ وأصبحت الرغبة في استتباب الأمور بشكل منظم ملحوظة أكثر فأكثر بين المواطنين، ومع التطور الناهض للأعمال التجارية ورأس المال التجاري (***mercantile capital***) اتخذت الأمور شكلا مستقرا أكثر فأكثر. وهكذا تطورت هناك تدريجيا تلك الطبقة المادية "الجاهلة عديمة الثقافة" المستريحة التي تعيش فقط من أجل مصالحها المادية وتسعى لضبط كل الحياة بواسطة القواعد الثابتة.

بالنسبة لرمبرانت أصبح هذا الانتظام البرجوازي القومي لعنة حياته. وطالما حاول رمبرانت، كما فعل في البداية، إشباع ذائقة جمهور فاقد للخيال، هاربا وراء صيحة سائدة. حتى تيقظ الفنان داخله! ثم قطع كل شيء مع الشعبية الرخيصة للأستاذ، وأخذ يتبدى التناقض الذي لا حل له بينه وبين "الأمة" بشكل متزايد. هذا التناقض وجد في أعماله تعبيرا واعيا بالكامل تصاعد إلى حدة راسخة. أصبح الفنان متمردا ضد زمانه، ورسم بوضوح دقيق حدودا بين فنه ومادية المصالح القومية في أرضه. دع المرء يتأمل لوحة "شمشون" (***Samson***) في "متحف القيصر فرايدريش" (***Kaiser Friedrich Museum***) في برلين، الذي يهدد حماه بقبضته المضمومة بقوة، أو لوحة "النبي موسى" (***Moses***) في درسدن وهو يهشم ألواح الوصايا إلى حطام متناثر في غضب قاتم، ويشعر المرء أنه "رمبرانت" ذاته الذي يطيح بالترتيب البرجوازي الصارم الذي سوف تتحطم حياته هو عليه.

حتى في أعماله الأخيرة التي تكشف عن قيمة الفنان في قمة نضجه، بعدما توقف طويلا عن التنفيس عن غضبه على هؤلاء المتربحين المتغطرسين، لم يقترب الفنان من المشاعر القومية لبلاده. على العكس، الهوة بين فنه وبين افتقاد التذوق

(•) فرانس هالس الأكبر (١٥٨٢-١٦٦٦) الرسام الهولندي للبورتريه في العصر الذهبي الذي عاش وعمل في هارلم. الجدير بالذكر أنه ساعد على إدخال أسلوب ضربات فرشاة الرسم الفضفاضة، الحيوي في الفن الهولندي. لعب دورًا مهمًا في تطور فن البورتريه في القرن١٧. [المترجم]

القومي أصبحت أوسع وأعمق حتى في الأخير أسس مقر إقامته في وسط "جيتو أمستردام" (*Ghetto of Amsterdam*) حيث كشف اليهود المنفيون من إسبانيا والبرتغال الغشاوة عن عينيه الثاقبتين لينفتح عالم جديد لا يشبه النمطية الرمادية للحياة الهولندية في أيامه. هناك نسى تدريجيا البيئة القديمة ووجد متعته في كل أحلام "الشرق" الملونة. ما كان يخمنه في السابق ويطوره بطرق متنوعة أصبح بالنسبة له التجربة الروحية الأعمق. وهكذا أصبح ساحر الفرشاة الجبار، الذي فاض بالروحانية على كل شيء دنيوي وعرّى المنظر الطبيعي المخبوء للروح. وبصنعه هذا أصبح حاملا لفن جديد لم يقع في حبائل الروابط القومية، وكان أن أصبح لذلك وحيا ضمنيا للبشر في الأزمان اللاحقة.

وأيضا سرى تيار اجتماعي عميق في فن "رمبرانت". دع المرء يلق بنظرة فاحصة على المسيح في لوحته "مطبوعة بمائة جيلدر" (**Hundred Guilder *Print***)(•) – يحيط بمُنقذ المنبوذين والمهانين الشحاذين في أثمالهم البالية، والمريض والأعرج في لهاث مُعذّب من أجل الخلاص. لأن الشحاذين والسكارى والهائمين على وجوههم كانوا رفاقًا دائمين للفنان خلال سنواته الأخيرة، عندما لجأ الفنان إلى النسيان بطريقة ملتوية حتى يستطيع الصمود على قيد الحياة بشكل مطلق. ودعنا لا ننس هنا اللوحات الأخيرة لصورة الفنان الذاتية، وهو يحدق منها شاخصا ببصره علينا بملامح وجه مخمور مطبوع عليه عذاب الروح – ربما هي أفظع لائحة اتهام لأمة قد وضعها أي رسام على نسيج لوحته.

يخلو كل فن عظيم من القيود القومية ويؤثر علينا فقط بصورة طاغية؛ لأنه يحرّك فينا البراعم المخبوءة لإنسانيتنا، ويكشف الوحدة الجبارة للنوع البشري. دع

(•) من الأصل تُسمى اللوحة باسم المسيح يشفي المرضى، وحدث لاحقا أن أُطلق على هذا النقش اسم السعر الذي دُفِع مقابلها ذات مرة – [مترجم الطبعة الإنجليزية]

أحدنا يغوص بنفسه في إبداعات "فرانشيسكو جويا" (*Francisco Goya*)[•] التي تشع علينا بكل دفء السهول الجنوبية. إلا أنه خلف الشكل الخارجي لأحلام موجودات ما يحيط بالجنوب، تتحمل روح الفنان بالأفكار والمشاكل التي تدور في عقله والتي هي ببساطة ليست مشاكل مجتمعه ولكنها مشاكل زمانه. لأن كل فن ذي قوة حيوية يولد قيمة المساهمة الروحية لعصره، التي تكافح من أجل التعبير الوجداني. وهنا مباشرة تدخل تلك القيمة الإنسانية الخالصة التي تتغلب على الأجنبي وتضعنا على تراب موطننا.

لا يحتاج المرء أن يكون إسبانيًا حتى يستطيع تقدير فن "جويا" بكل عظمته. بمنأى عن العصر الجديد الذي يدوس بقدمه الحديدية على جسد عالم آخذ في الفناء تدور معركة حتى الموت خارجة من أعمال جويا، وتبدو مثل شفق الآلهة، بين كل شيء قائم. لوحاته لشخصيات العائلة الملكية الإسبانية بكامل إعداداتها المهذبة هي نماذج كئيبة على دافع لا يُقهَر يسعى للحقيقة، لم يقدم أي تنازلات ونزع من المَلَكية القائمة على القداسة الإلهية الجزء الأخير من بهرج جلالتها. فقط الإنساني، كل الإنساني جدا، يجد تعبيره هنا. قول نيتشه، "غالبا يقعد الفساد على العرش - وغالبا العرش يقوم على الفساد"، يصبح حقيقة هنا في كلا الجانبين.

وما نراه جيدًا في رسومات جويا نراه جيدا أيضا في أعمال الحفر (*etchings*) الخاصة به. هنا يتخذ مزاجه المتمرد في الواقع العملي قوالب شيطانية. لوحته "كوارث الحرب" (*Desastres de la Guerra*) أكثر هولا من أي شيء قد قيل أبدا عن الحرب. في هذه الرسومات المخيفة لا يكمن أدنى بصيص من المشاعر البطولية ولا إلهام وطني من أي نوع ولا مجد لقادة المعركة العظام؛ هنا فقط التقط

(•) فرانسيسكو خوسيه دي جويا (١٧٤٦-١٨٢٨) الرسام الإسباني الرومانسي والطبَّاع. يعتبر جويا الفنان الإسباني الأكثر أهمية في أواخر القرن الـ ١٨ وأوائل القرن الـ١٩. كان جويا معلقا على عصره ومؤرخا له طوال حياته المهنية الطويلة. نالت أعماله شعبية كبيرة في حياته. في وقت متأخر، أصبحت أعمال جويا تمتلك شحنة وجدانية مؤثرة للغاية. يشار إليه كثيرا أنه كان آخر أساتذة القديم وأول اساتذة فن الرسم الحديث. [المترجم]

الفنان الوحش الإنساني في كل مرحلة من مراحل نشاطه القاتل. يتحدث إلينا هنا ثوري بأجرأ معنى للكلمة في لغة تفهمها كل الشعوب التي تنزع آخر خرقة عن الجسم العفن للنفاق الوطني؛ رجل عظيم حقا يصدر الأحكام على القتل المنظم للشعوب. لا تتوقف روح جويا المدمرة أمام أي حصانة. باحتقار قاتم وازدراء غاضب يشق جويا طريقه عبر كل قيود التقاليد الغابرة ومفاهيم القساوسة. يضع جويا "لافتة التحذير" (*Meneteke*l) فوق بوابات المجتمع القديم ويعارض رؤوس الدولة والكنيسة بنفس الصلابة التي يتعامل بها مع كامل الكتلة الفوضوية للتقاليد العتيقة وأشكال التحيز الموروثة لمعاصريه. وعندما اشتعلت شرارة نذير الثورة الفرنسية في إسبانيا أيضا، ابتهج الفنان من ثم مهللا للزمان الجديد الآتي. ولكن هذه الآمال غير المحدودة سرعان ما تحطمت متناثرة؛ وبفرديناند السابع على العرش، وأطلت برأسها مجترئة، أكثر الرجعيات سوادا ساخرة من كل أحلام الحرية الآتية. أعيدت محاكم التفتيش بحقوقها القديمة، وأُبيدَت كل البذور الشابة أمام أنفاس الاستبداد الدموي المُحملَة بالطاعون، وانتشر الظلام الدامس على كل الأراضي.

حتى أحلام جويا طارت. وفي صمت مطبق، مملوء بازدراء قاتم للنوع البشري، عاش جويا منسحبا من كل العالم في بيته الريفي بالقرب من مدريد، وحيدا مع نسل خيالاته الجهنمية التي صورتها يداه على الجدران - شخصيات مخيفة من عالم الأشباح الصامت، محاطة بجنون كل أنواع الإرهاب، مقارنة بها يبدو جحيم دانتي (*Dante*) سعيدا هانئا - حتى لم يعد الفنان في شيخوخته قادرا على الشعور بالأمان حتى في وحدته بعيدا عن خبث المستبد الذي أطلق عليه الناس لقب "النمر"، وجرجر جسده الهزيل إلى فرنسا حيث أغمض الموت في الأخير عيونه المتعبَة.

ومهما تكن ربما قوة تأكيد المدافعين عن فكرة "الفن من أجل الفن" بأن الفن لا زماني، إلا أن تاريخ الفن في كل عصر أظهر لنا، بنماذج لا حصر لها، كيف تصل التيارات الفكرية والاجتماعية في زمنها إلى التعبير عن فنها بشكل لا يقاوَم. دعنا نقارن أعمال فناني الروكوكو بإبداعات "جاك لويس ديفيد" (***Jacques-Louis***

David[•] وسوف يدرك المرء من أول نظرة أنه في الوقت القصير الذي يقع بين الاثنين هناك مشهد قوي الأبعاد في تاريخ العالم قد حدث.

عبارة "بومبادور" (*Pompadour*) الباترة "نحن ومن بعدنا الطوفان!" تقف غير مرئية فوق بوابات المجتمع القديم، عالم من المظاهر المنافقة تساوي في هشاشتها خزف العصر اللذيذ وأرجل أثاثه المقوسة الرشيقة، الأشياء التي تبدو أنها مصنوعة للفرجة وليس للاستخدام. خطاب العصر لطيف ومُنتقى، وقوالبه الاجتماعية المشاركة المهذبة. لم يعد يملك مزيدًا من المشاعر نحو الإيماءات البطولية لكورني (Corneille) ولا الكبرياء الجاف لراسين (*Racine*). فقط يبقى أن الحميم واللذيذ هما اللذان يملكان الجاذبية لأنصاره. هوايتهم المحبوبة هي اللعب في المراعي الخضراء، المغامرات الباسلة التي لا تفرض مزيدًا من المطالب على المرء، وإذا كان الجسد الواهن لم يعد في شكل يسمح لهم باتباع صخب الحواس، فمن ثم يجب استخدام الوسائل الاصطناعية لتعزيز دوافع الاستثارة الجنسية. يبدو كل شيء منمقا ناعما فائق الرقة في هذا العالم المتمسرح؛ كل شيء يتأوه أنغاما ويبتسم ويتبختر ويرقص ويفتن ويتنهد ولعا وتفوح منه رائحة المسك ومواد التجميل وأبدا لا يفكر للحظة في حقيقة أنه بالخارج شعب يفنى في بؤس مروع. ومن وقت لوقت عندما تُفسد قعقعة كئيبة من الكراهية الفرح اللذيذ لهذه العطلة الأبدية، يبدو أنهم يتحيرون ويقلقون للحظة، إلا أنهم سرعان ما ينقلبون بخلاعتهم اللذيذة إلى نوع جديد من

(•) جاك لويس ديفيد (١٧٤٨-١٨٢٥) الرسام الفرنسي الأكثر تأثيرا في الطراز النيو كلاسيكي. مثلت أعماله في ثمانينيات القرن الثامن عشر علامة على تغير في التذوق بعيدا عن رعونة الروكوكو نحو تقشف الكلاسيكية وشدتها، وتزايد شعور الانسجام مع المناخ الأخلاقي في السنوات الأخيرة من النظام القديم. ديفيد أصبح في وقت لاحق مؤيدًا نشطًا للثورة الفرنسية وصديق ماكسمليان روبسبير. أصبح ديكتاتور الفنون في ظل الجمهورية الفرنسية. سجن بعد سقوط روبسبير، وتحالف مع النظام السياسي مرة أخرى بعد إطلاق سراحه: مع نابليون، قنصل فرنسا الأول. في هذا الوقت قام بتطوير أسلوبه الإمبراطوري، مستخدما ألوان فينيسيا الساخنة. بعد سقوط نابليون وعودة البوربون، نفي ديفيد نفسه إلى بروكسل، ثم المملكة المتحدة الهولندية، حيث بقي هناك حتى وفاته. [المترجم].

الجنون. وحتى يحتفظوا بأنفسهم بعيدين عن كل حقائق العالم الخارجي، ولا يرون ما هو، كان هذا الشعار لهذا المجتمع، الذي أعطاه "موتسارت" (***Mozart***) بسرور الصوت والإيقاع في موسيقاه "فيجارو" (***Figaro***).

من الممكن لعمل "واتو" (***Watteau***)(•) "الصعود إلى جزيرة سايثيريا" (***Embarkation for the Island of Cytherea***) أن يمثل هذا الزمان كشعار، صحبة من ناس الروكوكو ذوي الفتنة وسط مشهد طبيعي محبوب أمام مسطح مياه هادئة ينتظرون سفينة تقلُّهم إلى حقول أحلام الهناء. هنا ننسى بلاء ومعاناة الناس؛ لا تخترق هذا الفردوس المخبوء وراء عواصف خشنة. تبدو كل الحياة ملفوفة في عطر وسرور – صورة صادقة لمجتمع مثلي الجنس يعيش كما لو كان في حديقة للحب وقد حصَّن كل مدخل حتى لا يستطيع الضيوف الثقلاء إفساد متعتهم. ما ألهم "واتو" كان بعد أكثر رقة وتم التقاطه بشكل أكثر إتقانا في أعمال "لانكريه" (***Lancret***)(••) و"باوتشر" (***Boucher***)(•••) و"فراجونار" (***Fragonard***)(••••) وآخرين. نفتقد هنا كل شيء عظيم وجليل وصارم، قد يوقظ في الناظر تأملات خطيرة أو مُعذِّبة. تعاش

(•) أنطوان واتو (١٦٨٤-١٧٢١)، رسام فرنسي تلخص دوره في تنشيط الطراز الباروكي المتراجع، وتحويله ليصبح أكثر طبيعية، ويتحول إلى الروكوكو الأقل حدة، والأقل كلاسيكية رسميا. يعود الفضل له في اختراع هذا النوع من رسم الاحتفالات الفخمة، ومشاهد من سحر رعوي ومثالي، مع جو مسرحي. بعض من أفضل مواضيعه مستمد من عالم الكوميديا الإيطالية والباليه. [المترجم]

(••) نيكولاس لانكريه (١٦٩٠-١٧٤٣)، الرسام الفرنسي، مصور مشاهد رائعة من الكوميديا الخفيفة التي تعكس الأذواق والأخلاق في المجتمع الفرنسي تحت ريجنت أورليانز. [المترجم]

(•••) فرانسوا باوتشر (١٧٠٣-١٧٧٠) رسام فرنسي في أسلوب الروكوكو. باوتشر معروف بلوحاته المثالية والحسية في الموضوعات الكلاسيكية، والرموز الزخرفية، والمشاهد الرعوية. لعله رسام القرن الـ١٨ الأكثر شهرة. رسم عدة لوحات لراعية فنه، مدام دي بومبادور. [المترجم]

(••••) ألكسندر إيفاريست فراجونار (١٧٨٠-١٨٥٠) نجل جان أونوريه فراجونار، وهو رسام ونحات فرنسي في أسلوب التروبادور (الشاعر المتجول). تلقى أول تدريب له من والده، ووجهه نحو المواضيع اللاذعة والتي تتميز بالسهولة، وأتقنها تحت قيادة ديفيد. [المترجم]

الحياة هنا تحت علامة "فينوس" (*Venus*)، الإثارة الجنسية هي محتواها الوحيد. إنه ليس عري الأزمنة القديمة الساذج غير المرغوب، الذي يعطي الفنان فرصة تعقب كل دوافع النشاط الحركي للجسم البشري – ولا حتى الشهوانية الحادة التي تقف أمامنا بشكل غشيم في أعمال "روبنز" (*Rubens*)(•). هنا يظهر شيء ما آخر. يسري ارتعاش لطيف عبر هذه الأجساد الأنثوية، التي لم تكد تصل غالبا إلى نضجها التام، كما في تصوير "باوتشر" للفتيات. شيء ما مثل القشعريرة الفاسقة تجري خلال هذا اللحم العاري حاملة معها المتع المخفية وتلهث من أجل أفراح الحب السري. إنه عالم من سحر النشوة ودنيا "أركيديا" (*Arcadia*) اللامبالية حيث السماء السخية التي لم تتلبد أبدا بغيوم الأسى؛ من جمالها تكاد تكون حقيقة. يشعر المرء أنه يجلس أمام مسرحية بهيجة سوف يُسدل عليها الستار قريبا.

ولكن اللحن الرعوي كان له أن ينتهي نهاية فجائية. كان مخيفا الثمن الذي يجب دفعه من أجل متع الأقلية الصغيرة لهؤلاء العاطلين أصحاب الامتيازات، هذه المعاناة التي هوت إلى الأرض بملايين الذين وُلِدوا في التراب كانت رهيبة للغاية، الذين صمتت حشرجة موتهم دون صوت مسموع وسط الصخب المخمور لوليمة الحب. لم تأت الكارثة فجأة. منذ وفاة لويس الخامس عشر أصبحت تمردات الفلاحين الجوعى ظاهرة متكررة الوقوع بشكل دائم. ولأن القلاقل كانت محصورة في نطاق ضيق، كقاعدة، استطاعت الحكومة قمعها بسهولة نسبية؛ ولكن الاضطرابات حدثت مرات ومرات أخرى، وكانت تزيد مرارتها دوما. كانت علامات الثورة قائمة ولكن قلة من الناس فقط هي من أرادت فهمها؛ وأقل القليل هم من استطاعوا استجماع شجاعتهم لتفسيرها بشكل صحيح. ولكن في الأخير هبت العاصفة، تعوي بشراسة

(•) السير بيتر بول روبنز (١٥٧٧–١٦٤٠) رسام الباروك الفلمنكي. أكد في أعماله على الإسراف والحركة واللون، والشهوانية. روبنز معروف بأعماله المناهضة للإصلاح، ورسم البورتريهات والمناظر الطبيعية، واللوحات التاريخية الأسطورية. إضافة لتشغيله استوديو كبير في انتويرب لإنتاج اللوحات لبيعها للنبلاء وجامعي الفن في جميع أنحاء أوروبا، كان روبنز عالمًا إنسانيًا متعلما تعليما كلاسيكيا، وكان دبلوماسيًا حصل على لقب فارس من كل من فيليب الرابع ملك إسبانيا وتشارلز الأول ملك إنجلترا. [المترجم]

ممزقة الإطار الفاسد للمجتمع القديم حتى أن كل شيء انهار معا. زمجرت العاصفة الرعدية فوق سايثيريا؛ أشعلت الصواعق النارية الأشجار القديمة، وامتدت إلى ممرات النزهة الجميلة، حيث لم يكن يُسمَع فيها حتى الآن سوى هديل وغنج العشاق، زأر صوت الرعد الشديد معلنا بدء زمن جديد. الجدران الثابتة التي أغلقت بشكل آمن الحقول المبروكة عن العالم الخارجي، سقطت خرابا؛ وانتشرت الجموع المستثارة في قوات مدمجة عبر الجيوب الهادئة في الفردوس المفقود – بؤساء ومُستعبَدين لسنين لا تُحصى. لم يكن لدى أحد من الثائرين شفقة بهم؛ الآن هم بدورهم لا يعرفون الرحمة وبقبضات خشنة وأسنان مُطبقة أقاموا قانونهم.

مات الحلم الجميل، وآخر الأوهام انفجر مثل فقاعة لامعة. شبق الآلهة المرعب قد حل معلنا نهاية كل وليمة شهوانية ولعبة الراعي الباسل. لم يعد العالم يعبق بالعطور وأحمر الشفاه ولكن بالعرق والدم والبارود والرصاص. ومن داخل الرعايا بثيابهم الرثة خرجت أمة اجتاحت الميدان ضد كل العالم. لم يعد هناك ناس الروكوكو – هؤلاء الجنود الذين تقدموا بالخطوة العسكرية على المسرح العالمي تحت الأنغام الوترية لنشيد المارسييز (***Marseillaise***) لصيانة إنجازات الثورة. ولُدِت فكرة جديدة، فكرة أرض الآباء؛ وقد وقفت الجموع الثائرة نفسها راعية لها؛ فقد بدت لهم الرابطة المُكمِّلة التي تمسك بكل القوات معا في خدمة الثورة ضد أعدائها. عنت الوطنية في تلك الأيام الإخلاص للثورة. الرعية السابق جعلوه مواطنا؛ الذي يشعر أنه الآن أيضا قد ملك جزءا من المسئولية المشتركة عن مصير بلده. انتهت كل السذاجة؛ لم يعد هناك مزيد من الحالمين.

حالة الأمور هذه دفعت الفن جبرا إلى طرق مختلفة وأصبحت خالقة لطراز فني مختلف جديد. وجد هذا الفن الجديد أهم ممثليه في "جاك لويس ديفيد" (***Jacques-Louis David***)، الذي هو نفسه مدافع متحمس وواقعيا مدافع متطرف عن الديموقراطية كما أحسها "روسو"، وقد انتمى أيضا إلى الرجال الذين أطاحوا بالملكية وأعلنوا حربا بالسيف ضد المجتمع القديم. شعر في نفسه كطهرائي (***Puritan***) صريح في السياسة، أنه منجذب بقوة نحو "روبسبير" وآمن مثل الأخير بإمكانية

فــرض الفضيلة بواسطة الإرهاب. أول أعماله في بداياته، "قسم الهوراسي" (*Oath of the Horatii*) و"بروتوس" (*Brutus*) و"موت ســقراط" (*the Death of Socrates*) تكشف عن خشونة في طبيعته العنيدة. أي مسافة بعد تقع بين هذه الأعمال وما أنتجه فنانون مثل "بوشيه" أو "فراجونار"! وقف هنا عالمان متعارضــان بقــسوة، دون أي نقطة اتفاق مطلقا. التقط "ماوثر" هذا التباين بشكل فعال جدا عندما قال عن ديفيد:

> **لقد أظهر لنا جيلا طهرائيا جديدا لم يعد يستطيع الاستفادة مــن فــن الروكوكو العابث، أظهر الرجل البطل الذي يموت في سبيل فكرة، من أجل أرض الآباء. لقد أعطى لهذا الرجل قوة عضلية ضــخمة، مثــل محارب يخوض ساحة القتال. وجلب أيضا الألوان ولغة الخــط فــي تناغم مع النزعة البطولية لزمانه. ما كان في فترة الروكوكو مغريــا وغامضا، مع ديفيد أصبح صلبا ومعدنيا. ما كان في الخــط مــداعبا ومتملقا أصبح مع ديفيد انضباطا صارما. بدلا مــن عــدم الانتظــام والحلزونيات وأقواس عابثة جاء في صورة خــط مــستقيم، أصــبح وضع المسمار بزاوية قائمة في ميادين التمرين، وحركة الجنــد فــي الاستعراضات(٢).**

لم تتزامن أعمال قلة من الفنانين تماما مع الإنسان كما حدث مع ديفيد. تتطابق شخصيته تماما مع أحداث زمنه – وتضرب جذورها بالكامل في هذه الأحداث. حتى علاقاته بنابليون تظهر ذلك. الطريقة التي نظر بها للأخير تتكشف في لوحاته التــي صورت الجنرال بونابرت خصوصا لوحة الــصورة الشخــصية المــشهورة للفيلــد مارشال (*field-marshal*) بوجهه الرفيع شديد الوضوح وغــروره الــذاتي الهــادئ ناظرا باستهانة على المسافة، واثقا أنه لن يضل الطريق الصحيح. بالنــسبة لديفيــد، اليعاقبة ومحكمة الشعب لعام ١٧٩٣، الذين توقعوا من الديكتاتورية أن تقيم المجتمــع المثالــي، وديكتــاتورية أسنة الحراب تحــت حكــم القنــصل الأول وفيمــا بعــد الإمبراطور لا بد وأنهم كانوا يبدون كضرورة. لم يكن ليتحالف بنفسه مع "البوربون" (*Bourbons*)، الذين كرههم بمرارة حتى يوم وفاته، لأنهم كانوا بالنسبة له الــداعمين

الظاهرين للنظام القديم. ولكنه دخل تحالفا مع نابليون بسبب علاقة نسب فطرية بين طبيعة الشخصية التي جعلته يتجاوز عن التناقضات الخارجية. لم يكن ليستطيع ديفيد أن يفعل غير ذلك. الرجل التاريخي داخله طبع بطابعه على فرديته وأعطى لفنه طريقته.

نحن نعرف قصة "مادموازيل دو نوايي" (***Mademoiselle de Noailles***) التي كلفت الفنان بتجربة مهارته ذات مرة على "يسوع المسيح" (***Christus***). وعندما عبرت السيدة عن دهشتها أمام مفهومه عن "المخلِّص" (***Savior***) أجابها الفنان باقتضاب، "أعرف منذ زمن طويل عدم وجود مزيد من الإلهام يمكن استلهامه من المسيحية"! بالتأكيد ليس ديفيد، لأن العفو لم يكن في صفه. كانت شخصياته النموذجية- كما رآهم - هي شخصية "ليونيداس" (***Leonidas***)(•) و"كاطو" (***Cato***) و"بروتوس" (***Brutus***) والاسبرطيين والرومان. كانت النزعة الرومانية (***Romanism***) قد أصبحت شعبية في ذلك الوقت. اتخذ الرجال أسماء رومانية، وأطلقوا على أنفسهم اسم الرومان، وتنافس رجال الجمعية الوطنية (***Convention***) مع بعضهم البعض في محاولاتهم التصرف مثل أعضاء مجلس الشيوخ الروماني. كان لخطاباتهم قالب روماني، تنقل الكرامة الجامدة التي اعتادوا الحديث حولها تحت ستراتهم، لا تصل إليها أي اعتبارات إنسانية. عديد منهم لعبوا أدوارهم بجدية: "سان جوست" (***Saint-Just***) وروبسبيير (***Robespierre***) وكوتون (***Couthon***)(••) هم نماذج على ذلك؛ واتبعهم الآخرون لأن تلك هي الموضة.

(•) ليونيداس (توفي ٤٨٠ قبل الميلاد) ، المحارب اليوناني ملك الدولة المدينة اليونانية أسبرطة. قاد القوات اليونانية أثناء الحرب الفارسية الثانية وقتل في معركة تيرموبيلاي. ليونيداس هو الابن الثالث من "أناكساندريداس" الثاني من أسبرطة، وينتمي بالتالي إلى سلالة أجياد، الذين يدعون النسب إلى البطل هرقل.

(••) جورج أوغست كوتون (١٧٥٥-١٧٩٤) السياسي الفرنسي، الماسوني والمحامي المعروف النائب في المجلس التشريعي أثناء الثورة الفرنسية. عمل مع أصدقائه المقربين ماكسمليان روبسبير ولويس أنطوان دو سانت جوست وانتخب في لجنة السلامة العامة في ٣٠ مايو=

إنه لأمر ذو مغزى أن خالقي الأمة الحديثة كانوا ساعة ميلادها قد ألبسوا معبودهم فعلا على طراز شعب أجنبي واستوردوا له أشكال التعبير من زمن قد مضى طويلا. عظمة الأمة التي حومت أمام رجال الثورة العظمى لم تكن في الواقع الحقيقي سوى القوة الخارقة للدولة الجديدة، التي تبدأ الآن في مد أطرافها الحديدية استعدادا للمبادرة بعصر جديد في تاريخ أوروبا. حيث إن الثورة لم تكن فقط واقعة في تاريخ فرنسا ولكنها حدث ذو أهمية أوروبية، جمعت تحت سحرها كل أعضاء نفس الدائرة الثقافية على قدم المساواة. أعلن فن ديفيد عن فجر هذا الزمان وجسد كل عظمته التاريخية دون أن يصبح قادرا على التغلب على نواحي ضعفه وقصوره. وهكذا يُرى، هو لم يكن مجرد خالق لأسلوب جديد ومفاهيم جمالية جديدة تعطي تعبيرا كاملا عن القوالب الجامدة للعصر الثوري؛ بل يُعتبَر من زاوية نظر اجتماعية خالصة، عملاً ذا مغزى غير قابل للفناء.

قد تغير الكثير منذ ذلك الحين. تعاقبت فترات الرجعية والثورة، الواحدة تلو الأخرى في تتابع متنوع، وأثرت على التطور الفكري والاجتماعي لشعوب أوروبا. عديد من المواقع الأفضل التي بدا أنها قد اكتُسِبت لطول الزمن، عادت وفُقِدت مرة أخرى في الصراعات التي لا تنتهي في تلك الأزمان. ومع ذلك فما لم تستطع الرجعية استرداده مرة أخرى، كان حقيقة أن الثورة للمرة الأولى قد وضعت الجموع بشكل دائم في حالة حركة وجعلتهم يؤمنون بأنهم سوف يحصلون على حقوقهم فقط بواسطة الكفاح. في تلك البداية، كانت مثاليات الراديكالية السياسية هي التي وضعت هذه الجموع في حالة حركة مُستثارة؛ ثم جاءت أفكار الاشتراكية العظيمة، التي أثرت بشكل قوي على فكر ومشاعر الإنسان وأعطت معنى أعمق وأكثر شمولا للثورة. تم استنهاض شريحة جديدة من المجتمع لتحس بحياتها الخاصة: طبقة الناس الشغيلة التي مدت أطرافها بتحد ومن ساعتها شاركت في الشئون العامة. ولن يعيدهم أي أحد مهما يكن مرة أخرى إلى وضعهم الخامل بعد أن أشرق عليهم ببطء فجر الاعتراف بأن عملهم هو الذي يحافظ على حياة المجتمع.

=١٧٩٣- خلال عهد الإرهاب حتى وفاته في عام ١٧٩٤. لعب دورا مهما في تطوير قانون ٢٢ بريريال، المسئول عن الزيادة الحادة في معدل إعدام المناهضين للثورة. [المترجم]

حركة الجموع هذه، الظاهرة الأكثر تمييزا لتاريخنا الحديث، كان عليها أيضا أن تجد تعبيرها في الفن والأدب. الرجعية العظمى التي انتشرت في أنحاء أوروبا بعد الإطاحة بنابليون استطاعت لوقت أن تقمع هذه الحركة من على السطح، ولكنها لم تكن في موقع لتدمر في عقول الشعوب ذاكرة زمن الثورة البطولي. الإعصار الثوري قد رج المجتمع بعمق. ألقت الثورة الفرنسية برابطة جديدة بين شعوب أوروبا لم تستطع حكومة تدميرها. كل الوقائع الثورية في أوروبا حتى النصف الثاني من القرن الأخير قد استلهمت أفكار الثورة الفرنسية ووضعت الجموع في الحركة. تحررت هذه الطموحات وأخذت تعبيرها القوي في رسومات "ديلاكروا" (***Delacroix***)(•) "الحرية على المتاريس" (***Freedom on the Barricades***). وخرج منها زئير عاطفة مبتهجة. أخذت الجموع تتحرك وتحارب وتموت وتسقط في نشوة وتمسك بها سكرة اللحظة، التي تكسر الشوق السري لقرون. ولم يختف أبدا ذلك التيار مرة أخرى من الفن في زماننا.

لغاية عام ١٨٤٨ حاربت "الطبقة الرابعة" (***Fourth Estate***)(••) معارك البرجوازية في الكفاح ضد الحصن الأخير لنظام الحكم القديم. ولكن المأساة الدموية

(•) فرديناند فيكتور ديلاكروا (١٧٩٨-١٨٦٣) الفنان الرومانسي الفرنسي الذي يعتبر من بداية مسيرته قائدا للمدرسة الرومانسية الفرنسية. مال ديلاكروا بشكل عميق للأساليب المستخدمة في أعمال الانطباعيين، بينما ألهم وحي عاطفته الحماسية فناني الحركة الرمزية. باستخدام الطباعة الحجرية الجميلة، رسم ديلاكروا أعمالاً مختلفة لوليام شكسبير، والكاتب الاسكتلندي السير والتر سكوت والكاتب الألماني غوته. تتميز الموضوعات الرئيسية لنضجه بمحتوى درامي ورومانسي، أدى به للبعد عن النماذج الكلاسيكية من الفن اليوناني والروماني، ولكنه سافر إلى شمال أفريقيا، بحثا عن الغرابة. كصديق ووريث روحي لتيودور جيريكو، اتبع ديلاكروا هذا الطريق لصداقته مع اللورد بايرون. يقول بودلير عنه: "ديلاكروا يحب العاطفة بجماس، ولكنه عقد العزم على التعبير عنها بأكبر قدر من الوضوح البارد". [المترجم]

(••) المؤلف يقصد العمال. [المترجم]

في يونيو (*bloody tragedy of June*)(•) وضعت نهاية لكل الأوهام حول تناغم الطبقات وكشفت بوضوح مخيف عن هاوية تفغر فاهًا، انفتحت بين الأثرياء محدثي النعمة والطبقة العاملة الناهضة. وكان لابد أن يكون واضحا حتى لأكثر الناس عمى أن مسارات القابضين الجدد على السلطة لم يمكنها أبدا أن تكون هي مسارات الناس الشغيلة. تدريجيا اتخذ نمط اجتماعي جديد شكلا له في سنوات ما بعد الثورة: "البرجوازية" (*bourgeois*)، وليدة المواطنة المشوهة المثيرة للاشمئزاز، التي كانت قد شاركت في السابق في اجتياح الباستيل (*Bastille*) وأطلقت عقال الثورة. ولكن الأبناء والأحفاد لم يعد لديهم داخل أنفسهم المزيد من تلك الروح القلقة؛ فهم لم يكرهوا شيئا أكثر من التمرد والشغب المُختمِر. البرجوازي يعشق الانتظام، الذي يسمح له برعاية أعماله من خلال المداولات المناسبة. يدق قلبه داخل جيبه، وهو يضحي من أجله بلا رحمة بأي مشاعر اجتماعية أعمق. بطمع محدث النعمة المتمرد يحاول إخضاع كل شيء لسيطرته، وظلم كل واحد كما يحلو له. هو محدود فكريا، سوقي وغليظ في سلوكه، مريح وراضٍ ذاتيا، مفطور على النشاط ولكنه مستعد لأي وضاعة عندما يعتقد أن ممتلكاته في خطر.

"لويس فيليب" (*Louis-Philip*) هو الممثل الجدير بهذه الطبقة، فهو حتى صورة نمطية لها: وجه سمين لرجل بنوك، بذقن مدورة مزدوجة ونظرة ماكرة تمتلئ بترصد ماكر داهية وحساسية ماكرة للأعمال. بعد أيام يوليو الساخنة تلك في عام ١٨٣٠، سليل "بيت أورليانز" (*House of Orleans*) تملق ٢١٩ نائبا برجوازيا لوضعه ملكا على الفرنسيين. لقد أسموه "المواطن الملك" (*citizen king*)، ولم يتلقب بحق رأسا متوّجا بهذا اللقب أبدا أفضل من الحق الذي تلقب به "لويس فيليب". فترة

(•) ثورة ١٨٤٨ في فرنسا، التي تعرف أحيانا باسم ثورة فبراير هي واحدة من موجات الثورات في عام ١٨٤٨ التي اجتاحت أوروبا. في فرنسا أنهت الأحداث الثورية ملكية أورليانز (١٨٣٠-١٨٤٨) وأدت إلى تأسيس الجمهورية الفرنسية الثانية. في الأشهر التالية، ثارت معارضة لهذه الحكومة التي أصبحت محافظة أكثر فأكثر. في ٢٣ يونيو عام ١٨٤٨، هب أهل باريس إلى التمرد، ووقعت الأحداث التي أصبحت تعرف باسم ثورة يونيو – التي كانت تمردا دمويا ولكن غير ناجح قام به عمال باريس ضد التحول المحافظ للجمهورية. [المترجم]

حكومة هذا الرجل كانت أكثر الفترات عارا وكان على فرنسا أن تتحملها. الشعار سيئ الصيت للوزير "جيزو" (*Guizot*)، "كن غنيا!" (*Get rich*) كُتِب على جسد هذا النظام البائس، الذي تسبب خلال الثمانية عشر عامًا من وجوده في تحريك مثل هذه المرارة المرعبة بين الناس.

داخل "أونوريه دومييه" (*Honore Daumier*)(•) ثار خصم مرعب وعنيد لنظام الحكم البائس هذا. "دومييه" كان رجلا عظيما على نحو خاص وكان قادرا على إعطاء رسومه، رغم تصميمها لدواعي اللحظة، جدارة أبدية. لم تنفد مطلقا هجماته على النظام الحاكم وممثليه الرئيسيين، واصطاد كل نقاط ضعفه وألهبها ببساطة ازدرائه الحارق. استهدف الملك بالسهام الحادة لنكاته الشيطانية. التقطه في كل وضع تخيله: كمهرج في سيرك، وراقص بالأطواق، ونصاب في سوق أوراق مالية بل وحتى كمجرم، لم يكن لدى "لويس فيليب" أي شيء ملكي في نفسه، ولا يستطيع أحد أن يأخذ منه ما لم يكن يملكه أبدا؛ ولكن "دومييه" رسمه في تخطيطات سريعة في إنسانيته الضعيفة المثيرة للشفقة كرمز نمطي للمجتمع البرجوازي، بقبعته الأكثر طولا (*pipe hat-stove*) بوصفها "تاج المواطن" ومظلته السميكة تحت ذراعه – "ملك الكروش" الأصلي، العقل بالنسبة له مجرد ثقل للاتزان، النموذج الشره للمادي غير المثقف الحامل دائما في صغائر معتادة.

حتى السجن لم يجعل دومييه أهدأ على أي حال، ولما وضعت "حكومة الكروش" قانون سبتمبر رقم ١٣٥ سيئ الصيت موضع التنفيذ؛ والذي حظرت به كل الرسوم الكاريكاتورية السياسية وعلَّقت عمليا من حرية الصحافة انقلب الفنان على البرجوازي نفسه وجعله هدف سخرياته الجهنمية. لقد جرده الفنان من ثيابه كلها

(•)أونوريه دومييه (١٨٠٨-١٨٧٩) مبدع مطبوعات وكاريكاتير ورسام، ونحات فرنسي. له العديد من الأعمال التي يقوم فيها بالتعليق على الحياة الاجتماعية والسياسية في فرنسا في القرن الـ١٩. رسام وافر الإنتاج، ربما كانت أشهر أعماله هي رسومه الكاريكاتورية للشخصيات السياسية وهجاؤه لسلوك مواطنيه. بعد وفاته تم الاعتراف بقيمة لوحاته الفنية. [المترجم]

ليصبح عاريا أمام نظرات كل النظارة الفاحصة وأشار إلى كل تجعيدة مخفية في روحه الكئيبة الجاهلة. نراه في الشارع وفي المسرح وفي متنزهاته في "البواه" (*Bois*) وبجانب زوجته المحبوبة وفي الحمام وفي غرفة نومه، وصادف أن عرفنا بعمق كل جانب من جوانب وجوده الجاهل. قلم دوميه الرصاص غير المتصالح حفظ لنا معرضا فنيا كاملا من الأنواع التي تنتمي إلى فئة الأعمال الأكثر خلودا التي استطاع الفن أبدا إنتاجها. رسوماته التي لم يتفوق عليها أحد كانت رسوماته "لروبرت ماكير" (*Robert Macaire*)، نوعية من النشالين الماكرين المشغولين دائما بتحويل المحدودية الفكرية لزملائهم من الرجال إلى نقود. وسويا مع صديقه "برترام" (*Bertram*) يجتمعون للتخطيط لنتف ريش كل أولئك الغائبين تماما عنهم. أحد كتاب المسرح الباريسيين المشهورين وضع هذه النوعية على خشبة المسرح كعمل ميلودرامي (*melodrama*)، والتقط "دوميه" هذه الفكرة الماهرة، التي صنع منها نجاحا لا نظير له. بيده الماهرة الماكرة أصبحت الفترة بأكملها هي حقبة "روبرت ماكير"، اللص الماهر، المقتنع بشدة أن غباء معاصريه البواسل لا حدود له مهما يكن، وبعجرفة هادئة ينخرط في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني ويلعب دوره الساحر بجو المحترف الخبير المتذوق الذى يعرف بالضبط ما سوف يبتلعه الرجال. التنويعات التي كان "دوميه" قادرا على اللعب بها مع هذا النوع من الدجالين كانت لا تنفد تماما.

لم ينضج فنان أبدا سويا مع بيئته الاجتماعية بمثل هذه الحميمية كما كان "دوميه". وحتى ولو لم ينطق لنا كلمته المشهورة "أنا من زماني" (*Je suis de mon temps*) لابد وأن نعرفها. نظرة واحدة سريعة على أعماله تكفي لتخبرنا أنه كان "طفلاً لزمنه". قول حسن! هو من زمانه. ليس من شعبه ولا أمته، لأن فنه وصل لأبعد من حدود فرنسا؛ أعماله ممتلكات ثقافية للعالم بأكمله.

أحس "دوميه" (*Daumier*) بنبضات عصره، وأدرك أدق حركة فيه ورأى فوق كل شيء انحطاطه العميق. لقد رآه بعين الفنان المدققة التي لا يفلت منها شيء؛ لذلك رأى الأشياء بأكثر عمقا من معظم معاصريه الذين وقفوا معه على نفس الجانب

من المتاريس. وهكذا أدرك فعلا الخواء والتفاهة الكاملة للمجلس التشريعي بينما النزعة البرلمانية كانت لا تزال تعيش ربيع خطاياها المُزهِر. دعنا نتأمل الشخصيات النموذجية التي ترسل لنا بابتسامات ممزوجة بتكشيرة في رسمه "الكروش التشريعية". لم يحدث من قبل لمن يُسمَّون "ممثلي الشعب" وأعضاء الحكومة أن خُلِعت عنهم الأقنعة هكذا بلا رحمة كما حدث هنا. هنا الأشياء المكنونة بأقصى ما يمكن تخرج إلى السطح. هؤلاء المعاصرون الفاتنون كانوا صحبة من الأصفار الفكرية، الذين بسبب ضيق أفقهم والتفافهم ورضاهم الذاتي الوضيع وتحجر عقولهم والمكائد الصغيرة واللا مبالاة الوحشية يمثلون أحط ما يمكن تجميعه تحت عنوان "التمثيل الشعبي". ومن ثم فالشخصيات اللذيذة في عمله "ممثِّلون يمثَّلون" (*représentants représentés*) للفترة ١٨٤٨-١٨٤٩، شخصيات من مشهد هزلي لا يُقاوَم وواقعية بشعة تصور غباء وعجز النظام البرلماني بشكل أكثر فصاحة مما تستطيعه أمهر الأقلام.

كان دوميه عابدا متحمسا للحرية، وظل واحدا من هؤلاء المؤمنين حتى أغلق الموت عينيه. لقد شعر عن حق أن الحرية لا يمكن طيها وحبسها بواسطة إطار ضيق لدستور حتى إنها لا تستطيع التنفس، ولابد أنها سوف تختنق فور تسليمها لثرثرة المحامين ومشرعي القوانين في تفاصيل التفاصيل المتزيدة. أي لغة مُعبِّرة تتحدث بها لوحة "الدستور ينوِّم الحرية تنويما مغناطيسيا!" والرسم الآخر حيث يقوم الدستور بتفصيل ثوب جديد للحرية التي تتوسل بفارغ الصبر "لا تقطع كثيرا جدا من فضلك!" آه، لم يأت الأوان بعد ولن يأتي أبدا، عندما - كما توقع "جورج بوخنر" (**Georg Büchner**)[•] في عمله "الموت لدانتون" (***Dantons Tod***) - عندما يصبح نسق الدولة مثل الثياب الشفافة التي تلتصق بجسم الشعب لدرجة أن كل دفقة دم في

(•) كارل جورج بوخنر (١٨١٣-١٨٣٧) المسرحي الألماني وكاتب الشعر والنثر. يعتبر جزءًا من حركة ألمانيا الفتاة. كان ثوريا، وعالم طبيعة، وشقيق الطبيب والفيلسوف لودفيغ بوشنر. إنجازاته الأدبية رغم قلة عددها، تنال عادة تقديرا كبيرًا في ألمانيا، ويعتقد على نطاق واسع أنه لو لم تخب جذوتها بالموت المبكر، لكان قد انضم إلى الشخصيات الأدبية الألمانية المركزية مثل فون جوته وفريدريش شيلر. [المترجم]

شريانه وكل ارتعاشة عضلة وكل ارتجافة رغبة سوف تظهر بوضوح من خلالـــه. حتى أفضل الدساتير هي حتما قميص ضيق بالنسبة للحرية. إلى جانب ذلك، تـــرزي الدستور القدير قد قص كثيرا جدا من مواد الحرية حتى أن ما بقي منهـــا لا يـــصلح حتى لعملِ قميص نوم خفيف. ومن ثم هذه اللوحة الرائعة: "الدستور علـــى طاولـــة العمليات" (***Operating Table The Constitution on the***). ترقد امرأة فاقدة الـــوعي مُمدَّدة على طاولة؛ ويقف الأطباء حولها في لباس العمليات يـــستمعون إلـــى شـــرح البرفيسور. العفاريت الأشرار، أولئك الجراحون السياسيون، منفرون وأصحاب قـــبح مثير للتقزز. يشعر المرء بالرعب، ماذا يعني أن تأتمن بشكل واثق هـــؤلاء النـــاس على أمان حريات صعبة المنال. ألا يسكن غرفة العمليات هذه شبح "روبرت ماكير"، كيف يبدو لوح النقش هذا معاصرا. بالضبط كما لو أنـــه مُهـــدًى للهـــر "بـــرونيج" (***Herr Br***üning) ودستور فيمار (***Weimar***). نعم كل شـــيء فـــي "دومييـــه" هـــو معاصر، لأن الأيمان المتعصب في القوة الإعجازية للدستور لم تكن قد أصبحت بعد من خلال مشوار طويل حلما ميتا. ربما شعر دومييه بشكل جيد جدا مثـــل بـــاكونين (***Bakunin***) الذي قال في هذه الصلة: "أنا لا أومـــن بالدســـاتير والقـــوانين؛ أحـــسن الدساتير لا ترضيني. نحتاج لشيء آخر: عاصفة وحياة وعالم جديد بلا قانون ولذلك حر" (٣).

وكما اختار "دومييه" رجال الهيئات التشريعية كهدف لازدرائه المر، وهكـــذا أيضا كره أدواتهم التنفيذية بكل عاطفة مزاجه الجنوبي. كامل العدالـــة البرجوازيـــة كانت بالنسبة له مجرد عاهرة لمجتمع الكروش هذا الذي احتقره بكل هذا العمق. إنـــه في هذا الضوء قد صوَّر لنا إداريوه؛ التجسيد الحي للاصطناع المنافق والخبث ســـيئ السمعة، قتلة النفوس هؤلاء الذين يؤمنون بالمعـــادلات الرياضـــية والـــذين غلظـــت مشاعرهم في روتين العنف القانوني والاغتصاب الفكري. أيضا ألواح الـــنقش هـــذه مازالت تمتلك نفس القوة، لأنها في هذا المقام لا شيء قد تغير، ولا تزال حتى اليـــوم العدالة هي انتقام الطوائف ذات الامتيازات المُنظَّم التي تضغط على القانون ليـــصبح في خدمتها.

التقط فن دومييه روح الأشياء والأفراد الداعمين للمؤسسات القائمة التي استخدمها فقط ليمنح تعبيرا لهذه الروح. وهكذا هاجم دومييه الحرب والمحرضين عليها والعسكرتارية أيضا. لم يكن الخارج الذي أثاره، الأسباب المباشرة التي أدت للحرب. تخترق نظرته إلى الأعمق وتظهر لنا هذه الرابطة المرعبة التي لا تزال تقيد رجال اليوم بالماضي وفي ساعة شر توقظ ما كان قد بدا أنه ميت إلى حياة جديدة. عرف دومييه أيضا أن العسكرتارية لم تكن مجرد وجود جيوش نظامية قائمة. لقد أدرك بوضوح أنه هنا لابد لنا من التعامل مع حالة خاصة للعقل التي فور تغذيتها اصطناعيا يتحول الإنسان إلى آلية ميكانيكية لا تشعر وتطيع كل أمر بصورة عمياء ولا تأخذ في حسبانها أي عواقب لأعمالها. هذه الإعاقة الاصطناعية للضمير والتأمل الفردي الذي يحطم في 'الإنسان ضوابطه الأخلاقية وكل أحاسيس شخصيته هو أول افتراض مُسبَّق لكل عسكرتارية دون تمييز للعلم أو الزي الرسمي. مضى "دومييه" بمجرد تعبيره عن ذلك في صوره، مضى بعيدا متجاوزا الروابط الضيقة لحالات متأثرة بالشروط القومية وعالج الحرب والعسكرتارية كنتائج غير سليمة لنظام ينتج نفس التأثيرات في كل أرض وعبر نفس الشروط الجوهرية للحياة. هنا يتحدث إلينا فنان هزم الإنسان فيه مواطن الدولة! بالنسبة له الإنسانية ككل هي أنفس من الخلق الاصطناعي والأمة وهذا المفهوم المتغير جدا، أرض الآباء، رغم أن مخلص من كل قلبه للبلاد التي وُلِد فيها. هذه هي طبيعة رؤيته المنفتحة بشكل كلي والتي رفعت فنه إلى مستوى عالٍ كقطاع عرضي لأحداث كل يوم وأعطاها عظمتها التي لا تفنى.

ما بدأه دومييه كمصمم ورسام نفذه آخرون وطوروه بالمزيد. في الفترة المظلمة بعد الحروب النابليونية حتى نشوب "ثورة يوليو"(*) تكاد تكون العلاقة بين

(*) الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠، والمعروفة أيضا باسم ثورة يوليو، أو الثورة الفرنسية الثانية، التي أطاحت بالملك شارل العاشر، عاهل البوربون الفرنسي، وصعود ابن عمه لويس فيليب، دوق أورليان، للحكم، الذي هو نفسه بعد ١٨ سنة على العرش محفوفة بالمخاطر، أطاحت به ثورة ١٨٤٨. أدت ثورة ١٨٣٠ إلى إحلال مبدأ الحق الوراثي لصالح السيادة الشعبية. [المترجم]

الفن والوقائع الاجتماعية المباشرة للحياة مفقودة. أعاد دوميه تأسيسها عندما جعل من نفسه داعية نذيرا لفن يصدر عنه حديث فكر ومشاعر الناس. تقدمت هذه المساعي في مجال الفن بشكل قوي عن طريق تطور الحركة العمالية في أوروبا. عصر جديد ألقى بظلاله للأمام. العمل، الذي ظل طويلا محل احتقار وكان يُنظَر إلى ممثلي العمل كأقنان متخلفين اكتسب مكانة جديدة. بدأت الجموع العاملة في فهم أن نشاطهم الإبداعي يكمن في قواعد كل الوجود الاجتماعي. نهضت روح الاشتراكية. وفي كل بلد أرسى العمل قواعد فكرية لمجتمع المستقبل الجديد. الناس الذين كان عليهم الكدح في عبودية منهكة، الذين يبنون القصور وينجمون في أعماق الأرض للخروج بثرواتها؛ الناس الذين يقيمون ولائم الحياة لسادتهم ويمضون أيامهم في فقر وعوز، هؤلاء الناس نضجوا تدريجيا لفهم جديد وبدأوا في الضغط على أغلالهم لفك قيودها.

برهنت ثورة ١٨٤٨ على مدى العمق الذي بلغته جذور هذه الروح؛ ولا حتى دماء مذبحة يونيو تستطيع تخليصها منه. لاحقا دق نداء الأممية ملآن بالوعد وسكران بالأمل عبر الأراضي، ساعيا لدمج المحرومين في المجتمع معا في تحالف للعمل يحتضن العالم كله. لم يعد هناك عرق الفقير لإطعام الطفيليين؛ لتصبح الأرض مرة أخرى منزلا للإنسان؛ وثمار العمل طعامًا للجميع. لم يعد العمال بعد عبيد مطابخ السفن (***scullion***) في المجتمع، "العازار" (***Lazarus***)(•) الفقير الذي يستعرض معاناته بأبواب الأغنياء حتى ترق قلوبهم له. صعد شوق عظيم عبر عالم الملعونين. نموذج لمستقبل أفضل هز بعنف أرواحهم الميتة وملأها بالحماس. الآن هم يمدون

(•) شخصية وردت في مثل الرجل الغني والعازاروس وهو المثل الذي ضربه يسوع في إنجيل لوقا (١٦: ١٩-٣١). يحكي المثل عن العلاقة، في الحياة والموت، بين رجل غني لم يكشف عن اسمه وشحاذ فقير اسمه العازر. جنبا إلى جنب مع أمثال: العذارى، الابن الضال، والسامري الصالح، كان هذا المثل واحدًا من الأمثال التي صورها فن القرون الوسطى، ربما بسبب روايته صور من الحياة الآخرة. اسم عازروس (من العبرية: العازار - "الله هو عوني") هو غير العازر، الذي هو موضوع معجزة أخرى منسوبة ليسوع في إنجيل يوحنا، وهو الرجل الذي أحياه المسيح بعد وفاته بأربعة أيام. [المترجم]

آياديهم عبر حدود الدول؛ لأنهم شعروا كم تتلمظ نفس الحاجة في كل مكان داخل أرواحهم، وتتحرق نفس الآمال شوقا في قلوبهم. وهكذا شكلوا "اتحاد الشغيلة المناضلة" (**Union of Militant Labor**) العظيم المفترض أن ينشأ منه المجتمع الجديد.

أمسكت هذه الروح بالفن ، ليلتقط ما أصبحت كلمة الساعة "الواقعية" (**realism**). لم يعد الفنان مضطرا لتصوير "ما هو جميل" فقط، الذي يتم استعارته من عوالم أخرى وهو غالبا ليس إلا كذبة مغلفة بالسكر. وهكذا ظهر عالم العمال على نسيج اللوحات، رجال في ثياب رثة بوجوه خشنة حفر الزمان عليها ندوبه وأخاديده. وقد اكتشف البشر لدهشتهم أنه حتى في هذا العالم يقطن جمالٌ مخبوءٌ لم يحسوه من قبل.

كان "فرانسوا مييه" (**Francois Millet**)(•) واحدا من الرسل الأوائل لإنجيل العمل الإنتاجي الجديد. ورغم أن كامل طبيعته لم تكن سياسية فإنه أدرك رغم ذلك المغزى الاجتماعي للعمل بأعمق معانيه. ولكونه نفسه فلاحا، كان لدى رجل الأخاديد مكان خاص في قلبه لأنه أحب الأرض وأحب كل شيء يحمل علاماتها ويتنفس رائحة الحقول حديثة الحرث. لم يكن فلاحو مييه شخصيات من وحي الخيال. لم يكن هناك مكان في فنه للرومانسية الرعوية في رؤاها الخيالية التي تحل عندها منتجات الخيال بدلا من وقائع الحياة. ما قدمه "مييه" هي الحقيقة الخشنة دون تجميل: رجل الأرض هنا يمتلك كلمته، يفحص بصراحة وبفصاحة محتوى وجوده. رسم "مييه" يده المجعدة ذات الندوب، وظهره المحني، ووجهه العظمي الذي لفحته الريح؛ أظهره "مييه" في اتحاده الفطري الحميم مع الأرض التي يفلحها ويجعلها مثمرة بعرقه. لم يكن أولئك فلاحين من الذين نعرفهم في روايات قرية "آورباخ" (**Auerbach**)، الذين يتركون غالبا الانطباع بأنهم قد مشطوا خصلات شعورهم الملتوية، وارتدوا أحسن

(•) جان فرانسوا مييه (١٨١٤-١٨٧٥) رسام فرنسي وأحد مؤسسي مدرسة باربيزون في ريف فرنسا. أثار ميليه الإعجاب بمشاهده الفلاحية. من الممكن تصنيفه على أنه جزء من الحركة الفنية الواقعية. [المترجم]

حُلل أيام الآحاد المناسبة للذهاب إلى قاعة الاجتماعات العامة؛ لا. فلاحو "مييــه" ذوو طابع فريد على نحو خاص. ويظل هناك معلقا فوق كل شيء أنتجه جو من الوقــار الهادئ غير موضوع بتصنع ولكنه ينهض من الموضوع نفسه. إنه الــنفس العميــق للأرض، التي تحتفظ بالزمن مع الإيقاع الخالد للعمل وتنادي الحياة في روح الناظر؛ ذلك الاهتزاز الغريب الذي يقترب من فهم اتحاد كل ما ينمو. لوحات مثل "جامعى ما يتخلف من الحصاد" (***The Gleaners***) و"الرجل والجــاروف" (***The Man with the Hoe***) وراعية الغنم (***The Shepherdess***) و"صلوات الملاك" (***The Angelus***) هي مقتنيــات أثرية ذات عظمة صريحة في تعبيرها.

هذا الفن الجديد لم يحتل موقعا ســهلا. كــم هــاجموا "جوســتاف كوربيــه" (***Gustave Courbet***)(•) صديق برودون، مناصر كل ثورة، كما كان يُــسمي نفــسه، عندما جرؤ على "تدنيس مَبدأ الجمال" بوضع البروليتاريا على نسيج اللوحة بملابــس عملهم زاعما فنا جديدا لم يعد يستعير من النماذج النمطية الكلاسيكية ماضــيًا ميتًــا ولكنه يستقي "مادته وإلهامه من الحياة المعاصرة التي تزأر حول الفنــان مــن كــل جــانب". أعمال مثل "كاسرى الأحجار" (***Stonebreakers***) و"الدفن فــي أورنــان" (***The Burial in Ornane***) و"الرجــل مع الغليون" (***The Man with the Pipe***) التي لا نستطيع حتى اليوم وفاء خصائصها الفنية حق قــدرها مــن الإعجــاب، عاملهــا الأكاديميون بازدراء، ونقدوها كشاهد على الشذوذ الرهيب في الذوق الفنــي. إلا أن واقعية "كوربيه" لم تكن سوى محاولة لرؤية البشر والعالم في ضوء جديد، يلمس فيه

(•) جان ديزيريه غوستاف كوربيه (١٨١٩-١٨٧٧) رسام فرنسي قاد الحركة الواقعية الفرنــسية في الرسم في القرن الــ١٩. رفض تقليدية ورومانسية الجيل السابق من الفنانين التــشكيليين. استقلاليته ألهمت الفنانين اللاحقين: الانطباعيين والتكعيبيين. لوحات كوربيه مــن أربعينيــات وخمسينيات القرن التاسع عشر جلبت له اعتراف الجميع. لقد تحدى التقاليد بتصوير فلاحــين وعمال غير نموذجيين، ورفض قصر اللوحات على الموضوعات الدينية أو التاريخية. كانت لوحات كوربيه في معظمها ذات طابع سياسي وأقل بشكل صريح: المناظر الطبيعية والمناظر البحرية، ومشاهد الصيد، والعراة والأشكال الجامدة. سجن لمدة ستة أشهر فــي عــام ١٨٧١ لتورطه مع كومونة باريس، وعاش في المنفى في سويسرا من ١٨٧٣ حتى وفاته. [المترجم]

الأمور التي لم يحسها أحد من قبله. ويظهر ذلك في مشاهد الطبيعة الرائعة التي رسمها كوربيه وحَمّلها الواضح الملموس وخصوبة حياتها الفائقة مثل ترنيمة صلاة لمبدأ الخصوبة.

وأي جمال داخلي يُمكِن اكتشافه لا أحد يظهره أفضل من "كونستانتين مينييه" (*Constantin Meunier*)(•) الذي كان مثل هذا العابد المتطرف للشكل ذى الجمال الأثري. إلا أنه بين المداخن الفواحة بالروائح، والهياكل مفتوحة الأفواه وأفران الصهر في "بوريناج" (*Borinage*) يشعر بتسارع دقات قلب عالم الصلب ذلك الذي يتنفس برئتيه الحديديتين ويُحرِّك أطرافه القوية في تزامن مع الآلات. أيضا هناك أصبح عارفا أنه ينتمي إلى زمانه، وأن فنه يجب أن يضرب بجذوره فيه. امتزج شوقه للشكل في الآثار القديمة بالانطباعات القوية التي يتلقاها الفنان في قلب الصناعة البلجيكية. لذا خلق مينييه تلك الأشكال القوية للعمل التي تشبعت بشوق لعالم جديد رغم كل مظهر مصاعب وجوده الخشن في العيون الواثقة من الانتصار. أي قوة تعيش في هؤلاء الشخوص الذين يطيحون بالمعول في باطن الأرض ويصبون الصلب المصهور المُنير بالمجد الساحر، ويخطون عبر الحقول المظلمة وينثرون البذور الخصيبة أو يحملون الأثقال الكبيرة على أكتافهم القوية. الأقوياء الذين يشقون مسار الزمن الجديد هم أولئك الدعاة للبداية الجديدة التي لن تستطيع قوة على الأرض وضعهم تحت السيطرة. هناك عظمة في هذه الشخصيات تعود للآثار القديمة الذين يتقدمون بخطوات ثابتة للقاء فجر اليوم الجديد الأحمر. وبنفس قوة تأثير عوالم مارد السيكلوب (*Cyclopean realm*) الذي يسيرون فيه ويعززون به رغباتهم.

في كل بلد ينشأ ممثلون ومفسرون لهذا الفن الجديد، الذي تحتاج أعماله إلى أزمنة تأتي به إلى الحياة وتكافح من أجل التعبير عنه. ينعكس في إنتاج هذه الأعمال عدم توافق نظمنا الاجتماعية، والأخلاقيات مزدوجة المعايير، والذوات المنتفخة

(•) كونستانتين مينييه (١٨٣١-١٩٠٥) الرسام والنحات البلجيكي الذي احتل أهمية لمساهماته في الفن الحديث بإدخال صورة عامل الصناعة وعامل الميناء والتعدين كرمز للحداثة. عمله هو انعكاس للتطورات الصناعية والاجتماعية والسياسية في عصره، وتمثل وجهة نظر التعاطف والالتزام بالإنسان والعالم. [المترجم]

منزوعة الرحمة وانعدام الإنسانية الخاصة، كل هذا التآكل الأخلاقي في زمن جعل "عابد المال" (*Mammon*) هو رب الأرض. إلا أن عاطفة أخرى تعيش في هذه الأعمال: الأنشودة الرعدية للعمل المحيط بالعالم، والتوهج المحموم للحركات الثورية الشعبية، والشوق منخلع الفؤاد بمجتمع جديد للحرية والعدالة الحقيقية. يظهر أمام أعيننا طابور طويل، فنانون من كل بلد محكوم بواسطة السادة، وموحد بروابط غير مرئية من التجارب الداخلية و–كل بطريقته الخاصة– يتعاون في أعمال إعادة البناء. "تشارلز دو جرو" (*Charles de Groux*) و"إيه ث شتاينلين" (*Steinlen .Th .A*)، "ليون فردريك" (*Leon Frederic*) و"أنطوان فيرتز" (*Wiertz Antoine*)، "سيجانتيني" (*Segantini*) و"لوتشي" (*Luce*)، "تشارلز هيرمانز" (*Charles Hermanns*) و"إي ليرمانس" (*Laermans .E*)، "فيليشين روبس" (*Felicien Rops*) و" فنسنت فان جوخ" (*Vincent van Gogh*)، "جي إف واتس" (*Watts .F.G*) و"كاتي كولفيتز" (*Kathe Kollwitz*)، "فرانتس ماسيريل" (*Franz Masereel*) "هاينريتش زيله" (*Heinrich Zille*) "جورج جروتس" (*Grosz Georg*)، "دييجو ريفيرا" (*Diego Rivera*) وعديد آخرون لا حصر لهم – كلهم امتلكوا جذورا في الظاهرة الاجتماعية العظيمة لزمانهم، وكان لدى فنهم نفس القدر المتساوي من عدم وجود علاقة على الإطلاق بمصادفة أصولهم القومية المنحدرين منها.

ومع ذلك لا ينطبق هذا سوى على أولئك الفنانين الذين يوجد في أعمالهم تعبير عن هجوم اجتماعي واضح بشكل أو بآخر، ولكن على الجميع. كل فنان هو في النهاية ليس إلا عضوا من وحدة ثقافية عظيمة التي تحدد بالتوازي مع موهبته الشخصية أعماله؛ وفي ذلك تلعب القومية دورا تابعا بالكامل. في الفن أيضا يدرك المرء نفس الظواهر الشاملة التي تتكشف في كل ميدان آخر من العمل الإنساني؛ هنا أيضا تجد الإنعاش المتبادل داخل نفس الدائرة الثقافية يلعب دورا حاسما، ليست الأمة فيها إلا جزءًا صغيرًا. دعنا نتذكر كلمات "أنسيلم فويرباخ" (*Anselm Feuerbach*)(•) الذي لم يكن بكل تأكيد رجلاً يحمل ميلا ثوريا. "يفرح البشر كثيرا لوصفي بأنني

(•) أنسيلم فيورباخ (١٨٢٩–١٨٨٠) رسام ألماني. الرسام الرئيسي للمدرسة الكلاسيكية الألمانية في القرن ال١٩. [المترجم]

فوق كل شيء فنان ألماني، أنا أعترض بوقار ضد هذه التسمية، لأن ذلك الذي أكونه يدين جزئيا لنفسي، وجزئيا يدين لفرنسيي عام ١٨٤٨ وللإيطاليين القدامى".

ومما له مغزى أكثر أن الزعم بوجود فنان ألماني كان محظورا طوال حياته في ألمانيا نفسها، وبطريقة شاملة لدرجة أنهم حتى أنكروا الموهبة على من يمارس الرسم. لذلك أمة على مثل هذه الحال لا تنتج فنانين فقط بل إنها تفتقد كل المفاهيم المُسبّقة التي تجعل من الممكن تقييم عمل فني على وجه سليم. "صوت الدم" لم يكن بعد في موقع ليكتشف "السمات المتعلقة بالأجناس" في عمل فني، وغير ذلك فعدد الفنانين الذين أُسيء فهمهم وجرى احتقارهم وتلويث سمعتهم بواسطة معاصريهم داخل أمتهم ذاتها لن يكون بهذا الاتساع.

دعنا فقط نتخيل قدر قوة التأثير الذي مارسته الاتجاهات المتنوعة في الفن على عمل الفنانين الأفراد؛ ومن هنا أصبحت قوميتهم لا حول ولا قوة لها في إطلاق حرية الفنان. لا تمتلك الميول المختلفة في الفن مصادرها من الأمة، ولكن من الزمان والظروف الاجتماعية للعصر. الكلاسيكية (***Classicism***) والرومانسية (romanticism) والتعبيرية (***expressionism***) والانطباعية (***impressionism***) والتكعيبية (***cubism***) والمستقبلية (***futurism***) هي ظواهر زمنية لا تمتلك أمة من الأمم تأثيرا عليها. العلاقة الوثيقة بين الفنانين الذين ينتمون لأمم مختلفة ولكن لنفس المدرسة الفنية يُمكِن إدراكها من النظرة الأولى؛ إلا أن العلاقة بين اثنين من الفنانين ينحدران من نفس الأمة ولكن أحدهما يناصر المدرسة الكلاسيكية بينما الآخر يتبع مسار التكعيبية أو المدرسة المستقبلية، لا توجد -إلى الحد الذي يتعلق بفنهما- أي نقطة اتصال مهما تكن. وهذا المثال يصلح أيضا لكل الفنون وأيضا مع الأدب. فما بين "زولا" (***Zola***)(•) ومناصري المدرسة الطبيعية (***naturalism***) في البلاد

(•) إميل إدوارد تشارلز أنطوان زولا [(١٨٤٠-١٩٠٢) الروائي والكاتب المسرحي والصحافي الفرنسي، المعروف بانتمائه للمدرسة الأدبية الطبيعية ومساهم مهم في تطوير المسرح الطبيعي. كان شخصية رئيسية في التحرر السياسي في فرنسا وفي تبرئة ضابط الجيش ألفريد دريفوس الذي اتهم زورا وأدين. رشح زولا لجائزة نوبل في الآداب؛ الأولى والثانية عام ١٩٠١ و ١٩٠٢. [المترجم]

الأخـــرى توجد علاقة نسب لا يمكن الخطأ بها؛ ولكن ما بين "زولا" و"دو فييه" (***De Villier***) أو "دو نرفال" (***De Nerval***)، رغم أنهم كلهم فرنسيون؛ وبـــين "هويـــسمانز" (***Huysmans***) و"مايترلنك" (***Maeterlinck***) رغم أن كليهما بلجيكـــي؛ وبـــين "بـــو" (***Poe***) و"مارك توين" (***Mark Twain***) رغم أن كليهما أمريكي؛ هنا تنفتح أكثر مـــن هاوية واسعة. كل الحديث عن "الجوهر القومي" الذي يقع بشكل مزعوم في أســـاس كل عمل فني يفتقد أي قواعد عميقة وليس أكثر من مفهوم بالتمني.

لا، الفن ليس قوميا بأكثر من العلوم ولا أي مجال آخر من مجـــالات حياتنـــا الفكرية والمادية. دعنا نسلِّم بأن المناخ والموجودات الخارجية المحيطة بنـــا تمتلـــك تأثيرا ما على الوضع الروحي للبشر وبالتالي على الفنان؛ ولكن ذلك يحـــدث مـــرارا في نفس البلد وداخل نفس الأمة. وأن إمكانية استنباط عدم وجود قانون للقومية فهـــذا ما يظهر في حقيقة أن كل شعب شمالي قد تحرك إلى الجنوب واستقر هنـــاك مثـــل النورمان (***Normans***) في صقلية أو القوط (***Goths***) في إسبانيا لم ينسوا فقط لغـــتهم القديمة في الموطن الجديد، ولكنهم أيضا تكيفوا بأنفسهم مـــع الموجـــودات الجديـــدة المحيطة بهم في حياتهم العاطفية. المعيار القومي إذا ما كان يمكـــن إنفـــاذه بـــالقوة، سوف يدين كل فن ليصبح فقط مجرد محاكاة موحشة، وسوف ينزع منه بالضبط مـــا يجعل منه وحده فنا – إلهامه الداخلي. ما يُسمى عادة "القومي" هـــو فقـــط، كقاعـــدة، التعلق بالماضي، باستبداد التقاليد. حتى ما هو تقليدي ربما يكون جميلا وربما يلهـــم الفنان بالإبداع؛ ولكن يجب ألا يكون البوصلة الوحيدة للحياة وألا يسحق كـــل شـــيء جديد تحت ثقل ماض ميت. عندما يحاول البشر إيقاظ الماضي إلى الحياة من جديـــد، كما يحدث اليوم بشكل مبالغ فيه في ألمانيا تصبح الحياة موحشة وراكدة، مجرد رسم كاريكاتوري لما قد كان. لأنه لا يوجد جسر يؤدي بنا إلى الماضي. بالـــضبط مثـــل رجل ناضج، ورغم كل اشتياقه وحنينه للماضي، لا يستطيع أبدا-الرجوع إلى سنوات طفولته، ولكن يجب غليه المضي قدما والانتهاء من مـــسار حياتـــه، كـــذلك أيـــضا الشعوب لا تستطيع استدعاء تاريخ ماضيها إلى الوجود. كل إنتاج ثقافي هـــو إنتـــاج عالمي، وأكثرها عالمية هو الفن. لم يكن أحد آخر غيـــر "هـــانز هـــاينز إيـــوارث"

(*Hanns Heinz Ewers*)(*) الذي يرفل في نِعَم أدولف هتلر، يعبر عن هذه الحقيقة في تلك الكلمات:

تفصل عوالم كاملة رجل الثقافة في ألمانيا عن زملائه من المواطنين، الذين يراهم هو يوميا في الشوارع؛ ولكنه مجرد لا شيء، بالضبط قطرة مياه تافهة، تفصله عن رجل الثقافة في أمريكا. أحس "هاين" (*Heine*) بهذا ولطم به وجه الفرانكفورتيين (*Frankfurters*). نطق به "إدجار آلان بو" بشكل أكثر وضوحا. ولكن معظم الفنانين والدارسين والمتعلمين في كل شعب يمتلكون فهما بسيطا لهذه الحقيقة حتى أنه لغاية يومنا هذا كلمة هوراس (*Horace*) اللطيفة "أنا أكره" (*Odi profanum*) تم تفسيرها بشكل غير صحيح! الفنان الذي يتمنى الإبداع من أجل "شعبه" يجاهد من أجل شيء ما مستحيل وغالبا يهمل بصنيعه هذا شيئا ما قابلاً للتحقق بل وحتى أعلى: أن يبدع من أجل العالم بأكمله. فوق الألمان وفوق البريطانيين والفرنسيين تقف أمة أعلى: أمة الثقافة؛ أن تبدع من أجلها تلك هي المهمة الجديرة بفنان.[٤]

(*) هانز هاينز إيوارث (١٨٧١-١٩٤٣) ممثل ، وشاعر، وفيلسوف، وكاتب قصص قصيرة وروايات ألماني. بينما تناولت كتاباته مجموعة واسعة من المواضيع، إلا أن شهرته تعود أساسا لأدب الرعب، وخاصة ثلاثيته حول مغامرات فرانك براون، وهو شخصية نسجها على منواله. في عام ١٩٣١ انضم إيوارث للحزب النازي، منجذبا لقوميته، وفلسفته الأخلاقية النيتشوية، وعبادة الثقافة التوتونية. إلا أنه لم يتفق مع الحزب في معاداة السامية، إضافة إلى مثليته الجنسية التي سرعان ما أنهت شعبيته مع إدارة الحزب. في عام ١٩٣٤ تم حظر معظم أعماله في ألمانيا، ومصادرة ممتلكاته. عبر كتابة العديد من الالتماسات استطاع إيوارث في نهاية المطاف إلغاء الحظر المفروض عليه. توفي إيوارث من مرض السل في نفس العام. رغم تأثيره الكبير على الخيال في أدب الرعب في القرن العشرين، لا يزال إيوارث مكروها في الأوساط الأدبية البرجوازية (وخصوصا في العالم الناطق باللغة الإنجليزية والألمانية) بسبب ارتباطه مع النازيين. لذلك، بعد الحرب العالمية الثانية أصبح من الصعب العثور على طبعات أعماله. [المترجم]

يقف الفن والثقافة فوق الأمة، فوق الدولة. بالضبط حيث لا يوجد فنان يبـدع فقط من أجل شعب مخصوص، هكذا الفن في حد ذاته لا يمكن استطالته أبـدا علـى "سرير اللص بروستكريز" (*Procrustean bed*) للأمم. إنه بالأحرى، كأرقى مترجم للحياة الاجتماعية، يساهم في الإعداد لثقافة اجتماعية أعلى تطيح بالدولة والأمة لتفتح أمام البشرية بوابات مجتمع جديد يمثل هدفا لرغباتها.

هوامش الفصل الحادى عشر

---

(1) *John Lafarge, Great Masters. New York, 1906*

(2) *Richard Muther, Geschichte der Malerei. Leipzig, 1909. Band III, p. 128*

(3) *Marcel Herwegh, Briefe von und zu Georg Herwegh: "Brief Bakunins an Herwegh aus dem Jahre 1848" München, 1898*

(4) *Edgar Allan Poe. Berlin and Leipzig, 1905, p. 39*

الفصل الثاني عشر

المشاكل الاجتماعية في زماننا

الدولة القومية وانهيار المجتمع القديم. حقبة الثورة نتيجة لفقدان الاتزان الاجتماعي. الصلات التاريخية كظواهر ثقافية. إضعاف الوعي الاجتماعي والاستقلال الفردي. الطبيعة القدرية لتفكيرنا والاعتقاد في حتمية الأحداث الاجتماعية. الدولة العملاقة والاحتكار الاقتصادي، مكآفات مُهلكة للنوع البشري. الإنسان والآلة. الفوضى الاقتصادية الدولية. المخططات التكنوقراطية. المسألة الاجتماعية مشكلة الاستهلاك. هل رأسمالية الدولة هي الحل؟ تدويل المناطق التي تزودنا بالمادة الخام. الاقتصاد العالمي وليس الاستغلال العالمي. ماذا تكلفنا الدولة. الخسائر المادية للحرب العالمية. جنون الأزمنة. التغلب على الدولة والأمة بواسطة المجتمع الجديد.

بعد أفول ثقافة المدينة القديمة وفترة الفدرالية في أوروبا سقط في زوايا النسيان الغرض الحقيقي من الوجود الاجتماعي تدريجيا. لم يعد المجتمع اليوم هو العلاقة الطبيعية بين الإنسان والإنسان التي تجد تعبيرها في جماعة المصالح الفكرية والمادية. بظهور الدولة القومية أصبحت كل الأنشطة الاجتماعية تدريجيا أداة لخدمة الغايات الخاصة لمنظمات السلطة السياسية؛ لم تعد في خدمة مصالح المجتمع ما عدا الرغبات والاحتياجات الضرورية لطبقات وطوائف ذات امتيازات في الدولة. هكذا فقد المجتمع استقراره الداخلي الضمني وأصبح خاضعا لنوبات عنف دورية، تنشأ من محاولات واعية أو غير واعية لاستعادة التماسك المفقود.

يتتبع "لوي بلان" (*Louis Blanc*) بذرة الثورة الفرنسية بالرجوع إلى عصر الإصلاح. في الواقع مع "الإصلاح" يبدأ فصل جديد في تاريخ أوروبا لم يصل حتى

هذا اليوم إلى نهاية محددة. لقد أُطلِق عليها حقا "حقبة الثورة" وهي التسمية المُبرَّرة بحقيقة أن كل شعوب القارة قد تلبستها وسيطرت عليها بشكل متساوٍ هذه الحقبـة. في مقالته المستنيرة "الثورة" (*Die Revolution*) بحث "جوستاف لانداور" (*Gustav Landauer*)(*) عن تمييز مراحل متنوعة لهذا العصر وإعطائها تتابعًا محددًا. فهـو يشير إلى مرحلة منها هكذا:

> **الإصـلاح الحقيقـي بتغييراتـه الفكريـة والاجتماعيـة، وعلمنتـه (*secularizations*) وصناعة دوله وحرب الفلاحـين (*Peasant War*) والثورة الإنجليزية (*English Revolution*) وحروب الثلاثـين عامـا (*Thirty Years' War*) وحرب الاستقلال الأمريكية (*American War of Independence*)، رواية الوقائع الفعلية الأقل [أهمية] من عملياته الفكرية وأفكاره التي مورس بها التأثير الأقوى على ما يتـوالى الآن: الثورة الفرنسية العظمى.**

ومثل "برودون" ومن بعده "باكونين" و"بي إي مارجـال" (*Pi y Margall*)(**) وكروبوتكين، هكذا أيضا رأى لانداور في كل التمردات والثورات التـي اشـتعلت بشكل دوري من ١٧٨٩ حتى هذا اليوم في بلدان أوروبا على تنوعها أنها من صنع العملية الثورية ذاتها. أكد هذا التحقق من قناعته بأن حقبة "الثورة" لم تنتهِ، ولكننـا ما زلنا وسط عملية تغيير اجتماعي هائل لا نستطيع استشراف نهايته بعد. لا يمكن إنكار المنطق المُقنِع لوجهة النظـر هـذه. مـن يقبـل بهذه النظـرة لا يـستطيع

(*) جوستاف لانداور (١٨٧٠-١٩١٩) واحد من المنظرين البارزين في الأناركية في ألمانيا فـي نهاية القرن الـ١٩ وبداية القرن الـ٢٠. كان من دعاة الأناركية الاجتماعية وداعية الـسلام المعلن. لفترة وجيزة كان مفوضا للتنوير والتعليم العام في الجمهوريـة الـسوفيتية البافاريـة قصيرة الأجل. لانداور معروف أيضا بدراساته حول الميتافيزيقا والدين، ولترجمتـه أعمـال وليام شكسبير إلى اللغة الألمانية. [المترجم]

(**) فرانسيسك بي مارجال (١٨٢٤-١٩٠١) رجل الاشتراكية التحررية والفيدرالي الكاتـالوني، والمؤرخ، والفيلسوف السياسي وكاتب الفكر الرومانسي. كان رئيسا لفترة وجيزة للجمهوريـة الإسبانية الأولى عام ١٨٧٣ إبان الثورة الكانتونالية. [المترجم]

أمام الأحداث الأخيرة للعصر، الحرب العالمية [الأولى] والحركات الاجتماعية، وثورات وسط أوروبا وخصوصا روسيا، والتغيرات في النظام الرأسمالي العالمي، وفي كل التغيرات الاجتماعية والسياسية في أوروبا منذ "الحرب"، إلا أن يراها تبديات منفصلة لنفس العملية الثورية الكبرى. ومنذ أربعمائة سنة حرّكت هذه الثورة مرة بعد أخرى كامل الحياة الاجتماعية للشعوب الأوروبية، وآثارها البعيدة ملحوظة اليوم بوضوح، حتى في أجزاء أخرى من الكوكب.

هذه العملية لن تنتهي حتى يحدث ضبط حقيقي بين الأهداف الشخصية للفرد وظروف الحياة الاجتماعية العامة - نوع من التركيب بين الحريات الفردية مع العدالة الاجتماعية للحركة الجموعية للجميع - بالطريقة التي سوف تعطي مرة أخرى محتوى للمجتمع وترسي قواعد لمجتمع جديد. لن يُصبح هناك حاجة لقهر خارجي، لأن هذا المجتمع سوف يجد توازنه الداخلي من خلال حماية مصالح الجميع، ولن يترك مساحة للصراع من أجل السلطة السياسية والاقتصادية. فقط عندئذٍ تنتهي "حقبة الثورة" لتفسح الطريق لثقافة اجتماعية تجد مرحلة جديدة من نشوء وارتقاء البشرية تعبيرا عنها.

فقط بتفسير التاريخ من خلال هذه الروح نصل إلى إدراك سليم للسمات المشتركة التي بها تكشف أي حقبة خاصة عن نفسها في حركات مماثلة داخل كل البلدان من نفس الدائرة الثقافية. يوجد في كل فترة عظيمة من التاريخ بشكل أولي نوع ملحوظ من التفكير الذي ينبع من الظروف الاجتماعية للعصر والذي يستجيب لها من أجل تغييرها. مقارنة بالمشاكل العامة التي تحتل تفكير البشر في أي فترة خاصة، ما يُسمى "الطموحات القومية" (التي يجب أكثر من ذلك تلقينها للبشر اصطناعيا) من النادر أن يكون لها أي مغزى. فهي لا تفيد سوى في أن تكون غمامة تحجب رؤية البشر للعمليات الثقافية الحقيقية بل وحتى لأزمان أطول أو أقصر تمنع التطور الطبيعي لهذه العمليات. فقط تصبح الأحداث التاريخية لحقبة ما قابلة للفهم من خلال صلاتها الداخلية؛ أما الأيديولوجية القومية المصطنعة التي

يسعى أنصارها لرؤية كل بلد وكل شعب على ضوئها فقط لتخدم أغراضهم المنفصلة لا يمكنها أن تؤدي إلى أي استنتاجات بخصوص هذه الصلات. لأنه في الأخير، كامل التاريخ القومي لشعب هو دائما مجرد تاريخ دولة خاصة، ولا يمكنه أبدا أن يكون تاريخ ثقافتها، الذي يحمل دائما بصمات الفترة التاريخية. تقسيمنا لحياة ناس أوروبا إلى تاريخ الأمم الفردية ربما فرضته ضرورة وجود منظمات الدولة الحديثة، إلا أنه لذلك ليس أقل ضلالا. مثل هذه التقسيمات لا تخلق سوى حدود اصطناعية لا تقوم في الحقيقة وهي غالبا ما تشوه جانبا كاملا من الفترة التاريخية لدرجة أن الناظر إليها تضيع منه كل العلاقات البينية.

دعنا للحظة نضع في حسباننا قدر التأثير العميق والحاسم الذي مارسته الظواهر الاجتماعية الخاصة ذات المدى العالمي على الطبيعة العامة لفترات تاريخية كاملة. انتشار المسيحية ترك بصمات لا تُخطأ على كامل الحياة الفكرية للشعوب الأوروبية. وبالمثل، غيرت الرأسمالية خلال المائتي سنة الأخيرة بشكل جوهري كل المؤسسات الاجتماعية، وليس فقط الشروط المادية؛ لقد أعطت أيضا طبيعة خاصة لا لبس فيها لكل الجهود الفكرية في هذه الفترة. لقد تحدثنا فعلا عن التأثير القوي لمفاهيم خاصة عن الحياة والكون على تفكير الشعوب التي تنتمي للدائرة الثقافية الأوروبية الأمريكية.

أليست الأزمة الحالية في كامل العالم الرأسمالي هي أكبر دليل قاطع على الصلات الداخلية للفترة التاريخية الفاعلة بشكل متساوٍ في كل البلدان؟ دعنا لا نخدع أنفسنا بالأوهام: فهي ليست أزمة اقتصادية صرف؛ إنها أزمة المجتمع الحالي، أزمة التفكير المعاصر، الذي يلح علينا مطالبا بإعادة بناء كامل حياتنا العقلية والروحية، وليس مجرد ضبط اقتصادنا. إنها بداية شفق الآلهة العظيم. من نواتج دوامات فوضى الأفكار القديمة والجديدة سوف ينشأ ويتطور تدريجيا تنوير جديد، سوف يغير كامل المجال الفكري لرؤية البشر ويكشف لهم في ضوء جديد عن العلاقة الأصيلة بين الإنسان والمجتمع. لأن المطلوب ثورة روح عظيمة من أجل تغيير علاقات البشر بأشياء الحياة المادية وإلهامهم بتحرك في اتجاه جديد.

أول كل شيء يجب أن نتعلم مواجهة الأشياء مباشرة، ألا نرضى بعد ذلك أن نرى ظواهر الحياة الاجتماعية من خلال عدسات الفرضيات الفلسفية أو تفسيرها بواسطة أي نوع من المفهوم التاريخي المبني بشكل مصطنع. نظرية النشوء والارتقاء التي قامت جوهريا في وقت من الأوقات بتثوير وتحويل كامل التفكير في دائرتنا الثقافية قد أصبحت اليوم لحد بعيد عائقا يمنع حركتنا. لقد شغلنا أنفسنا طويلا جدا وحصريا جدا بأسباب وانتقالات الظواهر الاجتماعية حتى باتت الظواهر نفسها غريبة علينا وذات أهمية ثانوية – وثانيا في المعنى نفسه يتطلب منا التأثير الفوري للأشياء اهتماما أكبر من الاهتمام بالأسباب التي تنبع منها هذه التأثيرات. لقد أثبتنا بالدليل لأنفسنا لعقود عديدة أننا محللون مهرة للمجتمع الرأسمالي ولكننا فقدنا في الأثناء نفسها طاقتنا على تجديد الحياة الاجتماعية واستكشاف آفاق جديدة للبشرية من أجل حركتها. فقد تفكيرنا محتواه الأخلاقي الذي يمتلك جذورا في الروح المجتمعية وأصبح مقيَّدا بشدة للضبط الفني الخالص. بل حتى، لقد مضينا بعيدا جدا في النظر واقعيا للاعتبارات الأخلاقية كنقطة ضعف، وأقنعنا أنفسنا بأن هذه الاعتبارات لا تمتلك تأثيرا على السلوك الاجتماعي للبشر. ما أدى هذا إليه، فهذا ما نراه اليوم بوضوح مرعب.

تتخذ نظرية النشوء والارتقاء مع العديد صيغة مفهوم قدري للتطور الاجتماعي، لتؤدي بهم إلى النظر حتى إلى أكثر الظواهر تمردا في العصر على أنها نتيجة لعمليات ارتقاء حتمية لا يمكن تبديلها، ولا يستطيع الإنسان التدخل فيها بشكل تعسفي. هذا الاعتقاد في حتمية وقدرية كل الأحداث يجب أن يجعل الإنسان مُغتربا عن إحساسه الطبيعي بالخطأ والصواب ويبتر فهمه للمغزى الأخلاقي للأحداث.(١) نحن نلعب اليوم بالتفكير الخطر في أن الوجود المتطفل الواسع للفاشية هو مرحلة ضرورية نهائية للرأسمالية التي تمهد أخيرا الطريق أمام الاشتراكية(٢). بمثل هذه الأفكار نحن لا نصيب فقط كل مقاومة بالإعاقات أمام القوة الوحشية والتعسفية، ولكننا أيضا نبرر بشكل غير مباشر للجناة الذين يرتكبون مثل هذه الفظائع باعتبارهم منفذين للضرورة التاريخية التي تتجاوز أعمالهم، إذا جاز لنا

الحديث، الخير والشر. ولا يعني إلا القليل سواء أكان هذا قد تم بشكل واع أم لا. في الحقيقة التصرفات الوحشية لرجال يستخدمون العنف والجرائم البشعة التي كانت تُرتكَب في ألمانيا – وفي كل الأنحاء التي بلغت فيها الفاشية موطئ قدم دون إثارة أدنى احتجاج مما تُسمى الحكومات الديموقراطية – لم تكن لها صلة بالارتقاء الاجتماعي. نحن نتعامل هنا ببساطة مع نوبة جنون من أجل السلطة من أقليات صغيرة عرفت كيف تستغل حالة معينة لصالح أرباحها الخاصة.

البشر وقد تربوا على اعتبار كل عيوب المجتمع في يومنا الحاضر نتائج لنظام اقتصادي رأسمالي، نسوا أن الحقائق نفسها قد تغيرت بمثل محاولات التفسير تلك. وقد نسوا بالكامل هذه الحقيقة حتى أن تلك الأحزاب التي امتهنت العمل نحو تغيير كامل للظروف الحالية لم تعرف شيئا أفضل لتفعله من أن تستقر داخل النظام القائم وبأساليبهم تلك منحوه قوة جديدة. دمر فشل الأحزاب الاشتراكية عديدًا من الآمال وجعل الجموع تيأس من الاشتراكية التي حمّلوها مسئولية هزيمة المنظمات الاشتراكية؛ بالضبط كما يحمّلون المفهوم الاجتماعي لليبرالية المسئولية عن فشل الأحزاب الليبرالية. في الواقع، ذلك يبرهن على أن الحركة التي تتطلع نحو التغيير الكامل وتجديد الحياة الاجتماعية لن تقترب أبدا من هذا الهدف بمحاولتها أن تغنم موطئ قدم داخل المؤسسات القديمة للوضع الحكومي الحالي على أمل أنها سوف تستطيع بدورها أن تسيطر على الماكينة السياسية، بل إنها حتى ربما تضطر إلى التأرجح أبعد فأبعد عن غرضها الأولي. لأن الماكينة نتيجة للطريقة التي بنوها بها، لا تستطيع العمل سوى في اتجاه معين، ولا يهم من يشد روافعها. لذلك لم تتحقق لا أهداف الاشتراكية ولا طموحات الليبرالية إلى هذا الحد أو ذاك: سواء لأن تحقيقهما لم يتم تجربته على نحو جدي أو أنهما مرة بعد أخرى اندفعتا تحت تأثير قوى معينة في قنوات خطأ. ويبقى أن كامل ارتقاء ظروفنا السياسية والاقتصادية يظهر لنا اليوم بشكل أكثر وضوحا عما سبق أبدا قدر صحة ما كانت عليه هذه الجهود وأي هاوية خطرة اقتربنا منها عندما وضعنا ثقتنا في اتباع "مسار التطور" بدلا من وضع أنفسنا في توقيت مناسب لمواجهة هذا الخطر الوشيك الذي يهددنا اليوم من جميع الجوانب.

إحدى الحقائق التي يجب أن تكون واضحة اليوم لكل الرجال الباحثين عن تنوير أكمل: "الدولة العملاقة الحالية" والاحتكار الاقتصادي المعاصر ينموان في صورة آفة مرعبة للنوع البشري ويقودانه بسرعة متزايدة أبدا نحو حالة يجب أن تنتهي حتما إلى بربرية بأكثر صورها توحشا. إنه جنون هذا النظام الذي أصبحت الماكينة فيه بالنسبة لأنصاره، إذا جاز لنا الكلام، رمزا، وقد أدى بهم هذا إلى جعل كل النشاط الإنساني يتوافق مع عمليات تشغيل جهاز خالٍ من الروح. هذا يحدث اليوم في كل مكان: في الاقتصاد وفي السياسية وفي التعليم العام وفي القانون وفي كل المجالات الأخرى. هكذا أُغلِق على الروح الحية قفص الأفكار الميتة وانقاد الرجال إلى الاعتقاد بأن كل الحياة هي لا شيء أكثر من حركة أوتوماتيكية متشنجة لسلسلة الأحداث الجارية. فقط من مثل هذه الحالة العقلية تستطيع أن تخرج الأنانية متحجرة القلب التي تخطو فوق الجثث لتشبع طمعها، وهذه الشهوة المنفلتة التي تلعب بأقدار الملايين كما لو كانوا صفوفًا ميتة من الأرقام وليسوا كائنات من لحم ودم. هذه الحالة هي أيضا سبب لخضوع العبيد، هذا الذي يجعل ضحاياه يقبلون بكل انحطاط لكرامتهم الإنسانية في لا مبالاة كئيبة ودون مقاومة.

اتخذت الآن مسوخ النظام الرأسمالي طابعا يجب أن يفتح عيون أكثرنا عمى. يحتوي العالم الرأسمالي اليوم على ملايين العاطلين الذين تساوي أعدادهم ومعهم أفراد عائلاتهم أعداد سكان دولة كبرى. وبينما يتواجد هؤلاء الناس في حالة بشعة من البؤس الدائم، غالبا هم لا يعرفون كيف يشبعون الاحتياجات الأكثر أساسية للحياة، يتم اليوم في العديد من البلدان بتحريض من الحكومة تدمير كميات هائلة من السلع؛ لأن القدرة الشرائية للجموع ضئيلة جدا.[٣] إذا كان العصر الذي نعيشه مازال قادرا على التمييز بين الخطأ والصواب، فسوف يثير هذا الازدراء الحقير لكل البشرية وعيا اجتماعيا عند الناس ويضطرهم إلى التحرك ضد مثل هذه الأهوال. ولكننا نسجل فقط حقائق وفي معظم الحالات لا نحس حتى بالمعنى القاسي للمأساة الإنسانية الكبرى التي تحدث يوميا أمام أعيننا.

عندما بدأت ملاحظة أولى مؤشرات الأزمة الاقتصادية الحالية في أوروبا، لم يوضع في الاعتبار حتى البحث عن طرق ووسائل جديدة. لقد حاول البشر مجرد تقليل تكلفة الإنتاج من خلال "ترشيد الصناعة" ترشيدا تاما دون إعطاء أدنى تفكير في العواقب الحتمية لمثل هذا التجريب الخطير على العاملين من السكان. في ألمانيا حتى النقابات دعمت خطة الصناعيين الكبار الكارثية هذه بكليتها من خلال محاولة إقناع العمال أن من الممكن هكذا فقط أن تنتهي الأزمة. وفي البداية صدَّقها العمال - حتى شعروا بأجسادهم نفسها أنهم قد خُدِعوا ودفعوهم إلى مزيد من البؤس. ثم ظهر مرة أخرى القدر الضئيل الذي يضعه الرأسماليون الأقوياء في اعتبارهم نحو الشخصية الإنسانية. تمت التضحية بالإنسان دون تأنيب ضمير للتقنية المستخدَمة، وحطوا منه إلى مستوى الآلة، وغيروه إلى شخص بلا هوية، مجرد "قوى إنتاج" محرومة من كل السمات الإنسانية، من أجل أداء العملية الإنتاجية لوظائفها بأقل مقاومة ممكنة ودون اعتراض داخلي.

إلا أن ما يظهر اليوم بشكل أكثر وضوحا أن هذا الطريق لا يؤدي إلى مستقبل أفضل بالنسبة للإنسان، حتى أن عملية "الترشيد" دائما ما تفضي إلى نتائج بالفشل في كل تقديرات التقدم. البروفيسور "فيليكس كروجر" (***Felix Krueger***) مدير معهد علم النفس في "لايبزج" أعلن منذ سنوات مضت أن نظام "تايلور" (***Taylor system***) في الإدارة الذي يلاقي كثيرًا من الاستحسان وترشيد الصناعة المنبثق من علم نفس العمال، يتضح فشلهما الاقتصادي بشكل دائم. أصبح مؤكدا الآن بالدليل المستمد من كل التجارب أَن الحركة الطبيعية المستدامة بإيقاع العمل الواضح هي أقل إنهاكا من المهام المفروضة بالقوة؛ لأن حركة الإنسان تمتلك أصلها في الروح، التي لا يمكن تقييدها بأي مخطط محدد ولا جدول زمني ضيق. وقد تم تأكيد ذلك المرة بعد المرة؛ ولكن بالنسبة للجميع ما زال هناك من يؤمن بأن الأزمة من الممكن التغلب عليها في مجال الإنتاج. تؤكد "المدرسة التكنوقراطية" (***Technocratic School***) الناشئة حديثا في أمريكا بالدليل المدعوم ببيانات شاملة بشكل مكثف على أساس من الملاحظة العلمية الصارمة، أن قدرتنا على الإنتاج

هي واقعيا تكاد تكون غير محدودة، وأن الطاقة الإنتاجية العظيمة للصناعة الحديثة لا تتناسب بأية حال مع قدرتنا التقنية، حيث إن التطبيق الكامل لكل إنجازاتنا الفنية سوف ينتج عنه مباشرة كارثة(٤).

بدأ التصريح بأفكار تتحدث عن إمكانية إيجاد وسيلة لتقليص الأزمة الاقتصادية الحالية بل وحتى التمهيد لإعادة الصناعة إلى مجرياتها المعتادة بشكل مقارن بواسطة تخفيض معقول في عدد ساعات العمل، ولكنه سوف يكون خداعا للذات أن نعتقد احتمال حل مشكلة العصر الكبرى بهذه الطريقة. المشكلة الاقتصادية المعاصرة كمشكلة إنتاج هي أقل منها كمشكلة استهلاك. إنها تلك الحقيقة التي استنبطها "روبرت أوين" (***Robert Owen***) في تفنيده "لآدم سميث"؛ وفيها يستنفد كل المغزى الاقتصادي للاشتراكية نفسه. فتح رجال العلم والتقنية لإمكانيات غير محدودة للإنتاج. تلك حقيقة لا ينازعها أي فرد ولا تحتاج إلى براهين خاصة عليها. ولكن في ظل نظامنا الحالي كل إنجاز تقني يصبح سلاحا في يد الرأسمالية ضد الشعب وينتج عنه نفس عكس ما كان مقصودا منه تحقيقه. كل تقدم تقني قد جعل عمل البشر أشد وطأة وأكثر ظلما ودمر المزيد والمزيد من أمنهم الاقتصادي. أهم مشكلة في اقتصادياتنا المعاصرة ليست زيادة الإنتاج باستمرار وجعله أكثر ربحية بالابتكارات الجديدة "وأساليب العمل الأفضل"، ولكن أن نرى مميزات القدرة التقنية وثمار العمل متاحة بشكل متساوٍ لكل أعضاء المجتمع.

في ظل النظام الحالي الذي يصنع الأرباح من الأفراد ولا يصنعها من إشباع احتياجات كل النقاط الرئيسية في الاقتصاديات كل هذا مُستبعَد تماما. تطور الاقتصاد الخاص إلى اقتصاد احتكاري قد جعل هذه المهمة لا تزال أكثر صعوبة، لأن قلة من المنظمات الاقتصادية المنفصلة يوضع بين يديها سلطة تتجاوز بمراحل بعيدة حدود الاقتصاديات وتم تسليم المجتمع بالكامل لشهوة السلطة والاستغلال الذي لا يرحم في ظل حكم الاتحادات الصناعية (***Trustokratie***) المعاصر. النفوذ

الذي يمتلكه ملوك الماليات العليا والمصالح الصناعية الكبرى على العمل السياسي للدولة معروف جيدا جدا حتى أنه لا يحتاج لمزيد من التوضيح.(٥)

ولا تمنح رأسمالية الدولة، التي هي محل كثير من النقاش في يومنا هذا، طريقا للخروج من الضائقة الروحية والمادية للعصر. على العكس، رأسمالية الدولة سوف تغير العالم بشكل أكثر اكتمالا نحو إصلاحية سجون، وتخنق أي مشاعر بالحرية ساعة ميلادها، كما هو جارٍ الآن في روسيا. وإذا ما كان هناك اشتراكيون، رغم ذلك، يعتقدون اليوم أنهم يرون في رأسمالية الدولة نمطا أعلى للاقتصاد مما هو عليه الآن، فذلك يبرهن فقط على أنهم لا يمتلكون مفهوما واضحا لجوهر لا الاشتراكية ولا الاقتصاديات. وعند النظر في الأمور بشكل رأسمالي، أي باعتبار الأنسان موجودا من أجل الإنتاج وليس الإنتاج من أجل الانسان، ربما تمثل رأسمالية الدولة واقعيا "شكلا أعلى للاقتصاديات"؛ وعند النظر للأمر بشكل اشتراكي، مثل هذا المفهوم هو التدنيس الأشد قسوة للمقدسات الذي يقف ضد روح الاشتراكية وروح الحرية. ولكن حتى لو نظرنا له من موقف اقتصادي صرف، كل زيادة للإرغام القهري في النشاط الصناعي للإنسان – وذلك يكمن في أسس رأسمالية الدولة – يرقى إلى حد كونه اختزالاً للقدرة الإنتاجية. لم يعزز العمل العبودي أبدا من الاقتصاد، لأن الإرغام القهري يسرق من العمل حافزه النفسي ووعيه بالفعل الإبداعي. عندما كانت العبودية النمط الأكثر سيادة في روما تناقصت باستمرار إنتاجية الأرض، مؤدية في الأخير إلى كارثة عامة. مررنا بنفس الخبرة في زمن النظام الإقطاعي. وكلما كان لم يعد في القدرة احتمال أشكال القنانة في البلدان الأوروبية، كانت نتائج العمل أكثر هزالا، وأصبحت الأرض أكثر جدبا. نحتاج إلى تحرير العمل من أغلال الاعتمادية، وليس صنع أغلال أكثر متانة.

التغيير الجوهري للنظام الاقتصادي الحالي والذي يمتلك في المدى المنظور حلا فريدا للمشكلة من الممكن تحقيقه فقط بواسطة إلغاء كل الاحتكارات والامتيازات الاقتصادية التي يتربح منها اليوم حفنة من الأقليات الصغيرة فقط في

المجتمع، وإلغاء تمكين هذه النخب المنتقاة من فرض اقتصادياتهم ذات الفائدة الوحشية على الجموع الهائلة من الناس. فقط بإعادة تنظيم جوهري للعمل على قواعد الزمالة، لا تعمل في خدمة أي غرض آخر سوى إشباع كل الاحتياجات عند الجميع بدلا من زيادة أرباح الأفراد كما هو حاصل اليوم، من الممكن بهذا التغيير التغلب على الأزمة الاقتصادية وإفساح الطريق لثقافة اجتماعية أعلى. أصبح هناك احتياج لتحرير الإنسان من الاستغلال بواسطة الإنسان وتأمين ثمار عمله له. فقط هكذا سوف يكون من الممكن أن نجعل كل إنجاز تكنولوجي جديد في خدمة الجميع ومنع ذلك الذي يجب أن يكون نعمة على الجميع من أن يتحول إلى لعنة على أغلب الناس.

وبالضبط كما لا يُسمح لأقلية داخل جماعة من الناس باحتكار المواد الخام الهامة بشكل حيوي أو وسائل الإنتاج من أجل مصالحهم الخاصة، هكذا بالمثل الشعب أو الأمة ككل، لا يمكن السماح له أو لها بخلق احتكارات على حساب مصلحة الجماعات الإنسانية الأخرى وإخضاعهم للاستغلال الاقتصادي. الميل الكلي للرأسمالية وخصوصا بعد دخولها المرحلة الإمبريالية من تطورها يتناقض بشكل ميئوس منه مع الشعب، وأصبح مدمرا بشدة للرفاه الاجتماعي لأن أنصارها يسعون بكل وسيلة لإخضاع كل الثروة الطبيعية تحت سيطرة احتكاراتهم وتقييد البشر بقيود الاعتمادية الاقتصادية. دائما ما يتم ذلك تحت اسم "الأمة"، وكل حزب يبرر سياسته التي تشبه سياسات قطاع الطرق باللجوء إلى "المصالح القومية" وهكذا يخفون أغراضهم الحقيقية.

ما نبحث عنه ليس استغلالا عالميا بل اقتصادا عالميا تجد فيه كل جماعة من الناس مكانها الطبيعي وتتمتع بحقوق متساوية مع كل الآخرين. ومن هنا "تدويل" الثروات الطبيعية والمناطق التي توفر المواد الأولية هو واحد من المتطلبات الأولى الأكثر أهمية لوجود نظام اشتراكي للمجتمع يقوم على أساس المبادئ التحررية. بواسطة المعاهدات والاتفاقيات المتبادلة يجب أن يصبح استخدام

كل الكنوز الطبيعية متاحا لكل الجماعات الإنسانية إذا ما كان مطلوبا عدم نشوء احتكارات جديدة داخل الهيئة الاجتماعية؛ وبالتالي حدوث انقسام جديد إلى طبقات وعبودية اقتصادية جديدة. نحتاج إلى استدعاء مجتمع إنسانى جديد إلى الوجود يمتلك جذوره في المساواة بين الظروف الاقتصادية ويوحد كل أعضاء المجتمع الثقافي الكبير بروابط جديدة من المصالح المتبادلة ويتغاضى عن الحدود التي تفصل بين الدول اليوم. بناء على قواعد النظام الاجتماعي الحالي لن تكون هناك توبة عن عبودية العصر الذي نحياه، ولكن فقط مزيد من الانغماس في أعماق حالة من البؤس الشرس والأهوال دون نهاية. يجب على المجتمع الإنساني أن يتخلص من الرأسمالية إذا لم يكن يرغب في الفناء.

وبالضبط كما تصبح الرأسمالية أخطر وأخطر بنسبة تزايد تركيز القوى الاقتصادية في أيادي زعمائها، مانحة إياهم سلطة تجعلهم سادة على حياة وموت شعوب بأكملها، هكذا أيضا تتضح الشرور المخيفة لتنظيم الدولة الحديث أكثر فأكثر بصورة جلية مع نمو الدولة والتوسع الدائم لسلطاتها. "الدولة العملاقة" (*Giant State*) الحديثة التي تطورت على قدم المساواة مع النظام الاقتصادي الرأسمالي، قد نمت اليوم إلى أن تصبح تهديدا مستمرا لوجود المجتمع ذاته. لم تصبح هذه الآلة المتوحشة فقط أعظم عقبة لكفاح البشر من أجل الحرية، ترغم بأذرعها الحديدية كل الحياة الاجتماعية على الدخول في قوالب موصوفة مسبقا؛ ولكن صيانة الماكينة نفسها يستهلك الجزء الأعظم إلى درجة بعيدة من إيرادات الدولة ويحرم الثقافة الفكرية أكثر فأكثر من الأساس المادي لمزيد من تطورها.

الدفاع الوطني وحده، الذي يعني الجيوش النظامية القائمة، والإنفاق على التسليح وما يأتي بشكل أو بآخر تحت عنوان الحرب والعسكرتارية، يستهلك اليوم في كل دولة ما بين ٥٠ و٧٠ في المائة من إيراداتها التي يمكن رفعها عن طريق الضرائب والتعريفات الجمركية. في مقالة صغيرة ممتازة مبنية على مصادر

موثوقة وحسابات دقيقة، "ليمان راسبولت" (***Lehmann-Russbüldt***) وهو أحد أشهر خصوم الاستثمار الحديث في التسليح، قال:

> **لو تخيلنا تقريبا خمسين ألف مليون من الماركات سنويا لميزانية الحرب، نصفها لحساب عواقب الحرب العالمية [الأولى] والنصف الآخر من أجل حرب جديدة. هذا المبلغ يساوي مائة وأربعين مليون مارك يوميا. تلك هي الميزانية السنوية لمدينة كبيرة يبتلعها الإله مولوك العسكري دون أي عائد مثمر. حتى في سويسرا، الدولة المحايدة الصغيرة، التي لم تتورط في الحرب العالمية، تصل ميزانية الحرب إلى نحو ١٠٪ من دخل الدولة. في الاتحاد السوفيتي الهامش يقع تحت ٥٠٪ وهذا يعود فقط بشكل أساسي لإسقاط ديون الحرب. ولكن حتى في الاتحاد السوفيتي، ميزانية الحرب أكبر من الإنفاق على التعليم والثقافة. وتلك عمليا هي الحالة في كل البلدان - ليس فقط على سبيل المثال في أندورا (*Andorra*) وكوستاريكا وآيسلاند(٦).**

أجرى راسبولت حسابات تكلفة تعليم إنسان حتى سن السادسة عشرة، أي، حتى بدء قدرته الإنتاجية، ورأي أنها تجري بين ثمانية آلاف مارك على الأقل إلى نحو خمسة عشر ألفا، بناء على إضافة أو عدم إضافة نفقات المجتمع أو الدولة على تكلفة إطعامه وكسائه في بيت والديه. ولكن التكلفة سوف تصبح مائة ألف مارك حتى تقتل إنسانا واحدا في حرب، نصفهم سوف يذهب إلى صناعة التسليح، والنصف الآخر ربح صافٍ لهم من الخمسين ألفًا المتبقية.

الخسائر المادية للحرب العالمية [الأولى] كانت خيالية لدرجة أن مجموع المبالغ لم يعد يعني أي شيء للعقل البشري. ندرك أن هذه الأرقام الفلكية شيء ما مدهش وفوق المعتاد، ولكن هذا كل شيء؛ لأنه في الأخير يوجد حد للاستيعاب الإنساني. لا يمكن تقريب هذا المبلغ العملاق الذي تمثله هذه الأرقام الميتة لأفهام البشر سوى باستخدام نوع من التصوير الجرافيكي(٧).

- كائنا من كان، في ضوء هذا الكم الهائل من المواد الواقعية، وما زال يعتقد أن الدولة تعمل في خدمة حماية الإنسانية، بمضيفيها المسلحين حتى أسنانهم تسليحا شديدا، بجيوش بيروقراطييها ودبلوماسيتها السرية ومؤسساتها التي لا حصر لها المُصمَّمة لإعاقة الروح الإنسانية، إنه يصبح كائنا ميئوسا منه، ولا يملك مساعدة نفسه. في الواقع يمثل وجود الدولة الحديثة تهديدا دائما للسلم وحافزا قائما بشكل مستمر لتنظيم القتل الجماعي وتدمير كل الإنجازات الثقافية. وخارج تلك "الحماية" الباهظة التكلفة التي توفرها الدولة لمواطنيها فهي لا تخلق شيئا إيجابيا، ولا تثري الثقافة الإنسانية ببنس واحد؛ ولكنها سريعا تضع كل الإنجازات الثقافية الجديدة في خدمة الدمار، حتى أنها لا تصبح نعمة على الشعوب بل نقمة.

تاريخ الدولة هو تاريخ الظلم الإنساني والعزل الفكري. إنها قصة الشهوة غير المحدودة للسلطة من أقليات صغيرة لا يمكنها الشبع أبدا سوى باستعباد واستغلال الناس. وكلما تغلغلت الدولة وهيئاتها أكثر عمقا في مجال نشاط الحياة الاجتماعية، نجح زعماؤها أكثر في تغيير البشر إلى إنسان ذي إرادة آلية، خالٍ من العقل، وأصبح العالم بشكل أكثر حتمية سجنا واسعا يخلو في نهاية المطاف من أي نسمة للحرية. الأحوال في إيطاليا والمجر وبولندا والنمسا وروسيا وألمانيا تتحدث بفصاحة بالغة إلينا، لغة تجعلنا لا ننخدع طويلا في العواقب الحتمية لمثل هذا "الارتقاء". وحقيقة أنه في هذا المسار لا يكمن أي مستقبل وردي بالنسبة للبشر هي حقيقة واضحة لكل من له عينان ليرى وأذنان ليسمع. ما يصعد اليوم على الأفق الاجتماعي في أوروبا والعالم هو ديكتاتورية الظلام التي تعتقد بإمكانية تسيير كامل المجتمع طبقا لسرعات الماكينة التي تخنق دوافعها الثابتة كل ما هو عضوي، وترفع كل ميكانيكا خالية من الروح إلى مرتبة المبدأ. دعنا لا نخدع أنفسنا: ليس شكل الدولة، إنها الدولة نفسها التي تخلق الشر وتغذيه وتعززه باستمرار. وكلما حشرت الحكومة العنصر الاجتماعي أو أرغمته على الخضوع لحكمها، انحل المجتمع بشكل أسرع إلى أجزاء منفصلة؛ ويفقد حينئذٍ كل الصلات الداخلية وإما

يندفع بشكل أهوج إلى صدامات بلهاء حول مصالح متضاربة أو ينجرف دون حول ولا قوة مع التيار، دون اهتمام بالوجهة المحمول إليها.

وكلما تعمقت حالة الأمور هذه كان أصعب تجميع البشر مرة أخرى داخل جماعة اجتماعية جديدة وإقناعهم بتجديد حياتهم الاجتماعية. الإيمان الواهم بالديكتاتورية الذي ينتشر اليوم في أنحاء أوروبا مثل وباء هو الثمرة الناضجة الوحيدة للإيمان الجاهل بالدولة، الذي تم استزراعه لمدة عقود داخل البشر. المشكلة الكبرى المطروحة أمام عصرنا ليست حكومة البشر ولكن إدارة الأشياء، ولا يمكن حلها داخل إطار تنظيم الدولة الحالي. لا يهم كثيرا إلى هذه الدرجة أو تلك كيف يتم حكمنا ولكن المهم هو أن نكون محكومين على الإطلاق؛ لأن هذه علامة على عدم نضجنا، وهذا يمنعنا عن أخذ أمورنا في أيدينا. نحن نشتري "الحماية" من الدولة بحريتنا حتى نبقى أحياء، ولا ندرك أنها تلك "الحماية" التي تحول حياتنا إلى جحيم، بينما الحرية فقط هي التي تستطيع أن تهب لنا الكرامة والقوة.

يوجد اليوم فقط العدد الكثير ممن أدركوا شرور الديكتاتورية هكذا، ولكنهم يعزون أنفسهم بالإيمان القدري بأنها أمر لا غنى عنه كمرحلة انتقالية، شريطة، أن نضع في عقولنا ما يُسمى "ديكتاتورية البروليتاريا" التي هي كما أخبرونا سوف تقودنا إلى الاشتراكية. ألم تكن الأهوال التي هددت الدولة الشيوعية الشابة في روسيا من كل جانب تبريرا أخلاقيا للديكتاتورية؟ وألا يجب أن يتنازل المرء أمام فكرة أن الديكتاتورية سوف تُخلي المكان لحالة أكبر من الحرية فور التغلب على هذه الأهوال ويتم تماسك وضع "الدولة البروليتارية"؟

ومنذ ما يقرب من عشرين سنة مرت بهذا البلد وروسيا اليوم أقوى دولة عسكرية في أوروبا وترتبط بفرنسا ودول أخرى بواسطة أقوى تحالف للأمن المتبادل. لم يتم الاعتراف بالدولة البلشفية فقط بواسطة كل القوى الأخرى، بل إنها اليوم ممثلة في كل هيئات الدبلوماسية الدولية ولا تتعرض لأخطار من خارجها أعظم مما يواجه أي قوة عظمى في أوروبا. ولكن الظروف السياسية الداخلية في

روسيا لم تتغير؛ بل تزداد سوءا من سنة لأخرى، يجعل من أي أمل في المستقبل مجرد مسخرة. يتعاظم عدد الضحايا السياسيين سنويا. من بين هؤلاء الضحايا يوجد آلاف ممن يُجرجَرون خلال الخمس عشرة سنة الماضية من سجن إلى سجن آخر، أو يتم إعدامهم، ليس لأنهم تمردوا ضد النظام القائم وفي أيديهم السلاح ولكن فقط لأنهم لم يستطيعوا قبول المذاهب التي تصفها الدولة وكانت لديهم فكرة مخالفة للقوى الحاكمة فيما يتعلق بحل المشكلة الاجتماعية.

لا يمكن تفسير هذا الوضع بضغط الظروف الخارجية، كما أقنع العدد الكثير بذلك أنفسهم بطريقة ساذجة. إنها النتيجة المنطقية لسلوك صريح معادٍ للتحررية، لا يمتلك أدنى فهم أو تعاطف مع حقوق الإنسان ومعتقداته. إنه منطق الدولة الشمولية، التي تقدم للفرد الكثير من المبررات لوجودها حتي تجعل منه خادما للماكينة السياسية فقط. النظام الذي يستطيع وصم الحرية "كإجحاف برجوازي" لا يستطيع أن يقودنا سوى لمثل هذه النتيجة. هذا النظام كان عليه خلال مسيرته أن يرفع إلى مستوى المبدأ قمع كل تعبير حر للرأي، وأن يجعل من المشانق والسجون حجر الزاوية الذي يقوم عليه وجوده. أكثر من ذلك: كان عليه المضي خلال هذه المسيرة الكارثية لأبعد مما شرع فيه أي نظام رجعي في الماضي. لم يُرض زعماؤه أنفسهم بإفشال ضرر خصومهم الثوريين والاشتراكيين بجرجرتهم إلى القضبان أو دفنهم أحياء؛ لقد أنكروا على ضحاياهم أيضا صدق الرأي ونقاء الشخصية، ولم يتورعوا عن أي وسيلة لتصويرهم للعالم كأوغاد وأدوات اشترتها الرجعية.

الرجال والنساء الذين قبعوا في سجون روسيا القيصرية كانوا في نظر العالم المحب للحرية شهداء في سبيل آرائهم. حتى حرس سجون القيصرية لم تكن لديهم وقاحة الاعتداء على تماسك سجنائهم واستجواب صدقهم وإخلاصهم. ومع ذلك ضحايا ديكتاتورية البروليتاريا تلطخت سمعتهم وتم سبهم وقذفهم بشكل مشين بواسطة مضطهديهم وأقاموهم أمام العالم كحثالة مجتمع. مئات الآلاف من

المتعصبين العميان في كل بلد بعقولهم الفقيرة ضُبطَت نغمتهم على إيقاع فالس موسكو، وقد فقدوا كل قدرة على التفكير لأنفسهم، أو ربما لم يمتلكوا هذه القدرة أبدا، رددوا، كالببغاوات دون تفكير، أي شيء يمليه عليهم حكام موسكو المستبدون.

علينا هنا أن نتعامل مع رجعية تمضي بصورة أعمق وأكثر كارثية في عواقبها من أي رجعية سياسية كانت في الماضي. لأن رجعية اليوم لا تتجسد في نظام خاص من الحكومات التي تنمو من وسائل العنف المستعملة بواسطة أقليات صغيرة. رجعية اليوم هي الإيمان الأعمى بالجموع العريضة التي تتدعي أنها خير بشكل غير مشروط حتى رغم أقصى الانتهاكات المشينة لحقوق الإنسان طالما من يرتكبها هو جانب مخصوص وحيد، وتدين بصورة غير نقدية أي أمر يلعنه هذا الجانب بوصفه زيفا وهرطقة. الإيمان بالعصمة السياسية للديكتاتور اليوم تحل محل الإيمان الديني بعصمة بابا الكاثوليك، وتؤدي أخلاقيا إلى نفس النتائج. من الممكن الكفاح ضد قوة أفكار الرجعية طالما يستطيع المرء أن يلجأ إلى العقل والخبرة الإنسانية. ولكن كل المنطق والعقل لا قوة ولا حيلة له أمام التعصب الأعمى لببغاوات لا تفكر، والتي تدين أي قناعة مخلصة مقدما. هتلر وموسوليني وستالين ببساطة هم رموز هذا الإيمان الأعمى الذي يدين بشكل أهوج كل شيء يعارض سلطته.

المهازل القضائية المشينة في موسكو حول من يُسمَّون "التروتسكيون" (*Trotskyists*) هي تصوير دموي لهذا. كل من يملك ذرة من الرأي المستقل يستطيع أن يدرك أن المأساة العجيبة في تلك المهازل القضائية هي التي يتم تمثيلها خلف مشاهد قاعة المحاكمات. أقدم وأشهر زعماء حزب، كلهم أصدقاء ثقاة لـ "لينين" (*Lenin*) المتوفي، ينافسون بعضهم البعض أمام المحكمة في اتهام كئيب للذات بشكل غير معهود أبدا من قبل في محاكمة سياسية. كل منهم يسعى للتفوق على الآخرين في تصوير عدم جدارته حتى يبدو أمام العالم كأداة حقيرة في يد

الفاشية؛ إلا أنهم كلهم بإجماع مدهش أشاروا إلى "تروتسكي" (*Trotsky*)[•] بوصفه المحرض الفعلي وراء جرائمهم المزعومة.

لا يوجد ضمان أن تخلو أي حركة من خونة أفراد داخل صفوفها. ولكن أن تصدق أن الأغلبية العظمى من أشهر زعماء حركة يجدون أنفسهم مُجهَّزين لخيانة كل شيء كانوا قد بشروا ودعوا إليه في السابق - فهذا ما يجب أن يكون المرء أكثر من أعمى ليصبح كذلك. وماذا إذا كان بعد كل شيء هذا الاتهام الرهيب يقوم على حقائق؟ عندئذٍ فالأمر أسوأ كثيرا جدا. أي حكم يستطيع المرء تمريره على حركة أقدم وأبرز قادتها، قد احتلوا كلهم في وقت من الأوقات أرفع المناصب التي كان الحزب يمتلكها في جعبته للمنح والهدايا، قد كانوا سرا في خدمة الرجعية؟ ولو

(•) ليون تروتسكي (ليف دافيدوفيتش برونشتاين) (١٨٧٩-١٩٤٠) الثوري والمنظر الماركسي، السياسي السوفيتي، والقائد المؤسس للجيش الأحمر. دعم تروتسكي في البداية فصيل المناشفة الأممي في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. انضم إلى البلاشفة قبيل ثورة أكتوبر ١٩١٧. أصبح في نهاية المطاف أحد قادة حزب العمال الروسي (البلاشفة). جنبا إلى جنب مع لينين، وزينوفييف، وكامينيف، وستالين، وسوكولنكوف وبوبونوف، كان أحد الأعضاء السبعة في المكتب السياسي الأول، الذي تأسس عام ١٩١٧ من أجل إدارة الثورة البلشفية. خلال الأيام الأولى من الاتحاد السوفيتي، عمل في البداية كمفوض الشعب للشئون الخارجية وفيما بعد مؤسس وقائد الجيش الأحمر بمنصب مفوض الشعب للشئون العسكرية والبحرية. تروتسكي شخصية لعبت دورا رئيسيا في انتصار البلاشفة في الحرب الأهلية الروسية (١٩١٨-١٩٢٣). بعد فشل قيادة تروتسكي للمعارضة اليسارية في العشرينات ضد سياسات وصعود جوزيف ستالين في الحزب وضد تزايد دور البيروقراطية في الاتحاد السوفيتي، تم الإطاحة به من السلطة (أكتوبر ١٩٢٧)، وطرد من الحزب الشيوعي (نوفمبر ١٩٢٧)، ونفي أخيرا من الاتحاد السوفيتي (فبراير ١٩٢٩). كرئيس للأممية الرابعة، واصل تروتسكي في المنفى معارضته للبيروقراطية الستالينية في الاتحاد السوفيتي. بناء على أوامر ستالين، تم اغتياله في المكسيك في أغسطس ١٩٤٠ من قبل رامون ميركادير، العميل السوفيتي الاسباني المولد. شكلت أفكار تروتسكي أساس التروتسكية، المدرسة الكبرى للفكر الماركسي التي عارضت نظريات الستالينية. وكان واحدا من عدد قليل من الشخصيات السياسية السوفيتية التي لم تُعد حكومة نيكيتا خروتشوف لها الاعتبار في الخمسينيات. في أواخر الثمانينيات، تم الإفراج عن كتبه للنشر في الاتحاد السوفيتي. [المترجم]

كانت الأغلبية العظمى من القادة القدماء خونة، من لنا ليضمن أن الثلاثة أو الأربعة من الحرس القديم الذين تبقوا أحياء مصنوعين من خامات أفضل؟ هنا أيضا يفصح ذلك القانون عن نفسه الذي يكمن في قواعد كل ديكتاتورية: لا يعرف الديكتاتور السلام حتى يخلص نفسه من كل المنافسين المزعجين. إنه نفس المنطق الضمني الذي أجبر روبسبيير على تسليم أصدقاء الأمس إلى قاطع الرؤوس، نفس المنطق الذي دفع هتلر في ليلة الثلاثين من يونيو ١٩٣٤ الدموية(*) إلى إزاحة أقرب رفاقه من طريقه، إنه نفس المنطق الذي يقود ستالين اليوم إلي تخليص نفسه ممن يُسمَون "التروتسكيين" لأنه كان يخشى خطورتهم على سلطته. بالنسبة لكل ديكتاتور الخصم المتوفي هو أكثر الخصوم أمانا.

بعد كل شيء، لحق بهؤلاء الضحايا نفس المصير الذي ألحقوه هم أنفسهم غالبا بخصومهم من الفصائل الأخرى عندما كانوا لا يزالون في السلطة. لقد كانوا عقولا من نفس العقل دماءً من الدم نفسه، يستلهمون نفس هوس السلطة مثل رؤسائهم، يدوسون كل قانون للإنسانية تحت أقدامهم لصيانة استمرار سلطتهم الخاصة. لم تُسرَق منهم حياتهم فقط ولكن سُرِقوا من شرفهم وانهال على أسمائهم

(*) ليلة السكاكين الطويلة (روم بوتش)، التطهير الدموي الذي جرى في ألمانيا النازية من ليلة ٣٠ يونيو إلى ٢ يوليو ١٩٣٤، عندما قام النظام النازي بسلسلة من الاغتيالات السياسية لشخصيات قيادية في الجناح اليساري من الحزب النازي، خصوصا زعيمهم، جريجور ستراسر، إضافة إلى شخصيات بارزة من الشخصيات المحافظة المناهضة للنازية (مثل المستشار السابق كورت فون شلايشر وغوستاف ريتر فون كار). وكان العديد من القتلى قادة لكتائب ذوي القمصان البنية شبه العسكرية النازية. تحرك هتلر ضدهم خوفا من استقلاليتهم وميل أعضائها لعنف الشارع بوصفه تهديدا مباشرا لسلطته السياسية المكتسبة حديثا. أراد هتلر أيضا التوفيق مع قادة الجيش الألماني الرسمي الذين يخشون ويحتقرون طموحات قادة الإس إس. قتل ٨٥ شخصا على الأقل خلال عملية التطهير، رغم أن عدد القتلى النهائي قد يكون بالمئات، وألقي القبض على أكثر من ألف معارض. هكذا أصبح هتلر "القاضي الأعلى للشعب الألماني،" على حد تعبيره في خطابه في ١٣ يوليو ١٩٣٤ أمام مجلس النواب الألماني. [المترجم]

عار الخيانة. ولكن "تروتسكي" أيضا، أمام ذبح عمال وبحارة "كرونشتاد" (*Kronstadt*) في عام ١٩٢٤- أربعة عشر ألفا من الرجال والنساء والأطفال - لم يكن سعيدا بإغراق احتجاج رواد الثورة الروسية هؤلاء في الدم؛ إلا أنه هو ومساعدوه لم يترددوا في إدانة هؤلاء الضحايا أمام العالم بأنهم من قوى الثورة المضادة وحلفاء للقيصرية. اليوم عليه أن يتحمل إيقافه أمام العالم بواسطة أصدقائه السابقين كحليف لهتلر وأداة في يد الفاشية. تلك هي خصومة التاريخ وانتقامه.

ومن نفس المفهوم القدري الذي يعتقد في عدم إمكانية الاستغناء عن الديكتاتورية كمرحلة انتقالية ضرورية نحو شروط اجتماعية أفضل، ينشأ أيضا الإيمان الخطير الذي يجد اليوم قبولا أوسع فأوسع، إنه بنهاية العالم من الممكن فقط الاختيار بين الشيوعية والفاشية، لأنه لا يوجد طريق آخر قابل للتطبيق عمليا سواهما للخروج من الأزمة. لا تبرهن مثل هذه الرؤية للوضع سوى على أن المؤمنين بها لا يرون بوضوح بعد الطبيعة الحقيقية للفاشية ولا الشيوعية، ولم يمسكوا بعد بحقيقة أن كليهما قد خرج من الشجرة نفسها. بالطبع يجب ألا ننسى أننا نتناول "الشيوعية" هنا كمجرد اسم على نظام الحكومة الحالي في روسيا، وقد أُنتزِعت بعيدا عن المعنى الأصلي للشيوعية كنظام اجتماعي للمساواة الاقتصادية كما في كل نظام حكومة آخر.

وما هو ليس محل خلاف أن الدوافع الأصلية لديكتاتورية البلشفيك في روسيا تختلف عن دوافع الديكتاتورية الفاشية تلك في إيطاليا وألمانيا. ولكن فور قيام الديكتاتورية في واقع الأمر، ديكتاتورية روسيا بالضبط مثل الدول الفاشية تؤدي إلى نفس النتائج المباشرة؛ فعليا التماثل بين النظامين يصبح أكثر وضوحا بشكل متزايد. الحقيقة هي أن كلا من كامل التطور الداخلي للبلشفية في روسيا وإعادة البناء الاجتماعي في البلدان الفاشية قد وصلا إلى مرحلة لم يعد من الممكن، في المدى الذي يتعلق بالميول الفعلية، التعرف على أي تضارب فيما بينهما. اليوم نحن نتعامل فقط مع الخلافات الثانوية التي يمكن تمييزها أيضا بين فاشية ألمانيا وتلك في إيطاليا، والتي تجد تفسيرها في الظروف الخاصة لبلدين مختلفين.

تحت ديكتاتورية ستالين تطورت روسيا بمعيار كبير إلى دولة شمولية أكثر مما هو حادث في ألمانيا أو إيطاليا. القمع التعسفي والوحشي لكل فصيل آخر ولكل حرية رأي واختزال كل مجال من الحياة العامة إلى سيطرة حديدية من الدولة، القوة الفائقة لنظام بوليسي منفلت وغير حصيف يتدخل في أكثر شئون الكائنات البشرية خصوصية، ويشرف على كل أنفاس الفرد، والإهدار غير المعهود للحياة الإنسانية الذي لا يتورع عن أي وسيلة لتصفية العناصر البغيضة وإزاحتها من الطريق – هذا وأكثر كثيرا يتخذ في روسيا البلشفية نفس الدرجة كما في بلدان هتلر وموسوليني. حتى الميل الأممي الأصلي لدى الحركة البلشفية الذي كان يُمكِن اعتباره في السابق علامة أصيلة في التمييز بين شيوعية الدولة الروسية والأغراض القومية المتطرفة للفاشية، قد اختفى بالكامل تحت حكم ستالين ليفسح المجال أمام تعليم قومي صارم للشباب الروس. ما زال هذا الشباب، وتلك حقيقة، يغني النشيد الأممي (***Internationale***) في المناسبات الاحتفالية ولكنه مقيد بالأغلال الحديدية لمصالح الدولة القومية بشكل لا يقل صرامة عن الشباب الفاشي في ألمانيا وإيطاليا.

ومن الناحية الأخرى، الفاشية في ألمانيا وبشكل أكثر تحديدا في إيطاليا، تتحول أكثر فأكثر إلى الطريق المؤدي إلى رأسمالية الدولة. تأميم كل المؤسسات المالية في إيطاليا والإخضاع خطوة بخطوة لكل التجارة الخارجية لسيطرة الدولة، وتأميم الصناعة الثقيلة الذي أعلنه فعلاً موسوليني وغيره كثير، يُظهر دائما بشكل أكثر وضوحا الميل نحو تطوير رأسمالية دولة على النسق الروسي، وهي الظاهرة التي تسبب صداعًا غير قليل للرأسماليين الكبار المتواطئين مع الفاشية. تظهر اليوم ظواهر مماثلة بتكرار متزايد في ألمانيا. في الحقيقة هذه الميول ليست فقط النتيجة المنطقية لفكرة الدولة الشمولية، التي لا يمكنها أن تستقر راضية حتى تجلب كل ميدان للحياة الاجتماعية بشكل متساوٍ إلى خدمتها.

لذلك ليس لنا تقييم الفاشية و"الشيوعية" كمفهومين مختلفين متعارضين عن طبيعة المجتمع، فهما ليسا سوى شكلين مختلفين لنفس الجهد ويعملان من أجل الغاية نفسها. وهذا لن يتغير أقل القليل بإعلان الحرب ضد الشيوعية الذي يدعو هتلر إليه بمثل هذه الحماسة، لأن كل شخص ذي بصيرة يدرك بوضوح أن تلك ليست إلا حيلة دعائية لتخويف العالم البرجوازي وإفشال توقعاته. حتى الوحشية الطائشة التي تميز المستبدين الجدد في روسيا البلشفية إلى جانب هؤلاء في الدول الفاشية تجد تعبيرها في حقيقة أنهم كلهم مُحدَثون: فمُحدَث السلطة ليس بأفضل مثقال ذرة من مُحدَث الثروة.

ما كان للفاشية والشيوعية أو بشكل أفضل الستالينية أن يُعتبَرا معارضتين إحداهما للأخرى، فذلك ما يفسره أساسا السلوك المؤسف لما تُسمى "الدول الديموقراطية"، التي في صراعها الدفاعي ضد فيضان الفاشية صادرت أكثر فأكثر من وسائلها، وهكذا أخذت تُكتسَح بشكل حتمي أكثر فأكثر في تيار الميول الفاشية. هنا تتكرر على مقياس واسع الحالة التي ساعدت هتلر على انتصاره في ألمانيا. في محاولاته لتقييد "الشر الأعظم" عن طريق أحد الشرور الأقل، استمر الحزب الجمهوري الألماني في تقييد الحقوق والامتيازات الدستورية أكثر فأكثر حتى في الأخير لم يتبق شيء إلا بالكاد من الدولة "الدستورية". في الواقع، حكومة "برونج" (*Brüning*) التي تمتعت بالدعم الكامل من الحزب الديموقراطي الاجتماعي، حكمت بأكملها في الأخير بواسطة قرار، بعدما تم إلغاء الهيئات التشريعية بالكامل. وهكذا، تلاشى تدريجيا التناقض بين الديموقراطية والفاشية حتى في الأخير ظهر هتلر بوصفه الوريث السعيد للجمهورية الألمانية.

ولكن البلدان الديموقراطية لم تتعلم شيئا من هذا المثال وهي الآن تواصل رحلتها في خضوع قدري على نفس المسار. وهذا واضح اليوم على نحو خاص في سلوكهم المثير للشفقة فيما يتعلق بالوقائع المرعبة في أسبانيا. نشأت مؤامرة من الضباط العاشقين للسلطة ضد الحكومة الديموقراطية التي انتخبها الشعب وبمساعدة المرتزقة الأجانب وتحت توجيه هتلر وموسوليني يتركون حربا قاتلة تستعر دون

عوائق ضد شعبهم نفسه، حرب تضيع فيها البلد بأكملها وقد كلفت فعلا مئات الآلاف من الأرواح البشرية. وبينما يستعد شعب بأكمله بعزيمة بطولية للدفاع عن نفسه ضد هذا الانتهاك الدموي لحقوقه وحرياته ويتصدى ضد حفنة بلا ضمير من هؤلاء المغامرين بمثل هذا الكفاح الذي لم يشهده العالم من قبل، لم تعرف "ديموقراطيات" أوروبا شيئا أفضل لتصنعه في معارضة لهذا الانتهاك الوضيع لكل حق إنساني سوى تحصين نفسها خلف حلف حيادي مضحك – في الوقت الذي يعرف كل فرد مقدما أنه لا هتلر ولا موسوليني سوف يحترم هذا الحياد. بواسطة هذه التحفة الدبلوماسية، الشعب العاشق للحرية الذي يغامر بأرواح أبنائه وبناته دفاعا عن حقوقه، والجلادون الجبناء الذين يهددون بإغراق هذه الحقوق في حمام دم، يُعاملون كلاهما بوصفهم مقاتلين متساوين، ويوضعون أخلاقيا على قدم المساواة. هل يستطيع المرء أن يتعجب من ثم أن الديموقراطية اليوم لا تمتلك نواحي جذب لمعارضة الفاشية؟

منذ شهور حتى الآن يتطلع العالم بهدوء بينما عاصمة بلد تتعرض لكل أهوال الحرب، وتُحصد أرواح نساء وأطفال بواسطة البرابرة الفاشيين. ولا ترتفع كلمة باحتجاج في أي مكان لتدعو إلى وقف هذه الأهوال. لقد شاخت الديموقراطية البرجوازية وفقدت كل تعاطف مع المثاليات الأخلاقية التي أعاقت أجنحتها وأجبرتها على استعارة أساليب العدو الذي يهدد بالتهامها. مركزية الحكومة حطمت روحها وأعاقت مبادراتها. وهذا هو السبب وراء أن العديد يفكرون اليوم بحتمية الاختيار بين الفاشية و"الشيوعية".

إذا كان يبقى اليوم اختيار ما، فهو ليس الاختيار بين الفاشية و"الشيوعية"، ولكنه الاختيار بين الاستبداد والحرية، بين القهر الوحشي والاتفاق الحر، بين استغلال الكائنات البشرية والصناعة التعاونية من أجل منفعة الجميع.

آمن فورييه وبرودون و"بي إي مارجال" (***Pi y Margall***) وآخرون أن القرن التاسع عشر سوف يبدأ بانحلال الدول الكبرى وتمهيد الطريق من أجل عصر فدراليات الاتحادات والبلديات الحرة التي في رأيهم سوف تفتح لأهل أوروبا

فترة جديدة من تاريخهم. لقد أخطأوا في التوقيت، ولكن وجهة نظرهم ما زالت صحيحة، لأن المركزية الحكومية قد اتخذت مدى يجب أن يملأ النفس حتى الأقل شكاً بخشية سرية على المستقبل – في أوروبا وفي العالم على اتساعه. فقط المنظمة الاجتماعية الفدرالية المدعومة بالمصلحة المشتركة للجميع والقائمة على أساس الاتفاق الحر لكل الجماعات الإنسانية هي التي تستطيع تحريرنا من لعنة الماكينة السياسية التي تتغذى على عرق ودم الناس.

الفدرالية هي تعاون عضوي بين كل القوى الاجتماعية نحو هدف مشترك على قاعدة الوصول إلى الاتفاقات الحرة. الفدرالية ليست تفكيكاً للنشاط الإبداعي وليست إدارة الفوضى هنا وهناك؛ إنها العمل الموحد والمجهود الموحد لكل الأعضاء من أجل الحرية والرفاهية للجميع. إنها وحدة التحرك، تنبثق من الاقتناع الداخلي والتي تجد تعبيرها في التضامن الحيوي بين الجميع. إنها الروح الطوعية العاملة من الداخل للخارج التي لا تستنفد نفسها في محاكاة لا عقل لها لأنماط موصوفة مسبقا دون مبادرة شخصية. يجب لاحتكار السلطة أن يختفي، مع احتكار الملكية حتى أن البشر يستريحون من الثقل الذي يستقر مثل الجبال على أرواحهم ويكبل أجنحة أرواحهم.

تحرير الاقتصاد من الرأسمالية! تحرير المجتمع من الدولة! تحت هذه اللافتة سوف تدور الصراعات الاجتماعية للمستقبل القريب، ممهدة الطريق نحو حقبة جديدة من الحرية والعدالة والتضامن. كل حركة تضرب الرأسمالية في القلب من كينونتها وتسعى لتحرير الاقتصاديات من طغيان الاحتكار؛ كل مبادرة تعارض عمل الدولة الفعلي وتستهدف إلغاء القوة من حياة المجتمع هي خطوة أقرب للحرية والعصر الجديد الآتي. كل شيء يدور نحو الهدف المعاكس – تحت أي مسمى – يعزز عن وعي أو بلا وعي قوة تلك الرجعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ترفع اليوم رأسها بشكل أكثر تهديدا عما سبق.

ومع اختفاء الدولة ستختفي أيضا الأمة – التي هي فقط ناس الدولة – ربما من أجل أن يتخذ مفهوم الإنسانية معنى جديدًا. وهذا سوف يكشف نفسه في دورها ذاته، ومنه تعدد الأوجه الغني للحياة سوف يخلق لأول مرة كل فرد.

معنى الاعتمادية على قوة أعلى، هذا المنبع لكل القيود الدينيـــة والـــسياسية الذي طالما قيَّد الإنسان إلى الماضي وسد الطريق على مـــستقبل أكثـــر ســـطوعا، سوف يخلي المكان لتنوير يجعل الإنسان نفسه سيدا لمصيره. هنا أيضا يثبت قـــول نيتشه صحته: "من الآن لن يضيف إلى شرفك من أين أتيت، ولكن إلى أيـــن أنـــت ذاهب! إرادتك وقدمك التي تحاول دائما أن تتجاوزك – هذا الـــذي ســـوف يكـــون شرفك الجديد".

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) فقط واحدة من الحوادث العديدة التي تظهر كيف يتم ذلك: في ١٨٩٩ عندما شـنت حكومـة المحافظين في إنجلترا الحرب على جمهوريات البوير (*Boer republics*) في جنوب أفريقيـا وبعد صراع دموي طويل، ضمتها إنجلترا في الأخير إليها، عرف ساعتها الجميع أن إغارات السرقة هذه كانت فقط لتأمين استحواذ لا ينقطع لمناجم الذهب في الترانسفال (***Transvaal***). ومع ذلك في هذا التوقيت حاول "ويلهلم لايبكنخت" (***Wilhelm Liebknecht***) تاليـا "لأوجـست بيبل" (***August Bebel***) الزعيم الأكثر شهرة في الحزب الاشتراكي الألماني ومحرر صحيفة "إلى الأمام" (***Vcrwarts***) التغاضي عن الفعل بالشرح لقارئه وجود واقعة ضـرورة سياسـية يجب مواجهتها. لأنه بالضبط كما في الارتقاء الاقتصادي عند الرأسمال هناك ميـل للتـراكم والتركز في أيادٍ أقل ولصغار الرأسماليين أن يبتلعهم الكبار، بالمثل في الارتقاء السياسي مـن الحتمي أن تمتص الدول الكبيرة الدول الصغيرة. بمثل هذه التفسيرات القائمـة فـي أحـسن الأحوال على فرضيات صرف، نحن نشوه إدراك الناس لوحشية الأحداث نفـسها ونجعلهـم يتبلدون نحو كل ما تمليه عليهم إنسانيتهم.

(٢) قبل صعود هتلر إلى السلطة بزمن قصير انتشرت هذه الرؤية بين مناصري الحزب الشيوعي في ألمانيا حتى إن محرري صحيفة "العلم الأحمر" (***Rote Fahne***) شعروا أن من الـضروري اتخاذ موقف ضد هذا الاتجاه الخطير، رغم أن هذه الرؤية كانت الترتيب المنطقـي للتكتيـك الذي اتبعه الشيوعيون الألمان عاما بعد عام. حقيقة أن هتلر كان قادرا على الاستيلاء علـى السلطة دون أي مقاومة من العمال الاشتراكيين والشيوعيين هي أحسن تشخيص لتلك الطريقة القدرية من التفكير التي عوّقت إرادة الجموع ونكبت ألمانيا وذهبت بها إلى الهاوية. لقد لعبوا طويلا على فكرة حتمية الديكتاتورية وفي الأخير أتت الديكتاتورية إلى هنا – فقط جاءت من اتجاه مختلف لم يتوقعوه.

(٣) في أمريكا يتم تدمير أربعة ملايين جوال من القطن بأوامر من السلطات من خـلال طريقـة ترك ثالث صف من الزراعات دون جني. في كندا يحرقون مخازن هائلة للغلال لعدم وجـود أسواق لها. دمرت البرازيل في أكتوبر عام ١٩٣٢ ما يزيد على ١٠٢ مليون كيس من الـبن، وفي الأرجنتين يحرقون اللحوم المجففة. في آلاسكا تم تدمير ٤٠٠ ألف صندوق من السالمون وفي نيويورك كان على السلطات إيقاف تلويث الأنهار حيث يموت السمك نتيجة التخلص من مقادير كبيرة من الألبان في مياهها. وفي أستراليا ما يزيد على مليون خروف تُقْتَـل وتُـدْفَن

لمنع "فيض الإنتاج". تعاد كميات كبيرة من سمك الرنجة إلى البحر لعدم ظهور مشترين لها. حتى في أراض يضربها الفقر مثل ألمانيا، هناك قصص عظيمة عن الخيار والخضراوات الأخرى تفسد في الأض سنويا؛ أو تُستخدَم كسماد لعدم القدرة على إيجاد زبائن لها. وهذا ليس سوى مقتطف موجز من قائمة طويلة. هذا الاتهام الأخرس واضح وضوحا لا لبس فيه.

(4) لذلك "هوارد سكوت" (*Howard Scott*) وثلاثمائة وخمسون معاونا علميا مع الرأي القائل إن هذه الكارثة الوشيكة من الممكن تفاديها بالعهدة لرجال التقنية بتوجيه الصناعة وتخفيض جذري لساعات العمل إلى ست عشرة ساعة في الأسبوع.

(5) بكل القسوة التي تقشعر لها الأبدان نحن مستعدون اليوم للتضحية بحياة ملايين البشر من أجل المصلحة الاقتصادية لحفنة من الأقليات وهو ما تُبرهِن عليه البرقية السلكية التي أرسلها السفير الأمريكي السابق في لندن، السيد "والتر هاينز بيدج" (*Walter Hines Page*)، في الخامس من مارس ١٩١٧ إلى الرئيس ويلسون (*Wilson*) (والتي أعقبها لاحقا بشهر إعلان أمريكا الحرب ضد ألمانيا).

بعد أن شرح "بيدج" للرئيس الوضع المالي الحرج لفرنسا وإنجلترا، وأشار إلى أن هذا لابد وأن ينتج عنه توقف كامل للتجارة عبر الأطلنطي، استمر في القول:

"سوف تكون نتيجة هذا التوقف حالة من الهلع في الولايات المتحدة... لهذا سوف ينقسم العالم إلى نصفي كرة، أحدهما، النصف الذي نعيش فيه، سوف يكون لديه الذهب والبضائع: النصف الآخر، بريطانيا العظمى وأوروبا، سوف يحتاج إلى هذه السلع والبضائع ولكنه لا يمتلك نقودا ليدفع بها مقابلا لبضائعنا. أكثر من ذلك، لن يكون لديه عمليا أي بضائع خاصة به ليبادلها معنا. النتيجة المالية والتجارية سوف تكاد تكون في غاية السوء بالنسبة لنا كما لأوروبا أيضا. سوف نصل سريعا إلى هذه الحالة إذا لم نتخذ إجراءً سريعا لمنع ذلك. يجب أن نمنح بريطانيا العظمى وفرنسا ائتمانا في الولايات المتحدة يكون كبيرا لدرجة تكفي لمنع انهيار التجارة العالمية وكامل الهيكل المالي في أوروبا. إذا أعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا فأعظم مساعدة نستطيع إعطاءها لبريطانيا وحلفائها سوف تكون مثل هذا الائتمان. إذا ما تبنينا مثل هذه السياسة، فالخطة الممتازة التي سوف يتوافر لحكومتنا عملها هي القيام باستثمار واسع في قرض بريطاني فرنسي. والخطة الأخرى سوف تكون ضمان مثل هذا القرض. الميزة الكبيرة هي أن كل الأموال سوف يُحتفَظ بها في الولايات المتحدة. نستطيع الاستمرار في تجارتنا وزيادتها حتى تنتهي الحرب وبعد الحرب سوف تشتري أوروبا الطعام وإمدادات هائلة من المواد التي سوف تعيد بها تجهيز صناعاتها السلمية. سوف نجني بهذا أرباح تجارة لا تنقطع وربما تجارة سوف تتوسع عبر عدد من السنوات، ويجب علينا المفاوضة على أوراقهم المالية عند الدفع. من الناحية الأخرى لو احتفظنا تقريبا بكل الذهب ولم تستطع أوروبا الدفع لإعادة تأسيس الحياة الاقتصادية ربما حدث هلع عالمي لفترة غير محددة. بالطبع

نحن لا نستطيع طرح مثل هذا الائتمان إذا لم نـــذهب للحـــرب ضـــد ألمانيـــا". (*Burton J. Hendrick: The Life and Letters of Walter H. Page, p. 270*)

(6) كتاب (*Otto Lehmann-Russbiildt, Der Krieg als Geschdft ("War as a Business"). Berlin, 1933*). تغيرت هذه البيانات ماديا منذ ذلك الحين، لأن سباق التسلح مازال يجعل النسب غير مواتية ويسلم العسكرتارية نصيبا أكبر من دخل الدولة. ينفق الاتحاد الـــسوفيتي الآن ســـنويا للأغراض العسكرية ١٢ مليار دولار (*The Nation, N. Y., Feb. 27, 1937*).

(7) تكفل بهذه المهمة عضو الكونجرس الأمريكي "فيكتور إل بيرجـــر" (*Victor L. Berger*) بعـــد خمس سنوات من الحرب. كانت المهمة سهلة بشكل معقول بالنسبة له، حيث كان في متناوله في واشنطن كم عظيم من المادة التي أفادته في حساباته. أظهر بيرجر أنه بالمبـــالغ المذهلـــة التي ابتلعتها الحرب، كان يمكن إعطاء كل عائلة في الولايات المتحدة وفي كنـــدا وأســـتراليا وبريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وروسيا منزلا يساوي ثمنه ألفين وخمسمائة دولار مع أثاث يساوي ألف دولار ومع كل منزل مثل هذا خمسة هكتارات من الأرض بثمن مائـــة دولار للهكتار الواحد، ولو فعلنا ذلك فإننا أيضا لن نستنفد كل المبلغ على أي حـــال: ســـوف يتبقى ما يكفي لتجهيز كل بلدة يسكنها أكثر من عشرين ألف مواطن فـــي البلـــدان المـــذكورة بمكتبة عامة ومستشفى بقيمة خمسة ملايين دولار، وبجانب هذا جامعة بتكلفة عشرة ملايـــين. ولكن حتى حينئذٍ لم نستهلك بعد كامل هذا الرأسمال الهائل. المبلغ المتبقي بعد كل هـــذا، لـــو استثمرناه بفائدة ٥٪ سنويا سنتمكن من دفع أجور جيش من مائة وخمسة وعشرين ألف مدرس ومائة وخمسة وعشرين ألف ممرضة، ويظل ما يتبقى معنا كافيا لشراء كل الممتلكات العقارية في فرنسا وبلجيكا.

خاتمة الطبعة الأمريكية الثانية

بعد سنوات عديدة من البحث الأولي، غالبا ما انقطع بأنشطة أخـرى، اكتمل هذا الكتاب قبل وقت قصير من استيلاء النازي على السلطة. ولهذا السبب أصبح نشر هذا الكتاب في ألمانيا مستحيلا رغم أن كل الإعدادات الفنية لطباعته كانت قد انتهت فعلا. الطبعة الإسبانية الأولى (في ثلاثة مجلدات) خرجت في برشلونة عامي ١٩٣٦-١٩٣٧، عن دار نشر "الأرض والحرية" (***Terra y Libertad***). الطبعة الإنجليزية الأولى خرجت في عام ١٩٣٧ (دار نشر كوفيتشي-فرايد، نيويورك)(New York ,Friede-Covici). الطبعة الهولندية في ثلاثة مجلدات ظهرت في أمستردام عام ١٩٣٩. الطبعة الإسبانية الثانية نُشِرت عام ١٩٤٢ بواسطة (***Ediciones Imdb***) في بيونس آيريس. الطبعات اليديشية والبرتغالية والسويدية في مرحلة الإعداد في الوقت الحالي في بيونيس آيريس، وساو باولو واستوكهولم بالترتيب.

حاولت في هذا الكتاب تقديم مخطط لأهم أسباب الأفول العام لحضارتنا؛ أسباب أخذت منذ الحرب الفرنسية البروسية عامي ١٨٧٠-١٨٧١، تتضح أكثر فأكثر والتي أدت بعد سنوات قليلة من نشر هذا الكتاب إلى الكارثة الوحشية للحرب العالمية الثانية. عديد من الأشياء التي كنت قد تنبأت بها في هذا العمل حدث لها وأن أصبحت حرفيا حقيقة. بالتأكيد لم يكن على هذا النحو من الصعوبة أن تضع هذا المآل لتطور الأمور لأن كل شخص حاول اختراق أسباب هذا الأفول العظيم كان لابد له أن يصل إلى استنتاجات مماثلة. فكل الأسباب تشير بشكل واضح تماما إلى الطرق والوسائل التي تستطيع وحدها اليوم إحداث تعافٍ تدريجي وتحريك لتطور عام على خطوط ربما تنتج إمكانية تعاون مثمر وسليم بين الجماعات القومية المختلفة. والأمر في يد النوع البشري هل يستفيد أم لا من قلب دروس هذه الكارثة

الأعظم من كل الكوارث الاجتماعية وهل هو عازم أم لا على إصلاح طرائقه في فتح احتمالات من أجل مستقبل أفضل، أو هل هو عازم أم لا على استمرار اللعبة القديمة للدبلوماسية السرية والتحالفات العسكرية والسياسية والعمل السياسي للسلطة المنفلتة التي لا تؤدى سوى إلى كوارث جديدة لتنتهي في الأخير إلى دمار تام لحضارتنا.

ولن يكون سهلا أن نبدأ بداية جديدة ومهمة من هذا النوع، سوف تتطلب عمل أجيال عديدة. ولا يستطيع أحد توقع أن هذه الفوضى المخيفة المتخلفة في أعقاب حرب عالمية أن يتبعها فجأة ألفية من السنين تبرأ فيها الجراح بضربة واحدة، وتهدي للبشرية دون كفاح عالمًا من الحرية والعدالة. كارثة بمثل هذه الأبعاد الهائلة لا يمكن التغلب عليها في سنوات قليلة. تلك البرية المغطاة بالخرائب التي ورثناها لا يمكن تنظيفها وزرع حضارة فيها بين يوم وليلة. التأثيرات المحبِطة التي تسببت فيها بربرية النازيين وبالحرب نفسها لا يمكن إزالتها بضربة واحدة.

ومع ذلك يصبح الطريق الذي سوف نسلكه ذا أهمية حاسمة ولسوف يعتمد الأمر علينا هل سوف يكون هذا الطريق نهضة جديدة أو مجرد تحول آخر في الاتجاه الخطأ. من المرات القليلة أبدا في مجرى تاريخ الجنس البشري أن واجهته مهمة بهذا الإلحاح لإمساك مصيره بين يديه هو. مقارنة بهذه المهمة العامة كل الأسئلة الأخرى بما فيها ماذا يكون مصير ألمانيا، هي أسئلة شاحبة خالية تماما من أي مغزى، لأن ألمانيا جديدة تستطيع أن تنشأ وترتقي فقط في أوروبا جديدة وفي عالم جديد. حتى التدمير الكامل لألمانيا وقطع أوصال سكانها لن يكون ذا فائدة طالما مكامن القدرات السياسية للسلطة القديمة بقيت متماسكة ولم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية المسئولة عن الانهيار الدموي لحضارتنا. مجرد التغيير في علاقات السلطة لن ينجح أبدا في استئصال الشر. لن يزيل المرء خطرا بتحويله إلى مكان آخر. نفس الأسباب تنتج دائما نفس التأثيرات. ربما تتخذ هذه التأثيرات طبقا للظروف أشكالا مختلفة ولكن هذه الاختلافات لا تمس جوهر الشر الذي يؤدي دائما إلى نفس العواقب.

وبالمثل الاعتقاد بأن من الممكن حل المشكلة عبر تحالف بين ثلاث أو خمس قوى مهيمنة يشير إلى سوء فهم تام بالحقائق. حتى في ظل أفضل الظروف المواتية مثل هذا التحالف قد يستطيع حل فقط بعض المهمات المحددة؛ ولكنه لن يستطيع أن يصرف الشر الذي يهددنا، ولا أن يمنح أي حماية ضد الكوارث الجديدة التي تؤثر على حياة الجنس البشري. يستطيع هذا التحالف إجبار الأمم الصغيرة على القبول، مؤقتا وضد إرادتهم، لبعض أشكال الحياة ما دام ذلك سوف يفيد القوى الكبرى؛ ولكنه سوف يسقط شظايا متناثرة فور أن تصبح التناقضات السياسية والاقتصادية الداخلية بين القوى المهيمنة أعلى صوتا، لتؤدي مرة أخرى إلى الفوضى.

يمكننا رؤية ذلك حتى في يومنا هذا، بينما العالم ما زال ينزف من ألف جرح، وملايين الكائنات البشرية تتضور جوعا حرفيا وتضطر للعيش تحت أسوأ الظروف المرعبة. بدلا من تركيز كل جهودهم في تطبيب تلك الجروح وعلى إنقاذ الملايين من موت معين أو انحلال عقلي أو بدني غير قابل للعلاج، بتيسير إعادة بناء البلدان التي دمرتها وأهلكتها الحرب وبإحداث على نحو السرعة ظروف يستطيع الناس بشكل أو بآخر تحملها والتي قد تجلب مزيدًا من التطور – القوى المهيمنة باستئنافها لسياسات السلطة، تمنع اكتمال كل هذه المهمة فائقة الأهمية وتزرع بذور انشقاقات جديدة سوف تنتج لا محالة عن كارثة.

من البداية مباشرةً، أصبح واضحا أن هناك نزاعات كبرى بين أمريكا وإنجلترا وروسيا؛ البلدان الثلاث التي تم استدعاؤها لضمان سلام دائما. هذه النزاعات تصبح يوما بعد يوما أكثر عصيانا على الحل. لن تُزال هذه النزاعات حتى ولو حاولوا عقد مصالحة بينهم من خلال كل أنواع التصالحات السطحية. وبينما تتوقف الأحوال الآن تظل هذه التناقضات قائمة حتى يصبح الانقسام العلني أمرا حتميا. وإذا لم يختلس الناس مسيرة ضد حكوماتهم، سوف يواجهون مرة أخرى حقيقة مكتملة، مع وضع القنبلة الذرية على سبيل الاحتمال نهاية لكل شيء. لا يستطيع المرء إلا بالكاد توقع إصلاح رؤساء الحكومات على تنوعها من طرائقهم؛ ومن هنا لا يمكن التنبؤ بنهاية أخرى كنتيجة لمثل هذه التكتيكات الانتحارية، إذ لم ترَ الشعوب بأنفسها الضوء في الأخير.

وبمفارقة ساخرة عجيبة من التاريخ فقد كانت بالضبط روسيا، "أرض الآباء البروليتارية الحمراء"، و"أرض الحقيقة الاشتراكية" كما كانت تُسمى مرارا، والتي تفوقت في طموحاتها التوسعية غير المحدودة على إمبريالية القوى الغربية. تنطوي بشكلٍ مستمر مزاعمها التي لا تشبع على مخاطر جديدة، إذا لم توضع أمامها العراقيل في الوقت المناسب. روسيا، أكبر بلد في العالم، التي تغطي سدس سطح كوكبنا، قد نجحت فعلا - جزئيا بسبب حلفها السري الذي أبرمته مع هتلر في ١٩٣٩، وجزئيا بسبب عملياتها العسكرية - في تحقيق زيادة في مساحة الأرض وفي عدد السكان أكثر مما حققه أي بلد آخر. طبقا لتقرير نُشِر في صحيفة النيويورك تايمز في عدد ١٤ مارس ١٩٤٦، هذه الزيادة موزعة كالآتي:

تُضاف إلى هذه الأراضي البلدان التالية: بولندا ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وإلى حد بعيد أيضا المجر وتشيكوسلوفاكيا اللتان تم جرهما الآن بالكامل إلى داخل فلك مجال النفوذ الروسي وتستخدمهما روسيا كأداة لمزيد من التوسع جنوبا وغربا.

المنطقة	ميل مربع	السكان
ليتوانيا	***24,058***	***3,029,000***
لاتفيا	***20,056***	***1,950,000***
إستونيا	***18,353***	***1,120,000***
بولندا الشرقية	***68,290***	***10,150,000***
بيسارابيا وبوكوفينا (***Bessarabia & Bukovina***)	***9,360***	***3,748,000***
مقاطعة مولدافيا (***Moldavia***)	***13,124***	***2,200,000***
كاراباثو أوكرانيا	***4,922***	***800,000***

بروسيا الشرقية	3,500	400,000
كاريليا الفنلندية (Finnish Karelia)	6,173	470,000
بيتسامو (Petsamo) فنلندا	4,087	4,000
تانو-توفي (Tannu-Tuve) (آسيا الوسطى)	65,000	64,000
جنوب ساخالين (Sakhalin)	4,075	415,000
جزر كوريل (Kuril)	3,949	4,500
الإجمالي	273,947	24,355,500

لا نتحدث عن مزاعم روسيا في إيران، وأجزاء معينة من تركيا والمستعمرة الإيطالية السابقة "ليبيا". نحذف أي ذكر لطموحات روسيا في الشرق الأقصى لأن الفوضى الضاربة هناك لا تسمح في الوقت الحالي بتكوين صورة واضحة. حقيقة أن بلدا يغطي مثل هذه المساحات الشاسعة مستمر في الضغط بمطالب جديدة لمزيد من توسيع مناطقه، تُظهِر لكل فرد قادر على التفكير المستقل أن مثل هذا المسار لا يمكنه أن يؤدي سوى إلى كارثة أخرى، وهذا بالتأكيد ليس كفيلا بمنح العالم السلام الذي يحتاج إليه بشدة.

ولقد أُشير مرارا خلال هذا الكتاب أنه منذ تشكيل الدول القومية الأوروبية الكبيرة، حاولت كل واحدة منها منذ البدء القضاء على الحريات والروابط الفدرالية المنبثقة من حياة الأمم نفسها. وقد تم هذا بوسائل التدخل العنيف ومركزية كل السلطة، وتشرع الدولة القومية بعد بلوغ هذا الهدف في مد نفوذها وقد أمّنته إلى البلدان المجاورة وإرغامهم على الإذعان لمصالح سياستها الخارجية. لا يعرف ملعب سياسات القوة أي حدود أخرى سوى تلك الحدود التي تضعها السلطة الأقوى أو تلك الحدود التي لا يمكن التغلب عليها بضربة واحدة. ولكن إلحاح تحقيق هيمنة سياسية واقتصادية لا يسمح لأي سلطة مهيمنة بأن تدعو إلى التوقف، وتصبح تأثيراتها أكثر

ضررا كلما كان استعبادها لشعبها نفسه أفضل. قد كانت دائما درجة الاستبداد في أي بلد أحسن مقياس للخطر الذي تهدد به البلدان الأخرى بشكل مستمر. قد كان كامل تاريخ القوى الأوروبية المهيمنة، تقريبا لقرون، هو صراعًا لا ينقطع من أجل الهيمنة على القارة؛ صراعًا كان يعني دائما نجاحا مؤقتا لصالح قوة واحدة أقوى من الآخرين، حتى تضع مجموعات قوى جديدة أو ظروف أخرى إن آجلا أو عاجلا حدودا لطموحاتها. ومع ذلك، سرعان ما تقوم دولة مهيمنة أخرى بنفس المحاولات- بنفس النتائج الشريرة التي تؤدي إلى كوارث جديدة دائما.

هذا الصراع من أجل الهيمنة يقع في جذر المركزية السياسية المنتشرة أبدا والتي تسعى بشكل مستمر لخنق كل الحقوق والحريات المحلية وإلى اختزال كامل حياة الناس إلى عادات وأعراف ما محددة، لأن ذلك يمتلك أقصى فائدة للطموحات الداخلية والخارجية لحكامها. النتائج الحتمية لهذه المحاولات الخرقاء في اتجاه سياسات القوة الغبية كانت هي نفسها عمليا في كل الحالات: بعد نجاح فرسانها بكل وسائل التهديد المستمر والحرب المفتوحة في إخضاع الشعوب الأخرى لإرادتهم.

هم أنفسهم في الأخير يصبحون ضحايا لجوعهم الذي لا يشبع للسلطة. حقيقة أن إنجلترا حتى الآن تمثل استثناء لهذه القاعدة العامة، لنا أن نفسرها من ناحية بحالة أنه بعد هزيمة الاستبداد الملكي، لم يكن من الممكن أبدا إلغاء الحريات التي تم تحقيقها بالكامل حتى أثناء أكثر الفترات رجعية من تاريخها؛ وأيضا لأن ممثليها السياسيين قد كانوا حتى الآن هم الوحيدين الذين قد تعلموا شيئا ما من دروس التاريخ. وقد أدرك كروبوتكين هذا كاملا عندما صرح في خطابه الذي ألقاه في ٧ يناير ١٩١٨، إلى عصبة الفدراليين في كموسكو:

> **تزودنا الإمبراطورية البريطانية بدرس بعيد الأثر. قد جربت الإمبراطورية كلا من الوسائل الفدرالية والمركزية، والنتيجة كانت واضحة تماما. نتيجة لنفوذ الحزب الليبرالي على الشعب البريطاني، حصلت المستعمرات البريطانية، كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا، على حريتها الكاملة التي وجدت تعبيرها ليس فقط في الإدارة الذاتية**

لشئونها الخاصة ولكن في إدارة سياسـية مـستقلة بـشكل كامـل، بهيئاتها التشريعية الخاصة، وماليتها الخاصة واتفاقياتهـا التجاريـة الخاصة وجيوشها الخاصة. انتعشت هذه المستعمرات نتيجـة لـذلك اقتصاديا، وكانت على استعداد دائما وقتما تتورط إنجلترا في المشاكل أن تمنحها مساعداتها بكلفة من أعظم التضحيات كما لو كانت انجلترا بالنسبة لها أختا أكبر أو أما. ومن الممكن أيضا ملاحظة نفس الروح في جزر "جيـرزي" (*Jersey*)، و"جـويرنزي" (*Guernsey*) و"مـان" (*Man*) الصغيرة المستقلة ذاتيا، التي تتمتع بمثل هذا الاستقلال فيمـا يتعلق بشئونها الداخلية حتى أنهـم مـا زالـوا يعترفـون بالقـانون النورماندي في مسائل الممتلكات العقارية إلا أنهـم - إلـى المـدى المتعلق بعلاقـاتهم بالحكومـات الأخـرى - لا يـسمحون بتطبيـق التعريفات الجمركية على البضائع الأجنبية التي تلتزم بهـا إنجلتـرا. الاستقلال الذاتي من هذا النوع القريب جدا من الاستقلال، والـروابط الفدرالية الناتجة عنها قد برهنت هكذا على أنها القواعد الأكثر أمانـا للوحدة الروحية. من الناحية الأخرى أي تباين هذا الذي يوجـد فـي إيرلندا حيث كان على اليد القوية "لقلعـة دبلـن" (*Dublin Castle*)، التي هي إدارة "الحاكم العام" (*Governor General*)، في مجرى القرن التاسع عشر أن تحل مكان الهيئـة التـشريعية والتنظـيم الـداخلي للبلاد... المركزية هي لعنة تؤثر ليس فقط على نظـم حكـم الفـرد المستبد، بل إنها جلبت الخراب لكـلٍ مـن المـستعمرات الألمانيـة والفرنسية في الوقت الذي كانت المـستعمرات البريطانيـة القريبـة تنتعش وتزدهر لأنها تمتعت باستقلال حكم ذاتي عريض وهـي الآن تدريجيا تتطور إلى فدرالية للشعوب".

بدلا من المضي مباشرة إلى قلب دروس التاريخ الثمينة هذه والذهاب مباشرة إلى جذر الأسباب الحقيقية للكارثة الأعظم التي لحقت بالجنس البشري قاطبة، يبـدو أنه حتى البلدان الغربية بكل تقاليدها الطويلة للتيارات الفكرية الليبرالية التـي لعبـت

دورا بارزا خلال الفترات الأعظم من تاريخها، تنحرف هذه البلدان الآن أكثر فأكثر نحو نفس الآراء التي تسببت في صعود فكرة الدولة الشاملة. لا نتحدث عن روسيا، لأنه تحت ما يُسمى ديكتاتورية البروليتاريا طورت روسيا دولة شمولية مكتملة الأركان أصبحت مؤسساتها في غالب الأحيان مقبولة كنموذج بواسطة الفاشية المنتصرة.

هذه الأفكار سريعة الانتشار اليوم قد تسببت أيضا في صعود الإيمان الساذج والخطير بأن من الممكن القضاء في المستقبل على الصراعات المسلحة بوضع العالم بأكمله تحت السيطرة الشرطية لحفنة من القوى المهيمنة تخضع لها كل البلدان الصغيرة سواء للأفضل أو للأسوأ. ومما يزيد من يأس الحالة بأكملها حقيقة أنه تحت ضغط روسيا تضطر القوى الأخرى إلى الموافقة على مبدأ أن كل القرارات لابد وأن تتم الموافقة عليها باجماع ثلاث أو خمس دول مهيمنة، وإنه حتى من الممكن إحباط أحسن المقترحات لو استخدمت واحدة فقط من هذه القوى حقها في "الفيتو". وهكذا أصبح من الممكن بسهولة تخريب أي قرار مهم بواسطة هذا الأسلوب.

ولقد ظهر للعيان تأثير مثل هذا الوضع خلال أولى جلسات انعقاد مجلس [الأمن] في الأمم المتحدة الذي كان مستحيلا عليه الانخراط في أي مداولات جدية حتى أصبح من الضروري، المرة بعد الأخرى، تأجيل مناقشة أهم المسائل التي يتوقف عليها اليوم مصير ملايين البشر. ربما تشفع حقيقة أن هذه الحالة الحرجة قد أصبحت واضحة منذ البداية مباشرة، لأنها ربما تفتح عيون العديد من الناس وتُظهِر لهم أن مثل هذه الترتيبات هي سخرية من أبسط مبادئ الديموقراطية ولا يمكن أبدا تحقيق أي نتائج طيبة من خلال هذا السبيل. ولأنه مع اتباع هذا المسار سوف يصبح مجلس الأمم المتحدة الذي تُعلَّق عليه الآمال الكبار مجرد ساحة لنزاع بين حفنة من القوى المهيمنة، لن يكون فيه للبلاد الأصغر أي رأي لتقوله إلا بالكاد. ومع السماح للبلدان الصغيرة بالحق حتى في تقديم مظالمهم للمجلس، سوف يعتمد القرار دائما على قوى قليلة حتى رغم احتمال منعه بواسطة حق الفيتو؛ والنتيجة سوف تكون تسليم الأمم الصغيرة لرحمة "الثلاثة الكبار" أو "الخمسة الكبار"، دون أن يستطيعوا

حتى إعلان احتجاجهم بشكل فعَّال. أحسن ما يستطيعون صنعه هو امتناعهم عن ارتكاب جرائم والشراء الممتثل لفضل القوى المهيمنة التي تكون مزاعمها في حالات معينة أشد خطرا عليهم. ومع ذلك هذا لا يمس القواعد الحقيقية لميدان سياسات القوة وبالتالي أيضا النتائج والمخاطر التي تربطهم حتما بمثل هذه الحالة من الحالات.

الحرية من الخوف كانت واحدة من المسلمات العظيمة لميثاق الأطلنطي؛ ولم تُذكر لبعض الوقت تماما. اليوم هذه المسلمة مثل كل الحريات الأخرى التي أكدوا عليها في الماضي، يتردد صوتها كما لو كانت سخرية متعمدة. لأنه في الواقع العملي أين هو البلد الصغير الذي سوف يُظهِر في مواجهة الحالة الراهنة ما يكفي من الشجاعة للشكوى والمخاطرة بكل المتاعب التي سوف تسببها قوة مهيمنة لأمة صغيرة؟ في معظم الحالات سوف يتعرض البلد الصغير ببساطة للترهيب ويقبل ظلما جليا. في نظر معظم البلدان الصغيرة مثل هذا المسار قد يبدو أكثر ميزة من امتياز استخدامهم كحيوانات تجارب في المنافسة بين القوى المهيمنة. وما تظهر الأمور عليه الآن يصبح واضحا أكثر فأكثر أن السلام الدائم بين الشعوب داخل الحدود الضيقة للدول القومية الحالية ليس مجديا على الإطلاق؛ حتى وإن لم ينوِ أحد في الوقت الراهن فعليا استثارة حرب جديدة. الحل الحقيقي لمثل هذه المسائل الأكثر أهمية ليس ممكنا طالما مصالح الجميع لابد من تسليمها للمصالح الخاصة للدول القومية بشكل منفرد. ولكسب الوقت سوف يكون ضروريا عمل كل أنواع التنازلات الضرورية، حتى تشعر إحدى القوى المهيمنة بالقوة الكافية للمغامرة بصدام مسلح، إن لم تكن القوى الأخرى لسبب أو لآخر مستعدة للتسليم دون صراع.

حتى مع نزع السلاح الشامل، الذي غالبا ما نادوا به في الماضي كأمل للمستقبل والذي هو مع النظر للحالة الراهنة يجب أن يكون أول شرط مسبق لسياسة حقيقية للسلام، قد فقد كل معناه بعد ما أعلن ستالين صراحة في خطابه في التاسع من فبراير ١٩٤٦ أن تدعيم وتماسك الجيش الأحمر قد كان أكثر المهام أهمية بغرض تأمين حدود روسيا، وأنه لبلوغ هذا الهدف ربما تصبح خطة خمسية أو ثلاثية أخرى ضرورية. وهو التصريح الذي يعني في لغة بسيطة، إقرار سياسة

مزيد من التصنيع في روسيا ليس بغرض السلام والرفاه للشعب الروسي ولكن لتوقع الحالات الطارئة الناتجة عن حرب جديدة.

هذه اللغة ليست جديدة. تلك هي الحجج نفسها التي استخدمها بسمارك بعد حرب ١٨٧٠-١٨٧١ من أجل تبرير عسكرة الرايخ الجديد، والتي كررها هتلر لاحقا بغرض تأمين ألمانيا ضد النوايا العدوانية المزعومة لجيرانه الأعداء. إنها نفس اللغة التي استُخدِمت غالبا بواسطة كل مستبد بغرض التمويه على تعطشه للغزو. "سلام بسمارك المسلح" (***Bismarck's armed-peace***) كما أطلقوا عليه في ذلك الوقت – أدى في الأخير إلى عسكرة كل أوروبا وأرسى قواعد لهذا التنافس الدولي الانتحاري في التسليح الذي أطلق لاحقا الطوفان الأحمر في الحرب العالمية الأولى. لن يجرؤ رجل بأي مزاعم لحس سياسي أن يؤكد على نحو جاد أن الأمور في حالة روسيا سوف تأخذ منحى آخر. إنه نفس الصراع القديم اليوم من أجل الهيمنة في أوروبا وفي آسيا أيضا – ما عدا تغير الأدوار، وأن ديكتاتورية الكرملين استولت على ميراث عائلة "الهوهنزولرن" (***Hohenzollern***) وهتلر.

ولهذا الحد حصل ستالين في الحرب الماضية على أكثر مما استطاع القيصر الروسي أن يأمل في الحصول عليه أبدا؛ وكما في أمور السياسة الخارجية تأتي الشهية مع الأكل وتزداد مع كل قضمة، ومن المستحيل في الوقت الراهن أن نستشرف مزيدًا من نوايا الإمبريالية الروسية التي تيسر لعبتها كثيرا حقيقة أنه في كل بلد تمتلك هي في متناولها أتباعًا متطرفين ومنظمين لا يكابرون في أنهم أدوات تُستخدَم في سياسة روسيا الخارجية، بينما مر هتلر بأوقات عصيبة من أجل حشد الخونة المتعاونين (***Quislings***).

هناك الآن في الوجود مدرسة كاملة من المثقفين العديد منهم يتظاهر بأنهم ليبراليون – في الأخير ماذا يمكن أن يعنيه مجرد اسم؟ – الذين يحاولون تبرير مزاعم الاستبداد الفردي البلشفي بالتأكيد على أن ستالين اليوم يوفي بمهمة تاريخية في أوروبا وفي آسيا، وأنه بتفتيت الملكيات العقارية الكبيرة في مناطق مجال النفوذ الروسي، هو يخلق احتمالات التطور الاجتماعي الجديد، الذي سوف يمنع تجديد

تأسيس الوضع الراهن الذي تخلقه الإمبريالية الغربية. وحتى يصبح هذا الرأي الغريب مستساغا فإنهم يشيرون إلى الدور الذي لعبه نابليون وجيوشه، الذين نشروا أفكار الثورة الكبرى عبر أوروبا لتحطيم أسس أنظمة الحكم المطلق والمؤسسات الإقطاعية.

يخلو هؤلاء الذين يستخدمون هذه اللغة من كل الأحكام المتعلقة بالحقائق التاريخية. كانت الثورة الفرنسية واقعيا النذير الداعي لحقبة تاريخية جديدة. لقد وجهت هذه الثورة ضربة قاضية للحكم الملكي المطلق وفتتت اقتصاده ومؤسساته الاجتماعية. وضعت الثورة في "إعلان حقوق الإنسان" (***Declaration of the Rights of Man***)(*) قواعد لإنسانية جديدة ولتطور تاريخي جديد في أوروبا، بالضبط مثلما فعل "جيفرسون" (***ersonJeff***) في "إعلان الاستقلال" (***Declaration of Independence***) [الأمريكي]. ورغم أن تنفيذ هذه الأفكار والمُسلَّمات في هاتين

(*) إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أقره المجلس الوطني التأسيسي لفرنسا في أغسطس ١٧٨٩، وثيقة أساسية للثورة الفرنسية امتلكت تأثيرا كبيرا على تطور الحرية والديمقراطية في أوروبا والعالم. يظهر في الإعلان التأثير المباشر لتوماس جيفرسون، وجهده مع الجنرال لافاييت، الذي قام بعرض الوثيقة على الجمعية الوطنية. تأثر الإعلان أيضا بمبدأ "الحق الطبيعي"، حيث تبنى فكرة عالمية حقوق الإنسان: وأنها صالحة في جميع الأوقات وفي كل مكان، لأنها تتعلق بالطبيعة البشرية نفسها. ينادي الإعلان أساسا بأمة من الأفراد الأحرار على قدم المساواة بموجب القانون. تم تضمينه في ديباجة دساتير كل من الجمهورية الرابعة الفرنسية (١٩٤٦) والجمهورية الخامسة (١٩٥٨)، ولا يزال ساريا. وهو غير إعلان حقوق الإنسان والمواطن لعام ١٧٩٣ الذي سبق أول دستور جمهوري في فرنسا. وقد تمت المصادقة على الإعلان والدستور عن طريق التصويت الشعبي في يوليو ١٧٩٣، واعتمد رسميا في ١٠ أغسطس. ومع ذلك، لم يدخل أى منهما حيز التنفيذ، وتم تعليق الدستور رسميا في ١٠ أكتوبر. كتبت هذا الإعلان لجنة ضمت لويس أنطوان ليون دي سانت-جوست، وماري جان هيرو دي سيشيل. والفرق الرئيسي بين إعلاني ١٧٩٣ و١٧٨٩ هو ميل الأول للمساواة. وتضمن إصدار ١٧٩٣ حقا جديدًا، ومراجعة للحقوق السابقة: في العمل، والمساعدة العامة، والتعليم، ومقاومة الظلم. كتب اليعاقبة وثيقة ١٧٩٣ بعد طرد الجيروند. كان الإعلان حلا وسطا صمم كسلاح دعاية لزعماء اليعاقبة. [المترجم]

الوثيقتين العظيمتين قد تم تنفيذهما جزئيا فإنهما حركتا أعظم الآمال عند كل الأمم وامتلكتا تأثيرا باقيا على كامل التاريخ اللاحق، تأثيرا فتح سبلا جديدة أمام الجنس البشري ولم يختفِ هذا التأثير حتى يومنا الحالي. ولا نستطيع إنكار أن جنود الجيوش الفرنسية الذين نشأوا من تلك الأيام المضطربة "للثورة الكبرى" حملوا هذه الروح إلى كل البلدان موجهين ضربات قوية ضد الحكم الملكي المطلق الذي لم يصمد أمامه على الإطلاق. ولا حتى نابليون الذي نما من هذه الثورة، والذي فسق ضدها فيما بعد بهذا الشكل الحزين، لم يستطع وقف انتشار الأفكار الثورية في أوروبا. لقد توغلت هذه الأفكار حتى في روسيا حيث أدت إلى انتفاضة "الديسمبريين" (***Decembrists***)[*] الذين أرادوا تخليص بلادهم من استبداد حكم الفرد وروابطه الإقطاعية من أجل استبداله بفدرالية خرة للشعوب الروسية.

كانت الثورة الفرنسية في واقع الأمر بكل تأثيراتها اللاحقة في أوروبا بداية لفترة جديدة في تاريخ الأمم الأوروبية؛ لقد وضعت نهاية لنظام الحكم القديم لملكيات الاستبداد المطلق ومهدت السبل للمستقبل. حتى كل الحركات الجماهيرية اللاحقة التي مضت خلف الأهداف الاقتصادية لليبرالية والديموقراطية السياسية التي اعتنت بطرد الاستبداد المطلق خارج آخر قلاعه الحصينة، وهي الحياة الاقتصادية للمجتمع الحالي، كانت هذه الحركات الجماهيرية هي النتيجة المباشرة لتلك التيارات الفكرية العظيمة التي أطلقتها في كل البلدان "الثورة الكبرى" والتي لم تجرِ في مجراها بعد.

(*) ثورة الديسمبريين أو الانتفاضة الديسمبرية حدثت في الإمبراطورية الروسية يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٢٥. احتج ضباط الجيش الروسي نحو ٣,٠٠٠ جندي في ساحة بطرس ضد اعتلاء نيقولا الأول العرش بعد تنازل أخيه الأكبر قسطنطين بنفسه عن الوراثة. فشلت الحركة وتم إعدام قادتها ونفي الباقين. إلى حد ما، كان الديسمبريون الأوائل جزءًا من خط طويل من ثوار القصر الذين يريدون وضع مرشحهم على العرش، إلا أن الديسمبريين أرادوا أيضا تنفيذ بعض أفكار الليبرالية الكلاسيكية، لذلك تم اعتبار ثورتهم بداية لحركة ثورية. هم، من بين عوامل أخرى، مثلوا مصدرًا من مصادر الإلهام لثورتي فبراير وأكتوبر ١٩١٧ في روسيا. في عام ١٩٢٥، وبمناسبة مرور مائة عام على الحدث، سميت ساحة بطرس باسم ساحة الديسمبريين، ولكن في عام ٢٠٠٨ تم تغيير اسم الميدان إلى ساحة مجلس الشيوخ. [المترجم]

ومع ذلك، أولئك الذين حاولوا مقارنة النتائج الكبرى والتي لا تفنى لهذا الحدث المدهش في التاريخ الحديث وآثاره الفكرية على التطور الاجتماعي في أوروبا، بنتائج الإمبريالية البلشفية وسياستها الخارجية، لم يستطيعوا كلهم معا الحكم على الأحداث التاريخية؛ لأنهم لم يميزوا بين الأشياء التي يمكن مقارنتها بمعنى سلبي، سوى أنهم يختلفون عن بعضهم البعض كما الليل والنهار. مثل هذه المقارنات ليست فقط مُضلِّلة؛ إنها تؤسس لتهديد مباشر لأي تقدم فكري واجتماعي، لأنها تدافع عن تبني الأشياء التي تمثل عائقا لأي تطور صحي والتي تحت مزاعم زائفة تجعل الشعوب مستعدة للقبول بالأشكال الرجعية الجديدة للحياة الاجتماعية التي تضرب بجذورها عميقا في أفكار الاستبداد المطلق للقرون السابقة.

ما قد تطور في روسيا لأكثر من ربع قرن هو استبداد مطلق جديد، أشكاله الداخلية والخارجية تتجاوز بشكل عظيم أي شيء قد حققته سياسات القوة لمذاهب الاستبداد المطلق في العصور القديمة. كل الحقوق والحريات السياسية والاجتماعية التي حصلنا عليها نتيجة الثورة الفرنسية وما بعدها من آثار على بقية أوروبا بما فيها عدم انتهاك حرمة الفرد وحقه في التعبير عن رأيه، كلها معا قد توقفت عن الوجود في روسيا اليوم وفي البلدان التي تدور في فلك نفوذها. كامل الصحافة والكلمة المطبوعة عموما والراديو، باختصار كل أدوات التعبير العام تخضع لرقابة ثلاثية حتى أنه عمليا لا يتم التعبير عن أي رأي سوى رأي الحكومة التي هي بالتالي لا تخضع لأي انتقاد. لا يعلم الشعب الروسي عن الأحداث التي تقع في البلدان الأخرى سوى ما تعتقد حكومتهم أن من المستحسن لهم أن يعرفوه. حتى في زمن الحكم القيصري لم يحدث أبدا أن خُتِم على البلاد بهذا الإحكام، وعزلها عن البلاد الأجنبية بهذه الدرجة التي هي عليها اليوم. في بلد يستطيع الزعم بهذا التميُّز المحزن في امتلاكه تلك الديكتاتورية الشرطية الأكثر انعداما للضمير والأكثر استبدادا، حتى أبسط صور الأمن الشخصي ليست محل سؤال. فقط الآمن هو من يخضع بلا شرط للرجال الذين يقبضون على السلطة شريطة ألا تجذب حوادث غير سعيدة نحوه شكوك نظام تجسس فائق القوة. الإبادة الهمجية والقاسية لكل التيارات السياسية

الأخرى والذبح الوحشي لمعظم القادة القدماء في الحزب البلشفي في ظل أقصى ظروف التمرد، هي خير شاهد على أن هذه العبارة لا تحتوي على مبالغات.

وللتأكيد، هناك بعض الناس مستعدون لتحمل كل هذه الجوانب التي لا تُنكَر لنظام استبداد سياسي غير مقيد لأنهم يعتقدون أو يتظاهرون أنهم يعتقدون أن النظام الاقتصادي الجديد في الدولة الروسية يكفي لتجميل كل هذه السمات. في رأيهم أن من المرجح لهذا النظام الاقتصادي الجديد أن يعزز تطور اقتصاد اشتراكي في البلدان الأخرى أيضا. هذا الإيمان الأعمى يقوم على سوء فهم كامل لكل حقائق الواقع. أن ما يُزعَم اليوم في روسيا كاقتصاد اشتراكي ليس لديه بالقليل ما هو مشترك مع المبادئ الحقيقية للاشتراكية كما يمتلكه حكم الكريملين الاستبدادي مع كفاح الثورة الفرنسية ضد الحكم الاستبدادي. أن ما يُسمى بهذا الاسم اليوم في روسيا- ويكرره بشكل ميكانيكي ناس الخارج التي لا تعقل الأمور - ما هو في الحقيقة سوي الكلمة الأخيرة للرأسمالية الاحتكارية الحديثة التي تستخدم الديكتاتورية الاقتصادية للاتحادات والتكتلات الاقتصادية (***trusts and cartels***) بغرض القضاء على أي تنافس غير مرغوب فيه واختزال الحياة الاقتصادية بأكملها إلى أعراف ما محددة. آخر رابطة لمثل هذا التطور ليس بالاشتراكية ولكن برأسمالية الدولة بكل ما يصاحبها حتما من إقطاع اقتصادي جديد وقنانة جديدة؛ وذلك هو النظام الذي يعمل واقعيا اليوم في روسيا.

أزالت الثورة الفرنسية الروابط القهرية القديمة التي حافظ بها الاستبداد الملَكي وأخوه التوأم الإقطاع على بقاء الشعوب ترزح في الأغلال لقرون. ذلك هو استحقاق الثورة الذي لا يفنى والأهمية التاريخية العظمى لنتائجها المباشرة. ولكن ديكتاتورية البلشفيك قد استعادت البيروقراطية القديمة والروابط الاقطاعية التي كانت قد توقفت عن الوجود حتى في روسيا القيصرية، وطورتها إلى حدها الأقصى. لو كان صحيحا أن من الممكن تحقيق الاشتراكية فقط بثمن التدمير الكامل للحرية الشخصية، والمبادرة الفردية والتفكير المستقل فمن ثم سيكون من المفضل أن تُعطى النظام الرأسمالي الخاص بكل عيوبه ونواقصه الحتمية. يجب قول هذه الحقيقة علنا

وبصراحة. هؤلاء الذين ينكرون ذلك لا يستطيعون سوى المساهمة في إخضاع النوع البشري إلى عبودية جديدة أكثر مقتا.

إذا كان النموذج السوفيتي يعلمنا أي شيء فهو يعلمنا فقط حقيقة أن الاشتراكية دون حرية روحية واجتماعية وسياسية هي أمر لا يُمكِن تصوره ويجب أن تؤدي لا محالة إلى استبداد غير محدود، لا تحكم قسوته الفجة أي قيود أخلاقية. وقد أدرك برودون هذا بوضوح عندما قال منذ نحو مائة سنة تقريبا أن تحالف الاشتراكية مع الاستبداد سوف ينتج أسوأ طغيان لكل الأزمان.

الإيمان القديم بأن الديكتاتورية ليست سوى مرحلة انتقالية ضرورية وأن إلغاء رأس المال الخاص في الصناعة والزراعة سوف يأتي تلقائيا بتحرير الإنسانية من كل الروابط الرجعية للماضي، فقد مصداقيته تماما، لدرجة أنه في مقابل الواقع وجها لوجه فقد هذا الاعتقاد كل معنى له. لا توجد قوة مستعدة للتنازل طوعا، وكلما زادت قوتها كان ميلها لتفعل ذلك أقل. في هذا المقام مرة أخرى يصيب برودون بيت القصيد عندما يشير إلى أن كل حكومة مؤقتة تريد أن تصبح حكومة دائمة. هذا الميل الذي كان دائما جوهر كل تنظيم للسلطة، تلك الحقيقة التي لا يمكن التغاضي عنها بالإسهاب الفارغ. البيروقراطية كلية القوة برغبتها التي لا تشبع لممارسة شبكة وصايتها التي لا مفر منها بقوانينها وأحكامها الميكانيكية لكل أوجه الحياة العامة والخاصة هي خطر أكبر كثيرا على الثقافة العامة والتقدم الاجتماعي من أي شكل آخر من الطغيان، حتى ولو لم تعد الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج قائمة، خصوصا إذا كان كامل الاقتصاد خاضعا لسيطرة قاسية من دولة شمولية.

بالتعبير عن هذه الحقيقة البديهية التي أكدتها التجربة المُرَّة، أنا لا أنتوي بأي حال من الأحوال تقديم أدنى تنازل أو أعذار للطموحات الإمبريالية للقوى الغربية، كما يظهر بوضوح من محتوى هذا الكتاب. سياسات القوة للدول القومية وخصوصا القوى المهيمنة بدبلوماسيتها السرية وتحالفاتها السياسية والعسكرية وسياستها الاستعمارية وأساليب ضغطها الاقتصادي التي عرقلت في الماضي غالبا إن لم تكن قد أدت إلى التطور الاجتماعي للأمم الأصغر، إضافة إلى المكائد الدائمة لتجمعات

الماليات العليا والتسلح الدولي قد أخضعت باستمرار حياة الشعوب الاقتصادية والسياسية لتشنجات دورية لا تطاق بشكل متزايد، لتجعل من خطر الحرب حالة دائمة. لا أحد قد تعلم درسه من حربين عالميتين يستطيع إنكار أن هذه المشكلة يجب حلها إذا ما رغبنا في خلق علاقة جديدة بين الشعوب، علاقة ربما يكون ممكنا فيها تحقيق التوافق السلمي بين كل المصالح. فقط هؤلاء المصابون بالعمى الذي لا شفاء منه سوف يفشلون في إدراك أن الاستمرار في سياسات القوة الإمبريالية واللعبة القديمة للهيمنة يجب في عصر القنبلة الذرية والتطور الشرير لأساليب الحرب الحديثة، أن يؤدي حتما إلى نهاية كل الحضارة البشرية.

ولكن حتى بعد الأخذ في الاعتبار كل تلك المخاطر والاعتراف تماما بأهميتها، من الواضح أن هجر الطرق القديمة لن يكون ممكنا إلا مع قيام الشروط الاجتماعية والروحية من أجل تحويل كامل للناس. فقط في البلدان حيث التعبير الحر عن الرأي ما زال ممكنا ولا تخضع بالكامل بعد أفكار وحركات البشر لوصاية الدولة، سوف يكون ممكنا التأثير على الرأي العام وجعله يدرك هذه الحقائق. في روسيا المعاصرة، كما في أي دولة شمولية، هذه المقدمات التمهيدية مُفتقَدة بالكامل. ولكن حيثما يُمنَع بشكل مصطنع تبادل الآراء الحر بين الشعوب، يصبح التفاهم المتبادل مستحيلاً بسبب غياب أول شروط التعاون المثمر.

المهمة الكبرى التي تواجهنا اليوم ليست مشكلة قلة من الدول الكبيرة ولكن التعاون المنتظم بصورة تشاركية بين كل الجماعات القومية بشروط متساوية وحقوق متساوية. ومع ذلك مثل هذه الفدرالية تصبح ممكنة فقط إذا لم تعد تحت سيطرة مصالح قومية منفصلة ولكن عندما تصبح أهدافها الموضوعة هي تعزيز المصالح العامة وتوسيعها وضمان نفس الحق في الطموح من أجل التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لكل عضو في الفدرالية. فقط فدرالية للشعوب الأوروبية هي اليوم لا تزال قادرة على عبور المنافسات العدائية بين الجماعات القومية الأوروبية التي تعززها وتشجعها النزعة القومية ضيقة الأفق، والمدمرة لكل الحضارة.

الفدرالية الأوروبية هي الشرط الأولي والقاعدة الوحيدة من أجل فدرالية عالمية في المستقبل؛ التي لا يمكن بلوغها دون اتحاد عضوي بين الشعوب الأوروبية.

وما له مغزى هام جدا مصادفة أن تكون روسيا حتى الآن هي البلد الذي يعارض بشكل متحمس مثل هذا الحل. وقد أسست مجال قوة سياسية وعسكرية جديدًا في بلدان أوروبا الشرقية لتمتد فعلا على نحو أبعد في القسم الأوسط من القارة، تساهم روسيا بشكل عظيم في زيادة الانقسام الداخلي لأوروبا، الذي كان لعديد من القرون السبب الدائم لكل العداوات.

أوروبا بوضعها الجغرافي ليست قارة منفصلة مثل أفريقيا أو أمريكا أو أستراليا ولكن أوروبا هي شبه جزيرة من البر الآسيوي العظيم لا تفصلها عنه أي حدود طبيعية. لذلك نحن نعتبر الكتلة الهائلة من الأرض التي تمتد من المحيط الهادي إلى الأطلنطي وحدة جغرافية واحدة، ونسميها "أورآسيا" (***Eurasia***). ما جعل أوروبا في مخيلتنا قارة منفصلة لم تكن أسبابا جغرافية ولكنها سياسية واجتماعية. القبائل والشعوب التي هاجرت في أزمان ما قبل التاريخ من آسيا وأفريقيا إلى أوروبا تطورت تدريجيا إلى شعوب منفصلة وفيما بعد إلى أمم بعد مرورها بعدد لا حصر له من الاختلاط العرقي. في مجرى الزمن أسست حضارة مشتركة مثل هذه الروابط الروحية التي لا يمكن فهم تاريخ أي قومية أوروبية دون معرفة تاريخ الشعوب الأخرى. وهكذا تطورت حضارة أوروبية عامة، انتشرت لاحقا إلى شمال وجنوب أمريكا وإلى أستراليا وأجزاء من أفريقيا. في شرق أوروبا تأثر تطور هذه الحضارة لقرون بالمغول (***Mongol***) بينما ساد الجنوب تأثيرات عربية قوية وتأثيرات أخرى. ومع ذلك في العموم اكتسبت هذه الثقافة أو الحضارة بشكل أو بآخر سمات نمطية مع تنويعات ودرجات محلية عديدة التي هي في مجالات متعددة مختلفة جدا عن الأشكال المتنوعة للحضارات الآسيوية, إلا أنه لم يتم أبدا تدمير التجاذب الشديد في حضارة مشتركة بين الشعوب الأوروبية رغم التناقضات القومية اللاحقة.

من الممكن الرجوع بذلك إلى أسباب تاريخية متنوعة، كلها تميل إلى إحداث نفس النتائج. التوسع العظيم للإمبراطورية الرومانية على كامل القارة الأوروبية المعروفة في ذلك الوقت امتلك تأثيرا حاسما على الهيكل الثقافي للقارة الأوروبية

وجزرها المتنوعة وأرخبيلاتها. وما زال هذا التأثير موجودا في تشريع معظم الأمم الأوروبية وفي عديد من الميادين الأخرى. الميراث الروحي لليونان وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا اندمج تدريجيا في روما في حضارة تشكلت بواسطة عديد من المكونات وقد تسببت الغزوات الرومانية المتواصلة في إدخال منجزات هذا التراث المادية والروحية أينما ذهبوا. ولتحقيق هذا لم يكن الأمر صعبا للغاية حيث إن سكان أوروبا المبعثرين في ذلك الوقت هنا وهناك تكونوا لحد كبيرا من قبائل لم تستطع ظروف حياتهم البدائية توفير أي عائق جدي لصد هذا التأثير الحضاري لروما الذي امتصته الشعوب المقهورة تدريجيا. ورغم أن الغزوات التي لا حصر لها بواسطة من أطلق عليهم البرابرة في زمن الهجرات العظمى للشعوب خرَّبت وأثرت بشكل جدي على الثقافة والحضارة الرومانية فقد كان حتميا بسبب الاتصال المستمر مع العالم الروماني أن تصبح هذه القبائل وتلك الشعوب تدريجيا مطبوعة بالروح الرومانية.

إلا أنه قد مورس تأثير أكبر على التطور الروحي والثقافي لأوروبا بواسطة انتشار المسيحية في الصيغة التي قدمتها الكنيسة الكاثوليكية، متغلغلة حتى في المناطق التي لم تجتحها القطعات العسكرية الرومانية. لم تتخذ الكنيسة فقط نمط القيصرية الرومانية، لتصوغ أفكارها لصالح أغراضها الخاصة ولكنها ورثت أيضا حضارة متشعبة على نطاق واسع متمركزة لقرون في روما، لتصبح الآن قادرة على استخدامها بشكل مكثف لصالح طموحات السلطة عند الكنيسة. ما حققته الدولة الرومانية في عالم المركزية السياسية وبالمفاهيم القضائية الناتجة من ذلك، واصلت الكنيسة بأسلوبها الخاص توجيه تفكير الأوروبيين في مسارات جديدة بغرض اصطياده داخل الشبكات الدقيقة للعقائد الكهنوتية المتحجرة. لم يعد وسطاؤها المندوب السامي (***proconsul***) ووكيل (***procurator***) الإمبراطورية الرومانية ولكنهم كانوا الكهنة والرهبان الذين أدوا نفس الوظيفة، متغلغلين في أبعد المناطق. برهنت هذه السلطة الجديدة على أنها أقوى من سلطة القياصرة، التي كانت قائمة على أساس التفوق العسكري، بينما شُيِّدت سلطة الكنيسة على التأثيرات النفسية التي صالحت

البشر مع نصيبهم في هذا العالم وأقنعتهم أن مصيرهم معتمد على إرادة سلطة أعلى لا يتأتى الحصول على إحسانها سوى بوساطة من الكنيسة. وهكذا في مجرى القرون تطورت حضارة أوروبا المسيحية لتنتج بين شعوب القارة تماثلاً لا يمكن إنكاره في الطموحات، ولتقربهم من بعضهم البعض في أفكارهم وتصرفاتهم.

الجماعة الإيمانية هذه، غير المحدودة بالحدود السياسية تسببت في فترات لاحقة عند ظهور التيارات والحركات المعارضة لسلطة الكنيسة والحكام العلمانيين، أن هذه الطموحات الجديدة أيضا استلهمت أفكارًا مماثلة وذات صلة. أنتجت الأفكار التمهيدية نفسها في كل مكان نفس بذور التفكير وأدت بانتظام مدهش إلى نفس النتائج. الاختلافات التي ظهرت كانت مجرد اختلافات في الدرجة، بسبب الأحوال المحلية، ولكن العلاقة الأساسية لا يمكن إنكارها. ورغم أن الثقافة الأوروبية هي واحدة من أكثر المنتجات التي خلقها الإنسان تعقيدا، الوحدانية الروحية لطبيعتها لا يمكن الخطأ فيها في أي فترة من فترات تاريخ أوروبا الثقافي. كل حدث مهم مُسجّل في أي بلد أوروبي كان له دائما انعكاسه بقوة أكثر أو أقل في كل البلدان الأخرى، وهذا ما يجعل تسلسل تعاقب الأحداث الأكثر عمقا أكثر معقولية.

كل التيارات الفكرية العظمى التي أثرت بشكل مؤقت أو بشكل دائم على أفكار ومشاعر شعوب القارة كانت أوروبية ولم تكن ظواهر قومية. حتى مفهوم القومية نفسه لم يكن استثناءً، حيث إنه قد تطور في كل الأنحاء في فترة محددة من تاريخ أوروبا من نفس الدوافع والمقدمات التمهيدية. كل التبديات في عالم الفكر الديني أو الفلسفي، وأي تفسير جديد متعلق بمغزى الأنماط السياسية والاجتماعية للحياة، وأي تغير هام في مجال الاحتمالات الاقتصادية وكل مفهوم جمالي جديد في مجال الفن والأدب، وكل تقدم في العلم وكل مرحلة جديدة في فهم الظواهر الطبيعية وكل الحركات الشعبية الكبيرة وصعود وأفول تيارات الفكر الثورية والرجعية - انعكس كل ذلك في كامل المدار الثقافي الذي ننتمي إليه، والذي لا نستطيع الفرار منه. الإجراءات الخارجية لهذه التبديات ليست متشابهة تماما في كل الأنحاء، وبسبب

واليوم لا ينطبق على هذه الحالة شيء أكثر من كلمات المـؤرخ الفرنـسي "إدجـار كينيه" (*Edgar Quinet*)(•): "لن ترتفع الشعوب إلى ذُرًا أعظم قبل أن تـدرك كـاملا عمق انحطاطها".

رودولف روكر

مايو، ١٨٤٦، نيويورك، كرومبوند

(•) المؤرخ والمفكر الفرنسي– إدجار كينيه (١٨٠٣–١٨٧٥). معارض سياسي ومشارك في ثـورة ١٨٤٨ ومدفون في مونبارناس. [المترجم]

قائمة المراجع

- معظم الأعمال المذكورة آنفا داخل سطور النص أو في الحواشي السفلية، غير مذكورة هنا.
- طبعات أعمال "باكونين" المنشورة بالفرنسية فـي (*Oeutres de M. Bakounine, 1896-1914, 7 vol.*)؛ وبالألمانية في (*Michael Bakunins Gesammelte Werke, 1923-25, 3 vol.*)؛ وبالإسبانية فـي (*Obras completas de Miguel Bakunin*). تحتـوي الطبعـة الإسبانية أيضا على عمله باللغة الروسية ("*Etatism and Anarchy*") الذي لم يترجم من قبل إلى أي لغة أوروبية أخرى.

◊ Adams, John: Defense of the Constitution and Government of the United States, 1787.

◊ Adler, Georg: Geschichte des Sozialismus und Kommunismus von Plato bis zur Gegenwart, 1899.

◊ Andrews Stephen Pearl: The Science of Society, 1851.

◊ Aristotle: Politics.

◊ Arnould, Arthur: L'etat et la revolution 1877.

◊ Aulard, A.: La societe des Jacobins, 1889.

◊ Baird, C. W.: History of the Rise of the Huguenots, 1880.

◊ Bakunin, Michael: Federalism, socialism et antitheologism. M. Nettlau, 1895. Lettres a un Francois sur la crise actuelle, 1870. Empire knouto-germanique et la révolution sociale, 1871. La theologie politique de Mazzini et l'Internationale, 1871. God and the State (the only English translation of Bakunin's works by Benjamin Tucker), 1883.

◊ Bailing, Lord: The Life of Lord Palmerston, 1870.

◊ Balabanova, A.: Wesen und Werdegang des italienischen Fascismus 1931

◊ Barker, E.: The Political Thought of Plato and Aristotle, 1906.

◊ Barthelemy, C: Vesfrit de Josefh de Maistre, 1859.

◊ Bauer, Otto: die nationalitätenfrage und die sozialdemokratie, 1907.

◊ Beard, Charles A.: Economic Origins of Jefersonian Democracy, 191 5.

◊ Beer, Max: Allgemeine Geschichte des Sozialismus und der sozialen Kampfe, 1929.

◊ Bentham, Jeremy: Introduction to the Principles of Morals and Legislation, 1789.

◊ Berens, L. H.: The Digger Movement in the Days of the Commonwealth: as Revealed in the Writings of Gerrard Winstanley, the Digger, Mystic, Rationalist, Communist and Social Reformer, 1906.

◊ Berger, M.: Gorres als politisch Publizist, 192 I.

◊ Berkman, Alexander: The Bolshevist Myth, 1925.

◊ Bernstein, E.: Die Voraussetzungen des Sozialismus und die Aufgaben der Sozialdemokratie, 1899. Zur Geschichte und Theorie des Sozialismus, 1900. Die deutsche Revolution, 1921.

◊ Bismarck, Otto von: Gedanken und Erinnerungen, 1898.

◊ Bisset, Andrew: Omitted Chapters of the History of England, 1864.

◊ Blanc, Louis: Histoire de dix ans: 1830-40, 1841. Histoire de la revolution francaise, 1847-1862. Histoire de la revolution de 1848, 1870-80.

◊ Blanqui, August: Critique sociale, 1885.

◊ Boetie, Etienne de: De la servitude volontaire, 1577.

◊ Bonald, Louis: Recherches philosophiques sur les premier objects de connaissance morales, 1818.

◊ Bonaparte, Louis: Idees napoleoniennes, 1839.

◊ Borghi, Armando: L'Italia: Era due Crispi, 1924. Mussolini Red and Black, 1935.

◊ Bourne, H. R. Fox: The Life of John Locke, 1876,

◊ Brun, Charles: Le Regionalisme, 1911.

◊ Buckle, Th. H.: History of Civilization in England, 1885.

◊ Buonarroti, Ph. M.: Conspiration pour l'egalite, dite de Babeuf, 1828.

◊ Burdach, K.: Reformation, Renaissance, Humanism, 1918.

◊ Burke, Edmund: A Vindication of Natural Society, 1756. Reflections on the Revolution in France, 1790. A Letter to a Noble Lord, 1796. Thoughts on a Regicide Peace, 1796.

◊ Burkhardt, Jakob: Die Kultur der Renaissance, 1860. Die Geschichte der Renaissance, 1867. Qriechische Kultur geschichte, 1898-1900.

◊ Campbell, Douglas: The Puritan in Holland, England and America, 1892.

◊ Carlyle, Thomas: On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History, 1846. Letters and Speeches of Oliver Cromwell, 184 5.

◊ Chamberlain, H. St.: Die Grundlagen des IG Jahrhunderts, 1899.

◊ Chaptal, Jean A. Claude de: De I'industrie francaise, 1829.

◊ Chateaubriand, F. Rene: Genie du christianisme, 1802.

◊ Chelcicky, Peter: Das Netz des Glaubens. German translation from the old Czech original by Carl Vogl, 1925.

◊ Classen, J.: Franz von Baaders Gedanken über Staat und Gesellschaft, 1890.

◊ Clausewitz, Carl von: Vom Kriege, 1880, 4th ed.

◊ Clement Mme.: Histoire de Colbert et son administration, 1892, 3rd ed.

◊ Coerderoy, E.: De la revolution dans l'homme et dans la societe, 1852.

◊ Condorcet, M. J.: Esquisse d'un tableau historique de progres de les fruit humain, 1823, 4th ed.

◊ Considerant Victor: Destinee sociale, 1837-1844. Principes du socialism Manifeste de la democratie du XlXme siecle, 1844. Le socialisme devant le vieux monde, 1848, 2nd ed.

◊ Conway, M. D.: The Life of Thomas Paine, 1892.

◊ Cornelissen, Ch.: La evolucion de la sociedad moderna, 1934.

◊ Costa, Joaquin: Colectivismo agrario en Espana: Doctrina y hechos, 1898.

◊ Cunow, Heinrich: Die soziale Verfassung des Inkareiches, 1895. Die Marxsche Geschichts-Gesellschafts- und Staatstheorie, 1920-21.

◊ Curtius, Ernst: Die Jonier vor der jonischen Wanderung, 1855 Geschichte Griechenlands, 1857-67.

◊ De Greef, G.: Revolution des croyances et des doctrines politiques 1895.

◊ Dehio, Georg: Geschichte der deutschen Kunst, 1919-24.

◊ De Man, Hendrik: Zur Psychologie des Sozialismus, 1927. Sozialismus und National-Fascismus, 1931.

◊ Dhorme, P.: La religion Assyro-Babylonienne, 1910.

◊ Diderot, Denis: Oeuvres completes, 1829.

◊ Diercks, Gustav: Geschichte Spaniens, 1895.

◊ Dragomanow, M.: Michael Bakunins sozialpolitischer Briefzvechsel mit A. Herzen und N. P. Ogarew, 1895. La Pologne historique et la democratie Tnoscovite, 18 81.

◊ Emerson, Ralph Waldo: Essays: Second Series, 1844. Representative Men, 1850. Journals of Ralfh Waldo Emerson, 1909-14.

◊ Engels, Friedrich: Herrn Eugen Duhrings Umzvalzung der Wissenschaft, 1877, Der Ursfrung der Familie, des Privateigentums und des Staates, 1884. Ludwig Feuerbach und der Ausgang der klassisch-deutschen Philosophie, 1888.

◊ Englander, S.: The Abolition of the State, 1873.

◊ Ewald, A. C: Life and Times of Algernon Sidney, 1873.

◊ Fabbri, Luce: Camisas negras, 1935.

◊ Fabbri, Luigi: Carlo Pisacane, 1904. Dittatura e rivoluzione, 1921.

◊ Ferrari, G.: La filosofia delta rivoluzione, 1851. La federazione republicane, 1851.

◊ Feuerbach, L.: Das Wesen des Christentums, 1841. Das Wesen der Religion, 1845.

◊ Fourier, Charles: Traite de Passociation domestique-agricole, 1822-23. Le nouveau monde industriel et societaire, 1830.

◊ Frantz, Constantin: Kritik aller Parteien, 1862. Das neue Deutschland, 1871. Der Federalismus, 1879.

◊ Friedlander, L.: Darstellungen aus der Sittengeschichte Romas, 1869.

◊ Galton, Sir Francis: Hereditary Genius, Its Laws and Consequences, 1869.

◊ Garrido, Fernando: Historia de las asociaciones obreras en Europa, 1864. La Espana contemporanea, 1865. Historia del reinado del ultimo Borbon en Esfaiia, I 869. La revolucion en la hacienda del estado, de la provincia y del municipio, 1870.

◊ Geffroy, Gustave: L'enferme, 1897.

◊ Gentz, Friedrich von: über den Ursprung und Charakter des Krieges gegen die französische Revolution, 1801.

◊ Gibbon, Edward: The Decline and Fall of the Roman Empire, 1776-88. (Bury edition, 1896-1900.)

◊ Gille, Paul: Esquisse d'une philosophie de la dignite humaine, 1924.

◊ Gobineau, Arthur de: Essai sur l'inegalite des races humaines, 1853-55.

◊ Godwin, William: An Enquiry Concerning Political Justice and Its Influence Upon

General Virtue and Happiness, 1793

◊ Goldman, Emma: My Disillusionment in Russia, 1923.

◊ Gorres, Joseph: Teutschland und die Revolution, 1819. Die Heilige Allianz und die Volker auf dem Kongress zu Verona, 1822.

◊ Grote, George: History of Greece, 1846-56.

◊ Guillaume, James: L'Internationale: Documents et souvenirs, 1905-10. Karl Marx: Pangermaniste, 1915.

◊ Gumplowicz, L.: Der Rassenkampf: Soziologische Untersuchungen, 1883. Die soziologische Staatsidee, 1892. Soziologie und Politik, 1892.

◊ Gurlitt, C: Geschichte des Barockstils, des Rokoko und des Klassizismus, 1886-89.

◊ Guyau, Jean-Marie: Esquisse d'une Morale sans obligation ni sanction, 1885. L'irreligion de I'avenir: Etude sociologique, 1887.

◊ Harper, R. F.: The Code of Hammurabi, King of Babylonia, 1904.

◊ Hajn, Rudolf: Hegel und seine Zeit, 1857.

◊ Herder nach seinem Leben und seinen Werken, 1880-85.

◊ Hegel, Karl: Geschichte der Städteverfassung in Italien, 1847. Die Entwicklung des deutschen Studte wesens, 1898. Stadte und Gilden der germanischen Volkes im Mittelalter, 1891.

◊ Hegel, W. G.: Vorlesungen ilber die Philosophie der Geschichte; 1832.

◊ Herder, J. G.: Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit, 1784-91. Briefe zur Beförderung der Humanitat, 1794.

◊ Hess, Moses: Rom und Jerusalem, 1862.

◊ Hinojosa, Eduardo: El origin del regimen municipal en Castillo y Leon, 1919.

◊ Hitler, Adolf: Mein Kampf, 1925-27.

◊ Hobbes, Thomas: Leviathan, 1655.

◊ Hodde, L. de la: Histoire des societes secretes, 1867.

◊ Hooker, Richard: The Laws of Ecclesiastical Polity, 1593-94; new edition, 1907.

◊ Humboldt, Wilhelm von: Ideen zu einem Versuch die Grenzen der Wirksamkeit des Staates zu bestimmen, 1792. (First published in 1851 after the death of the author".)

◊ Jefferson, Thomas: Memoirs and Correspondence, 1829.

◊ Joli, H.: Ignace de Loyola, 1899.

◊ Kautsky, Karl: Nationalität und Internationalität, 1908. Der Weg zur Macht, 1909. Die Befreiung der Nationen, 1918. Die Diktatur des Proletariats, 1918. Terrorismus und Kommunismus, 1920. Materialistische Geschichtsauffassung, 1927.

◊ Kegan, Paul C: William Godwin, His Friends and Contemporaries, 1876.

◊ Kowalewski, M.: Die ökonomische Entwicklung Europas bis zum. Beginn der kapitalistischen Wirtschaftsform, 1901-05. La France economique et sociale a la veille de la revolution, 1908.

◊ Kropotkin, Peter: The State: Its Role in History, 1898. Fields, Factories and Workshop, 1899. Mutual Aid: A Factor of Evolution, 1902. The Great French Revolution, 1909. La science moderne et Panarchie, 1913. The Modern State, 1912. Ethics: Origin and Development, 1924.

◊ Kulczycki, L.: Geschichte der revolutionaren Bewegung in Russland, 1910.

◊ Labriola, Antonio: Saggi della concezione materialistica della storia, 1902.

◊ Landauer, Gustav: Die Revolution, 1907. Briefe aus der franzósischen Revolution, 1919.

◊ Lange, Albert: Geschichte des Materialismus und Kritik seiner Bedeutung, 1866.

◊ Laski, H, J. H.: Grammar of Politics, 1925.

◊ Lassalle, F.: Die Philosophie Fichtes und die Bedeutung des deutschen Volksgeistes, 1862. Uler Verfassungstvesen, 1862. Der italienische Krieg und die Aufgabe Preussens, 1859.

◊ Lazare, Bernard: Anti-Semitism: Its History and Causes, 1903.

◊ Lecky, E. H.: History of European Morals, 1869. History of Rationalism in Europe, 1869. Democracy and Liberty, 1896.

◊ Lefrangais, G.: La Commune et la revolution, 1896.

◊ Lehmann-Russbueldt, O.: Die blutige Internationale der Rüstungsindustrie, 1929, Der Krieg als Ge so haft, 1932.

◊ Leneru, M.: Saint Just, 1922.

◊ Lenin, N.: The State and Revolution, 1917. The Proletarian Revolution and Kautsky, the Renegade, 1920. Will the Bolsheviks Maintain Power? 1922.

◊ Leseine, V.: L'influence de Hegel sur Marx, 1907.

◊ Lessing, G. E.: Die Erziehung des Menschengeschlechtes, 1780. Ernst und Falk, 1778-80. Soldaten und M'onche, 1780.

◊ Letourneau, Ch.: Revolution de L'esclavage dans les diverses races humaines, 1892. L'evolution religieuse dans les diver ses races humaines, 1892.

◊ Leverdays, E.: Les assemblies parlantes: Critique du gouvernement representatif, 1883.

◊ Lissagaray, P. O.: History of the Commune of iSji, 1898.

◊ Locke, John: Essay Concerning Human Understanding, 1690. Letters on Toleration, 1682-90. Treatise on Civil Government, 1690.

◊ Luce, Simeon: Histoire de la Jacquerie, 1895.

◊ Luchaire, A.: Innocent III, la croisade des Albigeois, 1905.

◊ Lundin, A. G.: Influence of J. Bentham on English Democratic Develofment, 1920.

◊ Luschan, Felix: Volker Rassen und Sprachen, 1922.

◊ Luxemburg, Rosa: Die russische Revolution, 1922.

◊ Machiavelli, N.: The Prince, 1532. Burd ed., 1891.

◊ Macpherson, J.: Church History, 1888.

◊ Maistre, Joseph de: Du Pape, 1817. Soirees de St. Petersburg, 1821.

◊ Marat, J. P.: The Chains of Slavery 1774.

◊ Marlyn, Carlos: Wendell Phillip the Agitator, 1890.

◊ Marx, Karl: Zur Kritik der politischen Ökonomie, 1859. Das Kapital, 1867. Vol. I.

◊ Marx and Engels: Die heilige Familie oder Kritik zur kritischen Kritik gegen Bruno Bauer und Konsorten, 1845. Das kommunistische Manifest, 1847. briefwechsel zwischen K. Marx und F. Engels, 1913.

◊ Masaryk, Th. G.: Die philosophischen und soziologischen Grundlagen des Marxismus, 1899. The Sprit of Russia, 1919.

◊ Masters, Edgar Lee: Lincoln the Man, 1931.

◊ Mathiez, A.: etudes robespierristes, 1897 and 1918. Les Origines des cultes revolutionaires, 1904.

◊ Mauthner, Fritz: Beitrage zu einer Kritik der Sfrache, 1901-02. Die Sprache, 1906. Der Atheismus und seine Geschichte im Abendlande, 1921-23.

◊ Meaux, Alfred: Les luttes religieuses en France au XÈme Siècle, 1879.

◊ Mehring, Franz: Die Geschichte der deutschen Sozialdemokratie, 1897. Karl Marx: Geschichte seines Lebens, 1918.

◊ Melegari, Dora: La giovine Italia e Giuseppe Mazzini, 1906.

◊ Merriam, C. Edward: A History of American Political Theories, 1903

◊ Merx, O.: Thomas Munzer und Heinrich Pfeifer, 1889.

◊ Meyer, Gustav: Friedrich Engels, 1920. Vol. L Bismarck and Las saile, 1930.

◊ Michels, Robert: Political Parties, 1915. Sozialismus und Fascismus in Italien, 1925.

◊ Mill, John Stuart: Essay on Liberty, 1859. Considerations on Repesentative Government, 1861.

◊ Mommsen, Th.: Romische Geschichte, 1854-56.

◊ Montesquieu, Ch. L.: Lettres persanes, 1721. Esprit des lois, 1748.

◊ Mosley, Oswald: The Greater Britain, 1934.

◊ Muhlenbeck, E.: ttude sur les origines de la Saint-Alliance, 1885.

◊ Miiller, Max: Science of Thought, 1887.

◊ Munoz, Romero: Coleccion de fueros municiples y cartas peblas, 1881

◊ Mussolini, Benito: My Autobiography, 1928.

◊ Muther, Richard: Geschichte der Malerei, 1909.

◊ Myers, G.: History of Canadian Wealth, 1914.

◊ Nearing, Scott: Oil and the Germs of War, 1916.

◊ Nearing, Scott and J. Freeman: Dollar Diplomacy, 1925.

◊ Nettlau, Max: Michael Bakunin: Fine Biographie, 1896-1900. Der Vorfruhling der Anarchie, 1925.

◊ Nettlau, Max: Miguel Bakunin, la Internacional y la Alianza en Espana, 1925. Der Anarchismus von Proudhon zu Kropotkin, 1927. Bakunin e l' Internationale in Italia dal 1864 al 18/2, 1928. Documentos ineditos sobre la Internacional y la Alianza en Espana, 1930. Anarchisten und Sozial-Revolutionare, 193 I. Errico Malatesta: Das Leben eines Anarchisten, 1922. Eliseo Reclus: La vida de un sabio justo y rebelde, 1929. Bibliographie de Panarchie, 1897.

◊ Newbold, Walton J. T.: How Europe Armed for War, 1916.

◊ Nieuwenhuis, Domela F.: Le socialisme en danger, 1897.

◊ Nomad, Max: Rebels and Renegades, 1932.

◊ Nordau, Max: The Interpretation of History, 1910.

◊ Olveira, J. P,: Historia de la civilizacion Iberica, 1894.

◊ Onken, W.: Die Staatslehre des Aristoteles, 1870.

◊ Oppenheimer, Franz: Moderne Geschichtsfhilosofhie, 1909. Die soziale Frage und der Sozialismus, 1912. System der Soziologie, 1922-29.

◊ Orsi, P.: Cavour and the Making of Modern Italy, 1926, new ed.

◊ Paine, Thomas: Common Sense, 1776. The Rights of Man., 1792. The Age of Reason, 1794-1807.

◊ Pater, W. H.: Studies in the History of the Renaissance, 1873.

◊ Pellarin, Ch.: Charles Fourier: sa vie et sa theorie, 1872.

◊ Pero, Mejia: Comunidades de Castillo.

◊ Pi y Margall, Francisco: La reaccion y la revolucion, 1854. Las nacionalidades, 1876. La federacion, 1880.

◊ Pilsudski, Joseph: The Memories of a Polish Revolutionary and Soldier, 1931.

◊ Piron, G.: Les doctrines economiques en France defui, 1925.

◊ Pisacane, Carlo: La rivoluzione, 1860.

◊ Plato: The State.

◊ Pohlenz, M.: Staatsgedanke und Staatslehre der Griechen, 1923.

◊ Prescott, W.: History of the Conquest of Mexico, 1843. The Conquest of Peru, 1846.

◊ Price, Richard: Observations on the Nature of Civil Liberty and the Justice and Policy of the War With America, 1776.

◊ Proudhon, J. P.: De la creation de l'ordre dans l'humanite, ou principes d'organisation politique, 1848. Idee generale de la revolution aux XlXme Sicele, 185l. Philosophie du progres, 1853. De la justice dans la revolution et dans l'eglise, 1858. La guerre et la paix, 1861. La federation et l'unite en Italie, 1862. Du principe federatif et la necessite de reconstituer le parti de la revolution, 1863. Nouvelles observations sur l'unite italienne, 1865.

◊ Proudhon, J. P.: De la capacite politique des classes ouvrieres, 1865. Correspondance de P. J. Proudhon, 1875.

◊ Quinet, Edgar: Les revolutions d'ltalie, 1848-52. La revolution, 1865. L'esprit nouveau, 1870-74.

◊ Ranke, Leopold: Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation, 1839-47. Die romischen Papste, ihre Kirche und ihre Staat im Jahrhundert 16, 1834-36.

◊ Reclus, Elie: Les primitifs, 1903.

◊ Reclus, Elisee: l'homme et la terre, 1905-08. Revolution, la revolution et L'ideal anarchique, 1897.

◊ Riley, I. Woodbridge: American Philosophy: The Early Schools, 1907.

◊ Rittingshausen, M": Die direkte Gesetzgebung durch das Volk, 1868.

◊ Robinet, J. B.: Danton, homme d'etat, 1889.

◊ Rogers, J. E. Thorold: A History of Agriculture and Prices in England, 1866-1902. Six Centuries of Work and Wages, 1884. Economic Interpretation of History, 1888.

◊ Rosenberg, Alfred: Der Mythus des 20. Jahrhunderts, 1930.

◊ Rosselli, N.: Mazzini e Bakunin, 1927.

◊ Rostovtzieff, M. I.: Social and Economic History of Rome, 1926.

◊ Rousseau, J. J.: The Social Contract, 1762.

◊ Russell, Bertrand: Roads to Freedom, 1920.

◊ Russell, C. E.: Story of Wendell Phillip: Soldier of the Common Good, 1914.

◊ Sachs, Emanie: The Terrible Siren, 1928.

◊ Sacken, E. von: Katechismus der Baustile, 1907.

◊ St. Augustine: The Confessions of St. Augustine. Der Gottesstaat.

◊ Saint-Simon, Henri de: Reorganisation de la societe europeenne, 1814. Du systeme industriel, 1821. Le nouveau christianisme, 1825.

◊ Salvemini, G.: The History of the Fascist Dictatorship in Italy, 1927.

◊ Sandoval, P.: Historia del emperador Carlos V, 1614, new ed., 1864.

◊ Sayce, A. H.: Religions of Ancient Egypt and Babylonia, 1902.

◊ Schubert-Soldern, Victor: Die Borgia und ihre Zeit, 1902.

◊ Schulemann, G.: Die Geschichte der Dalailamas, 191 1.

◊ Schuster, F. M.: Native American Anarchism, 1932.

◊ Sidney, Algernon: Discourses Concerning Government, 1763.

◊ Simpson, F. M.: A History of Architectural Development, 1905-11.

◊ Sismondi, J. Ch.: Histoire des republiques italiennes du moyen age, 1817. Histoire de la renaissance et de la liberte en Italie, 1832.

◊ Smith, Adam: The Theory of Moral Sentiments, 1759.

◊ Enquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations, 1776.

◊ Sorel, Albert: L'Europe et la revolution frangaise, 1903-05.

◊ Sorel, George: Reflexions sur la violence, 1909. La decomposition du marxisme, 1908. Les illusions du progres, 1911, new ed.

◊ Spencer, Herbert: Social Statics: or, the Conditions essential to Human Happiness specified and the first of them developed, 185I. The Individual versus the State, 1884,

◊ Spengler, Oswald: Der untergang ies Abendlandes, 1918-22.

◊ Spirito, Ugo: Capitalismo e corporatismo, 1933.

◊ Spooner, Lysander: Natural Law or the Science of Justice, 1882.

◊ Sprading, Ch. T.: Liberty and the Great Libertarians, 1913. Freedom and Its Fundamentals, 1923.

◊ Stalin, Joseph: About the Opposition, 1928.

◊ Steinthal, H.: Der Ursprung der Sprache im-Zusammenhang mit den letzten Fragen alles Wissens, 1851.

◊ Stirner, Max: Der Einzige und sein Eigentum, 1845. Die Geschichte der Reaktion, 1852.

◊ Strasser, Vera: Psychylogie der Zusammenhunge und Begebenheiten, 1921.

◊ Strobel, H.: The German Revolution and After, 1922.

◊ Suetonius: The Lives of the Twelve Caesars, 1931.

◊ Tagore, Rabindranath: Nationalism, 1917.

◊ Taine, H.: Origines de la France contemporaine, 1875-93.

◊ La philosophie de Part, 1881.

◊ Tchernoff, J.: Le farti republiquain au coup d' etat et sous le second empire, 1906.

◊ Thierry, Augustin: Considerations sur l'histoire de France, 1827. Recueil des monuments inedits de l'histoire de Tier Etat, 1850-70.

◊ Thoreau, D. H.: On the Duty of Civil Disobedience (first published under the title: Resistance to Civil Government), 1849. Life Without Principle, 1863.

◊ Tivaroni, C: Storia critica del risorgitnento italiano, 1892-94.

◊ Tocqueville, A.: De la democratie en Amerique, 1839-40.

◊ Tolstoy, Leo: A Short Exposition of the Gospels, 1890. Church and State, and Other Essays, 1991.

The Slavery of our Time, 1900. War, 1892.

◊ Toulmin-Smith: English Guilds, 1870. Local Self-Government, 1851.

◊ Traumann, Rudolf: Die Monarchomachen, 1895.

◊ Trotsky, Leon: Defence of Terrorism, 1920. Dictatorship versus Democracy, 1922. Lenin, 1925. The Perfnanent Revolution, 1931.

◊ Tucker, Benjamin R.: Instead of a Book, 1893.

◊ Ular, Alexander: Die Politik, 1906. L'empire chinois-russe, 1904.

◊ Urales,-F.: La evolucion de la filosofia en Espana, 1909.

◊ Vera y Gonzalez, E.: Pi y Margall y la politica contemporanea, 1886.

◊ Vogl, Carl: Peter Chelcicky, ein Prophet an der Wende der Zeiten, 1922.

◊ Voltaire: Traite sur la tolerance, 1763.

◊ Waddell, L. A.: The Buddhism of Tibet, 1895.

◊ Wagner, Richard: Kunst und Revolution, 1849. Das Kunstzverk der Zukunft, 1850.

◊ Warren, Josiah: True Civilization: A Subject of Vital and Serious Interest to All People, but Most Immediately to the Men and Women of Labor and Sorrow, 1863.

◊ Watson, John: Comte, Mill and Spencer, 1895.

◊ Wellers, E.: Die Freiheitsbestrebungen der Deutschem im. 18. und 19. Jahrhundert dargestellt in Zeugnissen ihrer Literatur, 1847.

◊ Whipple, Leon: The Story of Civil Liberty in the United States, 1927.

◊ Wilda, W. C.: Das Gildenwesen im Mittelalter, 1831.

◊ Wilde, Oscar: The Soul of Man Under Socialism, 1891.

◊ Young, Arthur: Travels in France During the Years, 1788,, 1794.

◊ Zancada, P.: El obrero en Espana, 1902.

◊ Zimmermann, W.: allgemeine Geschichte des grossen deutschen Bauernkriege 1856.

المؤلف فى سطور:

(١٨٧٣-١٩٥٨)

رودولف روكر

- ولد فى ٢٥ مارس ١٨٧٣ بماينز فى ألمانيا وتوفى فى ١٩سبتمبر ١٩٥٨ بنيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولد "روكر" فى ماينز ببلاد الراين الألمانية لعائلة كاثوليكية من العمال المهرة ذات أفكار ليبرالية. توفى والده ووالدته صغيرا, وتم إرساله إلى دار أيتام كاثوليكية. تعلم كصبى فى حرفة تجليد الكتب، ومارسها متجولاً لسنوات عدة، أصبح اشتراكيًا فى شبابه والتحق بالحزب الديموقراطى الاشتراكى الألمانى ولكنه دعم جماعة "الفتية" (DieJungen) اليسارية المعارضة داخل الحزب مما أدى لطرده عام ١٨٩٠١، وبعدها تحرك سريعًا نحو الأناركية.

زار "روكر" نواحى عديدة من أوروبا الغربية وراء حرفته واهتماماته السياسية. تابع بشغف المؤتمر الثانى للدولة الاشتراكية (الثانية) فى بروكسل عام ١٨٩١، وبدأ المساهمة فى الصحافة الأناركية من عام ١٨٩٢.

فى ١٨٩٨ أصبح محرر صحيفة الكلمة الحرة (Dos Fraye Vort)، وهى صحيفة أسبوعية باللغة اليديشية فى ليدز، التى استمرت لعدة أسابيع قليلة، ومن ثم أصبح محرر صحيفة "صديق العامل" (Der Arbeiter Fraint) .

أمضى روكر عشرين عامًا من حياته شخصية قيادية فى مجتمع الموهيجان بمنطقة كرومبوند فى نيويورك، وكان الأناركى الأشهر فى البلاد كلها حتى وفاته.

كان روكر متحدثًا وكاتبًا غزير الإنتاج باللغتين اليديشية والألمانية، وأنتج العديد من المقالات والمنشورات والكتب – خصوصًا الدراسة التحررية للصدام بين الثقافة

والقومية وسيرة حياة يوهان موست (Johann Most) وماكس نيتلاو (Max Nettlau) وسيرة ذاتية طويلة. تم ترجمة العديد من أعماله إلى الإسبانية وانتشر تداولها بشكل واسع فى أمريكا اللاتينية، ولكن الكثير منها لم يظهر بالإنجليزية. فقط ثلاثة كتب غير قليل من المنشورات تم نشرها فى الولايات المتحدة – الدراسة الطموحة "القومية الثقافة" (١٩٣٧) ومقالة فى النقد الأدبى تُسمى "الستة" (The Six) عام ١٩٣٨، ومسح شعبى "لرواد الحرية الأمريكية" (Pioneers of American Freedom) عام ١٩٤٩. تم ترجمة بعض الأعمال الأخرى إلى الإنجليزية ولكنها لم تُنشْر فى بريطانيا– المسح الجماهيرى للسينديكالية الأناركية (١٩٣٨) وقسم من سيرته الذاتية الذى يغطى "سنوات لندن" (The London Years) عام ١٩٥٦. بعض الأعمال الأخرى تم ترجمتها إلى الإنجليزية ولكن لم تُنشْر – خصوصًا كتابه خلف الأسلاك الشائكة والقضبان، وهو عمل يتحدث عن اعتقاله خلال الحرب العالمية الأولى.

المترجم فى سطور:

أحمد زكي أحمد

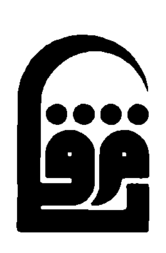
طبيب وباحث ومترجم.

من أهم أعماله:

- ترجمة: "إصلاح حقيقي لقطاع الرعاية الصحية، مرشدك للإنصاف وتحسين الأداء"، ٢٠٠٩ . تأليف: مارك روبرتس وآخرون المركز القومي للترجمة بمصر.
- تأليف: "الأناركية، المدرسة الثورية التي عرفتنا"، دار الخماسين، يناير ٢٠١١.
- تأليف: "تقرير صحة المراهقين في مصر: تحليل الوضع والاستجابات"،٢٠١٢. وزارة الصحة المصرية، مكتب شرق المتوسط منظمة الصحة العالمية.
- تأليف: "هيكل أجور عادل للفريق الصحي في مصر"، ٢٠١٣ المبادرة المصرية للحقوق الفردية.
- ترجمة: " أرواح في خطر، الصحة العامة في مصر إبان القرن التاسع عشر"، ٢٠١٤. تأليف لافرن كونكه، دار الكتب والوثائق القومية مصر.
- ترجمة: "امتياز بثمن مقبول، قصة النظام الصحي في سنغافورة، كيف تبني وتدير نظام صحي مستدام"، ٢٠١٤، تأليف وليام أ.هاسلتاين، منظمة جلوبال أكسس.
- ترجمة: "الحقيقة والأكاذيب في مجال الصحة العامة، ماذا يصيبنا عندما يصطدم العلم بالسياسة"، ٢٠١٥. تأليف: ماديلون لوبين فينكل وآخرون، المركز القومي للترجمة بمصر.

- ترجمة:"قانون دولي للرعاية الصحية؛ التضامن والعدالة في مجال الرعاية الصحية"، تأليف: إيه بي دن إكستر وآخرون. المركز القــومي للترجمــة بمصر.
- ترجمة: "الدَيْن، الخمسة آلاف سنة الأولى"، ٢٠١٥. تألِيف: ديفيد جريبر، المركز القومي للترجمة (تحت الطبع).

الإشـــراف اللغــوى: عثمـــان الـــدلنجاوى
الإشـــراف الفنـــى: حــــــسن كامــــــل





NATIONALISM
AND CULTURE
By Rudolf Rocker

يرجع تاريخ الفكرة التي يعبر عنها كتاب "القومية والثقافة" إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما كان "روكر" ناشطا في حركة العمال النقابية ويعيش في شرق لندن. نُشرَت أجزاء من هذا الكتاب على مدى سنوات في عديد من المقالات والمحاضرات. بدأ "روكر" العمل على هذا الكتاب نحو عام 1925، عندما عاد للعمل في موطنه ألمانيا. في البداية، كانت خطته فقط وضع كتاب صغير عن القومية ولكن عبر السنوات، زادت المادة التي جمعها للكتابة. في ذلك الوقت، وأخذ الأمر يختلط على روكر أكثر فأكثر، حين انتشرت النزعة القومية في أنحاء ألمانيا. وتصاعدت هذه الموجة وبلغت أوجها بمجيء الحزب النازي تحت قيادة هتلر إلى السلطة عام 1933. وفي الأثناء نفسها، أخذت تخبو حركة اتحاد نقابات العمال الأحرار الألمانية، وهي النقابة التي كان ينشط "روكر" من خلالها.

وقد أصبح كتاب "القومية والثقافة" واحدا من الأعمال الأناركية الأكاديمية، القليلة جدا، التي يستخدمها أساتذة الجامعة؛ يدعو العديد من الأساتذة الأمريكيين طلبتهم لقراءته من أجل النقاش حول القومية.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن